

مكتبة الدراسات الأدبية

٢٩

الدكتور محمد مصطفى هدارة

اتجاهات الشعر العربي

في القرن الثاني الهجري



دارالمحراف

اتجاهات الشعر العربيّ

في القرن الثاني الهجريّ

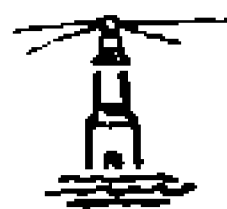
مكتبة الدراسات الأدبية

٢٩

اتجاهات الشعر العربي

في القرن الثاني الهجري

الدكتور محمد مصطفى هدارة



دارالمعارف

١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

الإهداء

إلى الروح الطاهر في عليائه

أهدى هذه الصفحات . . .
كان يرقبها في حياته أملا
تحقق بعد أن صعد إلى السماء
إلى روح أبي . .

تمهيد

- أهمية موضوع البحث وصلى به .
- نتائجه الجديدة .
- جهود الباحثين المحدثين .
- سبب تحديد البحث بالقرن الثاني .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

تمهيد

حين فرغت من تقديم رسالتى التى حصلت بها على درجة الماجستير فى الآداب (١) لم يطل بى البحث والتنقيب عن موضوع يصلح لرسالة الدكتوراه ، إذ أدت بى دراستى فى النقد والأدب إلى إدراك الأهمية البالغة للقرن الثانى الهجرى فى التاريخ الطويل للأدب العربى منذ نشأ قبل الإسلام بفترة طويلة حتى يومنا هذا . وعلى الرغم من القيمة الأدبية العظيمة لهذا القرن لم يحظ بعناية الدارسين ، ولم يظفر ببعض من القيمة الفكرية ، واصطراع أدبى ومذهبي ، واحتدام بين عقلية الصحراء الساذجة وعقلية الحضارة المعقدة ، التى تعنى بالوجود واللاوجود على السواء .

وعدم وجود دراسات فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الأدب العربى ، يتبدى فى جلاء للدارسين الذين ييغون استكناه أدب تلك الفترة والإحاطة باتجاهاته ودوافعه ومراميها . أما أولئك الذين يكتفون فى دراستهم بالظواهر القرينة ، فيظنون أن أدب هذه الفترة قد قتل بحثاً لكثرة ما ترمى إلى أسماعهم من أصداء عن بشار وأبى نواس وأبى العتاهية ومن إليهم من فرسان الشعر فى القرن الثانى . وقد صدق ثون جرونباوم حين لاحظ ما لاحظته من أن العصر العباسى كان أقل عصور الشعر العربى حظاً من عناية الدارسين (٢) .

والحقيقة إن تاريخ اهتمامى بالشعر العربى فى القرن الثانى يرجع إلى أيام دراستى الجامعية الأولى حين كتبت بحثاً عن الشعر إبان الفتنة السياسية المسلحة التى حدثت

(١) كان موضوعها « مشكلة السرقات فى النقد العربى » . وقد نشرتها مكتبة الأنجلو المصرية

عام ١٩٥٨ .

(٢) شعراء عباسيون : ٩

بين الأخوين : الأمين والمأمون ، ووضعت يدي في هذا البحث على اتجاهات جديدة في شعر تلك الفترة لم يسجلها الدارسون الذين يهتمون بالأدب الرسمي ، ولا أشاروا إليها من قريب أو من بعيد . وعند ذلك الوقت وصلتني بالشعر في القرن الثاني لا تنقطع إذ أحسست أن من واجبي أن أسجل في دراسة أتقدم بها للجامعة كل اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني سواء ما كان منها جديداً أم مجدداً ، بل ما كان منها امتداداً لحياة الشعر الجاهلي الذي ظل مسيطراً على عقول بعض الشعراء أمداً طويلاً .

وإذا كانت العادة قد جرت بأن توصف البحوث العلمية ذات القيمة بأنها مبتكرة ، فإنني لست أدعي أن هذا البحث قد استفتح مغاليق أسرار كانت طي الكتمان ، ولكني أزعم أنه قد توصل إلى بعض النتائج الجديدة التي كانت الوسيلة إليها دراسة النصوص الشعرية والأسانيد التاريخية دراسة صابرة . هذا بالإضافة إلى محاولته الدراسة الشاملة للشعر العربي في فترة خصبة من الناحية الفكرية ، جذبة من ناحية الدراسات التي كتبت حولها . وما لا شك فيه أن البحث العلمي المبتكر هو في الحقيقة - وقبل كل شيء - البحث المستوعب الذي لا يتجاهل صاحبه شيئاً مما كتب قبله في موضوعه . وبغير هذا الاستيعاب العلمي الضروري لا يمكن للبحث الجديد أن يسجل في ميدان العلم خطوة التقدم التي لا بد منها ليكون بحثاً مبتكراً .

ولهذا السبب نفسه أسجل فيما يلي أهم الدراسات السابقة التي كانت بمثابة ضوء على الطريق في هذا البحث . وهذه الدراسات نوعان : قديمة وحديثة . أما القديمة فهي المراجع الأساسية التي لا بد منها للباحث في الأدب ككتاب الأغاني وكتب الطبقات وكتب التاريخ والسير وأخبار الشعراء وكتب الأدب الجامعة ، وما إلى ذلك . وهذا القسم من المراجع - إلى جانب دواوين الشعراء أنفسهم التي اهتمت بدراستها اهتماماً بالغاً - هو الذي أمدني بالمعلومات الرئيسية التي لا غنى عنها لتمثل شعر تلك الفترة التي أدرسها والوقوف على اتجاهاته والمؤثرات التي تحدد هذه الاتجاهات . وهذه المراجع - في الواقع - في غنى عن التعريف بها أو التحدث عنها . أما الدراسات الحديثة فهي التي تحتاج إلى التنويه والتقديم لأنها بمحاولتها الدراسة الجزئية لموضوع هذا البحث قد أمدتني ببعض الأفكار ، وسددتني في كثير من الآراء ،

وأخذت بيدي في متاهات هذا القرن الذي يفضل فيها الباحث إن لم يجد على الطريق هدى .

ويمكننا أن نقسم الدراسات الحديثة - التي تتصل بهذا البحث بوشيجة أو بأخرى - إلى أنواع خمسة :

١ - دراسات كتبت في تاريخ الأدب العربي بصفة عامة ، بعضها يقف عند تاريخ معين وبعضها الآخر يصل إلى العصر الحديث .

٢ - دراسات عامة في تاريخ الدولة العربية بصفة شاملة ، أو في تاريخ العصر العباسي بصفة خاصة ، وهي متنوعة الاتجاهات ، ولكنها تهتم على العموم بدراسة النواحي الحضارية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعقلية ، إما لذاتها - وهو الأغلب - وإما لتمثل صورة التطور الأدبي في عصر من عصوره ، أو في عصوره المختلفة .

٣ - دراسات متخصصة في موضوع من موضوعات الشعر العربي ، أو في اتجاه من اتجاهاته ، تتناوله في عصوره المختلفة .

٤ - دراسات قصرت نفسها على دراسة بيئة شعرية معينة دون غيرها من البيئات الأخرى .

٥ - دراسات تتناول شاعراً أو أكثر من شعراء القرن الثاني ، تحلل شعره وشخصيته وتربطه ببيئته وزمانه الذي عاش فيه في بعض الأحيان .

وإذا تسنى لي تقديم بعض نماذج هذه الدراسات فإنه لن يكون في استطاعتي تقويمها تقويماً عادلاً إذ أن ذلك يستلزم اتساعاً لا تهض به هذه المقدمة ، كما أنه من العبث أن أفعل ذلك بينما تناثرت في ثنايا بحثي آراء وأفكار أصحاب هذه الدراسات مقترنة بتعليقاتي عليها إن موافقة أو معارضة . إلا أنني مع ذلك سوف أوضح في هذه المقدمة الخطوط العامة لأهم هذه الدراسات لتتضح طريقة معالجاتي للموضوع ، وقيمة الجهد الذي بذلته في إعداده .

أما النوع الأول من الدراسات فهو لعمومه يكاد يمر بكل عصر أدبي مروراً سريعاً لا توقف فيه ولا تلبث ، فما إن يقرر الخطوط العامة البارزة لأدب أي عصر

ثم يمثل لها بنماذج من شعر شعرائه حتى يتنقل كالطائر المستوفز إلى العصر الذي يليه دون تعمق واستقصاء اتجاهات الشعر وتحليل العوامل المؤثرة فيه ، ودون العناية بنواحي التطور الدقيق الذي لابد أن يكون قد حدث فيه بفعل تغير هذه العوامل من عصر لعصر وبحكم تنقل الشعر من بيئة لأخرى ، ومن زمن لزمن . وإذا تناولنا كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجي زيدان وجدناه يضع قضايا عامة شائعة دون أن يدلل عليها . مثال ذلك حديثه العابر عن التأثير الفارسي في النهضة العلمية والأدبية^(١) . وهو إذا تناول الشعراء وضعهم في طبقات بالنسبة لصلاتهم بالخلفاء والأمراء والرؤساء والمذاهب ، ولهذا لم يؤد به هذا المنهج الطبقي إلى نتائج لها قيمة في دراسة شعر هؤلاء الشعراء^(٢) .

وإذا نظرنا إلى كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لكارل بروكلمان وجدناه يحمل إجمالاً شديداً خصائص الشعر في القرن الثاني من ناحية الشكل والمحتوى ، ثم يقسم الشعراء إلى بيئات : بغداد ، العراق ، والجزيرة الفراتية ، والجزيرة العربية والشام ، مصر ، المغرب ، الأندلس . ويتحدث عنهم بوصفهم أفراداً دون أن يربط بينهم وبين تلك البيئات ، أو بينهم وبين العصر وعوامل التأثير فيه بصفة عامة^(٣) . أما نجيب البهيتي في كتابه « تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري » فقد قسم الشعر في القرن الثاني عدة تقسيمات حاول أن يملأها بعد ذلك قسراً . مثال ذلك تقسيمه الشعر إلى ثلاث مدارس : المدرسة الشعبية العامة ، والمدرسة الشعبية الخاصة ، مدرسة المحافظين^(٤) . ودراسة الشعر في القرن الثاني تنفر من هذا التقسيم نفوراً تاماً ولا تخضع له بأية صورة لأن هذه الأنواع الثلاثة قد تتجمع في شاعر واحد ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لهذا العصر . وهكذا لو تناولنا بقية الدراسات التي كتبت في تاريخ الأدب العربي عامة – مثل كتب هوار ونلينو ونكلسون وجب وبطرس البستاني وغيرها مما رجعنا إليه في هذا البحث – لوجدنا فجوات واسعة في دراسة الشعر العربي في القرن الثاني نتيجة عدم تركيز الدراسة في هذا القرن وحده ،

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ٢٠

(٢) المصدر نفسه ٢ : ٥٦

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية : الترجمة العربية الجزء الثاني .

(٤) تاريخ الشعر العربي : ٣٣٣ وما بعدها .

والاضطرار إلى إسباغ صفة العموم على النتائج والملاحظات .

أما القسم الثاني من الدراسات التي رجعت إليها في هذا البحث فهي - كما ذكرت - متنوعة فهي إما تتحدث عن تاريخ الدولة العربية بصفة عامة ككتاب « تاريخ العرب » لفيليب حتي و « العرب والإمبراطورية العربية » لكارل بروكلمان و « تاريخ الإسلام » لحسن إبراهيم حسن و « تاريخ الدولة العربية » ليوليوس قلهوزن ، وإما أنها تركز دراستها على تاريخ العصر العباسي نفسه ككتاب « العصر العباسي الأول » لعبد العزيز الدوري . وإما أنها تتناول الحضارة العربية بصفة خاصة ككتاب جورجى زيدان « تاريخ التمدن الإسلامي » وكتاب فون كريم « الحضارة الإسلامية » . وبعض هذه الكتب ينحصر بالدراسة النواحي الإدارية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو يتحدث عن تاريخ الشيعة أو الخوارج أو أهل الذمة في الإسلام . وهذه الدراسات وإن كانت قد أضاعت لى جوانب من تاريخ القرن الثاني ونظمه المختلفة ، وقدمت لى عناصر فهم الشعر واتجاهاته ، إلا أنها نادراً ما وجهت عنايتها للربط بين مادتها وبين الأدب محاولة تفسير هذا بذاك ، وما كان لى أن أطلب ذلك منها الآن لأن طبيعة دراستها لن تتيح لها هذا التعمق فى فهم الشعر وروابطه واتجاهاته ، غير أننى أذكر من بين هذه الدراسات كتابين ألفا بقصد إيجاد هذا الترابط بين الأدب وبين طبيعة الحياة العربية بنواحيها المختلفة . أما الكتاب الأول (١) فقد درس صاحبه حركات الشيعة المتطرفين وحاول إيجاد العلاقة بين تاريخ هذه الحركات وطبيعتها ومبادئها وبين الشعر فى القرن الثاني على وجه الخصوص حيث وجدت هذه الحركات صداها القوي فيه . إلا أننى أرى فى هذه الدراسة غلوّاً شديداً فى تقصى الأثر الشيعى فى شعر القرن الثاني .

أما الكتاب الآخر فهو تأريخ شامل للحياة العقلية فى هذا القرن ، وهو كتاب « ضحى الإسلام » لأحمد أمين . وهو يقصد بضحى الإسلام المائة السنة الأولى للعصر العباسي أى إلى خلافة الواثق بالله ، وقد أدرك أحمد أمين نفسه خضوع تقسيمه للتطور السياسى فاستدرك قائلاً : « يخطئ من يقول إن هناك حدوداً فاصلة بين

(١) حركات الشيعة المتطرفين لمحمد جابر عبد العال .

الدولتين الأموية والعباسية وخاصة من الناحيتين الاجتماعية والعقلية^(١) . ولهذا الكتاب أهمية كبيرة لعنايته الكاملة بالربط بين الحياة العقلية في الفترة التي تحدث عنها وبين النتاج الأدبي باعتبار أنه ثمرة لهذه الحياة . ولكنه - خارج إطار هذه العلاقة - لم يعن بالأدب لذاته ، لهذا أوجز تحليله والنظر في خصائصه ، ولم يفصل القول في موضوعاته وتنوع أساليبه .

أما القسم الثالث من دراسات الباحثين المحدثين ، وهي الدراسات المتخصصة في موضوع من موضوعات الشعر العربي عامة ، أو في اتجاه من اتجاهاته ، فنجدها على قدر من العموم بالرغم من تخصصها الجزئي في موضوع بعينه . نجد هذا في كتاب « تطور الحمريات في الشعر العربي » لجميل سعيد ، وكتاب « شعر الحرب في أدب العرب » لزكي المحاسني ، وكتاب « شعر الطبيعة في الأدب العربي » لسيد نوفل ، وكتاب « تاريخ الشعر السياسي » لأحمد الشايب ، وغيرها .

ومما لا شك فيه أننا نجد في هذه الكتب اهتماماً أوفر بتطور الشعر في هذه الناحية أو تلك . وربما عنيت أيضاً بتطور الصنعة الشعرية في الموضوع الذي تتناوله . ولكن عدم تركيزها الدراسة على شعر القرن الثاني وحده من جهة ، واتباعها التقسيم السياسي في منهجها من جهة أخرى لم يجعلها لنتائجها أهمية كبيرة بالنسبة لشعر هذا القرن . ولا يفوتني أن أنوه بالجهود الطيبة الذي بذله شوقي ضيف في دراسته التي تناول فيها الفن وتطوره في الشعر العربي محاولاً الكشف عن مناهجه ومذاهبه المختلفة . وإن كانت نظرة المؤلف الشاملة لعصور الأدب العربي قد انحصرت في هذا الحيز الضيق - ألا وهو الصنعة الشعرية - فقللت بذلك من تركيز أضوائه على نواح أخرى في شعر القرن الثاني ، وما كان يحدث فيه من تطور كبير ؛ إلا أن هذه الدراسة بلحمتها قد سدت جانباً كان مفقوداً في دراسات المحدثين للشعر العربي .

وأما القسم الرابع من دراسات المحدثين - التي نحن بصدد الحديث عنها - فهي قد قصرت نفسها على دراسة بيئة شعرية معينة دون غيرها من البيئات الأخرى وربما دعت إلى مثل هذه الدراسات الطريقة المنهجية الحديثة باعتبار أن لكل بيئة خصائصها المميزة وطابعها ومزاجها الخاص ، وهذا كله يظهر أثره في شعر شعرائها ، لذلك نجد أن ثلاث رسائل جامعية قدمت في دراسة الحياة الأدبية في البيئات المختلفة

فكانت الأولى عن بغداد والثانية عن الكوفة والثالثة عن البصرة^(١) . وعيب هذه الدراسات – بالنسبة للقرن الثاني – أنها لم تراع طبيعة الحياة الإسلامية وتطورها في هذا القرن ، ذلك أن عناصر التأثير في اتجاهات الشعر العربي فيه كانت تعمل عملها في أنحاء الدولة الإسلامية بنفس قوة التأثير والتفاعل دون أن تجد في بيئته ما عناصر مغايرة للعناصر التي تعمل في بيئة أخرى . فدراسة بيئات الشعر إذن في القرن الثاني تقوم على أساس منهج نظري يبدو سليماً ، ولكنه من الناحية الواقعية لم يؤد إلى نتائج هامة – كما سنرى في ثنايا هذا البحث – هذا إلى جانب ما لاحظته من اهتمام هذه الدراسات بجوانب تاريخية ممتدة إلى عصور سحيقة ، لم يكن لها في الغالب تأثير ذو شأن على نتائج دراسة الشعر في هذه البيئة أو تلك .

أما النوع الخامس والأخير من دراسات المحدثين فهي دراسات تتناول شاعراً أو أكثر من شعراء القرن الثاني تحلل شعره وشخصيته ، وتربطه ببيئته وزمانه الذي عاش فيه – في بعض الأحيان . ونجد من هذه الدراسات وفرة ظاهرة ، بعضها يدرس أبا العتاهية ، والبعض الآخر يدرس بشاراً وأبا نواس . وهناك بعد ذلك دراسات قليلة عن شعراء أقل شأناً من هذه الطبقة . وهذه الدراسات التي تقصر نفسها على شاعر بعينه تكون مفيدة في استخراج العناصر الأساسية في حياته وفي شعره على السواء . وربما استطاعت أن تكشف لنا عن جوانب جديدة لم نكن نستطيع إدراكها في كتب تاريخ الأدب العامة أو غيرها . ونتائج هذه الدراسات تختلف اختلافاً يائياً بحسب اختلاف مناهج مؤلفيها . فمثلاً نجد فيمن درسوا أبا العتاهية محمد أحمد برائق الذي سابر أغلب الروايات القديمة التي وصلت إلينا عن الشاعر ، فنجدته يصدق جبرية أبي العتاهية دون تدليل ، وفي الوقت نفسه يصدق أنه شاعر لا ثقافة له . والمؤلف بحكم اندفاعه وراء هذه الروايات القديمة دون تمحيص توصل إلى نتيجة – أشك في صحتها – وهي أن أبا العتاهية ترهد لاحقاً في الترهّد، ولكنه « رجل شاعر سلك بشعره هذا المسلك لأنه زعم أن له خيراً فيه^(٢) » . هذا بينما نجد محمد

(١) لم تنشر من هذه الدراسات غير الرسالة الأولى بعنوان « الشعر في بغداد » لأحمد عبد الستار الجوّاري .

(٢) أبو العتاهية : ٢٤

خلف الله أحمد في دراسته عن أبي العتاهية يسلك سبيل الدراسة النفسية ويخلص منها إلى أن زهد أبي العتاهية ثورة دينية اجتماعية أوحى بها ضمير الفرد وضمير الجماعة، بالإضافة إلى كونه ثورة نفسية على ماضيه^(١).

ونستطيع أن نقول مثل ذلك عن دراسة العقاد لأبي نواس فقد استخدم التحليل النفسي والنقد التاريخي في تحليل شخصية هذا الشاعر وشعره ، ونسبه إلى الترجسية واهتم في كتابته بالربط بين الجنس والنفس ، هذا بينما نجد دارسين آخرين اكتفوا بجمع الروايات المختلفة عن أبي نواس وجعلوها في فصول - بحكم الدراسة المنهجية - دون أن يهتموا بالدراسات النفسية الحديثة وغيرها . وليس معنى ذلك أن النتائج التي توصل إليها العقاد صحيحة ونتائج الآخرين فاسدة . فهذا ما لم أقصد إليه في هذه المقدمة ، لأنني سأبين قيمة أحكام هذه الدراسات في مواضعها من هذا البحث . ولهذا السبب نفسه أترك الحديث عن بقية الدراسات التي قصرت نفسها على شعراء القرن الثاني كدراسة النويهي وغيره عن أبي نواس ، ودراسة الحاجري وسواه عن بشار ، ودراسة فون جرونباوم عن مطيع بن إلياس ، وأبي الشمقمق وسلم الحاسر .

وقبل أن أنتقل من الحديث عن دراسات الباحثين المحدثين في شعر القرن الثاني وما حوله ، أحب أن أنوه بجهد ثلاثة من أصحاب الدراسات الذين اهتموا بدراسة الشعر في هذا القرن ، وكانت لهم فيه اتجاهات واضحة . وأول الثلاثة هو طه حسين في الجزء الثاني من كتابه « حديث الأربعاء » فقد درس الحياة في القرن الثاني بما فيها من تطور حضاري وثقافي وسياسي ، كما درس اتجاهات الشعر ونوازه ومسبباته ، واهتم بتحليل بعض شخصيات الشعراء الذين يعتبرون نماذج للاتجاهات التي ذكرها . وعلى الرغم من اختلاف في كثير من الآراء مع هذه الدراسة إلا أنني قد أفدت كثيراً مما يشيع فيها من نظرات صادقة عميقة منتشرة هنا وهناك .

أما الثاني فهو طه الحاجري ودرسته التي أشير إليها هنا لم تنشر للأسف حتى الآن ، ولكنني سمعتها منه في صورة محاضرات ألقاها على طلاب الليسانس في العام الجامعي ٥١/٥٢ ، وكان أساس هذه المحاضرات دراسة شعر القرن الثاني في بيئاته المختلفة . وعلى الرغم من جدية هذه الدراسة ومحاولتها الوقوف على اتجاهات الشعر

ودقائق صنعته إلا أنني أختلف معها في نقطتين جوهريتين : الأولى في اتجاهها إلى دراسة البيئات وسأتحدث عن ذلك بالتفصيل في موضعه . والثانية في التفاتها إلى التقسيم السياسي وجعل الشعر في القرن الثاني - تبعاً لذلك - جيلين : جيل المخضرمين والجيل التالي لهم ، مع أن دراسة الشعر في القرتين لا تؤدي بنا إلى فروق واضحة ذات دلالة .

وأما الثالث من أصحاب الدراسات التي أشرت إليها فهو الباحث العراقي علي الزبيدي . وأهم آرائه التي تستحق المناقشة - ولكن في غير هذا المكان - فكرته عن العبث والانتحال في الشعر العباسي . ولا شك أن هذه الفكرة امتداد لفكرة الشك في الشعر الجاهلي على الرغم مما بين العصرين من تفاوت كبير - كما سنوضح فيما بعد .

وأنقل الآن إلى نقطة أخرى لابد من توضيحها في هذه المقدمة ، وهي : لماذا حددت بحثي بالقرن الثاني الهجري ولم أتبع التقسيم المتعارف عليه ، فأجعل حدود البحث إما العصر الأموي أو عصر مخضرمي الدولتين ، أو العصر العباسي الأول ؟ الواقع إن الجواب عن هذا السؤال له جوانب كثيرة : أولاً إن تقسيم عصور الأدب بحسب التاريخ السياسي فيه افتتات على تطور الشعر ، وعلى طبيعة هذا التطور ، لأنه يرتبط بالأحداث السياسية ارتباطاً كاملاً . ومع ذلك فإن كثيراً من الباحثين ساروا في دراستهم على نهج التقسيم المتعارف عليه ، فكانت نتائجهم - في الغالب - خاضعة لحكم هذا التضييق السياسي . وأول من خرج على هذه التقسيمات « جب » ثم تبعه « بلاشير » الذي يقول : « إننا لا نحتاج إلى إمعان النظر والتفكير لكي ندرك أن مثل هذا التقسيم يقوم على خبط عشواء لأنه لا يستوفي الاعتبارات الأدبية ، بل يعتمد على ثورات السلالات الحاكمة ، أو على أحداث ذات قيمة كبرى في تاريخ الإسلام السياسي . لكن صلتها بالأدب ليست لازمة ولا حقيقية . فبروكلمن ومن تبعه طبقوا التقسيمات التي وضعها المؤرخون وهي عرضة للانتقاد في التاريخ أيضاً ، ومن الباحثين من يخطئها . ونسوا أن الأحداث الأدبية والسياسية لا تلتقي دائماً ، وأن أزمان حدوثها لا يشترط فيها الاتفاق . فالرسالة النبوية مثلاً أحدثت انقلاباً عظيماً في حياة العرب السياسية والدينية والاجتماعية ولكنها لم تدفع الشعراء المخضرمين

إلى الخروج على مذاهبهم التقليدية في الشعر ، في حين أن استيلاء الأمويين على الحكم ، والمكانة التي اكتسبتها سورية والعراق في العالم العربي آنذاك ، وتطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية خلق ظروفًا جديدة أدت إلى تطور محسوس في عالم الأدب^(١).

وعلى الرغم من أن كارل نلينو قد سار في دراسته « تاريخ الآداب العربية » على الطريقة التقليدية المعروفة المعتمدة على التاريخ السياسي فإنه قد قرر صراحة فساد هذا التقسيم قائلاً : « إن هذه الحدود ليست إلا حدوداً صناعية اصطلاحية . . فإن عصرًا ما سواء من التاريخ السياسي أم تاريخ الآداب والعلوم لا يحرص في مواقيت معينة بدقة . . لأن كل حي وكل نوع أو فرع من الهيئة الاجتماعية لا تتغير أحواله بديها أبداً ، بل من المشهور أن الانتقال من حال إلى حال لا يحصل إلا بالتدريج البطيء حتى لا يشعر في الأغلب بالفرق بين الدرجة القادمة والدرجة التالية لها . فإن أعملنا الفكر فيما يظهر باديئ نظر أنه تقلب مفاجئ ، ألفينا أنه في الحقيقة نتيجة عدة أسباب مرتبطة بعضها ببعض عاملة منذ زمن طويل^(٢) » .

ومن أدركوا فساد الارتباط بين الأدب وتطوره وبين التغيرات السياسية من الباحثين العرب ، وساروا في دراستهم على نهج آخر ، مصطفى صادق الرافعي في كتابه « تاريخ آداب العرب » إذ أعلن في بدء كتابه أنه « إذا كان عمود التاريخ سياقة الحوادث . . فلا ترغم هذه الحوادث على أن تقع في غير وقتها وتنفصل عن طبيعتها ، وتتصل بغير طبقها في التاريخ ، ولذلك رأينا الطريقة المثلى أن نذهب في تأليفنا مذهب النظم لا التفريق ، وأن نجعل الكتاب على الأبحاث التي هي معاني الحوادث لا على العصور ، فنخصص الآداب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب^(٣) » .

أما أحمد أمين فقد سار في كتابته على أساس التقسيم السياسي ولكنه لم يكن مقتنعا به قط — كما سبق أن أشرت — وخاصة بالنسبة للعصرين الأموي والعباسي . والواقع إن التطور الأدبي لا يمكن أن يكون ظاهرة فجائية تفرق بتغير نوع الحكم ،

(١) ترجمة هذا النص لعلي الزبيدي في مقاله « الانتقال والعبث في الأدب العباسي » مجلة كلية الآداب والعلوم — بغداد العدد الثاني ، حزيران ١٩٥٧ .

(٢) تاريخ الآداب العربية : ٤٧

(٣) تاريخ آداب العرب ١ : ١٦

ومجىء دولة وذهب أخرى ، فمن غير المعقول أن نقرر أن الأدب العربي في عام ١٣٢ هـ - وهي السنة التي استولى فيها العباسيون على الحكم - قد بدأ يأخذ شكلاً جديداً واتجاهات لم تظهر فيه من قبل بسبب ذهاب الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، وإلا كنا نغالط أنفسنا وضمايرنا العلمية ، ونفتشت على تاريخنا الأدبي . صحيح إن ذهاب الأمويين ومجىء العباسيين كان له أثر في صبغ حركة التطور الأدبي بلون أو بآخر ، ولكنه لم يكن السبب المباشر في إحداث هذا التطور ، لأن التطور يرتبط بالتغيرات التي حدثت في المجتمع العربي منذ ظهور الإسلام ، وحدث هذا التطور الديني الهائل الذي أثر في نفوس الناس وعقولهم ، ومنذ بدء عصر الفتوحات وخروج العرب من جزيرتهم المحدودة إلى آفاق جديدة ، ثم استقرارهم وتزاورهم مع أجناس أخرى من أمم الأرض ، وارتباطهم بثقافات وحضارات جديدة لم تعرض لآبائهم وأجدادهم من قبل . والمتبع لتاريخ هذا التطور بالنسبة لتأثيره في الحياة الأدبية يجد أن العصر الأموي كان في أوله امتداداً للحياة الأدبية الجاهلية ، ثم بدأت تظهر فيه آثار هذا التطور شيئاً فشيئاً ، حتى اتضحت معالمها تماماً في أواخر هذا العصر أي في مطلع القرن الثاني الهجري تقريباً . ويمكننا أن نقول إن القرن الأول كان البوتقة التي انصهرت فيها معالم الحياة العربية ليتضح معدنها ويلتصع في بداية القرن الثاني ، وإن العصر الأموي بالنسبة لتطور الأدب - كان - كما يقول فيليب حتى - عصر حضارة واستعداد (١) . أي أن جذور التجديد في الشعر كانت ممتدة من غير شك في هذا العصر - إلا ما استحدثته طبيعة الحياة العباسية الجديدة . وقد لاحظ ذلك من قبل « جب » (٢) و « بروكلمان » حين تحدث عن انحلال عمود الشعر في العصر الأموي (٣) ، و « جورجى زيدان » عندما تحدث عن شعراء الدور الثالث في العصر الأموي ولاحظ أن خصائصهم أدخل في العصر العباسي (٤) . و « طه حسين » إذ قرر أن العصر الأموي كان عصر تجديد أيضاً في اللفظ والمعنى - وإن كان قد تحمس لهذه الفكرة فذهب بعيداً حين قال : « وربما كان

(١) تاريخ العرب (مطول) : ٢٠٨

(٢) Arabic Literature : ٣٣

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية (الترجمة العربية ٢ : ٩)

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية ١ - ٢٨٩

من هذه الناحية أنخصب وأكثر إنتاجاً من عصر العباسيين^(١) وعلى هذه الفكرة نفسها — وهي أن تطور الشعر العربي وتجديده بصورة قوية قد حدث أولاً في أواخر العصر الأموي ، وألح في التأكيد بكلمة « أواخر » هذه — بنى شوقي ضيف دراسته عن التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ولكنه تحمس لهذه الفكرة تحمساً شديداً فرأى مظاهر هذا التجديد في صورة أكبر بكثير مما هي عليه في الواقع ، كما أنه درسها على أنها كانت شائعة في العصر الأموي عامة من أوله إلى آخره دون تحديد ، مع أنه لا يجب أن يغيب عن بالنا أن النزعة الجاهلية كان لها سلطان كبير على الشعر الأموي — في أغلب اتجاهاته — حتى قبل نهاية العصر الأموي بقليل ، بحكم بطء ظهور أثر حركة التطور التي بدأت منذ حدوث التغير في الحياة العربية بظهور الإسلام .

وما تقدم يتبين أنني قد حددت بحثي بالقرن الثاني الهجري على أساس بدء حدوث تطور شعري جديد ، وظهور اتجاهات في الشعر العربي أحدثتها التغيرات الخطيرة التي جرت في حياة الجماعة العربية ، وأخذت تعمل عملها طوال القرن الأول . ومن المفهوم بداهة — بعد أن رفضت دراسة الأدب على أساس التقسيم السياسي — أنني لا أقصد بالقرن الثاني السنوات المائة التاريخية ، ولكنني أتحدث عن التطور الشعري الذي حدث في هذا القرن ، وقد تكون بداية هذا التطور قبل سنة ١٠٠ هـ أو بعدها ، وقد تكون نهاية هذا التطور — أبخلى السبيل لتطور من نوع جديد — بعد سنة ٢٠٠ هـ أو قبلها ، فمثل هذا التحديد الدقيق لم يخطر لي على بال ، ولا شغلت به نفسي في أثناء إعداد هذا البحث .

وبعد فأرجو أن يكون لهذا البحث بعض النفع للمتخصصين في الدراسات العربية وغير المتخصصين الذين يرغبون الاطلاع على جانب مشرق وضيء من تاريخ الأدب العربي ، ينبض بالحياة ويزخر بالحركة ، وتمثل فيه روح العروبة المتوقدة المتجددة التي لا ترضى بالحمود والسكون ، وتتطلع دائماً إلى الأمام في سبيل حياة أفضل ومجد جديد . وألى أن يسد هذا البحث فراغاً في الدراسات الأدبية ، أثبت وجوده في هذه المقدمة . وإذا لم يتسم هذا البحث مرتبة الكمال فحسبي أنني قد نشدتها ، وعلى الله قصد السبيل .

الباب الأول

المؤثرات

● مقدمة

- الفصل الأول : التأثير السياسى .
- الفصل الثانى : التأثير الاجتماعى .
- الفصل الثالث : التأثير الثقافى .
- الفصل الرابع : التأثير الاقتصادى .

الباب الأول

المؤثرات

الشعر في كل أمة خاضع لتطور حياتها في النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، هي التي تحدد مجراه ومساربه واتجاهاته ، وهي التي تفرض عليه ما شئت من التغيرات ، فينتقل من طور إلى طور ، وتتبدل موضوعاته وصوره ، وألفاظه وأساليبه ، وتستثار فيه معان جديدة لم تكن موجودة ، وتغلب عليه صياغة لم تكن مألوفة . وبقدر خطر هذه التغيرات التي تحدث في حياة كل أمة ، يكون خطر التغيرات التي تحدث في تطور الشعر والأدب عامة . لهذا كان لابد أن نتناول بالتحليل والتفصيل تلك التغيرات التي طرأت على الحياة العربية في القرن الثاني في شتى النواحي التي ذكرناها من قبل ، والتي تعتبر الأسس التي يقوم عليها بناء أى مجتمع إنسانى .

والحقيقة إن المجتمع العربى القديم قد تعرض لهزات عنيفة قوية منذ انبثق في ظلام جاهليته نور الإسلام فتقلبه بذلك من طور البداوة الوثنية - التي كانت تحكم العاطفة وتغلب الهوى ، ولا تسخر في حياتها غير قوة البدن والسيف - إلى طور الوجدانية والنظر في الكون والتفكير في شئون الحياة الدنيا والآخرة ، وتسخير العقل وما ينتجه من بدائع العلوم والفنون لخدمة أهداف الحياة وبلوغ السعادة فيها . ثم كان تكوين الدولة الإسلامية الجديدة وانطلاق العرب من جزيرتهم - التي كانت وسائل عيشهم فيها محصورة ضيقة - إلى آفاق جديدة رحبة ، حيث وجدوا أراضى خصيبة مزدهرة ، وأجناسا متحضرة ، وثقافات جديدة ، وعلوما ومعارف مبتكرة ، فأثر ذلك كله في تكوين جماعتهم تكوينا جديدا . وقد لاحظ ذلك من قبل ابن خلدون حين قال : « وأهل الدول أبدا يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم ، فأحوالهم يشاهدون ، ومنهم في الغالب يأخذون . ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح ، وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا

لذلك العهد في شيء من الحضارة ، فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعا ، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجبتهم ملحا ، وأمثال ذلك (١) .

ومن الطبيعي أن يحدث التطور في حياة الجماعة الإسلامية بعد الفتوحات . فبعد أن كانت جماعة عربية خالصة ، إلا من جاليات صغيرة ضئيلة الشأن حبشية وفارسية كانت منتشرة في الحجاز تقوم بالخدمة أو تصطنع الغناء أو المتاجرة بالعطور وما أشبه ، أصبحت تلك الجماعة مزيجاً من العرب والأجناس المغلوبة على أمرها ، وأصبحت عقلية هذه الجماعة وحضارتها مزيجاً أيضاً من عقلية وحضارة العرب والأمم التي قهروها وامترجوا بها . وبعد أن كان العرب الفاتحون هم الجنس السائد المتحكم في تصارييف الأمور ، أصبح للموالى صوت أخذ يقوى شيئاً فشيئاً منذ وقت مبكر في القرن الأول الهجري ، حيث كانت تتم عملية الاختلاط والمزج بين العرب والأجناس المغلوبة ، فنجد الموالى يشتركون لأول مرة في ميدان الخلافات السياسية - التي كانت نارها تشب في الجماعة الإسلامية الجديدة من حين لآخر - وذلك في حرب الحرة عام ٦٣ هـ حيث انتصروا للحزب الزبيرى ضد الدولة الأموية الحاكمة . ونجد شاعرهم « أبا حرة » يتكلم باسمهم في المدينة ويقول :

أَبْلَغُ أُمِّيَّةٍ عَنِّي إِنْ عَرَضْتَ لَهَا وَابْنَ الزُّبَيْرِ وَأَبْلَغُ ذَلِكَ الْعَرَبَا
أَنَّ الْمَوَالِيَ أَضْحَتْ وَهِيَ عَاتِبَةٌ عَلَى الْخَلِيفَةِ تَشْكُو الْجُوعَ وَالْحَرَبَا

تطور المجتمع الإسلامي إذن تطوراً كبيراً منذ ظهور الإسلام وبدء عصر الفتوحات ، فقد تحول من الصحراء إلى الحضراء ، ومن القبيلة إلى المدينة ، فعرف الاستقرار وتدفقت عليه الثروة . والحقيقة إن حركة الفتوح لم تهدأ طوال القرن الأول . ففي عهد معاوية كان الفرس متربصين بالعرب الدوائر فيما وراء المدائن وجلولاء في منطقة الجبال وما وراءها ، وفي منطقة فارس . وظل الأمر كذلك حتى استتب أمر العراق للحجاج فوجه الجيوش إلى هذه المناطق . وقد شملت الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي ثلاث مناطق كبرى هي : المناطق الفارسية الصرفة ، والمناطق

الفارسية التركية فيما وراء النهر ، والمناطق الهندية في السند. وقد نتجت عن فتوحات هذه المناطق المتنوعة آثار كبرى في حياة الجماعة الإسلامية — كما يقول شكري فيصل^(١). والواقع إن حياة الجماعة الإسلامية على اختلاف مناحيها كانت تشكل وتتحدد في خلال القرن الأول الهجري . فقد نشأت في خلاله طبقة جديدة مولدة أو خالصة العروبة ولكنها جديدة أيضا في طرائق تفكيرها وفي حياتها الاجتماعية ، وفي منابع ثروتها الاقتصادية ، وفي ثقافتها . وهذه الطبقة كانت بعيدة عن الصحراء ومُثْلِها وما تفرضه على أبنائها من طرق التفكير والنظر . وكان العامل السياسي أهون العوامل شأنًا — بالنسبة للعوامل الأخرى — في إحداث تطور الجماعة الإسلامية في القرن الأول وما تلاه ، ولعل هذا ما دعا أحمد أمين إلى التساؤل : « لو قدر للدولة الأموية أن تستمر في الحكم ، هل كان يظهر على يديها من الحركات العلمية والإصلاحات الاجتماعية قريب مما ظهر على يد العباسيين ؟ » وقد ردّ على ذلك بالإيجاب طبقًا لسنة التطور ، ونخصوعًا للمؤثرات العنيفة التي كانت تعمل عملها في المجتمع الإسلامي منذ أمد بعيد كما ذكرنا^(٢). وأنا أوافق أحمد أمين على رده إلا أنني أتحفظ بعض الشيء لأن الانقلاب العباسي — كما سأذكر فيما بعد — لم يكن انقلابًا سياسيًا فحسب ، وإلا هان أمره، ولكنه كان انقلابًا اجتماعيًا ثقافيًا من الدرجة الأولى .

تلك إذن هي أولية المؤثرات التي أخذت تحدد شكل الجماعة الإسلامية وظروفها المختلفة إبان القرن الأول ، آثرت أن أذكرها حتى لا تبدو المؤثرات في القرن الثاني — تلك التي سوف أتحدث عنها في هذا الباب — شيئًا جديدًا منفصلاً عن واقع الجماعة الإسلامية ، مع أنها في الواقع امتداد لعوامل التطور الطبيعي في المجتمع الإسلامي ، وإن كان ذلك الامتداد له لون خاص وطابع معين يميز القرن الثاني عن الأول ، مما كان له أثره في تطور الشعر واتجاهاته ، كما سأبين فيما بعد . وسوف أتحدث في فصول هذا الباب عن المؤثرات الفعالة في شعر القرن الثاني وهي تنحصر — فيما أرى — في النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية .

(١) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول : ١٤٧

(٢) ضحى الإسلام ١ ، ٢ ، ٣

الفصل الأول التأثير السياسى

المعارضة لسياسة الحكام لسبب أو لآخر جزء من طبيعة البشر فى كل زمان ومكان . ومنذ عهد الرسول صلوات الله عليه ، بدأت روح المعارضة فى صورة احتجاج فردى ينبثنا به الرواة ، ذلك أن رجلاً من تميم سأل الرسول الكريم العدل فى تقسيم غنائم يوم حنين^(١) . ثم كانت وفاة الرسول فكادت تصير فتنة بين المهاجرين والأنصار ، وفتنة من نوع آخر بين بعض المسلمين الذين زعموا أن الرسول لم يمت وإنما رفعه الله إليه كما رفع عيسى^(٢) .

أما الصدع الخطير الذى حدث فى حياة الجماعة الإسلامية وأثر تأثيراً عميقاً فى تطور الأحداث فيها ، فكان مقتل عثمان ، لا لأنه مقتل خليفة رسول الله - فقد قتل عمر من قبله ولم يكن لمقتله هذا الأثر الخطير الذى أعقب مقتل عثمان - ولكن الثورة التى تحدثت عثمان وأطاحت به حطمت قدسية شخص الخليفة كما أنها كانت نقطة التحول من الحكومة الدينية إلى الملكية كما يقول خدابخش بحق^(٣) . والحقيقة التى لا مراء فيها إن الثورة على عثمان كان ظاهرها أنها فى سبيل الله ضد الخليفة ، ومن أجل الحق والعدل ضد فساد الحكم وظلمه ، ولكنها فى باطنها كانت تتعلق بأسباب الدنيا لا الدين ، أى أنها كانت تتطلع إلى السلطان والسيطرة والحكم . وكان من نتائج الثورة على عثمان ظهور الأمويين فى حزب قوى يطالب بالحكم تعويضاً عن دم عثمان ، أولقاء إسلامه الذى اضطر إليه بعد فتح مكة - كما لاحظ بعض الكتاب حتى إن « دوزى » يقول إن انتصار الأمويين فى الحقيقة هو انتصار الجماعة التى كانت تضرر العداء للإسلام^(٤) . وإن كنا نرى أنه يغالى

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ١٨٠

(٢) الفرق بين الفرق : ١٤

(٣) مقدمة الحضارة الإسلامية لفون كرىمر : ٣٠

(٤) Literary History of Persia : ٢٢٤

في نظره إلى حد بعيد لأن عداء الأمويين للإسلام كان قد انتهى أمره منذ زمن طويل .

وحدث شقاق بين معاوية - زعيم هذا الحزب - وبين علي بن أبي طالب - خليفة رسول الله - أعقبه ظهور حزب جديد هو حزب الخوارج الثوري الذي لم ينشأ عن عصية للعروبة بل عن عصية للإسلام ، وكان هدفه تقرير الأمور العامة وفقاً لأوامر الله ونواهيه . ولهذا السبب لاحظ « قلهوزن » أن أغلب الخوارج كانوا من الموالي كما ظهر في جيش أبي مریم من بني سعد تميم الذي حارب علياً عام ٣٨هـ^(١) . ثم كان مقتل عليّ أثراً من آثار فتنة عثمان أعقبه أيضاً ظهور حزب الشيعة الذي وجد فيه أغلب الموالي أملاً جديداً يفتح لهم طريق السيادة ، أو على الأقل مساواة العرب فيها . كل هذه التغيرات والأحداث كانت من آثار فتنة عثمان .

وما إن خلع الحكم للأمويين - بعد التطاحن المرير الذي جابههم به العلويون - حتى وجدوا أن استقرار الحكم يحتاج إلى دهاء سياسي أكثر مما يحتاج إلى الورع وتقوى الله . ولهذا قربوا إليهم دهاة الحكم وأصحاب الجبروت فيه كزياد بن أبيه ، والحجاج وأمثالهما ، واستخدموا الشعر سلاحاً قوياً لنشر دعوة حزبهم وإظهار تأييده ونصرته ، ومهاجمة أعداء الدولة من الظالمين الانتهازين أو أصحاب الحقوق في الولاية والحكم ، فأثروا في الشعر العربي من هذه الناحية تأثيراً كبيراً إذ وجهوه ناحية الحزبية والنشاط السياسي ، فشبت ناره بعد أن خمدت زمناً غير قصير إبان حكم الخلفاء الراشدين .

وتبعاً لسياسة التحزب التي جرى عليها الأمويون أحيوا العصبية القبلية لإحياء شديداً ، فانتفضت في الشعر وفي نفوس الناس انتفاضات جديدة ، صدمت شعور المسلمين المخلصين الذين كان يدعوهم إيمانهم إلى نبذ هذه الدعوات الجاهلية والتآخي والتعاطف تحت لواء الإسلام . وكان من عناصر سياسة الأمويين استخدام العطاء سلاحاً للإرهاب وأداة للتقريب ، فحرموا منه فئة من الناس وأغدقوه أضعافاً مضاعفة على فئة أخرى ثمناً لضمائرهم وضماناً لصمتهم . وكان الحجاز - الموطن الأول لمعارضة الحكم الأموي - أوفر الأقطار الإسلامية نصيباً من أموال الأمويين ، ولهذا شاع فيه الغنى والترف مع ما يقترن بهما من مظاهر وأسباب ، كالغناء ، وشعر الغزل الرقيق ،

والفنون التي تدعو إليها البطالة واللهو . يقول طه حسين في ذلك : « وما هي إلا أن تنشأ في الحجاز نفسه في مكة والمدينة والطائف طبقة من هذه الأرستقراطية الفارغة التي لا تعمل شيئاً وإنما يعمل لها ما جلبت من الرقيق ، والتي تنفق وقتها في فنون اللهو والعبث والمجون ، ونشأ عن هذا بعد ذلك أن جلبت الحضارة جلباً إلى الحجاز وبلاد العرب ، فكان الترف والتبطل ، وكانت الفنون التي تنشأ من الترف والتبطل ، فكان الغناء والإيقاع والشعر الذي لا يصور جداً ولا نشاطاً وإنما يصور بطالة وفراغاً ونهالكاً من أجل ذلك على اللذة أو عكوفاً من أجل ذلك على النفس ^(١) » .

هذا إذن أثر من آثار استخدام الأمويين سلاح العطاء للترهيب والترغيب ، وقد صدق « شكري فيصل » حين جعل العطاء أحد عاملين اثنين خضع لهما المجتمع الإسلامي خضوعاً عجيباً . وكان — مع العامل الآخر — ذا أثر بالغ في فن السياسة وشيع القرابة وثورات الموالى ، وسيطرة الطبقة الحاكمة من قريش ، وخلاف ما بين العرب ، وما بين العرب والأعاجم ^(٢) .

وكان تقرير معاوية للمبدأ الوراثي نقلة خطيرة في حياة المسلمين الذين ألفوا البيعة والشورى والنظم الأولى في الإسلام ، وهم بعد قرييون منها ، ولهذا أحسوا — وخاصة في مكة والمدينة حيث كانوا يتمسكون بالأحاديث والسنن النبوية الأولى — أن الأمويين نقلوا الخلافة إلى حكم زمني متأثر بأسباب دنيوية ، مطبوع بالعظمة وحب الذات بدلاً من أن يحتفظوا بتقوى النبي وبساطته الأولى ^(٣) .

ولم تلبث سياسة الأمويين أن أغضبت طوائف كثيرة من العرب والموالى على السواء ، وكان لشخصية يزيد بن معاوية أثر كبير في شيوع هذا السخط بين المسلمين ، فقد وصفه وقد من بعض أهل المدينة بأنه « رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطناير ، ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخراب والفتيان » ^(٤) . وقد هجا الشاعر ابن عرادة يزيد بن معاوية بمثل هذا حين قال :

(١) الفتنة الكبرى : ١٠٤

(٢) المجتمعات الإسلامية في القرن الأول : ٥٠

(٣) انظر : الخلافة لتوماس آرتولد : ١٠

(٤) تاريخ الطبري ٧ : ٤ (ومع ذلك ينبغي أن نحتار في مثل هذا الاتهام بسبب الخصومة

السياسية التي كانت بين أهل الحجاز والأمويين عامة)

أَبْنَى أُمِّيَّةَ إِنَّ آخِرَ مُلْكِكُمْ جَسَدٌ بِخَوَارِينِ ثُمَّ مُقِيمٌ
طَرَقَتْ مَنِيَّتُهُ وَعِنْدَ وَسَادِهِ كُوبٌ وَزِقٌ رَاعِفٌ مَرثُومٌ
وَمُرْنَةٌ تَبْكِي عَلَى نَشْوَانِهِ بِالصَّنَجِ تَقْعُدُ تَارَةً وَتَقُومُ^(١)

وربما كان الحجاز يغلي بالفتنة في هذه الآونة بسبب ذلك الاستهتار بالدين إلى جانب إحساسه بزوال سيطرته على الحكم ، وصيرورته كما مهملا في ميزان السياسة ، مع أنه صاحب الحق الشرعي في الخلافة ، وكان يشعر أن الأمويين مفسدون ومغتصبون لها ، ولهذا كانت وقعة الحرة عام ٦٣ هـ تنفيساً عن هذه المعاني أو بعضها حتى إننا نجد ابن الغسيل ينشد في أثناء قتاله جيش يزيد :

بُعْدًا لِمَنْ رَامَ الْفَسَادَ وَطَغَى وَجَانِبَ الْحَقِّ وَآيَاتِ الْهُدَى
لَا يُبْعِدُ الرَّحْمَنُ إِلَّا مَنْ عَصَى^(٢)

وحدثت في عهد يزيد أيضاً حادثتان كان لهما أثر عميق في نفوس المسلمين جميعاً كما كان لهما نفس الأثر في التطور السياسي الذي حدث للجماعة الإسلامية فيما بعد . أما الحادثة الأولى فكانت قذف جيش يزيد الكعبة بالمجانيق وحرقها بالنار . وكان ذلك شيئاً كبيراً بالنسبة لعامة المسلمين حتى إننا نجد رجلاً كالحسن البصري لا يذكر سوءاً للأمويين إلا اعتداءهم على الكعبة . فقد روى الطبري أن رجلاً كان يحدث الحسن البصري فقال له : « لكأنك يا أبا سعيد راض عن أهل الشام ! فقال : أنا راض عن أهل الشام ؟ قبحهم الله وبرحهم ، أليس هم الذين أحلوا حرم رسول الله يقتلون أهله ثلاثة أيام وثلاث ليال ، قد أباحوهم لأنباطهم وأقباطهم ، يحملون الحرائر ذوات الدين ، لا يتناهون عن انتهاك حرمة . ثم خرجوا إلى بيت الله الحرام فهدموا الكعبة وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها ، عليهم لعنة الله وسوء الدار^(٣) » .

هذا مع أن الحسن البصري كان يشبط الناس عن الاشتراك في الثورة ضد

(١) تاريخ الطبري ٧ : ٤٣

(٢) المصدر نفسه ٧ : ١٢

(٣) المصدر نفسه ٨ : ١٥٠

يزيد بن عبد الملك مخالفاً في هذا مشاعر الناس في ذلك الوقت^(١) .

وأما الحادثة الثانية - وهي أبعد أثراً وأخطر شأنًا - فكانت مقتل الحسين ابن علي . والذي لا شك فيه أن مقتل الحسين كان مأساة مروعة بالنسبة للمسلمين في ذلك العهد ، على اختلاف طوائفهم ، وليس كذلك بالنسبة لشيعة علي فحسب . فالحسين كان حفيد الرسول صلوات الله عليه ، وقتله على هذه الصورة البشعة مما يثير الحمية الدينية والشعور الراسخ في نفوس المؤمنين . وقد أحس يزيد بن معاوية نفسه أثر قتله الحسين فغضب على قاتله « عبيد الله بن زياد » قائلاً : « . . . بغضني بقتله إلى المسلمين ، وزرع لي في قلوبهم العداوة فبغضني البر والفاجر بما استعظم الناس من قتلي حسينا^(٢) » .

وكان أثر هذه الحادثة على الحزب الشيعي أن تعاظم أمره وازداد خطره ، وانضوى تحت لوائه ألوف كانوا يتخذون موقف الحياد بين الأحزاب السياسية المتطاحنة . وكان أكثر المنضمين إليه الموالى الذين كانوا ييغون السيادة عن طريق هذا الحزب السياسي المقترن بشعور ديني عملي يوافق أهواءهم وميولهم ، والذين كانوا يلاقون من الدولة الأموية عنتاً واضطهاداً يقوى على الأيام ، ولا يستطيعون له دفعاً مهما اضطنعوا من وسائل وأسباب . والحقيقة إن السخط على بني أمية كان عاماً شاملاً - كما سبق أن ذكرت - بفعل ما تقدم من أسباب ؛ وقد اتخذ هذا السخط أشكالاً عنيفة من جانب العرب وعامة المسلمين . أما الموالى فكان لهم مع بني أمية شأن كبير طوال مدة حكمهم . فعلى الرغم من انتقال مركز الخلافة إلى دمشق وتغير بعض مظاهر الحكم الإسلامي بتأثير الاتصال بحضارة أجنبية ، نجد أن الأمويين في نظرهم إلى الموالى قد ارتدوا إلى العصبية العربية الجاهلية ، فأظهروا اعتزازاً كبيراً بعرقهم العربي ، واعتبروا أنفسهم طبقة سامية مسيطرة تدين الشعوب المغلوبة على أمرها ، وبهذه السياسة نقضوا أساساً في الإسلام هو المساواة التامة بين معتنقيه . والواقع إن موقف الأمويين من الموالى طوال مدة حكمهم كان أساسه ما ذكرنا ،

(١) ناقش هذه القضية وأسبابها « فلهوزن » في كتابه تاريخ الدولة العربية : ٣٠٥، ٣٠٦ كما ناقشها أيضاً المترجم محمد أبو ريذة في هامش ص ٣٠٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٧ : ١٩

وهو أيضا ما أجمع على ذكره المؤرخون القدماء والكتاب المحدثون ، إلا أن أحد هؤلاء الكتاب زعم أن هذه الفكرة مردودة وأنها لا تستند إلى تاريخ ، وكان دليله على ما ذكر أن أغلب الأئمة في العصر الأموي كانوا من الموالى ^(١) . وهذا الدليل لا يناقض الفكرة قط فاستخدام الأمويين لأئمة من الموالى ، أو استعانتهم بالدهاقين في تدبير مور الدولة — كما ورد في حديث لعبيد الله بن زياد من أن الدهاقين أبصر بالحباية وأوفى بالأمانة وأهون في المطالبة ^(٢) . لا يعنى أنهم كانوا يساوونهم بالعرب أو ينظرون إليهم نظرة إكبار وإجلال . ومع ذلك ينبغى التأكيد أن موقف الأمويين من الموالى لم يكن في سنة التطور وطبيعة الأشياء أمراً شاذاً غريباً . بل هو على العكس من ذلك كان ضرورة تحتملها الظروف والملابسات التي كانت قائمة وقتذاك . فالأمويون من الجنس العربي الفاتح ، وإليهم آل الحكم وتدبير الأمر . وقربهم من عهد الفتوح لم ينسبهم أنهم عرب وأنهم الجنس الفاتح المنتصر ، وأن الموالى مسترقون لهم وأنهم أجناس مغلوبة على أمرها . فمن السياسة إذن كبح جماح هذه الأجناس وتذكيرهم دائماً بالسيطرة العربية حتى يتطامنوا ويخضعوا لها ، ولا تحدثهم نفوسهم بالخروج عليها . وكانت هذه السياسة تخف حدتها شيئاً فشيئاً كلما سارت عملية المزج والتوليد بين العرب والأجناس المختلفة سيرها الطبيعي في خلال القرن الأول وقسم كبير من القرن الثاني حيث بدأ يعتلى الحكم خلفاء أمهاتهم أمهات أولاد. وأعتقد أن أول هؤلاء الخلفاء هو يزيد بن الوليد الذي جاء إلى الحكم في أعقاب الربع الأول من القرن الثاني (عام ١٢٦ هـ) ^(٣) فكان من غير المعقول أن تكون سياسة مثل هؤلاء الخلفاء عنيفة مع الموالى والأعاجم بصفة عامة ، ونحوئولهم فيهم . هذه ناحية ، والناحية الأخرى التي تتصل بموقف الأمويين من الموالى ناحية اقتصادية وهي أن الأمويين قد أثقلوا كاهل الموالى بالضرائب المختلفة ، حتى إنهم — في بعض الأحيان — لم يرفعوا الجزية عن أسلم منهم . والسبب في هذا راجع

(١) تاريخ الحضارة العربية لعمر أبي النصر : ٣٠٥

(٢) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٩

(٣) انظر : تاريخ الطبرى ٩ : ٤٦ وأمه اسمها شاه آفرید بنت فیروز بن یزدجرد ، وكان

یزید یفتخر بنسبه هذا قائلا :

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقیصر جدى وجدى خاقان

— في رأيي — إلى أساس مالي صرف ، لا أثر فيه للاضطهاد بسبب الجنس أو ما أشبه . ذلك أن مالية الدولة قد ارتكزت بصورة خطيرة إبان العصر الأموي على ما يجبي من الجزية ، فلما تناقص دخل هذا المورد — بسبب دخول كثير من الأعاجم في الإسلام — لجأ الأمويون إلى سياستهم التي أشرت إليها آنفا ، حتى لا تهبط مالية الدولة بدرجة خطيرة في الوقت الذي تحتاج فيه إلى كثير من المال للإنفاق منه على الحروب المستمرة التي كانت تخوضها ضد أعدائها في الداخل والخارج على السواء .

ونحن وإن كنا نبرر موقف الأمويين الآن في ميزان النقد التاريخي ، إلا أن الموالي آنذاك لم تكن تعنيهم مثل هذه المبررات . وكل ما كانوا يشعرون به أنهم فئة مضطهدة مظلومة ، وأن الأمويين هم مضطهدوهم وظالموهم ، ولذلك توجهوا بكراهيتهم نحوهم ، وحاولوا — منذ وقت مبكر — الاشتراك في الثورات والقتال المسلح التي قامت في وجه الأمويين . فكان اشتراكهم في وقعة الحرة — كما رأينا — وكان انضمامهم إلى ثورات الشيعة وانتفاضاتها . وحين أطلت العصبية العربية القبلية القديمة برأسها في حوادث اضطراب أمر الخلافة عقب وفاة يزيد ابن معاوية عام ٦٤ هـ نجد أن الموالي من الفرس قد استغلوا هذه الحوادث استغلالا واسعا للتفرقة بين القبائل العربية فيما يبدو . ولم يبخل بعض هؤلاء الموالي على القبائل بمعونتهم الكاملة ، كما فعل « ماه أفريدون » مع بني تميم في قتالهم الأزدي . وكان على رأس أربعمائة من الموالي أبلوا بلاء حسنا في هذا القتال^(١) ومع أن هؤلاء الموالي كانوا من الأساورة الذين انضموا إلى تميم منذ زمان طويل^(٢) ، إلا أن اشتراكهم في القتال على هذه الصورة يجعلنا نشك في وجود أهداف بعيدة لهم غير نصرة بني تميم .

وكان في حزب الخوارج أيضا عدد كبير من الموالي الذين كانوا ينشدون الثورة على بني أمية من أي سبيل . وينبئنا الطبري أن الذي قتل مسعود بن عمرو « علج

(١) تاريخ الطبري ٧ : ٢٧

(٢) الأساورة فرسان من الأعاجم كانوا في خدمة ملوك النرس ، وقد عقدوا معاهدة مع بعض قواد عمر بن الخطاب دخلوا بمقتضاها في الإسلام وخدمة العرب وأن تترك لهم الحرية في اختيار القبيلة التي يؤثرونها وأن يقاتلوا معها الأعاجم (انظر : دائرة المعارف الإسلامية) .

يقال له مسلم من أهل فارس دخل البصرة فأسلم ثم دخل في الحوارج»^(١)، كما نبشنا أن الذي قتل أحد قواد جيش مروان في أثناء ثورة ابن الزبير مولى فارسي أيضاً اسمه «يزيد بن سياه الأسواري»^(٢).

وعقب مقتل الحسين تحركت الشيعة بالكوفة، وكانت هذه المدينة مثابة للمتطرفين المعاندين لبني أمية، المغالين في التشيع لبني علي، كما كان يوجد فيها عدد كبير من الفرس الميغضين للحكم الأموي. ويقول جورجى زيدان إن الكوفة كانت حيية إلى نفوس المتشيعين لأنها كانت عاصمة علي بن أبي طالب أثناء خلافته^(٣). وهكذا سمع لأول مرة في عام ٦٥ هـ تردد النداء القوي المؤثر «يا ثارات الحسين!». والحقيقة إن استشهاد الحسين - كما يقول قلهوزن - افتتح عصراً جديداً لدى الشيعة إذ نظر إلى هذا الاستشهاد على أنه أهم من استشهاد علي بن أبي طالب نفسه لأنه لم يكن ابن بنت الرسول^(٤).

وفي العام التالي شبت ثورة كبرى شيعية في ظاهرها، ولكنها في الحقيقة ثورة موال على الحكم الأموي خاصة وعلى العرب ضمناً، وأقصد بها ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي التي بدأت في الكوفة - مركز الشيعة - ثم انتشرت فيما حوّلها انتشاراً سريعاً بفضل تدفق الموال على صفوفها بدعوى استجابتهم لما أعلنه المختار أساساً لثورته وهي المطالبة بدم الحسين، مع أنهم كانوا يضمرون في أنفسهم الرغبة الشديدة في القضاء على الحكم العربي الأموي قضاءً تاماً. وقد استغل المختار مشاعر الموال استغلالاً بارعاً، ووعدهم بالمساواة التامة بينهم وبين العرب في كل شيء. بل نفذ هذا الوعد مما أحفظ العرب الذين كانوا يشتركون في ثورته. يحدثنا الطبرى أن القائم على حرس المختار كان مولى اسمه «كيسان أبو عمرة» وأنه قام ذات يوم على رأسه فرأى الأشراف يحدثونه، ورآه قد أقبل بوجهه وحديثه عليهم، فقال لأبي عمرة

(١) تاريخ الطبرى ٧: ٣١ (ويخطئ قلهوزن هذه الرواية - قائلاً استناداً إلى بعض المصادر - إن الأساورة بقيادة «ماه أفريدون» هم قتلة مسعود، والمغزى الذي نقصده من الروايتين على اختلافهما واحد على العموم) [انظر: تاريخ الدولة العربية: ٣٩٢].

(٢) المصدر نفسه ٧: ٨٥.

(٣) تاريخ تمدن الإسلام ٢: ١٧٩.

(٤) الحوارج والشيعة: ١٨٨.

بعض أصحابه من الموالى : أما ترى أبا إسحق قد أقبل على العرب ما ينظر إلينا ؟ فدعاه المختار فقال له : ما يقول لك أولئك الذين رأيتم يكلمونك ؟ فقال : . . شق عليهم - أصلحك الله - صرفك وجهك عنهم إلى العرب ، فقال له قل لهم : لا يشقن ذلك عليكم فأنتم منى وأنا منكم ، ثم سكت طويلاً ثم قرأ (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُتَقِيمُونَ) قال : فحدثني . . موسى بن عامر ، قال : ما هو إلا أن سمعها الموالى منه فقال بعضهم لبعض : أبشروا كأنكم والله به قد قتلهم ^(١) .

أما نظرة العرب للموالى فى هذه الفترة من القرن الأول فتتضح تماماً فى أحاديث أولئك العرب الذين اشتركوا فى ثورة المختار ، ولم يعجبهم تقريبه للموالى فكانوا يقولون مغيظين : « لقد أدنى موالينا فحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعمهم فيئنا ^(٢) » وهذا النص - إن كان صحيحاً - يكذب من حاول إثبات حسن معاملة الأمويين للموالى ، فهاهم أولاء يحرمون عليهم ركوب الدواب أثناء القتال ، كما يحرمونهم الاشتراك فى أخذ العطاء والنوى . وكان من نتيجة سياسة المختار القائمة على المساواة بين العرب والموالى أن انشق عليه كثير من هؤلاء العرب الناقمين على خطته ، فتسببوا فى فشل ثورته . وقد أدرك المختار نفسه هذه الظروف الجديدة التى أحاطت به ، فأصبح يعتمد اعتماداً كلياً على الموالى ، كما نجد فى حربه مع مصعب بن الزبير إذ كان ينادى قائلاً : « يا معشر الموالى انزلوا معى فقاتلوا » واغتنم أعداؤه هذه الفرصة فكانوا يحرضون بقية العرب الذين معهم قائلين لهم : « علام تقتلون أنفسكم مع هذه العبدان ^(٣) » .

وقد لاحظ قلهوزن من قبل هذه الصلة القوية بين ثورة المختار والموالى فقال إن العناية بالموالى كانت نقطة رئيسية فى برنامج ثورة المختار إذ كانوا يؤلفون أكثر من نصف سكان الكوفة ، وفى أيديهم الحرف اليدوية والمهن والتجارة ، وكانت أغليبتهم من الفرس . وقد أيقظ المختار فيهم الأمل واجتذبهم إليه ^(٤) . أما خدابخش فيدعى عدم وجود هذه الصلة بين ثورة المختار والموالى ويقول إن الموالى لعبوا دوراً

(١) تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٩ .

(٢) تاريخ الطبرى ٧ : ١١٦ .

(٣) المصدر نفسه ٧ : ١٤٨ .

(٤) الخوارج والشيعة : ٢١١ .

ثانويًا في هذه الثورة^(١). وما سلف به القول يكفي للرد على هذا الرأي .

والحقيقة إن صلة الموالى بالتشيع ظاهرة تثير الشك من الناحية السياسية . أما من ناحية العقيدة فعناصر الاتهام فيها واضحة وضوحًا تامًّا كما سنبين في حديثنا عن الشعوبية وعن الزندقة . ويبدو لي أن سبب عدااء الأمويين الشديد للشيعة إنما يرجع أيضًا إلى أن قسمًا كبيرًا منهم كانوا من الموالى . بهذا كان الأمويون يحسون أنهم بقضائهم على الشيعة سوف يتخلصون من أعدائهم في السياسة وأعدائهم في الجنس على السواء . وقد بلغ من عنف كراهية الأمويين للشيعة أننا نجد حتى الوليد بن يزيد — الذى صُوِّرَ لنا على أنه كان منصرفًا عن شئون السياسة والرعية إلى الخمر واللهو — يتخذ طريقة وحشية في القضاء على خصومه من الشيعة إذ يكتب إلى عامله يوسف بن عمر يقول : « إذا أتاك كتابي هذا فانظر عجل العراق فاحرقه ثم انسفه في اليم نسفا » وهو يقصد بعجل العراق يحيى بن زيد بن علي . وقد صدع يوسف بالأمر فأنزله من جذعه وأحرقه بالنار ثم رضَّه فجعله في قوصرة ثم جعله في سفينة ثم ذراه في الفرات^(٢) .

وكأنما انتعشت آمال الموالى بعد اشتراكهم القوى في ثورة المختار وأحسوا بكيانهم وشخصيتهم ومدى ما يستطيعون القيام به ضد هؤلاء العرب الحاكمين الذين ينظرون إليهم نظرة مهينة محترقة ، فعملوا على ألا تدعهم فتنة أو ثورة دون أن يشركوا فيها اشتراكًا قويا عسى أن تنجح إحدى هذه الفتن والثورات فيقضى على الأمويين ويتم للموالى انتصارهم على أعدائهم المتعاليين . لهذا نجدهم يشتركون في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج ، ثم يخوضون الحرب ضد يزيد بن المهلب تحت لواء قائد لهم كان محبوبًا فيهم بعيد الصوت وهو « ثابت » . وتجمعوا مرة أخرى تحت قيادة حريث بن قطبة لمهاجمة المفضل بن المهلب ، وكان عددهم في هذه المرة ثلاثين ألفا^(٣) ، وما يلاحظ أن أعداد الموالى بدأت تزداد بصورة ظاهرة في هذه الثورات والفتن . كما بدأ يظهر لهم قواد ينظمون صفوفهم ويوجهونهم إلى أعدائهم . ونعلم من الطبرى

(١) مقدمة الحضارة الإسلامية لفون كريم : ٣٩

(٢) تاريخ الطبرى ٨ : ٣٠١

(٣) المصدر نفسه ٨ : ١٠ وما بعدها .

أن الذي قام بأمر الأعاجم بعد موت « ثابت » قائد آخر اسمه « طرخون »^(١). وقد قام الموالي بعد ذلك بحركة قوية تحت قيادة « الحارث بن سريج » لم يقدر لها النجاح شأن بقية الحركات التي سبقتها . ومما يجدر ملاحظته أيضاً أن الموالي قد أقبلوا على حزبي الخوارج والشيعة إقبالا شديداً لأن هذين الحزبين جعلوا الموالي على قدم المساواة مع العرب ، إلا أن الشيعة قد صادفوا نجاحاً أكبر في هذه السياسة كما يقول فلهوزن^(٢). أما فان فلوتن فقد أدرك أن المرجحة لعبت دوراً هاماً في التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين إذ ذهبوا للقول بأنه لا يحل للحكومة أن تعامل هؤلاء كما لو كانوا لا يزالون على كفرهم بعد أن أصبحوا مسلمين ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم . وعلى هذا الأساس لم يكونوا يتخرجون من قتال أبة حكومة تقرر مثل هذه المظالم . ثم إن الحركة العكسية التي قامت في الولايات الشرقية من جراء اضطهاد بني أمية للموالي تطورت إلى حركة دينية ترمي إلى إسلام أوسع نطاقاً وأكثر عالمية وأقل حرجاً مما كان يفهمه الأمويون . ولم تخمد تلك الحركة بموت الحارث بن سريج — زعيم حركة الموالي الأخيرة التي أشرنا إليها — وإنما تطورت تطوراً جديداً بعد دخول عنصر جديد هو عنصر الشيعة^(٣).

ومنذ أواخر القرن الأول بدا واضحاً أن الخلافات القبلية التي أحيها الأمويون وزرعوها من جديد في تربة الحياة الإسلامية قد أخذت تتحول شيئاً فشيئاً لتصبح خلافاً واسع المدى عميق الهوة بين الشام والعراق . ولم يحاول خلفاء بني أمية أن يضيقوا شقة هذا الخلاف قط . بل على العكس من ذلك أرتثوا ناره وزادوه اشتعالاً وأخذوا ينظرون إلى الشام على أنه معقلهم الحصين ، وإلى العراق على أنه موطن العداء ومصدر الثورات والفتن . لهذا وجهوا إليه دهاة ولائهم ، وساروا في حكمه سيرة البطش والجبروت ، فأفادت هذه السياسة أعداءهم — وبخاصة الموالي والشيعة — فائدة محققة إذ جعلت نفوسهم مهيئة للثورة ، لا ينطقى أوارها أبداً . وجعلتهم يعشون شعور الكراهية والإحساس بالظلم ضد الأمويين وحكمهم . ولا تار أهل العراق على

(١) تاريخ الطبري ٨ : ٥٠

(٢) تاريخ الدولة العربية : ٦٨

(٣) السيادة العربية والشيعة : ٦٤ وما بعدها .

الحجاج بزعامة ابن الأشعث خرج عبد الملك بن مروان إلى الناس وقال : « إن أهل العراق طال عليهم عمرى فاستعجلوا قلدى ، اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك ^(١) » . وما كانت سياسة القمع هذه إلا سبباً من الأسباب التى قربت أجل بنى أمية ووجدت أهل العراق وخراسان - تلك المنطقة التى بدأت تلعب دوراً سياسياً خطيراً منذ أواخر القرن الأول - ضد الحكم الأموى . والحقيقة إن ثورة ابن الأشعث التى نشبت فى العراق لم تكن ثورة دينية ولا ثورة موال كما وصفها قون كرىمر ، وكما وصفنا ثورة المختار من قبل ، ولكنها كانت - كما يقول فلهوزن بحق - محاولة من جانب أهل العراق لطرح نير أهل الشام من على كاهلهم ^(٢) . ولما أعلن قتيبة بن مسلم خلع سليمان بن عبد الملك عام ٩٦ هـ خطب فى أهل خراسان قائلاً . . . حتى متى يتبطح أهل الشام بأفئيتكم وظلال دياركم يا أهل خراسان ؟ انسبونى تجدونى عراقى الأم عراقى الأب عراقى المولد عراقى الهوى والرأى والدين ^(٣) . وهكذا بلغ الخلاف بين الشام والعراق حدّاً جعل العرب يتخلون لأول مرة عن نسبهم إلى قبيلتهم ، ويربطون أنفسهم بموطنهم الذى يعيشون فيه . بل لقد بلغ من أمر هذا الخلاف أن جعل الدين دينين : عراقياً وشامياً كما هو واضح فى كلام قتيبة بن مسلم !

وهذا الصدع الخطير فى حياة الجماعة الإسلامية والذى فرق بين أعظم قطرين إسلاميين فى ذلك العصر كان له أثره الخطير - مع العوامل الأخرى التى ذكرتها - فى تجمع سحب قائمة فى سماء الدولة الأموية . فالعراق لم يكن وحده فى الغليان والثورة ، ولكن خراسان كلها وما وراء النهر كانت كالمرآة تنعكس عليها كل انطباعات النفوس فى العراق . ولهذا انتشرت دعوة الشيعة بين الخراسانيين انتشاراً قوياً هائلاً ، لأن التشيع أصبح فى تلك الآونة يمثل وسيلة الخلاص من الحكم الأموى - ذلك الحكم العربى الأرستقراطى - ولأن الأمويين أنفسهم ساعدوا على نشره - كما يرى فلهوزن بحق - بسبب سياسة زياد بن أبيه والحجاج وغيرهما من أمراء الأمويين فى العراق ، فقد أرادوا أن يصرفوا العناصر الخطرة عن الكوفة والبصرة فوجهوها

(١) تاريخ الطبرى ٨ : ١٠ .

(٢) تاريخ الدولة العربية : ٢٤٠ .

(٣) تاريخ الطبرى ٨ : ١٠٥ .

إلى خراسان لاستنفاد طاقتها في جهاد المشركين^(١) . وقد بلغ من تعلق الخراسانيين بالتشيع أنهم سمو كل صبيانهم الذين ولدوا في سنة ١٢٥ هـ التي قتل فيها يحيى ابن زيد بن علي باسمه^(٢) . وكانت سياسة الأمويين المالية في خراسان من الأسباب المباشرة التي أدت إلى تجمع نذر الثورة في خراسان على الحكم الأموي ، إذ أنها تراوحت بين اللين والشدّة حسبما كانت تملّيه سياسة الولاة والحلفاء . وسياسة اللين بعد الشدّة تملّك النفوس وتحوز رضاها ، أما سياسة الشدّة بعد اللين فهي بمثابة دعوة للثورة والخروج عن الطاعة . وهذا ما حدث بالنسبة لخراسان ، فبعد أن قاست الولايات في تأدية ما عليها من ضرائب مختلفة وجزية حتى على الذين أسلموا ، جاء عمر بن عبد العزيز وحاول تسوية الخراسانيين المسلمين بالعرب وإسقاط الجزية عنهم ، ولكن ما لبث خلفه أن تجاوز هذه السياسة مما جعل النفوس في خراسان تغلي بالثورة . وقد جاء في طبقات ابن سعد أن جبابة الحجاج في بلاد فارس اعتادوا تقديم المحاصيل قبل زمن الحصاد وإرغام المزارعين على النزول لهم عنها بثمن أقل من الثمن الذي يتبايع به الناس . وانضاف إلى هذه العوامل كلها التي أسرعت بسقوط الدولة الأموية وقوع الانقسام والفرقة بين أفراد البيت الأموي نفسه ، ووصل هذا الانقسام إلى حد قتل الحلفاء كما حدث للوليد بن يزيد . والحقيقة إن مقتل الوليد كان — كما لاحظ قلهوزن — بمثابة العلامة التي آذنت بسقوط أسرة بني أمية^(٣) . فقد بدا التفكك والانهيار واضحاً منذ تلك اللحظة في كيان الحكم الأموي الذي كان الفساد قد تطرق إليه بفعل ما ذكرت من عوامل سياسية — وعوامل أخرى سندكرها في الفصول التالية — كما كان قد تطرق إلى شخصيات الحلفاء أنفسهم إذ أغرقوا في اللهو وملذات الحياة ، فلم يعودوا يباشرون مصالح الإسلام بأيديهم منغمسة في الدنيا مجازاً — كما وصفهم بجولد زهير^(٤) — ، ولكن حقيقة واقعة كان لها دلائل في أواخر العصر الأموي خاصة حتى إن بني هاشم وبني الوليد قد رموا الوليد ابن يزيد بالكفر وغشيان أمهات أولاد أبيه^(٥) .

(١) تاريخ الدولة العربية : ٤٧٣ .

(٢) مروج الذهب : ٣٠٦ .

(٣) تاريخ الدولة العربية : ٣٥٦ .

(٤) مذاهب التفسير الإسلامي : ٢٨٩ .

(٥) تاريخ الطبري ٩ : ٣ .

وبينما كان الأمويون يصارعون العوامل السياسية المختلفة التي كانت تشتت طوال القرن الأول وفي أوائل القرن الثاني ، وبينما كانوا يغالبون الأحزاب السياسية التي كثرت كثرة هائلة واختلفت نزعاتها ومذاهبها إلا على العداء والكيد للأمويين ، في هذه الأثناء كانت الدعوة العباسية تأخذ سبيلها في دعة ويسر ، فالطبري ينبئنا أن الدعوة بدأت عام ١٠٠ هـ حين وجه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من أرض الشراة ميسرة إلى العراق ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وحيان العطار إلى خراسان ، وعليها يومئذ الجراح بن عبد الله الحكمي من قبل عمر بن عبد العزيز ، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته (١) .

والذي نلاحظه لأول وهلة أن العباسيين كانت لهم سياسة مرسومة وخطة موضوعة بعناية ، تركز على أساس من واقع الحالة السياسية التي شرحنا أمرها في الصفحات التي سلفت . كما تركز على دراسة دقيقة للتنظيم الاجتماعي الذي كان سائداً في هذا العصر ، وعلى دخائل نفوس الناس ومشاعرهم الحقيقية . ويمكننا أن نجمل أسس السياسة التي اتبعوها فيما يلي :

أولاً : بدأوا دعوتهم منذ وقت بعيد عن طريق الدعاة والقباء الذين انبثوا بين الناس يبشرون بهذه الدعوة الجديدة ويصورونها للناس تصويراً دينياً أخذاً في حين أنها كانت دعوة سياسية لا شك فيها . ولكن هذا الطابع الديني ظل مقترناً بها طوال حكم العباسيين كما ستمثل من اتجاهات الشعر السياسي فيما بعد . وبدء هذه الدعوة في وقت مبكر كان من الأسباب الهامة في نجاحها ، لأن مثل هذه الدعوات تستغرق وقتاً طويلاً حتى تتسرب إلى نفوس الناس وعقولهم ، وخصوصاً في هذا الوقت الذي كانت تسيطر فيه المذاهب السياسية والدينية المختلفة .

ثانياً : لما كان المذهب الشيعي هو السائد في العراق وخراسان وخاصة بين الموالي ، عمل العباسيون على توحيد جهودهم مع الشيعة في الدعوة حتى بدت الدعوتان في أول الأمر شيئاً واحداً ، وبذلك كسبت الدعوة العباسية جميع أنصار الشيعة . فلما انفصلت الدعوتان بقي من هؤلاء الأنصار عدد كبير يؤمنون بالدعوة العباسية فحسب . وقد عثر عبد العزيز الدوري على مخطوط قديم اسمه « أخبار أبي العباس . .

وولده « موضح فيه أن أصل الحزب العباسي حنفى - نسبة إلى محمد بن الحنفية - ويقول إن تشيع العباسية أصله من قبل محمد بن الحنفية ، وإلى ذلك دعا أبو مسلم ، ثم أثبتت الإمامة بعد ذلك للعباس بن عبد المطلب عم النبي (١) .

وتفصيل ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية أوصى بالإمامة من بعده إلى علي بن عبد الله بن العباس ، وأن علياً أوصى إلى ابنه محمد ، وأن محمداً أوصى إلى ابنه إبراهيم الإمام وأن إبراهيم الإمام أوصى إلى أخيه أبي العباس السفاح ، وهذه الطائفة من الشيعة التي تدعى بإمامة محمد بن الحنفية والتي تحولت في ولائها إلى الحزب العباسي هي الكيسانية .

ثالثاً : نظراً لهذا الارتباط بين الدعوة العباسية والمذهب الشيعي السائد بين الموالى اهتم العباسيون اهتماماً بالغاً بتوجيه دعوتهم إلى الموالى واختاروا أغلب نقبائهم منهم . وكانت الأمنية الحملة التي يمتنى بها الموالى هي المساواة ، ولهذا أخذوا ينضمون إلى جيش أبي مسلم بأعداد كبيرة متزايدة وخاصة أولئك الدهماء من الفرس الذين وجدوا في الدعوة العباسية الخلاص من الحكم الأموي البغيض أو هكذا زين لهم أبو مسلم ، وكان بشخصيته القوية وتأثيره النفاذ في الجماهير أملاً كبيراً وملاذاً حصيناً وهادياً لا يشك الناس في صدق ما يقوله أو يؤمن به . وكان أبو مسلم يقول للعبيد مشجعاً : « وأما عبد أتاناً راغباً في أمرنا قبلناه وكان له ما لنا وعليه ما علينا » . ثم عين داعياً خاصاً للعبيد ، فأخذوا يقبلون عليه (٢) . ولكن هل كان معنى توجه الدعوة العباسية ناحية الموالى أنها كانت معادية للعرب أو على الأقل لا تهتم برأيهم وما يعتقدون ؟ هذا ما صوره لنا المؤرخون فقد ذكر الطبرى أن إبراهيم بن محمد حين وجه أبا مسلم إلى خراسان بعث إليه برسالة يقول فيها : « وانظر هذا الحى من مضر فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت في أمره ، ومن كان في أمره شبهة ، ومن وقع في نفسك منه شيء ، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل . فأبما غلام بلغ خمسة أشبار تهمة فاقتله (٣) » والواقع إننا نشك في أمر هذه الرسالة - وننتفى في ذلك مع عبد العزيز الدوري - إذ لا يعقل أن تعادى الدعوة العباسية العرب عداء

(١) ضوه جديد على الدعوة العباسية - مقال بمجلة كلية الآداب والعلوم . بغداد - ١٩٥٧ : ٦٤ .

(٢) مجلة كلية الآداب والعلوم - بغداد ١٩٥٧ : ٧٩ .

(٣) تاريخ الطبرى ٩ : ٧٦ .

شديداً إلى حد قتلهم واستئصال شأفتهم ، في مقابل دعوة الموالى وضمان استجابتهم . وقد ذكر الدورى أن المخطوط الذى أشرت إليه من قبل يلمح إلى أن هذه الرسالة من أصل أموى . وقد وردت في هذا المخطوط رسالة من إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم يأمره فيها « بالتزول إلى اليمن وتألف ربيعة . . . وأن يجمع إليه من العجم ويحتضنهم ^(١) وهذا نص مقبول وأكثر منطقاً من النص الذى ذكره الطبرى وتابعه فيه الباحثون .

رابعاً : أمر العباسيون أبا مسلم بالعمل على التفرقة بين القبائل العربية حتى يشغل العرب عن تجميع الموالى والرقيق من الفرس وغيرهم ^(٢) . وقد نجح أبو مسلم في ذلك نجاحاً كبيراً فشغل العرب عما يحيط بهم حتى أفلت الأمر من بين أيديهم وصار إدراكهم للموقف بعد فوات الأوان . وقد أوضح العرب انزعاجهم الشديد لحركة الموالى والرقيق هذه في شعر كتبه نصر بن سيار يستمد يزيد بن عمر بن هبيرة على أبي مسلم فيقول :

أَبْلَغُ يَزِيدَ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ	وَقَدْ تَبَيَّنْتُ أَلَا خَيْرَ فِي الْكَذِبِ
أَنَّ خُرَاسَانَ أَرْضٌ قَدْ رَأَيْتُ بِهَا	بَيْضاً لَوْ أَفْرَخَ قَدْ حَدَّثْتُ بِالْعَجَبِ
فَرَاخٌ عَامِينَ إِلَّا أَنَّهَا كَبُرَتْ	لَمَّا يَطْرُنَ وَقَدْ سُرِبِلْنَ بِالزُّغْبِ
فَإِنْ يَطْرُنَ وَلَمْ يُحْتَلْ لَهُنَّ بِهَا	يُلْهَبْنَ نِيرَانَ حَرْبٍ أَيُّمَا لَهَبٍ ^(٣)

ثم خاطب نصر العرب من نزارية وبمانية وحذرهم هذا العدو الداخلى عليهم بينا هم منصرفون إلى خلافاتهم في قوله :

مَا بِالْكُمْ تُلْقِحُونَ الْحَرْبَ بَيْنَكُمْ	كَأَنَّ أَهْلَ الْحِجَا عَنْ رَأْيِكُمْ عَزَبُ
وَتَتْرَكُونَ عَدُوًّا قَدْ أَظْلَمَ لَكُمْ	مِمَّا تَأَشَّبَ لَا دِينَ وَلَا حَسَبُ
قَدْ مَأْ يَدِينُونَ دِيناً مَا سَمِعْتُ بِهِ	عَنِ الرَّسُولِ وَلَمْ تَنْزِلْ بِهِ الْكُتُبُ
فَمَنْ يَكُنْ سَائِلاً عَنْ أَهْلِ دِينِهِمْ	فَإِنَّ دِينَهُمْ أَنْ تُقْتَلَ الْعَرَبُ ^(٤)

(١) مجلة كلية الآداب والعلوم - بغداد ١٩٥٧ : ٧٨ .

(٢) انظر : تاريخ الطبرى ٩ : ٩٨ .

(٣) تاريخ الطبرى ٩ : ٩٨ . (٤) العقد الغربى ٢ : ٢٥٣ .

وقد ظهر انزعاج العرب أيضا في تلك الرسالة التي بعث بها عبد الحميد الكاتب على لسان مروان الجعدي - آخر خلفاء بني أمية - وقد وجهها إلى فرق العرب حين فاض العجم من خراسان بشعار السواد . وأهم ما جاء فيها تلك الصرخة التي ذهبت أدراج الرياح : « فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية من يد الفئة العجمية »^(١) .

خامساً : نجح العباسيون في اختيار مكان دعوتهم . فقد بدأوها في الكوفة حيث كثرة من الموالي المتشيعين الساخطين على بني أمية ، وحيث مركز السبئية وهي الفرقة الغالية من الشيعة . ولما تبين العباسيون أن الميول العلوية في الكوفة قوية جارفة ، وأن الروح القبلية فيها والعصبية العربية ما زالتا متمكنتين منها ، نقلوا مركز حركتهم إلى خراسان ، وهناك « صدور سالمة » . لم تنقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانة ولم يقدح فيها فساد ، ليست لهم اليوم همم العرب ولا فيهم كتحارب الأتباع للسادات ، وكتحالف القبائل وعصبية العشائر . وما يزالون يداونون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون^(٢) . وفي خراسان لم يقتصر الداخلون في الدعوة العباسية على الموالي المتشيعين ، ولكن دخل فيها جمهور الأتباع من الأعاجم ، فكان قسم كبير من جيش أبي مسلم يتكون من الفلاحين الفرس^(٣) ، والقسم الآخر يتكون من الكفّية وهم الذين كانوا يأخذون أرزاقهم من القمح بالكفة (الحفة) أو أنهم بايعوا على ألا يأخذوا مالا ، وأن تؤخذ أموالهم إن احتيج إليها ، يبتغون الجنة مقابل هذا الكف^(٤) .

وبهذه السياسة الدقيقة الحكيمة نجح العباسيون في دعوتهم واستطاع جيش أبي مسلم - وهو على ما وصفناه - القضاء على قوة الأمويين العربية في موقعة الزاب ، تلك الموقعة التي وصفها « هوار » بحق أنها كانت ثأراً لمعركة القادسية التي انهارت بعدها إمبراطورية الفرس^(٥) .

وعلى أثر قيام الدولة العباسية شعر الموالي والأعاجم - وبخاصة الفرس - بعظم الدور الذي لعبوه في إقامة هذه الدولة ، وأحسوا بكيانهم وشخصيتهم وقوتهم إذا

(١) رسائل البلغاء : ٢٢١ . (٢) تاريخ الطبري ٩ : ٧٦ .

(٣) ١ : ٢٨٣ : Histoire Des Arabes (٤) السيادة العربية والشيعة : ١٢٧

(٥) ١ : ٢٨٧ : Histoire Des Arabes

ما تجمعوا في وجه العرب . وهنا حدث تغير ضخم في ميزان القوى السياسية التي كانت تعمل عملها في القرن الثاني ، ذلك أن الموالى لم يعودوا كمًّا مهملاً في الحياة السياسية ، ولم يصبحوا مضطرين إلى اصطناع هذا الحزب أو ذاك للتعبير عن رأيهم بل إنهم شعروا بكيانهم كحزب قوى يمكننا أن نطلق عليه « حزب الموالى » قام إلى جوار الحزب العلوى والعباسى وغيرهما من الأحزاب السياسية التي وجدت في ذلك العصر . ودليلنا على قيام هذا الحزب تلك الثورات المتتالية التي قام بها الموالى أنفسهم ، بعد أن كانوا من قبل يشاركون في الثورات ضد الدولة فحسب . وكان من أثر قيام هذا الحزب السياسى ظهور حركة الشعوبية التي يتفاخر أصحابها بأصلهم العجمى ويدلون بأعجادهم على العرب . ولم تكن هذه الحركة في حقيقتها غير برنامج الحزب الذى دللنا على وجوده . وقد تطور هذا البرنامج ، فبعد أن كان أساسه المطالبة بالتسوية بين العجم والعرب ، أصبح تمجيذا للعجم وحضارتهم واحتقاراً للعرب وما كان في حياتهم القديمة من بداءة وسذاجة .

وفى رأى أن هذا الحزب نجح في حياته السياسية إلى حد كبير ، لا بما بلغه في التاريخ الإسلامى من نفوذ قوى ، ولكن بظهور دويلات فارسية قوية كالسامانيين والبويهيين بعد ذلك .

وكان نجاح الموالى في إقامة الدولة العباسية هو الحافز القوى الذى أوجد هذا الحزب المتكامل العناصر ، والذى لم يكن يجرؤ على الظهور إبان الحكم الأموى . والحقيقة إن العباسيين قد حققوا للموالى كثيراً مما كانوا يتوقون إليه ، فقد أصبحت سياسة الحكم لا تفرق بين العرب والفرس في خدمة الحكومة ، وأصبحت الفرص متكافئة أمام الجميع في الجيش والإدارة على السواء . وأسندت بالفعل إلى الموالى عدة مناصب هامة في قصر الخليفة وفي الجيش وفي إمارة الولايات الإسلامية .

ولكن هذا التطور الكبير في الحياة السياسية بالنسبة للموالى لم يزد هم إلا اعتزازاً بأنفسهم وشعوراً بقوتهم ، وبدأ يغريهم بالعرب ليستلبوا منهم السيادة إلى الأبد ويسترجعوا سلاطنتهم القديم . وأحس الخلفاء العباسيون الأولون هذه الثورة في نفوس الأعاجم وهذه الأمانى الجديدة التي بدأت تجيش في نفوسهم ، فأدركوا أن حكمهم سوف يتعرض لخطر ماحق من قبل هؤلاء الموالى والأعاجم ، وخاصة أن أبا مسلم

الخراساني قد اكتسب شعبية هائلة في قومه ، وصديقا بعيد المدى بينهم ، كما أن انتصاراته المتلاحقة أدخلت في روع الموالى والأعاجم جميعاً أنه ليس بشراً عادياً ، ولكن به جزءاً إلهياً جعل له هذا التأثير القوي وحقق له الغلبة على خصوم كثيرين معاندين . وهذا هو السبب الوحيد - في رأيي - لإقدام المنصور على قتل أبي مسلم . أما فيما عدا ذلك من أسباب فلا تعدو أن تكون من خيالات المؤرخين والرواة . ولعل في هذا النص الذي أورده الطبرى ما يدلنا دلالة قاطعة على أن أبا مسلم قد أحس سطوته ونفوذه وأنه كان لا يستحي أن يصرح بما يحسه أمام الخليفة نفسه . يذكر الطبرى أن أبا مسلم « نظر إلى أبي جعفر وقد جزع جزعاً شديداً فقال : ما هذا الجزع وقد أتت الخلافة ؟ فقال : أتخوف شر عبد الله بن علي وشيعة علي . فقال : لا تخفه فأنا أكفيك أمره إن شاء الله ، إنما عامة مجنده ومن معه من أهل خراسان وهم لا يعصونني ^(١) » .

وما إن قتل أبو مسلم - الذي اعتبره أول رئيس فعلي لحزب الموالى - حتى قام أنصاره بسلسلة من الثورات والفتن التي أقضت مضجع الدولة ، وحتى أعرب أكثر الموالى عن استيائهم الشديد وخيبة أملهم في الحكم العباسي الجديد ، عبر عن ذلك أبو العطاء السندی في قوله :

يَا لَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ عَادَ لَنَا بِالْيَتِّ عَذْلَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي النَّارِ ^(٢)

ومن أول الموالى الذين ثاروا في عهد العباسيين « شريك » الذي ثار ببخارى في خلافة السفاح ، « وشريك » هذا - كما يبدو لي - كان من المخدوعين في الدعوة العباسية الذين قبلوها على أساس شيعي ، فلما وجد أن العباسيين بالنسبة لأبناء علي أشد وأقسى من الأمويين ، قام بثورته الفردية تلك وبعه المخدوعون من أمثاله ، وقد أوضح سبب ثورته في جملته التي قال فيها : « ما على هذا اتبعنا آل محمد : على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق ^(٣) » .

أما أولئك الذين ثاروا عقب مقتل زعيمهم أبي مسلم فأولهم « سباز » ثم « ملبد ابن حرمة » وتعاقب بعدهما الخارجون : جهور بن مرار ، وحكيم المقنع ، ويوسف

(٢) الأغاني ١٦ : ٨٤ .

(١) تاريخ الطبرى ٩ : ١٥٥ .

(٣) تاريخ الطبرى ٣ : ٧٤ .

البرم وغيرهم . وقد ذهب أكثر هؤلاء الخارجين إلى أن أبا مسلم أحد أعقاب زرادشت الذى ينتظر المجوس ظهوره ، كما تمثلوه أيضاً فى صور أسطورية مختلفة^(١) . كان هذا إذن هو موقف العباسيين الأولين من الموالى : إرضائهم والعطف عليهم ، ولكن ليس على حساب العرب ، بل على أساس تكافؤ القرص أمام الجميع ، وهى السياسة الإسلامية الأصيلة التى انحرف عنها الأمويون للظروف التى شرحتها من قبل .

والواقع إن أغلبية الدارسين قد توهموا نظام الخلافة العباسية منذ نشأتها للنفوذ الفارسى ، والتخلى عن عروبيتها ، بسبب ما لاحظوه من أخذ العباسيين بنظم الفرس وحضارتهم ، وبسبب قيام الدولة على أكتافهم وسواعدهم^(٢) . ولكن الحقيقة التاريخية تغاير ذلك . فالخلفاء العباسيون الأولون لم يتخلوا قط عن عصبيتهم للعروبة ، وإن كانت بحكم التطور الاجتماعى والسياسى الذى حدث فى هذا العصر قد خفت حدتها كثيراً عن ذى قبل . ومما يؤكد بقاء آثار للعصبية العربية فى نفوس الخلفاء العباسيين الأولين ما رواه الطبرى من أن المنصور سأل خادماً له فى يوم من الأيام : « ما جنسك قال : عربى يا أمير المؤمنين . قال : ومن أى العرب أنت ؟ قال : من خولان سبيت من اليمن فأخذنى عدو لنا فجببته فاسترققت . . قال : أما إنك نعم الغلام ولكن لا يدخل قصرى عربى يخدم حرى . اخرج عافاك الله^(٣) » .

بيد أن هذه العصبية العربية أخذت تتضاءل وتكتمش شيئاً فشيئاً أمام طغیان الأعاجم وتكاثرهم ، وبسبب ظهور طبقة مولدة جديدة كانت حائرة فى عصبيتها إلى هؤلاء وهؤلاء . وكان هناك صراع خفى دائم بين النفوذيين العربى والأعجمى طوال حكم العباسيين ، يظهر أحياناً ويستعلن فيميل الخلفاء إلى أحد الجانبين سرا أو علانية . ونحن نلاحظ هذا الأمر أيام الرشيد ، فهو تارة يقدم الفرس ويسلم إليهم قيادة الجيش وأزمة الدولة ، وتارة أخرى يقصمهم ويقدم العرب عليهم ويغرى الشعراء

(١) السيادة العربية والشيعة : ١٣٢ .

(٢) مثال ذلك أن « الفرد جيوم » يسمى فترة الحكم العباسى بفترة السيادة الفارسية ويقول إن الأمويين كانوا عرباً أولاً وأخيراً ، أما العباسيون فكانوا عرباً اسماً فقط (انظر : الإسلام : ٨٢ ، ٨٣) ، وكذلك يسمى جورجى زيدان الفترة من السفاح إلى المتوكل عام (٢٣٢ هـ) العصر الفارسى الأول . انظر : تاريخ المدن الإسلامى ٤ : ١٢٢)

(٣) تاريخ الطبرى ٩ : ٣١٧ .

بمدح قواده العرب كيزيد بن مزيد الشيباني وغيره ليظهرهم على الفرس . والحقيقة أن البرامكة قد لعبوا دوراً خطيراً في سياسة الدولة في هذا القرن الثاني ، وصارت إليهم — في رأي — قيادة حزب الموالي وتوجيه سياسته في الخفاء . لهذا كانت الإطاحة بهم ضربة للنفوذ الفارسي والموالي والأعاجم جميعاً ، ولكنهم ما لبثوا أن أفاقوا منها حين احتدم الصراع بين الأمين العربي النسب من جهة أبيه وأمه ، وبين المأمون العربي النسب من جهة أبيه فقط ، ذلك الصراع الذي كان بمثابة امتحان لقوة الجانبين : العربي والفارسي ، وكانت نتيجة انتصار الفرس على العرب ، حتى إن مجورجي زيدان عبر عن ذلك بقوله : « ذهب عصبية العرب بذهاب دواة الأمين ^(١) » . وكان بوسع قواد المأمون الذين وقع الأمين في أيديهم أن يأسروه دون قتله والتمثيل به كما فعلوا ، ولكنهم خشوا أن يرق قلب المأمون على أخيه فيستمر بذلك تغلب النفوذ العربي ، ولهذا أسرعوا بقتله انتقاماً من العرب وتحدياً لنفوذهم . وكان هؤلاء القواد جميعاً من الفرس كما تنبأ كتب التاريخ ^(٢) . وقد بلغ من تعصب طاهر بن الحسين — قائد المأمون — لأصله الأعجمي أن حديثه وهو في التزع الأخير كان بالفارسية ، ويذكر طيفور أنه قال « در مرك نیز مردی باید » أي أن الموت يحتاج أيضاً إلى الرجولة ^(٣) .

والمأمون نفسه كان فارسي الهوى فيما يبدو ، ويتضح هذا من رده على رجل تعرض له بالشام مراراً وقال له : يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ^(٤) ! وما لا شك فيه أن الذي ساعد الأعاجم على أن يكون لهم هذا النفوذ القوي شيئاً فشيئاً ذلك التحول الخطير الذي حدث في الجيش ، إذ أخذ نفوذ العرب وعددهم يتضاءل فيه ، بينما يتعاظم نفوس الفرس وعددهم . وقد ساعد البرامكة على إحداث هذا التحول بقوة ، فراهم يتخذون جيوشاً خاصة بهم ، كالفضل بن يحيى مثلاً الذي اتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية وجعل ولاءهم له ، وبلغت عدتهم خمسمائة ألف رجل ، وقدم بغداد منهم عشرون ألفاً ^(٥) .

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٤ : ١٥١ .

(٢) انظر مروج الذهب : ٢٤٥ .

(٣) كتاب بغداد : ٧٣ .

(٤) تاريخ الطبري ١٠ : ٢٩٦ . (٥) المصدر نفسه ١٠ : ٦٢ .

وإذا نظرنا إلى سياسة العباسيين تجاه الأحزاب الأخرى نجد أنهم حاولوا ما أمكن استئصال شأفة الأمويين ، ونجحوا في هذا الغرض نجاحاً كبيراً مما جعل الحزب الأموي ينكمش ويتضاءل ولا تصدر عنه غير صيحات خافتة تشبه أنين الترع كما ستبين عند الحديث عن الشعر السياسي . أما الحزب العلوي فكانت صلته بالعباسيين قبل وصولهم إلى الحكم صلة قرابة ومصالح مشتركة متحدة - كما سبق أن أوضحنا - ونجاح الدعوة العباسية إنما يعزى إلى ارتباطها بالدعوة الشيعية بالنسبة لأهل خراسان خاصة . وكانت هذه السياسة حركة بارعة من العباسيين أدت بهم إلى مقاعد الحكم فلما استقروا فيها تخلوا عن العلويين ، بل نكلوا بهم خوفاً من سطوتهم وقوة تأثيرهم على الجماهير في خراسان حيث مركز النفوذ الشيعي . وقد مر بنا نص يوضح كيف أن المنصور كان منخوفاً منهم أشد التخوف ، وتكشف لنا سياسة المنصور وهي تمثل سياسة العباسيين جميعاً - واضحة جليلة في خطبته التي ألقاها على المنبر حين ظفر بعبد الله بن حسن وإخوته والنفر الذين كانوا معه ، قال : « يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا . . . وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب ، تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم بقليل ولا كثير ، فقام فيها علي بن أبي طالب فتطخ وحكم عليه الحكمان فافترقت عنه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة . ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن علي ، فوالله ما كان فيها بربل ، وقد عرضت عليه الأموال فقبلها ، فدس معاوية إليه أني أجعلك ولي عهدي من بعدى فخدعه فانسح له مما كان فيه وسلمه إليه ، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غداً ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن علي فخدعه أهل العراق . . فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة وغروه فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه . فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا ، وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا وبغياً لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث النبي صلى الله عليه وسلم^(١) »

ويتضح لنا من هذا النص الموقف الجدي الذي اتخذته العباسيون إزاء الحركة

العلوية . وقد أثر هذا الموقف بطبيعة الحال في الشعر تأثيراً قوياً ، فإذا بنا أمام شعر سياسي جديد يتناصر العباسيين ويؤكد حقهم في الخلافة على هذا الأساس الذي ورد في خطبة المنصور ، أي على أساس أنهم ورثة الرسول ، وأنهم كانوا أحق بالخلافة منذ زمن بعيد لولا أنهم عفا عنها وتنازلوا للعلويين ، فلما لم يستطع هؤلاء أن يشبوا للموقف اضططر العباسيون إلى تولى الأمر بأنفسهم . وظل موقف العباسيين إزاء العلويين على ما هو عليه ، إلا من بعض التقارب الذي حدث أيام المأمون والذي كان التأثير الفارسي وراءه فيما يبدو . ولكن هذا التقارب كان عمره قصيراً ولم تلبث الأمور أن عادت إلى ما كانت عليه قبل ذلك .

وسياسة العباسيين هذه تدفعنا إلى التفكير في هذا التغير الذي طرأ على شكل الحكومة الإسلامية . فالواقع إن الانقلاب العباسي لم يكن انقلاباً سياسياً فحسب وتغيير ملك بملك ، ولكنه كان أيضاً — كما يقول جولد زيهر — تطوراً عميقاً في العلاقات الدينية . فبدلاً من الأمويين الذين حكم عليهم الأتقياء بأنهم أهل دنيا ، جاء العباسيون الذين لم يقبلوا قط أن يكونوا ملوكاً ، بل أرادوا أولاً وبالذات أن يحسبوا أنهم أئمة ، وأن تفهم حكومتهم على أنها حكومة دينية^(١) . وهذا التحول الجذري — في رأي — كان ضرورياً لاحتياج الدولة إلى استخدام الدين والتأثير به على عقول الجماهير — وخاصة في خراسان — ولجابهة الدعوة العلوية التي كانت تتركز في أساسها على الدين أيضاً . ويرى كثير من الباحثين أن هذا التحول كان نتيجة للتأثر بالأفكار الفارسية . فجولد زيهر يقول إن المثل الأعلى للحكومة الفارسية كان تأخى الدين والدولة ، وهو ما أخذت به الدولة العباسية ، فلم يصبح الدين مصلحة الدولة فقط ، ولكنه مصلحتها ومهمتها العالية^(٢) . ويقول باحث آخر إن الخلافة العباسية قامت على أساس نظرية الحق الملكي المقدس ، ومفهومها عند الفرس أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مغتصباً لحق غيره ، لذلك أصبح الخليفة العباسي يحكم بتفويض من الله لا من الشعب كما يتجلى ذلك في قول أبي جعفر المنصور : « إنما أنا سلطان الله في أرضه »^(٣) .

(١) العقيدة والشرعية في الإسلام : ٤٨

(٢) المصدر نفسه : ٤٩ .

(٣) النظم الإسلامية : ٦٣ .

وعلى هذا الأساس وصف نكلسون نظام الحكم العباسي بأنه نظام استبدادي كان مألوفاً عند الفرس منذ أيام داريوس ، وأن العباسيين حكموا البلاد حكماً مطلقاً على النحو الذي كان يحكم به ملوك آل ساسان قبلهم . ويرى نكلسون أيضاً أن تغيير عاصمة الخلافة كان له أثره في ذلك^(١) .

وهذا الرأي - في نظري - ليس الحقيقة كل الحقيقة ، لأن الأمويين - على الرغم من حكمهم الدنيوي - كانوا يحكمون حكماً مطلقاً . ومع ذلك لم يربط باحث بينهم وبين الساسانيين . و « بالمر » يرى نفس ما رآه نكلسون ويضيف إلى ذلك أن نظام الوزارة والحجابه واتخاذ السياف كان أيضاً نتيجة تأثير الفرس^(٢) . ونحن لا ننكر التأثير الفارسي والبيزنطي أيضاً حتى في نظام الحكم الأموي^(٣) ، ولكننا نؤثر الأناة في نسبة كل نظام إسلامي إلى تأثير أجنبي ، فالواقع إن تعقد النظام السياسي والإداري للدولة الإسلامية كان يفرض عليها اقتباس النظم المختلفة ، ولكنها في الوقت نفسه كانت تبذل محاولة صادقة لتعريب هذه النظم . فالأمويون اتخذوا الحجاب حقاً ، وتعدد الكتاب في عهدهم بصورة لم تعهدها الدولة من قبل ، ثم اتسع هذا النظام أيام العباسيين وكثرت الدواوين كثرة يبررها تعقد الحياة في نواحيها المختلفة ، ولهذا وجد ديوان الزمام أيام المهدي ، وهو يشبه في عمله ديوان المحاسبة الآن ، ووجد ديوان خاص لرعاية مصالح أهل الذمة ، كما وجد ديوان للبريد ، وآخر للموالى والغلمان وهكذا^(٤) . وعلى الرغم من تسمية زياد بن أبيه وزير معاوية^(٥) إلا أن هذا المنصب لم يوجد إلا في أيام العباسيين ، لحاجة الخلفاء إلى وسيط بينهم وبين الرعية . وما يدلنا على رغبة الدولة في تعريب النظم المقتبسة ، تلك المحاولة الناجحة التي قام بها عبد الملك بن مروان لتعريب الدواوين ، وكانت السجلات حتى أيامه تكتب باليونانية في الشام وبالفارسية في العراق وفارس . وكان هذا التعريب

(١) A Literary History of The Arabs : ٢٥٦

(٢) Haroun Al-Raschid: ٣٧

(٣) يرى محمد كرد علي في كتابه « الإدارة الإسلامية في عز العرب » أن العرب مبتدعون لأغلب النظم والأساليب (انظر : ص ٥) وليس لهذه النظرة المتحمسة ما يبررها إلا ما يستلزمه من الأدلة .

(٤) النظم الإسلامية : ١٨٠ وما بعدها .

(٥) تاريخ الطبري ٢ : ٧٨ .

ضرورة تقتضيها مصلحة الدولة لتحافظ على أسرار مكاتباتها وميزانياتها . وقد ظل الديوان في خراسان بالفارسية حتى آخر الدولة الأموية وكان كتابه من المحجوس ولم ينتقل إلى العربية إلا عام ١٢٤ هـ (١) .

ذلك إذن كان طابع الخلافة العباسية التي بدأت سيطرتها على الحياة السياسية في الإسلام ابتداء من الثلث الثاني للقرن الذي نتحدث عن اتجاهات الشعر فيه ، وذلك أيضاً كان موقفها من الأحزاب السياسية التي كانت موجودة من قبل بروزها إلى الحياة كالحزب الأموي والحزب الشيعي . أما حزب الخوارج فقد بدد الأمويون قوته في القرن الأول وأوائل الثاني فضعف شأنه في خلال الحكم العباسي ضعفاً ظاهراً ، واضطرت بعض فرقته إلى نقل نشاطها بعيداً عن مسرحها القديم في العراق ، فارتفع شأنها في شمال أفريقية وفي مناطق أخرى بعيدة ، ولكن ظل صدى ذلك الحزب في الشعر ضعيفاً خافتاً .

واستعرضنا في خلال حديثنا أيضاً موقف الأمويين والعباسيين من الموالي والأعاجم ، وتبعنا حركات هؤلاء الموالي حتى انتهت إلى الإيمان بوجود حزب جديد لهم ، نشأ بانتصار العباسيين على أكتافهم وبمساندتهم . ولم نغفل أيضاً بحث الصراع بين العرب والأعاجم ، ذلك الصراع الذي كان من العوامل الفعالة في الحياة السياسية في القرن الثاني . والشئ الأخير الذي ينبغي أن أذكره لاستكمال عناصر الحياة السياسية في القرن الثاني هو العصبية القبلية ، ذلك أن نازها لم تخمد في هذا القرن سواء في عهد الأمويين - كما رأينا - أم في عهد العباسيين ، في حين أن المرء كان يظن عكس ذلك نظراً لاستقرار العرب في المدن والحوضر وأخذهم بأسباب التقدم ، وارتباطهم بأقائهم ومدنهم ومواطنهم الجديدة . ونظراً لازدياد حركة اندماج العرب والأعاجم وتزاوجهم ونشوء طبقة جديدة مولدة لها خصائص عقلية ونفسية غير التي كانت للأجيال العربية السابقة ، ونظراً أيضاً لظهور الأعاجم في صورة حزب منظم له قوة فعالة وسياسة ثابتة ، كان ينبغي للعرب إزاءها الاتحاد وربذ العصبية القديمة الضيقة ، ولكن بالرغم من ذلك كله بقيت الخلافات القبلية بين النخبة

(١) انظر : كتاب الوزراء والكتاب : ٦٧ .

والمضربة أمداً طويلاً ، وكان لها صدى قوى في شعر القرن الثاني ، وتأثير خطير في السياسة العامة للدولة ، كما سنوضح ذلك في موضعه من هذا البحث .

على أنه ينبغي أن نذكر أن التأثير السياسي ليس ضرورياً أن يظهر صده في الشعر السياسي فحسب ، بل ربما ظهر في أكثر من اتجاه من اتجاهات الشعر في القرن الثاني ، ذلك لأن هذه التأثيرات المختلفة التي نتحدث عنها في هذا الباب كانت مختلفة ومتشابهة كما سنرى في الفصول التالية .

الفصل الثاني التأثير الاجتماعي

ما إن خرج العرب من جزيرتهم يرتادون آفاق الأرض لنشر الدعوة الإسلامية ومحاولة إدخال شعوب الأرض فيها ، حتى طرأ على حياتهم تغير ضخم وخاصة في تكوين مجتمعاتهم الإسلامي . ذلك أن هذه الفتوحات المتوالية شملت عدداً من أجناس الأرض ، ومناطق مختلفة في طبيعتها وحضارتها وخصائصها الاجتماعية . كما أخرجت عدداً ضخماً من العرب من موطنهم الأصلي إلى مواطن جديدة استقروا فيها شيئاً فشيئاً ، وتزاوجوا مع أهلها وتسلطت عليهم مؤثرات جديدة غيرت من حياتهم في كل شيء تقريباً . حتى الجزيرة العربية نفسها لم تعصم من هذه المؤثرات ، بل غزتها وتسلطت عليها عن طريق الجوارى والرقائق الذين تدفقوا إليها يحامون معهم صورة حياتهم ومزاج طبيعتهم وصدى مجتمعاتهم بما فيه من خير وشر .

والحق إن القرن الأول كان مسرحاً لتفاعل المؤثرات والعوامل التي ظهرت آثارها واضحة بجلية في تكوين المجتمع الإسلامي في القرن الثاني الهجري . وأهم هذه العوامل والمؤثرات هجرة العرب من أرضهم بأعداد متزايدة واستقرارهم في مناطق جديدة . وقد طرأ على هذا العامل عدة تغيرات هامة في سياسة الدولة . ذلك أن عمر بن الخطاب كان قد حرم على العرب أن يمتلكوا الضياع في الأقاليم الجديدة أو أن يتخذوها وطناً ومقاماً . كما جعلهم بمعزل عن المدن الكبيرة في البلدان المفتوحة^(١) وكان عمر يرمي من وراء ذلك إلى حفظ الجنس العربي دون اختلاط ، وإلى بقاء العربي محتفظاً بخصائصه النفسية والحربية الممتازة ، وألا يتراخى في أداء واجبه العسكري تجاه الدولة ، وأن يظل مشدوداً أبداً إلى جزيرته العربية ، ولكن لم يكن هناك مفر من تغير هذه السياسة والسماح للعرب الفاتحين بالاستقرار شيئاً فشيئاً في الأقاليم المفتوحة . وسرعان ما نشأت في القرن الأول مجتمعات جديدة في هذه الأقاليم

(١) انظر تاريخ الطبري ١ : ٢٧٣ .

تتكون من خليط من العرب والأجناس الأصلية . وقد تمثل استقرار العرب في العراق — ذلك الإقليم الذي تدفق إليه المهاجرون لخصوبة أرضه وغناه — في ظاهرة بناء المدن وتمصير الأمصار ، ليبدأ فيها المهاجرون حياة جديدة في بيئة جديدة بعيداً عن الحياة القبلية والبيئة الصحراوية . وحينما لاحظ عثمان بن عفان تدفق العرب إلى الأمصار المفتوحة — وخاصة العراق — اقترح أن ينقل إلى الناس فيهم حيث أقاموا من بلاد العرب فلا يقيم في الأمصار إلا من كان له في الإقامة فيها أرب ، ماعدا الجند بالطبع فليس من إقامتهم في الأمصار بد^(١) . فكان لهذا الاقتراح — كما يقول طه حسين — أبعد الأثر في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعقلية . فكبار الصحابة الذين كانوا يملكون مالا وفيراً ، أنفقوه في شراء الأرض في الأقاليم لأنها أخصب تربة وأيسر استغلالاً ، فنشأ عن ذلك ظهور الملكيات الضخمة في العراق وغيره من الأقاليم ، لأن الذين استطاعوا أن ينتفعوا بهذا الاقتراح إنما هم أصحاب الأموال الضخمة الذين كانوا يستطيعون أن يشتروا من أصحاب الملكيات الصغيرة ما يملكون ، وهكذا جددت الإقطاعات الكبيرة الضخمة والضيايع الواسعة العريقة ، وقام فيها العاملون من الرقيق والموالي ، فظهرت في الإسلام طبقة جديدة من الناس هي « البلوتقراطية » التي تمتاز — إلى أرستقراطيتها التي تأنيها من المولد — بكثرة المال وضخامة الثراء وكثرة الأتباع . أما بقية عناصر المجتمع فكانت ترجع إلى طبقتين : طبقة البائسين الذين يعملون في الأرض ويقومون على مرافق هؤلاء السادة ، وطبقة العامة من العرب وهي الطبقة المتوسطة في هذا المجتمع الجديد^(٢) .

ولم يكن اقتراح عثمان وحده سبب ظهور هذه الطبقة الفاحشة الثراء التي أقبلت على شراء الأرض ، مما نتج عنه تقسيم المجتمع إلى هذه الطبقات الثلاث ، ولكن نظام القطائع واستغلال الأموال في البناء والعمارة كانا من عوامل ظهور هذه الطبقة الثرية أيضاً — كما يقول طه الحاجري^(٣) — ذلك أن اللولة وجدت نفسها تملك أراضى واسعة كانت تسمى الصوافى ، وهي عبارة عن الأراضى التي ليس لها مالك وكل مغيبض ماء أو أجمة . وفي أيام عمر كانت هذه الأراضى تقطع في اقتصاد

(١) انظر : تاريخ الطبرى حوادث سنة ٣٠ هـ .

(٢) انظر : الفتنة الكبرى : ١٠٣ وما بعدها .

(٣) محاضرات في الأدب العباسى لطله الحاجرى .

شديد ، ولكن منذ أيام عثمان كثرت القطاعات كثرة ظاهرة مما ساعد على وجود الطبقة التي سلف بها القول .

وقد ظل المجتمع الإسلامي يتكون من هذه الطبقات الثلاث مدة طويلة ، ولكن الصراع بينها كان شديداً طوال القرن الأول ، مما نتج عنه بعض التغير في حالة هذه الطبقات . ولا نقصد بهذا التغير الناحية المادية ونسبة توزيع الثروة بينها ، فقد ظلت حالة تلك الطبقات من هذه الناحية على ما كانت عليه تقريباً ، إلا من أفراد قلائل تنقلوا بين هذه الطبقات ارتفاعاً وانخفاضاً ، ولكننا نقصد بهذا التغير المكانة الاجتماعية وتوجيه الأمور في القرن الثاني . فطبقة البائسين تلك التي قصد بها الموالى والأعاجم بصفة عامة قد ارتقت كثيراً وعلا شأنها في خلال القرن الأول ، فارتفع أغلب أفرادها إلى الطبقة الوسطى ، كما ارتفع عدد منها إلى الطبقة الأرستقراطية المتميزة ، وذلك لأنها اتخذت لبلوغ هذا الرقي وسائل كثيرة ، من بينها اصطناع السياسة واستخدامها لتحقيق المساواة بينها وبين العرب في الحقوق والواجبات ، وقد بينت هذه الناحية عند حديثي عن التأثير السياسي . ومن هذه الوسائل أيضاً إقبالها على تعلم الثقافة العربية في فروعها المختلفة ، وإتقانها هذه العلوم والمعارف ، وتفوقها على العرب فيها أحياناً ، وسنتناول هذه الناحية عند التحدث عن التأثير الثقافي .

ولعل من أهم العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية منذ القرن الأول حركة التعريب الجنسي التي أخذت سبيلها منذ بدء عصر الفتوح عن طريق السبي الذي كان نتيجة مباشرة لحركة الفتح ، وعن طريق الزواج بالكتابات الفارسيات وغيرهن من الأجناس الأخرى ، وعن طريق الموالى وهم الأعاجم الذين أسلموا وكانوا عاملاً هاماً خطيراً في نشر اللغة العربية في المناطق المفتوحة ، وفي التقريب بين العنصر العربي والعناصر الأخرى . والحقيقة إن سيل العناصر الفارسية بالذات كان من القوة في القرن الأول وما تلاه بحيث كانت اللغة الفارسية تحتل مكان الصدارة في العراق وفي خراسان ، وفي هذه المناطق التي كانت تتكلم الفارسية أصلاً . وقد بلغ من عظم نفوذ الفارسية أن أسماء الأماكن في البصرة كانت على صيغ فارسية مثل : مهلبان ، أميتان ، عبادان — كما لاحظ يوهان فلك^(١) . وقد خضعت البصرة والكوفة للتأثير

الفارسي إذ كان يرد إليهما سيل من التجار والصناع الفرس ، سرعان ما كونوا مع أسرى الحرب ذوى الأصل الفارسي أغلبية السكان في هذين المصرين ، حتى صار للغة الفارسية مكان خطير إلى جانب العربية .

ومع ذلك كله كانت عوامل التقريب تعمل عملها في إدماج هذه العناصر المختلفة ومحو أسباب الاختلاف فيما بينها من نواحيها المتباينة ، حتى إذا أوشك القرن الأول على الانتهاء كان المجتمع الإسلامي قد ظهرت ملامحه واتجاهات حياته وخصائصه بوجه عام . ففي خراسان — كما في غيرها من المناطق المفتوحة — نجد أن العرب الذين هاجروا إليها واستوطنوها قد تأقلموا في وطنهم الجديد وأحسوا أنهم جزء منه ، وبذلك اندمجوا في حياته الاجتماعية اندماجاً كاملاً حتى إنهم كانوا يلبسون السراويل كما يلبسها أهل خراسان ، ويشربون النبيذ ويحتفلون بعيد النوروز والمهرجان ويشاركون في كل مظهر كان الخراسانيون يجعلونه سمة لمجتمعهم . ولم يكن معنى هذا ذوبان الجنس العربي القليل العدد في المجتمعات المحلية للأقاليم المفتوحة ، ولكن كان معناه اندماج العرب في حياة هذه المجتمعات وتأثرهم بها . كما أنهم بلا شك أثروا فيها تأثيراً قوياً برز في سرعة انتشار الإسلام في هذه المجتمعات ، وسرعة انتشار اللغة العربية وآدابها أيضاً . ويبدو أن انتشار حركة التشيع في العراق وخراسان بصفة خاصة قد ساعد على سرعة اندماج العرب والأعاجم في تلك المنطقة .

وما لا شك فيه أن العرب — بدرجة تحضرهم المحدودة — لم يستطيعوا أن يتجنبوا المؤثرات الحضارية القوية التي تسلطت عليهم من الحضارتين البيزنطية والفارسية ، وكانتا أرقى حضارتين في العالم في ذلك الوقت . وكان تخرج العرب من الخضوع لهذه المؤثرات شديداً في بدء اتصالهم بها . فقد حدث في خلافة عمر بن الخطاب أن وقع حريق في القصب الذي كانت الكوفة قد بنيت به ، فلما استأذنه في بنائها بالحجارة ؛ قال : افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطالوا في البنيان والزموا السنة^(١) .

فلما كان عهد عثمان — وكان من نتائج اقتراحه أن ينقل إلى الناس فيهم حيث أقاموا من بلاد العرب ما رأينا من ظهور الملكيات الضخمة في العراق وغيره من

(١) تاريخ الطبري ١ : ٢٧١ .

الأمصار الإسلامية — وجدنا الصحابة أنفسهم يقتنون الضياع ويبتنون الدور ذات الشرفات كما يروى المسعودي . وفي هذا الوقت نفسه كان معاوية في ولايته على الشام يقتبس من نظم حكم البيزنطيين وحضارتهم الشيء الكثير حتى إن عمر بن الخطاب قال له عند قدومه إلى الشام ورؤيته مظاهر الأبهة والحضارة الجديدة : أكسروية يا معاوية ؟^(١) . وعمر لا يقصد بهذه العبارة نسبة الحضارة إلى الفرس ولكنه يعنى أن معاوية قد اتخذ من أسباب الحضارة ما يجعله شبيهاً بكسرى . ثم تدفقت الأموال على الدولة الأموية في أعقاب الفتوح العديدة التي قامت بها ، فافتن العرب عند ذاك في وجوه إنفاق هذه الأموال الطائلة ، ولم تكن حضارتهم العربية الساذجة تتيح لهم طريقة إنفاق هذه الأموال ، ولكنهم وجدوا بغيثهم في الحضارتين البيزنطية والفارسية وما كانتا تتميزان به من فخامة وأبهة في الثياب والدور والمآكل والمشرب وأفانين اللهو والاستمتاع بالملذات ، لهذا وجدنا فتى عربياً كيزيد بن معاوية — وهو بعد قريب من عهد الرسول — يقبل على الخمر لإقبال النهم حتى إنه كان يسمى « يزيد الخمرور »^(٢) كما يقبل على الصيد وأنواع الملاحى غير متحرج . يقول المسعودي في ذلك : « وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقروود وفهود ومنادمة على الشراب . وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاحى وأظهر الناس شرب الشراب . . وكان له قرد يركبه أتاناً ويسابق به الخيل يوم الحلبة^(٣) ! » وهذا النص — إن صح — يطلعنا على التحول الكبير الذى طرأ على شكل المجتمع الإسلامى منذ وقت مبكر من القرن الأول الهجرى ، وهو يشير إلى بدء تحلل المجتمع من ارتباطه بالدين والحياة الإسلامية التى أخذ بها نفسه في عهد الرسول والخلفاء الراشدين^(٤) . وإلى بدء انغماسه في المظاهر الحضارية التى تصاحب اتساع رقعة الدولة وتدفق المال إليها من كل جانب ، وما مظاهر الحضارة إلا هذه التى أخذ

(١) تاريخ ابن خلدون ١ : ٣١٢ .

(٢) العقد الفريد ٦ : ٣٤٨ .

(٣) مروج الذهب : ٧٤ .

(٤) يقول فون كرىمر « إنه على الرغم من تحريم القرآن أدخلت في بلاط الخلفاء الأمويين عادة شرب الخمر في زمن متقدم شربوا أولاً عصير العنب المغلى (الطلاء) أو شراباً مأخوذاً من اليونان سدوه بالاسم اليونانى (رساطون) (الحضارة الإسلامية : ٩٢) .

بها أمثال يزيد بن معاوية أنفسهم ، فالحضارة — كما يقول ابن خلدون — « تفنى في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله ، فلكل واحد منها صنائع في استجاداته والتأنق فيه . وهي تتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد ^(١) » .

ذلك إذن هو الجانب المادى من الحضارة التى بدأت تشيع فى أوائل القرن الأول ، وهذه الحضارة لا يمكن أن تكون بيزنطية فقط أو فارسية فقط ، ولكنها خليط من حضارات مختلفة للأمم التى دخلت فى نطاق الفتوحات العربية ، ولو أن الكتاب يحبون أن يجعلوا التأثير الحضارى فى العصر الأموى بيزنطياً وفى العصر العباسى فارسياً إلا أننا لا نجد ما يؤكد هذه النسبة أو يحدد هذا التقسيم . ونحن نعلم أن ارتداء الأثواب الرسمية التى يطرز على حواشيها اسم الخليفة مع بعض العبارات الدينية قد بدأ يشيع فى عهد عبد الملك بن مروان تقريباً . ويستدل من إطلاق لفظ « طراز » الفارسى ، ويقصد به التركشة فى الأثواب والتشجير فى النسيج والملابس الرسمية ، على أن الخلفاء الأمويين اتبعوا فى هذه المظاهر الزى الفارسى لا البيزنطى . وفى الوقت نفسه نجد أن قصور الأمويين مثل قصر « عمرة » الذى بناه الوليد الأول ، وقصر « خربة المفجر » الذى بناه هشام بن عبد الملك ، كانت مليئة برسوم واضح أنها من صنع رسامين من الروم ^(٢) .

وهكذا أخذت الحياة الاجتماعية فى القرن الأول تتعقد بتأثيرها بحضارات مختلفة ، وأصبح شرب الخمر فيها والعكوف على الملذات شيئاً طبيعياً ومظهراً من مظاهر الحضارة فى هذا العصر . ولم تكن دمشق — عاصمة الخلافة الأموية — وحدها عاكفة — فى جانب من جوانبها — على هذا النوع من الحياة ، بل إن جميع الحواضر الإسلامية بلا استثناء كان يوجد فيها بجانب يحيا هذه الحياة ، لأن تغير المجتمع الإسلامى لم يكن تغيراً إقليمياً محلياً ، بل كان تغيراً واسعاً شاملاً . لهذا نرى قسماً من المجتمع فى الكوفة والبصرة يعيش على الشهوات والمتعة واللهو والشراب ، بل حتى

(١) تاريخ ابن خلدون ١ : ٣١٠ .

(٢) انظر : تاريخ سورية ٢ : ١٢٢ .

الحجاز نفسه تعرض لهذا التغير الاجتماعي إبان القرن الأول فازدهر فيه الغناء والإيقاع وفنون اللهو والعبث . وكان فيه من يقبل على الشراب أيضاً كابن هرمة وغيره . ويقول الأصفهاني إنه حتى في أيام عثمان كان ابن سريج يغني « وكان عوده على صنعة عيدان الفرس ، وهو أول من ضرب به على الغناء العربي بمكة ^(١) » . وقد بلغ تعلق الناس بأنواع الفنون واللهو حداً كبيراً نستطيع أن نتمثله فيما رواه الطبري إذ قال : أوتي هشام بن عبد الملك برجل عنده قيان وخمر وبربط ، فقال اكسروا الطنبور على رأسه ، وضربه ، فبكي الشيخ ، فقال له أحد الجالسين يعزبه : عليك بالصبر ! فقال : أتراني أبكي للضرب ، إنما أبكي لاحتقاره للبربط إذ سماه طنبوراً ! ^(٢) .

أما الخلفاء أنفسهم فكانوا صدى طبيعياً لهذه الحياة الاجتماعية إلا من اختلافات تحددها شخصية كل منهم ، وفيما عدا عمر بن عبد العزيز الذي كان صدى لناحية أخرى من هذه الحياة — ناحية الزهد وتقوى الله — وجدت أيضاً باعتبارها تياراً معاكساً لتيار اللهو والمجون . وكان الناس يسمعون عن خلفائهم فيتأثرون بما يسمعون عما يأتون من أفعال ، أو كما قيل (الناس على دين ملوكهم) ، وللطبري نص طريف في هذا المعنى يقول فيه : « . . . كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضيايع ، وكان الناس يلتقون في زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع ، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن الترويح والحواري ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل : ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتى ختمت ؟ وما تصوم من الشهر ^(٣) ؟ » .

وما إن بلغ القرن الأول غايته حتى كان تيار اللهو والمجون قد اتخذ مجرى له في حياة الجماعة الإسلامية ، ونستطيع أن نتمثل مدى ما وصل إليه في شخصية الوليد ابن يزيد ، تلك الشخصية التي يعتبرها طه حسين مظهر الحياة الجديدة التي أخذت تظهر في أول القرن الثاني للهجرة ، ويصوره بأنه كان مشغولاً أشد الشغف بنوع جديد من الحياة المادية والعقلية ، وأنه كان متعلقاً أشد التعلق بهذا النوع من الحضارة

(١) انظر الأغاني ١ : ٢٤٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٧ : ٢٨٠ .

(٣) تاريخ الطبري ٧ : ٩٨ .

الجلدية^(١) . ولكن أى نوع من المظاهر كان لتلك الحضارة الجلدية ؟ لقد كانت تتمثل في إمعان الوليد وكثرة من أهل عصره في التحلل مما يفرضه عليهم دينهم . فقد وقر في نفوسهم بعد اتصالهم بألوان الحضارة المختلفة أن الحرية الدينية معناها أن يفعل كل امرئ ما يحب وما يشتهي دون أن يخشى ملاماً أو رقيباً . فما يمنع من الشراب إذن والتفنن في مجالسه ؟ وما يمنع من الإباحة الاجتماعية في كل صورها وأشكالها ؟ ما الذى يمنع الوليد من أن يصنع قبة على قعر الكعبة ويحاول أن ينصبها فوقها لتصير مجلس شراب^(٢) من نوع مبتكر جديد يجلب له المتعة واللذة لمجرد إحساسه بأنه يمارس حرية الدينية التى كفلتها له الحضارة الجلدية ؟ وما الذى يمنع الوليد من أن يرسل إلى الكوفة في طلب خلعاتها وشعراتها الماجنين فيسمع منهم من ألوان الفسق والمجون من مثل شعر عمار ذى كنان الذى يقول فيه :

أَشْتَهِي مِنْكَ مِنْكَ مِنْكَ مَكَاناً مُجَنَّباً^(٣)

ما يطرب له ويسكر عليه ؟ وهو إذا شاء أن يستمتع بالغناء بعث بريده إلى المدينة في طلب معبد ، فإذا جاء دمشق هيئت للوليد بركة خمر وماء حتى إذا انتشى من الغناء وأخذ الطرب بمجامعه ألقى بنفسه في البركة فهل منها نهلة ، ثم أتى بأثواب غيرها وتلقاه الخدم بالمجامر والطيب^(٤) .

والوليد لم يكن يستحي أن يسخر وسائل الدولة وأجهزتها في تلبية مطالب هواه واستجابة هواه ولذته فهو يكتب إلى والى خراسان ليعث إليه برابط وطنابير مما دعا أحد الشعراء إلى السخرية والتهكم إذ يقول :

وَأَبْشُرْ يَا أَمِينَ	اللَّهُ م	أَبْشُرْ	بَتَبَاشِيرُ
بِإِيلٍ	يُحْمَلُ	الْعَالُ	عَلَيْهَا
بِغَالٍ	تَحْمِلُ	الْخَمْرَ	حَفَائِبُهَا
وَدُلُّ	الْبَرَبْرِياتِ	بِصَوْتِ	الْيَمِّ
			وَالزُّبْرِ

(١) من حديث الشعر والنثر : ٨٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ٧ : ٢٨٠ ، وتاريخ يعقوبى : ٧٣ .

(٣) كل مرتفع مستدير يسمى جنبذا والمكان الذى يقصده الشاعر واضح من البيت .

(٤) الأغاني ١ : ٥٢ .

وَقَرَعَ الدُّفَّ أحياناً وَنَفَخَ بالمزامير
فهذا لك في الدنيا وفي الجنة تحبير^(١)

أما ملابس الوليد وطبقة السراة في المجتمع فقد تأنقوا فيها أشد التأنق وغالوا بها أشد المغالاة ، حتى بلغ من تأنقهم أنهم كانوا يلبسون عقود الجواهر ويغيرونها في اليوم مراراً كما تغير الثياب شغفاً ، ولهذا أغلى بنو أمية الجوهر في هذا العصر كما كما يقول الأصفهاني^(٢) .

ويبدو أن فتنة الوليد بمظاهر الحياة المادية وإغراقه فيها ، كانت على مبدأ (أطيب اللذات ما كان جهاراً بافتضاح) الذي شاع فيما بعد في العصر العباسي . ولكن هذا المبدأ صدم الشعور العام ، ونجح منافسو الوليد في تهيئة أذهان الناس للثورة عليه غضباً لله وللدين كما جاء في قولهم له : « ما ننقم عليك في أنفسنا ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله^(٣) » .

وقد حاول بعض الباحثين من القدماء والمحدثين الدفاع عن الوليد بن يزيد باعتبار أن أغلب هذه الروايات التي صورت لنا إباحيته مكذوبة ، ولكني أرى أن الوليد كان صورة صادقة طبيعية لما وصلت إليه ناحية من الحياة الاجتماعية في عصره من عكوف على الملذات وانكباب على اللهو . كما أن الشعر الذي قيل فيه حيا وميتاً كان يشير إلى أطراف من حياته الماجنة وطبيعته اللاهية ، والشعر في هذا المجال أصدق تعبيراً عن الواقع من أحاديث الرواة . وما لنا ننكر على الوليد هذه الحياة العابثة ولا ننكر على كثير من معاصريه ممن لم تتح لهم الفرص التي أتيحت للوليد — فعاونته على اللهو والعبث — من السلطان والجاه والأموال . فهذا هو الطبري يروي لنا قصة تمثل الحياة الاجتماعية في بداية القرن الثاني — حوالي العصر الذي عاش فيه الوليد — يقول فيها « إنه عندما هزم مروان بن محمد سليمان بن هشام بن عبد الملك أمر بقتل كل الأسرى ما عدا العبيد ، فأتى بنحال لهشام يقال له خالد بن هشام

(١) تاريخ الطبري ٧ : ٢٩٨ والأنابير : أكداس الطعام ، وتحجير بمعنى سرور .

(٢) الأغاني ٧ : ٥٩ .

(٣) تاريخ الطبري ٩ : ١٣ .

المخزومي وكان بادنا كثير اللحم فأدنى إليه وهو يلهث فقال له : يا فاسق أما كان لك في خمر المدينة وقيانها ما يكفك عن الخروج مع الخراء تقاتلني؟ قال : يا أمير المؤمنين أكرهني فأنشدك الله والرحم ! قال : وتكذب أيضاً ؟ كيف أكرهك وقد خرجت بالقيان والزقاق والبرابط معك في عسكره^(١) ؟ » .

إلى هذا الحد إذن وصلت الحياة الاجتماعية في أواخر العصر الأموي أي في أوائل القرن الثاني . وبطبيعة الحال لا يمكننا أن نقول إن هذه الصورة تمثل تماماً طبقات المجتمع العربي بجميع أفرادها في هذا العصر، ولكنها على أية حال تعطينا فكرة واضحة عن تيار وجد في هذا المجتمع، ولعله أثر في أغلبية أفرادها على تفاوت هذا التأثير بينهم . وهذا لا ينفي وجود فئة جادة مقيمة على دينها ، محافظة على تقاليدها حتى مع غناها وثروتها ، كما أن هذا أيضاً لا ينفي وجود طبقة أخرى من الفقراء المعوزين أو متوسطي الحال الذين كان يشغلهم في هذا المجتمع كفاحهم في سبيل الحصول على أسباب الحياة وبلوغ العيش ، فما بالك بعقود الجواهر وما أشبه ؟ ومع ذلك فدارس هذا العصر يخرج بنتيجة مؤكدة تتصل بهذا الحديث وهي أن التهلك والحبون لم يكن يتناسب طردياً مع الغنى والجاه وعكسياً مع الفقر والمثربة ، فهذا التناسب لا يمكن أن يكون حقيقياً في أي مجتمع إنساني ، فقد نجد معوزاً يشتهي كسرة خبز ومع ذلك فهو أكثر تهتكاً من الخليفة الوليد بن يزيد نفسه ذي الجاه والسلطان والأموال . والعكس قد يكون صحيحاً أيضاً . والسبب في هذا يرجع - في رأيي - إلى عناصر معينة في شخصيات أفراد المجتمع ، كما ترجع إلى طبيعة بيئتهم ونشأتهم ومدى تأثرهم بالدين ومقدار خضوعهم للمؤثرات الحضارية . وعلى أية حال كانت المؤثرات والعوامل التي تدعو إلى التهلك والفتنة على نطاق واسع شائعة ميسرة في هذا العصر . فالمجتمع العربي - كما سبق أن ذكرت - كان يتكون من طبقات ثلاث شأن أي مجتمع : عليا ، ووسطى ، وسفلى . ولكن داخل هذه الطبقات كان توجد عناصر مختلفة في مكانتها الاجتماعية وفي الدور الذي تقوم به في مجتمعها . كانت هناك فئة من العرب تدفقت عليهم الأموال من كل جانب : من الفتوح ومن العطاء ومن التجارة والزراعة ، وكانت هناك فئة أخرى من العرب تعيش

حياة متوسطة ونكسب عيشها من أى سبيل : الخدمة فى الجيش أو المتاجرة البسيطة أو ما أشبه . وكان هناك غير العرب الموسرين وغير الموسرين طبقة الموالى بالعتاقة أو بالولاء ، وهؤلاء كان عددهم ضخماً فى المجتمع الإسلامى ، وكان دورهم فيه يتناسب مع ضخامة عددهم . وقد كَوّن هؤلاء الموالى مع العرب عدة روابط متشابكة فى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وأقبل العرب على الزواج من نساءهم فتوثقت الصلة بين الفريقين وامتزجت العادات والثقافات .

وكان هناك عدا العرب والموالى طبقة الرقيق وهى طبقة هامة جداً ، على الرغم من هوان شأنها فى المكانة الاجتماعية ، إذ كان تأثيرها خطيراً جداً فى المجتمع الإسلامى . لقد انتشر الرقيق بأجناسه المختلفة انتشاراً واسعاً على أثر الفتوحات الواسعة التى قام بها المسلمون فى مختلف أقطار الأرض ، حتى إنه لم يكن يخلو بيت فى ذلك العصر من الرقيق . وأصبحت الجوارى فى متناول كل فرد فى المجتمع ، كل حسب مقدرته المادية . وكان مباحاً للسيد أن يتسرى من شاء من جواريه . ومن تلك منهن له تسمى (أم ولد) وتصبح لها حقوق اجتماعية جديدة فلا يحق لمالكها أن يهبها أو يبيعها ، بل تبقى حلاً له حتى يموت ، فتصير عندئذ حرة تجرى عليها أحكام الحرائر . وبطبيعة الحال كان أولاد الإمام من سادتهن أحراراً بحكم العرف الاجتماعى ، ونستطيع أن نتصور مدى تأثير الرقيق فى المجتمع الإسلامى لو نظرنا فقط إلى هذه الطبقة الجديدة من أولاد السادة من إماء ذوات الجنسيات والعادات والثقافات المختلفة .

وكانت تجارة الرقيق فى القرنين الأول والثانى رائجة إلى أقصى حد فى المجتمع الإسلامى لوجود مشترين دائماً محتاجين إلى العبيد والإماء . وكانت مدينة سمرقند أهم مراكز تجارة الرقيق فى القرن الثانى خاصة . وقد اشتهر عدد كبير من تجار الرقيق لإقامتهم بيوتاً عامة عامرة بالجوارى الحسان اللاتى تلقين دراسات خاصة فى فن معاملة الرجال ومحاولة إغرائهم واجتذاب قلوبهم وأموالهم ، كما تلقين دراسات أخرى فى الغناء بأنواعه المختلفة ، وفى فنون الإيقاع والعزف على الآلات الموسيقية وفى أنواع من الرقص والتشنى ، وكانت لديهن ثقافة عامة لا بأس بها وخاصة فى الشعر لتوسلن به إلى الغناء والعزف ، حتى إننا نجد من بينهن شاعراً هن شعر رقيق مثل

عريب ومقيم وجنان معشوقة أبي نواس ، وعنان بجارية الناطقي^(١) . وكان من أشهر هذه البيوت العامة بيت أبي عمير الذي اشتهر بجاريته عبادة^(٢) . وبيت أبي الخطاب النخاس الذي اشتهر بقينة تعرف بذات الحال^(٣) ، وبيت ابن رامين في الكوفة وكانت أشهر قيانه سلامة الزرقاء^(٤) ، وبيت المفضل ، وقد وصفه علي بن الجهم - ولو أنه يعتبر من شعراء القرن الثالث - وصفاً جميلاً وشرح لنا في هذا الوصف ماذا كان يدور في مثل هذه البيوت^(٥) .

غير أننا نستطيع أن نتمثل صورة كاملة لبيوت القيان وللقيان أنفسهن ومدى تأثيرهن في المجتمع الإسلامي ، وذلك مما كتبه الجاحظ في رسالة القيان التي يقول فيها : «إن في الجمع بين الرجال والقيان ما دعا إلى الفسق والارتباط والعشق ، مع ما يتزل بصاحبه من الغلظة التي تضطر إلى الفجور ، وتحمل على الفاحشة . وإن أكثر من يحضر منازل القيان إنما يحضر لذلك لا لسماع ولا ابتياع . . . ومن الآفة عشق القيان على كثرة فضائلهن وسكون النفس إليهن ، ولأنهن يجمعن للإنسان من اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض ، واللذات كلها إنما تكون بالحواس . . . فللعين النظر إلى القينة الحسناء . . . وللسمع منها حظ ، وللمس فيها الشهوة والحنين إلى الباه ، والحواس كلها رواد للقلب . . . إن القينة لا تكاد تخلص في عشقها ولا تناصح في ودها ، لأنها مكتسبة ومجولة على نصب الحباله والشرك المتربطين ليقعوا في أنشطتهما . فإذا شاهدها المشاهد رامت باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته في أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لقراقه . . . وليس يحسن هاروت وماروت وعصا موسى وسحرة فرعون إلا دون ما تحسنه القيان . وكيف تسلم القينة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما نكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من هو الحديث

(١) انظر الأغاني ١٨ : ١٧٥ ، ٧ : ٣١ ، ٢٠ : ١١٥ .

(٢) المصدر نفسه ٢٠ : ٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ١٧ : ٥٠ .

(٤) المصدر نفسه ١٣ : ١٢٧ .

(٥) المصدر نفسه ١٠ : ٢١٩ .

وصنوف اللعب والأخانيث ، وبين الخلعاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة^(١) .

وهذا النص الهام يطلعنا على نواح كثيرة في حياة المجتمع الإسلامي وعلى دور الرقيق في توجيه تيار اللهو والمجون فيه وتهيئة ألوان المتعة الحسية من كل لون . إنه يكشف لنا عما كان يدور في هذه البيوت العامة للقيان التي كانت منتشرة في الحواضر المختلفة : في الكوفة وفي البصرة وفي دمشق ثم في بغداد بعد ذلك — تلك المدينة التي توجهت إليها جميع التيارات المتشابكة التي كانت تعمل عملها في حياة المجتمع الإسلامي منذ القرن الأول . كانت هذه البيوت إذن ، التي يقبل عليها الناس ، تبيع لهم المتعة المحرمة باللهو والعبث والمجون فيسيغون ذلك كله مع كئوس الشراب وسماع ، الغناء ، ومشاهدة ألوان الرقص وفنون الإيقاع . وكانت هذه البيوت أيضاً مدارس للغزل المكشوف وتوجيه الحب ناحية الجنس ، ومعارض لأنواع شتى من الجمال الذي لا يتستر ولا يتخفى وراء حجاب .

ولم تكن البيوت الإسلامية الخاصة في ذلك العصر بمنأى عن التأثير بهذه الفنون التي كانت موجودة في منازل القيان ، إذ كانت مليئة بالجواري والقيان اللاتي تعلمن إرضاء ساداتهن بكل هذا اللهو والعبث ، وإن كان في نطاق ضيق مستور . ولعل شيوع الغزل بالملذون في هذا العصر يرجع إلى هذا التأثير السيئ الذي أحدثته الجوارى في المجتمع . ذلك أن الاستمتاع بالنساء صار سهلاً ميسوراً ، وخصوصاً عند الطبقة الموسرة ، فبدأ بعض المثقفين يعدون هذه المتعة شيئاً رخيصاً مبتدلاً ، وأنخذلوا يتلمسون طرقات أخرى للتنفيس عن شهواتهم المضطربة^(٢) . ولم يكن تأثير الرقيق من هذه السبيل شراً كله — كما قد يتبادر إلى الأذهان — بل كان فيه بعض الخير للمجتمع في هذا العصر . فقد أشاعت الجوارى حب الجمال والإحساس به ، ونشرت أنواعاً من الظرف في هذا المجتمع ، ورققن المشاعر والأحاسيس ، فظهر أثر ذلك كله في موضوعات شعر هذه الفترة وفي أسلوبه وصوره ، وقد بلغ من شيوع الظرف في هذا العصر أن أصبح للظرفاء رسوم وتقاليد خاصة بهم تدل

(١) ثلاث رسائل : ٦٥ وما بعدها .

(٢) انظر : نفسية أبي نواس : ١٠٦ .

عليهم . وكثيراً ما اختلط معنى الظرف بالمجون والزندقة في هذه الفترة ، على اعتبار أن الظريف له الحرية في خوض الأحاديث المختلفة ، حتى لو كانت خروجاً عن العرف والتقاليد والدين ، بل ربما كان أقرب إلى نفوس مجالسيه لو أنه خاض بهم في أحاديث خفيفة متحررة من كل شيء . وقد عرفوا الظرف بأنه «يكون في صباحة الوجه ، ورشاقة القد ، ونظافة الجسم والثوب وبلاغة اللسان وعدوبة المنطق ، وطيب الرائحة ، والتفرز من الأقدار . . ويكون في خفة الحركة وقوة الذهن وملاحظة الفكاهة والمزاح»^(١) . أما زى الظرفاء في اللباس فكان الغلائل الرقاق والقمص السفاق (الكشيفة) من جيد ضروب الكتان الناعمة النقية الألوان . ومن زيههم لبس النعال الغالية ، والتختم بالعقيق الأحمر والفيروزج الأخضر والفضة المحرقة ، ولا يتخمتون بالذهب لأنه لبس الصبيان والنساء والإماء . ومن زيههم في التعطر استخدام المسك المذاب في محلول ماء الورد ، واستعمال العود المعبر بماء القرتفل وغيره مما يحدثنا به «الوشاء» . أما سلوكهم في أثناء الطعام : فأساسه تصغير اللقم ، والتجامل عن الشره والنهم . وأما الجوارى الظريفات فلهن أزياء خاصة بهن أيضاً تمتاز بالركة والحمال ، كما تمتاز بوجود كتابة عليها في الأكمام أو العصائب أو مشاد الطرر والذوائب أو غير ذلك . وكانت هذه الكتابات تتميز بظرفها أيضاً من أمثال :

أثرُ كاني والمعاصي وعلى الله خلاصي^(٢)

والواقع إن الأزياء في هذا العصر الذي نتحدث عنه كانت في مجموعها صورة من صور الحضارة الحديدية التي شاعت ، وسمة لا ترف والتأنق في أساليب العيش ، فقد نبذ الزى العربي القديم منذ بدء حركة التحضر في القرن الأول الهجري شيئاً فشيئاً ولم يبق له من أثر إلا في البوادي وعند بعض العامة فقط . أما في الحواضر فقد اتخذ الناس أزياء جديدة مختلفة ، ترجع في أصولها إلى الملابس البيزنطية أو الفارسية ، وزاد الإقبال على اتخاذ الأزياء الفارسية في العصر العباسي حيث نجد الخليفة

(١) أخبار الطراف والمتماجنين : ١٢ .

(٢) انظر : الموشى : ١٦٠ وما بعدها .

المنصور يأخذ الناس بلبس القلانس الطوال المفرطة الطول .^(١) وكان أغلب هذه القلانس من الخز ، وبعضها كان يصنع من جلود الثعالب ، أما ألوانها فكانت مختلفة .^(٢) ويبدو أن القلانس الطويلة كانت غريبة على أهل هذا العصر حتى إننا نجد شاعراً من الموالى كأبي دلالة يصفها في سخرية ظاهرة إذ يقول :

وَكُنَّا نُرَجِّي من إِمَامٍ زِيَادَةً فَرَادَ الإِمَامُ الْمُصْطَفَى في القَلَانِسِ
نَرَاهَا على هَامِ الرِّجَالِ كَانَهَا دِنَانُ يَهُودٍ جُلَّتْ بِالْبَرَانِسِ^(٣)

أما العمامة فقد دخلها هي أيضاً التنوع — مثلما كان يفعل الفرس — فكان للخلفاء عمامة تختلف عن عمامة الفقهاء وهكذا^(٤) . أما أهل الدمة فقد جعل لهم زى خاص لا يتعدونه حتى لا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم ولا في مركبهم ولا في هيشهم . لهذا كانوا يضعون في أوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ يعقده في وسط كل منهم ، وتكون قلانسهم مُضْرَبَةً ، كما أن شرك نعالهم تكون مشية .^(٥) وفي عهد العباسيين أيضاً أصبحت الأعياد الفارسية القديمة احتفالات شعبية عامة مثل عيد النيروز والمهرجان ويوم رام . وكان الناس يشتركون أيضاً في أعياد النصارى التي ينبئنا الشابشتى أنها كانت مقسومة ببغداد على ديارات معروفة ، منها أعياد الصوم فالأحد الأول منه : عيد دير العاصية ، والأحد الثاني عيد دير الزرقية ، والأحد الثالث عيد دير الزندورد ، والرابع عيد دير درمالس ؛ وعيده أحسن عيد يجتمع نصارى بغداد إليه ولا يبتى أحد ممن يحب اللهو والحلاعة إلا تبعهم .^(٦) كما كان الاحتفال بيوم الشعانين أيضاً عيداً عاماً يشترك فيه جمهور الناس ، وحتى الخلفاء أنفسهم كما يفهم من نص في الأغاني .^(٧) ولعلنا نتيين في مشاركة الناس في هذه الأعياد نوعاً من الإقبال على الحياة وتجديدها بمثل هذه الاحتفالات ، كما أنها تكشف لنا

(١) تاريخ الطبرى ٩ : ٢٨٤ .

(٢) انظر التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية : ١٦٧ .

(٣) تاريخ الطبرى ٩ : ٢٨٤ والبرنس : قلنسوة طويلة .

(٤) البيان والتبيين ٣ : ٦٥ .

(٥) الخراج لأبي يوسف : ١٢٧ .

(٦) الديارات : ٣ . (٧) الأغاني ٩ : ١٢٨ .

أيضاً عن وجود حرية دينية مكفولة للجميع . ومما يؤكد هذه الفكرة ما يذكره أبو قابوس - وهو شاعر نصراني عاصر الرشيد - من « مباحاة » النصارى في كنائسهم إذ يقول :

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا رأيت مباحاة لنا في الكنائس^(١)

ومع تأثر الأزياء والأعياد بنظم الحضارات الأجنبية التي استوعبها الإسلام في فتوحاته تأثرت حركة البناء وال عمران ، فبعد أن كان الناس يسكنون في الأخصاص وبيوت الشعر والقصب أخذوا يتدرجون في العمران منذ القرن الأول - كما رأينا في قصور الخلفاء الأمويين وقصر عبيد الله بن زياد الذي بلغت نفقاته نحو مليوني درهم فيما يقال^(٢) حتى أصبحوا في القرن الثاني يهتمون بإقامة القصور الضخمة ، وأصبح الأثرياء يهتمون بزراعة البساتين الفواحة بالشذى ، وإنشاء أحواض للسباحة وحدائق للحيوان . ولعل من أروع ما حكاها الرواة عن ترف البناء ذلك الوصف الذي نقلوه لنا عن الإيوان الذي بناه الأمين والذي كان يسافر فيه البصر ، وقد جعل كالبيضة بيضاء ثم ذهب بالإبرير المخالف بينه باللازورد ، وكان ذا أبواب عظام ومصاريع غلاظ تتلألأ فيها مسامير الذهب . قد قمعت رءوسها بالجواهر النفيس ، وقد فرش بفرش كأنها صبغ الدم ، منقش بتصاوير الذهب وتمائيل العقيان ، ونضد فيه العنبر الأشهب ، والكافور المصعد^(٣) . وأخذت ألوان الطعام هي أيضاً تتعقد بتعقد أسباب الحضارة حتى لقد روى طيفور أن جعفر بن محمد الأنماطي الفقيه تغدى عند المأمون فذكر أنه وضع على المائدة ثلاثمائة لون من الطعام^(٤) . وتغالى الكثيرون من الأغنياء في شراء الجواهر الكريمة ، أكثر مما كان في عهد الوليد بن يزيد كما رأينا من قبل ، حتى إن صالحاً صاحب المصلى أيام هارون الرشيد اشترى فصاً من عون العبادي بعشرين ألف دينار^(٥) . ومع كثرة الطعام وتعدد ألوانه فسدت الأسنان ، فجرت

(١) شعراء النصرانية بعد الإسلام : ٢٤١ .

(٢) انظر : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية : ١٦٧ .

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز : ٢٠٩ .

(٤) كتاب بغداد : ٣٦ .

(٥) المصدر نفسه : ١٣ .

العادة في هذا العصر على شأها بالذهب للعلاج وربما للزينة أيضاً^(١). وعرف الناس في هذا العصر جميع أسباب اللهو وفنونه فلعبوا النرد والشطرنج ، وعنوا بتربية الحمام وتغالوا في أثمائه^(٢) وتهارشوا بالديوك والكلاب^(٣) وانتشر لعب الميسر حتى في حانات الفقراء^(٤).

ولعلنا نستطيع أن نقول إن تأسيس بغداد كان نقلة جديدة لتطور المجتمع الإسلامي وإغراقه في الحضارة ومظاهرها المادية ، وانغماسه أكثر فأكثر في أساليب الحياة الأجنبية عنه . تلك التي كانت تحياها الشعوب المتحضرة المغلوبة على أمرها . وحتى تخطيط بغداد يظهر فيه الأثر الفارسي - كما يقول عبد العزيز الدوري - إذ فصل الخليفة عن الرعية ، وجعل له مقاماً سامياً يصعب الوصول إليه . كما أن ضخامة القصر والإيوان تظهر روعة الملك . وفكرة استدارة المدينة وحصر بيوت السكان في أحياء منفصلة يمكن غلقها ليلاً وحراسها بصورة دقيقة ، يشير إلى السلطة المطلقة المقتبسة من الفرس والتي تتعارض مع أرستقراطية العرب الأمويين ، ومع الديمقراطية الإسلامية على حد سواء^(٥) . والحقيقة إن انتقال الدولة إلى المشرق جعل الحياة الاجتماعية - على حد قول طه الحاجري - « معقدة مشتبكة النواحي أكثر من ذي قبل . إذ تغالى المجتمع في انصرافه إلى الناحية المادية فأصبح المال ميزان الرجال ، وأخذ يتردد في الأمثلة الجارية في بغداد : المال مال وما سواه محال . ولهذا توصل الناس إلى المال بشتى الوسائل . لا يعفون عن محرم ولا يتورعون عن خبيث ولا يعبأون أن يتخذوا من المعاني الكريمة أسباباً يخادعون بها ، حرصاً عليه وإجلالاً له حتى أصبحت مظاهر الدين شركاً من شركه » . ويمضى طه الحاجري في وصف هذا التطور الاجتماعي فيقول : « إن هناك ظاهرة اجتماعية متصلة بهذه الحالة أشد الاتصال وتعد في حقيقة الأمر من أولى العوامل المؤثرة في قيامها . وهى نشوء طبقة التجار الأثرياء في البصرة وبغداد

(١) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية : ١٢٧ .

(٢) الحيوان ٣ : ٩١ .

(٣) الأغاني ٦ : ٧٥ .

(٤) الحيوان ٥ : ١١٥ .

(٥) العصر العباسي الأول : ٩٧ .

وهي الطبقة التي تقابل الطبقة البورجوازية في الغرب . وكانت تلك الطبقة في البصرة أعظم ، إذ كانت ثغر العراق والمركز التجاري الخطير الذي يصل الشرق والغرب ، والذي يستقبل متاجر الهند وجزر البحار الشرقية . ومن أجل ذلك كانت تسمى أرض الهند وأم العراق ^(١) .

ومع تدفق الثروة على المدن وبخاصة البصرة في القرن الثاني ازدادت الرغبة في المتعة وفي حب الشراب والتلذذ بأطياب الحياة الحضارية الجديدة . والحقيقة إن تطور المجتمع في منتصف القرن الثاني بعد قيام الدولة العباسية وإغراقه في مظاهر الحياة المادية يمكن أن يتصور في حياة الخلفاء العباسيين أنفسهم . فحركة العمران وبناء القصور الفخمة كانت ماضية في طريقها أيام المنصور وخاصة منذ ابنتي مدينته الجديدة بغداد وأخذت الثروة تتدفق إليها من كل مكان . ومع ذلك يجمع الرواة على أنه لم ير في دار المنصور لهو قط ولا شيء يشبه اللهو والعبث . وقد غضب المنصور غضباً شديداً حين سمع في قصره خادماً يضرب للجواري بالطنبور فقام إليه وحطمه على رأسه ^(٢) . وكتب عامل البريد إلى المنصور بأن واليه في حضرموت يكثر الخروج في طلب الصيد بيزاة وكلاب قد أعدها . فعزله وكتب إليه : « ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك . ماهذه العدة التي أعددتها للنكابة في الوحش ؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش » ^(٣) ! وحدث أن بطح المنصور كاتباً له فنظر إلى سراويله فإذا بها من الكتان ، فأمر بضربه قائلاً له : « لا تلبس سراويل كتان فإنه من السرف » ^(٤) . وفي عهد المنصور فيما يبدو بدأ ظهور الزنادقة والحجبان يستشري في المجتمع الإسلامي كما نفهم من سياق خبر أورده الطبري ^(٥) . وقد أعانت على ظهور هذه الطبقة مجموعة من المؤثرات المختلفة من سياسية وثقافية إلى جانب التأثير الاجتماعي . ولكن يظهر أيضاً أن حركة الزندقة لم تكن في هذه الفترة قد وصلت إلى حد الخطر الذي ينذر المجتمع الإسلامي بالانهيار .

(١) مقدمة « البخلاء » بتحقيق طه الحاجري : ٢٤ وما بعدها .

(٢) تاريخ الطبري ٩ : ٢٩٤ .

(٣) المصدر نفسه ٩ : ٢٩٧ .

(٤) المصدر نفسه ٩ : ٣١٤ .

(٥) المصدر نفسه ٩ : ٣٠٨ .

وحين ولي المهدي الخلافة وجد خزانة الدولة عامرة بالأموال التي اكتتتها المنصور فأسرف إسرافاً شديداً . ويقول الخطيب البغدادي إن المنصور ترك في بيت المال شيئاً لم يجمعه خليفة قط من قبله ، فلما صارت الخلافة إلى المهدي قسم ذلك وأنفق^(١) وكانت شخصية المهدي في الوقت ذاته أقل تزمناً من المنصور ، فكان يحب السماع ويستهر بذكر النساء ، ولكنه كان لا يشرب النبيذ - وإن كان الطبري يقول إنه لم يكن يتخرج فيه ، ولكنه كان لا يشبه^(٢) . وقد نشطت حركة الزنادقة في عهده نشاطاً كبيراً حتى لاح خطرهما واستعلن شرهما ، ولهذا نجد المهدي في أخبار عام ١٦٦ هـ يطلب الزنادقة في كل مكان ، فإذا أقرروا استتابهم وخلي سبيلهم . فلما لم يجد معهم هذه الوسيلة نراه يأمر بحبسهم ، وحينما عاين المهدي أن حبسهم لم يترع ما بنفوسهم ، جد في طلبهم والبحث عنهم وقتلهم وذلك ابتداء من عام ١٦٧ هـ . وأنشأ لأول مرة - فيما يبدو - منصب « صاحب الزنادقة » فكان فيه أولاً عمر الكلواذي ، وعندما توفي تولى مكانه « حمدويه » ، وعلى يد « حمدويه » قتل عدد كبير من الزنادقة في بغداد عام ١٦٨ هـ .^(٣)

أما ترف المهدي فلم يكن بالشيء الكثير فهو لم يتعد في هذا الميدان أن يكون أول من لعب الصوالمجة في الإسلام .^(٤) وأول خليفة حمل له الثلج إلى مكة في أثناء الحج^(٥) .

ولم تستقل الحياة الاجتماعية نقلة كبيرة أيام الهادي . فع أنه كان صاحب شراب ومجون^(٦) ، إلا أنه جد في طلب الزنادقة والقضاء عليهم طبقاً لوصية أبيه المهدي ، ولكن هذه النقلة الاجتماعية الخطيرة حدثت أيام الرشيد ، إذ كانت عناصر الاستقرار في الدولة قد رسخت ، وتدفق المال إليها من كل مكان ، فاشتد إغراق الناس في ألوان الحضارة واندماجهم فيها ، وكان شعارهم في ذلك « لا تؤخر لذة اليوم

(١) تاريخ بغداد ٥ : ٣٩٣ .

(٢) تاريخ الطبري ١٠ : ٦ .

(٣) تاريخ الطبري ١٠ : ٨ - ١٠ .

(٤) التبراس في تاريخ خلفاء بني العباس : ٣١ .

(٥) تاريخ الطبري ٩ : ٣٣٧ .

(٦) المصدر نفسه ١٠ : ٣٩ .

لغد» كما جاء في قول هبة الله بن إبراهيم بن المهدي ^(١) وأصبحنا نجد أن عشق الرجل للمرأة وعشق المرأة للرجل لا ينظر إليه على أنه من الأخبار الشخصية التي يجب أن تكتم عن الناس، بل نجد في هذا المضمار «عليه بنت المهدي» تهوى خادمين في قصر الرشيد هما طل ورشا وتكتب فيهما الأشعار الكثيرة صراحة ^(٢). كما نجد أيضاً أن عادة شرب الخمر قد مست حتى البيئات الدينية، فالخطيب البغدادي يذكر لنا أن محمد بن الضو المحدث «ليس بمحل لأن يؤخذ عنه العلم لأنه كان أحد المهتكين بشرب الخمر، والمجاهرة بالفجور، وكان أبو نواس يزوره في الكوفة في بيت خمار بالحيرة يقال له جابر» ^(٣).

ونجد في قصر الرشيد لأول مرة ابن أبي مريم المدني (وكان مضحاكاً له محدثاً فكياً) ^(٤) أي أنه وجد في ذلك العصر ما يعبر عنه «بمضحك الملك» وهو منصب كان موجوداً فيما يبدو عند ملوك الفرس الأقدمين. ومع شيوع مثل هذه المظاهر الحضارية اللاهية منذ منتصف القرن الثاني، إلا أننا نستطيع أن نقول إن الحياة الاجتماعية حتى عصر هارون الرشيد كانت قائمة على شيء من التوازن بين الجسد واللهو، وهذا التوازن كان متحققاً في شخصية الرشيد نفسه، إذ نجد في أخباره المؤكدة أنه كان إلى جانب حب اللهو والعبث والمجون والإغراق في الجانب المادي من الحضارة التي صنعتها المؤثرات الأجنبية المختلفة، يستمع إلى نصائح الوعاظ والصالحين، فتنهمر دموعه من خشية الله، كما كان محافظاً - فيما يقول المؤرخون - على صلواته حتى إن الطبري يؤكد أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة ^(٥).

ولكن حين ولي الأمين الخلافة فقد أثر هذا التوازن في الحياة الاجتماعية، فصارت إغراقاً في اللهو وانحرافاً عن كل شعائر الدين، بل لقد ظهر في هذا الخليفة أثر الشذوذ الجنسي الذي كان قد استفحل أمره في هذه الفترة. أما إسراف الأمين

(١) الأوراق - أشعار الخلفاء : ٥٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٦١ .

(٣) تاريخ بغداد ٥ : ٣٧٤ .

(٤) تاريخ الطبري ١٠ : ١١٤ .

(٥) تاريخ الطبري ١٠ : ١١٣ .

إغراقه في اللهو فكان شيئاً لم يسمع به القرن الأول ولا أوائل الثاني في عصر الخلفاء الأمويين والعباسيين الأولين . لقد وجه الأمين إلى جميع البلدان في طلب الملهمين وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ونافس في ابتياع فرس الدواب ، وأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في بغداد للصوالة واللعب . كما أمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه في شتى القصور التي يملكها : الخلد ، والخيزرانية وبستان موسى ، وقصر عبدويه ، والمعل ، ورقة كلواذى ، وباب الأنبار ، ونبارى ، والهوب ، كما أمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق في عملها مالا عظيماً^(١) .

ولم يكن الأمين وحده في هذا الإغراق المادى - وإلا لم نعن بأخباره وأخبار سواه من الخلفاء ، ولكن الحقيقة أن أولئك الخلفاء كانوا صدى لمجتمعهم تظهر فيهم مبادئه ، كما تظهر أيضاً جوانبه الجادة المترنة ، والذي يدلنا على ما وصل إليه الحال في أيام الأمين من تحرر اجتماعى كامل يصل إلى حد الإباحة ، تلك القصة التي يرويها الطبرى ويبين فيها أنه لما هزم جند المأمون جيش الأمين بقيادة على بن عيسى وجدوا في معسكره صناديق حسبوها مالا ففتحوها فإذا فيها خمر سوادى !^(٢)

وكان من أثر فقدان التوازن في الحياة الاجتماعية أيام الأمين ، وإنفاقه أموال الدولة على ملذاته وملاهيته أن ظهر الاختلال واضحاً في البناء الاجتماعى ، وازدادت الهوة اتساعاً بين الطبقات المختلفة ، وانكشفت بغداد الفاتنة الثرية المتلافة بالمال والجوهر عن جانبها الفقير المحطم الذى لا يجد قوت يومه ، وازدادت الصورة وضوحاً بجوانبها المختلفة حين حدثت الفتنة بين الأمين والمأمون وتعرضت بغداد لحصار مجهد عنيف . حينئذ ظهر شعبها الكادح الفقير ، ولم يكن الفقير من بين هؤلاء هو الذى وصفه فقهاء العراق بأنه من كان دخله مائتى درهم في السنة أى ما يعادل الحد الأدنى من العطاء .^(٣) ولكن كان هؤلاء الفقراء لا يملكون من الدنيا شيئاً بعد اتساع الهوة بين الطبقات ، فهم عبارة عن آلاف مؤلفة من الرعاع والسطار ، لا تربطهم بالحياة في

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ٢١٥ .

(٢) المصدر نفسه ١٠ : ١٤١ .

(٣) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية : ١٦٠ .

بغداد رابطة ما . فهم لا يملكون عقاراً ولا أموالاً ، بل لا يجدون عملاً يقتاتون منه ، ولهذا انطلقوا في هذه الفتنة على سجيبتهم ، يقاتلون ولا يدرون لحساب من هذا القتال . وكل ما كان يدور في أذهانهم أن هذه الحرب ربما نقلتهم من الوحدة التي يتردون فيها إلى حيث يستطيعون رؤية وجه الحياة . وربما كان أملهم أن تخدمهم هذه الحرب فتقدم لبطونهم الحاوية الغذاء ، ولأجسادهم العارية الكساء الذي يقيمهم الحر والزمهرير . ويصف لنا الطبري هذه الفتنة فيقول : «لقد نقب أهل السجون السجون وخرجوا منها وفن الناس ، ووثب على أهل الصلاح الدعار والشطار ، فعز الفاجر وذل المؤمن واحتل الصالح وساءت حال الناس»^(١) .

ولمّا هنا كان تيار الحياة العابثة اللاهية قد بلغ أقصى مداه ، وتفجرت بغداد بعد فتنة الأمين والمأمون بضروب الفسق وأنواع المجون ، فظهرت طبقة من الناس تقطع الطريق وتأخذ الغلمان والنساء علانية من الطريق ، فلما رأى الناس ذلك وما أظهروا من الفساد والظلم والبغى ، قام صلحاء كل ربض ودرب فمشی بعضهم إلى بعض واتفقوا على قمعهم ، فقام رجل يقال له خالد الدريوش فدعا بجيرانه وأهل بيته ومحله ، على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأجابوه إلى ذلك وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون ثم قام من بعده رجل يقال له سهل بن سلامة الأنصاري فدعا الناس أيضاً إلى مادعا إليه خالد ، وزاد عليه العمل بكتاب الله جل وعز وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلق مصحفاً في عنقه فأتاه خلق كثير ، فأخذوا يطوفون ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها ليمنعوا الخفارة^(٢) التي فرضها الفساق وهي نوع من ابتزاز الأموال^(٣) .

وكان ظهور هذه الفئة الصالحة من الناس التي كان يطلق عليها اسم (المطوعة) انعكاساً لتيار اللهو والعبث ، وتأيداً للجانب الجاد في الحياة الاجتماعية ، وتوكيداً لتيار الزهد الذي كان انعكاساً صادقاً في نفوس المتقين ضد الحياة العابثة الماجنة التي

(١) تاريخ الطبري ١٠ : ١٧٣ .

(٢) الخفارة أنه كان يأتي الرجل صاحب البستان مثلاً فيقول : بستانك في خفري ولي في مقابل ذلك كل شهر كذا من المال ، فيدفع صاحب البستان شاء أم أبى . والخفارة تطلق عليها الآن اسم (الأتاوة) أو (البلطجة) .

(٣) انظر : تاريخ الطبري ١٠ : ٢٤١ .

كانت تسود مجتمعهم . والحقيقة إن هذا التيار المضاد لم يكن شيئاً جديداً في المجتمع الإسلامي في القرن الثاني ، ظهر فقط على أثر اندلاع نار الفتنة بين الأمين والمأمون ، ولكنه كان موجوداً دائماً وكان يقوى ويشتد كلما أغرق المجتمع الإسلامي في طوفان وترفه وانكسب على ملذاته وملاهيته . ولم يكن استغراقنا في تصوير الجانب اللاهني من المجتمع دون الجانب الجاهل إنكاراً لوجود هذا الجانب السوي أو غضباً من شأنه ، ولكننا صورنا مدى الانحراف الذي صار إليه المجتمع الإسلامي متأثراً بالحضارات الأجنبية والعوامل الاقتصادية والسياسية المختلفة ، على اعتبار أن الأصل في كل مجتمع - وخاصة المجتمع الإسلامي - ارتكازه على أسس الدين والتقوى وأخذه بكتاب الله وسنة رسوله ، ليس هذا فحسب بل إن الميل للزهادة كان شيئاً أصيلاً في الحياة الإسلامية منذ ركن الإسلام لواءه ، فهو يحض على الزهادة والقناعة والرضا من عرض الدنيا بالقليل . وقد سئل الرسول صلوات الله عليه عن أعقل الناس فقال : « همهم المسابقة إلى ربهم عز وجل ، والمسايرة إلى ما يرضيه ، وزهدوا في فضول الدنيا ورياستها ونعيمها ، وهانت عليهم فصبروا قليلاً واستراحوا طويلاً » . وكان المسلمون الأولون من أحرص الناس على البعد عن مظاهر الحياة الدنيا وزخارفها ، ويروى عن سعد بن أبي وقاص أنه قال : (. . .) كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مالنا طعام نأكله إلا ورق الحيلة وهذا السمر حتى قرحت أشداقنا^(١) . والروايات التي تكشف لنا عن زهادة الخلفاء الراشدين كثيرة متواترة وخاصة عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، بل نجد كثرة من صحابة رسول الله والتابعين اشتهروا بالزهد وتجنب زخارف الدنيا مثل طلحة ابن عبيد الله وسعيد بن زيد وعثمان بن مظعون وعبد الله بن مسعود وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر وغيرهم ، وأبو نعيم يذكر في كتابه (الحلية) عدداً كبيراً من الزهاد والورعين في عهد الرسول ممن أطلق عليهم (أهل الصفة) ثم يذكر أسماء الزهاد من التابعين فنجد منهم وفرة ظاهرة ، كما نلمس في أخبارهم تفانيهم في حب الله والإقبال على التهجد والعبادة ، واستغراقاً في محاسبة النفس والتقشف والزهادة مثل أويس بن عامر القرني سيد نساك التابعين ، وعامر بن قيس الذي يقول عنه أبو نعيم (أول من عرف بالنسك واشتهر من عباد التابعين بالبصرة)^(٢)

(١) انظر : حلية الأولياء ١ : ١٨ . (٢) المصدر نفسه ٢ : ٩٤ .

وازداد الميل الزهدي في المجتمع الإسلامي في القرن الأول فنجد فيه أمثال مسروق ابن عبد الرحمن الذي حج فما افترش إلا جبهته حتى انصرف، والأسود بن يزيد النخعي الذي كان يجهد نفسه في الصوم والعبادة حتى ينحصر جسده ويصفّر، وأبي يزيد ابن الربيع بن خيثم الذي كان إذا سجد (كأنه ثوب مطروح فتجى العصافير فتقع عليه) ^(١). ونكلسون يقول إن القرن الأول انفرد بالعوامل الكثيرة التي شجعت على ظهور الزهد وانتشاره، فالحروب الأهلية الطويلة الدامية التي وقعت في عهد الصحابة وبنى أمية، والتطرف العنيف في الأحزاب السياسية، وازدياد التراخي والاستهانة في المسائل الخلقية، وما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين الذين يملون إرادتهم وآراءهم الدينية على غيرهم ممن أخلصوا في إسلامهم، كل أولئك عوامل حركت في نفوس الناس الزهد في الدنيا ومتاعها، وحولت أنظارهم نحو الآخرة ووضعت آمالهم فيها، ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية عنيفة وانتشرت على مر الأيام، فكانت زهداً دينياً خالصاً في بادئ الأمر، وظلت هذه الحركة تحمل طابع أهل السنة طوال حكم بني أمية وكان القائلون عليها من أشد أتقياء المسلمين، بل كان كثير منهم من القراء وأهل الحديث وعلماء الدين، ولعل أشهر شخصية في الزهد تمثل تلك الحركة في القرن الأول هو الحسن البصري الذي يمكن اعتباره مؤسساً لمدرسة البصرة في الزهد والتصوف ^(٢). وقد تغلغلت حركة الزهد في القرن الثاني إلى نفوس عامة المسلمين الذين نظروا إلى الحياة ومتاعها نظرة احتقار، فنجد بعضهم يفر من الحياة الاجتماعية الصاخبة إلى الكهوف أو المقابر أو يهيم على وجهه في الصحاري والجلال، فهذا إبراهيم بن أدهم يهجر الحياة الناعمة المرفهة ويقبل على المجاهدة والكفاح والعمل بيديه وكان يرتجز قائلاً :

اتخذ الله صاحباً ودّع الناس جانباً

وكان يلبس في الشتاء فرواً ليس تحته قميص، ولم يلبس خفين ولا عمامة، ويصوم في السفر والحضر ولا ينام الليل ^(٣) ونجد من زهاد القرن الثاني أيضاً عبد الواحد ابن زيد الذي كان يقول : « يامعشر إخواني عليكم بالخبز والملح فإنه يذيب شحم الكلى ويزيد في اليقين » ^(٤) أما صالح بن بشير المري فكان إذا

(١) حلية الأولياء ٢ : ٩٥ ، ١٩ : ١١٤ .

(٢) انظر : في التصوف الإسلامي وتاريخه : ٤٦ .

(٣) انظر : حلية الأولياء ٧ : ٣٦٧ - ٣٧٣ .

(٤) المصدر نفسه ٦ : ١٥٥ .

قص في المسجد كثر بكاؤه كأنه ثكلى ، وكان رياح بن عمرو القيسي لا يأكل إلا بقدر ما يمسك الرمق ، وسفيان الثوري لم يكن يجلس في صدر مجلس قط ، إنما كان يقعد إلى جنب الحائط ويجمع بين ركبتيه ^(١) . وكان الفضيل بن عياض يرفض عطاء هارون الرشيد ويبكيه أشد البكاء وكان يردد دائماً (اللهم زهدنا في الدنيا) ^(٢) أما وهيب بن الورد فكان لا يأكل من الفواكه ، وكان إذا انقضت السنة وذهبت الفواكه يكشف عن بطنه وينظر إليه ويقول : يا وهيب ما أرى بك بأساً ، ما أرى تركك الفواكه ضرك شيئاً ^(٣) وكان بشر بن الحارث الحافي يقول : « إن الجوع يصنع القواد ويورث العلم الدقيق » ويقول : « طوبى لمن ترك شهوة حاضره لموعده غيب لم يره » ^(٤) أما معروف الكرخي فكان يبكي وينوح وهو ينشد في السحر :

أَيُّ شَيْءٍ تُرِيدُ مِنِّي الذُّنُوبُ شُغِفْتُ بِبَيْ فُلَيْسَ عَنِّي نَغِيبُ
مَا يَضُرُّ الذُّنُوبَ لَوْ أَعْتَقْتَنِي رَحْمَةً بِي فَقَدْ عَلَانِي الْمَشِيبُ ^(٥)
ويطول بنا الحديث لو استعرضنا جميع الزهاد الذين ظهروا في القرن الثاني في أنحاء الدول الإسلامية ؛ وقد ذكر لنا أبو نعيم وابن الجوزي مئات من هؤلاء الزهاد الذين يمثلون جانباً رئيسياً في المجتمع الإسلامي في العصر الذي نتحدث عنه . وقد لاحظ أكثر الباحثين أن كلمة التصوف قد شاع استعمالها في آخر القرن الثاني مما يدل على أن هذا القرن كان عصر الانتقال من الزهد إلى دور التصوف الحقيقي ^(٦) . ويقال إن كلمة الصوفي أطلقت أول ما أطلقت على أبي هاشم الكوفي المتوفى عام ١٥٠ هـ الذي يقول فيه جامي في (نفحات الأنس) : « إنه تقدمه رجال كانت لهم قدم في الزهد والورع وحسن التوكل وفي طريق المحبة ، ولكنه كان أول من تسمى بالصوفي ^(٧) فكان القرن الثاني - على هذا الأساس - قد شهد حركة الزهد وهي تقوى وتشتد وتمضي إلى غايتها ، حتى تتطور وتتحول إلى تصوف

(١) حطية الأولياء : ٦ : ٣٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ٨ : ٨٤ .

(٣) صفة الصفوة ٢ : ١٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ٢ : ١٨٨ .

(٥) المصدر نفسه ٢ : ١٨١ .

(٦) انظر : في التصوف الإسلامي وتاريخه : ٦٨ .

(٧) المصدر نفسه : ٣ .

له حدود ومعان جديدة، وإن كان يمثل في أساسه الزهد الإسلامي الحقيقي . وكان هذا القرن قد شهد تيارين متضادين، كل منهما يمتد إلى غايته : تيار الزهد وتيار المجون، وهذا مأسوف نتمثله حين نعرض لأشعر الذي كان صدى لهذه الحياة الاجتماعية بشقيها الرئيسيين ، ولا شك في أنه سيكون خير مصور لهذه الحياة بعيداً عن ادعاءات المؤرخين وتزيّد الرواة .

الفصل الثالث

التأثير الثقافي

انطلقت اللغة العربية من جزيرتها تواكب الفتوحات التي قام بها المسلمون ، وترافق دفعات المهاجرين الذين وفدوا على الأمصار الجديدة ييغون الاستقرار بعيداً عن حياتهم الصحراوية القديمة . وكما أحرز الفاتحون انتصارات متوالية في المعارك التي خاضوها وثلوا بها ملك أعظم دولتين في ذلك التاريخ ، كذلك مضت اللغة العربية تشق طريقها في مجتمعات الأقطار المفتوحة ، وتحرز انتصارات متوالية في الشام والعراق ومصر وشمال أفريقية والأندلس ، وإن كانت هذه الانتصارات اللغوية — بطبيعة الحال — أبطأ في تحقيقها من الانتصارات العسكرية .

والحقيقة إن الذي ساعد على انتشار اللغة العربية بهذه السرعة في الأقطار المفتوحة ، ارتباطها القوى بالإسلام كدين في ذاته وكدعوة سرت في المجتمعات الجديدة سريان النور في الظلام ، فأمن بها عدد كبير من الناس ، وأقبلوا على اعتناقها في حماسة وقوة . ومهما تكن الدوافع التي تكمن وراء دخول أبناء هذه الشعوب في الإسلام ، فإنهم وجدوا أنفسهم محتاجين إلى تعلم اللغة العربية ولتقائها للتوصل إلى هذا الدين الجديد ، وإلى التفاهم مع الشعب الفاتح ، وللوصول أيضاً إلى المناصب المختلفة في هذه الإمبراطورية الواسعة . ومن هنا بدأ الصراع بين العربية وبين اللغات المحلية في الأقطار المفتوحة . وقد وضح أن نتيجة هذا الصراع كانت في جانب العربية بدليل انتشارها الواسع في هذه الأقطار — ربما حتى اليوم كما هو واقع في أغلبها — ولكن العربية مع ذلك لم تخرج سالمة تماماً من المعارك التي خاضتها مع اللغات المحلية ، ولكن ظهرت فيها آثار هذه المعارك منذ نهاية القرن الأول وأوائل الثاني كما يتضح لنا من دراسة التطور اللغوي في هذه الفترة . ويرى «يوهان فلك» أن اللغات الوطنية القديمة كانت سائدة في الوديان والسهول في كل مكان: اللاتينية الشعبية في شبه جزيرة أيبيريا ، ولهجات البربر في شمال أفريقية ، والقبطية في مصر ، واللهجات الآرامية في سورية وما بين النهرين . وحتى في المدن لم تكن الكلمة العليا للعربية . ففي مدن

العراق — حتى الجديدة منها كالبصرة والكوفة — كانت الفارسية سائدة بين الطبقات الدنيا إلى مدى بعيد^(١) .

والذي يقوله « فك » شئ طبيعي جداً وهو لا ينفي ما ذكرناه عن انتصار العربية على اللغات المحلية ، إذ ليس معنى هذا الانتصار القضاء على تلك اللغات قضاء تاماً في يوم وليلة . ولكن الذي حدث بالضبط أن العربية اصطدمت بهذه اللغات فأخذت تقضي عليها شيئاً فشيئاً ، ولكن بعد أن استوعبت ماتريد من هذه اللغات لتجدد شبابها وحيويتها ، وليمكنها مسيرة الحياة المتحضرة الجديدة التي بدأ العرب يحيونها منذ القرن الأول .

وكان العنصر الفارسي من القوة والانتشار بحيث جعل للغته مكاناً في المجتمع الإسلامي منذ القرن الأول ، فتأثرت بها العربية بعض التأثر ، وظهر أثر ذلك في الشعر نفسه ، فنجد مثلاً الصبيان في أزقة البصرة يسألون يزيد بن مفرغ حين عاقبة عبيد الله بن زياد : أين جيست ؟ (أي ما هذا) فيجيبهم بالفارسية :

آبَ اسْتِ نَبِيدَ اسْتِ عَصَارَةَ زَبِيبِ اسْتِ
سُمِيَّةَ رُوسِي اسْتِ

أي هذا ماء ونبيذ وعصارة زبيب وسمية البغي^(٢) .
ونجد أسود بن أبي كريمة يخلط بين العربية والفارسية في شعره إذ يقول :

لزم الغُرامُ ثوبِي بُكْرَةً في يَوْمِ سَبْتِ
فتمايلتُ عليهم مَيْلَ (زنجيٍّ بمسْتِ)
قد حسا الداذي صرفاً أو عُقاراً (بايَخَسْتِ)^(٣)

ولم يعتصم شعراء البدو أيضاً من تأثير الألفاظ الفارسية ، فكانوا يدخلونها في شعرهم

(١) العربية : ٨٢ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٨٠ .

(٣) المصدر نفسه ١ : ٨٠ ، المسح : السكر وإدمان الشراب ، الداذي : نوع من الشراب ، وبايخست بمعنى موطوءة بالأقدام .

للتملح — كما يقول الجاحظ — نجد هذا في شعر العماني وهو يمدح الرشيد :

من يلقه من بطل مُسْرَنْدٍ في زَغْفَةٍ مُحْكَمَةٍ بالسَّرْدِ

يجول بين رأسه و (الكرد) ^(١)

ونجده أيضاً في شعر أبي شراة إذ يقول :

إِذَا فُتِحَتْ فَغَمَتْ رِيحُهَا وَإِنْ سِيلَ خَمَارُهَا قَالَ «خُش» ^(٢)

وحتى في شعر الهجاء الذي يفترض فيه سريانه بين الجماهير ، كان الشعراء يستخدمون فيه ألفاظا فارسية مما يدل على فهم الناس لمعانيها وتقبلهم لها ، فمن ذلك قول أبي الينبغى في البرامكة :

إِنَّمَا الدُّنْيَا كَبَيْضِ عَمَلُوهُ (نيمرش)

فَحَشَاءَ الْبَرْمَكِيِّونَ وَقَالَ النَّاسُ (خُش) ^(٣)

وحتى شعر جرير — وهو يحتج به في العربية — لم يخل من ألفاظ فارسية في مثل قوله :

لَا خَيْرَ فِي غَضَبِ الْفَرَزْدَقِ بَعْدَمَا سَلَخُوا عِجَانَكَ سَلَخَ جِلْدِ (الرُّوْذَقِ) ^(٤)
والرودق بالفارسية حمل منتوف الوبرة بعد سلقه ^(٤) .

ولا نستغرب قط غزو الألفاظ الفارسية للشعر العربي منذ القرن الأول ، إذ كان ذلك الغزو نتيجة طبيعية للصراع بين العربية والفارسية . وكما كان الفرس محتاجين إلى تعلم العربية للأسباب التي قد مناها ، كذلك كان العرب في بعض الأقطار — وخاصة فيما وراء النهر — محتاجين إلى تعلم الفارسية وإتقانها . ويروى لنا الطبري أن والي خراسان أشرس بن عبد الله طلب رجلاً يوجهه إلى ما وراء النهر ، فسموا له شخصاً فقال : ليس بالماهر بالفارسية . ^(٥) وكان ذلك في عام ١١٠ هـ أي بعد مضي سنوات طويلة

(١) البيان والتبيين ١ : ٧٩ والكرد بمعنى العتق والمسرند الذي يعلو ويغلب ، والزغفة الدرع المحكمة .

(٢) الأغاني ٢٠ : ٤٠ والكلمة معناها طيب .

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز : ١٣٠ والكلمة الأولى معناها (مشوى نصف شيء) والثانية معناها في المثال السابق .

(٤) العربية : ٢٠ .

(٥) تاريخ الطبري ٧ : ١٩٦ .

على التقاء العربية بالفارسية . وقد ظل هذا الاشتباك بين الفارسية والعربية قائماً طوال القرن الثاني الهجري ، وظهرت آثاره واضحة عند شعراء هذا القرن وبخاصة الذين لهم أصول فارسية كأبي نواس .

وقد يتساءل المرء لماذا لم تتأثر العربية بغير الفارسية من اللغات المحلية في أثناء مصارعها إياها في بيئاتها الطبيعية ، فنحن لا نكاد نجد مثل هذا التأثير الفارسي القوي بالنسبة للألفاظ السريانية أو القبطية مثلاً . ولم أعثر في قراءاتي إلا على هذا البيت لإبراهيم الموصلي الذي وردت فيه عبارة سريانية على لسان خمار :

فقال (أزل بشين) حين ودعني وقد لعمرك زلنا عنه بالشين

ويقول الأصفهاني إن معناها امض بسلام^(١) .

والسبب في هذا - في رأبي - يرجع إلى طغيان الحضارة الفارسية على غيرها من الحضارات ، كما يرجع إلى تأثير الفرس القوي في البصرة والكوفة بالذات ، وهما مركزان إسلاميان خطيران في الحياة الثقافية والعقلية والعربية ، وخاصة إبان تكونها وتشكلها منذ القرن الأول ، فقد ورد على البصرة والكوفة عدد كبير من التجار والصناع والزراع الفرس فكونوا مع أسرى الحرب ذوى الأصل الفارسي أغلبية السكان ، حتى أصبح للفارسية في هاتين المدينتين مجال إلى جانب العربية كما ذكرنا من قبل . ويقول « ماسنيون » إن نزول بني القيس في البصرة سهل حركة تعريب المفردات الفارسية ، لأنهم كانوا حلفاء الحمراء من الفرس ، وحدث مثل هذا أيضاً في الكوفة إذ كان وجود الجماعات العربية الجنوبية عاملاً مساعداً على هذا التأثير والتأثر الذي حدث بين اللغتين : الفارسية والعربية^(٢) ،

وقد لاحظ الكتاب الأقدمون الدور الخطير الذي قامت به هاتان المدينتان - وخاصة البصرة - في التقاء العربية بالفارسية . فابن رشيقي يروي عن عبد الكريم ابن إبراهيم قوله : « وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل كثيراً في غيره » كما استعمل أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادير حكاياتهم^(٣) .

(١) الأغاني ٥ : ١٧٦ .

(٢) خطط الكوفة : ١٣ .

(٣) العملة ١ : ٥٨ .

وقام المولى والرفيق أيضا بدور خطير في تأثر العربية بالفارسية على وجه الخصوص ، ولعلنا ندرك خطورة هذه الوسيلة بعد أن رأينا ذلك الأثر القوي الذي كان للمولى والرفيق في الحياة الاجتماعية في القرن الثاني . ومن الطبيعي أن معرفتهم باللغة العربية لم تكن تامة ولا صحيحة في أغلب الأحيان ، لهذا كانوا ينسبون في كلامهم كثيرا من ألفاظ لغاتهم الأصلية ، كما كان نطقهم العربية في كثير من الأحيان مدعاة للسخرية ، وهذا مما دفع شاعرا كأبي عطاء السندي إلى أن يعهد بقراءة شعره إلى شخص آخر كما يذكر هو نفسه في شعر له :

أَعُوذُ نِيَّ الرَّوَاةُ يَا ابْنَ سُلَيْمٍ	وَأَبَى أَنْ يُقِيمَ شِعْرِي لِسَانِي
وَعَلَا بِالَّذِي أَجْمَعُ صَدْرِي	وَجَفَانِي لِعُجْمَتِي سُلْطَانِي
وَأَزْدَرْتَنِي الْعَيُونُ إِذْ كَانَ لَوْنِي	حَالِكًا مُجْتَوًى مِنَ الْأَلْوَانِ
فَضَرَبْتُ الْأُمُورَ ظَهْرًا الْبَطْنِ	كَيْفَ أَحْتَالُ حِيلَةً لِلْسَانِي؟ ^(١)

ويروى لنا الجاحظ قول بعض الشعراء في وصف لكنة جاريته وخلطها في اللغة :

أَكْثَرُ مَا أَسْمَعُ مِنْهَا فِي السَّحَرِ تَذَكِيرُهَا الْأُنْثَى وَتَأْنِيثُ الذَّكَرِ
وَالسُّوَاةُ السُّوَاةُ فِي ذِكْرِ الْقَمَرِ

ذلك لأنها كانت تنطقه (الكمر)^(٢) .

وعند هذه النقطة من البحث نكون قد أدركنا شيئا جديداً كان يحدث في الحياة الثقافية العربية في هذا العصر ، ذلك أن التقاء العربية بالفارسية وتأثرها بها ذلك التأثير القوي الذي شاهدنا بعض صوره ، أدى إلى ظهور أسلوب عربي مولد منذ الثلث الأخير من القرن الأول الهجري ، له خصائص ومميزات يفرق بها عن أسلوب اللغة العربية الأصلية التي جاء بها العرب المهاجرون إلى البلاد المفتوحة . وقد تكون هذا الأسلوب المولد من العوائد اللغوية الراجعة

(١) الأغاني ١٦ : ٨٢ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٤١ .

إلى اللهجة الدارجة في مناطق العربية القديمة كما يقول يوهان فلك ، إلا أنه تصور وجود (لغة) مولدة لا (الأسلوب) الذي أشرنا إليه^(١). وما ساعد - في رأيي - على وجود هذا الأسلوب المولد ظهور شعراء من غير العرب منذ النصف الثاني للقرن الأول الهجري مثل زياد الأعجم وأبي عطاء السندی . وكانت أولى سمات هذا الأسلوب المولد اختلافه في استعمال بعض الألفاظ اللغوية عما كانت تقرره العربية الأصيلة في الأسلوب القديم . وكان هذا يعد بالطبع خطأ ولحنا في بيئة اللغويين القدماء ، ولكننا ننظر إليه الآن على أنه كان تطوراً طبيعياً للغة العربية في هذه البيئة الجديدة التي تضم أشتاتاً وأخلاطاً من الأجناس واللغات .

وقد أثر هذا الأسلوب المولد في البيئة العربية تأثيراً له شأنه ، بدأ يظهر في أواخر القرن الأول حتى بين الشعراء ذوي الأصل العربي الثابت والذين يعتبر شعرهم بدوياً مثل ذي الرمة إذ توجد في شعره صيغ مولدة لا حظها الأصمعي . فهو يستعمل مثلاً لفظ (زوجة) بدلاً من اللفظ القديم (زوج) وهي صيغة جديدة وردت عند الفرزدق من قبل ولكن الأصمعي يرفضها ، كما يخطئ الأصمعي أيضاً استعمال ذي الرمة لفظ (أدماة) بمعنى بيضاء اللون بحجة أن لفظ الجمع وهو (أدمان) جمع (آدم) لا يصح أن يأخذ علامة تأنيث^(٢). وقد أدرك الأصمعي بفطرته اللغوية السليمة من أين جاء أثر التوليد في شعر ذي الرمة إذ يقول : « إن ذا الرمة قد أكل البقل والمملوح في حوانيت البقالين حتى بشم^(٣) » وهو طبعاً لا يقصد هذا المعنى المادى الضيق ، ولكنه يريد أن ذا الرمة قد أثرت في لغته الحضارة الجديدة وهذا الأسلوب المولد سمة من سماتها .

ومن الطبيعي أننا لم نقصد بهذا المثال أن نجعل الفرق بين أسلوب اللغة العربية الأصيلة والأسلوب المولد احتواء الأخير على الخطأ واللحن - ولو في رأي اللغويين - فالواقع إن الفرق بينهما أعمق من هذا بكثير ، بحيث يمكننا أن نقول إن الأسلوب المولد كان خروجاً على الأسلوب العربي الأصيل في نواح مختلفة :

(١) انظر العربية : ٢٦ .

(٢) العربية : ٤٣ .

(٣) الموشح : ١٨٠ .

في الألفاظ والتراكيب اللغوية ، وفي نسق التعبير ، وفي موسيقى العبارة ، بل في معظم الأركان التي يتألف منها الكلام والتعبير - كما سنتبين في دراسة تركيب العبارة الشعرية في الباب الثالث من هذا البحث . وهذا الرأي يخالف مخالفة ظاهرة ماذهب إليه شوقي ضيف حين قال : « كان المظنون أن يحدث تغير واسع في اللغة العربية أثناء العصر العباسي حين اتخذها الأجانب من الأعاجم وسيلة للتعبير عن فكركم وشعورهم ، غير أن ذلك انحسر عن تغيرات طفيفة ، وإن كان العباسيون أنفسهم يشيرون إلى ما يسمى بأسلوب المولدين ، ولكن هذا الأسلوب لم يتحول تحولا تاما إلى صورة مخالفة للصورة القديمة^(١) » .

ويمكننا أن نقول أيضا إن هذا الأسلوب المولد بما فيه من بساطة ورشاقة كان تحويرا للأسلوب القديم بحيث يمكن أن يتجاوب هذا التحوير مع عامة الشعب المولد المختلط الأجناس ، ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن الأسلوب العربي الفصيح قد انتهى أمره وغلبه هذا الأسلوب المولد ، كلا ولكن كان لكل منهما تيار يسير فيه ومناطق نفوذ خاضعة لهذا الأسلوب أو ذاك . كان الأسلوب العربي الأصيل في بيئات العلماء من أصحاب اللغة والقرآن والحديث ، وكان الأسلوب المولد يسرى خارج بيئات هؤلاء العلماء بين طبقات الشعب المختلفة ، ولهذا نجد لغة الشعر - وهو استجابة طبيعية لمشاعر شعبية مختلفة - تصطبغ في القرن الثاني الأسلوب المولد . ومع ذلك كثيرا ما التقى الأسلوبان : الفصيح والمولد عند شاعر واحد كأبي نواس ، فنجد أنه يستخدم الفصيح في أداء موضوعات معينة هي عبارة عن موضوعات (رسمية) تضمن له رضا الخلفاء وثناء العلماء ، كما يستخدم المولد في الموضوعات التي تعبر عن ذات نفسه ومشاعره ، فيرضى ذاته ويرضى قراءه أو سامعيه من أبناء الشعب على اختلاف طبقاته . وأحيانا نجد غلبة تيار الأسلوب الفصيح على شاعر من شعراء القرن الثاني لأسباب معينة ، كأن يكون بدويا أو قريبا من البادية . كما نلاحظ في مسلم بن الوليد الذي كان قريبا من بادية الكوفة - ولكن شعر مثل هذا الشاعر لم يكن ينجو قط من تأثير الأسلوب المولد ، وكيف ينجو منه في الوقت الذي استجاب له بعض الشيء أمثال جرير وذى الرمة في أواخر القرن الأول .

لقد أدرك الأمويون بفطرتهم العربية السليمة منذ القرن الأول خطر نمو هذا الأسلوب المولد على حياة العربية الفصحى فتحمسوا أشد التحمس لمبدأ تنقيتها من اللحن والألفاظ الدخيلة عليها . وكان الخلفاء يبعثون بأبنائهم إلى البادية لينشأوا على تعلم اللغة الفصيحة في القبائل العربية الأصيلة . ولكن هذه الحركة لم تصادف نجاحاً كبيراً أمام طغيان الأسلوب المولد وانتصار العناصر المعينة على قوته وانتشار تفوذه ، وخاصة بعد ظهور الموالى والأعاجم في حزب قوى مسيطر ، كان له أكبر الأثر في نجاح الدعوة العباسية . ولكن ليس معنى ذلك أن سقوط الأمويين كان له أثر خطير على حياة اللغة الفصيحة . فحياة أى أدب أو لغة لا ترتبط بسقوط دولة وظهور أخرى - كما أوضحت في مقدمة هذا البحث - ذلك أن التطور اللغوى كان سائراً في طريقه مقترناً بنواحي التطور الأخرى التى شملت نواحي الحياة العربية كلها ، ولكن بقاء تيار اللغة الفصحى القديمة كانت تؤكد وجوده عدة عوامل هامة ، منها أن هذه اللغة هى لغة القرآن فبقاؤها مرتبط ببقائه متلوا ومحفوظا بين الناس . وكذلك كانت القبائل العربية المقيمة في بواديها محافظة على هذه اللغة كل المحافظة ، لا ترضى بها بديلاً ولا تريد أن تخضع لتيار التطور اللغوى الجديد . وقد ساعدت الحركة العلمية أيضاً على بقاء الأسلوب الفصيح إذ بدأ العلماء يهتمون اهتماماً كبيراً بجمع شوارد اللغة العربية ومعرفة دقائقها وتسجيل شواهد ما إلى ذلك . وهناك عامل هام أيضاً في بقاء الأسلوب الفصيح إلى جانب المولد - وهو عامل عجيب حقاً . ولكنه كان من أقوى العوامل تأثيراً في حياة العربية القديمة - ذلك العامل هم الموالى الذين دخلوا في الإسلام فأقبلوا على تعلم العربية وإتقانها ليصلوا عن طريقها إلى المناصب الكبرى في الدولة ، وليشقوا طريقهم في الحياة في هذه الإمبراطورية الجديدة التى يحكمها سادة عرب . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح كثير من حملة العلم في مختلف الفروع القديمة والناشئة من أولئك الموالى : نجدهم يبرزون في علوم القرآن والحديث والفقه ، ويتولون مناصب الفقهاء والقضاة في أنحاء الدولة الإسلامية فعمربن عبد العزيز مثلاً جعل الفتيا بمصر لثلاثة منهم مولىان ، فلما أنكر العرب ذلك قال عمر « ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا

تسمون»^(١)، ونجد الموالى أيضا يبرزون في علم اللغة العربية نفسه فلا يكاد يمضي قرن حتى نشهد سيبويه أستاذا لعلماء النحو من العرب أنفسهم . وبفعل هذه العوامل المختلفة عاش الأسلوب العربي الأصيل جنبا إلى جنب مع الأسلوب المولد ، ولم يضعف شأنه بسقوط الأمويين كما يظن أولئك الذين يتوهمون أن العروبة ماتت بانقضاء الدولة الأموية . بل على العكس من ذلك نجد أن الأسلوب العربي الفصيح قد قوى شأنه في منتصف القرن الثاني بعد قيام الدولة العباسية وتقدم الحركة العلمية في شتى فروع التأليف ومن بينها التأليف في اللغة نفسها . وكان عصر الرشيد نفسه من أزهى العصور بالنسبة لحياة اللغة العربية والتأليف فيها . ويكفى أن نذكر من علماء هذه الفترة أمثال الكسائي والأصمعي والفراء وأبى عبيدة وأبى زيد الأنصاري لتبين صدق ما ذهبنا إليه . بل إن مبدأ تنقية اللغة الفصحى الذى نادى به الأمويون قد امتد إلى هذا العصر وظهرت أول آثاره العملية في صورة الكتاب الذى ألفه الكسائي في لحن العامة — هذا إذا صحت نسبته إليه^(٢) .

وإذا تركنا التطور اللغوى الذى كان أساسا للتأثير الثقافى فى هذا العصر ، ونظرنا فى النواحي الأخرى للتطور الفكرى وجدنا أن أثر الثقافة الفارسية فى المجتمع الإسلامى لم يكن لفظيا أو لغويا فحسب ، بل تعدى هذه الناحية إلى نواح أخرى ، قد تكون أعمق ولكنها أخفى وأدق ، بحيث لا تظهر لأول وهلة كهذه الأسماء الفارسية التى أطلقت على مظاهر الحضارة المختلفة من أنواع الأطعمة والملابس والأزهار والرياض وغير ذلك . لقد أحس العرب عقب حركة الفتوح مباشرة بحاجتهم الماسة إلى الحضارة الفارسية حتى فى أهون شئون الحياة . فنظام العطاء الذى وضعه عمر بن الخطاب ذو أصل فارسى بل كلمة « الديوان » نفسها فارسية لا شك فيها^(٣) . ويروى لنا الصولى مناظرة بين فارسى وعربى تكشف لنا عن أثر الفرس الواضح فى الحضارة العربية ، قال الفارسى :

(١) خطاط المقرئى ٢ : ٣٣٣ .

(٢) انظر العربية : ٨٩ .

(٣) أدب الكتاب : ١٨٧ .

ما احتجنا إليكم قط في عمل ولا تسمية ، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا في أعمالكم ولا لغتكم حتى إن طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سمينا ، ما غيرتموه»^(١). ويحدثنا حمزة بن الحسن الأصفهاني عن أن لفظ «التاريخ» نفسه محدث في لغة العرب فيقول في ذلك «دفع إلى عمر بن الخطاب صلح محله في شعبان فقال : أي شعبان هذا ؟ هو الذي نحن فيه أم الذي هو آت ؟ ثم جمع وجوه الصحابة وقال إن الأموال قد كثرت وما قسمنا منها غير موقت فكيف التوصل إلى ما نضبط به ذلك ؟ فقالوا يجب أن يتعرف ذلك من رسوم الفرس . . فاستحضر الهرمزان وسأله فقال : إن لنا حسابا نسميه «ماه روز» ومعناه حساب الشهور والأيام فعربوا الكلمة فقالوا مؤرخ ثم جعلوا مصدره التاريخ واستعملوه»^(٢) .

وإذا سلمنا بأن اللغة العربية قد وسعت مثل هذه الألفاظ الفارسية ، وأن الحضارة العربية قد اقتبست نظمها من النظم الفارسية — وهذا أمر أدركناه عند الحديث عن التأثير الاجتماعي — فهل كان للأدب الفارسي والثقافة الفارسية بوجه عام تأثير أبعد من ذلك ؟ إن طه حسين يقول إنه مضطر أن يعترف بأننا حين نبحث عن الأدب الفارسي الذي أثر في الأدب العربي لا نكاد نجد شيئا . ويتساءل أين الكتب الفارسية الكثيرة التي ترجمت إلى العربية ، وأين الشعر الفارسي الذي ترجم وأثر في الشعر العربي ؟ ويخلص من هذا كله إلى نتيجة معينة وهي أن هذه الآداب الفارسية لم تكن في حقيقة الأمر عظيمة الخطر . وهي تنحصر في كتاب كليلة ودمنة وكتاب الأدب الكبير ، وكتاب الأدب الصغير والحكم التي يشتمل عليها شعر بعض الشعراء^(٣) .

ويذهب إلى هذا الرأي أيضا عبد العزيز الدوري إذ يقول : « إن هناك مبالغات كثيرة عن الدور الذي لعبه الفرس في الثقافة العباسية ، وهي ناتجة عن محاولات الشعوبيين في أثناء خصومتهم الطويلة مع العرب أن ينسبوا كل أنظمة العباسيين وثقافتهم إلى الفرس»^(٤) .

(١) أدب الكتاب : ١٩٣ .

(٢) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء : ٨ وفي لسان العرب مادة (أرخ) رأى يقول إن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض وأن المسلمين أخذوه من أهل الكتاب وأن تاريخ المسلمين من زمن الهجرة كتب في خلافة عمر .

(٣) من حديث الشعر والنثر : ١٨ وما بعدها .

(٤) العصر العباسي الأول : ٤٨ .

أما نجيب البهيتى فقد سعى أثر الحضارة الفارسية في المجتمع الإسلامى « قصة أضخم انتحال في التاريخ » وذهب إلى أن الشعوبيين نجحوا في خديعة العرب أكبر خديعة يوم أوهوهم أنهم أمة أقدم منهم حضارة . ويقرر البهيتى بعد ذلك أنه « لم تكن هناك ثقافة فارسية يأخذها العرب عن الفرس ، ولم يكن هناك أدب فارسى أو شعر فارسى حتى يؤثر بعض ذلك الأثر في الشعر العربى »^(١) . وأيسر ما توصف به هذه الآراء المتفقة أنها موضع نظر ، وأنها فيما يبدو خضعت للعصية العربية حين توهمت أن فكرة التأثير الفارسى كانت نتيجة الحركة الشعوبية ، مع أن الحركة الشعوبية هي التى كانت نتيجة هذا التأثير الفارسى الذى بدأ - كما رأينا - عقب حركة الفتح مباشرة منذ أيام عمر بن الخطاب . ومن العجيب أن ينكر أصحاب هذه الآراء أبسط مظهر للتأثير الفارسى وهو التأثير اللغوى الذى تحدثنا عنه في بداية هذا الفصل - إلا إذا كانوا ينكرون أيضاً أن اللغة هي أساس التعبير عن الثقافة بل أداتها . ومن العجيب أيضاً أن نجد الدورى يتحدث عن الكوفة فيقول إنها « كانت شبه بوتقة صهرت فيها كثير من الثقافات القديمة ، كما انتشرت فيها بعض الديانات القديمة كاليهودية والزرذشتية والمناوية وبعض العقائد البابلية ، وأدى وجود هذه الديانات إلى تسرب بعض الآراء الغربية إلى غير العرب من سكانها كبداً تقديس الملوك وبعض المبادئ الغربية كتناسخ الأرواح والحلول »^(٢) فإذا لم تكن هذه المذاهب والعقائد والآراء - وأغلبها فارسى - جزءاً من الثقافة التى كانت سائدة في هذا العصر ومتسلطة على العقول والأفكار . فما هي عناصر الثقافة إذن وما مدلولها ؟

أما البهيتى فيقع في تناقض أشد مما وقع فيه الدورى ذلك أنه بعد أن أنكر إنكاراً تاماً أى أثر للثقافة الفارسية ادعى أن هناك تيارين مؤثرين في الشعر العربى : التيار السريانى ، والتيار اليونانى . أما أدلته على وجود الأول فشواهد قليلة جاء فيها ذكر الفلك والتنجيم . وعلى وجود الثانى خبر ذكره القفطى يقول فيه إن حنين ابن إسحق كان يمشى في شوارع بغداد وهو ينشد شعراً بالرومية لهوميروس^(٣) .

(١) تاريخ الشعر العربى : ٢٣٠ وما بعدها .

(٢) العمر العباسى الأول : ١٥ .

(٣) تاريخ الشعر العربى : ٢٣٢ وما بعدها .

ومع أن إنكار الثقافة الفارسية ذات الشواهد الواضحة البينة - التي ما تزال موجودة في لغتنا العربية حتى اليوم - حدث دون دليل ، كان أولى بالكاتب أن يثبت وجود تأثير هذين التيارين : السرياني واليوناني بأدلة أقوى مما ذكر وأكثر إقناعاً .

والحقيقة أن الثقافة الفارسية كان لها تأثير كبير على الثقافة العربية منذ القرن الأول الهجري ، فطرق الغناء وفنون الإيقاع والآلات الموسيقية نفسها بأنواعها المختلفة كلها في الغالب كانت فارسية . وقد مربنا أن ابن سريج كان يغنى في مكة أيام عثمان ، وكان عوده على صنعة عيدان الفرس وهو أول من ضرب به على الغناء العربي بمكة^(١) . ونجد ابن مسجع يأخذ الألحان الفارسية عن الفرس الذين كانوا يبنون الكعبة أيام ابن الزبير^(٢) . ونظرة إلى أسماء الآلات الموسيقية في هذه الفترة تثبتنا أنها كانت في غالبيتها من أصل فارسي : البندير ، المصافق ، الشهرود ، الطنبور ، البوق ، الكوبة ، البربط ، الشاهين . . إلخ بل نجد أيضاً أن فكرة هارون الرشيد التي جعل بها المغنين مراتب وطبقات كانت على نحو ما فعله أردشير بن بابك وأنوشروان^(٣) . إذن فشيوع الموسيقى والغناء في المجتمع العربي كان أثراً من آثار الثقافة الفارسية السائدة في هذا العصر . وقد تربت على شيوع هذين الفنين آثار عميقة في الشعر العربي ظهرت في تطور فن الغزل في الحجاز في أواخر القرن الأول وامتدت آثارها بل اشتدت وضوحاً في شعر القرن الثاني . فالموسيقى قد رقت النفوس وهذبت الأذواق إلى أبعد حد ، ومن هنا جاءت محاولة شعراء القرن الثاني للخروج على الأوزان التقليدية ، أو على الأقل هجر الأوزان المعقدة إلى البحور الرشيقة القصيرة ، كما سنبين في الباب الثالث . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل تفنن الشعراء في خلق موسيقى داخلية في الأبيات أخذت تتحور شيئاً فشيئاً لتصبح فنا قائماً بذاته هو فن البديع . أما الغناء فقد استلزم هذه الأوزان الرشيقة القصيرة كما استلزم المقطعات

(١) الأغني ١ : ٢٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ٣ : ٢٧٦ .

(٣) مقال الموسيقى العربية لأحمد الحفني في مجلة الهلال عدد أغسطس سنة ١٩٤٠ .

الصغيرة ولذلك طغت هذه المقطعات على القصائد الطويلة القديمة التي عرفها الشعر العربي منذ العصر الجاهلي . وقد استخدم « هوار » هذه النقطة للتدليل على تطور الشعر في القرن الثاني وتأثره بالثقافة الفارسية^(١).

ومع نشأة المقطعات وخفة الأوزان رقت الألفاظ إلى أبعد حد وأسقطت نهائياً من شعر القرن الثاني - إلا من شواذ قليلة - هذه الكلمات الوحشية المستكرهة . وقد روى ابن سلام أن طريح بن إسماعيل الثقفي دخل على المهدي وسأله أن يسمع منه فقال له : ألسنت الذي يقول للوليد بن يزيد :

أَنْتَ ابْنُ مُسْلَنْطَحِ الْبَطَاحِ وَلَمْ يَطْرُقْ عَلَيْكَ الْحَنِيُّ وَالْوَلَجُ

والله لا تقول لي في مثل هذا أبداً ولا أسمع منك شعراً وإن شئت وصلتك^(٢) !
وروى عن الهادي أنه أنشد قول الشاعر :

وَأَسْتَقَلَّتْ رِجَالُهُم بِالرَّدَيْنِيِّ شُرْعَا

فقال : كنت أشتي أن يكون هذا الغناء في شعر أرق من هذا ،
اذهبوا إلى يوسف الصيقل حتى يقول فيه ، فقال :

لَا تَلْمَنِي أَنْ أَجْزَعَا سَيِّدِي قَدْ تَمَنَّا

وَابِلَائِي إِنْ كَانَ مَا بَيْنَنَا قَدْ تَقَطَّعَا^(٣)

ولم يكن هذا الذوق الرفيع المذهب الرقيق وقفاً على الخلفاء أو ذوقاً شخصياً ، بل كان شيئاً عاماً في الناس بفعل تأثير الموسيقى والغناء . فالأصفهاني يحكي لنا قصة لطيفة عن جماعة من الطلاب كانوا يختلفون إلى المبرد ، وكان من بينهم فتى من أحسن الناس وجهاً وأنظفهم ثوباً وأجملهم زياً . انصرفوا يوماً من مجلس المبرد وجلسوا يصصحون ما نقلوه من آداب وأخبار ، فإذا بجارية اطلعت وطرحت في حجر الفتى رقعة مختومة بعنبر ، فقرأها منفرداً ثم أجاب عنها ورمى بها إلى الجارية . فلم يلبثوا أن خرج خادماً من الدار وصفع الفتى بقوة حتى خلصوه من

(١) Literature Arabe: ٦٤

(٢) تاريخ الطبري ١٠ : ١٩ والمسلطح الفضاء الواسع ، والحني جمع حنو وهو كل ما انحنى ، والوج جمع ولجة : كهف تستتر فيه المارة من مطر وغيره ، ومعطف الوادي .

(٣) تاريخ الطبري ١٠ : ٤٤ .

يده . فلما تباعدوا وسألوه عن الرقعة فلماذا فيها مكتوب :

كَفَى حَزَنًا أَنَا جَمِيعًا بِلَدَةٍ كِلَانَا بِهَا ثَاوٍ وَلَا نَتَكَلَّمُ

فقالوا هذا ابتداء ظريف ، فبأى شيء أجبت أنت ؟ قال : كتبت في الجواب :

أَرَاكَ بِالْخَابُورِ نُوقُ وَأَجْمَالُ

فقالوا له : ما وفاك القوم حقلك ، ثم تناولوه فصفعوه حتى لم يدر أى طريق يأخذ^(١) .

ولعل هذه القصة تبين لنا أن حركة النعى على بكاء الأطلال التي ظهرت في القرن الثاني ، لم تكن بتأثير شعوبى كما ذهب البعض ، ولكنها كانت نتيجة لتغير الذوق العام . وسنوفى الكلام عن هذه الحركة حقه في الباب الثاني من هذا البحث . أما تأثر الشعر العربى بالمعاني والأخيلة الفارسية وطرق التعبير فأمر لا شك فيه بعد أن ترجم عدد كبير من الكتب الفارسية منذ العصر الأموى . ولا يمكن أن نحددنا عن هذه الفكرة الرواة والمؤرخون الذين يذكرون بضعة كتب صغيرة ضئيلة الشأن . فابن النديم يذكر كتاب كليله ودمنة ، وكتاب الزهر وبرد اسف ، وكتاب السندباد ، وكتاب مزدك ، وكتاب الصيام والاعتكاف ، وبعض الأسماء والخرافات^(٢) . ويذكر مؤرخون آخرون بضعة كتب متفرقة من هذا النوع ككتاب رستم وأسفنديار ، وبهرام شوس ، وكتاب خدا ينامة في السير ، وآيين نامه ، والتاج في سيرة أنو شروان . هذا عدا الكتب المشهورة مثل البيتمة والأدب الكبير والأدب الصغير^(٣) .

والواضح من هذه الكتب وغيرها أن أكثرها في الحكم والآداب والأخبار والسير وأقلها في النجوم وما أشبه ، ويبدو أن هذه النواحي كانت تجتذب اهتمام المؤرخين والرواة أكثر من غيرها . ولهذا لم يعنوا بتسجيل جميع الكتب التي ترجمت من الفارسية وبعضها كان — فيما نظن — يحتوى أشعارا وآدابا وعلوما

(١) الأغاني ٧ : ١١٠ .

(٢) الفهرست : ٣٠٥ .

(٣) تاريخ التمدن الإسلامى ٣ : ١٧٦ .

ومعارف مختلفة . والدليل على ما نقول إننا لم نسمع مثلاً عن ترجمة كتب فارسية في العصر الأموي ، مع أن المسعودي يذكر عرضاً خيراً هاماً يؤكد لنا هذه الفكرة ، يقول : « رأيت بمدينة إصطخر من أرض فارس في عام ٢٠٣ هـ عند بعض أهل البيوتات المشرقة من الفرس كتاباً عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياساتهم لم أجدها في شيء من كتب الفرس كخداينامة وآيين نامه وكهناماه وغيرها . . . وكان تاريخ هذا الكتاب أنه كتب مما وجد في خزائن ملوك فارس للنصف من جمادى الآخرة عام ١١٣ هـ ونقل لهشام بن عبد الملك بن مروان من الفارسية إلى العربية^(١) » .

ودليل آخر يثبت عدم وصول جميع أخبار الكتب الفارسية التي ترجمت إلى العربية إلينا ، يقدم لنا حمزة بن الحسن الأصفهاني ، ذلك أنه حين أراد كتابة مؤلفه « تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء » لاحظ اضطراباً في تاريخ الفرس ، فلم يجد بداً عندئذ من جمع النسخ المختلفة ليقابل بعضها ببعض . وقد ذكر لنا - لحسن الحظ - هذه النسخ التي رجع إليها والخاصة بتاريخ ملوك الفرس ، فإذا بنا لا نكاد نعلم من أمرها شيئاً وهي : « سير ملوك الفرس » من نقل ابن المقفع ، وكتاب « سير ملوك الفرس » من نقل محمد بن الجهم البرمكي ، وكتاب « تاريخ ملوك الفرس » المستخرج من خزانه المأمون ، وكتاب « سير ملوك الفرس » من نقل أو جمع محمد بن بهرام بن مطيار الأصبهاني ، وكتاب « تاريخ ملوك بني ساسان » من نقل أو جمع هشام بن قاسم الأصبهاني ، وكتاب « تاريخ ملوك بني ساسان » من إصلاح بهرام بن مرد انشاه موبد كورة شابور من بلاد فارس^(٢) .

إذن فقد ترجم عدد كبير من الكتب الفارسية في مختلف العلوم والفنون وذلك منذ العصر الأموي . ولا بد أن عدداً كبيراً من المثقفين قد اطلعوا عليها اطلاع الدراسة والفهم العميق ، واستفادوا مما فيها وخاصة أننا أثبتنا أن الفارسية في القرن الأول والثاني لم تكن غريبة على المجتمع الإسلامي وخاصة في العراق وخراسان ، كما أثبتنا أن عدداً كبيراً من العرب كانوا لابد يحسنونها ويتقنون التحديث والكتابة

(١) التنبيه والإشراف : ١٠٦

(٢) تاريخ سني ملوك الأرض : ٩ .

بها ، فلا نستغرب إذن أن تؤثر الثقافة الفارسية من هذا السبيل في الشعر العربي في القرن الثاني ، وخاصة بعد ظهور عدد كبير من الشعراء الذين تمتد أصولهم إلى الفرس ، بل إن لدينا نصا هاما يثبت أن الشعراء العرب أنفسهم لم يكونوا أقل اطلاعا من غيرهم على الثقافة الفارسية . فهذا طيفور ينقل عن يحيى بن الحسن بن معاذ أنه قال : « كنت بالرقه بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين على بركة إذ دعوت بغلام لي فكلمته بالفارسية ، فدخل العتابي وكان حاضرا في كلا منا فتكلم معي بالفارسية . فقلت له : أبا عمرو مالك وهذه الرطانة ؟ فقال لي : قدمت بلكم هذه ثلاث قدمات . وكتبت كتب العجم التي في الخزانة بمرو ، وكانت الكتب سقطت إلى ما هناك مع يزدجرد ، فهي قائمة إلى الساعة . فقال : كتبت منها حاجتي ثم قدمت نيسابور وجزتها بعشر فراسخ إلى قرية يقال لها ذودر فذكرت كتابا لم أقض حاجتي منه ، فرجعت إلى مرو فأقمت شهرا . قال : قلت : أبا عمرو لم كتبت كتب العجم : فقال لي ؟ وهل المعاني إلا في كتب العجم والبلاغة ؟ اللغة لنا والمعاني لهم . ثم كان يذاكرني ويحدثني بالفارسية كثيرا^(١) . »

ونحن لا نميل إلى تكذيب هذا النص فطيفور مؤرخ ثقة ، والعتابي الشاعر عرفت عنه هذه الثقافة الفارسية كما عرفت عن غيره . هذا مع أنه عربي صليبة من ولد عمرو بن كلثوم التغلبي صاحب المعلقة المشهورة ، ومع أنه أيضا لم يكن من ساكني خراسان أو العراق بل كان يسكن قنسرين في الشام^(٢) ولهذا دلالة أيضا ، فهو يعني أن الثقافة الفارسية لم تكن وقفا على بيئة دون أخرى ، ولكنها كانت منتشرة في أنحاء المملكة الإسلامية كلها .

وينحيل إلى أن شعر المجون والحمريات بالصورة التي تشكل بها في القرن الثاني ، وكذلك شعر التغزل بالذكر لم يكن ذلك كله إلا صدى لما اطلع عليه شعراء القرن الثاني وأواخر الأول من الشعر الفارسي ، إذ ليس من المعقول أن يقدم هؤلاء الشعراء على التعبير عن هذه الموضوعات لمجرد أنها بدأت تشيع في عصرهم

(١) كتاب بغداد : ٨٧ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز : ٢٦١ .

استجابة للتأثير الفارسي في المجتمع ، فإنهم لو فعلوا ذلك لصادفوا نفوراً من الذوق العام والعرف السائد ، ولكن وجود التعبير عن هذه الموضوعات في الشعر الفارسي القديم وقراءة الناس له وعرفانهم به ، سهل على الشعراء العرب الخوض في هذه الموضوعات دون حرج ، وبلا خوف من استنكار المجتمع .

وتدعونا هذه النقطة من البحث إلى تسجيل ناحية أخرى من تأثير الثقافة الفارسية وهي ناحية المذاهب والعقائد المختلفة التي شاعت في القرن الثاني وتأثر بها كثير من العرب المثقفين وظهرت آثارها واضحة في شعر الشعراء . ونحن لا نستطيع أن ننكر أن هذه المذاهب والعقائد المختلفة كانت جزءاً هاماً من تكوين الثقافة العربية في ذلك العصر ، كما لا نستطيع أن ننكر أن أغلب هذه المذاهب كان يرجع في أصله إلى الفرس ، كالثنوية مثلاً وهم أربع فرق : المانوية الذين يقولون إن للعالم أصليين : نور وظلمة وهما قديمان . والديصانية وهم يقولون بالنور والظلمة أيضاً ولكن الفرق بينهم وبين المانوية أن المانوية ينسبون الحياة إلى النور والظلمة ، أما الديصانية فيقولون إن النور حي والظلمة ميتة . والفرقة الثالثة هي المرقونية الذين يشبثون متوسطا بين النور والظلمة ويسمون ذلك المتوسط المعدل . والفرقة الرابعة هي المزدكية أتباع مزدك الذي أظهر دين الإباحة^(١).

وغير فرق الثنوية هذه كان للفرس تأثير كبير في بعض المذاهب الأخرى وخاصة في فرق الغلاة من الشيعة الذين نادوا بفكرة المهدي المنتظر ، وهي فكرة فارسية أصلاً ولدت في أثناء ثورة المختار التي كانت في أساسها ثورة موال – كما بينا – إذ ذهب إلى أن محمد بن الحنفية لم يمت ولكنه اعتزل الدنيا متخفياً في الجبال المحيطة بمكة . وإن كان « الفرد جيوم » يرى أن هذه الفكرة ولدت بتأثير اليهود والمسيحيين ، وأنها تكاد تكون فكرة عالمية إذ آمن بها بعض الهنود والمغول كما آمن بها الصينيون وأهل بيرو وغيرهم^(٢).

وعلى أية حال كان التأثير الفارسي في المذاهب والعقائد التي شاعت في

(١) انظر : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ٨٨ .

(٢) الإسلام : ١١٨ .

القرن الثاني واضحا إلى أبعد حد ، وكان من نتائجه المباشرة ظهور حركة الزندقة في هذا القرن ، تلك الحركة التي كانت جزءاً من ثقافة العصر وشخصيته والتي أثرت في شعره تأثيراً خطيراً ، كما أثرت في المجتمع الإسلامي بصفة عامة ، وقد أوضحت هذه النقطة في الفصل السابق .

وإذا تركنا حديث الثقافة الفارسية — التي كانت في رأي أهم الثقافات المؤثرة في العقلية العربية وخاصة في القرن الثاني — فإن من الواجب علينا أن نبحث عن الثقافات الأخرى التي كانت ذات تأثير قوى على الحياة العقلية في هذا القرن .

وأهم الثقافات التي تأتي بعد الفارسية مباشرة هي الثقافة اليونانية ، فقد أحس المسلمون حاجتهم إليها كما أحسوا حاجتهم إلى الثقافة الفارسية من قبل ، ولكن الدافع لم يكن واحداً في الاتصال بهاتين الثقافتين والافتقار منهما ، ذلك أن المسلمين بعد امتداد حركة الفتوح صادفوا مللاً وديانات مختلفة كانت تقف عقبة في سبيل انتشار الإسلام وتقدمه في البلاد المفتوحة . وكان أصحاب هذه الديانات من السريان والنصارى والفرس الزرادشتيين والخرانيين الصابئة وغيرهم قد هضموا التراث اليوناني وتمثلوه أحسن تمثيل ، كما مرنوا على أساليب الجدل والمحاكاة لإحاطتهم بوسائل المنطق اليوناني . عندئذ أحس المسلمون بحاجتهم إلى وسائل هذا المنطق وإلى التدريب على أساليب الجدل للدفاع عن الإسلام ضد خصومه وإقناع المنكرين له من أصحاب الديانات الأخرى . ولهذا لم يتركلمون المسلمون مندوحة لهم عن التلمذة في مدرسة المنطق الهليني — كما يقول هانز شيدر — وبهذا وضع الأساس لبناء علم كلام إسلامي يعمل بأدوات هلينية^(١) . ونشطت عندئذ ترجمة كتب أرسطو والمنطق اليوناني لمواجهة هذه الحاجة العملية التي استشعرها علماء الكلام المسلمون . أما الأدب اليوناني بجوانبه المختلفة فلم يصادف من العرب عناية تذكر ، ويعمل « كارل بكر » ذلك بقوله : « إن العوامل التاريخية والجغرافية والجنسية في الشرق هي التي جعلته لا يعنيه من كتب اليونانيين إلا ما كان معترفاً به من الجميع ، وما

(١) روح الحضارة العربية : ١١١ .

كان في الآن نفسه يلاثم عقليته ، ونعني به أولا وقبل كل شيء التزعة العقلية المنطقية . فكل شيء كان نصيب الروح اليونانية في صدره أكثر من نصيب العقل اليوناني مثل الشعر الغنائي اليوناني والأدب الروائي كله ، وكل ما كان يونانيا بحثا كآلهة هوميروس وكبار المؤرخين اليونانيين ، كل هذه الأشياء ظلت أبوابها موصدة أمام الشرق^(١) .

ولو أننا قارنا هذه الملاحظة بما سبق أن ذكرناه من إقبال العرب على ترجمة حشد كبير من مؤلفات الفرس في التاريخ والسير ، أدركنا الفرق بين تأثير الثقافة الفارسية وتأثير الثقافة اليونانية ، فالأول كان عاما شاملا وكان ملائما لتفكير العرب ومنحى عقليتهم بصورة عامة ، والآخر كان خاصا بهذه الناحية المنطقية البحتة التي احتيج إليها في نشأة علم الكلام عند المسلمين . أما مارواه القفطي من أن حنين بن إسحق كان يمشي في شوارع بغداد وينشد شعرا باليونانية لهوميروس^(٢) ، فلا يعدو أن يكون نزعة فردية لا يقاس عليها ولا تترتب عليها نتيجة ما .

وكان من نتيجة دخول المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية محيط الثقافة العربية عن طريق متكلمي النصارى وغيرهم ظهور فرق إسلامية متأثرة في منهجها وفي برامجها بهذا المنطق وبهذه الفلسفة . يقول الجاحظ في رسالته في الرد على النصارى : « فلولا متكلمو النصارى وأطبائهم ومنجموهم ما صار إلى أغنيائنا وظرافنا ومجاننا وأخذاننا شيء من كتب البنانية والديصانية والمرقونية والعليائية ، ولما عرفوا غير كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ومخلاة في أيدي ورثتها^(٣) . » وهذا النص في الواقع بطلعنا على التأثير العميق الذي كان للثقافة اليونانية في الفكر العربي . وما يقوله الجاحظ يؤكد أن التراث اليوناني الذي نقل للعرب وصل إليهم في ثوب هلينى متأخر — كما وصفه كارل بكر — أى في صورة المسيحية الشرقية اليهودية اللاحقة على التوراة ، ثم في صورة المانوية

(١) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية : ٢٧ .

(٢) أخبار الحكماء : ١٢٠ .

(٣) ثلاث رسائل : ٢٠ .

والزرادشتية المشبعة بالروح اليونانية^(١) . وواضح أيضاً من نص الجاحظ مدى افتتان الناس على اختلاف طبقاتهم بهذه المذاهب والآراء وخوضهم فيها . ومما يؤكد ذلك ما رواه المسعودي من أن يحيى بن خالد البرمكي « كان ذا بحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل^(٢) » وكان الحديث في هذه المجالس يدور حول كل شيء له أساس منطقي أو طبيعة فلسفية ، حتى العشق كانوا يتحدثون عن فلسفته .

ويرى ثون كريمر أن تطور الطوائف الدينية — منذ أواخر القرن الأول — والمبادئ المذهبية التي صدرت عنها قد حدثت تحت تأثير الآراء المسيحية بوجه خاص . فالمسيحية كانت أول نظام اتصل بالإسلام اتصالاً وثيقاً في دمشق أيام الحكم الأموي ، ولا بد أن العلاقات بين رجال الدين المسلمين والمسيحيين كانت متشعبة ، والمناقشات الدينية كانت مستمرة ، فمن المحتمل أن تكون قد نشأت عن تلك المناقشات الدينية الطوائف الإسلامية الأولى وهي المرجئة والقدرية . ويدلل الباحث على صحة رأيه فيقول إن البحث في كنه الله وصفاته هو أول شيء كان له المقام الأول في كتابات كل من آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين المسلمين . كما أن هؤلاء العلماء كانوا يشغلون أنفسهم إلى حد كبير بالأبحاث التي تدور حول القضاء والقدر والإرادة ، ومشلهم في ذلك مثل آباء الكنيسة الشرقية . وقد صرح آباء الكنيسة الإغريقية بأنهم ضد القول بالخلود في النار مخالفين في ذلك الكنيسة الغربية . واتخذت هذا الرأي نفسه أقدم طائفة دينية في الإسلام وهي طائفة المرجئة . أما طائفة القدرية فيرجع ثون كريمر أيضاً إلى أصلها يرجع إلى الأثر المسيحي ، إذ قال بفكرة حرية الإرادة بعد فتح العرب لسورية بقليل كاتبان من كتاب الكنيسة ، كان كل منهما يعيش في دمشق ، وكانا على اتصال مستمر بالعرب ، وهما يوحنا الدمشقي وتلميذه تيودور أبو قرة^(٣) . وقد أكد « ألفرد جيوم » هذه الصلة التي لاحظها ثون كريمر بين المرجئة

(١) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية : ٦ .

(٢) مروج الذهب : ٢٢٤ .

(٣) الحضارة الإسلامية : ٦٥ وما بعدها .

وتعاليم المسيحية الشرقية فهو يقول : « منذ القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) كان القديس يوحنا الدمشقي يتجادل مع العرب حول معنى اصطلاح لفظي « كلمة » و « الروح » اللذين وصف بهما المسيح في القرآن . هل هما مخلوقان أم غير مخلوقين ؟ وما هو أصل الشر ؟ هل مصدره الله أم الإنسان ؟ وإذا كتب الله على القاتل أن يقتل فمن الواجب إذن أن يثاب القاتل على تنفيذه لأوامر الله (١) » .

ولما كان فون كريم يرى أن مذهب المعتزلة كان امتدادا لمذهب القدرية الذي نشأ في القرن الأول بحكم أن نقطة ابتدائهم كانت مذهب الاختيار وحرية الإرادة ، فهو يقرر أيضا وجود أثر مسيحي في حركة الاعتزال (٢) ولكن نلينو يرفض فكرة الربط بين المعتزلة والقدرية أساسا ، (٣) وإن كانت القدرية - في رأيه - قد هيأت الأذهان لنشوء حركة الاعتزال في البصرة إذ كانت منتشرة فيها بصورة واسعة حتى إن الخطيب البغدادي يقول : « لو فتشت أهل البصرة وجدت ثلثهم قدرية (٤) . ولعله يقصد بالقدرية هنا المعتزلة بحكم هذا الارتباط الذي نشير إليه . والحقيقة إن حركة الاعتزال - سواء أكانت امتدادا للمرجئة أم القدرية - نشأت بتأثير الفلسفة اليونانية ، وكان لها أثر عميق في الحياة الأدبية في القرن الثاني حتى إننا نجد بعض الشعراء يشاركون فيها - كبشار بن برد مثلا - ويتأثرون بها في شعرهم تأثرا قويا . وقد أجمل أحمد أمين أثر المعتزلة في الأدب بصورة عامة في قوله : « لقد أغنى المعتزلة الأدب من حيث المعاني وقوة العقل وسعة الذهن وتوليد الأفكار العقلية والنظر إلى الكون وإلى الطبيعة وإجراء التجارب عليها ودلائها على خالقها ، وغاصوا على المعاني غوصا ونقلوا الأدب من لفظ رشيق إلى معنى عميق ، ومن عبارات مجملة منمقة إلى موضوعات واسعة مسهبة . وبعد أن كان الأدب خلوا من الموضوع جعلوا له موضوعا .. ووجهوا الذهن وجهات لم تكن قبلهم (٥) » .

(١) الإسلام : ١٢٤

(٢) الحضارة الإسلامية : ٧٢ .

(٣) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية : ١٩٢ .

(٤) تاريخ بغداد ١١ : ٢٠٠ .

(٥) ضحى الإسلام ٣ : ٣١٤ .

ويمكننا أن نقول إن أكثر المذاهب الدينية والفلسفية التي كانت شائعة في القرن الثاني كان لها تأثير بصورة أو بأخرى في اتجاهات الشعر ، لأن هذه المذاهب كانت خطوطا بارزة في حياة الثقافة الإسلامية . فكان للروافض والخوارج والسبئية والمرجئة والشيعة وغيرها آثار قوية في الفكر العربي ظهرت لها انطباعات في شعر هذا العصر ، بل إن انتشار الثقافة اليونانية في حد ذاتها كان له تأثير عميق يبدو في ظهور النزعة المسماة « بنزعة التنوير » ويصفها عبد الرحمن بدوي بأنها « تقوم على أساس تمجيد العقل وعبادته ، وعلى فكرة التقدم المستمر للإنسانية ، وتتصل بالنزعة الإنسانية التي ترمي إلى الارتفاع بالقيم الإنسانية الخالصة في مقابل القيم الإلهية والنبوية ، ونجد هذه النزعة واضحة تماما لدى الشعراء خصوصاً تلك الجماعة المعروفة بعصاة المجان على حد تعبير ما جنها الأكبر أبي نواس . وأخيراً انصف تنوير هذه الجماعة بأنه يطلب الحرية بكل ثمن دون أن يعبا بما سيناله من جرائها »^(١). وسنكشف عن جميع انطباعات هذه المذاهب عند التحدث عن اتجاهات الشعر الموضوعية في الباب التالي .

وفيما عدا تأثير الثقافة الفارسية والثقافة اليونانية والثقافات الدينية المسيحية وغيرها التي نقلت عن طريق السريان والخرانيين ، نجد أن الثقافة الهندية كان لها أيضا تأثير في الحياة العقلية في القرن الثاني إذ شملت حركة الترجمة في القرنين الأول والثاني كتباً هندية في الأدب وفي الرياضيات والإلهيات . وللجاحظ نص يؤكد ذلك ، يقول فيه : « وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية وحولت آداب الفرس »^(٢). ويبين الجاحظ بعد عبارته تلك ضرورة إتقان المترجم للغتين المنقول منها والمنقول إليها ومعرفته الوثيقة بموضوع الترجمة ، مما يدل على وجود طبقة في هذا العصر تثقفت بالثقافة الهندية يقول الجاحظ : « ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة . وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يكون فيهما سواء وغاية »^(٣).

(١) مقدمة كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام .

(٢) الحيوان ١ : ٧٥ .

(٣) المصدر نفسه ١ : ٧٦ .

ويوقفنا الجاحظ بعد ذلك على موضوعات الكتب المنقولة إلى العربية سواء أكانت فارسية أم هندية أم يونانية فيقول : « وحسبك ما في أيدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة وأبواب الأصباغ والعطر والأطعمة والآلات »^(١). وماعده الجاحظ من هذه الموضوعات إنما يمثل في الحقيقة ضروب المعرفة وأركان الثقافة التي كانت تسود القرن الثاني . إنها تبين أن العرب قد أقبلوا على ترجمة كل أنواع العلوم والفنون ليبينوا بها حياتهم الفكرية خاصة أن دور الترجمة في كل أمة ناهضة هو الأساس لما يأتي بعد ذلك من طور الابتكار والإبداع .

والواقع أن الثقافة الهندية كانت من بين الثقافات التي تسربت إلى الفكر العربي عن طريق البصرة إذ كان أهم مركز مأهول فيها منذ القديم هو الأبله التي كانت الميناء العراقي الرئيسي للتجارة مع الهند حتى لقد عرفت هذه المنطقة عند العرب باسم أرض الهند أو ثغر الهند . ثم كان فتح العرب للسند بعد ذلك عام ٩١ هـ منفذاً جديداً لتسرب الثقافة الهندية إلى الفكر العربي إذ أصبح الجيل السندي عنصراً من العناصر التي يتكون منها المجتمع الإسلامي . وبدأ الموالى والرقيق من السند الذين انتشروا في أنحاء المملكة الإسلامية ينقلون ثقافة وطنهم الأصلي بالصورة التي عرفناها من قبل ، فانضاف ذلك كله إلى ما قامت به الترجمة من تعريف العرب بالثقافة الهندية وتأثيرهم بها بل إقبالهم عليها ، إذ كانت تتضمن فيما تضمنته من علوم وفنون قصصاً أسطورية كقصص السندباد وغيرها ، وهي التي كانت أساساً - فيما يقال - لألف ليلة وليلة وما يماثلها من قصص انتشر في آفاق العالم الإسلامي وعرف به .

ونحن لا نستغرب نشأة الشعر التعليمي في القرن الثاني إذا علمنا أن الهنود قد ولعوا بهذا النوع من النظم حتى إنهم نظموا قواعد الرياضة والفلك . وربما تأثر شعراء القرن الثاني بطريقة هذا النوع من النظم فأقبلوا بصوغون العلوم المترجمة وغيرها في شعر عربي ظهر لأول مرة في هذا القرن .

(١) الحيوان ١ : ٨١ .

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة : ٧١ .

أما في ناحية المذاهب والمعتقدات التي كانت تسود القرن الثاني فنجد أن التأثير الهندي كان واضحاً في بعضها كل الوضوح . ففكرة التناسخ التي ظهرت في معتقدات بعض الفرق إنما هي فكرة هندية ، حتى إن البيروني يطلق عليها اسم (علم النحلة الهندية^(١)). ويقول البغدادى إن القائلين بالتناسخ كانوا موجودين قبل ظهور الدولة الإسلامية ، وهم يتمثلون في صنفين : صنف من الفلاسفة ، وصنف من السمنية . وأصحاب التناسخ من السمنية قالوا بقدوم العالم وإبطال النظر والاستدلال ، وزعموا أنه لا معلوم إلا من جهة الحواس الخمس ، وأنكر أكثرهم المعاد والبعث بعد الموت . وقال فريق منهم بتناسخ الأرواح في الصور المختلفة . وقد أثر هذا المذهب الخطير في الفرق الإسلامية التي نشأت بعد ذلك وأهمها فرق الروافض الحلولية وهي : البنائية والجناحية والخطابية والراوندية ، كما أثرت أيضاً في فرق القدرية .^(٢) ويمكننا أن نرد كثيراً من الشعر المذهبي في القرن الثاني - ذلك الذي ينكر أصحابه البعث والمعاد - إلى تأثير مثل هذه العقائد الهندية .

ومما تقدم يتبين لنا أن القرن الثاني شهد حركة عقلية ضخمة أمدتها روافد كثيرة ، أولها الثقافة العربية الأصيلة التي تتمثل في الشعر والقرآن والحديث وفقههما وعلوم اللغة العربية . وقد أحرزت هذه الفروع جميعها تقدماً كبيراً في هذا القرن ، بل إن بعضها خلق فيه نخاتماً جديداً كالنحو والعروض مثلاً . كما جمع التراث الشعري القديم لأول مرة ودون في ذلك العصر ، فكان هذا العمل دلالة على بدء استقرار الحياة الأدبية وتطورها بفعل العوامل المختلفة . وهذه الثقافة العربية قد أخذت تهضم منذ انتهاء حركة الفتوح ثقافات الأمم الأجنبية التي استولى العرب على بلادها . وأهم هذه الثقافات الفارسية واليونانية ثم الهندية - كما بينت من قبل . والحقيقة إن الحضارة الإسلامية تبدو - كما وصفها فون جرونباوم - « كأنما تلتهم كل ما تصادفه ، ولكنها مع ذلك كانت تتخير غذاءها تخيراً دقيقاً .

(١) تحقيق ما للهند من مقولة : ٢٤ .

(٢) الفرق بين الفرق : ١٦٢ ، ١٦٣ .

ومن ثم فقد رحبت بفنون الجدل الإغريقية، ومنهج التأويل الرمزي، وسيكلوجية الزهد المسيحي، كوسائل توسع بها دعائمها الأساسية^(١) .

والحق أن الثقافة العربية بعد أن هضمت هذه الثقافات الأجنبية المختلفة لم تصبح ثقافة محدودة بمكان أو زمان أو جنس، ولكنها صارت ثقافة عالمية بكل ما في هذا التعبير من معان. إنها لم تصبح ملكا للعرب وحدهم ولا للفرس ولا لليونان أو الهنود أو السريان ولكنها أصبحت ملكا لشعوب العالم في ذلك الوقت، وظل هذا شأنها أمدا طويلا. ومما يدلنا على أن هذا المزيج الثقافي أنتج عقلية عربية جديدة، ذلك الموقف الجليد الذي وقفه العرب من الفنون التشكيلية من نحت وتصوير. فنحن نعلم أن المسلمين قد وقفوا من هذه الفنون موقفا سلبيا، ربما كان بتأثير دافع ديني إذ كانوا يرون في التماثيل نوعا من الوثنية. وربما كانت سلبيتهم راجعة إلى طبيعة العقلية العربية نفسها كما يرى كارل بكر إذ يقول: «إن في تصوير الجسم المستقل والشخصية المستقلة المفردة تعبيرا عن الذاتية، وهذا مما لا يتفق وروح هذه الحضارة»^(٢). وسواء أكان السبب دينيا أم نتيجة التكوين العقلي فإننا نؤكد أن موقف العرب من الفنون التشكيلية قد تغير بعد نقلهم الحضارية الجديدة. ودليلنا على ذلك امتلاء قصور الأمويين - كقصر خربة المفجر - برسوم إنسانية وحيوانية^(٣). كما نخبرنا الخطيب البغدادي أن قصر الخلد الذي بناه المنصور في بغداد كانت فوقه قبة خضراء وعليها تمثال فارس يمتطي صهوة جواده ويبيده رمح^(٤). ونجد في الأخبار المنتشرة بعد ذلك أن قصور الخلفاء والأمراء والسراة امتلأت بالرسوم والتماثيل المختلفة. وحتى الحراقات التي صنعها الأمين كانت على هيئة حيوانات وطيور. ويرى بعض الدارسين المحدثين أن الفنانين الذين كانوا يقومون بمثل هذه الرسوم والتماثيل إنما كانوا من الأجانب وبخاصة من الروم، ولكنني أعتقد غير ذلك.

(١) حضارة الإسلام : ٤٠٧ .

(٢) من تاريخ الإلحاد في الإسلام : ١٥ .

(٣) انظر : تاريخ سورية ٢ : ١٢٢ .

(٤) تاريخ بغداد ١ : ٧٣ .

فالعرب الذين تمثلوا الثقافات الأجنبية وأخرجوا منها شيئاً جديداً لا يصعب عليهم دخول ميدان الفنون التشكيلية والتبريز فيه وخاصة أنهم نجحوا في ميدان الموسيقى والغناء وظهر منهم أعلام في هذين الفنون . وحتى على فرض صحة هذا الادعاء فإن إقبال الخلفاء وغيرهم على مثل هذه الفنون يدل على وجود تغير فعلي في موقف العرب القديم منها . ليس هذا فحسب بل كان الخلفاء — فيما يبدو — يشجعون وجود فنانيين من مختلف شعوب الأرض ليزاولوا عملهم في أنحاء المملكة الإسلامية . ونجربنا ما سينيون — نقلاً عن مصادر صينية — أن الرسامين الصينيين « فان شن » و « ليو — ته » كانا يقطنان بين سنتي ٧٥١ م ، ٧٦٢ م (أى في القرن الثاني الهجري) في « يا — كيو — لو » أى عاقولا ، وهو الاسم السرياني للكوفة^(١) .

ولا ينبغي أن نترك هذا الفصل قبل أن نحدد موقف شعراء القرن الثاني من هذه الثقافات المختلفة التي كان يزخر بها عصرهم . هل كانوا بمعزل عنها أم أنهم اتصلوا بها ووعوها فظهرت آثارها في شعرهم ؟ لقد حاول بعض الباحثين أن ينسبوا إلى أبي العتاهية الجهل والبعد عن ثقافات عصره ، وأنه كان مشدوداً إلى جراره التي كان يعمل في صناعتها أو يبيعها . ولكننا لا نصدق من هذا شيئاً . وليس ضرورياً أن يكون أبو العتاهية قد ذهب إلى المكتب في صباه أو أن يكون قد تلقى العلم على اسم من الأسماء اللامعة في عصره في الفقه أو في الحديث أو في الأدب حتى نحكم له بالثقافة والتعلم . ليس هذا ضرورياً قط لأن الثقافة في هذا العصر كانت توجد في كل مكان : في البيت وفي الطريق وفي المسجد وفي مجالس الأصحاب من الشعراء أو غيرهم . بل كانت توجد أيضاً عند الوراقين وأصحاب الكتب . ولا نذهب بعيداً إذا قلنا إنها كانت توجد كذلك في الحانات ودور اللهو وبيوت الريبة . كانت الثقافة في هذا العصر شيئاً طاغياً جارفاً تنفعل به النفوس ، وتدور حوله أحاديث المجالس ، كمجلس يحيى بن خالد البرمكي الذي أشرت إليه من قبل — وتنعقد له حلقات الدرس في المساجد وفي دور العلماء . نحن نؤمن إذن بثقافة شعراء هذا العصر على تفاوت حظهم منها وتنوعها عند كل

منهم ، وإلا كيف تفسر قول الحصري القيرواني : « كان محمود الوراق كثيراً ما ينقل أخبار الماضين وحكم المتقدمين فيحلى بها نظامه ويزين كلامه »^(١) أو قوله : « كان بشار بن برد خطيباً شاعراً راجزاً صاحب منشور ومزدوج »^(٢) أو كيف تفسر زهد أبي العنابية وما نجده في شعره من نظرات فلسفية ، وما نحسه من عمق في أفكاره ، وما نشتم من آثار أجنبية في بعض آرائه ، وكيف تفسر قول أبي نواس :

أَلَمْ تَرَ الشَّمْسَ حَلَّتِ الحَمَلَا وَقَامَ وَزَنُ الزَّمَانِ فَاغْتَدَلَا
وَعَنَّتِ الطَّيْرُ بَعْدَ عُجْمَتِهَا وَاسْتَوَفَّتِ الخَمْرُ حَوْلَهَا كَمَلَا

إلا أن نؤمن بما قاله ابن قتيبة في ذلك « وكان أبو نواس متفتناً في العلم قد ضرب في كل نوع منه بنصيب ، ونظر مع ذلك في علم النجوم »^(٣) بل يثبت ابن قتيبة معرفة أبي نواس بعلم الطبائع لقوله :

سَخُنْتُ مِنْ شِدَّةِ البُرُودَةِ حَتَّى صِرْتُ عِنْدِي كَأَنَّكَ النَّارُ
لَا يَعْجِبُ السَّامِعُونَ مِنْ صِفَتِي كَذَلِكَ الثَّلْجُ بَارِدٌ حَارُ

ويفسر ابن قتيبة ذلك المعنى بقوله : « لأن الهند تزعم أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً »^(٤) وإذا كان أبو نواس على معرفة بعلم النجوم وعلم الطبائع وإذا كان متأثراً بالثقافة الهندية التي أمدت الثقافة العربية بهذين العلمين فإنه كان على علم واسع بالفلك والثقافة الفارسية لغة وأدباً وتاريخاً وعوائد ، كما

(١) زهر الآداب ١ : ١٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ١ : ١٥٠ .

(٣) الشعر والشعراء : ٧٧٣ ويفسر ابن قتيبة هذا المعنى بقوله (الضمير في حولها كناية عن الشمس لا الحمر ، ومعنى استيفائها حول الشمس أن الله تبارك وتعالى خلق الفلك والنجوم والشمس برأس الحمل . والنهار والليل سواء ، والزمان معتدل في الحر والبرد ، فكلما حلت الشمس برأس الحمل فقد مضت سنة للعالم فقد استوفت الحمر حول الشمس كلا ، وإن هي لم يأت لها حول في نفسها . وإنما أراد أن الشرب يطيب في هذا الوقت لاعتدال الزمان وتفتح الأنوار وتفجر المياه وغناء الطير في أفنان الشجر) .

(٤) الشعر والشعراء : ٧٧٧ .

يتبين لنا من قصيدته في غلام اسمه بهروز - لو صحت رواية الأصفهاني لها - ، يقول فيها^(١) :

حماني وصلُ أبناءُ القُسُوسِ	نَجِيبُ الفُرْسِ بِهَرُوزِ المَجُوسِ
نَقِيٌّ في الولادةِ عن مشوشٍ	يُرَخِّصُهُ النَّصَارَى لِلْقُسُوسِ
وَعَنْ دَنَسِ الْيَهُودِ لَدَى اخْتِتانٍ	بِمَصِّ الْقَيْحِ يُسْكَبُ فِي الْقُدُوسِ
وإن قيل الحَنِيفُ حِمَى وَعِزٌّ	يَقُلُّ دِينِي تَجَنَّبَهُ كُسُوسِي
شَرِيفُ النَّجَرِ مِنْ رَهْطِ الْكَايُوسِ	تَنَاءَى فِي الْمَنَاسِبِ عَنْ لَعُوسِ

.....

وقد قام بشرح هذه القصيدة أستاذ إيراني نظراً لما تضمنته من ألفاظ فارسية غريبة ومعتقدات وتواريخ تدل على رسوخ معرفة أبي نواس بهذه الأشياء . كما أنها تدل على ثقافة واسعة في مختلف فروع المعرفة التي كانت شائعة في عصره^(٢) . فإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكره لنا الرواة من معرفة أبي نواس الوثيقة

(١) هذه القصيدة موجودة في مخطوطة ديوان أبي نواس رواية الأصفهاني .

(٢) القسوس جمع قس وهو تعريب كشه ، والمشوش سريانية معربة عن مشوش ومعناها الاجتماع . ويزعمون أن للنصارى ليلة يجتمع فيها العزاب من القسان والرهبان لافتضاخ الأبقار ، وأهل العراق يسمونها ليلة الماشوش . المجوس اسم معرب من السريانية وذلك أنهم كانوا يسمون الفرس مكوشي ومعناها في اشتقاق لغتهم المتجسسون . والختان عند اليهود فوق الصلاة والصوم عند غيرهم ، فإذا كان سابع المولود احتفلوا وأحضروا ذلك ملائمتهم ، فإذا فرغ الخاتن من الختان قرب إليه قدس من خمر وهو إزاء بين القدح والسطل فيكرع الخاتن فيها حتى يملأ فمها ثم يرشها على متاع الصبي ويكب عليه فيأخذه في فم ويمتص تلك الخمر منه مع القيح الممزج بها ويجمعها في القدس فيدار على القوم . وأما كايوس فلك من ملوك الفرس كان في الدهر الأول ، وعربت العرب هذا الاسم فقالوا قابوس وقلبوا فيه الياء باء .

بغريب اللغة العربية ودقائقها – وهي تظهر في طردياته خاصة – وبتفقه في علوم القرآن والحديث ، وحفظه لآلاف الأشعار القديمة ، استطعنا أن ندرك مدى الثقافة التي كانت عند أبي نواس ، وهو لم يكن بدعاً فيها ، وإنما كان يشترك معه فيها كثرة غالبية من شعراء هذا القرن على تفاوت بينهم بطبيعة الحال . ولعل أثر هذه الثقافة يبدو لنا عند الحديث عن الاتجاهات الموضوعية للشعر في الباب الثاني من هذا البحث .

والآن وقد استوفينا الحديث عن الحياة الثقافية في القرن الثاني ، ننتقل إلى ناحية أخرى من عناصر التأثير في شعر ذلك القرن ، ألا وهي الناحية الاقتصادية .

الفصل الرابع

التأثير الاقتصادي

الحالة الاقتصادية في أية دولة تؤثر تأثيراً عميقاً في كيانها وفي نواحي الحياة فيها ، فلها تأثير إذن في اتجاهات الشعر لأنه مظهر من مظاهر هذه الحياة . إن الاقتصاد يحدد وجهات الناس في الحياة ويهيئ لهم سبل التفاؤل أو التشاؤم ، ويشيع فيهم السعادة أو الشقاء . إنه يدعوهم إلى الإيمان أو يؤدي بهم إلى الجحود والنكران ، فإذا قال قائل : إن المال ميزان الشعوب لم يخطئ ولم يتزبد . فالأهم في كل أدوار التاريخ تقاس بما وصلت إليه حالتها الاقتصادية ، وما بلغه متوسط دخل الأفراد فيها . فلا غرابة إذن في اهتمامنا بهذه الناحية وبحث قواها المؤثرة في اتجاهات الشعر في القرن الثاني .

لقد بدأت الحياة الاقتصادية في الإسلام ساذجة بسيطة أشد ما تكون بساطة وسذاجة بالنسبة لما طرأ على هذه الحياة من تعقد بعد ذلك . كان الرسول صلوات الله عليه يقوم بتوزيع الغني الذي يفينه الله على المسلمين ، كما كان يصرف مال الزكاة في الوجوه التي أمر بها الله . فلما كان عصر الفتوح وضع العرب أيديهم على كنوز طائلة وأراض خصيبة شاسعة ، ودخل تحت سلطانهم عدد ضخم من البشر يؤدون للدولة الجزية فيتألف منها مورد غزير للمال ينضاف إلى فيء الفتوح ومغانمها فإذا هو شيء كثير لم تألفه الدولة من قبل ، ولم يره المسلمون في جاهليتهم ولا في حياة الرسول الكريم . لقد تحير عمر بن الخطاب حين جاءه مال البحرين - وكان قدراً كبيراً - فلم يدر ماذا يفعل به . وحينئذ أشار عليه الهرمزان - الفارسي الأصل - بتدوين الديوان كما تقول بعض الروايات^(١) . وقيل إن عمر حين جئ إليه خراج العراق بالشام جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إني قد رأيت أن أفرض العطاء لأهله ، فقالوا : نعم رأيت الرأي يا أمير المؤمنين ، قال :

(١) كتاب الوزراء والكتاب : ١٧ .

فبمن أبدأ : قالوا : بنفسك . قال : لا ، ولكن أضع نفسي حيث وضعها الله وأبدأ بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففعل فكتب عائشة أم المؤمنين رحمها الله في اثني عشر ألفاً ، وكتب سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف وفرض لعلي بن أبي طالب في خمسة آلاف ، وفرض مثل ذلك لمن شهد بدرًا من بني هاشم^(١) .

وفرض العطاء على هذه الصورة قد أثر تأثيراً خطيراً في الحياة الاقتصادية للجماعة الإسلامية إذ خلق شيئاً فشيئاً طبقة أرستقراطية غنية ، يأتيها رزقها رغداً دون أن تهض بعمل ما في مقابل ما يدخل إليها من أموال . ذلك أن أساس فرض العطاء كان يرتكز على ناحيتين : القرابة من رسول الله ، والسابقة في الإسلام . وهذه القرابة ولتلك السابقة درجات ودرجات . وبهذا لم يرع عمر في فرض العطاء ذلك المقابل الذي لا بد أن تأخذه الدولة في صورة عمل وجهاد . ثم حدث أيام عثمان ذلك التطور الاقتصادي الخطير — الذي سبق أن أشرفنا إليه — ونعني به اقتراحه أن ينقل إلى الناس فيهم حيث أقاموا من بلاد العرب ، فلا يقيم في الأمصار إلا من كان له في الإقامة فيها أرب . وقد ترتب على هذا الاقتراح وعلى إسراف الدولة في إقطاع أراضيها ، ظهور الملكيات الضخمة في العراق وغيره من الأقاليم ، ونشوء طبقة جديدة من الناس أسماها طه حسين « البلوتقراطية » وهي تمتاز بكثرة المال وضخامة الثراء وكثرة الأتباع بالإضافة إلى أرستقراطيتها التي تأتيها من المولد . وظهور هذه الطبقة أوجد عدم توازن في الحياة الاجتماعية والاقتصادية على السواء إذ جعل الهوة واسعة بين طبقتين من الناس : الأولى هذه الطبقة الفاحشة الثراء التي لا عمل لها إلا التبطل واللهو ، والأخرى الطبقة الكادحة التي تزرع الأرض وتعمل في الصناعة ، وتشقى في سبيل أولئك السادة ومن أجل الحصول على فئات موائلهم . وترتب على فقدان التوازن في الحياة الاقتصادية انعدام الاستقرار في الحياة السياسية والاجتماعية على السواء ، وكان ظهور الدولة الأموية

(١) فتوح البلدان : ٥٤٨ و يروى أبو عبيد القاسم بن سلام أن عمر فرض لأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم اللاتي نكح نكاحاً في اثني عشر ألف درهم اثني عشر ألف درهم ، وفرض لحويرية وحمفيه ستة آلاف ستة آلاف ، وفرض للمهاجرين الذين شهدوا بدرًا خمسة آلاف خمسة آلاف وللأنصار الذين شهدوا بدرًا أربعة آلاف أربعة آلاف (الأموال : ٢٢٤) .

تأكيداً لفقدان هذا التوازن الاقتصادي وانعدام الاستقرار في الحياة السياسية والاجتماعية ، لأن الأمويين استخدموا فكرة العطاء استخداماً سيئاً فأخضعوه للتيارات السياسية في عصرهم وجعلوه سلاحاً ضد أعدائهم ونعيماً مباحاً لأنصارهم . ولم يتورعوا أن يحرموا منه بعض مستحقه أو ينقصوه منهم — كما أنهم كانوا يضاعفونه لمن يشاءون حتى يكفوا غريبهم أو يضمّنوا سكوتهم : مثلما فعلوا مع عبد الله بن جعفر وأهل الحجاز بصفة عامة^(١) .

ونتج عن ذلك كله زيادة الهوة الاقتصادية بين الطبقتين اللتين تحدثنا عنهما ، ذلك أن العطاء زاد في أيدي الطبقة التي كان مفروضاً لها هذا العطاء فازدادت غنى وجاهاً ، وازدادت أراضى وأتباعاً . أما الطبقة الأخرى فظلت محرومة من العطاء بل إنها قد تعرضت لضغط اقتصادي مستمر طوال حكم بني أمية . ذلك أن إنفاق الأمويين المستمر بقصد تثبيت سياستهم عرض دولتهم لهزات اقتصادية مستمرة فكانوا يلجئون إلى زيادة فرض الضرائب بأنواعها المختلفة . ولا يجدون غير هذه الفئة الفقيرة المستضعفة ليرهقوها بزيادة هذه الضرائب . والحقيقة إن ما فرضه عمر بن الخطاب من ضرائب على أهل البلاد المفتوحة كان معتدلاً غاية الاعتدال ، وكان — فيما يقول المؤرخون — أقل مما كان مفروضاً عليهم من قبل حكوماتهم الأصلية قبل الفتح الإسلامي ، ولكن الأمويين زادوا مبالغ الجزية والحراج زيادة كبيرة ، فمثلاً كانت الجزية المفروضة على أهل الجزيرة عبارة عن دينار ومدين من القمح وقسطين من الزيت وقسطين من الخل في العام عن كل رجل ، فلم يرض عبد الملك ابن مروان بذلك ، وبعث إلى عامله فأحصى الرؤوس واعتبر الناس كلهم عمالاً بأيديهم ، وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته ، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها فوجد أن الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل فرد أربعة دنانير فالزمهم ذلك جميعاً وجعلهم طبقة واحدة^(٢) .

ولم يكتف الأمويون بذلك بل فرضوا ضرائب إضافية كالرسوم على الصناعات والحرف — ونحن نعلم من كتب الأقدمين أنها كانت جميعها في أيدي الموالى

(١) انظر : الإدارة الإسلامية في عز العرب : ٨٢ .

(٢) الحراج لأبي يوسف : ٣٩٢ ، ٣٩٤ .

والأعاجم - كما فرضوا رسماً على من يتزوج أو يكتب عرضاً^(١). وفي الوقت نفسه أيضاً أرجعوا الضرائب الساسانية التي تسمى (هدايا النوروز والمهرجان) فالجهشياري يذكر أن معاوية « طالب أهل السواد أن يهدوا له في النوروز والمهرجان . ففعلوا ذلك فبلغ عشرة آلاف درهم^(٢) » ولو نظرنا في أساس طريقة تحصيل الضرائب في العهد الإسلامي وجدنا أنها كانت قسمين : ضرائب الجزية وضرائب الخراج . أما الجزية فهي كما يقول أبو يوسف « واجبة على جميع أهل الذمة ممن في السواد وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة ، ما خلا نصارى بني تغلب وأهل نجران خاصة . وإنما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء والصبيان ، على الموسر ثمانية وأربعون درهماً ، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الحراث العامل بيده اثنا عشر درهماً يؤخذ ذلك منهم في كل سنة . وإن جاءوا بعرض قبل منهم مثل الدواب والمتاع وغير ذلك . ولا يؤخذ منهم في الجزية ميتة ولا خنزير ولا خمر . ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذي يتصدق عليه ، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ، ولا من ذمي يتصدق عليه ، ولا من مقعد ، ولا تؤخذ الجزية من الشيخ الكبير الذي لا يستطيع العمل ولا شيء له ، وكذلك المغلوب على عقله^(٣) » .

وأساس تحصيل الجزية كما يذكره أبو يوسف في هذا النص ، إنما وضع في أيام عمر بن الخطاب . وهذه الفئات التي استثنائها هي نفسها - فيما يبدو - التي أقرها عمر أيضاً . أما قيمة الجزية فلا ندرى أكانت مساوية لهذه المبالغ قبل عهد الأمويين ولهذا أعادها العباسيون إلى ما كانت عليه من قبل ليرفعوا عن كاهل أهل الذمة تلك الزيادة التي أرهقهم بها الأمويون ؟ أعتقد ذلك . ونظرة واحدة إلى ما فرضه العباسيون من جزية على الحراث العامل بيده وهي « اثنا عشر درهماً » وما فرضه عليه الأمويون « أربعة دنانير » تظهرنا على الفرق الكبير بين السياسة الاقتصادية التي اتبعها هؤلاء وأولئك .

(١) تاريخ الطبري ٨ : ١٢٩ .

(٢) الوزراء والكتاب : ٢٤ .

(٣) الخراج لأبي يوسف : ١٢٢ .

ليس هذا فحسب ، بل إن الأساس الذى وضعه المسلمون الأولون وهو إسقاط الجزية والحراج عن أسلم تمشياً مع سياسة الفتوح الإسلامية التى كان أساسها نشر الدعوة الإسلامية لا التوسع الاقتصادى وجمع الغنائم والأسلاب كما يدعى المستشرقون . حتى هذا الأساس لم يأخذ به الأمويون إذ أدركوا أن دولتهم ستعرض لأزمة اقتصادية خائفة نتيجة دخول عدد كبير من الذميين فى الإسلام تخلصاً مما عليهم من ضرائب باهظة . ولم يتورع الحجاج أن يعيد فرض الجزية والحراج على من أسلم منهم^(١) فكأن سياسة الأمويين الاقتصادية كانت مؤسسة على هذا المبدأ الجديد « المال قبل الإسلام » وهو مبدأ خطير لا من ناحية الدين فحسب ، بل من الناحية الاقتصادية أيضاً ، فقد ضج الموالى من سياسة الحجاج المنافية لما أوجبه الإسلام ، وأخذوا يتكتلون ضد الدولة ويخرجون مع الخارجين عليها . وكان الدافع الاقتصادى له أثر بالغ فى حركاتهم التى قاموا بها ضد الأمويين يقول جورجى زيدان فى ذلك : « كان عمال بنى أمية يجورون على أصحاب الأرض من أهل الذمة فى التحصيل ونحوه ، وكان الحراج يومئذ على المساحة ، فيؤخذ على الأرض مال معين زرعت أم لم تزرع . . . والظاهر أن الضغط على أهل القرى وأصحاب الأرض حمل بعضهم على الإسلام احتماؤه به ولكن الحجاج كتب إلى الأمصار « إن من كان له أصل فى قرية فليرجع إليها لتؤخذ منه الجزية والحراج فخرج الناس وهم يبكون وينادون : يا محمداه ! يا محمداه ! فاضطروا إلى الانضمام إلى ابن الأشعث على الحجاج^(٢) » وإلى مثل هذه النتيجة توصل أيضاً أحد الباحثين إذ قال إن سياسة إخراج أهل القرى من قراهم كانت لها نتائج اقتصادية وسياسية خطيرة ، ذلك أن هؤلاء الخارجين كانوا اليد العاملة فى المدن ، فلما خرجوا منها تدهورت الحالة الاقتصادية فيها . وحين عاد الخارجون وبخاصة إلى الكوفة بعد وفاة الحجاج وجدوا الفرصة سانحة لنشر مبادئ التشيع لأنهم كانوا قد أصبحوا فى قراهم من غلاة الشيعة^(٣) .

(١) تاريخ الطبرى ٨ : ٣٥ .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى ٢ : ٢٤ .

(٣) حركات الشيعة المتطرفين : ٢٨ .

وهذه السياسة المالية العنيفة التي اتبعها الحجاج مع الموالى كان للعرب منها نصيب أيضاً، ذلك أن الحجاج لم يعف العرب الذين تملكوا أرضاً من أرض الخراج من أن يدفعوا ما عليها منه . ولم يكن ذلك النظام موجوداً من قبل ، فأثارت هذه السياسة نائرة العرب أيضاً^(١).

وظل ذلك الوضع الاقتصادي الحديدي على ما هو عليه حتى ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وشكا إليه الموالى سوء وضعهم الذي لا يتفق مع ما جاء به الإسلام، فوضع عمر حلاً وسطاً يحفظ لخزانة الدولة حقها . وفي الوقت نفسه يخضع للمبدأ الإسلامي، وتم ذلك عن طريق إعفاء من أسلم من الجزية واعتبار الخراج لمجاراً لأرض الخراج ، كما ألغى عمر الضرائب الإضافية التي فرضها الخلفاء السابقون كهدايا النوروز والمهرجان ورسوم الزواج وما أشبه^(٢). ولكن ما لبث الأمر أن عاد إلى ما كان عليه بعد وفاة عمر إذ كتب خلفه إلى عماله « أما بعد فإن عمر كان مغروراً فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده وأعيدوا الناس إلى طبقته الأولى أنصبوا أم أجذبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا »^(٣).

وهذه السياسة التي وضعها عمر بن عبد العزيز كانت جديدة في النظام الاقتصادي في الإسلام من الناحية الشكلية ، ذلك أنها فرقت بين الخراج والجزية ، فاعتبرت الجزية متعلقة بالشخص فلا تقع إلا على غير المسلمين . أما الخراج فصار يعتبر متعلقاً بالأرض المترعة ، لهذا وجب أن يدفعه المسلمون أيضاً إذا كانوا يملكون أرض خراج . وبهذه الطريقة استطاع عمر أن يجنب الدولة كارثة اقتصادية لو أنه اتبع المبدأ الإسلامي برفع الجزية والخراج عن أسلم دون أن يجد له بديلاً يعوض الدولة عن هذا النقص المالي الكبير .

وقد انتقد بعض المستشرقين مثل فون كرىمر ، وأوجست مولر سياسة عمر بن عبد العزيز المالية ، وجعلوها من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى انهيار الدولة الأموية . ولكن فلهو وزن قد رد عليهم بأنهم يتصورون الأحوال الواقعة في ذلك

(١) تاريخ الدولة العربية : ٢٧٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٨ : ١٢٩ .

(٣) العصر العباسي الأول : ١٢ .

العصر تصوراً خاطئاً . ذلك أن الأمور كانت قد اضطربت فعلاً قبل عهد عمر بن عبد العزيز ، وأن اضطراب الخراج أيضاً كان موجوداً قبله^(١) ، والحقيقة التي ينبغي أن يقال أيضاً إن سياسة عمر تجاه الموالى من الناحية السياسية والاقتصادية على السواء كان من الممكن أن تعقب خيراً كثيراً للدولة الأموية لولا حدوث الانتكاس الخطير في هذه السياسة بعد وفاة ذلك الخليفة الذي كان يتصرف في حدود ما أنزله الله .

وفي عهد نصر بن سيار آخر ولاية خراسان من قبل الأمويين ، وضع للخراج نظام جديد بأن جعل مقداره ثابتاً لا يتغير ، يفرض على مختلف مناطق أرض الخراج ، ولهذا كان لا بد أن يساهم فيه ملاك الأرض جميعاً بنسبة ما يملكون سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ، عرباً أم فرساً^(٢) . ومثل هذا النظام ربما أفاد الدولة نفسها بتثبيت مواردها من الخراج ، ولكنه لم يكن في صالح الممولين على أية حال ، بل ربما زاد الأمر سوءاً لاضطرارهم إلى دفع مبلغ ثابت لا يتناسب تماماً مع غلة الأرض .

وهكذا نجد أن الحالة الاقتصادية في العصر الأموي لها تأثير خطير من نواح مختلفة ، وهي التي عجلت بنهاية الأمويين أنفسهم ، لأن مخصصاتهم للموالى في الناحية الاقتصادية حولت دقة الأمور إلى ثورة سياسية واقتصادية واجتماعية عارمة ، جرفت في طريقها كل شيء ، وأحدثت انقلاباً خطيراً كان لا بد من حدوثه بتغير الوضع الاقتصادي للموالى ، وهم الطبقة الغالبة على المجتمع الإسلامي في ذلك العصر .

وبما لا شك فيه أن سياسة الأمويين الاقتصادية قد ظهر صداها في شعر القرن الأول وأوائل الثاني . وقد وصف ذلك شوقي ضيف فقال : « إن الشعر في بني أمية مثل الحياة الاقتصادية من جميع أطرافها ، وما أصابها من تطور ، فهو من جهة صور نظم الدولة الاقتصادية وما اعتور تطبيقها من خلل واضطراب ، وهو من جهة ثانية صور ضرورة المال في حياة العرب الجديدة ، وهي ضرورة اتسع تأثيرها في محيط الشعر وخطوطه واتجاهاته^(٣) » .

(١) تاريخ الدولة العربية : ٢٩٦ . (٢) المصدر نفسه : ٢٧٢ .

(٣) التطور والتجديد في الشعر الأموي : ١٠١ .

وكان للموالى ما أرادوا من الانقلاب العباسى الذين كانوا هم أدواته . فأسقطت الجزية عن أسلم ونخفت الضرائب الأخرى . فنجد مثلاً أن المنصور ألغى الضريبة النقدية التى كانت تفرض على الخنطة والشوفان وأحل محلها نظام المقاسمة وهو وضع الضرائب نوعياً بنسبة خاصة من المحصول^(١) . كما سمح العباسيون للأعاجم بالانضمام إلى صفوف الجيش وفرضوا لهم العطاء بحسب الجنس أو البلد^(٢) . ولم يكن ذلك العمل فى الحقيقة بدءاً فى الإسلام فقد سبق لعمر بن الخطاب أن سوى فى العطاء بين العرب والموالى إذ فرض لأهل بدر المهاجرين من هؤلاء وأولئك خمسة آلاف ، كما فرض للأنصار ومواليهم أربعة آلاف أربعة آلاف^(٣) .

ومنذ تولى العباسيون حكم الدولة الإسلامية قبل منتصف القرن الثانى بوضع عشرة سنة ، تغيرت الأوضاع الاقتصادية تغيراً كبيراً عما كانت عليه أيام الحكم الأموى . فقد ازدهرت التجارة فى عهدهم ازدهاراً لم تشهده من قبل . صحيح إن التجارة قد انتقلت من الجزيرة العربية إلى الطريق الشرقى الذى يبدأ من الأبله على الخليج الفارسى ويساير القرات إلى أنطاكية فيصل بذلك بين الشرق والغرب - قبل العصر العباسى بسنوات طويلة ، ومع ذلك لم تزدهر التجارة فى العصر الأموى إلا قليلاً . وسبب هذا - فى رأى - يرجع إلى عوامل كثيرة : منها ذلك العداء المستحكم بين الأمويين وأهل العراق مما أشاع الفتن والاضطرابات ، وولد قلاقل كثيرة ، فى حين أن ازدهار التجارة لا يتأتى إلا فى جو الاستقرار السياسى للدولة . وسبب آخر لهذه القضية يتمثل فى هذه التفرقة التى خلقها الأمويون بين العرب والموالى ، ثم هذه الضرائب الكثيرة التى أنقلوا بها كاهل الموالى والأعاجم بصفة عامة مما تسبب فى إشاعة اضطراب اقتصادى ، وشل حركة التجارة لأن جزءاً كبيراً من أفراد هذا المجتمع - وهم الموالى والأعاجم - لم يكن فى قدرتهم الشراء والمعاملة التجارية فى نطاق واسع نخلو أيديهم من المال .

وسبب آخر أراه من أهم الأسباب ، يرجع إلى هذه الحروب المتواصلة التى

(١) النظم الإسلامية : ٢٨٧ .

(٢) تاريخ المدن الإسلامى ١ : ١٧٩ .

(٣) الأموال : ٢٣٥ .

خاضها الأمويون وأنفقوا فيها أموالاً طائلة وجهوداً كبيرة . صرفتهم عن العناية بالحياة الاقتصادية ، في الوقت الذي تميز فيه العصر العباسي بالاستقرار النسبي وتوقف حركة الفتوح تقريباً .

لهذه الأسباب جميعاً لم تزدھر التجارة في العصر الأموي مثلما ازدهرت في عصر العباسيين الذي أصبح فيه العراق مركزاً للحياة الاقتصادية الدائبة الحركة . وكانت البصرة هي القلب النابض لهذه الحياة ، إذ اجتمعت فيها صنوف التجارة وامتدت علائقها الاقتصادية شرقاً إلى الهند والصين ، وغرباً إلى أقصى بلاد المغرب وجنوب الحبشة ، وكانت السفن ترسو في مينائها وتحمل أصناف التجارات من الأقمشة والأطياب وغيرها . وقد تكاثرت الثروة فيها بتكاثر الناس القادمين إليها للتجارة أو للإقامة ، حتى لقد بلغ ما جبته الحكومة من أحد التجار البصريين مائة ألف دينار في عام واحد^(١) . وهذا المبلغ يصور لنا مدى الثراء الذي كان يصيبه تجار البصرة والذي كان يصيب الحكومة العباسية بالتالي .

وبسبب ازدهار الحياة الاقتصادية في البصرة في القرن الثاني تضاعف عدد سكانها بضع مرات حتى بلغوا نصف مليون نسمة بدليل المال الذي فرقه فيهم أبو جعفر المنصور وكان ألف ألف درهم فلم يصب الرأس منهم إلا درهين^(٢) . وكان من نتيجة هذا الاستقرار الاقتصادي في البصرة وهذا الثراء ظهور حركة علمية نشطة من علماء الكلام وغيرهم ، كما نشأت في الوقت نفسه طبقة من المجان الإباحيين المستهترين بجميع القيم . وظهور هذين التيارين المتضادين كان نتيجة طبيعية لتدفق الأموال وشيوع الرخاء في هذه المدينة التجارية النشطة .

ولم تلبث بغداد بعد إنشائها أن نافست البصرة في ثروتها ورخائها . ولم يغفل المنصور — عند اختيار موقعها — عن أهمية الوضع الاقتصادي في حياة هذه المدينة ، فهو يقول : « إنما أريد موضعاً يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقته لي ، ولا تغلو عليهم فيه الأسعار ولا تشتد فيه المثونة ، فإني إن أقمت في موضع لا يجلب إليه من البر والبحر شيء غلت الأسعار وقلت المثونة وشق ذلك على الناس^(٣) »

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٢ : ١٧٧ .

(٢) حضارة الإسلام في دار السلام : ٥ .

(٣) تاريخ الطبري ٩ : ٢٣٩ .

وقد ظل المنصور مهتماً أشد الاهتمام برعاية الحياة الاقتصادية في جميع أنحاء مملكته حتى إنه كان يكلف ولاة البريد في الآفاق كلها - كما يقول الطبرى - بأن يكتبوا إليه كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم ، وبسعر كل مأكول . فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك ، وإن تغير شيء منها عن حاله كتب إلى والى العامل هناك وسأل عن العلة التي نقلت ذاك عن سعره ، فإذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك حتى يعود سعره إلى حاله^(١) .

وهذا الاهتمام الكبير باستقرار الأوضاع الاقتصادية وتثبيت أسعار السلع الضرورية التي هي عماد الناس في حياتهم في كل مجتمع إنسانى ، قلما نجده عند خلفاء بنى أمية في القرن الأول وأوائل الثانى . لهذا لا نستغرب ذلك الرخاء العظيم الذى ساد الحياة الإسلامية حتى عصر هارون الرشيد ، كما لا نستغرب ذلك الثراء الفاحش الذى بلغته الدولة في سنوات قلائل من الحكم العباسى ، ذلك أن غنى الأفراد يستتبع في ميزان الاقتصاد غنى الدولة . وقد جاء في بعض المصادر أن الضرائب بلغت في عهد هارون ما يقرب من اثنين وأربعين مليوناً من الدنانير عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ من غلة الأرض^(٢) .

ومع أن الضرائب قد كثرت وتنوعت أيام العباسيين تنوعاً كبيراً إلا أننا لم نسمع تدمراً بين الناس من ثقل هذه الضرائب ، والسبب في ذلك أنها كانت تتناسب - فيما يبدو - مع الرقى الاقتصادي الذى بلغته الدولة في شتى المرافق ، فمن الضرائب الجديدة التي فرضها العباسيون أعشار السفن ، وأخماس المعادن والمراصد (الجمارك) وغلة دار الضرب (وكانت العملة سلعة تباع وتشترى) ، والملاحات والأسماك والمستغلات (وهي أراض للسلطان مؤجرة) ، وضرائب الصناعة إلى ما سوى ذلك^(٣) .

ومن تنوع هذه الضرائب نستطيع أن ندرك أن الدولة العباسية لم توجه عنايتها إلى التجارة والزراعة فحسب ، ولكنها وجهت عناية كبيرة إلى الصناعة . وقد أشار إلى ذلك « سيدىو » فقال إنهم استثمروا مناجم الحديد بخراسان ومناجم الرصاص

(٢) تاريخ الإسلام ٢ : ٢٦٢ .

(١) تاريخ الطبرى ٩ : ٣١٤ .

(٣) تاريخ القطن الإسلامى ٢ : ٧٥ .

بكرومان ، كما استخرجوا القار والنفط وطبن الصينى ، ورخام تبريز ، والملح الأندرانى ، والكبريت بمهارة ، وفى عهدهم بلغت صناعة النسيج فى الموصل وحلب ودمشق قدراً عظيماً من الرقى ، كما تقدمت الفنون الصناعية الأخرى تقدماً كبيراً^(١). ويضيف جميل المدور أن القرس فى عهد العباسيين كانوا ينفردون بصناعة الصياغة ، وقد بلغوا من إجادتهم فى تلك الصناعة الغاية بحيث كانوا يرصعون الزجاج بالجوهر ويكتبون عليه بالذهب المجسم ، ويصنعون للملوك أقداحاً تقيد الأبصار حسناً وإشراقاً ، ويتخذون على الحمامات صوراً يحكون صناعتها بالرسم إلى مماثلة الحقائق^(٢).

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن العباسيين قد أنشأوا لأول مرة صناعة هامة جداً بالنسبة للحياة الثقافية وتقدم الحركة العلمية . ونعنى بها صناعة الورق . فحتى أوائل القرن الثانى كان الورق يستورد من مدينة كاشغر بالصين ، ولهذا كان وجوده شحيحاً وكانت أثمانه عالية حتى إن أبانواس كان يقول :

أُرِيدُ قِطْعَةً قِرطاسٍ فَتُعْجِزُنِي وَجُلُّ صَحْفِي أَصْحَابُ الْقِرطاسِ

وقبل أبانواس كان عمر بن العزيز يأمر كتابه بجمع الخط حتى لا يسرفوا فى استخدام الورق ، ولهذا كانت كتبه إنما هى شبر ونحوه^(٣).

وهذه النهضة الصناعية كانت من بين أسباب الثروة التى أحرزتها الدولة الإسلامية أيام العباسيين ، كما كانت من أسباب وعوامل الرقى الفكرى والنهضة العلمية بمظاهرها وفروعها المختلفة . وقد أسهمت فى إشاعة عناصر الرخاء والطمأنينة بين طبقات الشعب على اختلافها فى القرن الثانى ، فكان الأغنياء يقيمون القصور الرائعة التى كانت وما تزال مثاراً للخيال ودلالة على الترف على أذهان الناس ممن يقرأون ألف ليلة وليلة وما أشبه . ويصف لنا المؤرخون قصوراً تبدو كالأساطير والأحلام كقصر محمد بن سليمان الهاشمى الذى بناه على شاطئ أحد الأنهار

(١) تاريخ العرب العام : ٢٢١ .

(٢) حضارة الإسلام فى دار السلام : ٢٣ .

(٣) ديوان أبانواس : ١٢٦ .

(٤) كتاب الوزراء والكتاب : ٥٣ .

واتخذ في جنانها المها والغزلان والنعام وأنواع السباع والطيور المغردة ، وكغيره من القصور التي كانت حوائطها مكسوة بالوشى والديباج ورقائق الذهب والأحجار النفيسة ، والتي كانت يجالسها فتنة للناظرين بما فيها من فرش فاخر ومتاع ثمين . وكان الفقراء ومتوسطو الحال يحبون حياة كريمة ليس فيها ذل الفاقة والعوز ، وذلك نظراً لرخص أثمان السلع الضرورية وتوفر أنواع المأكول ، فكانت أسواق بغداد عامرة بالمتاجر والبضائع . وكان لكل تجار وتجارة شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوايت عراض . فكنت تجد سوق البزازين وسوق الجزارين وسوق الدجاج وسوق الطعام ومحلة أصحاب الصابون ، وهكذا ، كل أهل تجارة معتزلون عن غير تجارتهم^(١) وكانت أسواق البصرة والكوفة لا تقل عن بغداد إن لم تزد في مظاهر رخائها ورواج سلعتها ، حتى إن سوق الكوفة كان فيه مكان لباعة الأزهار كالبنفسج والزنبق^(٢) .

وما يدلنا على اختلاف النظام الاقتصادي في العصر العباسي عن نظام الأمويين تلك الملاحظة الطريفة التي سجلها ابن خلدون حين قال إن أعطية بني أمية كان أكثرها من الإبل ، أما في عصر العباسيين فقد أصبحت الأعطية من أحمال المال وتخوت الثياب وأعداد الخيل بمراكبها^(٣) . وقد علل ابن خلدون ذلك بأن الأمويين كانوا يأخذون بمذاهب العرب ، وربما كان لذلك السبب نصيب من الصحة ، ولكنه ليس السبب الأهم : فتطور الحياة الاقتصادية هو الأساس الأول لوجود مثل هذا الفارق .

ولعل خير ما يصور لنا تطور الحياة الاقتصادية في القرن الثاني ذلك البيان الذي سجله الخطيب البغدادي وضممه أسعار الحاجيات أيام الخليفة أبي جعفر المنصور ، فهو يذكر لنا أن الكبش كان بدرهم ، والحمل بأربعة دنانق ، والتمر ستين رطلاً بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم^(٤) . وهذه الأثمان خيالية في رخصها خصوصاً إذا قورنت بدخل الأفراد في ذلك العصر ،

(١) بغداد في عهد الخلافة العباسية : ٥٩ .

(٢) خطط الكوفة : ٢٦ .

(٣) تاريخ ابن خلدون : ١ : ٣١١ .

(٤) تاريخ بغداد : ١ : ٧٠ .

وتقصد بهم الأفراد العاديين كجنود الجيش مثلاً . فقد كان عطاء المقاتل يتراوح في بعض الأقوال بين مائتين وألف وخمسمائة درهم سنوياً ، يدفع له في المحرم عند بداية السنة الهجرية^(١) ، أى أن راتب الجندي كان يتراوح بين عشرين ومائة وعشرين درهماً في كل شهر . وجاء في قول آخر إن عطاء الجندي العادي كان يبلغ تسعمائة وستين درهماً سنوياً أى بواقع ثمانين درهماً في الشهر ، وكان للفارس ضعف هذا المبلغ ليتمكن من الإتفاق على فرسه . ثم تناقصت قيمة هذا العطاء حتى صار في زمن المأمون بواقع عشرين درهماً في الشهر للجندي العادي^(٢) .

ولو أننا افترضنا صحة أقل مبلغ للعطاء ذكره المؤرخون وهو عشرون درهماً ، لكان شيئاً كبيراً بالنسبة لأثمان السلع في أيام المنصور . ولكن هذه الأثمان لم تظل كما هي بطبيعة الحال ، بل أخذت في التزايد شيئاً فشيئاً دون أن تزداد قيمة العطاء — إن لم تنقص في بعض الأحيان — مما أحدث في النهاية اضطراباً اقتصادياً في مجتمع القرن الثاني ظهر أثره في عهد الأمين حين تكشف بغداد عن جانبيها الفقير البائس كما بينا في فصل سابق . ويمكننا أن نتمثل هذا الاضطراب إذا علمنا أن أثمان المواد الضرورية قد تضاعفت عدة مرات في أيام الرشيد ، فحسب الزيت أصبح يساوي تسعة دراهم ، والشاة بلغت ستة دراهم . أما الألبسة والمنسوجات فكانت أسعارها تختلف بطبيعة الحال تبعاً للمواد المصنوعة منها ، وحسب المهارة الفنية في صنعها . ومع ذلك كان سعر القميص العادي المصنوع من القطن أربعة دراهم ، أما كساء الخبز الذي كان يلبسه الأغنياء فكان ثمنه لا يقل عن أربعمائة درهم^(٣) . وهكذا لم يدم ذلك الرخاء الذي بدأ مع قيام الدولة العباسية حوالى منتصف القرن الثاني . ومما ساعد على انقضائه إسراف الخلفاء العباسيين في إنفاق المال إسرافاً بلغ حد الخيال ، حتى إن بعضهم كان إذا أعجب بالشاعر أو المغنى وطرب له ، حكمه في أخذ ما يشاء من الأموال وأعطاه رقعة بذلك إلى خازن بيت المال^(٤) .

لهذا بدأ الانهيار يأخذ طريقه إلى بناء الحياة الاقتصادية قبيل انتهاء القرن الثاني

(١) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية : ١٣٢ .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى ١ : ١٨٢ .

(٣) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية : ١٥٤ وما بعدها .

(٤) انظر تاريخ بغداد ١٢ : ٢٥ .

بقليل . ولكن حدوث الفتنة بين الأمين والمأمون عجل بأسباب هذا الانهيار . ذلك أن حصار جيوش المأمون لبغداد أصاب اقتصادها إصابة خطيرة لم تبرأ منها بعد ذلك قط . ولقي سكانها أشد العنت والإجهاد إذ انقطع وصول المؤن إليها وغلت أسعار ما بقي من السلع لدى التجار^(١) .

وقد كانت هذه المأساة الدامية سبباً في ظهور قصائد شعبية رائعة التصوير تفيض بالحزن والألم ، وتصف كل ما اكتنف الحياة في بغداد من غلاء الأسعار وهول الحرب ، وصوله الفقراء البائسين وشذاذ الآفاق ، إلى غير ذلك مما ستحدث عنه في موضعه من الباب الثاني .

وإلى هذا الحد نكون قد استعرضنا أغلب المؤثرات التي انفلتت بها الحياة في القرن الثاني الهجري ، والتي ظهرت آثارها بوضوح في شعر هذا القرن بل هي التي حددت اتجاهاته في الشكل والموضوع على السواء ، وهذا ما سنتناوله في الفصول التالية .

(١) انظر : تاريخ الطبري ١٠ : ١٨٥ .

الباب الثاني

الاتجاهات الموضوعية

- مقدمة : العبث والانتحال في شعر القرن الثاني :
طريقة دراسة شعر هذا القرن : البيئات ، المدارس ، الاتجاهات .
- الفصل الأول : الاتجاهات العامة :
بدء حركة التجديد – تأثير الكوفة – الوليد بن يزيد والتجديد – نبذ بكاء الأطلال – الخروج على عمود الشعر ونهج القصيدة – تيار الشعر المحافظ – التعبير عن الذات – الواقعية – الشعبية – التسلية والترفيه – الإنسانية .
- الفصل الثاني : الاتجاهات الجديدة :
المجون – الزندقة – الزهد – الشعر المذهبي – الشعر التعليمي .
- الفصل الثالث : الاتجاهات المجددة :
المديح والشعر السياسي – الهجاء – الرثاء – الحكمة – الوصف – الطرد – الحمريات – التغزل .

الباب الثاني

الاتجاهات الموضوعية

مقدمة

يوجه النقد الحديث عنايته في تحليل الشعر ودراسة اتجاهاته إلى ناحيتين أساسيتين ، هما في الحقيقة قوام الشعر ، ونقصد بهما المضمون والشكل ، أى موضوع الشعر والصورة التى يتلبس بها هذا الموضوع فى التعبير بالألفاظ والأوزان والصورة الشعرية. ودراسة الناحية الأولى — وهى موضوع الشعر ومادته الفكرية — ستكون مدار هذا الباب الثانى من البحث ، إذ نحاول عن طريق دراسة شعر القرن الثانى دراسة نقدية تحليلية معرفة اتجاهاته الموضوعية ومدى ما فيها من مساهمة للشعر العربى القديم فى الجاهلية أو فى الإسلام ، أو ما فيها من عناصر فكرية جديدة كانت وليدة هذا القرن ، وإليه تنسب وبها يعرف فى تاريخ الأدب العربى .

ولكن قبل أن نخوض فى دراسة هذه الاتجاهات الموضوعية وتحليلها ، نحب أن نستوثق من أن الشعر الذى بين أيدينا — والذى ينتسب إلى القرن الثانى — هو شعر هذا القرن حقا ، وأن الشعراء الذين قالوه كانوا شعراء حقيقيين موجودين فى هذا العصر ، وأنهم قالوا بالفعل هذا الشعر الذى تنسبه إليهم الرواة وكتب التاريخ والأدب والطبقات ، وبهذا تقوم دراستنا على أساس من الواقع ، ولا تكون دخانا فى الهواء فتذهب جهود هذه الدراسة والنتائج التى تصل إليها بددا ، ولا تكون على شىء من القيمة فى الدراسة الأدبية .

والحقيقة أن نظرية الشك فى الشعر الجاهلى التى نادى بها طه حسين وابن سلام من قبله جعلت الشك يتسرب إلى نفوس الدارسين للأدب فى مختلف العصور . ومع أن عناصر الشك فى الشعر الجاهلى لها ما يبررها وما تستند إليه بحكم أن تناقل هذا الشعر قد تم على أفواه الرواة ، وأنه قد دُون فى عصر متأخر ، وأن العصر الجاهلى نفسه كان محل غموض فى التاريخ عموما ، وأن مراجعته التاريخية نادرة حقا ، وكذلك

كان لظهور الإسلام وانتشار الدين الجديد أثر كبير في صرف الاهتمام عن الشعر الجاهلي وضياعه في بعض الأحيان، خصوصاً ما كان يمس الناحية الدينية بالذات، كل هذا يمكن أن يقال كعناصر للشك في الشعر الجاهلي، وقد قيل بالفعل، ولكن كيف السبيل إلى الشك في شعر القرن الثاني مع بعده عن جميع هذه العناصر والأسباب التي ذكرناها. هل هناك عناصر اتهام جديدة توقفنا موقف الشك من هذا الشعر الذي وصلنا منسوباً إلى بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وأضرابهم من شعراء القرن الثاني؟ إن باحثاً عراقياً يرد بالإيجاب على أسئلتنا تلك، ويصر على وجود عناصر قوية للشك في شعر القرن الثاني والشعر العباسي على وجه الخصوص، وهو يبدأ عناصر اتهامه قائلاً: «إن الذين كشفوا عوامل الانتحال والوضع في تاريخ الأدب الجاهلي والإسلامي صمتوا صمتاً يكاد يكون مطبقاً أمام الأدب العباسي حتى إننا لم نفهم إذا كان صمتهم الغريب هذا لاعتقادهم أن عوامل الانتحال والصنعة والغلو قد وقعت في العهد العباسي، أم أنه كان نتيجة لضخامة أدب هذا العهد وقربه النسبي منا، فلم تتوفر الجرأة الكافية لمواجهة القيمة الزائفة العالقة بأخبار ونصوص شعراء هذا العهد». وبعد هذا التساؤل يقرر الكاتب صراحة أن «العصر العباسي لم يغير كثيراً في الدوافع التي كانت تدفع الرواة إلى الوضع والتزوير، وأن هذه الدوافع قد استمرت في هذا العصر، فاشتد منها ما اشتد، وضعف منها ما ضعف حتى قدمت للتاريخ صوراً أدبية عباسية تحوي كثيراً من الأكاذيب^(١)». أما عناصر الشك التي يراها الكاتب من القوة بحيث تجعلنا نقف موقف الحذر الشديد من شعر القرن الثاني - تماماً كموقف الدارس من الشعر الجاهلي والإسلامي - فكثيرة متعددة. وهو يرى أن العصبية القبلية إذا كانت قد خفت نسبياً، فالعصبية الفنية اشتدت متمثلة في الصراع بين القدماء والمحدثين، وكذلك النزاع الديني بين الفرق المذهبية، والنزاع الجنسي بين العرب والشعوبية، والنزاع الاجتماعي بين أهل الزهد والمجون. فهذه العوامل لعبت بأخبار الشعراء والكتاب في العصر العباسي فأشاعت فيها الاضطراب والاختلال. ويدلل الكاتب على ذلك بضياع أكثر الدواوين الشعرية التي كتبت في ذلك العصر. ويؤكد اتهامه بما كتبه الصولي عن

(١) مقال «الانتحال والبعث في الأدب العباسي» - مجلة كلية الآداب والعلوم - بغداد

اضطراب رواية دواوين بعض الشعراء إذ يقول : « وليس يجب - أعزك الله - أن تنظر إلى اختلاف الناس في أبي تمام واضطراب روايتهم لشعره ، فإنهم بعد إتمام هذه النسخة يجتمعون عليها ويسقطون غيرها ، كما كانوا مختلفين في شعر أبي نواس وأخباره ، ثم اجتمعوا عليه بعد فراغى منه ، حتى إن النسخة من شعره من غير ما عملته لتباع بدراهم ، قد كانت قبل ذلك تباع بدنانير . ولعلها بعد قليل تفقد فلا ترى وتسقط فلا تزداد . وقد رأيت - أعزك الله - بعض هؤلاء الجهلة يصحف أيضاً على أبي تمام ثم يعيب ما لم يقله أبو تمام »^(١) .

وبعد هذه المقدمة العامة لنظرية الشك في شعر القرن الثاني يفصل الكاتب ما أجمله فيرى أن عوامل الانتحال والعبث في الأدب العباسي إنما ترجع أولاً إلى ناحية أدبية ويقصد بها الصراع بين القدماء والمحدثين الذي تمثل في إضراب العلماء والرواة عن رواية شعر المحدثين والاهتمام به ، تعصبا منهم للشعر القديم^(٢) . وهذه العصبية لم تكن مقصورة على الرواة وعلماء اللغة والنحو كابن الأعرابي والأصمعي ، بل كانت الموجة طاغية على بعض المغنين كإسحق الموصلي ، فقد روى أنه كان شديد العصبية للأوائل ، كثير الاتباع لهم^(٣) .

وهناك ناحية أخرى ترجع إليها عوامل الانتحال في شعر القرن الثاني وهي ناحية دينية ، ويقصد بها الباحث تلك المعارك الدينية والمذهبية التي كانت سائدة في هذا القرن . فهو يقول إن قسماً كبيراً من الشعر العباسي قد ضاع أو دخلته الفوضى بسبب تلك المعارك ، ثم يتساءل : لماذا يجب أن نصدق كل ما يقال عن زندقة بشار وغيره^(٤) . ويرى الباحث في الوقت نفسه أن المعتزلة لم يكونوا أقل خطراً من غيرهم في عمليات التشويه والدس والانتحال ، فقد تناولوا هم أيضاً خصومهم من الشعراء والأدباء وعملوا في أخبارهم بالتشويه والتجريح ، ومن ذلك أن كل الشكوك

(١) أخبار أبي تمام : ٥٦ .

(٢) هذه الناحية مذكورة في دائرة المعارف الإسلامية مادة « العربية » إذ يقول الكاتب إن امتناع العلماء اللغويين عن رواية شعر المحدثين تسبب في عدم جمع عدد كبير من دواوينهم ، وحتى الدواوين التي جمعت فيما بعد كديوان أبي نواس بعيد عن الحقيقة . (انظر : The Encyclopaedia of Islam (new edition) وهذه الفكرة فيها نظر وسنرد عليها في موضعها .

(٣) في الأدب العباسي : ٨٣ .

(٤) المصدر نفسه : ١٣٦ .

التي تحيط بأبي العتاهية مرجعها إلى المعتزلة^(١) . وقد ترتب على وجود هذا العامل الديني ضياع أكثر الشعر الديني من أراجيز وقصائد ضياعا يكاد يكون تاما ، فاندثر شعر المعتزلة أنفسهم ، واندثر معه شعر الطوائف الأخرى^(٢) .

وهناك ناحية ثالثة ترجع إليها عوامل الانتحال والعبث في الشعر العباسي فيما يرى على الزبيدي ، وهي الناحية السياسية : فأخبار الشعراء وأشعارهم كانت أيضاً مسرحاً لكل عوامل العبث والانتحال بسبب الشعوية وبسبب الصراع بين الأحزاب السياسية^(٣) .

أما العامل الأخير الذي يستند إليه الباحث في نظريته المريبة الشاكة إلى شعر القرن الثاني ، فهو عامل تجاري ، ويقصد به أولئك الوراقين الذين كانوا يقومون بعملية نسخ الكتب وطبع المجموعات الشعرية والمختارات وشروحها ، وما إلى ذلك ، بطريقة لا تعني بالتحقيق والتروى ، ولا تهتم بالتثبت ، وإنما كان همهم كسب المال فقط . ويؤكد الباحث قوله برواية عن ابن النديم يقول فيها إن وراقا اسمه سند ابن علي ألف كتابا اسمه الأغاني الكبير ونسبه إلى إسحق الموصلي^(٤) .

وترتب على وجود هذه العوامل المختلفة - كما يقول الكاتب - وجود فوضى في نسبة الشعر إلى أصحابه ، فزهديات أبي نواس تنسب إلى أبي العتاهية ، وقصائد أبي العتاهية تنسب إلى أبي نواس في باب الزهد ، وأصبحت مشكلة الدواوين الشعرية تقف في طليعة الأسباب المثبطة لعزيمة المؤرخ الدقيق للعصر العباسي ، فن مئات الدواوين لم يقع في أيدينا إلا أقل القليل ، فلا نجد غير قسم من ديوان بشار ، وديوان أبي نواس - وهو ينوء بعلاته الثقيلة المختلفة - ، ثم مجموعة مضطربة من شعر أبي العتاهية جمعت في القرن الخامس . وسنجد ديوان مسلم والعباس بن الأحنف وعددا قليلا من المخطوط ، أما العشرات الآخرون فلم يصل إلينا شعرهم . وهكذا نجد أن الأدب في هذا العصر استعاض عن الرواة بالمخطوطات فوقع الشك في النسخ المكتوبة بعد أن كان يقع في الروايات المسموعة^(٥) .

(٢) المصدر نفسه : ١٧٥ .

(١) في الأدب العباسي : ١٦٧ .

(٣) المصدر نفسه : ١٥٠ .

(٤) المصدر نفسه : ٤٣ وما بعدها .

(٥) في الأدب العباسي : ٥٣ وما بعدها .

هذه هي آراء على الزبيدي التي يريد من ورأها مد فكرة الشك إلى العصر العباسي ، بالرغم من تدوين الشعر فيه ، وبالرغم من أن شعراء ه كان أغلبهم — إن لم نقل كلهم — يقرءون ويكتبون ويسجلون أشعارهم . والكاتب نفسه يؤكد ذلك ويقول إن بشار بن برد كان له رواية اسمه يحيى بن الجحون العبدى^(١) . ولأبي نواس راويان هما على بن الفضل ، وأبو هفان . وكان أبو العتاهية يستخدم أحد الكتاب المتهنين لكتابة أشعاره تحت إشرافه — ولكن الباحث على الرغم من ذلك يطعن في هذا النسخ المكتوبة وينسب إليها التخليط والعبث^(٢) .

ورب قائل يقول : إذا كانت الدواوين الشعرية التي كتبت بإشراف أصحابها وتحت أنظارهم قد دخلها التحريف والتشويه ، فما بال الكتب الأخرى التي كتبت عن الشعراء المحدثين وأوردت لنا كثيراً من أشعارهم ، هل دخلها التحريف أيضاً ؟ لقد احتاط الباحث على الزبيدي لمثل هذا السؤال ، فأعد الجواب عنه مقدماً . فهو يذكر أسماء هذه الكتب والمؤلفات التي كتبت عن الشعراء المحدثين ، ويقول إنها تبين ضخامة الحركة الأدبية في القرنين الثاني والثالث ، وغزارة الحياة الأدبية في هذا العصر ، ولكن وصول عدد لا يتجاوز أصابع اليد من هذه الكتب إلينا يضع أمام المؤرخ الحديث أمراً أخطر من ملاحظة عظمة الإنتاج الأدبي لضياح هذه المؤلفات . ويمضي الباحث قائلاً : إن هذه الكتب تمثل تيارات ثلاثة : الأول : العناية بالشعراء القدامى دون المحدثين ويمثل لهذا التيار بابن سلام وابن قتيبة^(٣) . والتيار الثاني معاكس للأول وهو يعنى بالمحدثين دون القدماء . ويقول المؤلف في ذلك : « لقد قام بوجه هؤلاء المحافظين أولئك الذين كرسوا جهودهم العلمية في جمع أخبار المحدثين ورواية شعرهم وجمع دواوينهم ، وتأليف الكتب في سيرهم وأشعارهم كمحمد ابن يحيى الصولي ، وأفراد عائلة آل المنجم ، وسعد بن هاشم بن سعيد مؤلف كتاب حماسة شعر المحدثين — ولعله أراد به معارضة حماسة أبي تمام وحماسة البحتري

(١) كان لبيشار في الحقيقة سبعة رواة ، وكان له كاتب أيضاً يكتب شعره نظراً لعماء (انظر : مقدمة ديوان بشار بتحقيق محمد الطاهر بن عاشور ١ : ٥٤) .

(٢) مقال « الافتتاح والعبث في الأدب العباسي » مجلة كلية الآداب والعلوم — بغداد ١٩٥٧ :

١٠٤ .

(٣) نقول إن ابن قتيبة لم يغفل المحدثين وقد تحدث عن بعضهم في كتابه « الشعر والشعراء » .

التي كانت من أكبر آليات الدعاية للقلماء — وقد كانت حركة التأليف هذه من الشدة والسعة بحيث دفعت المؤلفين إلى الاهتمام بأصاغر الشعراء والكتاب ، وأشعار المقلين وأخبارهم ، كابن الجراح ، والمرزباني ، وأحمد بن أبي طاهر ، وابن المعتز وابن عماد القتيبي . أما التيار الثالث فهو تيار محايد ، أو قل إنه يمثل مؤلفين يقفون من القدامى والمحدثين موقف الناقد ، ويفضلون من الأمور أوسطها . ولعل من أبرز هؤلاء المرزباني في الموشح ، والمبرد في الكامل . ومنهم أيضاً أبو سعيد السكري ، وابن السكيت اللذان نشطا في جمع دواوين كبار شعراء القرن الثاني (١).

وعلى الرغم من قيمة هذه المصادر التي وصلتنا والتي اعترف الكاتب نفسه بأهميتها البالغة واهتمامها حتى بأصاغر الشعراء المحدثين ، إلا أنه يقرر قلة ما يدعونا بالتالي إلى الشك في شعر القرن الثاني كله . ولكن أتساءل : هل يجب على دارس شعر هذا القرن أن يشك حقاً فيه ؟

إننا حتى هذه اللحظة كنا نستعرض تفاصيل فكرة هذا الباحث الذي طلع علينا بنظرية الشك في شعر القرن الثاني ، وأعتقد أن مناقشة هذه الفكرة مناقشة علمية مسألة ضرورية لتوثيق هذا الشعر الذي ندرسه ، أو لرفضه إن كانت أسباب الشك وعوامله من القوة بحيث تحتم علينا هذا الرفض .

وأول ما ينبغي أن نناقشه هي تلك العوامل التي ذكرها الكاتب كعناصر للشك ، والحقيقة إن الباحث قد أسرف في تجسيم هذه العوامل إسرافاً شديداً ، فشق على نفسه ، وعلى دارسي الأدب في جميع عصوره ، وإلا فأى هذه العوامل يمكن لعصر ما أن ينجو منها حتى عصرنا الحديث الزاخر بالمطابع وطرق النشر والإذاعة ؟ ألا توجد دواوين لشعراء كبار يملأون أسماعنا ولكنها لم تجمع حتى الآن ، إما لإعراض الناشرين عنها ، أو بتأثير خصومة أدبية ، أو لانصراف الدارسين والقراء عن مذهبها الشعري ، أو ما شابه ذلك من أسباب ؟ ومن ناحية أخرى يمكننا أن نتساءل : هل الناثرون أو وراقو العصر الحديث معصومون من التلاعب بدواوين الشعر وكتب الأدب عامة ، مع وجود حقوق للتأليف والنشر وما أشبه ؟ طبعاً لا ، فبعض الناشرين يستخدمون كتب الأدب استخداماً سيئاً ، ويخرجون نشرات

(١) مقال « الانتحال والعبث في الأدب العباسي : ١٠٥ وما بعدها .

سيئة التحريف ، مزيدة أو ناقصة ، وكل غائبهم من ذلك كسب المال من أى طريق ، ولو على حساب تشويه الأدب قديمه وحديثه . أما الصراع السياسى والمذهبي فأعتقد أن أى عصر لا يخلو منهما قط ، وعصرنا الحديث يزخر بألوان من هذا الصراع العنيف بين تيارات متشابكة مختلفة فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والمذاهب الفكرية المختلفة . ومع ذلك هل يجوز لنا أن نشك فى شعرنا المعاصر وصحة روايته أو نسبته إلى شعرائه ، أو هل يمكن لمن يأتون بعدنا أن يقفوا من تراثنا الأدبى المعاصر هذا الموقف الشاك المريب الذى يراد بنا أن نقفه إزاء الشعر فى القرن الثانى الهجرى؟ أعتقد أن مثل هذه العوامل التى يمكن أن توجد فى كل عصر لا يصح أن نغلو فى تجسيم آثارها إلى حد الشك فى شعر عصر ما ، وإنكار العوامل الأخرى التى تصحح إيماننا بهذا الشعر وتؤكدته أقوى تأكيد .

ولرد على شكوك الزبيدى بالنسبة لشعر القرن الثانى نقول إن عناصر الشك التى كانت موجودة فى العصر الجاهلى وفى الإسلام — إلى حد ما — قد زالت تماماً فى القرن الثانى . فالشعر لم يعد يعتمد على الرواية والرواة اعتماداً كلياً فى هذا العصر ، بل كانت الرواية وسيلة من وسائل إذاعة الشعر ونشره فحسب . أما الوسيلة الأهم فكانت تدوين هذا الشعر إما بأيدي الشعراء أنفسهم ، وإما عن طريق كتاب يعهد إليهم الشعراء بهذه المهمة . ولم تكن الكتابة فى هذا العصر عسيرة بعد انتشار الثقافة انتشاراً واسعاً وزيادة عدد المتعلمين زيادة كبيرة ، وبعد انتشار الورق وتوفره كما بينا فى فصل سابق . ولم تكن كتابة الشعر فى هذا العصر مقصورة على الشعراء أو من يعهدون إليهم بالكتابة ، بل إننا نجد كثيراً من الأمراء والولاة والسراة ومن إليهم يكلفون كتابهم بتدوين ما يعجبون به من قصائد الشعراء ، لا قصائد المديح وحدها ، ولكن فى جميع الموضوعات والأغراض ، وكذلك كان شأن المثقفين عامة فى هذا العصر . فالشعر فى القرن الثانى كان يعتمد على وسائل كثيرة فى انتشاره وإذاعته ، كان يعتمد على الرواية ، كما كان يعتمد على التدوين . وكان محل عناية أوساط كثيرة فى المجتمع وليس محل عناية العلماء واللغويين وحدهم الذين كان يهمهم الشاهد اللغوى والنحوى أكثر مما يعينهم جمال الشعر وصدقته وعمق تأثيره . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول إن الصراع بين القدماء والمحدثين لم يكن له هذا

التأثير الخطير في العبث بشعر القرن الثاني كما تصور الزبيدي ، وكما جاء في دائرة المعارف الإسلامية ؛ فلم يضرب بعض العلماء عن رواية الشعر الحديث لم يحججه ولم يقض عليه ، بل نجده - على العكس - يذيع ويشيع في أوساط أكثر اتساعا من أوساط العلماء المتعصبين للقديم ، نجده يشيع في أوساط السراة ، كما يشيع في أوساط العامة ، وتتقبله أذواق هؤلاء وهؤلاء . ثم إن العلماء المتعصبين للقديم كانوا قلة باعتراف الزبيدي نفسه ، والعلماء الذين عنوا بالشعر الحديث كانوا كثرة غالبية ، وقد أدوا واجبهم إزاء هذا الشعر على أكمل صورة ، فسجلوا أشعار المحدثين في تآليفهم ، واهتموا بجمع دواوينهم ، وتآليف الكتب في سيرهم وأخبارهم ، بل إنهم اهتموا أيضا بالمغمورين من المحدثين ولم يسقطوهم من حسابهم . ويكفي أن نذكر هذه التآليف ليتبين لنا أن شعر القرن الثاني لم يهمل قط ، بل كان محل العناية الشديدة من الدارسين الذين حفظوه لنا ، كما حفظوا أخبار أصحابه وسيرهم .

ومن هذه التآليف كتاب طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ، والإشارة في أخبار الشعراء لعبد الله بن طاهر ، وأسماء فحول الشعراء لعبد الرحمن بن عبده ، والشعر والشعراء لأبي دعامة العبسي على بن بريد - ويقول عنه ياقوت : « كان أبو دعامة من خيرة الرواة ومن أشرفهم وأكثرهم أمانة ، وقد نقل كثيرا من أخبار أبي العتاهية وأبي نواس »^(١) - وطبقات الشعراء ، وألقاب الشعراء وكلاهما لأبي الحسن الزبيدي ، وطبقات الشعراء لأبي منعم ، والشعر والشعراء لأبي عبيدة ، وطبقات الشعراء لدعبل ، والباهر في أشعار المحدثين ، والشعر والشعراء الكبير ، ومحاسن شعر المحدثين ، وكلها لمحفضر بن محمد بن حمدان ، والبارع ، واختيار الشعراء لكبير هارون بن علي ، والديباج في أخبار الشعراء هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، وأخبار أبي العتاهية ، وأخبار أبي نواس لابن عماد الثقفى ، وكتاب ذكر الشعراء المحدثين لابن الفقيه الهمداني ، وأخبار حماد عجرد لإسحق الموصلي ، وأخبار الشعراء المشهورين والمذكورين من المحدثين لمحمد بن عمران المرزباني ، وكتاب الروضة للمبرد ، والورقة لمحمد بن داود الجراح ، وأخبار السيد الحميري ، وأخبار ابن هرمة للصولي ، والباهر في أخبار مخضرمي الدولتين ليحيى بن علي آل

المنجم ، وأخبار الشعراء لمحمد بن يحيى آل المنجم إلى ما سوى ذلك من عشرات الكتب التي يذكرها لنا ابن النديم في الفهرست وياقوت في معجم الأدباء .
أما من عنوا بجمع دواوين الشعراء المحدثين فكثرة هائلة من العلماء كآبي هفان ، والصولي ، والأصفهاني ، وعلى بن محمد السميساطي الذين جمعوا ديوان أبي نواس ، وكأحمد بن أبي طاهر الذي جمع مختارات من شعر أبي العتاهية وبشار والعتابي ومنصور النمرى ومروان بن أبي حفصة^(١) . هذا عدا ما سجله المؤلفون في كتبهم من أشعار المحدثين ، فكان ذلك توثيقا لتلك الأشعار التي وصلت إلينا مجموعة بعد العصر الذي عاش فيه أصحابها .

ومما يدلنا على الاهتمام الكبير الذي لقيه شعر المحدثين في القرن الثاني أن ابن النديم يذكر لنا شخصاً اسمه (ابن عمار) ويقول عنه إنه « كاتب شعر المحدثين » ، وأنه وجد من شعر أبي العتاهية بالموصل ثلاثين جزءاً من عمل هذا الكاتب^(٢) . ورأى ابن النديم أيضاً ألف ورقة سليمانبة من شعر بشار ، والورقة السلجمانية – كما يقول – تتضمن عشرين سطراً^(٣) ، أي أنه وجد في هذه المجموعة عشرون ألف بيت من شعر بشار . أما ابن هرمة فقد جمع شعره أبو سعيد السكري ثم الصولي^(٤) . وفيما عدا من ذكرنا من العلماء الذين جمعوا شعر أبي نواس نذكر راويته يحيى بن الفضل وابن السكيت الذي شرحه أيضاً ، وأبا سعيد السكري . كما جمع مختارات منه يوسف بن الداية وابن الوشاء وابن عمار – ولعله هو الذي سماه ابن النديم كاتب شعر المحدثين – وكذلك آل المنجم^(٥) . وجمع شعر مسلم ابن الوليد الصولي وغيره . وابن النديم حريص على ذكر عدد الأوراق التي كان يتضمنها كل ديوان من دواوين المحدثين رآه بنفسه ، حتى دواوين الشعراء المغمورين والمقلين^(٦) .

(١) الفهرست : ٢١٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٦٠ .

(٣) الفهرست : ١٥٩ .

(٤) المصدر نفسه

(٥) المصدر نفسه : ١٦٠ .

(٦) المصدر نفسه : ١٦٠ وما بعدها .

ومن العجيب بعد ذلك أن يشك الزبيدي في شعر القرن الثاني مع اعترافه بهذه الكثرة من الكتب التي تناولت شعر المحدثين ، ومع هذا الاهتمام الفائق بجمع أشعارهم ، بدعوى أن أغلب هذه الكتب لم يصل إلى أيدينا ، وكذلك أغلب الدواوين التي جمعت ومر ذكرها . وهذه الدعوى - في رأيي - باطلة . لأن عدم وصول الكتب والدواوين إلينا لا يعنى الشك فيما وصلنا بالفعل . وقد قام العلماء منذ وقت بعيد بتوثيق شعر المحدثين . وقد فعل الصولي هذا بديوان أبي نواس فهو يقول في مقدمة روايته للديوان : « وعلمنا أن شعر هذا الرجل مع الاستقصاء والنقد لا يخلو من منحولات متخللة ، ولا يعرف قائلوها إلا من يتقصاه على الأيام بعناية تامة »^(١) وكان الصولي في روايته يستخرج المنحول على أبي نواس بحسب ترتيب القوافي ، فيرد الأبيات والقصائد التي لا يرى صحة نسبتها إلى أبي نواس . أما مسألة تردد نسبة بعض الأبيات إلى الشعراء فقد لاحظها الأقدمون من قبل وأولوها عنايتهم ، واهتموا بتنقية هذه النسبة ما وسعهم الجهد مما يجعلنا نطمئن إلى قيمة عملهم . ومثل هذا الخلط في النسبة يحدث في كل أدب من الآداب العالمية ، وفي كل عصر . فهو ليس سمة للقرن الثاني وحده ولا للشعر العربي عامة وإلا لم ينشأ عند الأوربيين هذا النوع من النقد الذي يسمونه « نقد النسبة » Critique d'attribution . وأغلب ما ترددت النسبة بين أصحابه تكون له علة واضحة في هذا التردد . فأبو نواس كان شاعر الحمريات بلا منازع في القرن الثاني ، ولهذا نسبت إليه أبيات كثيرة في الحمريات قالها شعراء آخرون من هذا القرن وربما من غيره أيضا ، وقد نبه إلى ذلك مهلهل ابن يموت في مقدمة رسالته عن سرقات أبي نواس - التي نشرتها منذ عهد قريب - إذ يقول : « ثم هم أجمعون مجمعون على أبي نواس وتفضيله على شعراء الناس ، والعصية له . فلا يسمعون شعرا حسنا في معناه ، ولا معنى نادرا في فحواه إلا تسبوه إليه وخلعوا فضيلته عليه ، وحتى إنهم لا يسمعون بوصف خمر ، ولا ذكر آنية في شعر إلا أقسموا جهداً أيماهم أن ذلك لأبي نواس »^(٢) ونجد الجاحظ ينبه على

(١) ديوان أبي نواس رواية الصولي (مخطوط) .

(٢) سرقات أبي نواس : ٣٢ .

هذا أيضا ، فقد روى عنه صاحب « الفرح والتهاني » أنه قال : « ما ترك الناس شعرا في الشجاعة إلا أضافوه إلى عنبرة العيسى ، ولا شعرا في الحمر إلا أضافوه إلى أبي نواس ، ولا شعرا في ليلي إلا أضافوه إلى المجنون »^(١) .

وهذا الموقف يتكرر أيضا بالنسبة إلى أبي العتاهية في شعره الزهدي ، فأشعار أبي نواس في هذا الباب تنسب إليه « وكأن الرواة والكتاب ينكرون أن يكون لأبي نواس الماजन شعر في الزهد ، ولا يتصورون إلا أن تكون النسبة الصحيحة لهذا الشعر مردها إلى أبي العتاهية . وقد نبه الأقدمون على هذه النقطة أيضا في كتاباتهم . وفيما عدا ذلك من تخطيط في نسبة الأشعار نجد شيئا يسيرا قليلا لا يستوجب منا أن نقف موقف الشك والتحيز من شعر القرن الثاني خصوصا أن الدارسين الأقدمين هم الذين نبهوا على هذه المواضع المختلفة ، فأثبتوا يقظتهم لما وقع من تخطيط ، وهيثوا لنا عنصر الاطمئنان لحكمهم وتقديرهم لما أوردوه من أشعار وأخبار . ومثال ذلك ما قاله الصولي والأصفهاني عن قصيدة « ذات الحلل » التي ذكر فيها صاحبها مبتدأ الخلق وأمر الدنيا وأشياء من المنطق ، وهي قصيدة مشهورة ومن الناس من ينسبها إلى أبي العتاهية ، ولكن الصحيح كما يقول الصولي والأصفهاني أنها لأبان اللاحقي »^(٢) .

ثم هناك نقطة أخيرة في هذا الموضوع وهي : ألا يوجد تطابق بين الشعر الذي وصلنا من القرن الثاني وبين الحياة في هذا العصر من نواحيها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية كما نستطيع أن نتمثلها من كتب التاريخ المختلفة ؟ ألم تظهر في هذا الشعر تيارات المجون واللهو والحكمة والجد والزندقة والإيمان وطلب اللذة والزهد ؟ ألم يصور شعر القرن الثاني كثيراً من المذاهب الدينية والسياسية والفكرية التي كانت تسود هذا العصر ؟ ألم يعبر عن الثورات والفتن السياسية والثقافات المختلفة في ذلك العصر ؟ لقد ظهر في الشعر الذي وصلنا من القرن الثاني هذا كله ، وأكثر منه حتى إننا لنجد التطابق شديدا بين الشعر وعصره ، وهذا — إلى جانب العوامل الأخرى — يزيد إيماننا بصحة الشعر الذي وصلنا ، وبوثوق نسبته إلى أصحابه إلا في القليل النادر ، كما يجعلنا نؤمن كذلك بأن شعراء القرن

(١) الفرح والتهاني في أخبار الحسن بن هاني : ورقة ١ (مخطوط) .

(٢) الأوراق (قسم أخبار الشعراء) : ١ ، والأغاني ٢٠ : ٧٢ .

الثاني الذين وصلتنا أخبارهم حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ، وإن كانت هذه الأخبار — شأن أخبار أي فرد في أي عصر — بحاجة إلى التحييص والاستقصاء ليستخرج ما فيها من زيف ، ثم تبقى هذه الأخبار بعد ذلك مادة طيبة للدرس والوصول إلى نتائج أدبية ذات قيمة عن ذلك العصر .

وهذه النقطة الهامة وهي التطابق بين الشعر في القرن الثاني والحياة بنواحيها المختلفة في ذلك العصر ، لم تعرض فيما يبدو للزبيدي ، ولهذا أخذ يقيس أخبار شعراء القرن الثاني بمقياس منطقته هو لا منطق العصر ، وعلى هذا الأساس كذب الكثير من هذه الأخبار التي لم يستطع أن يستوعبها فكره ، وحاول بالتالي أن يشكك الدارسين في أدب القرن الثاني كله بناء على ما توهمه من تلفيق هذه الأخبار .

ومن أمثلة هذا التناقض الذي وقع فيه الكاتب نفيه الزندقة عن بشار نفيًا باتًا لأنه لم يستطع أن يتقبل الأخبار الواردة في ذلك وبقيستها بمقياس العصر وتياراته الفكرية ، ولكنه عرضها على ذهنه فتعجب كيف يكون بشار مسلماً ومتضلعا في علم الكلام ويكون مع ذلك زنديقا^(١) ؟ ! وبهذا المنطق الساذج رفض الزبيدي أن يصدق أخبار زندقة بشار وأبي أن يناقشها مناقشة علمية من واقع شعره ومن واقع العصر نفسه . بل إنه لم يكلف نفسه عناء بحث مفهوم الزندقة وارتباطاتها المختلفة لأنه لو فعل ذلك لأدرك أن الزندقة ليست بعيدة عن علم الكلام بل بينهما صلة أكثر من وثيقة .

وإذا تركنا ناحية الشك في شعر القرن الثاني التي أثرتها في مقدمة هذا الباب لنصل منها إلى الاطمئنان والوثوق بهذا الشعر تمهيدا لدراسته دراسة موضوعية ، فإن علينا أن نناقش نقطة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها وهي : كيف سندرس الاتجاهات الموضوعية لشعر القرن الثاني ؟ أندرسها في البيئات المختلفة ، أم في المدارس الشعرية المتباينة ، أم نتبع تلك الاتجاهات في أبواب الشعر وموضوعاته دون النظر إلى البيئات أو المدارس ؟

إن « بروكلمان » اتبع الطريقة الأولى وهي دراسة البيئات وقد قسمها إلى ما يأتي :
بيثة بغداد — بية العراق والجزيرة الفراتية — بية الجزيرة العربية والشام — بية مصر —

(١) في الأدب العباسي : ١٤٠ .

بيئة المغرب - بيئة الأندلس^(١). أما طه الحاجري فقد اتبع أيضا في دراسته هذه الطريقة إلا أنه حصر تلك البيئات الشعرية في : بلاد العرب (وقسمها إلى : بادية المدينة وحواضر الحجاز وهي المدينة ومكة والطائف) ، بلاد الشام ، مصر ، العراق (وقسمها إلى البصرة والكوفة) ، خراسان . وبذلك أسقط من دراسته المغرب والأندلس^(٢).

واتبع البهيتي في دراسته الطريقة الثانية - وهي المدارس الشعرية - فقسم الشعراء إلى ثلاث مدارس : المدرسة الشعبية العامة - المدرسة الشعبية الخاصة - مدرسة المحافظين^(٣).

ولو أننا نظرنا في الطريقة الأولى لوجدنا أن بها عيوباً ظاهرة تمنع من الوصول إلى نتائج سليمة ، كما نجد أيضاً أن الذين اتبعوها لم يجدوا ما يقولونه عند دراسة بعض البيئات ، فبروكلمان مثلاً لم يجد ما يقوله عن بيئة الشام ومصر وبيئة المغرب والأندلس في القرن الثاني إلا الشذرات التاريخية الهينة التي لا توصل إلى نتائج معينة . وكذلك الحاجري لم يجد ما يقوله عن مصر والشام فقرر ذلك صراحة بالنسبة إلى الشام قائلاً : « كان الشعر وافداً دائماً على الشام من الحجاز أو العراق . . وحتى الشعر الوافد ضعف بعد عهد الوليد بن يزيد » وقال مثل هذا الكلام عن الشعر في مصر^(٤).

ولذين الباحثين عذر واضح في عدم تمكنهما من تقديم دراسة وافية عن الشعر في مصر في القرن الثاني ، ذلك أنه لم تكن في مصر حياة أدبية قوية في ذلك العصر يصح أن تكون موضع دراسة جدية أو أن يتحقق فيها اصطلاح « البيئة الأدبية » . يقول شوقي ضيف في ذلك - وقد لاحظ ما لاحظناه عند دراسته للشعر في العصر الأموي - : « نحن نعرف أن كثيراً من القبائل العربية هاجرت إلى مصر حين سمعت بنحيراتها وثمارها ، ومع ذلك نلاحظ أن نشاطها الأدبي في هذا العصر الأموي كان محدوداً جداً . فإذا عرفنا أن أكثر القبائل العربية التي هاجرت إليها كانت

(١) تاريخ آداب اللغة العربية (الترجمة العربية) .

(٢) محاضرات الحاجري في الأدب العباسي (مخطوطة) .

(٣) تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث .

(٤) محاضرات الحاجري .

يمنية أمكننا أن نعرف لماذا تخلفت في الأدب والشعر لهذا العصر ، فإن القبائل اليمنية حتى التي تركت مواطنها قبل الإسلام إلى الشمال يتصعب عليها الشعر العربي ولا تنبع فيه نبوغ القبائل الشمالية المضربية والقيسية . والواقع إننا لا نجد في مصر شعرا يذكر في هذا العصر إلا شعر الشعراء الوافدين عليها . . وإذا تصفحنا كتاب (الولاة والقضاة) للكندى ، وهو خير مرجع للشعر العربي في مصر في أثناء عصر الولاة ، لم نجد شاعرا مصرية له قيمة في هذا العصر ، وحقاً إنه تمثل ببعض أشعار لنفر من المصريين ، ولكنها أشعار ضعيفة ولا تعبر عن وجود نبع فياض بمصر . وربما كان خير من يذكرهم الكندى ابن أبي زمزومة وكان معاصرا لعبد العزيز ابن مروان ، ولكنه على كل حال شاعر متوسط إن لم يكن ضعيفا ، فأجنحته لا تكاد تنهض به في أفق الشعر العربي العام لهذا العصر^(١) .

ونحن وإن كنا نختلف مع شوقي ضيف فيما ذكره عن القبائل اليمنية وصلتها بفقر الحياة الأدبية في مصر ، إلا أننا نؤيد تصويره لتلك الحياة الأدبية في القرن الأول ، ونزيد على ذلك أنها استمرت هكذا طوال القرن الثاني أيضاً . وإذا رجعنا إلى كتاب « تاريخ الولاة والقضاة في مصر » للكندى أدركنا أن القرن الثاني ظل خاليا من وجود شعراء مصريين حقيقيين ، وأن بعض الشعراء الوافدين من الجزيرة العربية كانت تسمع لهم بعض الأشعار من حين إلى حين ، ولكنها لم تكن تخرج في موضوعاتها عن المدح أو الرثاء أو الهجاء ، وتلك في الحقيقة بضاعة الشعراء الوافدين دائما . أما صياغتها فلا تخرج عن الصياغة العربية القديمة التي لم تدخلها أية مؤثرات جديدة كما حدث في شعر العراق مثلا .

ومن الذين ذكرهم الكندى « مسرور الخولاني » الذي يقول من قصيدة له في الرثاء :

فَيَاكَ لَا تَجْنِي مِنَ الشَّرِّ غِلْظَةً فَتُوْذَى كَحَفْصِ أَوْ رَجَابِ الْأَشِيمِ
فَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَا الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ فَكَيْفَ وَقَدْ أَضْحَوْا بِسَفْحِ الْمُقَطَّمِ^(٢)

ويذكر أيضا مثل هذا الشعر الضعيف المهالك لشاعر آخر اسمه عيسى بن

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي : ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) تاريخ الولاة والقضاة : ٩١

شافع^(١). أما الشاعر الذي يردد الكندي اسمه كثيراً على أنه من شعراء مصر في القرن الثاني فهو سعيد بن عفير الذي يبدو أنه كان يعيش أيام المهدي وأيام الرشيد ، إذ يذكر له الكندي أحياناً في مقتل موسى بن مصعب والى مصر أيام المهدي الذي قتله أهل الخوف ، ومنها قوله :

أَلَمْ تَرَهُمُ أَلَوْتَ بِمُوسَى سَيْوفَهُمْ وَكَانَتْ سَيْوفٌ لَا تَدِينُ لِعُتْرِفِ
فَمَا بَرَحَتْ فِيهِ تَعُودُ وَتَبْتَدِي إِلَى أَنْ تَرَوِي مِنْ حِمَامٍ مُدْتَفِ
فَأَصْبَحَ مِنْ مِصْرٍ وَمَا كَانَ قَدْ حَوَى بِمِصْرٍ مِنَ الدُّنْيَا سَلِيْبًا يَنْفُتِفِ
وَلَكِنْ أَهْلُ الْخَوْفِ لِلَّهِ فِيهِمْ ذَخَائِرُ إِنْ لَا يَنْفِدِ الدَّهْرُ تُعْرِفِ^(٢)

كما يذكر له الكندي شعراً حين ولي مصر الحسين بن جميل من قبل الرشيد على صلاتها فجعل على شرطه كامل الهنائي ، ثم عزله فولى معاوية بن صرد فأقام على صلاتها ، فجمعت له الصلاة والخراج جميعاً فقال في ذلك سعيد بن عفير :

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ الْحَيْنَ يَجْمَعُ مَا أَمْسَى بِمِصْرٍ مِنَ الْأَنْدَالِ فِي الْأَمْرِ
أَمَّا الْأَمِيرُ فَحَنَاجٌ وَصَاحِبُهُ عَلَى الْخَرَجِ سَوَادِيٌّ مِنَ الْأَكْرِ
هَذَا الْهِنَائِيُّ مِنَ الْفُسْطَاطِ يَخْلُفُهُ وَالْعَامِلِيُّ عَلَى أَعْمَالِهِ الْأُخْرِ
كُلْ لِصَاحِبِهِ شَكْلٌ يُلَائِمُهُ فَهُمْ سَوَاسِيَةٌ فِي اللَّوْمِ كَالْحُمْرِ^(٣)

ويمكننا أن نقول نفس هذا الكلام عن بيئة الأندلس ، فنحن لا نجد شعراء أندلسيين منذ فتح الأندلس عام ٩٢ هـ حتى زمن عبد الرحمن الداخل . ولكن وجد في هذه الفترة شعراء وافدون مثل أبي الخطار صاحب اليمانية ، والصميل بن حاتم شيخ المضربية ، ومثل أبي الأجرب جعوتة بن الصمة الكلبي الذي كان معاصراً لحرير والقرزوق والذي كان شعره على مذهب الجاهليين تماماً ، ومثل بكر الكناني أيضاً . وكل هؤلاء الوافدين « لم يتميزوا ولم يبلغوا مبلغ أدباء العراق

(١) تاريخ الولاة والقضاة : ٩٥

(٢) المصدر نفسه : ١٢٧

(٣) المصدر نفسه : ١٤٢

والشام» كما يقول الرافعي^(١). وهو يصف الحركة الأدبية في الأندلس في هذه الفترة فيقول إن جملة تاريخ الأدب الأندلسي في القرن الثاني وما أدركه الفتح من بقية القرن الأول، لا تعد شيئاً في جنب ما كان يومئذ بالشام والعراق في الدولتين الأموية والعباسية، ولكنها كالجاهلية للأدب الإسلامي^(٢).

ويقول في ذلك جارسيا جوميز: «كان الشعر الأندلس يمر طوال فترة الإماراتين (التابعة لدمشق والمستقلة) - وهو يعني عصر الولاة من ٩١ هـ إلى ٣١٧ هـ - في دور تكوين غامض غير واضح المعالم... ولقد كان في ذلك الحين صدى خافتاً لما كان يتردد في جوانب المشرق القصي من الشعر، ولكن أصوله ثبتت في التربة الأندلسية نتيجة لعاملين: أحدهما بعيد عن الآخر كل البعد: أولهما ما أولاه إياه بعض أمراء الأندلس من العناية كالداحل والناصر وأمراء بني أمية عامة، وما صرفه إليه بعض رؤساء العرب من الاهتمام، فقد كان أولئك وهؤلاء ينفسون بالشعر عما يثقل صدورهم من هموم ويتغنون بأعمالهم ويتغزلون في نسائهم به. وثانيهما انصراف جماعة من النظاميين الذين لا يمتازون بموهبة إلى قوله مثل بكر الكنانى، وعباس بن ناصح، وغريب بن عبد الله، وعبيد الله بن قرلمان وغيرهم»^(٣).

وفي نفس هذا المعنى أيضاً يحدثنا بالثيا قائلاً: «لا تكاد توجد آثار لأى لون من الحياة الفكرية في الأندلس خلال السنوات الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي... وبدخول عبد الرحمن بن معاوية أتاحت للأسبان الظروف المواتية للاتصال بالثقافة الإسلامية المشرقية اتصالاً منظماً^(٤)».

أما عن بقية البيئات الأدبية في الحجاز والشام وخراسان فيمكننا أن نقول مطمئنين إن الحركة الأدبية فيها قد انتقلت إلى العراق شيئاً فشيئاً منذ بداية القرن الثاني حتى استقرت فيه تماماً. ولم تكن في هذه المناطق غير أصدااء واهنة لحركات أدبية سابقة انتهى أمرها. فالحجاز مثلاً أقل نجمه الأدبي منذ انتهى جيل الشعراء

(١) تاريخ آداب العرب ٣ : ٢٦٩

(٢) المصدر نفسه ٣ : ٢٧٢

(٣) الشعر الأندلسي : ٩ ، ١٠

(٤) تاريخ الفكر الأندلسي : ١

الغزليين الذين كانوا يمثلون حركة أدبية قوية في القرن الأول . والحقيقة إن العراق كان منذ القرن الأول أكثر البلاد الإسلامية نشاطا فكريا ، وكان أحقها بأن يكون مركزا للحركة العلمية والإدبية على السواء ، لولا أن الخلافة الأموية اجتذبت العلماء والشعراء حولها في دمشق . فلما زالت تلك الخلافة عاد للعراق مركزه الذي كان جديرا به لعدة أسباب يجعلها أحمد أمين فيما يلي :

أولا : أسس العراق على مدنيات قديمة لها علم ماثور ، فكان السريانيون منتشرين قبل الفتح ولهم مدارس يدرسون فيها الآداب اليونانية ، وكانت في العراق مذاهب نصرانية تتجادل في العقائد ، وكان في الحيرة يونان مثقفون من أسارى الحروب الفارسية اليونانية .

ثانيا : كثرة الحروب والفتن في العراق كانت سببا في ازدهار الجدل .
ثالثا : كان للقبائل العربية النازلة بالبصرة رؤساء وكان هؤلاء الرؤساء أشبه شيء برؤساء القبائل في الجاهلية في السيادة على قبائلهم ووقوف الشعراء ببابهم يتغنون بمدحهم وينشدون مفاخرهم ويهجون أعداءهم ، وهؤلاء الرؤساء كانوا مصدرا لحياة أدبية قوية^(١).

هذه الأسباب إذن — إلى جانب انتقال مركز الخلافة إلى العراق — هي التي جعلت له هذه المكانة في الحياة الأدبية في القرن الثاني وسلطت عليه الأضواء من كل مكان . وكان إنشاء بغداد سببا في جذب شعراء البيئات الإسلامية الأخرى إلى العراق ، فشدوا الرحال إليه من كل مكان ، فأصبح العراق وبغداد بالذات المركز الحقيقي للحياة الأدبية والعلمية في القرن الثاني . ويؤكد ذلك أيضا « يوهان فلك » بقوله : إن الاشتغال بالعربية في غير العراق كان جد ضئيل ، فها هو ذا الأصمعي الذي نزل في أواسط القرن الثاني ضيفا على الهاشمي جعفر بن سليمان بالمدينة ، يقول إنه لم يسمع هناك قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة^(٢).

على أننا نحب أن نؤكد نقطة أخرى تتصل أيضا بدراسة الشعر في البيئات

(١) فجر الإسلام : ١٨٢ وما بعدها .

(٢) العربية : ٦٨

المختلفة ، وهي أننا لم نلاحظ في دراستنا أى طابع إقليمي يمكن أن يوسم به شعر الحجاز مثلاً أو الشام - في القرن الثاني - بحيث تسهل التفرقة بينه وبين شعر أية بيئة أخرى . وقد تنبه إلى هذه الحقيقة صاحباً قصة الأدب في العالم إذ يقولان إن المرء لا يشعر شعوراً قوياً بطابع إقليمي ولا بفنون مختصرة تقتضيها بيئة الإقليم ولا بأوزان مبتكرة تنتج من رفات موسيقية يوحى بها الإقليم ، بل كلهم يقلد العراقيين في مذهبهم ومنحاهم وموضوعاتهم وأساليبهم .^(١) ولعل هذا يرجع - حسبما أعتقد - إلى أن المؤثرات السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية كانت واحدة بالنسبة للمجتمعات المختلفة في أنحاء العالم الإسلامي ، ولهذا لم يكن للشعر في كل بيئة طابع إقليمي خاص يمكن للإنسان أن يضع يده عليه .

هذا عن دراسة البيئات ، أما المدارس الشعرية فدراسة الشعر عن طريقها ليست مأمونة النتائج أيضاً . وأول ما يتبادر إلى الذهن في هذا المجال تساؤلنا : هل وجدت مدارس شعرية في القرن الثاني لها نفس الخصائص والمميزات التي ينبغي أن تكون مدرسة بالمعنى الحديث ، أى مذهباً شعرياً واحداً يجمع شعراء مختلفين تتحد خصائصهم الشعرية واتجاهاتهم الفكرية ؟ إن صاحب الأغاني يحاول أحياناً إيهامنا بوجود هذه المدارس ، فهو يقول مثلاً عن منصور النمرى : « كان شاعراً من شعراء الدولة العباسية من أهل الجزيرة ، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابي وراويته وعنه أخذ ، ومن بحره استقى وبمذهبه تشبه »^(٢) . ونجد ملاحظة شبيهة بتلك في « نكت الهميان » إذ يقول مؤلفه عن الشاعر الأصبهاني « رسته بن أبي الأبيض » : « كان مليح الشعر أشبه الناس شعراً بشار بن برد »^(٣) . ويحاول أحد الباحثين المحدثين أن يجعل بشاراً مؤسس مدرسة شعرية في البصرة لها خصائص معينة تتألف من أبي نواس وحسين الضحاك وسلم الحاسر وابن مناذر وأبان بن عبد الحميد اللاحقي والفضل الرقاشي وغيرهم^(٤) . ولكنه للأسف لم يكشف لنا عن كنه هذه الخصائص ، ولم يجعل الصفة المشتركة بين هؤلاء الشعراء غير نزعة عامة

(١) قصة الأدب في العالم ١ : ٤٠١

(٢) الأغاني ١٣ : ١٤٠

(٣) نكت الهميان في نكت الهميان : ١٥٢ .

(٤) حركات الشيعة المتطرفين : ٢٥٦ .

كالمجنون والميل إلى الزندقة . وفي هذه النزعة وهذا الميل يمكن أن ندخل شعراء كثيرين من القرن الثاني كما سنين فيما بعد .

أما المدارس الشعرية التي استخرجها البهيتي فقد أوضحنا في مقدمة هذا البحث ما فيها من عيوب خطيرة ، كإسباغها عليها صفات وخصائص عامة مما يجعل أغلب شعراء هذا القرن مترددين بين هذه المدرسة وتلك . ثم إن الكاتب لم ينجح في التفرقة الدقيقة بين مدرسة الشعبية العامة ومدرسة الشعبية الخاصة — كما أسماها — بل إنه لم يقدم لنا خصائص شعرية مقنعة يمكن أن تكون مذهباً شعرياً واضح المعالم ، فيصح حينئذ أن ننسب إليه مدرسة بعينها . فالرابطة التي حاول إيجادها بين مجموعة من الشعراء رابطة اتجاه في الأسلوب لا أكثر ولا أقل . أما من الناحية الموضوعية فنجد شعراء المدرسة الواحدة يتفاوتون فيها تفاوتاً شديداً . ويبدو أن فهم أبي الفرج الأصفهاني لمعنى المدرسة الشعرية كان أوضح من فهم البهيتي لها .

أما « عبد الستار الجوارى » فقد حاول دراسة الشعر في بيئة بغداد عن طريق مدارس شعرية عامة قسمها إلى : مدرسة المجددين وقد وصف منهج شعرائها بأنه قد غلب عليهم الهزل والمجون والتحلل والثورة على قواعد الشعر القديم ، ومدرسة المتقنين وكانوا يعنون بالصورة التعبيرية والمعنى الجزئي مع المحافظة على المقاييس الفنية المألوفة في الشعر من جزالة العبارة ورصانة الأسلوب . ومدرسة المقلدين وهي التي كان شعراؤها امتداداً لطبقة الفحول من شعراء العراق^(١) . وهذا التقسيم لا عيب فيه من الوجهة الظاهرية ، ولكنه يبوء بالفشل عند التطبيق إذ يحدث تناقض وتداخل بين شعراء هذه المدارس جميعاً ، وقد لاحظ المؤلف نفسه ذلك العيب فقرر صراحة أن التداخل قائم بين هذه الأقسام ، فيشار تتنازعه الأقسام الثلاثة ، وأبو نواس يتردد بين التجديد والتقليد وهكذا^(٢) .

(١) الشعر في بغداد : ٢١٥

(٢) المصدر نفسه : ٢٢٣

ومما تقدم يتبين لنا عدم جدوى دراسة شعر القرن الثاني عن طريق البيئات أو المدارس الشعرية ، وعلى هذا لم يبق أمامنا من سبيل إلا أن نتبع اتجاهات الشعر في هذا القرن في تلك الأبواب المعروفة التي طرقها الشعراء من قبل ، أو التي تناولوها في هذا العصر لأول مرة .

وقد رأيت أن أقسم هذا الباب إلى فصول ثلاثة : الأول يتحدث عن الاتجاهات والنزعات الموضوعية العامة في شعر القرن الثاني – وما أكثر هذه الاتجاهات والنزعات وما أعماقها – والكشف عن هذه الاتجاهات العامة إنما هو تحديد المجرى العميق الواسع الذي كان الشعر يسير فيه في القرن الثاني .

أما الروافد الصغيرة التي تنطلق من هذا المجرى هنا وهناك وتستقي منه وتعمل عليه ، ويكثر ماؤها بكثرة مائه ، وتجف بجفافه ، فهي الأغراض الشعرية المختلفة التي تحددها وتدل عليها الاتجاهات العامة . وقد رأيت أن الدراسة المنهجية تقتضي قسمة هذه الأغراض إلى فصلين : الأول يتحدث عن الاتجاهات الجديدة التي ظهرت في الشعر العربي لأول مرة في القرن الثاني ، والآخر عن الاتجاهات المحددة ، وهي الأغراض الشعرية التي كانت موجودة من قبل – ربما منذ العصر الجاهلي – ولكن القرن الثاني أمدّها بحياة جديدة ونزعات لم تكن فيها من قبل . وستناول ذلك كله في الفصول التالية .

الفصل الأول الاتجاهات العامة

تغيرت حياة المجتمع الإسلامى تغيراً هائلاً فى خلال القرن الأول فى شتى النواحي كما بينا فى الفصول السابقة، ومن الطبيعى أن تظهر بواكير ثمار هذه الحياة الجديدة فى ذلك القرن، على الرغم من إيماننا بأنه كان عصر حضارة واستعداد للتطور الشامل الهائل الذى حدث فى حياة المجتمع الإسلامى وأدبه فى القرن الثانى . وقد درج الباحثون المحدثون على وصف الأدب فى العصر الأموى كله بأنه امتداد للحياة الأدبية فى الجاهلية ، لم تتغير إلا تغيراً طفيفاً جزئياً اقتضته طبيعة التغير الذى حدث فى العقيدة . ولعل هذه النظرة ترجع فى أصلها إلى اللغويين القدماء الذين نظروا إلى الشعراء الأمويين نفس النظرة التى كانوا ينظرون بها إلى الشعر الجاهلى ، باعتباره موطن الشواهد فى اللغة والنحو ومصدر الاحتجاج . والحقيقة إن الشعر الأموى كان من بعض نواحيه امتداداً للتقاليد الأدبية الموروثة من العصر الجاهلى ، كما كان من بعض النواحي الأخرى مرآة انعكست عليها التطورات العميقة التى جرت فى حياة المجتمع الإسلامى، فالخزائن القبلية مثلاً ظلت مادة غزيرة فى الشعر الأموى ولكنها تحولت إلى فنين يعتبران جديدين فى ذلك العصر — وإن لم تفارقهما سمة الشعر الجاهلى وطريقته وخصائصه — ونقصد بهما فن النقائض — تلك التى كانت تدور رحاها بين جرير والفرزدق ، وجرير والأخطل — والشعر السياسى الذى اقترنت نشأته بظهور الأحزاب السياسية لأول مرة فى تاريخ الإسلام . وكانت الشام والعراق مسرحاً لهذين الفنين اللذين غلبا على الحياة الأدبية فى العصر الأموى . أما بيئة الحجاز فقد شهدت فناً آخر كان ثمرة للعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى حللنا تأثيرها فى الباب الأول . ذلك أن انتقال الحياة السياسية من الحجاز وتدفق الأموال إليه من كل جانب ، ووجود الموالى والرقائق والحوارى المغنيات بكثرة فى نواديه ومجتمعاته ، كل ذلك عجل بظهور ثمرة للحياة الجديدة التى بدأ المجتمع الإسلامى يحياها منذ القرن الأول . وكانت هذه

الثمرة هي فن الغزل الرقيق الذي أصبح فناً مكتملاً قائماً بنفسه بعد أن كان النسيب بالنساء يكاد يكون مقصوراً على مطالع القصائد في الشعر الجاهلي وفي صدر الإسلام . ويصف لنا شوقي ضيف ناحية التجديد في هذا الفن فيقول : « غزل عمر بن أبي ربيعة الذي نقرؤه في ديوانه جديد في تاريخ الشعر العربي من حيث المرأة التي يتغزل بها ، فهي امرأة متحضرة أتيح لها من الفراغ وأسباب زينة الحياة ما لم يتح للمرأة الجاهلية . وفي غزل عمر أبيات كثيرة تصف ملابس هذه المرأة المتحضرة وما كانت تغرق فيه من الحلى والطيب . . . وهذا الغزل إنما يصور عواطف المرأة العربية التي تحضرت في هذا العصر . . . وهناك جديد ثان وهو أن عمر استطاع أن يكتب في هذا الغزل ديواناً ضخماً . وهذه أول مرة نجد فيها شاعراً عربياً يكتب ديواناً في الغزل^(١) » .

والحقيقة أن ناحية التجديد في العصر الأموي إنما بدأت تتبلور وتأخذ شكلاً جديداً عندما اقترب القرن الأول من نهايته ، وذلك بتأثير العوامل المختلفة التي أثرت في شكل حياة المجتمع الإسلامي تأثيراً خطيراً . فنجد قرب نهاية هذا القرن وعند بداية القرن الثاني الشعر المذهبي يبرز على يد الكميت صاحب الهاشميات التي يقول عنها شوقي ضيف إنها : « تعد لونا أدبياً جديداً في تاريخ الشعر العربي ، فمن قبل الكميت لم يتخذ شاعر شعره لإثبات مقالة مذهبية ، أما الكميت فإنه عمد عمداً إلى صياغة مقالة الزيدية في الشعر مستعيناً بكل ما ثقفه العقل العربي في العراق لهذا العصر من صور حجاج وجدال واستدلال^(٢) » .

وهذا الشعر المذهبي في الحقيقة يعد شيئاً جديداً في الشعر العربي ظهر في تلك الفترة فأخذ يزاحم الشعر السياسي شيئاً فشيئاً حتى غلبه قرب نهاية القرن الثاني . ونجد أيضاً قرب نهاية الدولة الأموية ، في بداية القرن الثاني ، حركة تجديدية يحمل لواءها الوليد بن يزيد ، ويشجع على استمرارها وقوتها ، ذلك أنه أول من فتح للشعراء باب الإباحة والتعبير الحر عن مختلف نوازع نفوسهم وشهواتها ، كما أنه أول من أوجد في الشعر العربي القصيدة الحميرية التي تقصر نفسها على الحمير

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي : ١٩٢ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه : ٢٥٥ .

ووصفها واستشعار تأثيرها ، ووصف سقاتها ومجالسها ونداماها . ليس هذا فحسب ولكنه اختار أيضا لصياغة شعره اللغة المألوفة في الحياة اليومية فاقرب من الشعبية إلى حد بعيد ، وأغرى الشعراء بهجر الصياغة القديمة والأسلوب الجزل الرصين ، وبذلك سار خطوة أخرى بعد التجديد الأسلوبى الذى ظهر فى شعر الغزل فى الحجاز ، والذى كان ينجح إلى البساطة والسهولة والركة بتأثير الغناء والموسيقى وترف الحياة الاجتماعية وتطورها على وجه العموم .

ولعل تجديد الوليد فى اختيار الأوزان الرشيقة القصيرة ، واقتصاره على المقطعات دون القصائد التقليدية المطولة ، كان أبرز وأقوى مما ظهر فى غزل الحجاز أيضاً فى القرن الأول . وإلى هذا رأى ذهب شوقى ضيف إذ يقول : « والوليد يميل أكثر من الحجازيين إلى التحريف فى الأوزان والتعديل فيها حتى تتلاءم مع الغناء الجديد . والوليد من هذه الناحية يعد خطوة نهائية للعصر الأموى والتغيرات المختلفة التى حدثت فى أوزان الشعر تحت تأثير الغناء » (١) .

والواقع إننا لا نميل إلى متابعة الباحثين المحدثين أمثال طه حسين وبروكلمن وشوقى ضيف والبهيتى الذين بالغوا فى تجسيم الدور الذى لعبه الوليد بن يزيد فى حركة التجديد فى الشعر العربى فى أوائل القرن الثانى ، وخاصة البهيتى الذى أطلق عليه اسم الأب الفنى للعصر العباسى كله (٢) .

والذى يدعوننا إلى ذلك سبيان : أولهما أنه من غير المعقول بداهة أن يكون الوليد أول شاعر فى هذه الفترة يظهر فى شعره أثر التجديد الذى أشرنا إليه . والسبب الثانى متصل بالأول كل الاتصال : وهو وجود شعراء فى هذه الفترة ظهر فى شعرهم فعلاً أثر ذلك التجديد من ناحية تصويره لنوازعهم العابثة وإباحتهم وإقبالهم على شعر الخمر فى قصائدهم دون غيره لعكوفهم على المحجون والشراب . وكذلك من ناحية شعبية لغتهم الشعرية وأوزانهم الرشيقة الخفيفة . وقد ظهر هؤلاء الشعراء أول ما ظهروا فى الكوفة كما اتضح لى من دراستى . ولعل ذلك يرجع إلى أن الكوفة نشأت بجوار الديانتين اليهودية والنصرانية ، كما جاورت

(١) التطور والتجديد فى الشعر الأموى : ٢٧٢ .

(٢) تاريخ الشعر العربى حتى القرن الثالث : ٣٢٣ .

عقائد السكان الأصليين من مانوية وزرادشتية ومزدكية . وهى إلى جانب ذلك كله وريثة الحيرة التى كانت عامرة بالحانات والأديرة وفنون اللهو والعبث . ثم ظهرت فى الكوفة بعد ذلك فرق الغلاة والمتطرفين فى ثوب التشيع لآل على من أمثال فرقة المنصورىة التى تتبع أبا منصور العجلي وهى تكفر بالقيامة والجنة والنار ، والبيانية التى تنتسب إلى بيان بن سماعيل وتدعى ألوهيته^(١) . وكان من أثر ظهور هؤلاء الغلاة أن ساد التطرف مجتمع الكوفة وسرى فيه تيار الإباحية التى تجعل الملذات وكدها ، وتتحلل ما وسعها من قيود الأخلاق والدين^(٢) . والتقى هذا التيار بشعراء ألفوه وصادف هوى فى نفوسهم فانطلقوا على سجيتهم يلهون ويعبثون ويستجيبون لدواعي شهواتهم ونوازع نفوسهم التى تحللت من كل رابطة إلا رابطة اللذة الحسية من أى طريق جاءت . وبذلك كان شعرهم تعبيراً حراً عن مذهبهم فى الحياة ، وكان فى لغته وأوزانه وأسلوبه متحلاً من القيود القديمة والصور التقليدية ، وبهذا كان شعراء الكوفة هم أول من خرجوا على عمود الشعر العربى منذ بداية القرن الثانى الهجرى . وقد يكون عمار ذو كنان خير مثال لشعراء الكوفة هؤلاء . وعلى الرغم من قلة أشعاره التى وصلت إلينا إلا أن ما أورده الأصفهاني منها يكفى للتدليل بوضوح على مدرسة الكوفة الشعرية - إن صح أن نطلق عليها هذه التسمية - التى بينا أسسها فيما سبق . ومقطوعته التى أولها :

أَشْتَهِي مِنْكَ مِنْكَ مِنْكَ مَكَانًا مُجَنَّبًا^(٣)

تدل على ما سواها من شعره الذى يمثل إباحة لا حد لها ، ومجوناً وعبثاً بالإضافة إلى ما فيه من رقة الوزن وبساطة الأسلوب وتحرره من الجزالة القديمة واقترابه من الشعبية .

(١) الفرق بين الفرق : ١٤٥ .

(٢) يرى محمد جابر عبد العال أن موقف الكوفيين كعارضين وكارهين لبني أمية قد خلق فيهم - فيما يبدو - حالة نفسية دفعت بعضهم أن يجدوا فى الأشربة سبيلاً لنسيان ما هو فيه من قلق نفسى . وإلى جانب هذا العامل السياسى يوجد عامل اقتصادى إذ أغرى بعض أهلها بتذوق اللذة بعد أن أصابوا الثراء بعد الحرمان والفقر ، وهناك عامل اجتماعى يغريهم بذلك إذ كانوا يرون الحيريين الذين خالطوهم يشربون الخمر . (انظر : حركات الشيعة المتطرفين : ١٠٣) .

(٣) الأغاني ٧ : ٥٧

ولعل الوليد بن يزيد تأثر بهذه المدرسة ، بل ربما كان ذلك حقيقة واقعة يدلنا عليها ذلك الإعجاب الشديد الذي كان يبديه الوليد بشعر عمار وأضرابه من شعراء الكوفة ، حتى إنه أمر شراعة بن الزندبوذ أن يسمى له جماعة بنادمهم من « ظرفاء الكوفة » على حد تعبيره ، فسمى له مطيع بن إياس وحماد عجرد من الشعراء ، والمطيعي المغني فكتب في إشخاصهم إليه فأشخصوا ، فلم يزالوا في ندمائه إلى أن قتل .^(١) بل إن البلاذري يذكر أن الوليد كان يحب دخول الحيرة والكوفة .^(٢) فكأنه كان يتصل بشعرائها ويبيتها عن طريق مباشر أيضا . ومطيع وحماد اللذان أشخصا إلى الوليد من أبرز الشعراء المجددين في القرن الثاني ، فلا نستغرب إذن تأثره بهما في شعره . ولعل مما يؤكد هذا التأثير الخطير الذي كان لشعراء الكوفة في حركة التجديد اعتراف أبي نواس نفسه بهذا التأثير في ناحية من نواحيه اذ يقول :

ذَهَبْتُ بِنَا كَوْفَانُ مَذْهَبَهَا وَعَدِمْتُ عَنْ ظُرْفَائِهَا صَبْرِي^(٣)

وعلى أية حال فإن اشتراك خليفة مثل الوليد في تلك الحركة الأدبية الجديدة التي لاحت بوادرها منذ أوائل القرن الثاني قد منحها صفة التشجيع الرسمي ووهبها القوة والنماء ، فانطلقت في طريقها تغزو الشعر العربي في أغراضه المختلفة وفي أقطاره المتباعدة . وقد وصف بروكلمان تطور حركة التجديد تلك قرب نهاية الدولة الأموية — أي في أوائل القرن الثاني — فقال : « كان قالب القصيد — كما هو معروف في الشعر الجاهلي — قد صار طرازا قديما باليا في أواخر عهد الدولة الأموية ، فلم يقو على مسايرة العصر . لقد كانت مواده ومعانيه المتوارثة المحدودة في نطاق ضيق ، مرتبطة بحياة البادية ، فلم تعد تتفق مع الروابط والصلات الجديدة التي تختلف عن علاقات البادية اختلافا كبيرا ، والتي قامت بين السكان المختلطين من العرب والعجم في المدائن الكبيرة التي غدت مراكز الحياة العقلية ، وهكذا انحل عمود الشعر ، فما كان من فقرات القصيد القديم صالحا

(١) الأغاني ١٣ : ٧٦ .

(٢) أنساب الأشراف ٨ : ٣٢١ (مخطوط)

(٣) ديوان أبي نواس : ١٣٧ .

للحياة بعد ، تناوله كبار الشعراء في هذا العصر فصاغوا منه أنواعاً مستقلة من الشعر كالخمريات والغزل والطرديات وغير ذلك^(١) .

أخذت حركة التجديد إذن تسرى في مطلع القرن الثاني وتضطدم في عنف بعمود الشعر القديم ومنهجه وقوالبه ، وبما أعان على وجود هذه الحركة أيضاً — إلى جانب الأسباب التي ذكرناها من قبل — ظهور طبقة جديدة في المجتمع من ناحية جنسها ، إذ كانت مزاجاً بين العرب وبين الأجناس الأخرى التي أخضعها المسلمون في فتوحاتهم . وهذه الطبقة الجديدة المولدة كانت لها خصائص نفسية وطرائق تفكير تختلف بطبيعة الحال عن العرب الخالص الذين كانوا يحملون لواء الشعر حتى نهاية القرن الأول تقريباً ، دون أن ينازعهم فيه منازع . أما في بداية القرن الثاني فقد ظهر هؤلاء الشعراء المولدون الذين يحسنون العربية إلى حد البراعة في قول الشعر مثل زياد الأعجم وأبي عطاء السندی ، كما يحسنون في معظم الأحيان لغتهم الأخرى التي أتتهم من جهة أمهاتهم في الغالب ، فكانت ثقافة اللغتين تمتزج في نفوسهم امتزاجاً قوياً فتتولد عن هذا الامتزاج روح جديدة لا تنظر إلى التراث الشعري القديم نظرة التقديس والرهبة التي كان العربي الأصيل يقفها منه . ولم تعد تلك القوالب الجاهلية القديمة بما فيها من رنة خطائية قوية وجزالة وألفاظ تملأ الفم وتفتح السمع تصادف هوى في نفوس هؤلاء المولدين أو تربطهم بعاطفة ما ، وكذلك انعدمت الرابطة العاطفية أيضاً بين هؤلاء الشعراء الجدد وبين معالم الحياة العربية الجاهلية بما فيها من أطلال ونوى وبعر الآرام وما إلى ذلك . فكان ظهور هؤلاء الشعراء إذن دفعة قوية لحركة التجديد في الشعر في القرن الثاني ، وكان شعرهم صدى لهذه الحركة ، يعبر أصدق تعبير عن اتجاهاتها وخصائصها ومراميها . وأول مظهر من مظاهر ذلك التجديد — كما أشرت من قبل — هو البعد ، إلى حد ما ، عن القصائد المطولة التي كانت أساساً في الشعر الجاهلي القديم ، واختيار المقطعات الصغيرة التي لا تتجاوز بضعة أبيات ، والسبب في هذا يرجع — في رأبي — أولاً إلى طبيعة التطور الحضاري الذي آل إليه المجتمع الإسلامي في ذلك العصر ، فكلما تعقدت أسباب الحضارة وطرائق

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : عصر النهضة العربية ٢ : ٩ .

الحياة تسرب الملل إلى نفوس الناس من الأعمال الأدبية الكبيرة المطولة ، ولم يعد لديهم لا الاستعداد ولا الوقت الذى يتيح لهم أن يقفوا — كما كان الأقدمون يقفون فى عكاظ وغيره من الأسواق — ليستمعوا إلى قصيدة طويلة قد يستغرق إلقاؤها ساعة أو بعض ساعة . لم يعد هذا فى مقدور الناس فى ذلك العصر ، لهذا اندثرت هذه الأسواق تقريباً ، أو على الأقل لم تعد مسرحاً لقول الشعر وتناشده كما كانت فى القديم . فوقت الناس لم يعد ملكا لهم ، بل هو ملك لما يزاولونه من عمل فى التجارة أو فى الزراعة أو فى الصناعة أو فى أى وجه من وجوه الحياة الاقتصادية النشطة فى ذلك العصر . بل قد يكون أيضاً ملكاً لما يعكفون عليه من لذة تأبى حياتهم اللاهية أن تضيعها لقاء سماع قصيدة من المطولات . وهناك سبب آخر — فى رأيي — لانكماش القصائد المطولات فى القرن الثانى وهو أن الشاعر أصبح يحد قصيدته بفكرة معينة ، فلم تكن هذه الفكرة تستغرق منه فى الغالب أكثر من أبيات معدودة بعكس الشاعر القديم — كما نرى فى المعلقات وغيرها — إذ كان ينتقل من فكرة إلى أخرى حتى لتبدو قصيدته كأنها تتكون من بضع قصائد مختلفة الأغراض والأفكار . وإلى هذين السببين يمكننا أن نضيف أيضاً تأثير الغناء . وقد لاحظنا هذا التأثير من قبل فى تطور شكل قصائد الغزل فى الحجاز إبان القرن الأول ، فطبيعة الغناء تفرض على الشعراء — وكان أكثر الشعر يغنى فى القرن الثانى — أن يقتصر شعرهم على المقطعات الصغيرة دون غيرها حتى يمكن تقديمها فى إطار موسيقى جذاب ، وحتى تتواءم معانيها المباشرة مع ما يتطلبه الغناء من تأثير سريع وتطريب .

وموضوع الغناء يذكرنا بناحية أخرى من التجديد — كان له فيها تأثير كبير — ونقصد بها لغة الشعر فى القرن الثانى ، وهذه النقطة سنتناولها بالتفصيل عند دراسة الناحية الشكلية فى شعر هذا القرن . ولعل أهم مظاهر حركة التجديد التى نحن بصدد الحديث عنها هى الثورة على افتتاح القصائد بذكر الأطلال ووصفها والبكاء عليها ، كما كان يفعل الشاعر الجاهلى القديم الذى تابعه فى معظم الأحيان الشعراء الأمويون طوال القرن الأول . وقد قدمنا فيما سبق سبباً معقولاً لتفسير هذه الثورة على بكاء الأطلال وهو أن شعراء ذلك العصر كان معظمهم من المولدين ،

وهؤلاء لا تربطهم بمعالم الحياة العربية الجاهلية عاطفة ما ، فلماذا إذن يصورون في شعرهم ناحية لا توجد في واقع مجتمعهم الذي يعيشون فيه ، إنهم يحيون في حواضر ذات مدنية راقية ، فيها القصور الرائعة وفيها الرياض الزاهرة الموثقة ، فكيف يتركون هذه المظاهر التي تقع عليها عيونهم ليصفوا أطلالا خربة ودمنا بالية ، لعل الكثيرين منهم لم يروها في حياتهم ؟ لقد كان الشعراء العرب يخضعون لعاطفتهم القوية التي تربطهم بموطنهم الأول فكانوا ييكون الأطلال باعتبارها مظهرها بارزا من مظاهر موطنهم القديم . وكانوا في الوقت نفسه أيضا لا يريدون أن يخرجوا على نظام القصيدة العربية القديمة كما تحدد شكلها في العصر الجاهلي ، ربما استجابة منهم لعواطفهم أيضا ، وربما لأن المؤثرات القوية الداعية إلى التجديد لم تكن قد غزت نفوسهم بعد . ولكن ما الذي يدعو الشعراء المولدين - وهم أكثرية في القرن الثاني - إلى وصف الأطلال ، وهم أنفسهم أثر من آثار تلك العوامل القوية التي كانت تؤثر في المجتمع الإسلامي منذ بداية القرن الأول الهجري ، كما أنهم لا يرتبطون بالحياة العربية القديمة بأية عاطفة تدعوهم إلى الحفاظ على تقليد شعري قديم . ولعل أبا نواس يعبر تعبيرا صادقا عن ذلك الشعور الذي كان يخالج المولدين جميعا . كما يتضح لنا في قصيدته التي مطلعها :

مَالِي بِدَارٍ خَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا شُغْلٌ وَلَا شَجَانِي لَهَا شَخْصٌ وَلَا طَلَلٌ

فهو يقول فيها :

لَا الْحَزْنَ مِنْ بَرَأَى الْعَيْنِ أَعْرِفُهُ وَلَيْسَ يَعْرِفُنِي سَهْلٌ وَلَا جَبَلٌ

لَأَنْعَتُ الرُّوْضَ إِلَّا مَا رَأَيْتُ بِهِ قَصْرًا مُنِيفًا عَلَيْهِ النَّخْلُ مُشْتَمِلٌ

فَهَاكَ مِنْ صِفَتِي إِنْ كُنْتُ مُخْتَبِرًا وَمُخْبِرًا نَفَرًا عَنِّي إِذَا سَأَلُوا.. (١)

وقد حاول بعض الباحثين المحدثين أن يهونوا من شأن ذلك التجديد الذي حدث في القرن الثاني ، أو ذاك المظهر من مظاهره ، فمحمد مندور مثلا يرى أن هذه الدعوة من جانب أبي نواس هي في الواقع محاذاة للقديم ، والمحاذاة أخطر

من التقليد ، فأبو نواس — في رأيه — حافظ على الهياكل القديمة للقصيدة العربية مستبدلاً ديباجة بأخرى ، أضف إلى ذلك أن دعوته كانت مشوبة بروح الشعوية والغضب من شأن العرب وتقاليدهم ، كما أنه لم يساير مذهبه إلى النهاية بل كان يعود إلى مذاهب القدماء ترضية للممدوحيه ^(١) . ومندور بكلامه هذا يثير جوانب شتى تتصل بهذا الموضوع . فهو أولاً يؤمن بأن الثورة على الأطلال بدأها أبو نواس ، ثم يتهمه بأنه لم يفعل شيئاً أكثر من استبدال طريقة بأخرى أو تقليد بتقليد آخر ، فبدلاً من افتتاح القصائد بوصف الأطلال تفتح بوصف الخمر مثلاً كما أراد أبو نواس . ثم يتهم مندور أبا نواس بأن دعوته تلك لم تكن على أية حال بريئة لوجه الفن والشعر وحركة التجديد ، بل كان الدافع إليها شعوبيته وتعصبه ضد العرب وما في حياتهم القديمة من جفاء وغلظة . وأخيراً يقرر مندور أن أبا نواس لم يكن جاداً في دعوته ولهذا تخلى عنها في قصائد مديحه ليفوز برضاء ممدوحيه . وهذه النقط التي أثارها مندور تبدو لأول وهلة مقنعة بالنسبة لما فيها من حقائق أو ما يبدو أنه حقائق ، ولكن الأمر ليس كذلك ، فأبو نواس لم يكن وحده في الدعوة إلى نبذ الأطلال وافتتاح القصائد بوصف آخر يكون من واقع الحياة الجديدة ، ولكن عدداً من شعراء القرن الثاني كانوا يدعون إلى هذه الدعوة ويطبقونها في شعرهم ، ولعل أول من ذهب هذا المذهب مطيع بن إلياس فقد ذكر له صاحب الأغاني قوله :

لَأَحْسَنُ مِنْ بَيْدٍ بِحَارِبُهَا الْقَطَا وَمِنْ جَبَلِي طَى * وَوَصَفَكَمَا سَلَعَا
تَلَا حُظَّ عَيْنِي عَاشِقِينَ كِلَاهُمَا لَهُ مُقْلَةٌ فِي وَجْهِ صَاحِبِهِ تَرَعَى ^(٢)

ولهذا السبب — فيما يبدو — جعل نكلسون مطيع بن إلياس من أوائل المجددين ^(٣) .

والبهيتي يرى في نص لصاحب الأغاني « أنه نشأ في الكوفة في عهد مطيع طائفة من الفتيان تذهب مذهبا متحررا في الحياة وترى جعل الشعر أداة للتعبير

(١) النقد المنهجي عند العرب : ٥٩ .

(٢) الأغاني ١٢ : ١٠٣ .

(٣) A Literary History of the Arabs : ٢٩١ .

عن الحياة الجديدة ، وأن أبا نواس تعصب لهذا الرأي بعد ذلك في مطالبته بترك الأطلال^(١) .

ونجد الشاعر محمد بن أمية يجعل اشتياقه لحبيته « خداع » لا للأطلال في قوله :

خَطَرَاتُ الْهَوَى بِذِكْرِ خِدَاعٍ هِجْنُ شَوْقِي لِأَدَارِسَاتِ الطُّلُولِ^(٢)
ونجد أبان بن عبد الحميد اللاحقي يمدح الفضل بن يحيى فيبدأ قصيدته بالغزل والحرر حيث يقول :

نَعِمْنَا لَيْلَةَ الْأَنْعَامِ حَيْثُ الْعَرَجُ يَنْعَرِجُ
بِنَاعِمَةٍ كَمِثْلِ الْبَدْرِ شَابَ دَلَالُهَا غَنَجُ
تُعَادِينِي الْمَعَارِفَ عَوْدُهَا وَالصَّنْجُ وَالرَّنْجُ
بِكَفِّي شَادِنٍ لَمْ أُنْسُهُ فِي طَرْفِهِ غَنَجُ
لَهُ نَعَمَاتٌ قَيْنَاتٍ بِهَا الْأَرْوَاحُ تَخْتَلِجُ
أَحِبُّ مِنَ الْغِنَاءِ مَلِيحٌ مَا يُقَاعُهُ هَزْجُ
أَدِيرُ سُلَاقَةً صِرْفًا كَأَنَّ صَبِيحَهَا وَدَجُ
كَذَاكَ الْعَيْشُ إِذْ قَلْبِي رَحَى بِالْهُ بَلَجُ^(٣)

ونجد أشجع السلمي أيضا يمدح الرشيد نفسه بقصيدة — ولعلها في غير الرشيد — فيبدؤها بهذا الوصف الماजन للخمر :

لَا عَيْشَ إِلَّا فِي جُنُونِ الصُّبَا فَإِنْ تَوَلَّى فَجُنُونِ الْمُدَامِ
كَأْسٌ إِذَا مَا الشَّيْخُ وَالْيَ بِهَا خَمْسًا تَرْدَى بِرِدَاءِ الْغُلَامِ
ظَاهِرَةُ الْحُسْنِ إِذَا جُرَّدَتْ لَطِيفَةُ الْمَسَلِكِ بَيْنَ الْعِظَامِ
لَمْ يُشَبِّ الدَّهْرُ لَهَا مَفْرَقًا أَخْرَجَهَا مِنْ دَنِّهَا بِنْتٌ عَامِ^(٤)

(١) تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث : ٣١٩ .

(٢) الأغاني ١٢ : ١٤٥ .

(٣) الأوراق (أخبار الشعراء) : ١٥ .

(٤) المصدر نفسه : ١١٣ .

وهذا منصور النمرى يمدح الرشيد أيضا فيبدأ قصيدته بالغزل والحرر على طريقة المجتدين كما في قصيدته التي مطلعها :

يا زائرينا من الخيام حياكما الله بالسَّلام^(١)

ونجد سلما الخاسر يمدح المهدي فيبدأ قصيدته بالغزل مستهزئا بالنوافخ في البرى أو حداة الإبل فيقول :

حَيَّ الْأَجِبَةَ بِالسَّلامِ أَعْلَى وَدَاعٍ أَوْ لِمَامٍ

لَمْ يَبْقَ مِنْكَ وَمِنْهُمْ غَيْرُ الْجُلُودِ عَلَى الْعِظَامِ

وَلَقَدْ سَكِرْتُ مِنَ الْهَوَى سُكْرَ الْغَوَى مِنَ الْمُدَامِ

فَالْقَلْبُ مَضْطَرِبُ الْحَشَا وَالْعَيْنُ نَافِرَةٌ الْمَنَامِ

فَإِذَا عَزَمْتَ فَأَمْضِ هَمَّكَ مَ بَيْنَ مَحْمُودٍ وَذَامِ

وَدَعِ النَّوَافِخَ فِي الْبُرَى يَسْبِخُنَ فِي بَحْرِ الظَّلَامِ^(٢)

وعبد الله بن أبي أمية ينعي على الأطلال أيضا فيقول :

دَعْ دَارِسَاتِ الطُّلُولِ وَكُلُّ رَيْعٍ مَجِيلِ

وَلَا تَصِفْ دَارَ سَلَمَى ذَرَاهَا لِكُلِّ جَهُولِ

وَلَا تَقُلْ آلُ لَيْلَى قَدْ آذَنُوا بِرَحِيلِ...^(٣)

وبشار نفسه ألم يستهزئ بالبكاء على الأطلال بالرغم من أنه التزمه في أكثر قصائده مديحه فقال :

كَيْفَ يَبْكِي لِمَحْبِسٍ فِي طُلُولِ مَنْ سَيَبْكِي لِحَبْسٍ يَوْمَ طَوِيلِ

إِنْ فِي الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ لَشُغْلًا عَنْ وَقُوفٍ بِرَسْمِ دَارِ مَجِيلِ!!^(٤)

ومما تقدم يتبين لنا أن أبا نواس لم يكن وحده في الثورة على بكاء الأطلال ،

(١) الشعر والشعراء : ٨٣٧ .

(٢) طبقات ابن المعتز : ١٠٢ . والبرى جمع برة وهي حلقة في أنف البعير .

(٣) طبقات ابن المعتز : ٢٢٣ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٤ .

ولكنها كانت ثورة عامة بين الشعراء لم يدع إليها فرد بعينه ، وكانت نتيجة تطور كبير حدث في مفهوم الشعر في القرن الثاني بتأثير العوامل المختلفة التي شرحنا أمرها في الباب الأول . أما أن هذه الدعوة كانت محاذاة للقديم فأمر نكره أشد الإنكار ، ذلك أن هؤلاء الشعراء الذين دعوا إلى نبذ الأطلال باعتبار أنها مظهر منعدم في حياتهم لا تقع عليه أبصارهم لم يجعلوا لا فتاح قصائدهم رسما معينا لا يتعداه الشعراء ، ولكن الملاحظ أنهم كانوا يستغلون بداية قصائدهم في التعبير الحر عن أنفسهم ومشاعرهم ونوازع حياتهم ، فوصف أبان اللاحقى هذا المجلس اللاهى ، أو وصف أشجع السلمى لتأثير الخمر في النفوس ليس شيئا واحداً ، كما أنه ليس صورة متبعة مفروضة على الشعراء بحيث يجب عليهم أن يقولوا في مثلها بدلا من وصف الأطلال ، ولهذا فإننا نجد في مقدمات قصائد المديح شعرا في الحكمة أو في النسيب ، لا على الصورة التقليدية القديمة ، ولكنه عرض حقيقى لمشاعر صادقة لا تكلف فيها ولا زيف . وأما تأثير الشعوية في نشأة هذه الدعوة فيرده ما ذكرناه من قبل أن هذه الدعوة كانت عامة بين الشعراء في القرن الثاني ولم تكن دعوة أبى نواس وحده ، ثم إن أبى نواس لم يكن ظاهر الشعوية كبشار ابن برد مثلا ، ومع ذلك فنحن لا نجد فيها وصلنا من شعر بشار غير هذين البيتين اللذين نبذ فيهما الأطلال وذكرناهما فيما سبق ، ونجد بشارا على العكس من ذلك أكثر شعراء القرن الثاني تمسكا بوصف الأطلال في قصائد مديحه ، وهذا راجع فيما اعتقد إلى طبيعة دراسته الأولى في بنى عقيل ، إذ نشأ نشأة عربية خالصة تكاد تكون بدوية في مظهرها ونخبها أيضا . أما النقطة الأخيرة التي أثارها مندور فهي حقيقية في جوهرها ولكن ليس بالصورة التي وضعها بها مندور . فأبو نواس كان يعود إلى مذاهب القدماء في مدائحه ، هذا صحيح ، أما أنه لم يساير مذهبه إلى النهاية فغير صحيح . وهناك فرق كبير بين المعنيين ، فما يقوله مندور يوهنا أن أبى نواس بدأ حياته بهذه الدعوة الجديدة وانتهى بالعودة إلى المذهب القديم ، وهذا أمر ينفى شعر أبى نواس نفسه إذ نجده يتردد في مدائحه بين المذهب القديم والمذهب الجديد طوال حياته ، فهو أحيانا يمدح هارون الرشيد على الطريقة القديمة فيذكر

الأطلال ويصف راحلته التي أوصلته إلى الممدوح ، وما إلى ذلك ، كما في قوله :

حَيُّ الدِّيَارِ إِذَا الزَّمَانُ زَمَانُ وَإِذِ الشُّبَاكُ لَنَا حَرَى وَمَعَانُ
يَا حَبْدًا سَفْوَانُ مِنْ مُتَرَبِّعٍ وَلَرُبَّمَا جَمَعَ الْهَوَى سَفْوَانُ
وَإِذَا مَرَرْتُ عَلَى الدِّيَارِ مُسَلِّمًا فَلِغَيْرِ دَارٍ أُمَيْمَةَ الْهَجْرَانُ
إِنَّا نَسَبْنَا وَالْمَنَاسِبُ ظَنَّةُ حَتَّى رُمِيتَ بِنَا وَأَنْتَ حَصَانُ
لَمَّا نَزَعْتُ عَنْ الْغَوَايَةِ الصَّبَا وَخَدَتُ بِي الشَّدَنِيَّةُ الْمِذْعَانُ
سَبَطُ . مَشَا فِرْهَا دَقِيقُ خَطْمُهَا وَكَأَنَّ سَائِرَ خَلْقِهَا بُنْيَانُ... (١)

وأبو نواس أحيانا أخرى يمدح الرشيد فيبدأ قصيدته بأبيات قليلة يذكر فيها الأطلال . وكأنما كان ذلك تعمية منه لما يضمه في نفسه من رغبة في وصف الخمر . ويبدو أنه كان متردداً حذراً في مدح الرشيد على المذهب الجديد فكان لابد له من هذه التعمية في تلك القصيدة التي نتحدث عنها وهي :

لَقَدْ طَالَ فِي رَسْمِ الدِّيَارِ بُكَائِي وَقَدْ طَالَ تَرْدَادِي بِهَا وَعَنَائِي
وَبَعْدَ أَبِياتٍ قَلِيلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ الَّتِي جَرَى فِيهَا أَبُو نَوَاسٍ عَلَى مَذْهَبِ
الْأَقْدَمِينَ ، فَاجَأَ الرَّشِيدَ بِهَذِهِ النُّقْلَةِ الْجَدِيدَةِ فِي شَعْرِ الْمَدِيحِ فَقَالَ :

فَلَمَّا بَدَأَ لِي الْيَأْسُ عَدَيْتُ نَاقَتِي عَنْ الدَّارِ وَاسْتَوَلَى عَلَى عَزَائِي
إِلَى بَيْتِ حَانَ لَا تَهْرُكُ لَابُهُ عَلَيَّ وَلَا يُنْكِرُنَ طَوْلَ ثَوَانِي

.....

وَكَأْسٍ كَمِصْبَاحِ السَّمَاءِ شَرِبْتُهَا عَلَى قُبْلَةٍ أَوْ مَوْعِدٍ بَلَقَاءِ^(٢) .. إلخ

ويبدو أن هذا المذهب الجديد في شعر المديح قد صدم الشعور الديني عند هارون ، إذ يذكر لنا الرواة أن وجهه قد تغير عند سماع تلك الأبيات في وصف الخمر وذكر الحان ، وأراد أن يأمر بأبي نواس لولا أنه انتقل إلى مديحه الذي سر

(١) ديوان أبي نواس ط . فاجتر : ١٠٦ .

(٢) ديوان أبي نواس ط . فاجتر : ١١٩ .

الخليفة^(١). ويبدو أيضا أن قصيدة أبي نواس هذه كانت أول قصيدة على المذهب الجديد يمدح بها خليفة ، لأن المبرد يقول : « ما علمت قائلا مدح خليفة فنسب بمثل هذا النسب . . . ولقد كان الرشيد يتحاشى الإقرار بحضرته أو ببحث يذكر قبله أو شرب كأس وما أشبه . . . إلا أن أبا نواس كان ينسب في المديح الجليل الذى هو شأنه وفيه تصرفه وجل مذهبه^(٢) » .

ويظهر أن هذه المحاولة الأولى من جانب أبي نواس لم تتكرر مع الرشيد بعد ذلك فلزم أبو نواس فى مديحه له المذهب القديم . ولكن الموقف تغير بعد وفاة هارون وتولى الأمين الخلافة ، فمع الحرية الدينية التى كان يمارسها الأمين نفسه وجد أبو نواس الفرصة سانحة للخروج على المذهب القديم فى المدح ، وكانت أولى قصائده فى مدح الأمين - يوم تهنئته بالخلافة - على المذهب الجديد . وقد قدم لها بتمهيد عميق الدلالة بين فيه فساد المذهب القديم صراحة إذ قال : « يا أمير المؤمنين : إن شعراء الملوك قبلى شيبوا بالمدح والحجر ، والشاء والبقر ، والصوف والوبر ، فغلظت طباعهم ، واستغلقت معانيهم ، ولا بصر لهم بامتداح خلفائنا . فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى الإنشاد » فلما أذن له الخليفة بدأ قصيدته بوصف الخمر مباشرة دون تعمية أو تورية إذ قال :

أَلَا دَارَهَا بِالْمَاءِ حَتَّى تُلَيْنَهَا فَلَنْ تُكْرِمَ الصُّهْبَاءَ حَتَّى تُهَيِّنَهَا^(٣)

وحين أحس أبو نواس برضى الخليفة عن هذا المذهب الجديد تقدم خطوة

أخرى فى قصيدة ثالية فزج وصف الخمر بالغزل بالمذكر فقال :

يَسْقِيكَهَا ذُو قُرْطَاقٍ يُلْهِى وَيُوْذَى مَنْ حَبَسَ
خَيْثُ الْجُفُونِ كَأَنَّهُ ظَنَى الرِّيَاضَ إِذَا نَفَسَ
أَضْحَى الْإِمَامُ مُحَمَّدٌ لِلدِّينِ نُورًا يُقْتَبَسُ^(٤) .. إلخ

(١) ديوان ابن نواس (ط . فاجتر) : ١٢١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه : ١٢٠ .

(٤) المصدر نفسه : ١٣٣ .

وقد استغل هذا المذهب الجديد خصوم الأمين في السياسة فأزروا عليه ، وأعلنوا للناس مروقته عن الدين ، ولا كيف يسمح لشاعره بمثل هذه القصائد التي لا يجب أن تقال إلا في الحانات ، ولكن الأمين أمير المؤمنين وخليفة المسلمين يطرب لها ويستمتع إليها . ولهذا السبب اضطر الأمين أن يأمر أبا نواس بهجر مذهبه الجديد في مدحه والعودة إلى المذهب القديم المؤلف ، وكان هذا الأمر عنيفا على أبي نواس ولكنه لم يجد بدا من الإذعان له ، وهو يصور لنا ذلك كله في قوله :

أَعْرِشْ عَرْكَ الْأَطْلَالِ وَالْدَّمَنَ الْقَفْرَا فَقَدْ طَالَ مَا أَزْرَى بِهِ نَعْتُكَ الْخَمْرَا
دَعَانِي إِلَى وَصْفِ الطُّلُولِ مُسَلِّطًا تَضِيقُ ذِرَاعِي أَنْ أَجُوزَ لَهُ أَمْرَا
فَسَمِعًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً وَإِنْ كُنْتَ قَدْ جَشِمْتَنِي مَرَّ كِبَاوَعْرَا^(١)

والحقيقة إن تردد أبي نواس وأضرابه من الشعراء بين المذهبين القديم والحديث الذي ظهر أثره في قصائد المدح لم يكن راجعا إلى تأثير الخلفاء أو ضغط خصومهم السياسيين فحسب ، ولكنه كان يتعلق بمشكلة أوسع وأعمق من تلك ، إذ كان جزءاً من الخصومة التي نشبت بين القدماء والمحدثين . ويمثل القدماء رواة الشعر وعلمائهم الذين كانوا يتشبهون بالماضي ، ويرون أن الشعر الجاهلي هو المثل والنموذج الذي يجب أن يحتذى ، ويحاربون كل تطور جديد في الشعر يخرجهم عن تلك الحدود التي عاش فيها الشعر الجاهلي . أما المحدثون فهم أولئك الشعراء الذين نزعوا إلى التجديد في شعرهم - كما رأينا - محاولين التكيف مع الحياة الجديدة ، دون النظر إلى النماذج الكلاسيكية التي يرددونها الرواة من قديم . ومن هنا نشب الصراع بين الفريقين ، وتعصب الرواة ضد الشعراء المجددين فكانوا لا يروون شعرهم ، ويحاولون الانتقاص منه ما أمكن ، فابن الأعرابي يقول : « إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل أبي نواس وغيره ، مثل الريحان يشم يوما ويلوى فيرمي به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا »^(٢) .

ويمكننا أن نحصر عناصر الخصومة بين القدماء والمحدثين في اختلافهم على

(١) ديوان أبي نواس (المطبعة الحميدية) : ٢٥٦ .

(٢) الموشح : ٢٤٦ .

جزئيات عمود الشعر ، وعلى نهج القصيدة أيضاً ، وفي الإيمان بفكرة استنفاد القدماء للمعاني . فأغلب ما في هذه الحصومة كان دائراً حول تجديد المحدثين لمعاني الأقدمين ، وذلك عن طريق وضعها في صورة شعرية جديدة^(١) . وقد رد ابن رشيق على أولئك الأقدمين الذين يؤمنون بفكرة استنفاد المعاني ، فقال لهم إن القدماء نصبوا الأعلام للمتأخرين ، ولكن المعاني أبداً تتردد وتتولد ، والكلام يفتح بعضه بعضاً ، وإن للمحدثين توليدات وإبداعات عجيبة لم تقع للقدماء ، وخاصة لأن المعاني اتسعت باتساع الناس في الدنيا وانتشار العرب في الأرض وأنخذهم بمظاهر الحضارة المختلفة^(٢) .

والحقيقة أن موقف العلماء والرواة المتمسكين بالقديم كان شاذاً جامداً ، يتسم بالتعصب ولا يعترف بتطور الزمن وتطور المجتمع الإسلامي . وقد هاجم ابن قتيبة مثل هؤلاء العلماء والرواة لأنه رأى بعضهم يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه لمحدث^(٣) .

ولو أننا بحثنا في عمود الشعر ونهج القصيدة لوجدنا فيهما أهم أسباب الحصومة والخلاف بين القدماء والمحدثين ، إذ نجد العلماء والرواة لا يعدون الشعر شعراً إلا إذا كان جارياً على النظام الجاهلي القديم ، أي في إطار عمود الشعر ونهج القصيدة العربية . ولكن المحدثين خرجوا على ذلك العمود في أكثر من نقطة وثاروا على النهج القديم ، تلك الثورة العارمة التي رأينا صداها في افتتاح قصائد المديح . ولو أننا قارنا بين النهج القديم والنهج الحديث الذي سار عليه الشعراء المجددون لتبين لنا الفرق الواسع بين الطريقتين ، والأهمية الكبرى لما دعاها الكتاب المحدثون بالثورة على الأطلال . ولعل ابن قتيبة هو أول وأهم من شرح لنا نهج القصيدة العربية وأوقفنا على نظامها المحدد إذ يقول : « سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتداء فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا ، ونخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ، إذ كان نازلة الوبر في الحلول والظعن ، على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء

(١) مشكلة السرقات في النقد العربي : ٢١٣ .

(٢) العمدة ٢ : ١٨٣ .

(٣) الشعر والشعراء : ٦ .

إلى ماء ، وانتجاعهم الكلاً ، وتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه . . . فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له ، أعقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهو وسرى الليل وحرّ المهجير وإنضاء الراحلة والبعير . فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماح ، وفضله على الأشباه . فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام . فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيمل السامعين»^(١).

هذا هو نهج القصيدة العربية القديمة وهذه هي أقسامها التي ليس للشاعر مناص من اتباعها ما دام يريد لشعره الحياة والذيق في أوساط النقد والرواة . أما أولئك الذين أرادوا أن يجددوا فيخرجوا على هذه الأقسام التقليدية ، فقد قوبلوا بمعارضة شديدة من جانب العلماء والرواة الذين لم يسمحوا لهم حتى باتباع هذه الأقسام ولكن في صورة حديثة يقتضيها التطور الحضارى ، فابن قتيبة يقول : « وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكى عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير . أو يرد على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيع والحنوة والعرارة . . . »^(٢).

ولعلنا ندرك الآن هذا الفرق الكبير بين طريقة القدماء وطريقة المحدثين ، كما ندرك قيمة هذه الثورة التي أحدثها المجددون في شعر القرن الثانى بنبد بكاء الأطلال والوقوف عليها ، بالرغم من المعارضة القوية التي لقيتها دعوتهم من العلماء والرواة المتمسكين بالأقسام القديمة لنهج القصيدة ، لا يريدون أن يجددوا عنها أو يخضعوا لتطور الزمن .

(١) الشعر والشعراء : ١٤ ، ١٥ .

(٢) الشعر والشعراء : ١٨ .

أما عمود الشعر كما فهمه أولئك العلماء والرواة فهو عبارة عن سبعة أبواب كما يقرر المرزوقي: « شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة في الوصف ، والمقاربة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتثامها على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما »^(١). ولكل باب من هذه الأبواب معيار في مقياس العلماء ، فمقياس المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب ، فإذا انعطف عليه جنبنا القبول والاصطفاء مستأنساً بقرائنه ، خرج وافياً ، وإلا انتقص بمقدار شوبه ووحشته . ومقياس اللفظ الطبع والرواية والاستعمال . ومقياس الإصابة في الوصف الذكاء وحسن التمييز . ومقياس المقاربة في التشبيه الفطنة وحسن التقدير ، فأصدقه ما لا ينتقض عند العكس ، وأحسنه ما أوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما ، ليبين وجه التشبيه بلا كلفة إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به وأملكها له ، لأنه حيثئذ يدل على نفسه ويحميه من الغموض والالتباس ، ومقياس التحام أجزاء النظم والتثامه على تخير من لذيذ الوزن ، الطبع واللسان . وهم يرون أن تكون القصيدة كالبيت ، والبيت كالكلية في استواء البنيان . ومقياس الاستعارة الذهن والفطنة ، وملاك الأمر تقريب التشبيه في الأصل حتى يتناسب المشبه والمشبه به . ومقياس مشاكلة اللفظ والمعنى وشدة اقتضائهما للقافية ، طول الدربة ودوام الممارسة ، وأما القافية فيجب أن تكون كالموعد به المنتظر ، يتشوقها المعنى بحقه ، واللفظ بقسطه ، وإلا كانت قلقة في مقرها^(٢).

ومن هذا التحليل لعناصر عمود الشعر عند العرب يتبين لنا أنهم كانوا يعنون به القواعد الفنية الصحيحة لقول الشعر ، بحسب ما يرونه من أسرار الجمال الفني في الأدب . وهذه القواعد شاملة للمعنى واللفظ والصور الفنية وأسلوب الشعر . نحدد أولئك جميعاً تحديداً منطقياً دقيقاً ، لا ينبغي للشاعر أن يخجل بشيء منه وإلا اعتبر خارجاً عن عمود الشعر العربي ، أو بمعنى آخر إنه خرج على قواعد

(١) شرح الحامسة للمرزوقي : ١ : ٩

(٢) شرح الحامسة للمرزوقي : ١ : ١٠ ، ١١ .

الشعر العربي وفنيته وطبيعته . وحيثئذ يكون بعيداً عن الذوق العربي واستحسان الناس له ^(١).

ومما لا شك فيه إن الشعراء المجددين في القرن الثاني قد خرجوا على هذا العمود في بعض نواحيه ، ودليلنا على ذلك محاصمة العلماء والرواة المتمسكين بالتقديم لأولئك الشعراء . فابن الأعرابي مثلاً يقول عن شعر المحدثين : « إن كان هذا شعراً فما قالته العرب باطل » ^(٢) وإسحق الموصلي الذي كان يتعصب للقدماء أيضاً كان لا يعد أبا نواس شيئاً لأنه (ليس على طريق الشعراء) ^(٣) . ولعلنا نستطيع أن ندرك مخالفة الشعر الجديد في القرن الثاني للعمود الشعر التقليدي من ذلك النص الذي يرويه ابن رشيقي عن ابن وكيع ويقول فيه : « إن أشعار المولدين إنما تروى لعذوبة ألفاظها ورقتها وحلاوة معانيها وقرب مأخذها . ولو سلك المتأخرون مسلك المتقدمين في غلبة الغريب على أشعارهم ووصف المهامه والفقار ، وذكر الوحوش والحشرات ، ما رويت ، لأن المتقدمين أولى بهذه المعاني » ^(٤) إذن هنالك فروق واضحة بين شعر المحدثين وشعر الأقدمين ، فروق في نهج القصيدة — كما رأينا — وفروق في القواعد الفنية للشعر أيضاً — تلك التي حددها العمود التقليدي — فميار المعنى في هذا العمود من حيث قبول العقل له والفهم على السواء ، يبدو منطقياً من الوجهة الظاهرية ومقبولاً عند جميع النقاد والشعراء في كل عصر وفي كل مكان ، ولكن تفسير هذه النقطة من وجهة عملية لا بد أن يكون محل خلاف . وقد كان كذلك بالفعل ، فهو مصدر من مصادر الخصومة بين القدماء والمحدثين . وإلا هل كان من الممكن أن يهضم ابن الأعرابي — الذي يعيش بعلمه وروحه في التراث الجاهلي والبيئة العربية القديمة — معنى لأبي نواس متأثراً بعلم الكلام كما في قوله :

يا عاقِدَ القَلْبِ مِنِّي هَلَّا تَذَكَّرْتَ حَلًّا
تَرَكَتَ مِنِّي قَلِيلًا مِنْ القَلِيلِ أَقَلًّا
يَكَادُ لَا يَتَجَزَّأُ أَقَلُّ فِي اللَّفْظِ مِنْ لَا

(١) انظر : مشكلة السرقات في النقد العربي : ١٨٩ (٢) الموشح : ٣٠٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٦٤ .

(٤) الصدة ١ : ٥٨ .

أو ما شابه ذلك من المعانى التى أدخلتها الحضارة الجديدة وثقافة العصر التى نقلت المجتمع الإسلامى نقلة فكرية ضخمة ؟ ! أما عيار اللفظ فى عمود الشعر التقليدى الذى حددوه بالطبع والرواية والاستعمال فقد خرج عليه المحدثون فى القرن الثانى خروجاً متعمداً مقصوداً ، لينقلوا الشعر من أرستقراطية البيئات العلمية ومجالس البلاط إلى الشوارع والأزقة حيث تحيا طبقات الشعب الغالبة على المجتمع ، وبذلك تراجعت إلى حد كبير الألفاظ الجزلة الضخمة التى كانت تملأ الفم وتفتح السمع ، وغلبت على شعر المحدثين فى القرن الثانى - وخاصة فى قصائدهم التى ينطلقون فيها مع أنفسهم ويتجاوبون فيها مع الروح الشعبية السائدة - الألفاظ السهلة الرقيقة الخافتة التى تعتبر ضعيفة فى بيئات العلماء والرواة ، كما يعتبر بعضها ساقطاً من ناحية اللغة ، وهى الألفاظ التى كان الشعراء يلتقطونها من أفواه العامة فى السوق أو الطريق ، لا من أفواه علماء اللغة ورواتها الذين كانوا مهتمين فى هذا القرن بجمع شاردتها وواردها .

وأما بناء القصيدة والنحam أجزائها كما جاء فى العمود التقليدى ، فقد حدث فيه تغير كبير فى القرن الثانى ، إذ انتهت - كما رأينا - أو كادت القصائد المطولات التى كانت تحوى أغراضاً كثيرة ، وكان نجاح الشاعر القديم يتوقف إلى حد كبير على براعته فى الانتقال من غرض إلى غرض دون أن يحس القارئ أو السامع بهذه النقلة أو يفاجأ بها . ولكن أشعار المحدثين الجديدة كانت فى معظمها عبارة عن مقاطعات قصيرة تحوى كل منها غرضاً بعينه يستغرق القطعة من أولها إلى آخرها . ولهذا لم يعد البيت الشعرى وحدة منفصلة - كما كان فى الشعر القديم - قائمة بذاتها ، ولكنه أصبح جزءاً لا يتجزأ من القصيدة لا يمكن رفعه منها دون أن يصيب الخلل معناها ومبناها معاً .

وأما التشبيه والاستعارة ، أو الصورة الشعرية بوجه عام ، فقد دخلها تغير كبير عما استقر عليه وضعها فى العمود التقليدى للشعر . وسنفرد لهذه الناحية فصلاً خاصاً من هذا البحث .

ومن هذه المقارنة السريعة يتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن الشعر فى القرن الثانى قد تجدد فى الشكل والمحتوى على السواء ، وأنه غاير عمود الشعر العربى

القديم في أكثر من موضع ، كما خرج على نهج القصيدة التقليدية ، وسيوضح لنا هذا التجديد تماماً في الأجزاء التالية من البحث .

وما يستلفت النظر أن كثيراً من الباحثين المحدثين يشككون في قيمة هذا التجديد وأهميته ، فنجد « فيليب حتى » مثلاً يقع في تناقض غريب حين يقول : « كانت أشعار الجاهلية — وهي تمثل عصر البطولة في الشعر العربي — نموذجاً لشعراء العصر الأموي ، ثم قام شعراء العصر العباسي فاعتبروا الشعر الأموي من الأدب الكلاسيكي ، ولكن ظهرت في العصر العباسي بواعث جديدة حملت أرباب الشعر على الانحراف عن هذا الأسلوب العرفي المدرسي ، فسلكوا في أشعارهم طرقاً جديدة . ومن هذه البواعث الحركة الدينية التي نشطها العرش العباسي ، والمؤثرات الثقافية والروحية والاجتماعية المنبعثة بالأكثر من حياة الفرس ، ثم الرعاية التي خص الخلفاء بها الشعراء ، والصلات والعطايا التي أغدقوها عليهم . ومع ذلك فقد ظل فن القريض أشد الفنون محافظة على القديم واستمر يفيض بروح البادية طوال العصور التي مر بها^(١) » .

ومثل هذا الرأي القائم على نظرة التشكك إلى قيمة التجديد في القرن الثاني نجاهه عند طه حسين إذ يقول : « كل ما عرف العرب من اختلاف في الشعر بين القدماء والمحدثين : اختلاف في اللفظ نشأت عنه مدرسة مسلم بن الوليد وغيره من أصحاب البديع ، واختلاف في المعنى نشأت عنه مدرسة أبي نواس وغيره من الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد ولم يتكلفوا بديعاً . . . وهو على خطره لم يتغير الشعر العربي في موضوعه ولا في صورته ولا في نوعه . ولم يتغير في لفظه ومعناه إلا تغيراً قليلاً جداً . بقيت القصيدة كما كانت معتمدة على وحدة القافية والوزن غير معنية بوحدة المعنى . وبقى موضوع الشعر كما كان مدحاً وهجاء ورثاء ووصفاً وغزلاً ، وإنما تجددت هذه الموضوعات دون أن تتغير ، ولم يكن تجدها جوهرياً ولا مطرداً^(٢) » .

وهذه الآراء التي يقولها طه حسين محل نظر ، ونحن نرى أنها لم تصور شعر

(١) تاريخ العرب (مطول) : ٤٩٢ .

(٢) حديث الأربعاء ٢ : ٨ .

القرن الثاني بما يستحقه ، وسنخالف في دراستنا هذه الآراء مخالفة ظاهرة .

والى مثل هذه الفكرة أيضاً ذهب أحمد أمين في قوله : « نعم حدث تغير من دخول بعض الفنون الشعرية واصطبأها بصبغة الحياة الاجتماعية ونحو ذلك ، ولكنه تغير خفيف لا يكاد يرى بالمجهر »^(١). أما أنيس المقدسى فلا ينكر أن المولدين فاقوا الأقدمين ، ولكنهم - في رأيه - « لم يتدعوا أساليب جديدة أو مواضع جديدة تجوز لنا أن نقول إن الشعر طرأ عليه في أزمانهم تطور كبير »^(٢) .

وأما جارسيا جوميز فيرى أنه بالرغم من أن التجديد مس روح الشعر بصفة خاصة دون ظاهره ، إلا أنه أسفر عن ظهور الحمريات الخالصة ومقطعات النسيب القصيرة ، أو قصائد التأملات وشعر الحكمة ، وأخذت القصيدة تتحول إلى قطعة وصفية^(٣) . ولكن الباحث لم يوضح لنا ما هي روح الشعر ومظاهره ، كما لم يحدد لنا انتساب الأمثلة التي ذكرها على التجديد إلى أى الناحيتين .

ونحن مع إيماننا بقوة حركة التجديد التي ظهرت في القرن الثاني لا نستطيع أن نغفل قوة الشعر القديم ونفوذه في ذلك العصر ، فقد ظل مسيطراً على جانب من الحياة الأدبية فيه ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تقدم الحركة العلمية في الرواية والتدوين ، وخاصة في اللغة وعلومها ، وظهور علماء كبار مثل الأصمعي وأبي عبيدة ، وأبي زيد ، والفراء ، والكسائي ، ومن إليهم . ولعل السبب أيضاً يرجع - كما يقول عبد الستار الجوارى - إلى التأثير القوي الذي كان لبيئة الكوفة العلمية ، تلك التي كانت تعتمد على الرواية والنقل ، وقد جاءها هذا التأثير من ميل الخلفاء إلى منحها العلم وإيثارهم علماءها على علماء البصرة حتى في تعليم أولادهم . يضاف إلى ذلك أن حركة الشعوية في القرن الثاني استلزمت وجود حركة عربية مناوئة لها ، كان من أهم أسلحتها تأييد التراث الأدبي القديم والحفاظ عليه^(٤) . ولعلنا نستطيع أن نفهم ذلك السبب الأخير من نص هام للجاحظ يثبت فيه أيضاً وجود خصومة بين القدماء والمحدثين في ذلك العصر ،

(١) ضحى الإسلام ١ : ٣٩٩ .

(٢) أمراء الشعر في العصر العباسي : ٦٢ .

(٣) الشعر الأندلسي : ٣ .

(٤) الشعر في بغداد : ١٩٤ .

فهو يقول : « والقضية التي لا أحتشم منها ولا أهاب الحصومة فيها أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب ، أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والنابتة^(١) . وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه . وقد رأيت ناساً منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ، ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يرى ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان »^(٢) وواضح من هذا النص أن الجاحظ ينتصر للشعر الجيد مهما يكن قائله محدثاً أم قديماً ، ولكنه لا يشك في أن العرب المحدثين أفضل من المولدين في قول الشعر . ولعل هذه النظرة أملت على روح المعارضة لحركة الشعوية فيما يبدو .

وقوة تيار الشعر القديم كان لها مظهران في ذلك العصر : الأول خضوع الشعراء المحدثين — وهم الأكثرية — لهذا التيار في بعض أشعارهم وبخاصة شعر المديح ، لإرضاء الممدوح أولاً وإرضاء العلماء والرواة ثانياً ، ولإثبات تمثلهم القوى للثقافة العربية القديمة ، وقدرتهم على مجازاة النهج الشعري القديم في بعض الأحيان . ولهذا نجد بشاراً الذي يعتبره الكتاب الأقدمون والمحدثون رأس المولدين وقوة المحدثين يتذبذب في شعره بين المذهبين : الجديد والقديم . فهو في بعض أشعاره قديم قدم الجاهليين يلتزم نهج القصيدة العربية الجاهلية ، ولا يخرج عن أي موضع من مواضع العمود الشعري التقليدي في ألفاظه وأسلوبه وصوره الشعرية ومعانيه ، ولعل قصيدته في مدح سليمان بن داود الهاشمي التي مطلعها :

تَأْبَدَتْ بَرْقَةُ الرُّوحَاءِ فَالْغَيْبُ فَالْمُحَدَّثَاتُ بِخَوْضَى أَهْلِهَا ذَهَبُوا

تعبر عن اتجاهه القديم تعبيراً كاملاً فهو يقول بعد هذا البيت :

فَأَصْبَحَتْ رَوْضَةُ الْمُكَاءِ خَالِيَةً فَمَا خِرَ الْفَرْعُ فَالْغَرَّافُ فَالْكُثْبُ
فَأَجْرَعُ الصَّمُوعَ لَا تُرْعَى مَسَارِحُهُ كُلُّ الْمَنَازِلِ مَبْنُوثٌ بِهَا الْكَأَبُ
كَأَنَّهَا بَعْدَ مَا جَرَّ الْعَفَاءُ بِهَا ذَيْلًا مِنَ الصَّيْفِ لَمْ يُمَدِّدْ لَهُ طُنْبُ

(١) بمعنى الناشئة .

(٢) الحيوان ٣ : ١٣٠ .

كَانَتْ مَعَايَا مِنَ الْأَحْبَابِ فَأَنْقَلَبَتْ عَنْ عَهْدِهَا بِهِمْ الْأَيَّامُ فَأَنْقَلَبُوا
أَقُولُ إِذْ وَدَّعُوا نَجْدًا وَسَاكِنَهُ وَحَالَفُوا غُرْبَةً بِالْدَّارِ فَاغْتَرَبُوا
لَا غَرَوَ لِأَحْمَامٍ فِي مَسَاكِينِهِمْ تَذَعُّوْهُدًى لَا فَيْسَتْغَرِي بِهِ الطَّرَبُ^(١)

وعلى هذا النحو يمضي بشار في قصيدته وهو يبدو متأثراً بالمنهج القديم تأثراً عميقاً، وكأنه كان يعيش قبل الإسلام لا في القرن الثاني الهجري الذي تغير فيه المجتمع وتطور تطوراً كبيراً. ولعل بشاراً وأضرابه من المجددين في هذا القرن كانوا يجدون صعوبة بالغة في التحول عن مذهبهم الجديدي إلى المذهب التقليدي القديم في مثل هذا الشعر، بفعل المؤثرات التي حللتها من قبل والتي كانت دعماً وقوة للتيار القديم، ومما يدل على تصنع المجددين في قصائدهم التقليدية تلك الأراجيز التي كان بشار ينظمها ويملؤها بالألفاظ الوحشية الغريبة، ويمدح بها الأمراء الذين كانوا يحبون الشعر على طريقة القدماء، مثل سلم بن قتيبة وداود بن زيد، فقد كتب للأول أرجوزته المشهورة بين العلماء :

يَا طَلَّلَ الْحَيُّ بِذَاتِ الصُّمْدِ بِاللَّهِ حَدَّثَ كَيْفَ كُنْتُ بَعْدِي^(٢)
وكتب في الثاني أرجوزة أولها :

عُوجًا خَلِيلِي لَقِينَا حَسْبَا مِنْ زَمَنِ الْقَى عَلَيْنَا شَغْبَا^(٣)

وقد لاحظ « يوهان فك » أيضاً هذا التصنع في الشعر التقليدي من جانب بشار فهو يقول : « وإذا قال بشار الشعر على طراز الأقدمين عن قصد، وجدنا أشعاره تحمل طابع الصنعة والتعلم على جبينها ، على أنه لم يكن يبالي إلا نادراً بالقصد إلى المحاكاة والتقليد ، فإذا ما تنازل عن ذلك وجدنا أسلوبه يعرض تلك الأناقة الواضحة والبيان الناصع الشفاف »^(٤).

ولم يكن بشار وحده في ذلك ، بل كان أبو نواس أيضاً يتصنع أشد التصنع

(١) ديوان بشار ١ : ٢٢٩ ، ٢٣٠ . المعايير جمع معية وبشار يصف الأماكن بالإعياء بسبب كثرة السكان وفي البيت الأخير يدل وجود الحمام على أن المساكن كانت أهلة منذ وقت قريب .

(٢) المصدر نفسه ٢ : ٢١٩ .

(٣) المصدر نفسه ١ : ١٣٤ . حسباً أي كافياً يكفيننا هموم الزمان ، والشغب تهيج الشر .

(٤) العربية : ٥٨

في القصائد التي يجبر نفسه فيها على محاكاة الأقدمين في مذهبهم الشعري التقليدي ونظرة إلى قصيدته التي مدح بها الفضل بن الربيع والتي مطلعها :

وَبَلَدَةٌ فِيهَا زَوْرٌ صَعْرَاءُ تُخْطَى فِي صَعْرٍ

تؤكد صدق ما تقول من التكلف في المحاكاة والتقليد ، وإجبار طبعه على غير مذهبه فهو يقول فيها^(١) :

مَرَّتْ إِذَا الذُّبُّ اقْتَفَرَ بِهَا مِنَ الْقَوْمِ الْأَثَرُ
كَانَ لَهُ مِنَ الْجَزْرِ كُلِّ جَنِينٍ مَا اشْتَكَّرُ
وَلَا تَعْلَاهُ شَعْرٌ مَيَّتُ النِّسَاءِ حَتَّى الشُّفْرُ
عَسَفَتْهَا عَلَى خَطَرٍ وَغَرَّرَ مِنْ الْغَرَرِ
بِبَازِلٍ حِينَ فَطَرَ تَهْزُهُ جِنُّ الْأَثَرِ
لَا مُتَشَكُّ مِنْ سَدَرٍ وَلَا قَرِيبٍ مِنْ خَوَرٍ
كَأَنَّهُ بَعْدَ الضُّمْرِ وَبَعْدَ مَا جَال الضُّفْرُ
وَأَنَمَحَ نَيٌّ فَحَسَرَ جَابُ رَبَاعِي الْمُتَغَرِّ

يَحِلُّو بِحَقْبٍ كَالْأَكْرِ... إلخ

ومما يدلنا على تصنع أبي نواس أيضاً هذه الأخطاء المعنوية التي وقع فيها في تلك القصائد التقليدية ، لأنه كان بعيداً عن بيئتها وروحها ودقائقها ، ولم يكن إلا متكلفاً متصنعاً في وصفها وما فيها من مهامه ووحش وإبل . ففي قصيدة واحدة من قصائد أبي نواس التقليدية استخرج له العلماء سقطتين : الأولى في وصف الناقة والأخرى في وصف الأسد ، فهو يقول في الناقة :

كَأَنَّمَا رِجْلُهَا قَفَا يَدِهَا رِجْلُ وَلِيدٍ يَلْهُو بِدَبُوقٍ^(٢)

(١) ديوان أبي نواس (ط . فاجر) : ١٦١ والمرت الأرض القاحلة ، والجزم ما يؤكل ، وميت النساء بمعنى لاقوة له ، والغرر : الخطر ، والأثر : المرح والنشاط ، والسدر : الدوار ، وجال الضفر بمعنى أنه ضمير من السير فادسعت حباله ، وأنمح في أي ذهب شحمه ، والجاب الحمار الغليظ ، ومعنى الشطرة أنه ألقى رباعيته بعد ما هزل .

(٢) الدبوق : غراء يصاد به الطير .

مع أن الناقة إذا كانت كذلك كان بها « عَقَّال » — كما يقول العلماء — وهو من أسوأ العيب (١) .

ويقول أبو نواس في وصف الأسد :

كَأَنَّمَا عَيْنُهُ إِذَا التَّهَبَّتْ بَارِزَةً الْجَفْنِ عَيْنٌ مَخْنُوقٌ

مع أن عين الأسد توصف عند العرب بالغُور لا بالبحوظ كما يدعى أبو نواس (٢) وغير بشار وأبي نواس وأضرابهما من المجددين ، نجد أيضا شعراء أقل شأنًا يضطرون إلى التخلي عن مذهبهم الشعري الجديد لمجاراة العلماء والرواة ، والتكسب بهذا النوع من الشعر التقليدي ، فهذا أبو الشيص الشاعر المجدد البعيد عن روح البادية كل البعد في جميع شعره ، يضطر أحيانا إلى مخاطبة الأطلال والتزام نهج القصيدة التقليدية كما في قوله :

يَادَارُ مَا لَكَ لَيْسَ فَيْكَ أَنْيْسُ إِلَّا مَعَالِمَ آيَهِنَ دُرُوسُ
الدَّهْرُ غَالَكِ أَمْ عَرَاكِ مِنَ الْبَلَى بَعْدَ النَّعِيمِ خُشُونَةٌ وَيَبُوسُ
مَا كَانَ أَخْصَبَ عَيْشِنَا بِكَ مَرَّةً أَيَّامَ رَبُّعِكَ أَهْلُ مَانُوسُ (٣)

ولعل مما يؤكد لنا أن هذا الشعر التقليدي من جانب المجددين كان في محيط العلماء ومن إليهم دون المحيط الشعبي الواسع ، ذلك النص الذي يقول فيه ابن المعتز إن قصيدة أبي نواس :

يَا دَارُ مَا فَعَلْتُ بِكَ الْأَيَّامُ ضَامَتِكَ وَالْأَيَّامُ لَيْسَ تُضَامُ
« لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْخَوَاصُّ » (٤) .

ذلك إذن هو المظهر الأول لقوة تيار الشعر التقليدي القديم في القرن الثاني ، أوضحناه من خلال هذه الأشعار التي خضع فيها أصحابها المجددون لذلك التيار لسبب أو لآخر . أما المظهر الآخر لقوة تيار الشعر التقليدي فيتضح

(١) انظر : ديوان أبي نواس (ط . فاجر) : ١٩٠ .

(٢) المصدر نفسه : ١٩٢ .

(٣) طبقات ابن المعتز : ٨٤ .

(٤) المصدر نفسه : ٢١١ .

في وجود شعراء محافظين يلتزمون عمود الشعر القديم ونهج القصيدة العربية القامية في جميع شعرهم ولا ينساقون وراء أي تجديد ، وكأنما كانوا في بيئة مغلقة قد اعتصمت من التأثير العنيف الذي أحدثته العوامل المختلفة من ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية ، بل هم كانوا كذلك بالفعل إلى حد ما ، فأغلب الشعراء المحافظين كانوا من البدو الذين لا تدعوهم إلى الحواضر أسباب قوية ، ولهذا كانوا بعيدين عن التيارات الثقافية ومراكز الحركة العقلية النشطة في القرن الثاني . وليس من المستغرب من ناحية التطور الأدبي والفكري وجود مثل هذا التيار المحافظ أو ظهوره في شعر بعض المجددين — كما رأينا — لأن الأنواع الأدبية وفنونها — كما يقول نلينو بحق — بطيئة التحول ، ولهذا تختلط في الأغلب الأساليب القديمة بالجديدة في عصر واحد ، ويظل هذا الاختلاط مدة حتى يأخذ الأسلوب الجديد في الغلبة على القديم شيئاً فشيئاً^(١).

ومع إيماننا بوجود شعراء محافظين إلا أننا نرى أنهم لم يكونوا غالبية عظمى أو قوة مؤثرة في اتجاهات الشعر في القرن الثاني . وأنتى يكون لهم هذا التأثير القوى وهم يعيشون في بواديهم ، ولا يأتون إلى الحواضر إلا لمدح أمير أو وال طلباً لعطاء ؟ وقد حاول البهيتي في دراسته أن ينشئ كيانا لمدرسة المحافظين وأن يجعل لها خصائص معينة ، مع أنها هي نفس الخصائص المستقاة من عمود الشعر التقليدي ونهج القصيدة العربية القديمة ، إلا أنه جعل من بين خصائصها اهتمام شعرائها بالسياسة ومدح الملوك وما يتصل بهما ، ولهذا جعل من أهم شعراء هذه المدرسة مروان بن أبي حفصة والعتابي والنمري^(٢). ونحن لا نعتقد على الإطلاق أن يكون مثل هؤلاء الشعراء محافظين بالمعنى الذي بيناه ، وهو متابعة الشعر التقليدي في عموده ونهجه ، ولكن المحافظين حقاً هم من تحدثنا عنهم من شعراء البدو

(١) تاريخ الآداب العربية : ٤٨ .

(٢) تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث : ٤٧٢ ومن العجيب أن العتابي والنمري بالذات يعتبران من أول الشعراء الذين اهتموا بالبدع اهتماماً ظاهراً في القرن الثاني ، وإلى هذا ذهب الجاحظ إذ يقول : « ومن الخطباء الشعراء كلثوم بن عمرو العتابي . . وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء الموالدين كنعوم منصور النمري ومسلم بن الوليد وأشباههما ، وكان العتابي يحتذى حذو بشار في البديع ، ولم يكن في الموالدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة والعتابي (البيان والتبيين ١ : ٣٠) .

أو من تشبه بهم تعصبا لهم حتى كان يلبس زيهم . ومن هؤلاء مثلا « ناهض ابن ثومة » الذي يقول عنه صاحب الأغاني : « شاعر بدوى فارس فصيح من شعراء الدولة العباسية وكان يقدم البصرة فيكتب عنه شعره وتتخذ عنه اللغة ^(١) » ولو أننا نظرنا في شعره نجد أنه لم يزايل قط الشعر التقليدى الجاهلى ، ويتضح ذلك فى قصيدته :

أَلَا يَا أَسْلَمَا يَا أَيُّهَا الطَّلَلَانِ وَهَلْ سَالِمٌ بَاقٍ عَلَى الْحَدَثَانِ ^(٢)

أو قصيدته الأخرى التى ذكرها الأصفهاني أيضا :

أَمِنْ طَلَلٍ بِأَخْطَبِ أَبْدَتُهُ نَجَاءُ الْوَيْلِ وَالْدَّيْمِ النَّصَاحِ ^(٣)

ومن هؤلاء الشعراء المحافظين أيضا عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، ويقول عنه ابن المعتز : « كان لا يشبه بشعره شعر المحدثين الحضريين ، وكان نمطه نمط الأعراب كمثل قوله :

لَا هَلِيعُ فِي الْحَرْبِ هَاعُ إِذَا رَيْتُ فِيهَا كُلَّ هِلْوَاعٍ
قَدْ بَاخَصَتِ الْحَرْبُ عَلَى هَامَتِي وَصَمَّتْنِي أُذُنِي وَاعُ ^(٤)

ويقول ابن المعتز أيضا عن البطين البجلي إن نمط شعره يشبه نمط الأعراب ^(٥) ويقول الأصفهاني عن طريح الثقفى إنه استفرغ شعره فى الوليد بن يزيد ، وقد أشرنا فيها سبق إلى طريح هذا حين دخل على المهدي فقال له : أأنت الذى يقول الوليد بن يزيد :

أَنْتَ ابْنُ مُسْلَنْطَحِ الْبَطَاحِ وَلَمْ يَطْرُقْ عَلَيْكَ الْحَنِيُّ وَالْوَلَجُ

والله لا تقول لى فى مثل هذا أبدا ولا أسمع منك شعرا ، فطريح الثقفى إذن

(١) الأغاني ١٣ : ١٧٥ .

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه ١٣ : ١٨٢ .

(٤) طبقات ابن المعتز: ٢٧٦ . الهاع: الحريص، والهلواع: المرع، وصممه الحديث : أوعاه إياه وجعله يحفظه .

(٥) المصدر نفسه : ٢٤٩ .

كما نفهم من شعره وكما أدرك المهدي يجري على السنن التقليدي في الشعر ولا يرعى جانب التطور والتجديد . وأغلب شعره في الوليد عبارة عن اعتذاريات أحيًا بها اعتذاريات النابغة الذبياني في العصر الجاهلي^(١) . ويهاجم المرزباني الشعراء المحدثين الذين يعيشون في عصر أدبي غير عصرهم ، مثل غالب بن الحارث العكلي ، وأحمد بن جحدر الحراساني ، ويسخف تكلف المحدثين أسلوب الشعر الجاهلي وينقل عن قدامة بن جعفر قوله : « من عيوب الشعر أن يركب الشاعر منه ما ليس بمستعمل إلا في الفرط ولا يتكلم به إلا شاذًا . . وهذا الباب مجوز للقدمات ليس من أجل أنه حسن ، لكن لأن من شعرائهم من كان أعرابيا قد غلبت عليه العجرفية . . ولأن من كان يأتي منهم بالوحشي لم يكن يأتي به على جهة التطلب له والتكلف لما يستعمله ، لكن لعادته وعلى سجية لفظه^(٢) » .

ومن المتشبهين بالأعراب في شعرهم المحافظ يزيد بن ضبة مولى ثقيف ، وكان منقطعا أيضا للوليد بن يزيد ، ويقول عنه الأصفهاني « كان يزيد يطلب القوافي المعتاصة والوحشي من الشعر »^(٣) . ويقول الأصفهاني أيضا عن أبي شراة إنه « جزل الشعر ليس برقيق الطبع ولا سهل اللفظ ، وهو كالبدوي في مذهبه »^(٤) .

أما عمارة بن عقيل الذي كان يسكن بادية البصرة ، فكان النحويون فيها يأخذون عنه اللغة كما يروى الأصفهاني^(٥) . وهو يقول أيضا عن الحسين بن مطير إن زيه وكلامه يشبهان مذاهب الأعراب وأهل البادية ، وذلك يبين في شعره^(٦) . وقد ذكره ابن المعتز قصيدة على قافية وحشية لا يمكن أن ترد في شعر محدث قط وأولها :

كَأَنَّا يَا سُلَيْمَى لَمْ نُلِمَّ بِكُمْ وَتَحَنَّا عَلَسِيَّاتٌ مَلَجِيجٌ^(٧)

(١) انظر : الأغاني ٤ : ٣١١ - ٣١٥ .

(٢) الموشح : ٣٥٤ وانظر نقد الشعر : ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣) الأغاني ٧ : ١٠٣ .

(٤) المصدر نفسه ٢٠ : ٣٥ .

(٥) المصدر نفسه ٢٠ : ١٨٣ .

(٦) المصدر نفسه ١٤ : ١١٠ .

(٧) طبقات الشعراء : ١١٤ والعلييات نسبة لبني علس والملاجيع ذات أصوات .

وللأصفهاني ملاحظة - شبيهة بما ذكرناه له من قبل - بالنسبة لشعر أبي حبة النميري^(١).

ويمكننا أن نقول ذلك أيضا بالنسبة لمحمد بن عبد الملك الفقعسي الأسدي وأبي اليبداء الرياحي وهو أعرابي كان يتزل البصرة^(٢) وابن النديم يذكر لنا جماعة آخرين من هؤلاء الشعراء البدو مثل أبي زياد الكلابي ، وأبي شبل العقيلي وورد بن حكيم ، وشبيل بن عرعة الضبعي ، وجهم بن خلف المازني ، وأبي الخطاب البهلي ، وأبي علي الحرمازي ، وابن أبي صبح . وهناك عدد آخر غيرهم ممن كان شعرهم يجري على السنن الجاهلي القديم ، وكان اهتمام العلماء بشعرهم من أجل الشاهد اللغوي والاستعمال النحوي فحسب^(٣).

مثل هؤلاء الشعراء إذن وقليل غيرهم كانوا يمثلون التيار المحافظ الذي وجد في القرن الثاني بجانب تيار التجديد ، وكثيرا ما التقى هذان التياران في بعض شعراء ذلك العصر ، ولم يكن ذلك بعجيب بعد أن قدمنا الأسباب المفسرة لهذا الالتقاء ، من طبيعة التطور ، إلى تأثير العلماء والرواة ، وغير ذلك .

ولو تركنا قضية التجديد والتقليد والصراع بين القدماء والمحدثين ، فإن علينا بعد ذلك أن نحدد الاتجاهات العامة التي سار فيها الشعر في القرن الثاني ، تلك الاتجاهات التي شملت أغراض الشعر وفنونه ، وتطبع بها شعر الشعراء عامة في هذا القرن . ولكن هذه الاتجاهات هل كانت في إطار الشعر العربي القديم كما يحاول بعض الباحثين المحدثين تصوير التجديد في القرن الثاني ، أو أنها كانت اتجاهات عامة جديدة ذات تأثير قوى في موضوع الشعر وصورته على السواء ؟ إن شكري فيصل يحدد لنا إطار هذه الاتجاهات في دراسته لتطور المجتمعات الإسلامية في القرن الأول فيقول إنه « نشأ مدى من البعد النفسي بين الحياة في العصر العباسي وبين الحياة العربية الإسلامية في الحجاز ونجد ، بل حتى في دمشق . وغزت تقاليد الفرس الدولة الجديدة فلم تعد الحياة فيها لتتصل بالصحراء

(١) الأغاني ١٥ : ٦١

(٢) انظر : الورقة : ١٢ ، ٦٥ .

(٣) انظر : الفهرست : ٦٦ وما بعدها .

العربية ، ولم يعد ثمة سبيل إلى أن تتذوق ما فيها ما كانت تتذوقه في الحياة الأموية من روح الصحراء ورعيها ومن إبلها وشائها . . . وإنما اتصلت بالمدن الفارسية والأسر الفارسية والتقاليد الفارسية ، وتركزت الحضارة والثقافة لا في المواطن العربية الأولى ، بل في هذه المواطن الجديدة من مدن العراق التي كان يغلب عليها الطابع الفارسي أو في المدن الفارسية . . . ومن هنا جاء الأدب تعبيرا عن هذه الحياة ، أعني جاء أدبا إسلاميا تظله شعائر هذه الحياة الإسلامية التي كانت خليطا أسهمت فيه الأقوام المختلفة ، أسهم فيه العرب بتقاليدهم الأدبية ، وأسهم فيه الفرس وغيرهم من الأعاجم بتقاليدهم الاجتماعية ، وموروث عقائدهم وتكليفهم لماضيهم مع هذا الحاضر . . فالوعاء الذي نبت فيه هذا التطور كان إذن في هذه البيئات التي خالفت عن الأصل العربي ، فلم تستمسك به ولم تتعصب لتقاليد الفنية أو تقاليد الاجتماعية ولم تضع نصب أعينها النماذج الجاهلية في الشعر ، ولم يكن أدبا ليدور في الحيز الذي كان يدور فيه الأدب القديم أو يتصرف تصرفه^(١) .

إذن فإطار الاتجاهات الموضوعية في شعر القرن الثاني كان جديدا بعيدا عن الإطار الجاهلي القديم ، بل والإطار الإسلامي الذي كان موجودا في الشطر الأول من عصر بني أمية . وقد حاول الباحثون المحدثون أن يحددوا لنا هذه الاتجاهات العامة فخلطوها بخصائص الشعر العباسي واتجاهاته الموضوعية والشكلية ، ومع ذلك نجد عند كل منهم ناحية تعتبر اتجاهها عاما في شعر القرن الثاني . فرى جورجى زيدان مثلا يضع أيدينا على ناحية « إطلاق الفكر من قيود التقليد »^(٢) ، ونجد نكلسون يصور لنا هذه الاتجاهات تصويرا عاما مبهما مثل : الخيال الحى ، وسمو التعبير ، وعمق المشاعر ورقتها ، والأفكار الغنية ، وكل ذلك يراه نتيجة التأثير الفارسي ، ثم إنه يرى كاتجاه عام أيضا أن الشعر في القرن الثاني كان صدى قويا لهذا العصر^(٣) . أما عبد الستار الجوارى فقد نبهنا إلى اتجاهات عامة في الشكل والموضوع على السواء ، إذ أشار إلى تحال الشعر من بعض القيم الاجتماعية ، وإقباله

(١) المجتمعات الإسلامية في القرن الأول : ٤٠١ ، ٤٠٢ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ١٩ .

(٣) A Literary History of the Arabs : ٢٩١

على الجانب الذاتى ، وتحلله من أسلوب الشعر القديم ، واتصاله بأسلوب الحياة ولغتها ، وتحوله بالقصيدة من نظامها القديم فى تعدد موضوعاتها إلى محاولة جعلها واحدة الموضوع فى الغالب^(١). وقد أكدت دائرة المعارف الإسلامية ناحية التحرر الفكرى والتحرر فى التعبير أيضا فى شعر القرن الثانى ، كما وصفته بأنه كان شعر مجتمع متحضر^(٢).

والحقيقة إن الاتجاهات العامة التى كانت تظلل الشعر فى القرن الثانى سواء فى موضوعه أم فى صورته كانت أعمق مما ذكره الباحثون المحدثون بكثير ، وأوفر دلالة على التطور الكبير الذى حدث فى شعر هذا القرن ، وعلى حركة التجديد القوية التى غيرت كل شىء فيه ، كما نحاول أن نثبت فى هذا البحث .

وأول اتجاه عام نذكره هو التعبير عن الذات وهو نزعة واضحة كل الوضوح فى شعر القرن الثانى ، وهذا الاتجاه كان قليل الظهور فى الشعر القديم بالمعنى الذى نقصده وهو العكوف على النفس وتحليلها ، وإلا فالشعر كله إنما هو تعبير عن الذات . كان الشاعر القديم قلماً يلتفت إلى نفسه ويهف مشاعره فى صراحة ووضوح ، ويصوغ إحساساته فى حرارة وصدق . كان الشاعر حين يتغزل يصف محبوبته وصفا مجردا ، أو يطلعنا على جانب تقريرى من حبه ، ولكنه لم يكن يتبع تأثير هذا الحب فى نفسه أو يتعمق فى خوافيه وارتباطه بكيانه ، وكذلك كان شأن الشاعر القديم بالنسبة لمظاهر الطبيعة ، كان يصفها وصفا مجردا لا تظهر فيه ذاتيته ، ولا نتحسس منه وجدانه ومشاعره . أما فى القرن الثانى فقد التفت الشعراء إلى أنفسهم يفتشون فى حناياها عن مشاعرهم وأحاسيسهم ، وعكفوا على قلوبهم يستنطقونها فتجيهم وتفتح مغاليق أسرارها لهم ، فلم يعد تغزلهم مجرد وصف حسى جامد لامرأة مثالية فى جمالها وفتنتها ، ولم يعد وصفهم لمظاهر الطبيعة بعيدا عن مشاعر نفوسهم وإحساساتها ، بل اندمجوا فى تلك المظاهر اندماج الألفة والمشاركة الوجدانية ، وكانوا يقيسون حالات نفوسهم بحالاتها ، ويقرنون خفقات قلوبهم بنفقاتها ، وهكذا تجدد الاتجاه الذاتى فى الشعر العربى ودخل مرحلة جديدة ، تتغور فى أعماق النفس ولا تكتفى بملامسة سطحها الظاهر ،

(١) الشعر فى بغداد : ٢١٢ .

(٢) مادة العربية : The Encyclopaedia of Islam (new edition)

مما أبرز شخصية الشاعر بعد أن كانت مطمورة تائهة في أوصافه التي يخلعها على الأشياء وبين ممدوحيه ، بل نجد الشاعر في القرن الثاني يستغل قصيدته في المدح في عرض مشاعره والتحدث عن ذات نفسه في أول القصيدة ، وبهذا يمكننا رد اتهام المستشرقين من أمثال كارل بيكر الذين يرون أن الفنون الشرقية بوجه عام غير شخصية ، وأنها تعوزها النزعة إلى تصوير الذات تصويرا مجسما ، وقد رتبوا على هذه النقطة نتائج هامة ، وهي أن العرب مثلا - والإشارة إليهم ضمنية في حديث بيكر - اتجهوا في حضارتهم الجديدة إلى هندسة البناء وغيرها من الفنون غير الشخصية ، دون الفنون الأخرى التي تحتاج إلى تصوير الذات كالنحت والتصوير أو الرواية المسرحية^(١).

وقد رددنا في الباب الأول فكرة أن العرب لم يهتموا بالنحت والتصوير ، وهانحن أولاء نرد أيضا فكرة خلو الشعر العربي من تصوير الجانب الدائى . أما المسرحية الشعرية فلعدم ظهورها في الشعر العربي - وخاصة في القرن الثاني الذي حدث فيه التطور والتجديد القوي - أسباب أخرى غير ما ذكره الباحثون - وهو بعد العرب عن تصوير الشخصية - وإلا فلماذا لم يقولوا ذلك السبب في خلو الشعر العربي من الملاحم وهي ليست بالفن الذي يعبر عن الذات والشخصية ؟ أليست المسألة عكسية في هذه الحالة ؟ !

وعلى أية حال فقضية خلو الشعر العربي من الملاحم والتمثيلات حتى في القرن الثاني - عصر التطور والتجديد - قضية قديمة شغلت كثيرا من الباحثين وانتهوا فيها إلى آراء معينة متشعبة ، لن نتعرض لها في كثير أو قليل لبعدها عما نخوض فيه من بحث تطور نزعة التعبير عن الذات وتصويرها ، تلك النزعة التي وجدت في فنون مختلفة من شعر هذا القرن ، وجدت في المدح كما وجدت في التغزل والزئاء والوصف ، وأغراض كثيرة أخرى ، والأهم من ذلك أنها وجدت في قصائد ذاتية خاصة بناحية معينة من نفس الشاعر يريد أن يطلعنا عليها ، ولعلنا نسمع لأول مرة في هذا القرن شعرا يصور فيه صاحبه مأساة فقدته بصره ، وانطواءه في عالم الظلام الرهيب ، فهذا أبو يعقوب الخريمى يصف لنا هذه المأساة في مقطوعة صغيرة يقول فيها :

(١) انظر : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية : ٢٨ ، ومن تاريخ إلحاد في الإسلام : ١٥

أُضْغِي إِلَى قَائِدِي لِيُخْبِرَنِي إِذَا التَّقِينَا عَمَّنْ يُحْيِينِي
أُرِيدُ أَنْ أَعْدِلَ السَّلَامَ وَأَنْ أَفْصِلَ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالذُّونِ
أَسْمَعُ مَا لَا أَرَى فَأَكْرَهُ أَنْ أَخْطِئَ وَالسَّمْعُ غَيْرُ مَأْمُونِ
لِلَّهِ عَيْنِي الَّتِي فُجِعْتُ بِهَا لَوْ أَنَّ دَهْرًا بِهَا يُوَاتِينِي
لَوْ كُنْتُ خَيْرْتُ مَا أَخَذْتُ بِهَا تَعْمِيرَ نُوحٍ فِي مُلْكِ قَارُونِ^(١)
ويصف لنا مأساة عينيه أيضا في مقطوعة ذاتية أخرى فيقول :

كَفَى حَزَنًا أَنْ لَا أَزُورَ أَحِبَّتِي مِنْ الْقُرْبِ إِلَّا بِالتَّكْلُفِ وَالْجُهْدِ
وَأَنِّي إِذَا حَيَّيْتُ نَاجَيْتُ قَائِدِي لِيَعْدِلَنِي قَبْلَ الْإِجَابَةِ فِي الرَّدِّ
إِذَا مَا أَفَاضُوا فِي الْحَدِيثِ تَقَاصَرْتُ بِي النَّفْسُ حَتَّى مَا أُحِيرُ مَا أَبْدَى
كَأَنِّي غَرِيبٌ بَيْنَهُمْ لَسْتُ مِنْهُمْ فَإِنْ لَمْ يَحُولُوا عَنِّي وَفَاءً وَلَا عَهْدِ
أَقَامِي خُطُوبًا لَا يَقُومُ بِثِقَلِهَا مِنَ النَّاسِ إِلَّا كُلُّ ذِي مِرَّةٍ جَلْدِ^(٢)

وهذا صالح بن عبد القدوس يعيش في مأساة عماءه أيضا فيقول :

عَزَاءُكَ أَيُّهَا الْعَيْنُ السُّكُوبُ وَدَمْعُكَ إِنَّهَا نُوبٌ تَنُوبُ
وَكُنْتُ كَرِيمَتِي وَسِرَاجَ وَجْهِ وَكَانَتْ لِي بِكَ الدُّنْيَا تَطِيبُ
فَإِنْ أَلَكُ قَدْ ثَكَلْتُكَ فِي حَيَاتِي وَفَارَقَنِي بِكَ الْإِلْفُ الْحَبِيبُ
فَكُلُّ قَرِينَةٍ لَا بُدَّ يَوْمًا سَيَشَعَبُ إِلْفَهَا عَنْهَا شَعُوبُ
عَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ فَمَا لِشَيْخٍ ضَرِيرِ الْعَيْنِ فِي الدُّنْيَا نَصِيبُ
يَمُوتُ الْمَرْءُ وَهُوَ يُعَدُّ حَيًّا وَيَخْلِفُ ظَنَّهُ الْأَمَلُ الْكَذُوبُ
يُمْنِي الطَّبِيبُ شِفَاءَ عَيْنِي وَمَا غَيْرُ الْإِلَهِ لَهَا طَبِيبُ
إِذَا مَامَاتِ بَعْضُكَ فَأَبْكُ بَعْضًا فَإِنَّ الْبَعْضَ مِنْ بَعْضٍ قَرِيبُ^(٣)

(١) الحيوان ٣ : ١١٣ ، الورقة : ١٠٤ ، نكت الهميان : ٧١ .

(٢) الحيوان ٧ : ١٥١ .

(٣) نكت الهميان : ٧١ .

ومثل هذا النوع من الشعر الذاتى نجده أيضا عند أبى الشيص الذى عمى فى آخر عمره كما يقول الأصفهاني ، وكانت له مرث فى عينيه^(١).

وكما كانت مأساة فقد البصر سببا فى وجود هذا النوع من الشعر الذاتى عند الشعراء الذين ذكرناهم ، كذلك كانت مشكلة الفقر أو مأساته مصدر إلهام لبعض الشعراء الذين يعيشون فيها ويعانون منها ، ولعل أبا الشمقمق يعد من هذه الناحية شاعر الفقر غير منازع ، إذ أكثر من تصويره وإلابانة عنه فى شعره ، يقول فى إحدى قصائده الذاتية :

بَرَزْتُ مِنَ الْمَنَازِلِ وَالْقِيَابِ	فَلَمْ يَغْسُرْ عَلَى أَحَدٍ حِجَابِي
فَمَنْزِلِي الْفَضَاءُ وَسَقْفُ بَيْتِي	سَاءَ اللَّهُ أَوْ قِطْعُ السَّحَابِ
فَأَنْتَ إِذَا أَرَدْتَ دَخَلَ بَيْتِي	عَلَى مُسَلِّمًا مِنْ غَيْرِ بَابِ
لَأَنْتَى لَمْ أَجِدْ مِصْرَاعَ بَابِ	يَكُونُ مِنَ السَّحَابِ إِلَى التُّرَابِ
وَلَا انشَقَّ الثَّرَى عَنْ عُوْدَتِي	أَوْمَلُ أَنْ أَشَارَ بِهِ بِبَابِي
وَلَا خِفْتُ الْإِبَاقَ عَلَى عَيْدِي	وَلَا خِفْتُ الْهَلَكَ عَلَى دَوَابِي
وَلَا حَاسِبْتُ يَوْمًا قَهْرَ مَانِي	مَحَاسِبَةً فَأَغْلِظَ فِي حِسَابِي
وَفِي ذَا رَاحَةٍ وَفَرَاغٍ بِالِ	فَدَابُّ الدَّهْرِ ذَا أَبَدٍ وَدَابِي ^(٢)

وكثيرا ما كان أبر الشمقمق يتحدث عن فقره إلى السور الجائع الذى لا يجد عنده كسرة خبز كما فى قصيدته :

وَلَقَدْ قُلْتُ حِينَ أَقْفَرَ بَيْتِي	مِنْ جِرَابِ الدَّقِيقِ وَالْفَخَّارَةِ ^(٣)
أَوْ قَصِيدَتِهِ الْآخَرَى :	

وَلَقَدْ قُلْتُ حِينَ أَحْجَرَنِي الْبَرُّ	دُ كَمَا تُحْجِرُ الْكِلَابَ دُعَالَهُ
فِي مَبِيتٍ مِنَ الْغَضَارَةِ قَفْرِ	لَيْسَ فِيهِ إِلَّا النَّوَى وَالنُّخَالَةُ ^(٤)

(١) الأغاني ١٥ : ١٠٥ .

(٢) شعراء عباسيون : ١٣١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣٨ ، الحيوان ٥ : ٢٦٤ .

(٤) شعراء عباسيون : ١٤٩ وُدُعَالَةُ : أنثى الثعلب .

ويبدو أن حياة أبي الشمقم كانت إخفاقا متصلا حتى إنه كان يرى أن أفضل ما يوفره لأبنائه في كل هذه الحياة هو الحبز ، والحبز فقط :

ما جمعَ النَّاسُ لدنياهم أَنفَعُ فِي الْبَيْتِ مِنْ الْخُبْزِ^(١)

وهو لهذا يندب سوء حظه ويصور لنا فشله في الحياة في تلك الأبيات القليلة العدد ، القوية التعبير عن نفسه وأحاسيسه ونصيبه من دنياه :

لوركبتُ البحارَ صارتُ فجاجاً لا ترى في مُتُونِها أمواجاً
فلو أنى وضعتُ ياقوتةً حمراء في راحتي لصارت زجاجاً
ولو أنى ورَدْتُ عَذْباً فُرَاتاً عادَ لاشكَّ فيه مِلْحاً أجاجاً^(٢)

والشاعر أبو فرعون الساسي يشترك أيضا مع أبي الشمقم في تصوير فقره ، والتعبير عن إحساسه إزاء هذه المشكلة التي كان يعانيها ومعه أطفاله الصغار ، حتى لقد بلغ به الأمر أن سمى نفسه أبا الفقر وأمه في تلك المقطوعة الحزينة التي تلبوا أكاثها أنشودة يتغنى بها لسؤال الناس برهم وعطفهم :

وصِيبِيَّةٌ مِثْلُ فِرَاحِ الدَّرِّ سُدِّ الوُجُوهِ كَسَوَادِ الْقِدْرِ
جاءَ الشَّتَاءُ وَهُمْ بِشَرِّ بَغْيَرٍ قُمُصٍ وَبَغْيَرٍ أَزْرٍ
حَتَّى إِذَا لَاحَ عَمُودُ الْفَجْرِ وَجَاءَنِي الصُّبْحُ غَدَوْتُ أُسْرَى
وَبَعْضُهُمْ مُلْتَصِقٌ بِصَدْرِي وَبَعْضُهُمْ مُنْحَجِرٌ بِحِجْرِي
أَسِيقُهُمْ إِلَى أَصُولِ الْجُدْرِ هَذَا جَمِيعُ قِصَّتِي وَأَمْرِي
فَارْحَمْ عِبَالِي وَتَوَلَّ أَمْرِي كُنَيْتُ نَفْسِي كُنْيَةً فِي شِعْرِي

أنا أبو الفقرِ وأمُّ الفقرِ^(٣)

ويبدو أن شعر أبي فرعون كان كله يدور حول مشكلة فقره وجوعه وجوع

(١) شعراء عباسيون : ١٤٠ .

(٢) المصدر نفسه : ١٣٢ .

(٣) طبقات ابن المعتز : ٣٧٧ .

أولاده وحرمانهم من الفاكهة واللحم بل من الخبز أيضا ، فقد ذكر ابن المعتز مقطوعات أخرى له في هذا الموضوع نفسه غير التي قدمناها ، كما ذكره صاحب الورقة أنشودة أخرى كان يتغنى بها لسؤال الناس أيضا ويقول فيها :

يا إِخْوَتِي يا مَعْشَرَ الموالى أنا ابْنُكُمْ وَأَنْتُمْ أَخْوَالي
هذا زَبِيلِي وجِرَابِي خالي والمالُ عالي والدَّقِيقُ غالي

وقد مللنا كثرة العيال^(١)

والعماني الراجز كان يستثيره أن يجد مولى منعما بينما هو العربي فقير أهزله البؤس . وقد سجل لنا مشاعره هذه في أرجوزة ذاتية عميقة ، يقول فيها :

لا يَسْتَوِي مُنَعَّمٌ بُنْدَارٌ له قِيَانٌ وله حِمَارٌ
مُقَصَّصٌ قَصَصُهُ الْبَيْطَارُ يُطِيفُ فِي السُّوقِ به التَّجَارُ
وَعَرَبِيٌّ بُرْدُهُ أَطْمَارُ يَظَلُّ فِي الطَّرْقِ له عِشَارُ
قد نَصَلَتْ مِنْ رِجْلِهِ الْأُظْفَارُ يَأْوِي إِلَى حِصْنٍ له أَوَارُ
أَحْدَبٌ قد مال بِهِ الْجِدَارُ لا دِرْهَمٌ فيه ولا دِينَار
يَأْكُلُ هَزْلِي الْفَارِ فيه الْفَارُ فِي بَلَدَةٍ عالٍ بها الْغُبَارُ
ليس على كَهْلٍ بها وقَارَ مثل الشَّيَاطِينِ إذا اسْتِثَارُوا
لهم دِنَانٌ ولهم جِرَارُ وفاشفاراتٌ لها قُتَارُ

في الْيُسْرِ لا يَطْمَعُ فيه الْجَارُ^(٢)

ونجد هذه النزعة الذاتية في التعبير عن إحساسات النفس ومشاعرها في ألوان أخرى من الشعر في القرن الثاني ، فلصالح بن عبد القدوس مثلا مقطوعة ذاتية عميقة المعنى ، يصف لنا فيها مشاعره وهو حبيس في سجن الزنادقة فيقول :

(١) الورقة : ٥٥ .

(٢) طبقات ابن المعتز : ١١٣ . البندار الذي يخزن البضائع للغلاء ، والأوار الحر والعطش والدخان، والفاشفارات: نوع من الطعام ، والقنار دخان الطبخ . وعبرة (إذا استثاروا) لعلها محرقة عن (إذا تثار) .

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا فَلَسْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ فِيهَا وَلَا الْمَوْتَى
 إِذَا دَخَلَ السَّجَانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ عَجِبْنَا وَقَلْنَا جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا
 وَنَفْرَحَ بِالرُّوْيَا فَجُلُّ حَدِيثِنَا إِذَا نَحْنُ أَصْبَحْنَا الْحَدِيثُ عَنِ الرُّوْيَا
 فَإِنْ حُسِنَتْ لَمْ تَأْتِ عَجَلَى وَأَبْطَأَتْ وَإِنْ قُبِحَتْ لَمْ تَخْتَبِسْ وَأَتَتْ عَجَلَى
 طَوَى دُونَنَا الْأَخْبَارَ سِجْنُ مُنْعٍ لَهُ حَارِسٌ تَهْدَا الْعَيُونَ وَلَا يَهْدَا
 قُبْرُنَا وَلَمْ نُدَقِّنْ وَنَحْنُ بِمَعَزِلٍ عَنِ النَّاسِ لَا نَخْشَى فَنُغْشَى وَلَا نَغْشَى
 إِلَّا أَحَدٌ يَأْوِي لِأَهْلِ مَجْدَةٍ مُقِيمِينَ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ فَارَقُوا الدُّنْيَا^(١)

ونجد من هذا الشعر الذاتي لونا آخر في شعر نصيب مولى المهدي - وهو غير نصيب مولى بني مروان - فهو حين يمدح الرشيد يتباه الإحساس بلونه الأسود فيقول لنفسه :

فِيهَا أَيُّهَا الزُّنْجِيُّ مَا لَكَ وَالصُّبَا أَفُقْ عَنْ طِلَابِ الْبَيْضِ إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ
 فَمِثْلُكَ مِنْ أَحْبُوشَةِ الزُّنْجِ قُطِّعَتْ وَسَائِلُ أَسْبَابِهَا يَتَوَسَّلُ^(٢)

ويقول في قصيدة أخرى يبرز فيها أيضاً إحساسه بلونه :

وَتَقُولُ مَيَّةٌ مَا لِحِثْلِكَ وَالصُّبَا وَاللَّوْنُ أَسْوَدُ حَالِكَ غَرِيبُ
 شَابُ الْغُرَابِ وَمَا أَرَاكَ تَشِيبُ وَطِلَابُكَ الْبَيْضَ الْحِسَانَ عَجِيبُ
 أَعْلَاقُهُ أَسْبَابُهُنَّ وَإِنَّمَا أَفْذَانُ رَأْسِكَ فُلْفُلٌ وَزَبِيبُ^(٣)

وتظهر التزعة الذاتية واضحة في موقف شعراء القرن الثاني من مظاهر الطبيعة ، فهم يشخصونها ويجعلونها تشاركهم مشاعرهم مشاركة وجدانية عميقة ، كما في أبيات مطيع بن إياس التي يخاطب فيها نخلتى حلوان ، ويندمج معها بمشاعره وأحاسيسه فيقول :

(١) أمالي المرتضى ١ : ١٠١ .

(٢) الأغاني ٢٠ : ٢٥ .

(٣) المصدر نفسه ٢٠ : ٣٠ .

أَسْعِدَانِي يَا نَخْلَتِي حُلُوانٍ وَابْكِيَا لِي مِنْ رَيْبِ هَذَا الزَّمَانِ
وَاعْلَمَا أَنَّ رَيْبَهُ لَمْ يَزَلْ يَفُ رِقُّ بَيْنِ الْأَلْفِ وَالْجِيرَانِ
وَلَعَمْرِي لَوْ ذُقْتُمَا أَلَمَ الْفُرِّ قَهْ أَبْكََا كُما الَّذِي أَبْكَانِي
أَسْعِدَانِي وَأَيُّقِنَا أَنَّ نَحْمَا سَوْفَ يَلْقَا كَمَا فَتَفْتَرِقَانِ
كَمْ رَمَتْنِي صُرُوفُ هَذِي الدَّلِيَا بِفِرَاقِ الْأَحْبَابِ وَالْخُلَانِ^(١)

وتذكرنا هذه الأبيات بشاعر آخر من شعراء هذا القرن كان بعيداً عن نخل
المشرق غريباً عن دياره ومراعى صباه ، لهذا فهو يحن إليها ويتحدث بحنينه هذا
إلى نخلة مفردة، وجدها في منية الرصافة بقرطبة ، هذا الشاعر هو عبد الرحمن بن
معاوية الداخل ، يقول :

يَا نَخْلُ أَنْتِ غَرِيبَةٌ مِثْلِي فِي الْغَرْبِ نَائِيَةٌ عَنِ الْأَصْلِ
فَابْكِي وَهَلْ تَبْكِي مُكَيِّمَةً عَجْمَاءُ لَمْ تُطْبِعْ عَلَى خَبْلِي
لَوْ أَنَّهَا تَبْكِي إِذْ لَبَكَّتْ مَاءَ الْفُرَاتِ وَمَنْبِتَ النَّخْلِ
لَكُنْهَا ذَهَلَتْ وَأَذْهَلَنِي بُغْضِي بَنِي الْعَبَّاسِ عَنْ أَهْلِي

ويرى جارسا جوميز أن هذا الشعر غريب كصاحبه^(٢) ، وما هو في الحقيقة
بغريب لأنه اتجاه عام في شعر هذا القرن كما بينا .
وزياد الأعجم حين تسجع بجانبه حمامة ، يألفها ويناجيها بأحاسيس نفسه
ومشاعر قلبه فيقول :

تَغْنِي أَنْتِ فِي ذِمِّي وَعَهْدِي وَذِمَّةُ وَالِدِي إِنْ لَمْ تُطَارِي
وَبَيْتَكَ أَصْلَحِيهِ وَلَا تَخَافِي عَلَى صُفْرِ مُزْغَبَةٍ صِغَارِ
فَإِنَّكَ كُلَّمَا غَنَيْتِ صَوْتًا ذَكَرْتُ أَحِبَّتِي وَذَكَرْتُ دَارِي
فَإِمَّا يَفْتُلُوكَ طَلَبْتُ نَارًا لَهُ نَبَأٌ لَأَنَّكَ فِي جَوَارِي^(٣)

(١) شعراء عباسيون : ٦٩ .

(٢) الشعر الأندلسي : ٧ .

(٣) فجر الإسلام : ١١٥ .

وقد وجد في القرن الثاني شعراء لم يدفعوا إلى مسالك القول دفعا ، ولم تضطربهم الظروف إلى مدح وهجاء وما إلى ذلك من الفنون التي يضطر إليها الشعراء لعلّة أو لأخرى ، ولكنهم قالوا الشعر بوحى عواطفهم ومشاعر نفوسهم ، ولم يقصدوا به إلا التعبير عن ذاتهم وأحاسيسهم ، ومن هؤلاء العباس بن الأحنف ومحمود الوراق اللذان يقول عنهما صاحب الأغاني « وما ابتدلا شعرهما في رغبة ولا رهبة ، ولكن فيما أحباه قلزما فنا واحدا »^(١) وهذا الفن الذي لزمه كل منهما كان تعبيرا صادقا عن نفسه ومشاعره لأنه لم يكن مضطرا فيه إلى التزيد والمبالغة ، أو التزييف والكذب وتلفيق العاطفة .

وهناك اتجاه عام آخر نلاحظه في شعر القرن الثاني وله صلة بالترعة الذاتية التي تحدثنا عنها . ونقصد به الاتجاه الواقعي أي أن شعراء القرن الثاني كانوا يتجهون في شعرهم إلى تسجيل أحداث عصرهم في أمانة وصدق ، كما كان شعرهم كله صدى قويا للحياة في ذلك العصر في شتى نواحيها التي بينها في الباب الأول . وقد لاحظ الأقدمون هذا التطابق بين شعر المحدثين والحياة الواقعية التي يحيطونها بعكس الشعر القديم الذي لم يكن يستطيع أن يصور لنا عصره صورة كاملة صادقة من شتى نواحيها وذلك بالنسبة لما وصل إلينا من هذا الشعر . يقول المبرد « إن أشعار المولدين يحتاج إليها للتمثل لأنها أشكل بالدهر »^(٢) وتفسير هذه الجملة ما قلناه من تصوير المحدثين لعصرهم بما فيه من خير وشر . وهذا التصوير الواقعي إنما ينطبق في حالات كثيرة على أي مجتمع إنساني ، لذلك فالإنسان في كل عصر يجد في هذا الشعر تجاوبا مع نفسه في ناحية من نواحيها ، وكيف لا يجد هذا التجاوب وشعراء القرن الثاني إنما صوروا في شعرهم انعكاس الحياة في أنفسهم وتجاوبهم معها ؟ وحديثنا هذا يتضمن ردا على ما ذكره ما سينيون من أن الشاعر العربي إذا تكلم عن الحاضر ، كان هدفه تصويره في صورة غير طبيعية أو بعيدة عن الواقع ، واجتهد في إعطائه صورة جامدة متحجرة^(٣) . ولا أدري

(١) الأغاني ٨ : ٣٧٢ .

(٢) الكامل : ٢٢٤ .

(٣) من محاضرة ألقاها عن العلاقة بين الشعر العربي والفن الإسلامي وقد ذكر أجزاء منها جارسيا

خوميز في كتابه « الشعر الأندلسي » : ٦٥

كيف يوفق ما سينيون إذن بين ما يقول وما نذكره عن هذا الاتجاه الواقعي الأصيل الذي تميز به الشعر في القرن الثاني ؟

وهذا الاتجاه الواقعي سوف يبرز لنا في كثير من أغراض الشعر الجديدة والمجددة التي سنتناولها في الفصلين التاليين ، كما يبرز في بعض نواحي الشعر الذاتي الذي قدمنا أمثلة له ، ولكننا نمثل له هنا بموقف شعراء القرن الثاني إزاء أحداث عصرهم وفتنه الناتجة عن تقلبات السياسة وأهوائها . وفي مثل هذه الأحداث والفن تظهر روح شعبية صادقة لا يعنينا من أمر هذه الفن والأحداث إلا ما تجره على معظم الشعب من تدمير وسوء حال ، وما تشيعه في الناس من اضطراب وبلبل . فعندما اضطرب جبل بني مروان وهاجت الفتنة في عام ١٢٦ هـ انعكس لنا ذلك الاضطراب في شعر صادق الانطباع للحارث بن عبد الله الجعدي إذ يقول :

أَبَيْتُ أَرعى النُّجُومَ مُرْتَفِيقًا	إِذَا اسْتَقَلَّتْ تَجْرى أَوَائِلُهَا
مِنْ فِتْنَةٍ أَصْبَحَتْ مُجَلَّلَةٌ	قَدَعَمَ أَهْلَ الصَّلَاةِ شَامِلُهَا
مَنْ بِخُرَاسَانَ وَالْعِرَاقِ وَمَنْ	بِالشَّامِ كُلِّ شَجَاءٍ شَاغِلُهَا
فَالنَّاسُ مِنْهَا فِي لَوْنٍ مُظْلِمَةٍ	دِهْمَاءَ مُلْتَجَةٍ غِيَاظِلُهَا
يُمسى السَّفِيهَ الَّذِي يَعْنِفُ بِالْجَهِّ	لِ سِوَاءٍ فِيهَا وَعَاقِلُهَا
وَالنَّاسُ فِي كُرْبَةٍ يَكَادُ لَهَا	تَنْبِذُ أَوْلَادَهَا حَوَامِلُهَا
يَغْدُونَ مِنْهَا فِي كُلِّ مُبْهَمَةٍ	عَمِيَاءَ تَمْنَى لَهُمْ غَوَائِلُهَا
لَا يَنْظُرُ النَّاسُ فِي عَوَاقِبِهَا	إِلَّا الَّتِي لَا يَبِينُ قَائِلُهَا
كَرَغَوَةِ الْبِكْرِ أَوْ كَصَيْحَةِ حُبٍّ	لِي طَرَقَتْ حَوْلَهَا قَوَائِلُهَا ^(١)

ولعل هذا الانطباع الواقعي إزاء الفن والأحداث يبدو لنا في أجلى صورة وأقواها من خلال الشعر الذي صور أحداث الفتنة بين الأمين والمأمون^(٢) . وقد برز لنا في هذه الأحداث شاعر من شعب بغداد كان يرسم لنا في شعره وقائع تلك الفتنة

(١) تاريخ الطبري ٩ : ٣٨ .

(٢) انظر : صورة شعبية من الأدب العربي : مقال لي بمجلة « الرسالة الجديدة » عدد ٥٥

الدائمة وتأثيرها في نفوس الناس وجيانتهم ، ولم يكن يستطيع أن يهجر بغداد في فتنها المروعة ، لأنه يحس بأنه فرد من الشعب لا يهمه شخص الحاكم المنتصر أو المهزم ، بقدر ما يهمه أن يحصل على أسباب الحياة والعيش ، وهو يعبر عن ذلك بقوله :

ولستُ بتاركِ بغدادَ يوماً ترحَّلَ من ترحَّل أو أقاما
إذا ما العيشُ ساعدنا فلسنا نبالي بعدُ مَنْ كان الإماماً^(١)

وهذا الشاعر الذي نعتيه هو عمرو الوراق ، وله في كل يوم من أيام المعارك قصيدة تعبر عن حال أبناء الشعب وانطباعاتهم لإزاء الفتن ، أكثر مما تصف لنا المعارك نفسها . وهو يصور لنا أولاً رعى بغداد بالمجانيق من كلا الفريقين دون أن يكثرنا بإصابة أهداف معينة ، بل كانت غايتها إيقاع الدمار والخراب بمدينة بغداد دون نظر إلى ما يصيب شعبها من قتل وتعذيب ، فيقول :

يا رماةَ المنجنيقِ كلُّكمُ غيرُ شفيقِ
ما تُبالونَ صديقاً كانَ أو غيرَ صديقِ
ويلكم تذرُّونَ ما ترمونَ مُرارَ الطريقِ ؟
رُبَّ خَوْدٍ ذاتِ دَلٍّ وهى كالغصنِ الوريقِ
أخرجتُ من جَوْفِ دنيا ها ومن عيشٍ أنيقِ
لم تجدْ من ذاك بُداً أبرزتْ يومَ الحريقِ^(٢)

ويصف هذا الشاعر تلك البلوى التي عمت أهل بغداد ، وما آلوا إليه من سوء حال أثناءها فيقول :

النَّاسُ في الهدمِ وفي الانتقالِ قد عرَّضَ النَّاسُ بِقِيلٍ وَقَالَ
يا أيُّها السَّائِلُ عن شأنهم عَيْنُكَ تَكْفِيكَ مَكَانَ السُّوَالِ

(١) تاريخ الطبري ١٠ : ١٨٥ .

(٢) تاريخ الطبري ١٠ : ١٧٥ .

قد كان للرحمن تكبيرهم فالיום تكبيرهم للقتال

.....

لم يبق في بغداد إلا امرؤ
لا أم تحمي عن حماها ولا
خالقه الفقر كثير العيال
خال له يحيى ولا غير خال^(١)

ثم نجد له في تاريخ وقائع الفتنة هذه القصائد التي تكشف لنا صورة واقعية
مؤثرة صورة الحرب بكل أهوالها وضحاياها ، فهو يقول في وقعة يوم الأحد :

وَقَعَةُ يَوْمِ الْأَحَدِ	صَارَتْ حَدِيثَ الْأَبَدِ
كَمْ جَسَدٍ أَبْصَرْتُهُ	مُلْقَى وَكَمْ مِنْ جَسَدٍ
وَنَاطِرٍ كَانَتْ لَهُ	مَنْيَّةٌ بِالرَّصَدِ
أَتَاهُ سَهْمٌ عَائِرٌ	فَشَقَّ جَوْفَ الْكَيْدِ
وَصَائِحٍ : يَا وَالِدِي !	وَصَائِحٍ : يَا وَلَدِي !
وَكَمْ غَرِيقٍ سَابِحٍ	كَانَ مَتِينَ الْجَلَدِ
لَمْ يَفْتَقِدْهُ أَحَدٌ	غَيْرُ بَنَاتِ الْبَلَدِ ...

ويمضي الشاعر في وصف هذه المعركة ذلك الوصف الواقعي المؤثر الذي
يسجل إحساس أبناء الشعب في صورة تعبيرية بعيدة عن التأنق والترف ، ثم يجلو
صورة أخرى مؤثرة لطعين راح ضحية فتنة لاناقة له فيها ولا جمل ، أضلته
الوعود الكاذبة ، وخلبه بريق المال الذي لم يصل إلى يده قط ، فيقول :

قُلْتُ لِمَطْعُونٍ وَفِيهِ	رَوْحُهُ لَمْ تُودِ
مَنْ أَنْتَ يَا وَيْلَكَ يَا	مُسْكِينُ مِنْ مُحَمَّدٍ ؟
فَقَالَ : لَا مِنْ نَسَبٍ	دَانٍ وَلَا مِنْ بَلَدٍ
لَمْ أَرَهُ قَطُّ وَلَمْ	أَجِدْ لَهُ مِنْ صَفَدٍ

وقال : لا للغىِّ قاتلتُ ولا للرَّشِدِ
إلا لشيءٍ عاجلٍ يصيرُ منه في يدي^(٢)

وبهذه الروح الشعبية الواقعية وصف لنا عمرو الوراق وقعة يوم الإثنين ، وأظهر تفجعه على القتلى من أبناء الشعب الذين لم يستفيدوا شيئاً من نتائج هذه المعركة ، فالحرب لم تجعل منهم قواداً ولا وزراء ، بل ظلوا في أماكنهم من الجيش طعمة لأهواء ساداتهم وما يشيرونه من فتن ، يقول في ذلك :

يا قتيلاً بالقاع مُلقى على الشطِّ هواه بطيئُ الجبَلَيْنِ
ما الذى فى يدبك أنت إذا ما اصطَلح الناسُ أنتَ بالخلَّتَيْنِ
أوزيرُ أم قائدٌ بل بعيدُ أنت من ذَيْن موضعِ الفرقَدَيْنِ
كم بصيرُ غداً بعينين كى يبصر ما حالُهُم فعادَ بعَيْنٍ .. إلخ^(٢)
ولم ينس الوراق أن يسجل فى شعره أثر تلك الفتنة التى جعلت من الحامل رأساً ، والتى جعلت اللصوص يعيشون فى المدينة نهياً وفساداً ، كما صور أولئك الغوغاء الذين توسلوا بها للدرك ما تدعوهم إليه نفوسهم الوضيعة ، وذلك أمر يصحب كل فوضى تصيب مجتمعاً ما ، يقول فى ذلك :

كُلُّ مَنْ كَانَ خَامِلاً صَارَ رَأْسًا مِنْ نَعِيمٍ فِي عَيْشِهِ وَغَضَارُهُ
حَامِلٌ فِي يَمِينِهِ كُلُّ يَوْمٍ مِطْرَدًا فَوْقَ رَأْسِهِ طَيَّارُهُ
أَخْرَجَتْهُ مِنْ بَيْتِهَا أُمُّ سُوءٍ طَلَبَ النَّهْبِ أُمُّ الْعِبَارَةِ
لَيْسَ هَذَا زَمَانُ حُرِّ كَرِيمٍ ذَا زَمَانُ الْأَنْدَالِ أَهْلِ الدَّعَارَةِ
كَانَ فِيمَا مَضَى الْقِتَالُ قِتَالًا فَهُوَ الْيَوْمَ يَا عَلِيَّ تِجَارَةٌ!^(٣)

ومع ذلك فقد ظهر لهؤلاء الغوغاء شأن كبير ، ولعبوا دوراً خطيراً فى هذه الفتنة إذ وقفوا للدفاع عن مدينتهم ضد المعتدين وأحسوا بهذا الواجب من تلقاء أنفسهم

(١) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ١٠ : ١٨٩ .

(٣) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٩١ والمطرد : ربح صغير .

ولهذا سجلوا بطولات وتضحيات كثيرة عبر عنها عمرو الوراق وهو يصف أحدهم فيقول :

عُرْيَانُ لَيْسَ بِذِي قَمِيصٍ يَغْدُو عَلَى طَلَبِ الْقَمِيصِ
يَعْدُو عَلَى ذِي جَوْشَنِ يُغْمِي الْعِيُونَ مِنَ الْبَصِيصِ
حرصاً على طَلَبِ الْقِتَالِ أَشَدَّ مِنْ حِرْصِ الْحَرِيصِ
لَيْثًا مُغِيرًا لَمْ يَزَلْ رَأْسًا يُعَدُّ مِنَ اللَّصُوصِ
أَجْرَى وَأَثْبَتُ مَقْدَمًا فِي الْحَرْبِ مِنْ أَسَدٍ رَهِيصِ ..^(١)
وهكذا دفع الشعب وحده ثمناً غالياً لهذه الفتنة التي حركتها أطماع السياسة والتسلط على الحكم ، وتهدمت مدينة بغداد فوق أبنائها فراحوا ضحايا جريمة لم يرتكبوها ، وكذلك ضحى جنود الفريقين بأنفسهم من أجل لا شيء ، وهذه الأحاسيس المنتزعة من واقع الشعب في ذلك الزمن قد عبر عنها الوراق تعبيراً صادقاً إذ يقول :

ذَهَبَتْ بِهِجَةً بَغْدَادَ وَكَانَتْ ذَاتَ بِهِجَةٍ
قَلَّهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ رَجَّةٌ مِنْ بَعْدِ رَجَّةٍ
ضَجَّتِ الْأَرْضُ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُنْكَرِ ضَجَّةٍ
أَيُّهَا الْمَقْتُولُ مَا أَنْتَ عَلَى دِينِ الْمَحَجَّةِ
لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي نِلْتَ وَقَدْ أَدْلَجْتَ دَلْجَةً
إِلَى الْفِرْدَوْسِ وَجَّهْتَ أَمَ النَّارِ تَوَجَّةً ؟
حَجَرٌ أَرْدَاكَ أَمْ أُرْدِيتَ قَسْرًا بِالْأَرْجَةِ ؟
إِنْ تَكُنْ قَاتِلْتَ بَرًّا فَعَلَيْنَا أَلْفُ حَجَّةٍ !^(٢)

ذلك إذن مظهر من مظاهر الاتجاه الواقعي الذي نحا إليه الشعر في القرن الثاني ، وهو يذكرنا بما فيه من صدق وروح شعبية ظاهرة باتجاه ثالث كان واضحاً

(١) تاريخ الطبری ١٠ : ١٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ١٠ : ١٨٦ .

كل الوضوح في شعر هذا العصر ، وكان يظلل أكثر فنون الشعر سيرورة في تلك الفترة ، ونقصه به الاتجاه الشعبي أو نزوع الشعر إلى الحياة الشعبية بعيداً عن بلاط الخلفاء والدوائر الرسمية التي طالما كان الشعر العربي مرتبطاً بها . وقد ظهر أثر هذه النزعة الشعبية في مضمون الشعر وشكله على السواء ، فإذا بنا نرى الشعراء يخوضون في الهجاء وفي الوصف وفي التعبير عن نفوسهم مستجيبين لدوافع شعبية صميمية ، ومعبرين عن هذه الأغراض جميعاً بأسلوب شعبي واضح فيه بعده عن الأسلوب العربي الفصيح الذي عرفناه في الشعر الجاهلي القديم .

وقد أقبل الشعراء على الأغاني الشعبية إقبالا كبيرا فيما يبدو ، ولكن لم يصلنا للأسف إلا أقل القليل من هذه الأغاني ، كذلك الأنشودة الشعبية التي حاكى فيها أبو العتاهية أغاني الملاحين في نهر دجلة . والحقيقة إن أبا العتاهية بالذات يعتبر شاعراً شعبياً في موضوع شعره وأسلوبه . فالزهد والتذكير بالقيامة وما أشبه إنما هو موضوع يمس عواطف الشعب قبل كل شيء . وكان أبو العتاهية نفسه مدركاً لذلك فهو يقول : « إن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب »^(١) وهذا الفهم لطبيعة شعر الزهد هو الذي دفع أبا العتاهية إلى اختيار أسلوب شعري بسيط قريب من النثر ، يتضمن لغة الحياة اليومية التي كان يحياها هذا العصر . وسنتناول هذه الناحية بالتفصيل عند الحديث عن لغة الشعر عامة في القرن الثاني . ولم يكن أبو العتاهية وحده الذي برز عنده الاتجاه إلى الشعبية ، ولكننا نستطيع أن نقول مطمئنين إن أغلب شعراء القرن الثاني قد استجابوا لعواطفهم الشعبية واقربوا في شعرهم من أبناء الشعب لغة وعاطفة ، نرى هذا واضحاً في تغزل بشار وهجائه في مثل قوله :

لا تَلْعَبِي بِحَيَاتِي واقطِعي أَمَلِي صَبْرًا عَلَى الْمَوْتِ إِنَّ الْمَوْتَ مَرُودُ
أَنْتِ الْأَمِيرَةُ فِي رُوحِي وَفِي جَسَدِي فابْزِي وَرِيشِي بِكَفِّكَ الْأَقَالِيدُ^(٢)
أو مثل قوله :

لَقَدْ كُنْتُ عَلَى الْعَيْنَيْنِ وَالرَّأْسِ فَنُحِيتُ !^(٣)

(١) الأغاني ٤ : ٧٠ .

(٢) ديوان بشار ٣ : ٢٦٧ .

(٣) المصدر نفسه ٢ : ١٨ .

أو قوله :

نورَ عَيْنِي أَصَبْتُ عَيْنِي بِسَكَبِ يَوْمَ فَارَقْتَنِي عَلَى غَيْرِ ذَنْبِ
كَيْفَ لَمْ تَذْكُرِي الْمَوَائِقَ وَالْعَهْدَ وَمَا قُلْتَ لِي وَقُلْتَ لِصَحْبِي
وَمَا تَصَبَّرْتُ عَنْ لِقَائِكَ إِلَّا قَلَّ صَبْرِي وَبَاشَرَ الْمَوْتُ قَلْبِي
لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ حُبِّكَ يَا قُرَّةَ عَيْنِي أَوْ عِشْتُ فِي غَيْرِ حُبٍّ^(١)

ولعلنا نستطيع أن نفهم سبب انتشار غزل بشار إذا أدركنا هذه الناحية الشعبية التي يتميز بها . وقد حكى أن الأصمعي كان يقول : «بشار سلك طريقاً لم يسلك وأحسن فيه وتفرد به . ولهذا لم يبق في البصرة غزل ولا غزلية إلا يروى من شعر بشار^(٢)» .

ونجد مثل هذه النزعة الشعبية عند حماد عجرد وبصفة خاصة في غزله وهجائه ونحمرياته ، فهو يقول مثلاً :

إِنِّي أَحِبُّكَ فَأَعْلَمِي إِن لَمْ تَكُونِي تَعْلَمِينَا
حُبًّا أَقْلُ قَلِيلُهُ كَجَمِيعِ حُبِّ الْعَالَمِينَا^(٣)

وهو حين يهجو يصير شاعراً شعبياً بكل ما في هذه الكلمة من معان فهو يقول مثلاً :

يَا نَافِعُ ابْنَ الْفَاجِرَةِ يَا سَيِّدَ الْمُوَاجِرَةِ
يَا حِلْفَ كُلِّ دَاعِرٍ وَزَوْجَ كُلِّ عَاهِرَةٍ
مَا أَمَّةٌ تَمْلِكُهَا أَوْ حُرَّةٌ بِيْطَاهِرَةٍ
تِجَارَةٌ أَخَذْتُهَا فِي الْكَشْحِ غَيْرِ بَائِرَةٍ
لَوْ دَخَلْتُ عَفِيفَةً بَيْتَكَ صَارَتْ فَاجِرَةٍ
حَتَّى مَتَى تَرْتَعُ فِي الْخُسْرَانِ يَا ابْنَ الْخَاسِرَةِ ؟^(٤)

(١) ديوان بشار ١ : ٢٧٤ .

(٢) الأغاني ٣ : ١٤٧ ، ١٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ١٣ : ٨٥ .

(٤) المصدر نفسه ١٢ : ٨٠ .

ونجد هذه النزعة الشعبية واضحة حتى في شعر الخليفة الوليد بن يزيد ، وهذا يؤكد ما سبق أن قلناه من أن الوليد كان متأثراً بشعراء الكوفة بالذات تأثراً بالغاً ، وخاصة أن النزعة الشعبية كانت من أبرز سمات هؤلاء الشعراء . وقد بالغ البيهقي بلا شك حين جعل الوليد بن يزيد قائد الشعر الشعبي في العراق^(١) ذلك أننا نؤمن بأن الوليد لم يكن في النزعة التجديدية بصورة عامة غير فرد في اتجاه عام ، وتطور لا بد منه . ومن شعر الوليد الذي تظهر فيه نزعته الشعبية واضحة قوله :

يا سُلَيْمَى يا سُلَيْمَى كنتِ لِلْقَلْبِ عذاباً
يا سُلَيْمَى ابنة عمي بردَ اللَّيْلِ وطاباً
أَيُّهَا وَايْشَ وَشَى بِي فاملئى فاهُ تراباً
ريقُها في الصُّبْحِ مِسْكٌ با شَرَ العَذْبِ الرُّضابِ^(٢)

ولعل فيما ذكرنا من شعر أصحاب النزعة الذاتية وخاصة شعر أبي فرعون الساسي وأبي الشمقم وغيرهما، ما يعبر تعبيراً قوياً عن تلك النزعة الشعبية التي نرى أنها كانت اتجاهاً عاماً قوياً في شعر القرن الثاني . وقد لاحظ طه الحاجري من قبل أن أبا الشمقم : « من أعظم شعراء عصره تعبيراً عن الفقر ، وتسجيلاً لصور الجماعات الدنيا، وخروجاً عن التقاليد الشعرية التي ظلت باسطة سلطانها في العصر الأموي في المعنى والأسلوب . » كما لاحظ أيضاً « أن الميزة الواضحة التي يمتاز بها شعر أبي الشمقم هي شعبيته ، وقد كان ينافس بشاراً في هذا »^(٣) .

أما أبو نواس فتتضح النزعة الشعبية في شعره وتبرز بصورة قوية في تلك القصائد التي ينطلق فيها على سجيته بعيداً عن الرسميات ، ويغنى فيها لنفسه وللناس . نجدها في خمرياته ومجونه وطره ، كما نجدها في غزله بالمؤنث والمذكر ، وفي هجائه ، وفي شعره الذاتي الذي يعكس لنا فيه حياته وخبائيا نفسه . ولا يقصر أبو نواس في منح شعره الصبغة الشعبية الكاملة من استخدام أمثال عامية ، كما في قوله :

ومن غابَ عنِ العَيْنِ فَقَدْ غابَ عنِ القَلْبِ^(٤)

(١) تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث : ٢٩٥ .

(٢) الأغاني ٧ : ٣٩ .

(٣) البخل : ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

(٤) ديوان أبي نواس : ٣١٢ .

أو ألفاظ عامية أيضاً كما في قوله :

ولو عَلِمْنَا أَنَّهُ هَكَذَا كُنَّا إِذَا بُسْنَا مَسَحْنَاهَا ^(١)

أما هجاء أبي نواس فتتضح فيه النزعة الشعبية إلى حد كبير كما يتمثل لنا ذلك في قصيدته التي يقول فيها :

يا غُرَابَ الْبَيْنِ فِي الشُّومِ وَمِيزَابَ الْجَنَابَةِ
يا كِتَابًا بِطَلَاقٍ يا عِزَاءَ بِمُصَابَةِ
يا مِثَالًا مِنْ هُمُومٍ يا تَبَارِيحَ كَابَةِ
يا رَغِيفًا رَدَّهُ الْبَقَالُ يُبْسًا وَصَلَابَةً ^(٢)

وهذه المقطوعة تشبه في روحها ما يحدث بين المتسائرين في الأزقة الشعبية في عصرنا الحاضر ، أو هو على وجه التحديد ما يسميه أبناء الشعب في مصر بـ (الروح) ! ويصف لنا أبان بن عبد الحميد اللاحق صورة لطيفة لفرح شعبي تتضح فيها النزعة التي نتحدث عنها ، وخاصة أن تلك النزعة الشعبية تظلل الشكل والمحتوى على السواء ، فهو يقول :

لما رَأَيْتُ الْبَزَّ وَالشَّارَةَ وَالْفَرْشَ قَدْ ضَاقَتْ بِهِ الْحَارَةُ
وَالْمُوزَ وَالسُّكَّرَ يُرْمَى بِهِ مِنْ فَوْقِ ذِي الدَّارِ وَذِي الدَّارَةِ
وَأَحْضَرُوا الْمُلْهَيْنَ لَمْ يَبْتَرَكُوا طَبْلًا وَلَا صَاحِبَ زُمَارَةٍ
فَقُلْتُ لِمَاذَا؟ قِيلَ : أَعْجُوبَةُ مُحَمَّدٍ زَوْجِ عَمَّارَةٍ ^(٣)

ويرى « يوهان فك » ، أن لغة الشعب وجدت مساعداً في التعبير الأدبي للمرة الأولى أيام هارون الرشيد ^(٤) . ومن الأمثلة القليلة التي قدمناها يتضح لنا أن اللغة الشعبية قد بدأت تفتح مجال التعبير الأدبي قبل عصر هارون بكثير ، إذ وجدت عند بشار

(١) ديوان أبي نواس : ٣١٦ .

(٢) المصدر نفسه : ١٥٥ .

(٣) الأوراق (أخبار الشعراء) : ٢٤ .

(٤) العربية : ٩٥ .

في بعض أشعاره ، كما وجدت عند طائفة كبيرة من شعراء الكوفة الذين تحدثنا عنهم والذين كانوا يعيشون في أوائل القرن الثاني ، أي في أواخر الحكم الأموي .

ويحاول البيهقي أن يجعل النزعة الشعبية عند أبي نواس من ناحية موضوعية فقط ، وعند أبي العتاهية من ناحية لفظية^(١) ، وأعتقد أن ما قدمناه من أمثلة يثبت أن النزعة الشعبية في شعر الشاعرين وفي شعر غيرها أيضا كانت شاملة للناحيتين الموضوعية واللفظية . ويرى البيهقي كذلك أن هؤلاء الشعراء الشعبيين قد أصابوا الشعر العربي بنكستين ؛ الأولى أنهم جعلوا الشعر عملاً من الأعمال وحرقة من الحرف ، والأخرى أنهم نزلوا بموضوعاته عن رفعتها فأصبح موضوع الشعر كل شيء^(٢) . أما عن « النكسة » الأولى فهي مبهمة في نظري ولا علاقة لها بالاتجاه نحو الشعبية ، بل ربما كان الشيطان على طرفي نقيض . فالشعبية تبعد الشعراء عن الاحتراف والتكسب بشعرهم ، وتجعلهم يعبرون عما في نفوسهم ويصورون أحاسيس الشعب وهم بعض أفرادهم . وأما « النكسة » الثانية ، وهي أن الشعبية جعلت موضوع الشعر كل شيء فلا أدري : إن كان يصح أن تسمى نكسة أو تطوراً لا بد منه . إن الشعر بالمعنى الحديث الذي نفهمه يرتبط ارتباطاً كاملاً بالحياة في جميع مظاهرها ونواحيها وأهدافها ، ولا يقتصر على الأغراض القديمة التقليدية التي تجعل منه فناً أرسطوياً خاصة الخاصة فحسب . وأما أن يفهم من عبارة البيهقي أن الشعر الشعبي كان سبباً في خلق شعر المناسبات الذي حفل به عصر الانحطاط ، فهذا أيضاً نرفضه رفضاً باتاً لأن شعر المناسبات جذوره تكمن في أغراض الشعر التقليدي أولاً ، ثم في تلك العوامل التي جددت على المجتمع العربي وأسرعت به إلى الانحطاط الفكري والفراغ الثقافي ، ولو ظل الشعر العربي يساير الحياة كما كان شأنه في القرن الثاني لما وصل إلى ما وصل إليه في عصور الانحطاط والتخلف . فالأتجاه الشعبي إذن لم يكن له أي أثر سيء في الشعر العربي ، بل كان على العكس تطوراً جديداً لا بد منه ليواكب الشعر الحياة ولا يتخلف عن الإحساس بها ، والتعبير عما فيها من تغير دائم مستمر .

ولعل مما يرتبط بهذا الاتجاه الشعبي في شعر القرن الثاني ذلك الاتجاه الآخر نحو التسلية والترفيه . وقد لاحظ وجود هذا الاتجاه من قبل عبد الحميد يونس ،

(١) تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث : ٤٦٥ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٦٣ .

وهو يشرحه قائلا : « إن الدارس للخمريات والغزل بالمذكر ، والمتبع للأخبار التي قصت عن أصحابه أو لفقت عليهم ، يجد عنصر التسلية والترفيه واضحا كل الوضوح . وما عليك لكي تثبت من هذا القول إلا أن ترجع إلى دواوينهم ، فسوف تلاحظ الصور المطروقة ، والمشاهد المتكررة ، والأوصاف الشائعة للشراب وأوعيته ومجالسه وسقاته ودكاكينه ، وأمر الغزل بالمذكر مهما قيل عن صدقه فقد خرج من باب التفنن إلى العبث الصارخ والمجون الصريح ، يطلقه أصحابه على الناس تلهية لهم أو تفريغا لشحنة غرائزهم ^(١) » .

والحقيقة إن الاتجاه إلى التسلية والترفيه كان خطأ بارزا في شعر القرن الثاني ، وهو لم يقتصر على الخمريات والغزل بالمذكر كما يرى عبد الحميد يونس . ولكنه ظهر في موضوعات أخرى كثيرة مثل الهجاء والرثاء أيضا ، بل وجد شعر في هذا القرن موضوعه وغايته التسلية والترفيه فقط ، وتتضح لنا هذه النزعة في قصيدة أبي نواس مثلا في الهجاء التي يقول فيها :

خَبِرْ إِسْمَاعِيلَ كَالْوَشِيِّ إِذَا مَا انشَقَّ يُرْفَا
عَجَبًا مِنْ أَثَرِ الصَّنْعَةِ فِيهِ كَيْفَ يَخْفَى
إِنَّ رِفَاءَكَ هَذَا أَحْذَقُ الْأُمَّةِ كَفَا
وَإِذَا قَابَلَ بِالنُّصْفِ مِنَ الْجَرْدَقِ نَصْفَا
يُلْصِقُ النُّصْفَ بِنُصْفٍ فَإِذَا قَدْ صَارَ أَلْفَا
الْطَفَ الصَّنْعَةُ حَتَّى لَا تَرَى مَغْرَزَ إِشْفَى
مَثَلَمَا جَاءَ مِنَ التَّوْرِ مَا غَادَرَ حَرْفَا ^(٢)

وتتضح لنا أيضا في تلك القصيدة الساخرة التي كتبها بشار على لسان حماره حين مات فادعى بشار أنه رآه في النوم فسأله : لم مت ؟ ألم أكن أحسن إليك ؟ فقال الحمار :

(١) الأسس الفنية للنقد الأدبي : ٩٧ .

(٢) ديوان أبي نواس : ١٤٢ .

سَيِّدِي خُذْ بِي أَتَانَا عِنْدَ بَابِ الْأَصْفَهَانِي
تَيْمَنِّي يَوْمَ رُحْنَا بِثَنَابِهَا الْحِسَانِ
وَيَغْنَجِ وَدَلَالِ سَلِّ جِسْمِي وَبِرَائِي
وَلَهَا خَذُّ أَسِيلُ مِثْلُ خَذِّ الشَّيْفَرَانِ
فَلَذَا مَتُّ وَلَوْ عِشْتُ إِذْنُ كَانَ هَوَانِي

ويكمل بشار سخريته حين يسأله السائل عن معنى الشيفران فيقول : ما يدريني هذا من غريب الحمار ، فإذا لقيته فاسأله !^(١)

وتتضح لنا هذه النزعة أيضا في قصيدة لعبد الصمد بن المعذل يرثي فيها طفيليا كان يذهب إلى المآذب مع ولدين له متطفلين على الناس ، وفي إحدى المرات ابتلع الرجل لقمة ساخنة من فالودج فقضى نحيبه ، فقال فيه عبد الصمد :

أَحْزَانُ نَفْسِي عَلَيْهِ غَيْرُ مُنْصَرِمَةٍ وَأَدْمَعِي مِنْ جُفُونِي الدَّهْرُ مُنْسَجِمَةٌ
عَلَى صَدِيقٍ وَمَوْلَى لِي فُجِعْتُ بِهِ مَا إِنَّ لَهُ فِي جَمِيعِ الصَّالِحِينَ لُحْمَةً
كَمْ جَفَنَةٍ مِثْلَ جَوْفِ الْحَوْضِ مِثْرَعَةٍ كَوْمَاءُ جَاءَ بِهَا طَبَاخُهَا رَذْمَةٌ
قَدْ كَلَلَتْهَا شُحُومٌ مِنْ قَلْبَيْنِهَا وَمِنْ سَنَامٍ جَزُورٍ عِبْطَةٌ سَنِمَةٌ
غُيِّبَتْ عَنْهَا فَلَمْ تَعْرِفْ لَهَا خَبْرًا لَهْفِي عَلَيْكَ وَوَيْلِي يَا أَبَا سَلَمَةَ
وَلَوْ تَكُونُ لَهَا حَيًّا لَمَا بَعُدَتْ يَوْمًا عَلَيْكَ وَلَوْ فِي جَا حِمٍ طُعْمَةٌ
قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الْأَكْلَ يَقْتُلُهُ لَكِنِّي كُنْتُ أَخْشَى ذَاكَ مِنْ تُخَمَةٍ !^(٢)

وأبو نواس يحض على شعر التسلية والمزاح ليتجنب مدح اللثام كما في قوله :

يَا مَادِحَ الْقَوْمِ اللَّثَامِ وَطَالِبَا نَيْلِ الشُّحَا حِ
اشْغَلْ قَرِيضَكَ بِالنَّسِيبِ وَبِالْفُكَاهَةِ وَالْمِزَاحِ^(٣)

(١) الأغاني ٣ : ٢٢١ .

(٢) المصدر نفسه ١٣ : ٣٣٢ .

(٣) ديوان ابن نواس (ط . فاجتر) : ٣٥٢ .

وهذا الاتجاه إلى التسلية والضحك الذى لا يخلو من روح شعبي قوى نجده
يبرز فى شعر ليس له موضوع إلا ذلك الاتجاه نفسه - وإن كان هذا النوع بطبيعته
قليل فى الشعر العربى ، بل فى كل شعر على وجه العموم - ويمثل لنا هذا الاتجاه
الشاعر أبو العبر الذى ظهر فى أواخر القرن الثانى وامتدت حياته حتى منتصف القرن
الثالث والذى كان - كما يقول ابن المعتز - من زعماء الحمقى والماجنين ، فمن قوله :

أنا أنا أنت أنا أنا أبو العبرنة
أنا الفتنى الحمقوقوا أنا أخو المجنة
أنا أحرر شعري وقد ينجى برذنه
قلو سمعت بشعري فى اللس والوترنة
لسقر قر سقر نقر وما ترن ترنه
لكنت تضحك حتى لتمسك البططنة (١)

وهناك قصيدة أخرى تشبه هذا المثال وتنسب إلى الأصمعى ، يقول فيها :

صوت صغير البلبل هيج قلب الثيل
الماء والزهر معاً من غنج لحظ المقل
وأنت حقاً سيدى وسوددى ومولى
وكم . وكم تيمنى غزىلى عبقلى
قطفت من وحنته بالوهم ورد الخجل
وقلت بشيبستنى فلم يجد بالقبل
وقال لا لا لا وقد غدا مهرولى (٢)

ولكنى أشك فى أن يكون الأصمعى هو قائل مثل هذا النوع من الشعر الساخر
الذى يتطلب الضحك فحسب ، بل أكاد أجزم أن هذه القصيدة هي لأبى العبر

(١) طبقات الشعراء : ٣٤٣ وفى الأبيات بعض الاضطراب كما يقول محقق الكتاب ، وقد

تمت بمحاولة لتقويمها فى المعنى الوزن .

(٢) حلبة الكيت : ٨٩ : ٩٠ .

نفسه ، لأن فيها روحه وأسلوبه ، ونسبها إلى الأصمعي خطأ ربما جاء عن طريق روايته لها .

ولعل هذا الاتجاه إلى الترفيه والتسلية كان من العوامل المباشرة التي دعت إلى السحل والمجون في شعر القرن الثاني ، والتقاء هاتين الناحيتين يظهر بوضوح في شعر أبي دلالة . فأحيانا نجده يصف امرأته وصفاً ساخرأ يبعث على الضحك ليتوسل بذلك إلى رضا الخليفة كمثل قوله :

عَجِبْتُ مِنْ صَبِيَّتِي يَوْمًا وَأَمَّهُمْ	أُمُّ الدَّلَامَةِ لَمَّا هَاجَهَا الْجَزَعُ
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ مُنْبَهَةٍ	هَبَّتْ تَلُومُ عِيَالِي بَعْدَ مَا هَجَعُوا
وَنَحْنُ مُشْتَبِهَوِ الْأَلْوَانِ أَوْجُهَنَا	سُودَ قَبَاحُ فِي أَسْمَانِنَا شَنَعُ
إِذَا تَشَكَّتْ إِلَى الْجُوعِ قَلْتُ لَهَا	مَا هَاجَ جُوعَكَ إِلَّا الرُّيُّ وَالشَّبَعُ
مَا زِلْتُ أَخْلَصُهَا كَسْبِي فَتَأْكُلُهُ	دُونِي وَدُونَ عِيَالِي ثُمَّ تَضْطَجِعُ
شَوْهَاءَ مَشْنَاءَ فِي بَطْنِهَا تَجَلُّ	فِي الْمَفَاصِلِ مِنْ أَوْصَالِهَا فَدَعُ
ذَكَرْتُهَا بِكِتَابِ اللَّهِ حُرْمَتِنَا	وَلَمْ تَكُنْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَنْتَفِعُ
فَاخْرَنْطَمْتَ ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ مُغْضَبَةٌ	أَأَنْتَ تَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ بِالْكَعْ
اخْرُجْ لَتَبْعَ لَنَا مَالًا وَمَزْرَعَةً	كَمَا لِجِيرَانِنَا مَالٌ وَمُزْدَرَعُ
وَاخْذَعْ خَلِيفَتَنَا عَنْهَا بِمَسْأَلَةٍ	إِنَّ الْخَلِيفَةَ لِلسُّؤَالِ يَنْخَدِعُ ^(١)

وأحيانا أخرى يستعين بهذه الناحية الساخرة في إظهار مجونه وتحلله كما في أبياته التي يهاجم فيها الصوم :

أَضْحَى الصَّيَامُ مُنِيفًا وَسَطًا. عَرَضَتِنَا	لَيْتَ الصَّيَامَ بِأَرْضٍ دُونَهَا حَرَشُ
إِنْ صُمْتُ أَوْجَعَنِي بَطْنِي وَأَقْلَقَنِي	بَيْنَ الْجَوَانِحِ مَسُّ الْجُوعِ وَالْعَطَشُ
وَإِنْ خَرَجْتُ بِلَيْلٍ نَحْوَ مَسْجِدِهِمْ	أَضَرَّنِي بَصْرٌ قَدْ خَانَهُ الْعَمَشُ ^(٢)

(١) الأغاني ١٠ : ٢٣٧ .

(٢) الأغاني ١٠ : ٢٥٤ .

وكما في أبياته أيضاً التي يهاجم فيها الصلاة بعد أن حاول الخليفة إجباره عليها :

أَلَمْ تَرَيَا أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَزَنِي بِمَسْجِدِهِ وَالْقَصْرَ مَالِي وَلِلْقَصْرِ
فَقَدْ صَدَّنِي مِنْ مَسْجِدٍ أَسْتَلْهُ أَعْلَلُ فِيهِ بِالسَّمَاعِ وَبِالْخَمْرِ
وَكَلَّفَنِي الْأَوَّلَى جَمِيعاً وَعَصَرَهَا فَوَيْلِي مِنَ الْأَوَّلَى وَعَوَّلِي مِنَ الْعَصْرِ
لَقَدْ كَانَ فِي قَوْمِي مِسَاجِدُ جَمَّةٌ وَلَمْ يَنْشَرِّحْ يَوْماً لِيَغْشِيَانِيهَا صَدْرِي^(١)

وهكذا اقترن الاتجاه الشعبي في شعر القرن الثاني بهذا الاتجاه نحو التسلية والترفيه ، وهذا شأن الروح الشعبية دائماً في كل زمان ومكان .

غير أن هذا الاتجاه الشعبي لم يجعل الشعر العربي في القرن الثاني تعبيراً محلياً مرتبطاً بمكانه وزمانه دون أن يخرج إلى آفاق أوسع وأرحب ، ومعان إنسانية عميقة يشترك الناس جميعاً ، على اختلاف ألوانهم ، في الإحساس بها والتجاوب معها ، كلا لم يكن للاتجاه الشعبي هذا التأثير الضار على شعر القرن الثاني ، فقد وجد إلى جانبه اتجاه إنساني كان قليل الظهور في الشعر العربي القديم .

وأول خطوة نحو هذا الاتجاه تتمثل في ظهور الإحساس بالوطن في شعر القرن الثاني . وهذه الظاهرة هامة جداً ، لأنها علامة على اقتراب الشعر العربي من المشاعر الإنسانية الرحبة التي يسعها الوطن الكبير . ومن أول ما وصلنا من هذا الشعر تلك الأبيات القليلة التي قالها ابن ميادة في القرن الأول يتشوق فيها إلى مرابعه في الجزيرة العربية ، تلك التي كان العربي مشلوقاً إليها حتى ذلك العصر ، لا يعتبر أي أرض سواها وطناً له ، بعكس ما آل إليه الأمر قرب نهاية القرن الثاني بعد حدوث الاستقرار الاجتماعي . ويقول ابن ميادة في أبياته :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنُ لَيْلَةً بِحَرَّةٍ لَيْلِي حَيْثُ رَبَّتَنِي أَهْلِي
وَهَلْ أَسْمَعَنَّ الدَّهْرَ أَصْوَاتَ هَجْمَةٍ تُطَالِعُ مِنْ هَجَلٍ خَصِيبٍ إِلَى هَجَلٍ
بِلَادُهَا نَيْطَتُ عَلَى تَمَائِي وَقُطِّنَ عَنِّي حِينَ أَذْرَكُنِي عَقْلِي^(٢)

(١) ديوان أبي دلالة : ١٣٩ .

(٢) الأغاني ٢ : ١٠٣ .

ولكن هذا الإحساس بالوطن عمق واتضح مفهومه أكثر من ذي قبل بعد جيل ابن ميادة ، ولم يصبح عصبية للجزيرة العربية كما كان في القرن الأول مثلاً ، ولكن تغير مفهوم الوطن فأصبح البقعة الحديدية التي يعيش فيها الإنسان ترتبط حياته بها ، ولهذا اختفى شعر الحنين إلى الجزيرة العربية ، وحل محله حنين إلى البصرة والكوفة أو خراسان في أية بقعة منها ، ما دامت هذه الأماكن قد أصبحت وطناً جديداً للشعراء . فابن أبي عيينة مثلاً يقول في البصرة التي اتخذها وطناً جديداً له واستقرت حياته فيها :

يا جنة فأتت الجنانَ فما تَبْلُغُها قِيَمَةٌ ولا تُحْمَنُ
أَلِفْتُها فاتَّخَذْتُها وَطَنًا إِنَّ فُؤَادِي لِحُبِّها وَطَنٌ^(١)

وللشاعر محمد بن وهيب قصائد كثيرة في الحنين إلى البصرة كما يذكر صاحب الأغاني^(٢) . ولعل عوف بن محم الخزاعي كان من أعمق شعراء القرن الثاني إحساساً بوطنه فهو يتشوق إليه في أبيات عميقة حزينة حين ذكرته به حمامة تنوح . وهو لم يذكر وطنه فحسب ، بل ذكر أطفاله الذين تركهم في وطنه وأظهر هذا الإحساس النبيل بالبنوة أو الشعور الأبوي الرحيم وذلك في قوله :

أَفَى كُلِّ عامٍ غُرْبَةً وَفُزُوحُ أَمَا لِلسَّوَى مِنْ وَبِيَةٍ فَتُرِيحُ
لَقَدْ طَلَحَ الْبَيْنُ الْمُشْتِ رَكَائِي فَهَلْ أَرَيْنَ الْبَيْنَ وَهُوَ طَلِيحُ
وَأَرْقِنِي بِالرَّيِّ نَوْحُ حَمَامَةٍ فَنُحْتُ وَذُو اللَّبِّ الْحَزِينُ بَنُوحُ
عَلَى أَنَّهَا نَاحَتْ فَلَمْ تُرِ عِبْرَةٌ وَنُحْتُ وَأَسْرَابُ الدُّمُوعِ سُفُوحُ
وَنَاحَتْ وَفَرَاخُهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا وَمِنْ دُونِ أَفْرَاحِي مَهَامَةٌ فَيَحُ
أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْكِ فَرُخُكَ حَاضِرٌ وَغُصْنُكَ مِيَادُ قَفِيمٍ تَنُوحُ...^(٣)

ويظهر عوف هذا الحب العميق لوطنه بعد أن علت به السن وتراكت على ظهره السنون ، فاشتاق أن يستريح من رحلة الحياة بالإياب إلى أحضان وطنه الحبيب إلى نفسه ، فيقول :

(١) عيون الأخبار : ٢١٧ .

(٢) الأغاني ١٧ : ١٤١ .

(٣) طبقات ابن المعتز : ١٨٧ .

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلَّغَتْهَا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانِ
وَأَبْدَلْتَنِي بِالشُّطَاطِ وَكُنْتُ كَالصَّغْدَةِ تَحْتَ السُّنَانِ
وَعَوَضْتَنِي مِنْ زَمَاعِ الْفَتَى وَهَمُّهُمْ هَمُّ الْهَجِينِ الْهَدَانِ
وَهَمْتُ بِالْأَوْطَانِ وَجَدًا بِهَا وَبِالْعَوَانِي أَيْنَ مِنِّي الْعَوَانِ
فَقَرَّبَانِي بِأَبِي أَنْتُمَا مِنْ وَطَنِي قَبْلَ اضْفِرَارِ الْبَنَانِ
وَقَبْلَ مَشَايَ إِلَى نِسْوَةٍ أَوْطَانُهَا حَرَانُ فَالرَّقْمَتَانِ^(١)

ومن الأحاسيس النبيلة التي ظهرت في شعر القرن الثاني ما سبق أن أشرنا إليه في قصيدة ابن محلم وهو الشعور الأبوى الرحيم، ويعبر عنه أصدق تعبير محمد بن يسير إذ يخشى سوء مآل ابنته بعد وفاته ويظهر عطفه وتفجعه عليها فيقول :

لَوْلَا الْبُنْيَةُ لَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْعَدَمِ وَلَمْ أَجُبْ فِي اللَّيَالِي حِنْدَسَ الظُّلَمِ
وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْعَيْشِ مَعْرِفَتِي ذُلَّ الْيَتِيمَةِ يَجْفُوهَا ذُوو الرِّحِمِ
أَخْشَى فِظَاظَةً عَمُّ أَوْ جَفَاءَ أَخٍ وَكُنْتُ أَخْشَى عَلَيْهَا مِنْ أَدَى الْكَلَمِ
إِذَا تَذَكَّرْتُ بِنْتِي حِينَ تَنْدُبُنِي جَرَتْ لِعَبْرَةٍ بِنْتِي عَبْرَتِي بِدَمِ
تَهْوِي بِقَائِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقًا وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحَرَمِ^(٢)

ومما يتصل بهذا الشعور الإنساني الرقيق أيضاً ، تلك الأبيات التي قالها دعبل في صلة الرحم :

أَحْبَبْتُ قَوْمِي وَلَمْ أَغْدِلْ بِحُبِّهِمْ قَالُوا تَعْصَبْتَ جَهْلًا قَوْلَ ذِي بَهْتِ
دَعْنِي أَصِلْ رَحِمِي إِنْ كُنْتَ قَاطِعَهَا لَا بُدَّ لِلرَّحِمِ الدُّنْيَا مِنَ الصَّلَةِ
فَاحْفَظْ عَشِيرَتَكَ الْأَدْنَى إِنْ لَهْمِ حَقًّا يُفَرِّقُ بَيْنَ الزَّوْجِ وَالْمَرْءِ^(٣)

ومن الشعر الذي يبرز فيه الاتجاه الإنساني بوضوح أيضاً ، معنى ربما كان أوسع في دائرة الإنسانية مما قدمنا من الأمثلة ، ونقصد به معنى التسامح . وهو معنى

(١) طبقات ابن المعتز : ١٨٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٨١ .

(٣) الكامل للمبرد : ٢٢٩ .

قرآني كريم يتردد دائماً في كتاب الله ، ولو أننا نجد أغلب القائلين في هذا المعنى من ذوى الثقافات الأجنبية الواسعة مثل محمود الوراق الذى يقول :

إِنِّى شَكَرْتُ لِظَالِمٍ ظَلَمَنِى وَغَفَرْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَى عِلْمِى
وَرَأَيْتُهُ أَشَدَّ إِلَى يَدَا لَمَّا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حِلْمِى
رَجَعْتُ إِسَاءَتُهُ عَلَيْهِ وَإِحْسَا نِى فَعَادَ مُضَاعَفَ الْجُرْمِ
وَعُدْتُ ذَا أَجْرٍ وَمَحْمَدَةٍ وَعَدَا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالْإِثْمِ
فَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ وَأَنَا الْمُسِيءُ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ
مَا زَالِ يَظْلِمُنِى وَأَرْحَمُهُ حَتَّى بَكَيْتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ^(١)

كما نجد أيضاً أن فكرة التسامح والمسالمة شائعة بين الزهاد والمتصوفين في القرن الثاني ، مثال ذلك قول أبي العتاهية :

كَمْ مِنْ سَفِيهِ غَاظَنِى سَفَهَا فَشَفَيْتُ نَفْسِي مِنْهُ بِالْحِلْمِ
وَكَفَيْتُ نَفْسِي ظُلْمَ عَادِيَتِي وَمَنْحْتُ صَفْوَ مَوَدَّتِي سِلْمِي
وَلَقَدْ رَزَقْتَ لَظَالِمِي غِلَظًا وَرَحْمَتُهُ إِذْ لَجَّ فِي ظُلْمِي^(٢)

ويتصل بمعنى التسامح في إنسانيته شعر الصداقة والصديق الذى كثر وجوده في القرن الثاني ، ولعله نشأ بتأثير أجنبي ، فابن المقفع دائم التذكير بأن « من لا إخوان له فلا أهل له »^(٣) وأن « من المعونة على تسلية الهموم وسكون النفس لقاء الأخ أخاه وإفضاء كل واحد منهما إلى صاحبه بيته »^(٤) ، كما أن « أولى الناس بفضل السرور وكرم العيش وحسن الشاء من لا يبرح رحله من إخوانه وأصدقائه من الصالحين موطوءا ، ولا يزال عنده منهم زحام ، ويسرهم ويسرونه ، ويكون من وراء حاجاتهم وأمورهم »^(٥) .

(١) الكامل للبرد : ٢٢٥ .

(٢) ديوان أبي العتاهية : ٣٧٦ .

(٣) الأدب الصغير : ٧٠ .

(٤) المصدر نفسه : ٧٧ .

(٥) المصدر نفسه : ٧٦ .

وفي مثل هذه المعاني نجد أشعاراً كثيرة تظهر في القرن الثاني ، فبشار يقول مثلاً
أبياته المعروفة :

إِذَا كُنْتُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ
فَعِشْ وَاحِدًا أَوْصِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُفَارِقُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَدَى ظَمِئْتُ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ^(١)

ويقول بشار أيضاً في مثل هذه المعاني بصورة أوسع تعبيراً :

وَأَخٍ ذِي ثِقَةٍ آخِيَّتُهُ مَاجِدِ الْأَعْرَاقِ مَأْمُونِ الْأَدَبِ
أَمَحَضَ اللَّهُ لَهُ أَخْلَاقَهُ فَهِيَ كَالْإِبْرِيْزِ مِنْ سِرِّ الدَّهَبِ
عَزَّنِي الْمَعْرُوفُ حَتَّى عَلَقْتُ كُلُّ كَفٍّ لِي مِنْهُ بِسَبَبِ
فَهُوَ يُعْطِينِي وَأَعْطَى فَضْلَهُ سَبَلَ الْغَيْثِ تَدَلَّى فَسَكَبَ^(١)
فَإِذَا أَبْصَرَ وَجْهِي مُقْبِلًا ضَحِكْتُ عَيْنَاهُ مِنْ غَيْرِ عَجَبِ
وَإِذَا كَلَّمْتُهُ وَاحِدَةً هَيَّجَتْ مِنْهُ عُلاَلَاتِ الطَّرَبِ
وَإِذَا مَا غَبْتُ عَنْهُ سَاعَةً أَنَّ لِلْغَيْبَةِ مِنْ غَيْرِ وَصَبِ
فَهُوَ لِي - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - غَنَى وَعَفَافٌ مِنْ دَنِيِّ الْمُكْتَسَبِ^(٢)

ومطيع بن إياس يعرف الصديق أيضاً فلا يخرج عن معاني ابن المقفع تقريباً
إذ يقول :

فَلَنْ كُنْتُ لَسْتُ تَصْحَبُ إِلَّا صَاحِبًا لَا تَزِلُّ مَا عَاشَ نَعْلُهُ
لَا تَجِدُهُ وَلَوْ جَهَدْتَ وَأَنْتِ بِالَّذِي لَا يَكَادُ يُوجَدُ مِثْلُهُ
إِنَّمَا صَاحِبِي الَّذِي يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَكْفِيهِ مِنْ أَخِيهِ أَقْلُهُ
لَيْسَ مَنْ يُظْهِرُ الْمَوَدَّةَ إِفْكَأً وَإِذَا قَالَ خَالَفَ الْقَوْلَ فَعْلُهُ^(٣)

(١) ديوان بشار ١ : ٣٠٩ الرواية الشائعة (مقارن) وعلى هذا يكون معنى (بجانبه)
في الرواية المشبهة أي يسير بجانبه .

(٢) ديوان بشار ١ : ٣٠٤ .

(٣) طبقات ابن المعتز : ٩٥ .

والحرى يتحدث في قصيدة مطولة عن الوفاء للصديق وشماله الكريمة فيقول :

أَسْرُ خَلِيلِي شَاهِدًا وَأَبْرُهُ	وَأَحْفَظُهُ بِالْغَيْبِ حِينَ يَغِيبُ
وَإِنِّي لَسَهْلُ الْوَجْهِ لِلْمُبْتَغَى النَّدَى	وَإِنَّ فَنَائِي لِلْقَرَى لَرَحِيبُ
أَصَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ	وَيُخَصِّبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيبُ
وَإِنِّي لَتَصَفُو لِلخَلِيلِ سَرِيرَتِي	وَقَدْ جَعَلْتُ أَشْيَاءَ مِنْهُ تَرْيِبُ
أَعَاتِبُهُ مَزْحًا وَأَعْرِضُ بِالنِّسَى	لَهَا بَيْنَ أَثْنَاءِ الضُّلُوعِ دَرِيبُ
أَخَافُ لَجَاجَاتِ الْعِتَابِ بِصَاحِبِي	وَلِلْجَهْلِ مِنْ قَلْبِ الْحَلِيمِ نَصِيبُ
لِيَحْيِي دَفِينٌ مِنْ مَوَدَّةِ بَيْنِنَا	فِيُخَلِّفُ ظَنُّهُ أَوْ يَثُوبَ غَرِيبُ
فَإِنْ فَاءَ لَمْ أَعُدُّ عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ	وَهَلْ بَعْدَ فَيْئَاتِ الرُّجَالِ ذُنُوبُ
وَإِنْ لَجَّ فِي هَجْرِي صَفَحْتُ فَكْرُمًا	لَعَلَّ الْحِجَا بَعْدَ الْعُزُوبِ يَثُوبُ (١)

ونجد لغير هؤلاء الشعراء الذين مثلنا بشيء من شعرهم قصائد كثيرة في موضوع الصداقة والصديق نكتي منها بما قدمناه ، فنكون بذلك قد استوفينا الحديث عن تلك الاتجاهات العامة التي ظلت الشعر في القرن الثاني — كما نرى — في معناه ومبناه كما سنحاول أن نشرح ذلك في الفصول التالية .

(١) المختار من شعر بشار : ١٩٤ .

الفصل الثاني

الاتجاهات الجديدة

ظهرت في الشعر العربي في القرن الثاني - بفعل عوامل مختلفة شرحناها فيما سبق - اتجاهات موضوعية جديدة لم تكن موجودة في الشعر من قبل ، أرى كما يقول ابن رشيق : « ما مرت قط بخاطر جاهلي ولا مخضرم ولا إسلامي^(١) » . وهذه الاتجاهات هي التي سنتناولها في هذا الفصل بالدراسة والتحليل ناظرين إلى المؤثرات فيها وإلى بواعثها وارتباطاتها الفكرية ، كما سنعرض لها من ناحية قيمتها الفنية من حيث الموضوع ، أما من حيث الشكل فسندرجي الكلام عنه إلى الباب الثالث من هذا البحث . وأول هذه الاتجاهات التي نرى أنها كانت جديدة تماماً على الشعر العربي في القرن الثاني ، وأنها لم تكن موجودة فيه قبل هذا العصر - بالصورة التي نعنيها - هو المحجون :

المحجون

إذا بحثنا عن المعنى الدقيق للمحجون في اللغة استطعنا أن نحدد بالضبط ما المقصود بشعر المحجون ، وأي أغراض كان يخوض فيها ، ومن هم الشعراء الذين يصح أن نطلق عليهم اسم شعراء المحجون ، وما إلى ذلك . وقد جاء في اللغة : مجنت الأرض مجوناً إذا صلبت وغلظت ، ومنه جاء اشتقاق كلمة « ماجن » لصلابة وجهه وقلة استحيائه . والمجانة أيضاً معناها أن لا يبالي الإنسان ما صنع وما قيل له . وذكر أن الماجن عند العرب هو الذي يرتكب المقابح المردية والفضائح المخزية ، ولا يعضه عدل عاذل ولا تقريع من يقرعه^(٢) .

ومن هذا نعرف المحجون بأنه ارتكاب الأعمال المخلة بالآداب العامة والعرف والتقاليد دون تسر أو استحياء ، وبهذا التعريف نجد أن المحجون ظاهرة خطيرة في أي مجتمع

(١) العملة ٢ : ١٨٥ .

(٢) لسان العرب : مادة مجن .

إنساني وخاصة إذا انعكس في شعر هذا المجتمع كما حدث في القرن الثاني ، هذا بالإضافة إلى ضرورة ارتباط المجون — بناء على هذا التعريف — بالأغراض الشعرية الأخرى التي تصور جميع الانحرافات النفسية والاجتماعية المختلفة مثل الحمريات والزندقة والغزل بالمذكر وما إلى ذلك .

ونشأة المجون إنما ترتبط بالقرن الثاني ارتباطاً كاملاً فيما نرى ، إذ أن المجون في القرن الأول كان مسألة فردية وليس تياراً عاتياً ، كما أنه كان يقتصر على شرب الخمر أو ما أشبه ، مثلما يحكى عن الوليد بن عقبة أخى عثمان بن عفان ، وكما يروى لنا عن يزيد بن معاوية ، وإن كنا لا نصدق ما رواه الأصفهاني من أن يزيد حين حج في خلافة أبيه معاوية ، جلس بالمدينة على شراب ، فاستأذن عليه عبد الله ابن العباس والحسين بن علي ، فأمر بشرابه فرفع ، وقيل له إن ابن عباس إن وجد ربح شرابك عرفه فحجبه وأذن للحسين ، فلما دخل وجد رائحة الشراب مع الطيب فقال : « لله در طيبك هذا ما أطيبه ، وما كنت أحسب أحداً يتقدمنا في صنعة الطيب ، فما هذا يا ابن معاوية ؟ فقال : يا أبا عبد الله ، هذا طيب يصنع لنا بالشام ، ثم دعا بقدر فشربه ، ثم دعا بقدر آخر فقال : اسق أبا عبد الله يا غلام ، فقال الحسين : عليك شرابك أيها المرء لا عين عليك منى ، فشرب فقال :

ألا يا صاح للعجبِ دَعَوْتُكَ ثُمَّ لَمْ تُجِبِ
إلى القَيْنَاتِ واللَّدَاتِ والصَّهْبَاءِ والطَّرَبِ
وباطِيَةِ مُكَلَّلَةٍ عليها سَادَةُ العَرَبِ
وفيهِنَّ الَّتِي تَبَلَّتْ فُؤَادَكَ ثُمَّ لَمْ تَتُبْ^(١)

وأغلب الظن أن هذه الرواية مصنوعة لفقها الشيعة على يزيد بن معاوية ، خصوصاً أن الشعر لا يتفق مع موضوع الخمر نفسه .

ولعل أول الشعراء الماجنين — بالمعنى الحقيقي للمجون — هو ابن خدام الأسدي الذي كان يتزل الكوفة في أوائل القرن الثاني^(٢) ، وكانت له زوجة من أهل الرى اسمها (دختكا) ويبدو أن الصلة بينهما كانت صلة شاذة غريبة من ناحية الجنس ، لأننا

(١) الأغاني ١٤ : ٦١ . (٢) يقول بروكلمن إن مرداس بن خدام الكوفي

كان أول من انحرف بأشعار الغزل إلى المجون (انظر : تاريخ الأدب العربي ١ : ٢٠٣) .

فجد ابن خدام هذا يكتب أشعاراً كثيرة يصف فيها متاعه وهن زوجته^(١). ويصف لنا طه حسين بدء انتشار تيار المجنون فيقول: «لم يكدها يبتلى القرن الثاني حتى ظهر المجنون وانتشر ووصل إلى قصور الخلفاء، ثم كانت ثورة العباسيين فتم انتصار الفرس على العرب وانتقل مركز الخلافة من الشام إلى العراق وأصبح الأدب عراقياً لا شامياً ولا بلوياً، أى أصبح خاضعاً من كتب لتأثير الفرس وحضارة الفرس فتم انتصار العبت والمجون^(٢)». والحقيقة إننا لا نستطيع أن نسقط من حسابنا التأثير الفارسي في مد تيار المجنون بأسباب القوة والحياة، فقد تم اختلاط العرب بالفرس بعد أن وصلت الدولة الفارسية إلى عصر انحطاطها الاجتماعي بحيث أصبح أكثر ما تهتم به الطبقات الأرستقراطية ملء بطونها بلذيد المأكول والمشرب والإقبال على الشهوات بأنواعها المختلفة. وقد غصت بيوت الأثرياء بالرقيق الفاسدين المفسدين—كما يقول ديورانت—وأصبح السكر رذيلة شائعة بين كل الطبقات^(٣). ويبدو أن هذه الحياة الماجنة التي عاشها الفرس قد أنتجت أنواعاً من الأدب المكشوف، تداولتها أيدي المترجمين العرب فكان لها تأثير خطير في إشاعة الإباحة والمجون في المجتمع الإسلامي، فابن النديم يروي لنا بعض أسماء هذه الكتب التي ألقت في الباه مثل كتاب بنيان دخت، وكتاب بنيان نفس وكتاب بهرام دخت^(٤).

وليس التأثير الفارسي وحده هو الذي كان وراء تيار المجنون الذي أغرق بجانب كبيراً من المجتمع الإسلامي، ولكن انتشار مذاهب الغلاة من الشيعة كان لها تأثير خطير في مد هذا التيار بروافد قوية، حتى إنه كاد يصبح طوفاناً يجرف في سبيله تعاليم الإسلام وفضائله وتقاليده العرب السامية. وقد يبدو عجيباً أن يكون المجنون مرتبطاً بتاريخ الحركات الشيعية المتطرفة، ولكن الحقيقة التاريخية تؤكد هذه الصلة. وقد نبه قلهوزن على وجود صلات قديمة بين غلاة الشيعة والمجان عند حديثه عن الثورة الشيعية المتطرفة التي قام بها عبد الله بن معاوية عام ١٢٦ هـ، وقد وصف الأصفهاني ذلك الرجل بأنه كان ماجناً فاسقاً، وكان يحيط نفسه بالملحددين، ومن هؤلاء من صلب فيما بعد لأنه أنكر البعث والحساب وكان يقول إن الناس كالأعشاب^(٥).

ويبدو أن غلاة الشيعة الذين حضوا على الإباحة وساعدوا على انتشار المجنون

(١) المؤلف والمختلف : ١٠٩ . (٢) حديث الأربعاء ٢ : ٨١ .

(٣) قصة الحضارة ٢ : ٤٥٤ . (٤) الفهرست : ٤٣٦ .

(٥) الحوارج والشيعة : ٢٦٤ .

بدأوا في مزاوله نشاطهم الهدام - أول ما بدأوا - في الكوفة . وقد ذكرنا ذلك في الفصل السابق حيث قلنا إن الكوفة نشأت بجوار الديانتين اليهودية والنصرانية ، كما جاورت عقائد السكان الأصليين من مانوية وزرادشتية ومزدكية ، وهي إلى جانب ذلك وارثة الحيرة التي كانت عامرة بالخانات والأديرة وفنون اللهو والعبث ، ثم كان ظهور فرق الغلاة والمتطرفين في ثوب التشيع لآل علي من أمثال فرقة المنصورية والبيانية والخطابية والجناحية^(١) سبباً آخر في شيوع التحلل والتطرف في المحجون في بيئة الكوفة يقول في ذلك محمد جابر عبد العال : « المتأمل لمذاهب الكوفيين من غلاة الشيعة الذين حللوا المحرمات وسخروا بالدين يحد مذاهبهم بطبقها هؤلاء الحجان (من الشعراء) تطبيقاً لا يصطنعون فيه حيلة ولا حذراً^(٢) » .

وينسب هذا الباحث إلى الكوفة كل إشارات المحجون والزندقة في الشرع العربي وهو يقول إن المحجون الذي ظهر في شعر بغداد إنما مصدره الأول الكوفة ، فتاريخ بغداد لا يشير إلى أن أحداً من الحجان دعا إلى اللذة وإلى اللهو جهراً قبل أن يظهر أبو نواس على مسرح بغداد^(٣) . وأبو نواس - كما نعلم - تلميذ أمين لمدرسة الكوفة وأحد خريجيها المشهورين ، ولهذا كانت حياته متأثرة بالحجان والمحجون إلى حد بعيد حتى لقد روى عن حذيفة صاحب الشرطة أنه قال : لما حبس أبو نواس كان أكثر من يزوره في حبسه المرد والشبان والحمارون وأصحاب الريبة^(٤) . ويمكننا أن نتصور مدى تأثير الرافضة في شيوع المحجون والتحلل في المجتمع الإسلامي من قول جملة مشايخهم : « إن الله يشاء كل فاحشة ويريد كل معصية^(٥) » وعلى هذا يدعون إلى الفساد دون موارد ما دام ذلك مكتوباً في ظنهم على الناس .

(١) المنصورية نسبة إلى أبي منصور العجلي وقد كفرت بالقيامة والجنة والنار ، والبيانية من أتباع بيان بن سميان وقد نادوا بالوحيته ، والخطابية أتباع أبي الخطاب الأسدي من الغلاة ، وكذلك الجناحية أتباع عبد الله بن معاوية الذي مر ذكره في الصفحة السابقة (انظر : الفرق بين الفرق : ١٤٥) ويرى مصطفى صادق الرافعي أن بيان بن سميان هو في الحقيقة بنان بن سميان الهندي التميمي وفرقة تسمى البنانية . وهم يقولون بالهية على ، ويسمى في بعض الكتب باسم أبان وهو تحريف . ويرى الرافعي أن اسم بيان الذي ورد في كتاب تأويل غريب الحديث « قصد به النكته للاستشهاد بالآية (هذا بيان للناس) التي كان يزعم بنان أنه مقصود بها ، ويؤكد ما ذهب إليه بأن العرب لا يسمون بياناً في أسمائهم (انظر : تاريخ الأدب العربي للرافعي ٢ : ١٤٢) .

(٢) حركات الشيعة المتطرفين : ٣٠٥ . (٣) المصدر نفسه : ٢٦٩ .

(٤) أخبار أبي نواس لابن منظور ١ : ١٥٢ . (٥) الانتصار : ٦ .

وينسب عبد الرحمن بسوى تيار المحجون في الشعر العربي إلى نزعة أطلق عليها اسم نزعة التنوير ، وهو يقول عنها إنها نشأت في العالم الإسلامي نتيجة لانتشار الثقافة اليونانية ، وهي نزعة تقوم دائماً على أساس تمجيد العقل وعبادته ، وعلى فكرة التقدم المستمر للإنسانية الخالصة في مقابل القيم الإلهية والنبوية ، ونجدها واضحة تماماً لدى الشعراء خصوصاً تلك الجماعة المعروفة بعصاة المحجان على حد تعبير ماجنها الأكبر أبي نواس^(١) . وقد اتصف تنوير هذه العصاة بأنه يطلب الحرية بكل ثمن دون أن يعبأ بما سيناله من جرائها^(٢) .

ويرى الباحث في موضع آخر من كتابه أن بعض الشعراء الذين اتهموا بالزندقة مثل بشار وحماة مجردوا بأن اللاحق لم يكونوا زنادقة بالمعنى الصحيح ولكنهم اتفقوا جميعاً في غلبة روح الاستخفاف والعبث فيهم ، وأن أبا نواس كان صادقاً في تسميتهم بعصاة المحجان ولو أنه كان فرداً من أفراد هذه العصاة هو نفسه . فهم أقرب إلى الشك والمحجون إذن من الإيمان والحد ، وهم أولى باسم الشكاك العابثين منهم باسم الزنادقة الملحد^(٣) . وسرى فيما بعد مدى صحة هذا الحكم . وعلى أية حال فإننا نلمح ارتباطاً وثيقاً بين تيار المحجون وتيار الزندقة في القرن الثاني ويمكننا اعتبار المحجون أولى درجات الزندقة ، إذ أنه يدعو إلى التحلل الأخلاقي ونبد التقاليد والآداب المرعية بدعوى الحرية الفكرية ، ولهذا يرى فون كرىمر أن نظرية حرية الإرادة التي نشأت في دمشق أولاً بتأثير عناصر دينية أجنبية عن الإسلام قد تطورت إلى نزعة عدم مبالاة بالدين ، ولكنه يرى أن هذا التطور قد حدث بالبصرة أولاً^(٤) لا في الكوفة كما ذهبنا . وتؤيد هذا الرأي رواية في مخطوط عن أبي نواس تبين أن الفساد قد تطرق إليه وهو ما زال صيباً في البصرة قبل أن يذهب إلى الكوفة . فهي تقول إن حمدان بن بشر كان يقود على أبي نواس وهو صبي في البصرة^(٥) . ونحن لا ننكر وجود تيار المحجون في البصرة أيضاً ، بل كان دأبنا في هذا البحث تأكيد فكرة وجود

(١) وردت تسمية (عصاة المحجان) في قصيدة لأبي نواس يهجو فيها أبا نواس بن عبد الحميد اللاحق (انظر : ديوان أبي نواس : ١٥١) .

(٢) مقدمة من تاريخ الإلحاد في الإسلام .

(٣) من تاريخ الإلحاد في الإسلام : ٢٨ .

(٤) الحضارة الإسلامية : ٩٩ .

(٥) الفرج والتهاني بأخبار الحسن بن هاني : ورقة ٣ (مخطوط) .

أنواع التيارات المختلفة والمؤثرات المتباينة في جميع أنحاء المملكة الإسلامية ، ولكننا أبرزنا دور الكوفة في التأثير على حركة المحجون لوجود عدد كبير من شعرائها تتضح في أشعارهم هذه النزعة ، وهم أكثر بكثير ممن ظهروا من هؤلاء الشعراء في البصرة . وقد أثر في قوة تيار المحجون في الكوفة أيضا انتشار بيوت القيان ، تلك التي عرفنا ماذا كان يلور فيها عند الحديث عن التأثير الاجتماعي .

وما تقدم يتبين لنا أن تيار المحجون لم يكن نزعة بريئة ساذجة يدعو إليها الترف والتطرف الاجتماعي فحسب ، ولكنه كان نتيجة مؤثرات عميقة كالمذاهب الدينية والفكرية المختلفة ، والتطورات الخطيرة التي حدثت في تكوين المجتمع الإسلامي في القرن الثاني . وقد صدق محمد جابر عبد العال حين قال إن الحجان في هذا القرن كانوا يسعون إلى اللذة بوحى من الآراء الجديدة التي استحدثتها الغلاة الإباضيون ولم يكن للبيئة فضل إلا في تهيئة السبيل لإرواء غليلهم^(١) .

ولعل أول مظهر نجده عند شعراء المحجون هو مجاهرهم بارتكاب المحارم علنا دون مواربة أو استتار ، واتخاذهم أسلوب التصريح لا التلميح في حديثهم عن ارتكاب هذه المحارم ، نرى ذلك واضحا في قصيدة عمار ذي كنار التي أولها :

أَشْتَهِي مِنْكَ مِنْكَ مِنْكَ مَكَانًا مُجَنَّبًا

وقد ذكرها صاحب الأغاني^(٢) ، ولكننا نتركها لفحشها .

ونراه واضحا أيضا عند الأقيشر الذي يقول عنه صاحب الأغاني : « كان كوفيا خليعا ماجنا مدمنا لشرب الخمر »^(٣) كما يقول عنه إنه كثير الوصف لعضو تذكيره^(٤) . والأقيشر يجهر بركة الصلاة دون تحرج ، ويتهم بهذه الفريضة قائلا :

إِذَا صَلَّيْتُ خَمْسًا كُلَّ يَوْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِي فَسُوقِي
وَلَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّ النَّاسِ شَيْئًا فَقَدْ أَمْسَكْتُ بِالْحَبْلِ الْوَثِيقِ^(٥)

(١) حركات الشيعة المتطرفين : ١٠٨ .

(٢) الأغاني ٧ : ٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ١١ : ٢٥٣ .

(٤) المصدر نفسه ١١ : ٢٧١ .

(٥) المصدر نفسه ١١ : ٢٦٥ .

وحين يمسك به أحد الشرطه يمتحنه في الصلاة قائلاً : كم تصلى كل يوم
فيجيب الأقبشر في سخرية ظاهرة :

يُسَائِلُنِي هِشَامٌ عَنْ صَلَاتِي صَلَاةَ الْمُسْلِمِينَ فَقُلْتُ خَمْسُ
صَلَاةٍ الْعَصْرُ وَالْأُولَى ثَمَانُ مُوَاتَرَةٍ فَمَا فِيهِنَّ لَبَسُ
وَعِنْدَ مَغِيبِ قَرْنِ الشَّمْسِ وَتَرُّ وَشَفْعٌ بَعْدَهَا فِيهِنَّ حَبْسُ
وَعُدُوَّةٌ اثْنَتَانِ مَعَ جَمِيعًا وَلَمَّا تَبَدُّ لِلرَّائِيْنَ شَمْسُ
وَبَعْدَهُمَا لِوَقْتَيْهِمَا صَلَاةٌ لِنُسُكِ بِالضُّحَاءِ إِذَا نَبَسُ^(١)

وقد رأينا أبا دلالة في موضع سابق يهاجم الصوم في صراحة تامة ويتهكم بالصلاة،
وتعلل ذلك دائرة المعارف الإسلامية بأنه كان يتمتع بحرية الندماء التي تحررهم
بعض الشيء من قيود الشريعة الإسلامية، بل التي تبيح لهم أن يجعلوا منها هدفاً
لأضاحيهم^(٢) ولكننا لا نرى أن المجنون صفة لازمة للنديم ، كما أن أبا دلالة لم يكن
نديماً بالمعنى المعروف إذ تقع أغلب حياته أيام المنصور ، والمنصور لم يقبل على
شراب أو هو قط ، فخروج أبي دلالة إذن على حدود الشريعة الإسلامية لم يكن
إلا تأثراً منه بتيار المجنون الذي استشرى في عصره ، وهذا كان يدعو إلى مثل قوله :
وَاللَّهِ مَا لِي نِيَّةٌ فِي صَلَاتِهِ وَلَا بِرٍّ وَالْإِحْسَانُ وَالْخَيْرُ مِنْ أَمْرِي^(٣)

وقد أحسن وصفه صاحب الأغاني حين قال عنه : « وكان فاسد الدين رديء
المذهب مرتكباً للمحارم ، مضيعاً للقروض ، مجاهراً بذلك »^(٤).

أما الوليد بن يزيد فيعتبر من أئمة الحبان في القرن الثاني ، وهو يسير أيضاً على
مبدأ المجاهرة باللذة وارتكاب المحرمات فهو يقول :

أَشْهَدُ اللَّهَ وَالْمَلَائِكَةَ الْأَبْرَارَ وَالْعَابِدِينَ أَهْلَ الصَّالِحِ
أَنْتَى أَشْتَهَى السَّمَاعَ وَشُرْبَ الْكَأْسِ وَالْعَضَّ لِلْخُدُودِ الْمِلَاحِ

(١) الأغاني ١١ : ٢٦٦ . ونيس يعني نطلق لشئون الحياة .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية : مادة أبي دلالة) .

(٣) الأغاني ١٠ : ٢٤٨ .

(٤) المصدر نفسه ١٠ : ٢٣٥ .

وَالنَّدِيمَ الْكَرِيمَ وَالْخَادِمَ الْفَارَةَ يَسْعَى عَلَى الْأَقْدَاحِ^(١)

وصاحب الأغاني يؤمن فيما يبدو بمجون الوليد بن يزيد وفسقه ، ولا يصدق الروايات التي تحاول أن تجعل أخبار ذلك المجنون مكيدة سياسية من هشام بن عبد الملك لخلع الوليد ، يقول أبو الفرج عنه : « كان فاسقاً خليعاً متهماً في دينه . . ومن الناس من ينفي ذلك عنه وينكره ويقول إنه نُحِلَّه وألصق إليه والأغلب الأشهر غير ذلك^(٢) » ويروى السيوطي عن الوليد أنه كان فاسقاً شريباً للخمر منهكاً لحرمان الله ، ويروى عن المعافي الجريري ما يفيد زندقة الوليد وكفره وإلحاده ، كما يروى عن الذهبي قوله بمجون الوليد فحسب إذ يقول : « لم يصح عن الوليد كفر ولا زندقة بل اشتهر بالخمر والتلوط^(٣) » . وحتى على هذا القول فالوليد ماجن فاسق إذ يمارس أساسين من أسس المجنون وهما الخمر واللواط . وهو يجهر ببلذته حين يعيبه بعض الناس على الشراب فيقول :

وَلَقَدْ قَضَيْتُ وَإِنْ تَجَلَّلَ لِمَتِي شَيْبٌ عَلَى رَغَمِ الْعِدَا لَذَاتِي
مِنْ كَاعِبَاتٍ كَالدُّمَى وَمَنَاصِفٍ وَمَرَكَبٍ لِلصَّيْدِ وَالتَّشَوَاتِ^(٤)

وتظهر نزعة المجنون واضحة بجلية منبعثة من نفس الوليد المتأثرة تأثراً عميقاً بمجان الكوفة — كما ذكرنا — في تلك الأبيات التي قالها عند موت هشام بن عبد الملك حين سمع صياح بناته وندبهن ، مثل هذا الموقف كان خليقاً بأي إنسان سوى أن يستعبر له وتهتز مشاعره ويخلى ما بنفسه من عدااء لهذا الميت ، ولكن الماجن لا يعترف بهذا كله ولا يخضع له ، بل تغلب عليه روح المجنون والشذوذ حتى في أكثر المواقف استشارة للحزن . وإلا فكيف نفسر أبيات الوليد التي قالها بهذه المناسبة :

إِنِّي سَمِعْتُ بِلَيْلٍ وَرَأَى الْمُصَلَّى بَرْنَةً
إِذَا بَنَاتُ هِشَامٍ يَنْدُبْنَ وَالِدَهُنَّ

(١) الأغاني ٧ : ٢٢ .

(٢) الأغاني ٧ : ٢ .

(٣) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين : ١٦٦ .

(٤) الأغاني ٧ : ١٢ .

يَنْدُبْنَ قَرَمًا جَلِيلًا قَدْ كَانَ يَعْصُدُهُنَّ
أَنَا الْمُخَنَّثُ حَقًّا إِنَّ لَمْ (١)

أما عصابة الحجان التي ذكرنا أمرها من قبل فقد كانت تضم عدداً كبيراً من الشعراء الذين أكبوا على ملذاتهم وشهواتهم وآمنوا بمبادئ المجون ، من خروج على الدين والتقاليد ، ومجاهرة بهذا الخروج . وكثيراً ما كان يجتمع أفراد هذه العصابة ويتطرحون الشعر الدال على فساد مذهبهم وعلى إمعانهم في المجون . وقد سجل لنا حمزة الأصفهاني في الباب الثامن من روايته لديوان أبي نواس كثيراً من هذه المطارحات التي كانت تجري بين أبي نواس وأفراد عصابة الحجان . ومما ذكره لنا عن مجالس هذه العصابة أنهم كانوا يجتمعون أحياناً على باب حسنة تجارية المهدي بباب الطاق أيام الرشيد . فوقع بينهم وبين زنبور الشاعر خلاف فهجوه وهجاهم جميعاً وعاداهم حتى تركوا هذا المجلس ، وكان لهم دكان كبير يجلسون عليه ، فقال زنبور في ذلك :

وعصابة أنزلتها بالصغر عن دكانها
أدخلت رأس شجاعها لك في حير أم جبانها (٢)

ونجد من أسماء هذه العصابة عدداً كبيراً من الشعراء فيهم أبان اللاحق والحسين ابن الضحاك . ودعبل الخزاعي ، ومسلم بن الوليد ، ووالبة بن الحباب ، ومحمد ابن رياح ، وأحمد بن روح ، وحمدان بن زكريا الخزاز ، وداود بن رزين الواسطي وفضل الرقاشي ، وأبو قابوس النصراني ، والحماز ، وأبو الشمقمق ، وعمرو الوراق والحسين الحياط ، وعلى بن الحليل الكوفي ، وإسماعيل القراطيسي ، ورزين الكاتب ، وحماد عجرد ، ومطيع بن إلياس ، ويحيى بن زياد ، وابن أبي عيينة . ومن الممكن أن ندخل أيضاً في هذه العصابة الماجنة عدداً من الجوارى مثل عنان وغيرها لوجود نقائض بينهن وبين أبي نواس بالذات في غاية الفحش والتسل في المجانة . ولعل الوقاحة وحب الخنى بألوانه المختلفة هما أبرز ما في أفراد هذه العصابة ،

(١) الكلمة الصريحة لمعنى أفعل بهن .

(٢) ديوان أبر نواس (ط . فاجنر) : ٤٣ ، ٤٤ .

وقد صدق سليمان بن أبي سهل بن نبيخت حين وصف أبا نواس الذي يمثل أفراد هذه العصابة بقوله :

وَذِي عَدَمٍ مِنْ قَبِيحِ الشِّيمِ	صَرِيحِ الدَّنَاءَةِ مَوْلَى الْكَرَمِ
بِعَيْنَيْهِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ عَمَى	وَبِالْأُذُنِ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ صَمَمَ
خَفِيَ عَلَى أَعْيُنِ الْمَكْرُمَاتِ	وَأَشْهَرُ فِي رِبِّةٍ مِنْ عِلْمِ
إِذَا رُفِعَتْ لِلْخَنَى رَايَةٌ	أَلَحَّ عَلَى سَاقِهِ وَاعْتَزَمَ
كَأَنَّ الْوَقَاحَةَ قَدَّتْ لَهُ	عَلَى وَجْهِهِ رُقْعَةٌ مِنْ أَدَمِ ^(١)

أما النقائص التي كانت تجرى بين هؤلاء الحجان فكانت في مجموعها تمثل أقصى أنواع المحجون والتهتك ، فأبو نواس ومسلم بن الوليد يتعارضان في المفاضلة بين البكر والشيب فيقول أبو نواس :

قَالُوا عَشِيقَتَ صَغِيرَةٍ فَأَجَبْتُهُمْ	أَشْهَى الْمَطِيِّ إِلَى مَالَمِ يُرْكَبِ
كَمْ بَيْنَ حَبَّةٍ لَوْلُوٍ مَشْقُوبَةٍ	لُبِسَتْ وَحَبَّةٌ لَوْلُوٍ لَمْ تُثَقَّبِ
ويعارضه مسلم بن الوليد قائلا :	
إِنَّ الْمَطِيَّةَ لَا يُلْدُ رَكُوبُهَا	حَتَّى تُذَلَّلَ بِالزَّمَامِ وَتُرْكَبَا
وَالْحُبُّ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَرْبَابَهُ	حَتَّى يُؤَلَّفَ فِي النِّظَامِ وَيُثَقَّبَا ^(٢)

ويكتب أبو قابوس النصراني إلى أبي نواس يصف له مجلسا مابنا لم يحضره فيقول :

فدينتك يا نواسي اضطَبَحْنَا	بِكُبْرَةٍ وَبُلْبُلَةٍ وَطَائِسِ
فما كانت صلاة الظهر حتى	تَلَفَّفْنَا بِأَثْوَابِ النَّعَاسِ
تَوَسَّدَ بَعْضُنَا أَفْعَاذَ بَعْضِ	وَوَضَعْنَا فِي اخْتِلَاطِ وَالتِّبَاسِ

(١) ديوان أبي نواس (ط . فاجر) : ٥١ : ٥٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٧ .

فيتحسر أبو نواس على حرمانه من هذا المجلس ويجيب قائلا :

قد وُفِّقْتُمْ لِخِلَالِ ظَرْفٍ خلا إخلالكم بأبي نواس
فهلأ إذ عَزَمْتَ على اضطباحٍ وقدما كان ذاك من التيمامى
ذكرتَ خلعتى ومُسَاعِدَاتِي ولم تكُ غافلاً عني كَنَاسِي
أبا قابوس جَدُّ لى صَبوحًا على مُرْدٍ ومُسَمِّعَةٍ وكَاسٍ^(١)

وهذه المجالس التي كان يعكف عليها هؤلاء الماجنون كانت تحوى كل الرذائل وكل أركان المجون ، أى الخروج على الدين والتقاليد والعرف . وقد روى لنا حمزة الأصفهاني أبياتًا لعشرة من أولئك الشعراء الماجنين كان يستضيف كل منهم الآخرين عنده ، ويغريهم بلون أو أكثر من ألوان المجون ليقبلوا ضيافته ، فداود ابن رزين الواسطي يغريهم بالخمير في مجلس لطيف وسماع الغناء ، وأبو نواس يغريهم بارتكاب أنواع من الفواحش ويجعل ميعادها أوقات الصلاة إمعانًا في المجون والتهتك :

فإن أردتم فتاة أتيتكم بفتاة
وإن أردتم غلامًا صادقتمنى مؤانى
فتاوروه مجونا فى وقت كل صلاة^(٢)

ويعرض عليهم الحسين الخليع شرب الخمر وارتكاب الفاحشة مع غلام ثمل . ويكتفى فضل الرقاشى بدعوتهم إلى الخمر ، أما عمرو الوراق فيدعوهم إلى الخمر والسماع ويحل لهم ترك الصلاة :

هذا وليس عليكم أولى ولا وقت غصير^(٣)

وأما على بن الخليل وإسماعيل القرامطيسى ورزين الكاتب وابن الخزاز فجميعهم يدعون باقى عصابة المجان إلى مثل ما تقدم به إخوانهم من خمر وسماع وارتكاب فواحش ولو بين بعضهم البعض كما جاء فى أبيات ابن الخزاز^(٤) . ويبدو أن المجون كان

(١) ديوان أبي نواس (ط . فاجر) : ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٦١ .

(٣) المصدر نفسه : ٦٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٦٤ .

يصل بهم إلى هذا الحد من التهلك ليشعروا أنفسهم بالانطلاق من كل قيد والتفنن في الإقبال على الشهوات . وربما كان الاتصال الشاذ بين أفراد عصابة المجان هذه وبعضهم البعض له جذور في الإباحة المزدكية ، وإلا فكيف تفسر مثل قول والبة ابن الحباب :

حتى إذا ما انتشينا وهزنا إبليس
رأيت أعجب شيء منا ونحن جلوس
هذا يُقبلُ هذا وذاك هذا يبوس^(١)

وقد اشتهر والبة بهذا الميل المزدكى إلى الإباحة حتى إن المهدي رفض اتخاذها نديماً بسبب هذا الميل الذي أفصح عنه في شعر له^(٢) .

وأما ما روى لنا من نقائض أبي نواس مع عنان بجارية الناطق ومع غيرها من الجوارى فهو يؤكد لنا الدور الخطير الذي قامت به الجوارى في القرن الثاني من إشاعة التهلك والفحش وسريان تيار المجون في قوة واندفاع . وربما كانت « دقاق » المغنية صورة هؤلاء الجوارى في مجونها وتهتكها حتى إنها كانت تكتب الأشعار في وصف هنأ وفيها يقول الشاعر :

عَدِمْتُكَ يَا صَدِيقَةَ كُلِّ خَلْقٍ أَكُلَّ النَّاسِ وَيَحْكُ تَعَشَّقِينَا

وإذا صح ما رواه الراغب الأصفهاني عن تلك الجارية التي خرجت من دار الرشيد ومعها مروحة مكتوب عليها عبارة في منتهى البذاءة والفحش^(٣) لكان صورة مذهلة لما بلغه المجون في القرن الثاني ، وخاصة بين هؤلاء الجوارى المتهتكات . ومالنا نذهب بعيداً في تصورنا لهذا التهلك وفي استنتاج تأثير الجوارى في حركة المجون . وهذا شعر عنان في أبي نواس يدل على إباحة مطلقة لا تستحي ولا تحتشم كمثل قولها فيه :

(١) طبقات ابن المعتز : ٨٩ .

(٢) انظر : المصدر نفسه .

(٣) الأغاني ١٢ : ٢٨٤ .

(٤) انظر : محاضرات الأدباء ٢ : ٨٧ .

عَجَبًا مِنْ حَلَقِيْ يَدْعِيْ أَصْلَ اللُّوَاطِ .
 فَإِذَا صَارَ إِلَى الْبَيْتِ وَخَشَفَ عَنْ تَوَاطِ .
 فَالَّذِي يَعْلَمُ يَنْدَرِي مَنْ يَلِي وَجْهَ الْبِسَاطِ .^(١)

وما رواه لنا حمزة الأصفهاني أيضا عن لقاء أبي نواس مع أربع نسوة ماجنات بظاهر البصرة ، والشعر الذي دار في هذا اللقاء يطلعنا على المدى الخطير الذي بلغه تيار المحجون في القرن الثاني ، كما يطلعنا هذا الخبر أيضا على تأثير أبي نواس الواضح بشعر المحجون في الكوفة وخاصة شعر عمار ذي كنار الذي مر بنا في هذا الفصل مثال له . فأبو نواس يرد على النسوة الماجنات بقصيدة تشبه قصيدة عمار في كل شيء أولها : ليتني ليت ليتني^(٢)

ولم يكن المحجون وقفًا على عصابة من الشعراء أو جماعة من الناس أو طبقة بذاتها في المجتمع الإسلامي في القرن الثاني ، ولكنه فيما يبدو كان شائعًا بين أفراد من الطبقات المتباينة بتأثير العوامل الاجتماعية المختلفة التي شرحنا أمرها في الباب الأول . ونستطيع أن نتأكد من ذلك من الروايات التي ذكرها حمزة الأصفهاني في الباب الثاني من روايته لديوان أبي نواس . فمن ذلك مثلا ما وقع عليه بصر أبي نواس في إحدى الخرابات ، إذ رأى سقاء يعلو نصرانيا فلما لمحاه انفصل السقاء عن النصراني وأخذ قربته وعدا ، وقام النصراني غير محتشم يشد سراويله وينشد بيتين في غاية الإفحاش^(٣) . وفي رواية أخرى أن أبا نواس رأى رجلا من ولد المهلب ثم من ولد روح بن حاتم وفوقه غلام يعفجه .^(٤) إلى غير ذلك من الروايات التي تصور لنا قوة تيار المحجون وغلبته على أفراد في المجتمع الإسلامي في الفترة التي نتحدث عنها .

وكما ربطنا بين المحجون والزندقة وأوجدنا بينهما صلة الجزء بالكل كذلك لا نستطيع أن ننكر تأثير حركة الشعوبية في هذا التيار الماجن ، خاصة أننا نجد رهوس الماجنين منذ بداية القرن الثاني ، وأغلب أفراد عصابة الحجان التي تحدثنا عنها من الموالي ، بل بعضهم من المتعصبين ضد العرب المنضوين إلى حركة الشعوبية .

(١) ديوان أبي نواس (ط . فاجر) : ٨٣ . (٢) المصدر نفسه : ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٩٣ .

(٤) المصدر نفسه : ٩٤ .

ونحن لا نستبعد أن يكون استهتار هذه الفئة من الشعوبيين وحُهم على المحبون وسعيهم لانتشاره وإشاعته ، جزءاً من سياسة الشعوبيين التي أرادوا بها هدم مقومات المجتمع الإسلامي . والذي يجعلنا نميل إلى هذا الرأي أن أساس المحبون عند هؤلاء الشعراء كان المجاهرة به . وليس ضرورياً لمن يريد أن يستبيح محرماً أن يجهر به إلا إذا كان يقصد من وراء مجاهرته الدعوة إلى مذهبه ، وهذا ما نلمحه بالفعل في شعر الماجنين . فبشار يدعو إلى اللذة دون نظر إلى اللوام والساخطين إذ يقول :

ترقُبُ فينا العاذلين على الهوى وما نال عيشاً قبلنا من ترقباً
إذا نحن لم نَنعمْ شباباً فإنما شقيننا ولم يحزن لنا من تشيباً
وما استفرغ اللذات إلا مُقابلُ إذا هم لم يذكروا رضاً من تغصباً^(١)
وهو يجاهر بلذته مرة أخرى ، ولا يكتفى بذلك بل يسهل للناس ارتكابهم المحرمات ، وهذا اتجاه خطير جديد في المحبون فيقول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك الدهجُ
قالوا : حرامٌ تلاقينا فقد كذبوا ما في التزام ولا في قبلة حرج^(٢)
ونجد هذه الناحية واضحة عند أبي نواس الذي لا يكتفى أيضاً بالمجاهرة ، ولكنه يؤكد إصراره على المضي في الفساد والغى فيقول :

لستُ بالتارك لذات الندامى للصّلاح قل لمن ينبغي صلاحاً
أطيب اللذات ما كان جِهاراً بافتِضاح^(٣)
وهو في موضع آخر يعترف بتحريم ما يرتكبه ولكنه يستشعر اللذة في هذا التحريم ، وهذه دعوة للإباحة خفية ، ولكنها عميقة الأثر ، يقول :

فخذها إن أردتَ لذيذَ عيش ولا تعدلْ خليلي بالمُدامِ
وإن قالوا : حرامٌ ، قل : حرامٌ ولكن اللذاذة في الحرام^(٤)

(٢) المصدر نفسه ٢ : ٧٥ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٠٨ .

(١) ديوان بشار ١ : ٢١١ .

(٣) ديوان أبي نواس : ٢٣٤ .

وأبو نواس في موضع ثالث يمزج بين المحبون والكفر داعياً إلى المجاهرة بهما أيضاً
إذ يقول :

فَبُحْ بِاسْمِ مَنْ أَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الْكُفَى فلا خَيْرَ في اللِّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ
ولا خَيْرَ في فَتْكِ بَغِيرِ مَجَانَةٍ ولا في مُجُونٍ لَيْسَ يَتَّبَعُهُ كُفْرُ^(١)

ونحن لا يمكننا أن نفهم منع الحليفة المهدى لغزل بشار إلا من ناحية اتصاله
بالإباحة والمجون ، وتحريضه على فسق المجتمع الإسلامي والتشهير بنسائه بدافع
شعوبيته في الغالب ، ويتضح هذا من شعر بشار حين يوهم الناس بسهولة اقتناص
المرأة في عصره لا فرق عنده بين حرة وأمة إذ يقول :

عُسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مُيَاسَرَةٍ وَالصُّعْبُ يُمَكِّنُ بَعْدَ مَا جَمَحَا^(٢)

من العسير علينا إذن أن نفصل بين المحبون والشعوبية ولو في بعض أسباب قوته
ومظاهره . حقيقة إنه وجد شعراء ماجنون لا يتصلون بالشعوبية لأن الذي دعاهم إلى
المجون عوامل أخرى اجتماعية وثقافية وحضارية ، ولكننا مع ذلك لا نغنى الحركة
الشعوبية من هذا التأثير الخطير في تيار المجون .

وفي هذا القرن الثاني الذي نتحدث عنه نجد كثرة من الشعراء الذين يوصفون
بالمجون من غير المشهورين المعروفين لدارسي الأدب . فمن هؤلاء مثلاً أبو النضر
عمرو بن عبد الملك مولى بني نجح ، ويقول عنه صاحب الأغاني : « كان يظهر
الحلاعة والمجون والفسق ويعاشر جماعة ممن يعرف بذلك الشأن^(٣) » وكان أبو النضر
من شعراء البرامكة ومن ينافسون أبا نواس في عشق عنان جارية الناطقي ، وهو
يقول فيها :

أنا	والله	أهواك	وأهواك	وأهواك
وأهوى	قُبْلَةَ	مِنْكَ	على	بَرْدِ
أنا	والله	أهواك	وما	يشعر
فإياك	بأن	يَعْلَمَ	إياك	إيّاك ^(٤)

(١) ديوان أبي نواس : ٢٤٠ .

(٢) ديوان بشار ٢ : ٩٨ .

(٣) الأغاني ١١ : ٢٨٥ .

(٤) المصدر نفسه ١١ : ٢٨٧ .

ومثل هذا الغزل الماسجن يذكرنا بغزل حماد عجرد في « جواهر » جارية ابن عون نافع بن عون إذ يقول فيها :

إني لأهوى جَوْهَرًا وَحُبُّ قَلْبِي قَلْبَهَا
وَأَحِبُّ مِنْ حُبِّي لَهَا مَنْ وَدَّهَا وَأَحَبَّهَا
وَأَحِبُّ جَارِيَةً لَهَا تُخْفِي وَتَكْتُمُ ذَنْبَهَا
وَأَحِبُّ جِيرَانًا لَهَا وَابْنَ الْخَبِيثَةِ رَبَّهَا^(١)

وآدم بن عبد العزيز وهو عربي من بني مروان ، كان في أول أمره خليعاً ماسجناً منهمكاً في الشراب حتى إن أحد الرواة قال عنه : « ما رأيت قرشياً أمجن منه »^(٢) وكذلك حمزة بن بيض الذي يقول عنه صاحب الأغاني إنه كوفي خليع ماسجن^(٣) ، قد عاش في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني . ومحمد بن عمرو الجمار الذي كان ماسجناً خبيث اللسان^(٤) . وسعيد بن وهب مولى بني سامة بن لؤي ، ويكنى أبا الخطاب ، كان ماسجناً من أصحاب والبة وعلى بن الخليل وأضرابهما ثم تاب الله عليه وتزهد^(٥) . ويحيى بن زياد الحارثي الذي كان فيما يبدو من عصابة المجان^(٦) . وزرزر الرفاء ويكنى أبا الخطاب كان ماسجناً من أصحاب والبة وعلى بن الخليل أيضاً^(٧) . والحاركي الذي يقول عنه صاحب « الورقة » إنه شاعر خبيث سفيه ماسجن . وشعره كله لا يقل فحشاً عن قوله :

إِذَا لَامَ عَلَى الْمُرْدِ نَصِيحٌ زَادَنِي حِرْصًا
وَلَا وَاللَّهِ يَا قَوْمُ فَلَا أَقْلِعُ أَوْ أُخْصِي^(٨)

(١) الأغاني ١٣ : ٧٦

(٢) المصدر نفسه ١٤ : ٧٨ ، تاريخ بغداد ٧ : ٢٥ .

(٣) الأغاني ١٥ : ١٤ .

(٤) تاريخ بغداد ٢ : ١٢٥ .

(٥) الأغاني ٢٠ : ٦٩ ، تاريخ بغداد ٩ : ٧٣ .

(٦) تاريخ بغداد ١٤ : ١٠٦ .

(٧) الورقة : ٣٧ .

(٨) المصدر نفسه : ٥٦ .

وابن المعتز يروى عن أبي نواس أنه قال : « ما مجنت ولا خلعت العذار حتى عاشرت الحاركي فجاهر بذلك ولم يحتشم ، فامثلنا نحن ما أتى به وسلطنا مسلكه ، ونحن ومن يذهب مذهبا عيال عليه^(١) » فكأن الحاركي إذن من رموس المجون في القرن الثاني وليس مايجنا عاديا ما دام قد تتلمذ على يديه أمثال أبي نواس .

وابن خذام الأسدي كان مايجنا خبيثا وقد ذكرناه من قبل ، والغمر بن أبي الغمر أو الخليلع الشامي وكان شاعرا خبيثا في مجونه^(٢) . وعمرو بن حسان بن هاني الذي كان صاحب شراب واستفرغ شعره في وصف المجالس والندامى^(٣) . وعلى ابن كثير مولى بني أسد الذي كان صاحب شراب وفتوة^(٤) . ومثقف بن عبد الرحمن ابن زياد الهلالي وهو خليلع مايجن منهم في دينه^(٥) .

هذه الكثرة من الشعراء تبين لنا بوضوح كيف أن تيار المجون كان قويا في القرن الثاني وكان يعبر عن اتجاه واضح في شعر هذا القرن . ولو وصلتنا أرجوزة الرقاشي المزدوجة التي كتبها قبل وفاته وضمنها أنواع المجون وأركانه لعرفنا الشيء الكثير مما قد يكون خفي علينا أمره ، وعلى العموم فابن المعتز يروى لنا أنها كانت مشهورة موجودة وأن الشاعر يأمر فيها أتباعه ورفقاءه المايجنين باتباع اللواط وشرب الخمر والقمار والهراش بين الديكة والكلاب . فهذه إذن هي بعض عناصر المجون وأركانه التي كان المجان يتبعونها في القرن الثاني وأول أرجوزة المجون هذه :

أوصي الرقاشي إلى خلانيه وصيبة المحمود في إخوانيه^(٦)

ومما قدمناه من أمثلة يتبين لنا أن تيار المجون كان يلتقي دائما بشعر الحمريات ولعل عبارة آدم بن عبد العزيز تعبر عن ذلك الالتقاء حين آتهم بالزندقة فدافع عن نفسه قائلا : « كنت فتى من فتيان قريش أشرب النبيذ وأقول ما قلت على سبيل المجون^(٧) » وكان تيار المجون يلتقي أيضا بشعر الغزل كما رأينا في شعر حماد عجرد

(١) طبقات الشعراء : ٣٠٦ .

(٢) المؤلف والمختلف : ١١٤ .

(٣) معجم أشعراء : ٢٣٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٨٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٤٠٤ .

(٦) طبقات الشعراء : ٢٢٦ .

(٧) الأغاني ١٤ : ٥٩ .

وأضرابه ، ولكنه الغزل الخليع المايجن الذي يفترق عن الغزل الصادق البريء . وتتضح لنا هذه التفرقة في حديث الأصفهاني عن العباس بن الأحنف إذ يقول : « كان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلفاء ، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً ^(١) » وكان تيار المجون يلتقي أيضاً بالزندقة كما أوضحنا من قبل وكان يلتقي بكل أنواع الشذوذ الجنسي . ويتضح لنا هذا في أبيات والبة بن الحباب التي يقول في مطلعها :

يُعَاطِينَا الزُّجَاجَةَ أَرِيحِي رَحِيمُ الدَّلِّ بُورِكَ مِنْ مُعَاطِي ^(٢)

وظاهرة الشذوذ الجنسي بدأت كما يقول النويهي في منتصف القرن الثاني الهجري ثم امتد طوفانها بعد ذلك . وقد ابتليت الحضارة الإسلامية بهذا الداء الذي ظهر في حضارات أخرى كثيرة حينما وصلت طور نضوجها وبدأ يتطرق إليها الانحلال الخلقى . وأهم الأسباب الداعية إلى ظهور الشذوذ الجنسي اختلاط عدد كبير من الأجناس البشرية المختلفة الأديان والعقائد والعادات والتقاليد . ويقول النويهي إن من الخطأ أن نعزو الانحلال الخلقى إلى أثر الفرس وحدهم ، فالحق أنه نشأ عن اختلاط كل هذه الأجناس اختلاطاً نجم منه كثير من الاضطراب والشك . ^(٣) ويعارض هذا الرأي « ول ديورانت » إذ يذهب إلى أن اللواط والسحاق انتشرا في العالم الإسلامي بتأثير اتصال العرب بالفرس ^(٤) . ثم ينقل ديورانت في موضع آخر من كتابه عن هيرودوت أن الفرس أخذوا عن اليونان عادة اشتهاة الغلمان . ومما يؤكد ذلك وجود عبارات قاسية في « الاستاق » - وهو كتاب الفرس الدينى - تشنع على عادة اللواط ^(٥) .

ومهما يكن الأمر فالقرن الثانى - كما يتضح لنا من الشعر - قد عرف أنواعاً مختلفة من هذه الانحرافات الجنسية : عرف حب الذكور للذكور كما يتضح في شعر الحاركي وحماد عجرد ومطيع بن إياس ووالبة بن الحباب وأبى نواس والحسين

(١) الأغاني ٨ : ٣٥٣ .

(٢) انظر : طبقات ابن المعتز : ٨٨ .

(٣) قضية أبى نواس : ١٠٤ .

(٤) قصة الحضارة ١٣ : ١٣٦ .

(٥) المصدر نفسه ٢ : ٤٤٠ .

ابن الضحاك وغيرهم ، وعرف حب الإناث للإناث كما يتضح لنا في قصيدة أبي العتاهية :

ألا يا ذوات السُّحْقِ في الغَرْبِ والشرْقِ أفيقن فإنَّ «الفعل»^(١) أشقى من السُّحْقِ
أفيقن فإنَّ الخُبْرَ بالأُدْمِ يُشْتَهَى وليس يسوغُ الخُبْرُ بالخُبْرِ في الحَلْقِ
أراكنُ ترتقنَ الخُروقَ بمِثْلِهَا وأى لبيبٍ يرقعُ الخرقَ بالخرقِ
وهل يصلحُ المِهْرَاسُ إلا بعودِهِ إذا احتيجَ منه ذاتُ يومٍ إلى الدقِّ؟^(٢)

وعرف من الانحرافات الجنسية أيضاً اللذة المضاعفة التي تكون من قدام ومن خلف وقد صورها أبو نواس وكذلك مطيع بن إياس^(٣). كما عرف « العادة السرية » على الرغم من انتشار الجوارى والعلمان وشيوع الإباحة في الجنسين ولكن هكذا دأب المحبون دائماً ، إنه يفتن في تهيئة أسباب اللذة واستفراغ الشهوة من أى طريق . وقد روى لنا الجاحظ كثيراً من الأشعار التي قيلت في « العادة السرية » في الجزء الخامس من كتاب الحيوان ، وكذلك امتلأت بهذه الأشعار كتب المتأخرين كمحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ونهاية الأرب للنويري . ويقول ابن منظور إن أبا نواس هو أول من قال شعراً في هذا الشذوذ . وهو يروى ما نظمه أبو نواس في كتابه عن أخباره^(٤). بل لقد عرف القرن الثاني أيضاً اتصال الآدميين بالحمير^(٥)، مع أن هذا الانحراف لا يكون إلا في مجتمع محافظ أشد المحافظة ، لا تختلط فيه الإناث بالذكور بعكس ما كان عليه الحال في مجتمع القرن الثاني ، ولكن هكذا شأن المحبون أيضاً في ابتكار أنواع الشهوات الشاذة .

وما تقدم يتبين لنا أن تيار المحبون كان اتجاهاً من اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ، لم يظهر من قبل ، شأن الاتجاهات الأخرى التي سنتناولها في هذا الفصل والتي كانت جميعها صدى لاتجاهات حياة المجتمع الإسلامي في القرن الثاني .

(١) آثرنا هذه الكلمة بدلا من الكلمة الصريحة .

(٢) الأغاني ٤ : ٢٤ .

(٣) الأغاني ١٣ : ٣٢٩ .

(٤) أخبار أبي نواس ١ : ١١٠ .

(٥) طبقات ابن المعتز : ٣٨٨ .

الزندقة

قلنا في المجون إنه أول درجة في طريق الزندقة ، وقد رأينا من المجون ألواناً عنيفة من الإباحة والشذوذ وارتكاب المحرمات ، فكيف إذن تكون الزندقة ؟ ما شكلها ؟ ما موضوعها ؟ وإلى أين كانت تسير بالمجتمع الإسلامي في القرن الثاني ؟ وكيف أنها تكون اتجاهًا هامًا جديدًا في الشعر العربي يظهر لأول مرة في تاريخه ؟ إن تحديد معنى كلمة « زندقة » ليس بالأمر الهين لأن هذا اللفظ باتفاق الآراء ليس من أصل عربي ، وقد اختلف الباحثون في تحديد نسبته فيرى بيقان أنه من أصل آرامي (زديق) وأن هذه الكلمة انتقلت إلى الفرس فحرفت إلى « زنديك » ولما نقلت إلى العربية أصبحت « زنديق » وكان يقصد بها بادي الأمر أبرار المانوية وزهادهم ، ثم أصبحت علمًا على المانوية كلهم ، وتطور معناها بعد ذلك إلى ملحد . ويؤيد حامد عبد القادر هذا الرأي بقوله : « من المؤكد الذي لا يتطرق إليه الشك أن الفارسية الفهلوية تأثرت بالآرامية ، فيرجح أن الفرس أخذوا هذه الكلمة من الآرامية وحرفوها بعض التحريف فجعلوها « زنديق » وذلك بإبدال النون من إحدى الدالين كما فعلوا بكلمة شبات العبرية إذ أبدلوا من إحدى الباءين نونا ، وأبدلوا الذال من الثاء الأخيرة وجعلوا الكلمة « شنباذ » ومعناها يوم السبت . ثم أخذ العرب عن الفرس كلمة زنديق بعد أن كسروا زايها لتتسم مع كسرة الدال وجعلوها « زنديق » مثل عريب وثنين وقنديل . . . وكانت تطلق في عرف المانويين بمعناها الأصلي على المؤمن المخلص من أتباع ماني ، ولما كان الزرادشتيون يعدون هؤلاء ملحدين خارجين على الزرادشتية الحققة فقد أطلقت الكلمة عندهم على كل ملحد لا يؤمن بالدين الحق وهذا هو المعنى الذي ظل يفهم في العصور الإسلامية ^(١) .

ويرى فولرز أن كلمة زنديق من أصل إغريقي ^(٢) ، أما براون فيرى أن الكلمة صفة فارسية معناها « متبع الزند » أي الشروح القديمة للأفستا وهو كتاب زرادشت المقدس ، وأن المانوية سموا بالزندادة لقيامهم بتأويل وشرح الكتب المقدسة للديانات الأخرى حسب آرائهم . أما فون كريمر فيقول إن كلمة زنديق كانت تدل على معان

(١) قصة الأدب الفارسي : ٦٠ ، ٦١

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) : مادة زنديق .

مختلفة في الأزمنة المتباينة ، ففي بادئ الأمر كانت تطلق على الذين اعتنقوا الآراء الفارسية وأخيراً كانت تدل على أتباع الديانة المانوية . ومع ذلك فقد اتسع مدلولها شيئاً فشيئاً حتى أصبحت مرادفة لكلمة ملحد أى الذى لا يعتد بالدين . والذى يؤكد لنا أن الكلمة كان يقصد بها المانوية في مبدأ الأمر كلام الجاحظ في الحيوان عن كتب الزنادقة الفخمة ، لأن من الصفات الخاصة بكتابات المانوية الزخرفة الفخمة والتفنن^(١) . وقد استند « دارمشتير » على كلام المسعودى فعرف الزنديق عند أتباع مزدك بأنه الملحد الذى يأتى بتفسير جديد للأفستا^(٢) . ويرى « فيدا » أن الزندقة التى حاربها المهدي والهادي هي المانوية أولاً وبالذات . ودليله على هذا الوسائل التى كان يمتحن بها القضية قيمة رجوع الزنادقة عن الزندقة وإنكارهم لها ، وذلك بالبصق على صورة مائى . وتؤيد ذلك أيضاً وصية المهدي للهادي بتعقب هذه الطائفة التى ذكر له مبادئها وهى نفسها مبادئ المانوية^(٣) ، ويرى « شيدر » أن كلمة زندقة عربت في العراق أخذاً من المصطلحات الإيرانية أيام حكم الساسانيين . وقال « صديقي » إن هذا التعريب حدث بين الموالى في الحيرة والكوفة ، وإن الكلمة ظهرت أول ما ظهرت في العراق عام ١٢٥ هـ عند قتل الجعد بن درهم^(٤) .

ويرجح معرب مادة زنديق في دائرة المعارف الإسلامية — نقلاً عن السيد أدي شير صاحب كتاب الألفاظ الفارسية المعربة — أن كلمة زنديق معربة عن لفظ زنديك أى الذى يعمل بما يطابق كتاب الزند لمزدك . ويفهم أحمد أمين من كلام ابن النديم أن الزندقة كانت مرادفة للمانوية ، في حين أن الخياط المعتزلى يستعمل كلمة زندقة في الانتصار للدلالة على فرقة خاصة قريبة لليهود والنصارى . أما ابن قتيبة فيعتبرها في كتابه « المعارف » ديناً خاصاً من أديان الفرس^(٥) . ولكن الذى فهمته من كلام ابن قتيبة يدل على أنه كان يعنى بالزندقة المزدكية بالذات^(٦)

(١) الحضارة الإسلامية : ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) .

(٣) من تاريخ الإلحاد في الإسلام : ٣١ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) .

(٥) فجر الإسلام : ١٠٧ .

(٦) المعارف : ١٦٧ .

ويفهم حسن إبراهيم حسن من عبارة للغزالي أن العرب كانوا يطلقون لفظ زنديق على من بنى وجود الله أو يقول إن له شريكاً^(١) .

ومن جملة تلك المناقشات التي ثارت حول الأصل اللغوي لكلمة زندقة ومعناها وتطور مدلولها ، يمكننا أن نقول إن لفظ الزندقة فيما يبدو من أصل فارسي حقاً ، وأنه عُرِّبَ مثل بقية الألفاظ الفارسية التي دخلت اللغة العربية في أثناء عملية التوليد والمزج بين العرب والفرس في القرن الأول الهجري ، وأنه لم يكن يقصد به - في رأيي - طائفة المانوية أتباع ماني الذي قال إن للعالم أصليين : نور وظلمة وكلاهما قديمان ، بل طوائف الثنوية جميعاً من مانوية وديصانية ومرقونية ومزدكية أيضاً وهم أتباع مزدك الذي أظهر دين الإباحة^(٢) . ووصية المهدي لابنه الهادي التي ذكرها الطبري تؤكد ذلك فقد جاء فيها : « إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة (يعني أصحاب ماني) فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجها وتحوباً ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيع بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف^(٣) » ويبدو أن عبارة الطبري التي فسر بها معنى العصابة فقال (يعني أصحاب ماني) هي التي أدخلت في روع الباحثين وخاصة فون كريمر أن الزنادقة هم المانوية فحسب وليس الأمر كذلك . وأما عبارة الجاحظ في الحيوان فلا يفهم منها أبداً أنها تحدد الزنادقة بالمانوية فقط فهو يقول : « إن الزنادقة حرصاء على المغالاة بالورق النقي الأبيض ، وعلى تخير الخبر الأسود المشرق البراق ، وعلى استجادة الخط والإرغاب لمن يخط » . ثم يكشف لنا عن سبب مغالاتهم في تأني كتبهم فيقول : « إن إتفاق الزنادقة على تحصيل الكتب كإتفاق النصارى على البيع » . وهو يعني أنهم يريدون استمالة الناس بها واجتذابهم إليها عن طريق التأنيق والمغالاة فيها ، تماماً كما يحدث في كتب الدعاية التي توزعها دولة أو هيئة من الهيئات ، وخاصة الأجنبية ، في عصرنا

(١) تاريخ الإسلام ٢ : ١٠١ .

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ٨٨ .

(٣) تاريخ الطبري ١٠ : ٤٢ .

الحاضر ، فهي لا تنصرف إذن إلى كتب المانوية وحدهم كما فهم قون كريم . وهو في هذا معذور لأن المؤرخين ذكروا لنا أن المانوية كانوا يعنون بتجويد الخط ، وأنه قد شاع عن ماني نفسه أنه كان نقاشاً ماهراً ويعزى إليه وضع كتاب صور سماه « أرزهنك » أو « أرتنك » ادعى أنه معجزته التي تدل على قدرته الخارقة ^(١) . أما مضمون كتب الزنادقة فيقول الجاحظ عنه « وجل ما فيها ذكر النور والظلمة ، وتناكح الشياطين وتسافد العقاريت وذكر الصنديد ، والتهويل بعمود السنخ والإخبار عن شقلون . . . وكله هذر وعي وخرافة ^(٢) » وهذا المضمون وبخاصة النور والظلمة تشترك فيه طوائف الثنوية جميعاً على اختلاف بينها في حياة النور وموت الظلمة ^(٣) . ثم إن الثنوية كما يقول الشهرستاني اختصت بالمجوس ومسائلهم جميعاً تدور على قاعدتين : إحداهما بيان سبب امتزاج النور بالظلمة ، والثانية بيان سبب خلاص النور من الظلمة ، والاختلاف في هذا هو الواقع بين فرق الثنوية . وهو يذكر منها عدداً كبيراً مثل الكيومرثية ، والزرروانية ، والزرادشتية ، والمسخرية ، والخرمدينية ، والسيسانية ، والبهاقريدية ، إلى غير ذلك ^(٤) .

ومما يؤكد وجهة نظرنا في أن لفظ الزندقة كان يشمل جميع فرق الثنوية ما ذكره المهدي في وصيته لابنه عن إباحة الزنادقة ، والمانوية كما تصورها لنا المراجع المختلفة لم تكن فيها هذه الإباحة ، ولكن هذه الإباحة إنما تنسب إلى المزدكية وهي إحدى فرق الثنوية ، وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال فأحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها ^(٥) . ويقول الطبري عن مزدك : « إنه حض السفلة على العلية ، واختلط له أجناس اللؤماء بعناصر الكرماء ، وسهل السبيل للغصبة إلى الغصب ، والظلمة إلى الظلم ، والعهار إلى قضاء نهمتهم والوصول إلى الكرائم اللأئي لم يكونوا يطمعون فيهن ، وشمل الناس بلاء عظيم لم يكن لهم عهد بمثله ^(٦) » .

(١) انظر : قصة الأدب الفارسي : ٥٨ .

(٢) الحيوان ١ : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركون : ٨٨ .

(٤) الملل والنحل : ١٨٠ .

(٥) المصدر نفسه : ١٩٣ .

(٦) تاريخ الطبري ٢ : ٩١ .

ومما يؤكد أيضاً أن كلمة الزنادقة كان يقصد بها المزدكية وغيرها من فرق الثنوية أن ما جاء في وصية المهدي عن تحريم اللحم هو من مبادئ المزدكية بالفعل ، ويقول ابن الأثير عن مزدك : « وحرم ذباجة الحيوان ، وقال يكنى في طعام الإنسان ما تنبته الأرض وما يتولد من الحيوان كالبيض واللبن والسمن والجبن ^(١) » ولا عبرة في هذا بما قاله ابن النديم من أن المانوية يتركون أكل اللحم وشرب الخمر والتناكح ^(٢) ، فهذا ما لم تؤكد المصادر الأخرى ولعله يخلط بين المزدكية والمانوية شأن بعض الكتاب الأقدمين .

ولا يتفق ابن دحية الكلبي — من القرن السابع — مع ما ذهبنا إليه في معنى الزندقة إذ يفرق بين شيئين : الزنادقة والثنوية ويعرف الزنديق بأنه « اسم يقع على من لا يثبت للمصنوعات صانعا ، وعلى من لا يثبت الرسالة أصلا وإن أثبت الصانع ، وعلى من يتستر فيستر بالشهادتين ولا يعتقد شيئا ، وأنه ليس مكون ولا مدبر ، وأن هذا الخلق بمنزلة النبات يموت منه شيء ويحيا منه شيء ، وإنما تغلب عليه الطوائع الأربع في أبدانهم ، فإذا غلبت عليه إحداها من قتلته ، وأن أباه هو الذي خلقه حتى توهموا أن لآدم أبا » أما الثنوية فهم « الذين يزعمون أن الإنسان ما دام يحسن فهو يعمل بروح اللاهوت ، وإذا أساء فهو يعمل بروح الشيطان ، وأن الخير من الله والشر من إبليس ومن أنفسنا . وهم من طريق اللغة منسوبون إلى اثنين لزعمهم أن خالق الشر غير خالق الخير » ^(٣) .

وفهم ابن دحية لمعنى الزندقة والثنوية يؤكد ما ذهبنا إليه ولا ينقضه في حقيقة الأمر . فالزندقة كانت تطلق على جميع فرق الثنوية في أول الأمر ، منذ أيام المنصور والمهدي والهادي على الأقل ، ثم تطور معنى الزندقة بعد ذلك ، فأصبح يطلق على كل خارج عن حدود الدين أو الأخلاق أو العرف أو التقاليد ، وابن دحية — فيما يبدو — يتحدث عن الثنوية بمعنى الزرادشتية ، وتعريفه لها يؤكد ذلك ، ويبدو أن جميع الكتاب المتأخرين عن القرن الثاني كان في أذهانهم حد واضح بين الزنادقة الذين يشملون جميع فرق الثنوية والخارجين عن الدين ، وبين الزرادشتية بوصفها لا تحض على منكر .

(١) الكامل ١ : ١٦٥ .

(٢) الفهرست : ٤٦٠ .

(٣) التبراس في تاريخ خلفاء بني العباس : ٣١ ، ٣٢ .

وهناك تفرقة واضحة بين الثنوية والمجوس من ناحية — كما يتضح لنا من كلام أبي بكر الباقلاني إذ جعل لكل منهما باباً خاصاً^(١). وبين المجوسية والزندقة من ناحية أخرى كما يتضح لنا من كلام ابن قتيبة الدينوري الذي يرجع وجود المجوسية إلى أصل قديم في العرب نتيجة اتصالهم بالفرس عن طريق الحيرة ، فيقول إن المجوسية كانت في تميم ويذكر عدداً ممن اعتنقها مثل زرارة بن عدس التميمي وابنه حاجب بن زرارة ، والأقرع بن حابس . ومن ناحية أخرى يتحدث عن الزندقة ويقول إنها كانت في قريش وينص على انتقالها إلى العرب من الحيرة^(٢). ولكن ابن قتيبة لم يزد على ذلك شيئاً ، ولم يفسر لنا مدلول الزندقة التي يعتقد بقدم أصولها في العرب . وقد أكد ابن الكلبي ما ذهب إليه ابن قتيبة — برواية تنهى في نسبتها إلى ابن عباس — بأن المجوسية كانت في بني تميم ، وقد زاد على معتنقيها الذين ذكرهم ابن قتيبة : هلال التميمي وأبا سود جد وكيع بن أبي سود ، كما جعل الزندقة في قريش وذكر لنا أسماء المتزندقين وهم عقبة بن أبي معيط ، وأبي بن خلف ، والنضر ابن الحارث ، والعاص بن وائل ، والوليد بن المغيرة . ونقل عن مجاهد أنه قال لابن عباس : وأنتى وقعوا في الزندقة ؟ فقال : من الحيرة ، كانوا يقدمون الحيرة بتجاراتهم فيلقون النصاري فيدارسونهم^(٣) .

ولولا ما ذكره ابن قتيبة في هذا الموضوع لأسقطنا نص ابن الكلبي من حسابنا واعتبرناه من دعاوى الشعوية ضد العرب ، ولكن يبدو أن الحيرة قد أثرت فعلاً في بعض الأفراد في الجاهلية ونقلت إليهم بعض معتقداتها ، ولعل كلمة النصاري هنا مقحمة في النص ، وربما كان يقصد بها المانويين بالذات ، وعلى العموم فلا يمكننا أن نجزم بشيء قاطع عن مفهوم الزندقة التي تسربت إلى بعض العرب في الجاهلية .

والمتمعن في نص الشهرستاني الذي مر بنا والذي يقول فيه عن الثنوية إنها اختصت بالمجوس وإن مسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين : إحداهما بيان سبب امتزاج النور بالظلمة ، والثانية بيان سبب خلاص النور من الظلمة ، المتمعن في هذا

(١) التمهيد في الرد على الملحدة : ٦٨ ، ٧٥ .

(٢) المعارف : ٢٦٦ .

(٣) كتاب مثالب العرب : ١٥٥ (مخطوط) .

النص وفي كلام كل من الباقلاني وابن قتيبة يجد تعارضاً واضحاً بين الشهرستاني وبينهما . فهو يجعل الثنوية والمجوس شيئاً واحداً ، وهما يفرقان بينهما باعتبار أن الثنوية والزندقة شيء واحد . فأى الفريقين على صواب ؟

إن المقصود بكلمة المجوسية هي الزرادشتية التي كانت الديانة الرسمية للفرس منذ عهد بعيد . والزرادشتية هي أساس فرق الثنوية لأنها تقول بوجود قوة عليا (أهورا مازدا) هي قوة الخير والنور . وبجانب هذه القوة سبعة ملائكة قدسيون يمثلون الفضائل السبع العليا وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والإخلاص والأمانة والكرم . وتقابل قوة الخير والنور هذه قوة الشر والظلام (أهريمان) ويعاونها سبع من القوى الشيطانية الخبيثة المتمردة منها : النفاق والخديعة والحيانة والخبث وإزهاق الأرواح . وقد رمز إلى النور بالشمس والنار لأن الأولى كائن مشرق مضى وقوته لا تقاوم ، كما لا تقوى نزعات الشر على الاقتراب منه ، أما النار فهي عنصر قوى مطهر . فالزرادشتية هي التي تقوم على عبادة النار لا باعتبارها كائناً حياً مزوداً بحياة أو روح ولكن باعتبارها رمزاً للقوة التي تفيض بالنور والخير^(١) . والديانة الزرادشتية على الرغم من ثنويتها إلا أنها تحض على كثير من الفضائل الإنسانية التي تضمنتها ديانات التوحيد نفسها . ولهذا اعتبر أشياعها مثل أهل الكتاب وفرضت عليهم الجزية^(٢) . كما تركت لهم حرية العبادة فظلت بيوت النار مشتعلة عهداً طويلاً بعد انتشار الإسلام^(٣)

ومن هذا يتبين لنا أن الزرادشتية أو المجوسية لم تكن محل سحق الدولة الحاكمة في أي عهد من العهود، ولم تكن موضع محاربتها العنيفة لأصحاب المذاهب الشاذة ، ولهذا فنحن نؤيد التفرقة بين الزندقة والمجوسية ، كما ذهب ابن دحية الكلبي وابن قتيبة والباقلاني أيضاً، وإن كان الخلاف والتناقض يقعان في النصوص التي تجعل الزنادقة هم الثنوية على الإطلاق ، مع أن المجوس من الثنوية كما ذكرنا . ولكن يظهر أن بعض الباحثين الأقدمين كانوا يفهمون الثنوية على أنها المجوسية

(١) انظر : قصة الأدب الفارسي : ٣١ وما بعدها .

(٢) انظر : الخراج لأبي يوسف : ١٢٢ .

(٣) انظر : الملل والنحل : ١٩٨ .

فقط كما ذكرنا من قبل في نص ابن دحية الكلبي ، وكما يتضح لنا من نص لابن المعتز يقول فيه عند حديثه عن أبي العتاهية : « يُرمَى بالزندقة . . . والذي يصح لي أنه كان ثنويا ^(١) » . والذي يدعونا إلى فهم الثنوية في هذا النص على أنها المحبوسية أنه من غير المعقول ألا تشمل الزندقة التي يقصدها ابن المعتز فرق الثنوية التي ذكرناها من مانوية ومزدكية وغيرهما .

وهناك نص للجاحظ يؤكد ما جاء في وصية المهدي من أفعال الزنادقة ، ولكن الجاحظ ينسب هذه الزندقة إلى زرادشت ويقول عنه إنه « دعا الناس إلى نكاح الأمهات وإلى التوضؤ بالبول وإلى التوكيل في (غشيان) ^(٢) المغيبات ^(٣) . ولولا أنه صادف دهرا في غاية الفساد ، وأمة في غاية البعد من الحرية ومن الغيرة والألفة ، ومن التقزز والتنظف لما تم له هذا الأمر ^(٤) » . وواضح جداً أن الجاحظ يخلط بين زرادشت ومزدك . فالذي دعا إلى هذه الإباحة هو مزدك كما ذكرنا لازرادشت ، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من شمول لفظ الزنادقة لفرق الثنوية ما عدا الزرادشتية .

ونتين من رسالة ابن القارح إلى أبي العلاء المعري المعنى المتأخر لكلمة زندقة وهو يشمل كل معاني الإلحاد والمروق عن الدين ، أو إدخال الشبه والشكوك فيه ، أو القدح في نبوة النبيين ^(٥) . ويقول محمد الطاهر بن عاشور إن اسم الزندقة صار اسماً علمياً في الفقه يدل على من يظهر الإسلام ويبطن الكفر . أيا كان نوع هذا الكفر ، ولذلك قالوا : الزنديق يرادف المنافق . وخصوا المنافق بمبطن الفكر في زمن الرسول عليه السلام ، والزنديق بمبطن الكفر بعد ذلك الزمن ^(٦) .

ذلك إذن هو مدلول كلمة الزندقة وتطور مفهومها منذ دخولها في اللغة العربية وصيرورتها عنواناً على حركة مذهبية قوية في التاريخ العربي ، وتمثيلها لاتجاه جديد ظهر أثره بوضوح في شعر القرن الثاني .

(١) طبقات الشعراء : ٢٢٨ .

(٢) ذكرنا هذه اللفظة بدل اللفظة الصريحة .

(٣) أي اللاق غاب عن أزواجهن .

(٤) الحيوان ٥ : ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٥) رسائل البلغاء : ٢٥٩ .

(٦) مقالة ديوان بشار ١ : ١٩ .

والزندقة بهذا المفهوم لا يمكن أن تكون قد ظهرت في العصر الجاهلي كما يقول ابن قتيبة وابن الكلبي ، بل إن مبدأها هو أواخر القرن الأول وأوائل الثاني . وكان ظهورها في العراق حيث العناصر الفارسية والمعتقدات والمذاهب التي يجمعها مفهوم الزندقة . وظهرت في الكوفة بالذات مختلطة بأنواع المجنون والتهتك كما ذكرنا من قبل ، وكما بينا من أسباب داعية إلى ذلك التزندق والتهتك والإباحة . وذكرنا أيضاً رأى قون كريمة في أن البصرة هي الموطن الأول لظهور نزعة عدم المبالاة بالدين ، استناداً إلى وجود عدد كبير من المسلمين من الفرس ومن غيرهم الذين اعتنقوا آراء دينية بعيدة كل البعد عن الإسلام ، إما موروثه عن أجدادهم أو نتيجة لاتصالهم بالأجانب^(١) . وقد بينا أن المجتمع الإسلامي بجميع أجزائه كان معرضاً لتيارات ومؤثرات واحدة ، وكان يستجيب لها في وقت واحد ، ولكن انعكاس تيار الزندقة والمجون في شعر الكوفيين كان أوضح بكثير من انعكاسه في شعر البصريين ، وهذا ما دعانا إلى تقديم الكوفة على البصرة في تلقى هذا التأثير والاستجابة له . وعلى العموم يمكننا أن نقول إن العراق بحكم موقعه وظروفه المختلفة كان الميدان الأول الذي ظهرت فيه حركة الزندقة منذ نهاية القرن الأول وأوائل الثاني ، يقول في ذلك طه حسين مبيناً نوع زندقة القرن الثاني وأصلها : « إن وجدت ذكراً للزندقة والزنادقة وللعبت والعابثين آخر أيام بنى أمية ، فإنك واجد مع هذا أن هذه الزندقة وهذا العبت والمجون إنما حملت كلها من العراق إلى الشام بأمر الوليد بن يزيد أو غير الوليد من مجان بنى أمية . الزندقة إذن عراقية لأنها فارسية . . . وقد تجد شيئاً غير قليل من تأثير اليونان وفلسفتهم في زندقة هؤلاء الزنادقة وإباحة هؤلاء الشعراء ولكن هذا التأثير عرضي لا جوهري . . . فهؤلاء الشعراء والزنادقة كانوا يتخذون من الفلسفة اليونانية حلية يزينون بها شعرهم وزندقتهم ولكنهم لم يتعمقوا قط في الفلسفة اليونانية . . . وزندقة القرن الثاني للهجرة ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص . . . ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم وما ذاع فيهم من عقيدة دينية . . . والزندقة الأدبية كانت في عصر بنى أمية ضعيفة مترددة متسرة لا يكاد الناس يظهرون الميل إليها ، فلما اجترأ خليفة من خلفاء بنى أمية على أن يجهر

بالفجور قويت واستطاعت أن تظهر ، ثم انتصر الفرس فانتصرت معهم^(١) .
وهذا النص يشير قضايا متعددة في موضوع الزندقة فهو أولاً يؤكد ما ذهبنا إليه
من أن العراق هو موطنها الأول، وأنها نشأت في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني ، وأنها
كانت مقترنة بتيار المجون ، ثم هو يربطها بعد ذلك بحركة الشعوية ، ويجعلها أثراً
من آثار المذاهب الفارسية والفلسفة اليونانية إلى حد ما .

والذي نحسب أن نؤكد به باديء ذي بدء أن الشكوك في الدين مرحلة ضرورية
تظهر في كل حضارة إنسانية عند انتقالها من حالة فكرية إلى أخرى ، أو عندما
تلتقي ثقافتها بثقافات أجنبية مختلفة ، فكان من الطبيعي إذن أن تمر الحضارة الإسلامية
بهذه المرحلة وأن تبدأ في القرن الثاني بالذات لأنه عصر التقاء الثقافات والانتقال
الفكري من حالة إلى أخرى ، يقول في ذلك إبراهيم اللبان : « ولما دخلت الثقافات
الأجنبية عامة والثقافة اليونانية خاصة في الممالك العربية التقت ثقافتان مختلفتان :
الثقافة الإسلامية القائمة على الإيمان ، والثقافة اليونانية التي تعتمد على النظر العقلي .
ولما كان الانتقال من الموروث من العقائد والتقاليد إلى الحرية العقلية لا يتم إلا تدريجياً
كانت الخطوة الأولى في هذا السبيل هي خطوة الشك وهي مرحلة هامة جداً في بداية
الحرية العقلية وخاتمة عصور التجديد الفلسفي والعلمي . . . وقد ظهرت في العالم
العربي تيارات فكرية مختلفة كنتيجة لهذه الحالة الطارئة فظهرت بين الأدباء والعلماء
طائفة من الشكاك المشككين مثل بشار بن برد^(٢) » . . . ولاحظ نفس هذه الفكرة
جورجي زيدان فربط بين الشكوك في الدين والزندقة من جهة ، والتقاء الثقافات
ودخول الفلسفة اليونانية في المجتمع الإسلامي من جهة أخرى^(٣) . وكذلك عبد الرحمن
بدوي إذ يرى أن ظاهرة الإلحاد ضرورية النشأة في كل حضارة حينما تكون في دور
المدنية وأن الذي قوى هذه الظاهرة الانتقام الشعبي ونزعة التنوير التي تطلب الحرية
بكل ثمن^(٤) ، والتي تحدثنا عنها من قبل .

وما دامت ظاهرة الشك والإلحاد ظاهرة طبيعية في كل حضارة تجتاز الظروف

(١) حديث الأربعاء ٢ : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) الفلسفة والمجتمع الإسلامي : ٧١ ، ٧٢ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ٥١ .

(٤) مقدمة من تاريخ الإلحاد في الإسلام .

التي مرت بها الحضارة العربية ، فينبغي إذن ألا ننساق كثيراً وراء فكرة الارتباط الموجود بين الزندقة والشعوبية ، خصوصاً حين نجد من العرب بل من الهاشميين من اتهم بالزندقة مثل الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، ومثل عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب^(١) ، ومثل آدم بن عبد العزيز وهو من بني مروان^(٢) ، ومثل ابن داود بن علي ، ويعقوب بن الفضل وهما هاشميان . وقد وجد المهدي بنتاً ليعقوب اسمها فاطمة حبلى من أبيها وأقرت بذلك فقتلت وقتل أبوها^(٣) .

ومع ذلك فنحن لا ننكر أثر الشعوبية في قوة تيار الزندقة ، وأن الشعوبيين كانوا يهدفون إلى تحطيم معنويات المسلمين ودس الأكاذيب والمفتريات في أصول دينهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، حتى ينتقموا لأصولهم الفارسية ، ومذاهبهم ومعتقداتهم القديمة . ويذكر لنا الطبري أن عبد الكريم بن أبي العوجاء لما أبقن أنه مقتول قال : « أما والله لئن قتلتموني ، لقد وضعت أربعة آلاف حديث ، أحرم فيها الحلال ، وأحل فيها الحرام . والله لقد فطرتكم في يوم صومكم وصومتكم في يوم فطركم^(٤) » . وعبد الكريم هذا ، هو الذي يقول فيه بشار مصرحاً بزندقته وكفره :

قُلْ لِعَبْدِ الْكَرِيمِ يَا ابْنَ أَبِي الْعَوْجَاءِ بَغْتَ الْإِسْلَامَ بِالْكَفْرِ مُوقَا
لَا تُصَلِّي وَلَا تَصُومُ فَإِنْ صُمْتَ فَبَعْضَ النَّهَارِ صَوْمًا رَقِيقًا
لَا تُبَالِي إِذَا أَصَبْتَ مِنَ الْخَمْرِ عَتِيقًا ، أَلَا تَكُونُ عَتِيقًا
لَيْتَ شَعْرَى غَدَاةً حُلِيتَ فِي الْجُنْدِ حَنِيفًا حُلِيتَ أَمْ زَنْدِيقًا^(٥)

ويقول عبد القاهر البغدادي إن عبد الكريم بن أبي العوجاء هذا ، جمع بين أربعة أنواع من الضلالة : «أولها أنه كان يرى في السر دين المانوية من الثنوية ، والثانية قوله بالتناسخ ، والثالثة ميله إلى الرافضة في الإمامة ، والرابعة قوله بالقدر في أبواب التعديل والتجويز^(٦) » .

(١) الأغاني ١١ : ٧٥
(٢) تاريخ الطبري ١٠ : ٢٤
(٣) أمالي المرتضى ١ : ٩٥
(٤) المصدر نفسه ٩ : ٢٨٦
(٥) الفرق بين الفرق : ١٦٣
(٦) المصدر نفسه ١٤ : ٥٨

ولعل السر في إقبال بعض الموالى على دراسة الحديث يكمن في محاولتهم الدس على رسول الله ما لم يقله ، وإشاعة البلبلة والشك في نفوس المسلمين . ويمثل هؤلاء المحدثين أحمد بن بشير (المتوفى سنة ١٩٧ هـ) الذي يقول عنه الخطيب البغدادي إنه « كان رأساً في الشعوية ، أستاذاً يخاصم فيها »^(١) .

وما دمتنا لا نجعل للتأثير الشعبي كل القوة في دفع تيار الزندقة في القرن الثاني ، فإننا نسلم بما قاله طه حسين عن تأثير الحركة الشعوية في الزندقة ، وما قاله في ذلك أيضاً « قيذا » حين جعل نزعة الشعوية أكبر دافع لبشار وأبان اللاحق بالذات على الزندقة^(٢) . وكان بروكلمان لا يستبعد هذا التأثير لأنه يذكر أن المانوية ، لا الزرادشتية الخالصة ، كانت لا تزال تفرض سلطانها الكبير على أولئك الذين دخلوا حديثاً في الإسلام ، ولم يرتاحوا ارتياحاً كلياً لشعائره الصارمة ، بل لقد كادت تكون المانوية دين الطبقات المثقفة^(٣) . ولهذا كان وجود مثل هؤلاء المسلمين ظاهراً ، المانويين باطنياً ، كافياً لإثارة الشكوك في المجتمع الإسلامي ودليلاً على التأثير الشعبي في تقوية تيار الإلحاد والزندقة . وفي هؤلاء يقول المرتضى إنهم (جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام ويحققون بإظهار شعائره والدخول في جملة أهله ، دمه وماله ، زنادقة ملحدون ، وكفار مشركون . فمنعهم عز الإسلام عن المظاهر ، وألجأهم خوف القتل إلى المساترة . وبلية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ ، لأنهم يدخلون في الدين يموهون على المستضعفين بجأش رابط ورأى جامع)^(٤) ومن الممكن أن يطلق مثل هذا الاتهام على ابن المقفع . فقد روى جعفر بن سليمان عن المهدي أنه قال : (ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع)^(٥) . ويرى محمد بدیع شریف أن ابن المقفع (كان زنديقاً لا يؤمن بالله ولا يقيم وزناً لدين محمد بن عبد الله ، وقد كشف القناع عن ذلك الأستاذ جويدى في الكتاب الذى نشره لمؤلفه إبراهيم بن القاسم وهو كتاب « الرد على اللعين عبد الله بن المقفع » . وفي هذا الكتاب اقتطف إبراهيم فقرات من

(١) تاريخ بغداد ٤ : ٤٨ .

(٢) من تاريخ الإلحاد في الإسلام : ٣٧ .

(٣) الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها : ١٥ .

(٤) آمالي المرتضى ١ : ٨٨ .

(٥) المصدر نفسه ١ : ٩٤ .

كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن^(١) . ويرى فرنشسكو جبريلي أن ابن المقفع يظهر أنه كان له فعلاً عقيدة مانوية أو ثنوية بأى معنى من المعانى^(٢) . وهذا الرأى تؤكدُه ملاحظة ثعلب على أبيات لابن المقفع يرثى بها يحيى بن زياد ، كما يقول ثعلب ، أو ابن أبى العوجاء كما يرى الأخفش وهى التى يقول فيها :

رُزِينَا أبا عمرو ولا حىً مثله فَلِلَّهِ رَبِّبِ الْحَادِثَاتِ بِعَمِّ وَقَعٍ
فَإِنْ تَكُ قَدْ فَارَقْتَنَا وَتَرَكَتَنَا ذَوَى خَلَّةٍ مَا فِى أَنْسَادٍ لَهَا طَمَعُ
لَقَدْ جَرَّ نَفْعًا فَقَدْنَا لَكَ أَنْنَا أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرِّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ

قال ثعلب : البيت الأخير يدل على مذهبهم ، فى أن الخير ممزوج بالشر والشر ممزوج بالخير^(٣) .

وقضية إظهار الشعوبيين للإسلام وإضمارهم عقائدهم القديمة يمكن أن يتهم بها البرامكة أيضاً وقد اتهموا فعلاً بذلك . فابن قتيبة يقول (البرامكة كانوا يرمون بالزندقة إلا أقلهم) ، وهو يروى بيتين للأصمعى فى ذلك « وينسبان أيضاً لأبى نواس » يتضمنان اتهاماً صريحاً للبرامكة بالزندقة ، يقول الشاعر :

إِذَا ذُكِرَ الشَّرْكُ فِى مَجْلِسٍ أَضَاعَتْ وَجُوهَ بَنَى بَرْمَكٍ
وَإِنْ تُلِيَتْ عَنْدهُمْ آيَةٌ أَتَوْا بِالْأَحَادِيثِ عَنْ مَزْدَكٍ^(٤)

ومثل هذا الاتهام يقول به ابن النديم مستثنياً محمد بن خالد^(٥) . كذلك نجد كثرة من المؤرخين مثل الطبرى وابن الأثير والمسعودى يؤيدون هذه التهمة . وقد نص فى بعض المصادر على أن البرامكة ، كانوا يضمرون المجوسية دينهم القديم ، وبعض المصادر الأخرى تنسبهم إلى المانوية . ويرى أنطون رباط اليسوعى أنهم كانوا يميلون إلى النصرانية ويستشهد على ذلك بما جاء فى زيارة جعفر البرمكى لإحدى الكنائس

(١) الصراع بين الموالى والعرب : ٦٧ .

(٢) من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ٤٢ ويرى محمد جابر عبد المال أنه كان زرادشتى العقيدة (انظر : حركات الشيعة المتطرفين ٢٠٨) .

(٣) أمالى المرتضى ١ : ٩٤ .

(٤) المعارف : ١٦٧ .

(٥) الفهرست : ٣٣٨ .

وتغير الرشيد على النصارى وتشدده معهم بعد إيقاعه بالبرامكة^(١) . وإذا كان ما يقوله هذا الكاتب مبرراً من العصية الدينية فإن البرامكة حيثئذ يكونون في جانب المانوية لا المجوسية ، لأن المانوية هي أقرب هذه المذاهب إلى الدين المسيحى وفيها عناصر كثيرة منه^(٢) .

ولعل مما يتصل بهذه النقطة ما لاحظناه من انتشار المبادئ الدينية الفارسية القديمة بعد تكون حزب الموالى الذى أبرزنا وجوده في الحياة السياسية في القرن الثانى . ويبدو أن نشر هذه المبادئ وترويجها كان من أسس برنامج هذا الحزب ليتمكن من بسط سلطانه ونفوذه عن طريق سيادة هذه الآراء والمعتقدات والمذاهب ، وأخطرها جميعاً في رأى الباحثين هي المزدكية والمانوية . ويقول نيرج في مقاله عن الكفاح بين الإسلام والمانوية ، مشيراً إلى رغبة الشعوبيين في تمزيق الإسلام بصورة خفية : (كانت الحركة المانوية في الشرق أخطر أعداء الإسلام ، فلما من طبيعة المانوية أن تتدخل في غيرها من الأديان وتمترج بها وتتحد معها ، كى تمزق وحدتها من الداخل بما تبذره من أصول الخلاف والشقاق)^(٣) ، وكان هذا كله يتم بالفعل بصورة خفية في مبدأ الأمر ثم أصبحت هذه السياسة علنية بعد قتل أبى مسلم ، زعيم حزب الموالى في رأينا ، فظهرت حركات زندقة فارسية ، أو متأثرة بمؤثرات أجنبية أخرى ومنتشرة أحياناً بثوب إسلامى . فظهر فريد في نيسابور أيام أبى العباس السفاح . وكان مذهبه يرتكز على الزرادشتية فيما يبدو . أما في أيام المنصور بعد قتل أبى مسلم ، فقد ظهر الراوندية ، وكانوا من أهل خراسان . وأساس دعوتهم تناسخ الأرواح الذى كان في أصل وجوده هندية ، فيما نعلم . وقد زعموا أن روح آدم قد حلت في عثمان ابن نهيك ، وأن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور ، وأن المهيم ابن معاوية هو جبريل^(٤) ، وظهر المقنع في مرو أيام المهدي وكان يدعو دعوة شبيهة بالراوندية فقد صنع وجهاً من ذهب وركبه على وجهه وادعى الألوهية وكان يقول إن الله خلق آدم ، فتحول في صورته ، ثم في صورة نوح ، وهكذا هلم جراً

(١) الرشيد والبرامكة : ٥ ، ٦ .

(٢) انظر من تاريخ الإلحاد في الإسلام : ٣٨ .

(٣) الصراع بين الموالى والعرب : ٥٤ .

(٤) تاريخ الطبرى ٩ : ١٧٣ .

إلى أبي مسلم الخراساني ، وبهذا كانت دعوته مؤسسة على فكرة التناسخ أيضا^(١) . ويرى عبد العزيز الدوري أن جميع الحركات التي ظهرت بعد مقتل أبي مسلم تعتبر تطورات لمبادئ مزدك مثل الحرّمية ، والمحمرة والمسلمية^(٢) . وهي في رأينا تمثل انتقام حزب الموالي لمقتل أبي مسلم . ذلك الانتقام المذهبي الرهيب الذي يشيع الانحلال والزندقة في المجتمع الإسلامي ، وخاصة أن المقدسين لأبي مسلم اعتبروه أحد خلفاء زرادشت ، وانتظروا رجعته ليملا الأرض عدلاً ويعيد دولة المجوس ويستولي على الأرض كلها ، ويزيل ملك العرب وغيرهم^(٣) .

وبهذه النظرة ثبتوا أصول فكرة المهدي المنتظر التي دخلت في تعاليم الشيعة من هذا السبيل فيما نرى . وقد حاول أحد الموالي من دعاة بني العباس - وهو خدّاش - أن يدس في دعوته - بدافع شعوبيته في الغالب - مذهب الحرّمية ، ولكن الإمام تنبه إلى ذلك ، وتبرأ منه ، وقال في رسالة له (لا تتبعوا من أحد ممن أناكم عنى قولاً ولا رسالة ، خالفت كتاب الله وسنة نبيه)^(٤) . وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن عمار بن يزيد ، وهو أحد دعاة العباسيين أيضاً ، اعتنق عقائد الحرّمية وجاهر بآراء بعيدة عن الدين والخلق^(٥) .

وبسبب ظهور حركات زندقة كثيرة في خراسان ، يرى قيّدا أنه (للكشف عن أصل التأثيرات الإيرانية التي لعبت دوراً خطيراً منذ ظهور الدولة العباسية ، فلا بد من البحث في الأوساط العلمية العقلية في داخل خراسان وبين أعوان أبي مسلم الخراساني السريين ، كما نبحت عنه في البصرة والكوفة)^(٦) . وهناك نص خطير لابن النديم لعله يفسر لنا سبب كثرة ظهور الزنادقة في خراسان وما وراء النهر ، ذلك أنه يقول إن خالد بن عبد الله القسري ، كان يسهل منذ العصر الأموي دخول المانوية إلى هذه المناطق^(٧) .

(١) انظر الفخرى في الآداب السلطانية : ١٥٦ .

(٢) العصر العباسي الأول : ٨٤ .

(٣) الآثار الباقية : ٢١٣ .

(٤) مقال : ضوء جديد على الدعوة العباسية : ٧٢ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية : مادة عمار بن يزيد) .

(٦) من تاريخ الإلحاد في الإسلام : ٣٩ .

(٧) المنهرست : ٤٧٢ .

واتصال الزندقة بحركة الشعوية من جهة ، وترعرعها في خراسان من جهة أخرى يدعونا إلى البحث في اتصال الزندقة بحركات الشيعة المتطرفة وفرقها أيضاً . وهذه الصلة يؤكد وجودها فليدا بقوله (كانت هناك رابطة بين الزندقة والشيعة ، إذ رأينا كيف كان الانتساب إلى الشيعة الرافضة ، دليلاً على الزندقة وداعياً إلى الاتهام بها)^(١) . وكيف لا يكون الأمر كذلك ، وهذه كتب الفرق جميعاً تكفر كثيراً من المذاهب الشيعية ، وتعد أغلبها خارجاً عن الإسلام ، من أمثال البيانية والمغيرية ، والحريرية ، والمنصورية ، والحناحية ، والخطائية ، والبزيرية^(٢) . وحتى الروافض من الزيدية والكيسانية والإمامية ، لا يمكن تجنبهم تهمة الزندقة في أكثر من موضع في مذاهبهم ومعتقداتهم^(٣) .

ويقول محمد جابر عبد العال بشأن هذه الصلة بين التشيع والزندقة (يظن كثيرون أن نظرية التشيع كانت وحدها الوسيلة التي فتحت الباب على مصراعيه للتأثر بآراء وأفكار أجنبية ، ويرى البعض الآخر ، أن اختلاط العرب بغيرهم كان الأداة التي مزقت الحجاب وفتحت الآفاق أمام عقول المسلمين . والنظريتان صحيحتان إذا نظرنا إلى الأولى بالنسبة للكوفة ، والثانية بالنسبة للبصرة)^(٤) ونحن لا ننظر إلى البصرة والكوفة نظرتين مختلفتين في تلقى التأثيرات الأجنبية المختلفة والاستجابة لها ، بل نؤمن بأنهما منفذان طبيعيان للمعتقدات والآراء الأجنبية على اختلاف أنواعها . والكاتب نفسه يعترف بقوة تيار الروافض في البصرة وتأثيره في إيجاد حركة زندقة بها ، وإن كان يقول إن الحلايا التي كانت تبشر بتعاليم الشيعة المتطرفين كانت تعمل في الخفاء في بيئة البصرة^(٥) . وهو يوضح المجهود الكبير الذي بذله ابن المقفع في هذا الميدان — وقد عاش في البصرة — إلا أنه يحاول إثبات تأثير روافض الشيعة الكوفيين في اتجاهات ابن المقفع إذ يقول (كانت زيارات ابن المقفع للكوفة في زمن كانت حركة الغلاة والمتطرفين على أشدها . ويظهر أن هذه الحركة التي تناولت

(١) من تاريخ الإلحاد في الإسلام: ٣٩ .

(٢) انظر الفرق بين الفرق: ١٤٥ .

(٣) المصدر السابق ٢٢ وما بعدها .

(٤) حركات الشيعة المتطرفين: ١٨١ .

(٥) المصدر نفسه: ٢٠١ .

القرآن ، وكل الأسس الإسلامية تقريباً ، هي التي أوحى إلى ابن المقفع أن كتب كتابه « الليرة اليتيمة » الذي يعارض به القرآن (١) .

وسواء أكانت حركة روافض الشيعة المتصلة بالزندقة اتصالاً وثيقاً قوية في البصرة أم الكوفة ، فليس من سبيل إلى إنكار حقيقة هذا الاتصال بين روافض الشيعة وغلاتها وبين حركة الزندقة والعمل على انتشارها في أوساط المجتمع الإسلامي ، في أى ثوب وبأى طريق . وقد بينا من قبل وجود صلة قوية بين المجون والتشيع ، فليس من المستغرب إذن أن تكون هناك صلة أخرى بين التشيع والزندقة ، خاصة بعد أن ربطنا بين المجون والزندقة ربطاً محكماً ، وأوضحنا علاقة كل منهما بالآخر . وقد أدرك الباحث من قبل هذه الصلة القوية بين الروافض من الشيعة وبين الزندقة ، فقال إن شعراءهم يتندثون شعرهم بشرب الخمر وارتكاب المحارم ، وقد أكد الحياط المعتزلي تلك الفكرة مستنداً إلى شعر السيد الحميري الرافضي (٢) . وما لنا نذهب بعيداً في الربط بين الزندقة ورفق الروافض من الشيعة ، وهذه مذاهبهم بين أيدينا تعبر أصدق تعبير عن المضمون الحقيقي لمعنى الزندقة ؛ فجملة الرافضة تقول إن الله ذو قدّ وصورة وحد ، يتحرك ويسكن ، ويدنو ويبعد ، وينحف ويثقل ؛ وإن علمه محدث ، وإنه كان غير عالم فعلم . ثم إن جملتهم يقولون أيضاً إن الله يشاء كل فاحشة ويريد كل معصية (٣) . وكثير من فرق الرافضة كانوا يشركون مع الله إلهاً آخر ، أو يزعمون أن إمامهم هو الله كما زعم البيانية عن بيان بن مسمان ، والحريية عن عبد الله بن عمر ابن حرب الكندي ، والبزيعية عن جعفر الصادق (٤) ، وبعضها عن علي بن أبي طالب ، وهم الذين يقول فيهم السيد الحميري :

قَوْمٌ غَلَوْا فِي عَلَيٍّ لَا أَبَا لَهُمْ وَأَجْشَمُوا أَنْفُسًا فِي حُبِّهِ تَعَبًا
قَالُوا هُوَ اللَّهُ ، جَلَّ اللَّهُ خَالِقُنَا عَنْ أَنْ يَكُونَ ابْنُ شَيْءٍ أَوْ يَكُونَ أَبَا (٥)

(١) حركة الشيعة المتطرفين : ٢٢٤ .

(٢) الانتصار : ١٤١ .

(٣) المصدر نفسه : هـ .

(٤) الفرق بين الفرق : ١٤٥ .

(٥) الانتصار : ١٤٨ .

وبعض الروافض كفروا بالقيامة ، والجنة والنار ، مثل المنصورية ، أتباع أبي منصور العجلي^(١) ، وبعضهم الآخر ، كانوا يقولون برجعة الأموات إلى الدنيا قبل القيامة مثل فرقة الحمديّة ، وهى من الشيعة الإمامية وشاعرهم يقول فى ذلك :

إلى يَوْمٍ يُوَوِّبُ النَّاسُ فِيهِ إلى دُنْيَاهُمْ قَبْلَ الْحِسَابِ^(٢)

وأغلب فرق الروافض يكفرون الصحابة أو بعضهم لتركهم بيعة على ، ويهجونهم هجاءً مرّاً ، ومن هذه الفرق : الجارودية ، والسلجانية ، والبترية ، والكاملية ، وغيرهم^(٣) وهم لا يكتفون بسب أصحاب رسول الله بل لا يتورعون عن سب زوجاته ، وقد هجا السيد الحميرى عائشة زوج الرسول بأبيات نعت عن ذكرها^(٤) .

هذه هى بعض الملامح البارزة فى زندقة الروافض من الشيعة . وهناك سواها مما يمت إليها بصلة قوية ، مثل إباحة المحرمات وجعل الشهوات حلالاً فى بعض فرق الرافضة . وهل يمكن أن تكون الزندقة فى أى ناحية من نواحيها ، وبأى معنى من معانيها ، سوى هذا الذى تتضمنه مذاهب الروافض والغلاة من الشيعة ؟ . أليس فى هذه المذاهب تأثيرات واضحة من فرق الثنوية وغيرها ، ومذاهب التناسخ وما أشبه ؟ وهل كان المتعصبون من الشعوبيين يذهبون إلى أبعد مما ذهب إليه أولئك الغلاة ؟ إننا نستطيع أن نفهم من الصلة بين الزندقة والتشيع لماذا كان الشعوبيون وغالبية الموالى ينضوون بالآلاف إلى حركة التشيع المتطرفة ويتعصبون لها أشد التعصب . ذلك أنهم كانوا يجلدون فيها ستاراً يحقق ما خبئ فى نفوسهم من الحقد على الإسلام والكيد له ومحاولة إسقاط دولته وإزالة سلطانه .

ولكن الزنادقة لم يكونوا جميعاً من الشعوبيين أو من غلاة الشيعة ، بل كانوا فى الواقع أنواعاً كثيرة تحبها على الزندقة دوافع مختلفة يراها قيّداً ثلاثة أنواع :

١ - الدافع الأول دنى ، والطائفة التى خضعت له تؤمن بالزندقة (ويرى أن معناها المانوية) إيماناً صحيحاً صادراً عن رغبة دينية صادقة .

(١) الفرق بين الفرق : ١٤٥ .

(٢) الفرق بين الفرق : ٣٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٢ وما بعده .

(٤) انظر : الحيوان ١ : ١٦٧ .

٢ - الدافع الثاني سياسى ، والطائفة التى خضعت له ، وجدت فى الزندقة (بنفس المعنى السابق) تراثاً قومياً خلفه الآباء ، فيجب الحرص عليه للنصرة القومية والنزعة الشعوية .

٣ - الدافع الثالث يمكن أن نسميه بالدافع الحضارى أو الفكرى ، والطائفة التى خضعت له ، اتخذت الزندقة وسيلة من وسائل العبث الفكرى التى يلجأ إليها الشكاك دائماً ، يرومون من ورأها العبث بعقائد الناس ، فهى إذن حالة نفسية عنيفة تملكهم فتدفعهم إلى ما هو أشبه باللهو الفكرى والمجون الشكى منه إلى أى شىء آخر^(١) .

ويمكننا أن نضيف دافعاً رابعاً، وهو دافع اجتماعى والطائفة التى خضعت له ، اتخذت الزندقة وسيلة من وسائل التطرف وحسن المئادة ، وسمة على الرقى الثقافى والاجتماعى بحيث يمكننا أن نسمى هذا النوع من الزندقة « الزندقة الاجتماعية » كما يمكننا أن نسمى النوع الأول « الزندقة الدينية » ، والنوع الثانى « الزندقة السياسية » والثالث « الزندقة الفكرية » .

أما الطوائف التى كانت تؤمن بهذا النوع أو ذاك من أنواع الزندقة ، فهى فى رأى لا يمكن تحديدها، ولو أن بعض الباحثين قد حاول ذلك^(٢) ، فهى مختلفة أشد الاختلاف ، فقد يكون الزنديق خليفة كالوليد بن يزيد، وقد يكون إنساناً عادياً من غمار الناس ، دفع به إلى هذا التيار أحد هذه الدوافع التى ذكرناها . ولكننا ما دمنا نتحدث عن تيار الزندقة فى شعر القرن الثانى فسنحدد بحثنا بهذا الإطار ، وإن كان ينبغى التنبيه إلى أن الاتهام بالزندقة، وخاصة بين الشعراء، كان يُستخدم أحياناً كسلاح من الخلفاء للقضاء على خصومهم السياسيين ، كما كان يستخدمه الشعراء بدافع الخصومة الأدبية أحياناً^(٣) .

وقد يكون من الصعب علينا أن نقسم الشعراء الذين اتهموا بالزندقة والذين وجدنا فى شعرهم صدى لهذا التيار ، بحسب الدوافع التى ذكرناها ، إذ ربما وجدنا وراء

(١) من تاريخ الإلحاد فى الإسلام : ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٤ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ٣٠ ، ضحى الإسلام ١ : ١٦٣ .

الشاعر الواحد دوافع متعددة ، ولهذا سنحلل ما في شعر الشعراء من آثار لحركة للزندقة محاولين ما أمكن نسبتهم إلى هذا الدافع أو ذاك .

وأول الشعراء الذين يتهمون بالزندقة هو الوليد بن يزيد ، الخليفة الأموي . وقد ذكرنا من قبل أكثر الاتهامات التي وجهت إليه ، وأهمها ما قاله أبو الفرج الأصفهاني من أن الوليد (كان فاسقاً خليعاً منهما في دينه ، مرمياً بالزندقة ... وله أشعار كثيرة تدل على نخبته وكفره) . وهو يرجع السبب في ذلك إلى تأثير مؤدبه عبد الصمد ابن عبد الأعلى وكان زنديقاً ممعناً في الزندقة^(١) . وقد نسب إليه ابن الطقطقي انتهاكه حرمت الله عز وجل ، واستهتاره بالمعاصي^(٢) . أما المرتضى ، فهو يقول عنه إنه كان (مشهوراً بالإلحاد ، متظاهراً بالعناد ، غير محتشم في أطراح الدين أحداً ، ولا مراقب فيه بشراً)^(٣) ومن الطبيعي أن هذا الشعر الكثير الذي تظهر فيه زندقة الوليد ، والذي حدثنا عنه الأصفهاني ، لم يصلنا منه إلا أقل القليل لتخرج الرواة والكتاب من ذكره ، لما فيه من كفر بين ومروق عن الدين . مع أن السيوطي ينقل عن المعافي الجريبي أنه جمع شيئاً من أخبار الوليد ومن شعره الذي ضمنه ما فجر به من خرقه وسخافته وما صرح من الإلحاد في القرآن والكفر بالله^(٤) .

على أن ما وصلنا من أمثلة مفردة يظهرنا على نوع زندقة الوليد ، وعلى ما كانت تهدف إليه وتنشده ، فالمسعودي ينقل عن محمد بن يزيد المبرد أن الوليد أُلحد في بيتين له ذكر فيهما النبي صلى الله عليه وسلم وأن الوحي لم يأته عن ربه^(٥) . وفي هذين البيتين لا ينكر الوليد الوحي فحسب ، كما يقول المبرد ، ولكنه ينكر نزول القرآن أيضاً ويظهر تحديه لله عز وجل بأنه ليس محتاجاً له في شيء ، وأن الله جل وعلا لا يقدر له على شيء ، وهو على حسب رواية المرتضى للبيت الأول ينكر الحساب والبعث بطبيعة الحال . فقد روى المرتضى عن المرزباني البيت الأول بالصورة التالية (ذاكرة أن الوليد كان يتحدث عن كتاب الله) :

يُذَكِّرُنِي الْحِسَابَ وَلَسْتُ أَدْرِي أَحَقُّ مَا يَقُولُ عَنِ الْحِسَابِ^(٦)

(١) الأغاني ٧ : ٢ ، ٣ . (٢) الفخرى في الآداب السلطانية : ١١٥ .

(٣) أمالي المرتضى ١ : ٨٩ . (٤) تاريخ الخلفاء : ١٦٦ .

(٥) انظر مروج الذهب ١ : ١٤٨ .

(٦) أمالي المرتضى ١ : ٩٠ .

والوليد ينكر البعث إنكاراً صريحاً في البيتين اللذين وردا في رسالة ابن القارح إلى أبي العلاء المعري حيث يقول :

إِذَا مِتُّ يَا أُمَّ الْخُنَيْكِلِ فَاَنْكَحِي وَلَا تَأْمَلِي بَعْدَ الْفِرَاقِ تَلَاقِيَا
فَإِنَّ الَّذِي حَدَّثْتِهِ مِنْ لِقَائِنَا أَحَادِيثُ طَسْمٍ تَتْرَكُ الْعَقْلَ وَاهِيَا^(١)

وفي معنى البيت الثاني من البيتين اللذين رواهما المسعودي عن المبرد ، حكى عن الوليد أنه استفتح فالاً في المصحف ، فخرج (واستفتحوا ونخاب كل جبار عنيد) فألقاه ورماه بسهام وقال :

تُهَدِّدُنِي بِجَبَّارٍ عَنِيدٍ نَعَمْ أَنَا ذَاكَ جَبَّارٌ عَنِيدٌ
إِذَا مَا جِئْتَ رَبِّكَ يَوْمَ بَعَثٍ فَقُلْ يَا رَبُّ خَرَّقَنِي الْوَلِيدُ^(٢)

وفي هذين البيتين معنى التجبر وإنكار القدرة الإلهية ، وفيهما أيضاً الشك في يوم البعث . ويذكر المرتضى عن ثور بن يزيد أن الوليد قال أيضاً هذه الأبيات التي تنضح فيها نزعة المحجون ، وعدم الإيمان والاستهتار بالدين ، والمجاهرة بارتكاب المحرمات :

اشْقِيَانِي وَابْنَ حَرْبٍ وَاسْتُرَانَا بِإِزَارٍ
وَاتْرَكَا مَنْ طَلَبَ الْجَنَّةَ يَسْعَى فِي خَسَارٍ
سَاسُوسُ النَّاسِ حَتَّى يَرْكَبُوا دِينَ الْحِمَارِ^(٣)

والبلاذري يقول عن الوليد إنه (كان مستهتراً بشرب الخمر لا يكاد يصلي) ، ويذكر له أشعاراً مختلفة يجاهر فيها بشرب الخمر وارتكاب أنواع من المحرمات ، كمثل بيته اللذين يقر فيهما بعظم ذنوبه ولكنه إقرار المستهتر المكابر ، لا النادم الوجل من عذاب الله ، فهو يقول :

اشْقِنَا يَا يَزِيدُ بِالْقَرَقَارَةِ قَدْ طَرَبْنَا وَحَنَّتِ الزَّمَارَةُ
اشْقِنِي اشْقِنِي فَإِنَّ ذُنُوبِي قَدْ أَحَاطَتْ فَمَا لَهَا كَفَّارَةٌ^(٤)

(١) رسائل البلغاء : ٢٦٠ . (٢) الفخرى : ١١٥ .

(٣) أمالي المرتضى ١ : ٨٩ .

(٤) أنساب الأشراف ٨ : ٣٠٩ (مخطوط) .

ومن هذه الأشعار التي وصلتنا عن زندقة الوليد بن يزيد ، يتبين لنا أن زندقته زندقة فكرية فهو في حالة مجنون شكى أو هو فكري ، ولهذا فهو يعبث بعقيدته كما يعبث بعقائد الناس أجمعين ، ويريد أن يلزمهم دين الحمار ، أو اللادين ، حتى يتساووا معه في الخروج عن العقيدة الصحيحة . وهذا النوع من الزندقة هو الذي يرتبط بتزعة التنوير التي شرحنا أمرها من قبل وقلنا إنها تقوم على تمجيد العقل الإنساني وطلب الحرية في كل أفعال الإنسان ونزعاته ومن أي طريق . ولهذا يقبل الوليد على شرب الخمر واستباحة المحرمات المختلفة ، ويهجر فرائض دينه هجراً تاماً ، وحين يشعر بحريته وانطلاقه ، يحاول أن يهدم الدين بإنكار عناصر أساسية فيه ، كالبعث والحساب والوحي والقرآن والنبوة . ولكي يقضي على كل تردد في نفسه إزاء هذه الإباحة وهذا الخروج عن الدين يحاول تشكيك الناس من حوله لكي لا يبقى وحده في ضلال . ثم إن هذه الحرية وهذا الانطلاق يزيّنان له قوته وإرادته الإنسانية وسلطانه كفرد ، فينكر الألوهية ، بإنكاره قوة الله وقدرته . وقد حاول خليل مردم في مقدمته لديوان الوليد بن يزيد أن ينفي عنه الزندقة ، ناسباً إياه إلى اللهو والمجون فحسب وكان استناده إلى ذلك على سبب واحد حَقّاً ، إذ يذكر أن الوليد كان له ابن اسمه مؤمن ولهذا يقول (والوالد عادة لا يدعو ابنه إلا بأحب الأسماء إليه ، فكيف يسمى الملاحد أو الزنديق ابنه مؤمناً) (١) .

وإذا تركنا الوليد إلى أبي دلالة ، وجدنا أنه كان يقر ويجهر بتركه الفرائض بل هو يهاجم الصوم في صراحة تامة ، وينهكهم بالصلاة ويصر على تركها :
 وَوَاللَّهِ مَا لِي نِيَّةً فِي صَلَاتِهِ وَلَا بِرًّا وَإِحْسَانًا وَالْخَيْرُ مِنْ أَمْرِي (٢)
 وقد وصفه لنا الأصفهاني فقال : (وكان فاسد الدين رديء المذهب مرتكباً للمحارم مضيعاً للفروض مجاهراً بذلك) (٣) . وأبودلامة نفسه يصرح بهذه الحقيقة قائلاً :

وَاللَّهُ مَا بَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَتَطْلُبْنِي فِي الْمُسْلِمِينَ وَمَا دِينِي بِمَحْمُودٍ (٤)

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ١ من المجلد ١٥ سنة ١٩٣٧ ص ٢٢ .

(٢) الأغاني ١٠ : ٢٤٨ .

(٣) المصدر نفسه ١٠ : ٢٣٥ .

(٤) طبقات ابن المعتز : ٥٦ .

ولكن مثل هذا الشعر الذى ينسب إلى أبي دلالة لا يرقى به إلى مرتبة الزندقة . والأصفهاني نفسه لم ينهم بهذه التهمة ، واكتفى بنسبة دينه إلى الفساد ومذهبه إلى الرذالة ، وارتكابه المحرمات وإضاعته الفروض ، وإن كانت هذه الأمور فى الحقيقة عناصر رئيسية فى معنى الزندقة ، ولكنها ليست كل الزندقة . ولهذا فنحن نعتقد أن هذا النوع من زندقة أبي دلالة ، هو ما سميناه بالزندقة الاجتماعية . فهو يتخذها وسيلة من وسائل التطرف ، وحسن المنادمة ، وسمة على التحرر الاجتماعى ، والانطلاق من قيود المجتمع الذى يعيش فيه . وأعتقد أنه لولا وجود الخليفة المنصور أيام أبي دلالة - والمنصور كان شديداً على المجان والزنادقة كما يثبتنا الطبرى^(١) - لتمادى أبو دلالة فى زندقته ، ولوصلنا من شعره ما هو أشد وأنكى مما وصلنا الآن . وأنا أستبعد بالطبع أن يكون وراء هذا النوع من زندقة أبي دلالة أى تأثير شعوبى لأن أبا دلالة لم تعرف عنه هذه الناحية قط ، بل لقد هجا أبا مسلم الخراسانى بقصيدة طويلة^(٢) ، بعكس الشعراء الموالى الذين تجنبوا هذه القضية .

أما مطيع بن إياس فينسب إليه الاتهام بالزندقة ضمن مجموعة كبيرة من شعراء عصره كانت بينه وبينهم صلات وثيقة ، وكانوا يتنادمون كأثمهم نفس واحدة كما يقول صاحب الأغاني . ولعل اتهامهم بالزندقة جملة ، جاء من هذا السبيل . وربما لزموا الزندقة فعلاً على اختلاف بينهم فى الدافع إليها .

فالمرتضى يخبر عن أحمد بن إبراهيم الكاتب عن أبيه أنه قال : « رأيت بنتاً لمطيع بن إياس قد أتت بها فى أول أيام الرشيد فأقرت بالزندقة وقراءتها ونابت وقالت : هذا شيء علمنيه أبى^(٣) » ولو صحت هذه الرواية لكانت زندقة مطيع زندقة دينية لا شك فيها ، فهو يقرأ كتاباً معيناً فى الزندقة ، ويلزم ابنته بقراءته ويعلمها ما جاء فيه ، وقد يكون هذا الكتاب متضمناً تعاليم المانوية أو المزدكية أو ما أشبه من هذه المذاهب التى كان يشملها معنى الزندقة .

ولكن هذا التبحر فى الزندقة والإيمان بها كدين لماذا لم يظهر له أثر فى شعر مطيع بن إياس ؟ فالمرتضى نفسه لا يذكر له غير بيتين يروى أنه قالهما عندما

(١) تاريخ الطبرى ٩ : ٣٠٨ .

(٢) ديوان أبي دلالة : ١٣٢ .

(٣) أمالى المرتضى ١ : ٩٨ .

حضرت الوفاة وأحاط به أهل بيته فأقبلوا يقولون له : قل يا مطيع لا إله إلا الله فلا يقول ، حتى صارت نفسه في ثغرة نحره ، تنفس ثم أهوى إلى الكلام ، فقالوا له : قل لا إله إلا الله ، فتكلم كلاماً ضعيفاً فتسمعوا له فإذا هو يقول :

لهف نفسي على الزمان وفي أي زمان دَهَنِي الأزمان
حين جاء الربيع واستقبل الصيف وطاب الطلاء والريحان^(١)

ومثل هذا الشعر لا يتضمن أي نوع من الزندقة ، بل هو يصور حنين الرجل إلى أيام الشباب واللهو والاستمتاع بملذات الحياة ، ولو أننا بحثنا في الشعر الذي وصلنا لمطيع بن إياس لم نجد له هذا الاعتقاد بالزندقة كدين ، بل الأمر كما قال قون جرونيانوم حين تحدث عن زندقة مطيع فقال : « إننا لا نستطيع أن نعزو إليه معتقداً مذهباً خاصاً سوى بعض الميل إلى التشيع ، إلا أن عدم مبالاته بالدين وسلوكه المنحرف كانا واضحين »^(٢) وهذا الوصف صادق حقاً ، فمطيع لا يبالي بالدين ولا بفرائضه ويصرح بذلك ، كما أنه يجهر بارتكابه المحرمات وإقباله على الفواحش في غير تستر ولا رياء فهو يقول :

نعم لنا نبيذ وعندنا حماد
وخيرنا كثير والخير مستزاد
وكلنا من طرب يطير أو يكاد
ولهونا لذيذ لم يلهه العباد
إن تشتهي فساداً فعندنا فساد...^(٣)

وهو يبحث الناس في أبيات أخرى على هذا الفساد ، بدعوى أن العمر فان وأن اغتنام الملذات فرصة الإنسان في الحياة ، يقول :

اخلع عذارك في الهوى واشرب معتقة الدنان
وصل القبيح مجاهراً فالعيش في وصل القيان
لا يلهينك غير ما تهوى فإن العمر إن^(٤)

(١) أمالي المرتضى ١ : ٩٩

(٢) شعراء عباسيون : ١٨

(٣) المصدر نفسه : ٤٤

(٤) شعراء عباسيون : ٧٦ .

وهذه الأبيات في الحقيقة تصور نزعة التنوير أو ناحية من نواحي الزندقة الفكرية التي تطلب تحرر الإرادة الإنسانية، وحرية الفرد في أن يفعل ما يشاء، دون ارتباطه بأي قيد كما يشير مطيع في قوله (لا يلهينك غير ما تهوى) . ويمكننا أن نلمح عناصر من هذه الزندقة الفكرية لمطيع في بيتين يتغزل فيهما ويقول لمحبوته :

قَبِّلْنِي سَعَادُ بِاللَّهِ قُبْلَةً وَاسْأَلِينِي لَهَا فَدَيْتُكَ نِخْلَةً
فَوَرَبُّ السَّمَاءِ لَوْ قُلْتُ لِي صَلِّ لِوَجْهِ جَعَلْتُكَ الدَّهْرَ قُبْلَةً^(١)

والحقيقة أن هذه الزندقة الفكرية عند مطيع تكاد تكون في أولى درجاتها، وهي أخف كثيراً من زندقة الوليد بن يزيد كما اطلعنا على طرف منها ، بل هي أشبه ما تكون بنزعة مجنون . وهذه ليست غريبة بالنسبة لمطيع وأضرابه من شعراء الكوفة الما جنين المستهترين ، بل نحن نلمح في كتابات الأقدمين ترجيحاً لهذه الناحية على الرغم من ذكرهم لما اتهم به مطيع من الزندقة ، فالأصفهاني يقول عن مطيع : « كان ظريفاً خليعاً حلوا العشرة مليح النادرة ماجناً منهما في دينه بالزندقة^(٢) » ويقول الخطيب البغدادي عنه : « وكان شاعراً ماجناً ورمي بالزندقة^(٣) » ولكنه حين يتحدث عن يحيى بن زياد الحارثي يوضح ارتباط نزعة المجنون المتغالية إلى حد الزندقة بشعراء الكوفة فيقول : « كان شاعراً أديباً ماجناً نسب إلى الزندقة . وكان صديق مطيع ابن إياس وحماد عجرد ووالبة بن الحباب وغيرهم من ظرفاء الكوفيين^(٤) » ويبدو لي أن مطيعاً كان يعتقد أحد مذاهب الغلاة من الشيعة ومن هنا كان اتصاله بالزندقة واتهامه بها . ومن الصعب أن نجزم بهذا الرأي لأن ميل مطيع إلى التشيع لم يظهر إلا في أبيات قليلة ولكنها واضحة النزعة إذ يقول :

أَمْسَيْتُ جَمًّا بِبَلَابِلِ الصُّدْرِ دَهْرًا أَرْجِيهِ إِلَى دَهْرٍ
إِنْ فَهَتْ طُلُّ دَمِي وَإِنْ كُتِمَتْ وَقَدَّتْ عَلَيَّ تَوَقَّدَ الْجَمْرِ
مِمَّا جَنَاهُ عَلَى أَبِي حَسَنِ عُمَرُ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ^(٥)

(١) الأغاني ١٣ : ٨٥ . (٢) المصدر نفسه ١٣ : ٢٧٤ .

(٣) تاريخ بغداد ١٣ : ٢٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ١٤ : ١٠٦ .

(٥) شعراء عباسيون : ٤٩ .

وفي هذه الأبيات يتضح إلى حد ما مذهب مطيع الرافضي ، فالرافضة كما سبق أن بينا ، كانوا يشتركون جميعاً في سب الصحابة لتركهم بيعة علي ، وإلى هذه الفكرة يشير مطيع ويكشف عن مذهبه .

أما حماد عجرد - وهو من رفقة مطيع ومن الكوفة أيضاً - فهو كما يقول قيدا له نزعة مانوية واضحة^(١) . والخطيب البغدادي يكتفي باتهامه بالزندقة دون تحديد^(٢) . أما الأصفهاني فيجعله أشهر الحمادين الزنادقة ، ويقصد بالآخرين حماداً الراوية وحماد الزبرقان . ويروي عن أبي نواس أنه قال : « كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرى بالزندقة لمجونه في شعره حتى حبست في حبس الزنادقة فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاج بيتين بيتين يقرعون به في صلاتهم^(٣) » ونحن نشك في صحة هذه الرواية لنسبتها إلى أبي نواس ذلك أن هناك بعداً زمنياً بينه وبين حماد عجرد فأبو نواس ولد عام ١٤٥ وحماد توفي عام ١٦٠ - على أصح الآراء - فهل دخل أبو نواس سجن الزنادقة وهو صبي صغير ؟ ولكن لو صححت هذه الرواية عن غير أبي نواس لكان معناها أن حماد عجرد زنديق وأن زندقته دينية ، أي أنه يؤمن بمذهب من مذاهب الثنوية ، قد يكون المانوية كما يفهم من هجاء بشار عامة لحماد عجرد في مثل قوله :

ابن نهبي رأسي على ثقيل واحتمال الرؤوس خطب جليل
ادع غيري إلى عبادة الاثنين فإني بواحد مشغول^(٤)
وقد يكون مذهب حماد المزدكية بما فيه من إباحة في النساء ، وهذا المعنى يفهم من أبيات هجا بها بشار حماداً حين مات صديق له اسمه حريب كان على مذهبه ، يقول :

بكي حريب فوقره بتعزية مات ابن نهبي وقد كانا شريكين
تفاوضا حين شابا في نسائهما وحللا كل شيء بين رجلين
أمسى حريب بما أسدى له غيراً كراكب اثنين يرجو قوة اثنين
حتى إذا أخذنا في غير وجههما تفرقا وهوى بين الطريقين^(٥)

(١) من تاريخ الإلحاد في الإسلام : ٣٧ . (٢) تاريخ بغداد ٨ : ١٤٨ .

(٣) الأغاني ١٣ : ٧٠ . (٤) المصدر نفسه ١٣ : ٧١ .

(٥) المصدر نفسه .

والمرتضى يتهم حماد عجرد بالشوية عموماً دون تحديد، ثم يذكر بيتين لمساور الوراق يهجو فيهما حماداً، ويذكر فيهما المانوية والديصانية دون نسبة حماد إلى أيهما بالتحديد ، يقول :

لو أَنَّ مَانِي وَدَيْصَانًا وَعَضَبَتَهُمْ جَاءُوا إِلَيْكَ لَمَا قُلْنَاكَ زَنْدِيقُ
أَنْتَ الْعِبَادَةُ وَالتَّوْحِيدُ مَذْخُلِقَا وَذَا التَّزَنْدُوقُ نَيْرَنْجٌ مَخَارِيقُ^(١)

ومن الواضح أن كل الشعر الذي ذكرناه وحاولنا أن نستدل منه على نوع زندقية حماد عجرد التي اتهمه بها أكثر الكتاب الأقدمين ، ليس لحماد نفسه ، ولكنه لشعراء آخرين يهجونه ويحاولون تثبيت اتهامه بالزندقة ، ولهذا لا نستطيع أن نجزم بشيء في هذا المجال ، لأن الأدلة التي بين أيدينا خطيرة ومضللة في أغلب الأحيان ، فالهجاء في القرن الثاني — كما سنبين في الفصل التالي — كان يدور حول الاتهام بالزندقة ، فهو اتهام شائع إذن المقصود به النكابة والإيلام وتشويه السمعة ، ثم ما يتبع ذلك من عقاب قد يكون القتل نفسه . وفي الوقت الذي نحاذر فيه من الاعتماد على مثل الهجاء نسائل أنفسنا : ألا يجوز أن يكون فيه شيء من الصحة ما دام مصدر الهجاء ليس واحداً ، وما دام لم يتهم كل إنسان يهجو في القرن الثاني بتهمة الزندقة ، ألا يجوز أن يكون الذين نالهم الهجاء بهذه التهمة على صلة حقيقية بالزندقة ، أو كما يقال : ليس هناك دخان بلا نار ؟ هذا أمر جائز أيضاً وإن كان من الصعب علينا أن نقطع برأي حاسم كما فعل قيدا دون أن يقدم من الدلائل ما يؤيد بها حكمه . وربما كان فيما رواه المرتضى من شعر لحماد في هجاء بشار ، وتفسير بشار لهذا الشعر ، ما يصح أن يكون دلالة قوية على ما ذهبنا إليه ، من الحذر في تناول شعر الذين هجوا حماداً بالزندقة ، فقد ذكر المرتضى أن حماد عجرد هجا بشاراً فقال فيه :

وَاللَّهِ مَا الْخِنْزِيرُ فِي نَفْسِهِ	يَرْبُوعُهُ فِي النَّتَنِ أَوْ خُمْسِهِ
بَلْ رِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِهِ	وَمَسَّهُ أَلْيَنُ مِنْ مَسِّهِ
وَوَجْهُهُ أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ	وَنَفْسُهُ أَفْضَلُ مِنْ نَفْسِهِ
وَعُودُهُ أَكْرَمُ مِنْ عُودِهِ	وَجَنْسُهُ أَكْرَمُ مِنْ جَنْسِهِ

(١) أمالي المرتضى ١ : ٩٣ . والنيرنج أخذ كالسحر .

فقال بشار : « ويلى على الزنديق ! لقد نفث بما فى صدره . قيل وكيف ذاك ؟ قال : ما أراد الزنديق إلا قول الله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) فأخرج الجحود بها مخرج هجائى ! وقد عقب المرتضى نفسه على هذه الرواية فقال : « وهذا خبيث من بشار وتغلغل شديد »^(١) وفى الوقت نفسه نجد شعراً لحماة عجرد يهجو فيه أحد أعدائه فيتهمه بالزندقة ويبرىء نفسه منها ويقر بالتوحيد فى قوله :
لكننى وَحَدْتُ رَبِّى مُخْلِصًا فَجَفَوْتَنى بُغْضًا لِكُلِّ مُوَحِّدٍ^(٢)
كما يذكر حماد الرسول عليه السلام فى قصيدة أخرى مقروناً بكل تبجيل واحترام^(٣) . ومع ذلك فثقل هذا الشعر أيضاً وهذا الإقرار لا يمكن أن يكون دليلاً حقيقياً على براءة حماد بالفعل .

ولعل نفس الشيء يمكن أن يقال عن زندقة والبة بن الحباب وهو كوفى أيضاً ، وكان من الفتيان الخلعاء المجان كما يقول الخطيب البغدادي^(٤) . وقد جعلته الروايات المختلفة فى زمرة الزنادقة والشكاك ، ولكننا لم نجد أحداً يتهمه بالزندقة مؤيدة بأية رواية من الروايات أو خبر من الأخبار ، كما لا نجد له شعراً ينعكس فيه الميل إلى الزندقة ، وكل ما بين أيدينا من شعره يبين لنا أن والبة لم يكن إلا ماجناً خليعاً فحسب ، وأنه كان مخلصاً لمبادئ عصبة المجان التى تحدثنا عنها من قبل ، وقد يكون مجنون والبة أشد إيغالاً فى المجون من أى شاعر آخر كما يقول ابن المعتز^(٥) . ولكنه لا يتعدى حدود هذا المجون إلى الزندقة ، وإن كان الفاصل بينهما دقيقاً لا يكاد يرى ، وإذا صحت الروايات عن زندقة والبة فما هى إلا زندقة اجتماعية يدعو إليها اللهو والعبث وتدعو إليها الرغبة فى التحرر الاجتماعى .

وبحسبى بن زياد الحارثى الذى تجمع المصادر كلها على زندقته — وهو كوفى أيضاً — لا نجد له من الشعر ما يثبت أو ينفي هذه التهمة ، ولعله كان كأضرابه الذين اقترن اسمه بأسمائهم ، مجرد فتى عابث ماجن يجاهر بحريته الفردية وقدرته على

(١) أمالي المرتضى ١ : ٩٣ .

(٢) الحيوان ٤ : ٤٤٣ .

(٣) انظر : طبقات الشعراء لابن المعتز : ٦٨ .

(٤) تاريخ بغداد ١٣ : ٥١٨ .

(٥) طبقات الشعراء : ٨٨ .

ارتكاب كل محرم بالرغم من تقاليد المجتمع الذي يعيش فيه وقيوده الكثيرة ، وبالرغم من سلطان الدين والتقاليد .

أما أبان اللاحق فأخباره مضطربة أشد الاضطراب . فبينما نجد المصادر المختلفة تنسبه إلى الزندقة كالجاحظ في الحيوان^(١) وأبي الفرج في الأغاني^(٢) ، نجد الصولي يقول عنه إنه كان : « حسن السيرة حافظاً للقرآن عالماً بالفقه ، وقال عند وفاته : أنا أرجو الله وأسأله رحمته ، ما مضت على ليلة قطلم أصل فيها تطوعاً كثيراً^(٣) » وقد نقل الخطيب البغدادي هذه العبارة بنصها ولم يذكر شيئاً عن زندقة أبان^(٤) . والمشكلة في أبان هي أننا لا نجد له شعراً يرجع لإحدى الناحيتين ، وكل ما لدينا عبارة عن اتهامات شعراء آخرين له مثل المعتدل بن غيلان الذي يقول فيه :

رَأَيْتُ أَبَانًا يَوْمَ فِطْرِ مُصَلِّيًا فَقَسَمَ فِكْرِي وَاسْتَفْزَنِي الطَّرَبُ
وَكَيْفَ يُصَلِّي مُظْلِمُ الْقَلْبِ دِينُهُ عَلَى دِينِ مَانٍ إِنَّ ذَاكَ مِنَ الْعَجَبِ^(٥)

ومثل أبي نواس الذي يقول :

شَهِدْتُ يَوْمًا أَبَانًا لَا دَرُّ دَرُّ أَبَانٍ
وَنَحْنُ حُضْرُ رُواقِ الْأَمِيرِ بِالنَّهْرَوَانِ
حَتَّى إِذَا مَا صَلَاةُ الْأُولَى دَنَتْ لِأَوَانِ
فَقَامَ مُنْذِرُ رَبِّي بِالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ
وَكَلَّمَا قَالَ قُلْنَا إِلَى انْقِضَاءِ الْأَذَانِ
فَقَالَ كَيْفَ شَهِدْتُمْ بَذَا بَغِيرِ عِيَانِ
لَا أَشْهَدُ الدَّهْرَ حَتَّى تُعَايِنَ الْعَيْنَانِ
فَقُلْتُ سُبْحَانَ رَبِّي فَقَالَ سُبْحَانَ مَانِي

(١) الحيوان ٤ : ٤٤٧ .

(٢) الأغاني ٢٠ : ٧٣ .

(٣) الأوراق (أخبار الشعراء) : ٢ .

(٤) تاريخ بغداد ٧ : ٤٥ .

(٥) الأوراق (أخبار الشعراء) : ٧ ، الأغاني ٢٠ : ٧٤ .

فقلتُ عيسى رسولُ فقالَ مِنْ شَيْطَانٍ
فقلتُ موسى نَجِيُّ الْمُهَيِّمِينَ الْمَنَانِ
فقالَ رَبُّكَ ذُو مُقْلَةٍ إِذَنْ وَلِسَانِ
أَنْفُسُهُ خَلَقَتْهُ أَمْ مَنْ؟ فَقُمْتُ مَكَانِي
وقلتُ رَبِّي ذُو رَحْمَةٍ وَذُو غُفْرَانٍ
وقمتُ أُسْحَبُ ذَيْلِي عَنْ هَازِلٍ بِالْقُرْآنِ
عن كَافِرٍ يَتَمَرَّى بِالْكَفْرِ بِالرَّحْمَنِ^(١)

وواضح من هذه القصيدة أن أبا نواس يتفق مع المعتدل بن غيلان في اتهام أبان بالمانوية ، ولكن أبا نواس بعد هذا يتهم أباناً بأكثر من المانوية ، إنه يجعله مادياً لا يؤمن بغير ما يرى وما تقع عليه حواسه ، ويجعله رافضياً إذ يتهم على الأنبياء ، ويجعل لله صورة وقدأ مثل المشبهة أيضاً. ثم هو ينسب إليه الكفر والاستهزاء بكتاب الله . وما نطن أن مثل هذه التهم يمكن أن تجتمع لإنسان ، كما أنها متناقضة أشد التناقض . وقد لاحظ فيدا من قبل هذا الخلط والاضطراب في كلام أبي نواس ، لأنه ذكر أن أباناً يسخر من المسيح ، مع أنه لو كان مانوياً لما سخر من المسيح ، فالصلة بين المانوية والمسيحية كبيرة واضحة^(٢) . والملاحظ لاحظ قبل فيدا هذه الملاحظة ، فقد ذكر أن الذي يقول سبحان ماني يعظم أمر عيسى تعظيماً شديداً ، فكيف يقول إنه من قبيل الشيطان؟ ومع ذلك فالملاحظ لم يقطع برأى في زندقة أبان وتحير ماذا يقول فيه^(٣) . ويعتقد فيدا أن تهمة أبان بالزندقة مرجعها إلى شعوبيته (فقد كان يعرف الفارسية ويترجم عنها ، وكان على اطلاع وسعة علم بأدب الفرس القديم ، فكان ذلك داعياً له إلى التعلق بتراث الفرس والتغنى به في جميع مظاهره)^(٤) . وإلى مثل هذه النتيجة توصل أيضاً محمد بدیع شریف^(٥) . ونحن نقر هذا الاتجاه

(١) ديوان أبي نواس : ١٥١ .

(٢) من تاريخ الإلحاد في الإسلام : ٣٨ .

(٣) الحيوان ٤ : ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٤) من تاريخ الإلحاد في الإسلام : ٣٧ .

(٥) الصراع بين الموالى والعرب : ٤٧ .

ولكننا نضيف إليه دراسة أبان للمنطق وتأثير هذه الدراسة عليه لدرجة اتهامه بالزندقة ، ونحن نعلم من أخباره أنه نظم قصيدة ذات الحلال التي ذكر فيها مبتدأ الخلق وأمر الدنيا وأشياء من المنطق^(١) . فدراسته للمنطق إذن كان لها صدى في شعره حتى إن ابن المعتز يصفه بأنه منطيق^(٢) . ولهذا لا نستغرب اتهامه بالزندقة لأن كثيراً من المناطقة والمتكلمين اتهموا بهذه التهمة أيضاً .

والشاعر علي بن الحليل - وهو من الكوفة أيضاً - من الذين اتهموا بالزندقة في القرن الثاني . اتهمه بها الجاحظ في الحيوان^(٣) ، وأبو الفرج في الأغاني^(٤) والمرتضى في أماليه^(٥) وابن النديم في الفهرست^(٦) . وقد ذكروا أنه كان يعاشر صالح بن عبد القدوس لا يكاد يفارقه ، ولهذا اتهم بالزندقة وطلب معه أيام المهدي لولا أنه هرب وظل مخفياً ، إلى أن برأ نفسه واعتذر عن هربه ، وقال في قصيدة مدح بها الرشيد :

وَاللّٰهُ يَعْلَمُ فِي بَرِيَّتِهِ مَا إِنِّ أَضَعْتُ إِقَامَةَ الْخَمْسِ^(٧)

ويبدو أن صالح بن عبد القدوس كان له تأثير خطير في صديقه علي بن الحليل فلما قتل صالح زال هذا التأثير عن ابن الحليل وثاب إلى الإيمان وصحت توبته فيما أرى ، وكما يتضح لنا من قصيدته التي يقول فيها :

على اللذات والراح السّلامُ	نَقَضِي الْعَهْدُ وَانْقَطَعَ الدَّمَامُ
مَضَى عَهْدُ الصُّبَا وَخَرَجْتُ مِنْهُ	كَمَا مِنْ غَمْدِهِ خَرَجَ الْحُسَامُ
وَقَرْتُ عَلَى الْمَشِيبِ فَلَيْسَ مِنِّي	وَصَالُ الْغَانِيَاتِ وَلَا الْمُدَامُ
وَوَلَّى اللَّهْوَ وَالْقَيْنَاتُ عَنِّي	كَمَا وَلَّى عَنِ الصُّبْحِ الظَّلَامُ ^(٨)

أما رفيقه صالح بن عبد القدوس فقد قتل على الزندقة بالفعل في أيام المهدي ،

(١) انظر : الأوراق (أخبار الشعراء) : ١ (٢) طبقات الشعراء : ٢٤١ .

(٣) الحيوان ٤ : ٤٤٧ . (٤) الأغاني ١٣ : ١٣ .

(٥) أمالي المرتضى ١ : ١٠١ .

(٦) الفهرست : ٤٧٣ .

(٧) الأغاني ١٣ : ١٤ .

(٨) المصدر نفسه ١٣ : ١٦ .

ويقول المرتضى : « إنه كان يؤمن بمذاهب الثنوية وإن أبا الهذيل العلاف ناظره فقطعه ، ثم قال له : على أى شيء تعزم يا صالح ؟ فقال : أستخير الله وأقول بالاثنيين . فقال أبو الهذيل : فأيهما استخرت لا أم لك ؟ . . وروى أن أبا الهذيل ناظره فى مسألة مشهورة فى الامتراج الذى ادعوه بين النور والظلمة فأقام عليه الحجة فانقطع . وروى أيضاً أن صالح بن عبد القدوس رأى يصلى صلاة تامة الركوع والسجود فقبل له : ما هذا ومذهبك معروف ؟ قال : « سنة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد »^(١) . هذه هى الزندقة التى تنسب إلى صالح بن عبد القدوس ، ومن الواضح أنها زندقة دينية ، فهو مؤمن بإحدى عقائد الثنوية التى لا ندرى ما هى ، فمسألة الامتراج بين النور والظلمة التى ناظره فيها أبو الهذيل كانت محور الخلاف بين فرق الثنوية من مانوية ومزدكية وديسانية ومرقونية وغيرها .

والأشعار التى وصلتنا منسوبة إلى صالح بن عبد القدوس أكثرها أمثال وحكم وآداب لا تتفق إطلاقاً مع ما اتهم به من الزندقة ، ويقول ابن المعتز فى ذلك : « أما الرجل فله فى الزهد فى الدنيا ، والترغيب فى الجنة ، والحث على طاعة الله عز وجل والأمر بمحاسن الأخلاق ، وذكر الموت والقبر ما ليس لأحد » وبعد أن يذكر ابن المعتز أمثلة لهذا الشعر يقول : « فيا عجباً كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ؟ وكيف يكون قائله زنديقاً ؟ »^(٢) هذا بينما نجد ابن النديم يجعله من رؤساء المانوية وينسب إليه كتباً مصنفة فى نصرية عقيدة الثنوية ومذاهب أهلها^(٣) .

وفى عدا هذه الأشعار التى تتضمن الحكم والآداب يذكر لنا المرتضى بيتين قالهما صالح بن عبد القدوس يُشتمّ منهما سوء مذهبه واعتقاده ، يقول فيهما :

رُبَّ سِرٍّ كَتَمْتُهُ فَكَأَنِّي أَخْرُسُ أَوْثَنَى لِسَانِي خَبْلُ
وَلَوْ أَنِّي أَبْدَيْتُ لِلنَّاسِ عِلْمِي لَمْ يَكُنْ لِي فِي غَيْرِ حَبْسِي أَكْلُ^(٤)

وما فى هذين البيتين لا يستوجب قتل صاحبهما ما دام لم يصرح أو يجهر بهذا السر الذى كتّمه ، فلماذا قتل المهدي ابن عبد القدوس إذن ؟ يقول الخطيب

(١) أمالى المرتضى ١ : ١٠٠ .

(٢) طبقات الشعراء : ٩١ ، ٩٢ .

(٣) الفهرست ٤٧٣ .

(٤) أمالى المرتضى ١ : ١٠٠ .

البغدادى إن المهدي أبلغ عنه أبياتاً يعرض فيها بالنبي صلى الله عليه وسلم^(١) . وابن المعتز يذكر هذا السبب ويروى هذه الأبيات التي ذكر فيها صالح موضوع زواج الرسول الكريم من زينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد ، وواضح فيها التعريض بالآية القرآنية^(٢) .

ولا ندري كيف نوفق بين زندقه صالح بن عبد القدوس وبين شعره المليء بالآداب والحكم والفضائل ، إلا أن يكون هذا النوع من الشعر ستاراً يخفى وراءه زندقته وسوء معتقده ، بل ربما بالغ صالح في إقامة هذا الستار حتى لنجده يجلس للوعظ في مسجد البصرة ويقص على الناس كما يروى لنا ياقوت^(٣) . ولكن ذلك كله لا ينبغي أن يخذلنا عن حقيقته التي أوضحها المصادر القديمة والتي قتل بسببها . ولم يسلم من تهمة الزندقه في القرن الثاني ثلاثة من أكبر شعرائه لكل منهم نهجه ومذهبه الشعري الذي يختلف عن الآخر ، ولكل منهم طبيعة خاصة في تكوينه وطريقة معينة في حياته .

أما الشاعر الأول فهو أبو نواس . واتهام الكتاب الأقدمين له بالزندقه ليس بالإجماع ولا بالصورة المؤكدة التي طالعتنا عند البحث في زندقه من تحدثنا عنهم من الشعراء الآخرين . ولا نكاد نجد اتهاماً لأبي نواس بالزندقه من جانب أمثال الجاحظ وابن قتيبة ، لا ولا ابن المعتز أو الأصفهاني . وغاية ما نجده عند هؤلاء أنه أنه كان شديد المحبون مغرقاً فيه . وفرق بين الاتهام الصريح بالزندقه والاتهام بالإغراق في المحبون فحسب . ولكن الكتاب الذين أتوا بعد ذلك نسبوا أبا نواس إلى الزندقه الصريحة . ففهلل بن يموت - وهو من القرن الرابع - يكتب عن « كفريات » أبي نواس . وابن منظور يكتب عن زندقته . فهل كان أبو نواس زنديقاً حقاً ؟ وما نوع تلك الزندقه ؟ إن صاحب « الفرج والتهاني » ينسبه إلى الثنوية دون تحديد^(٤) . ومع هذا فهو يعترف بأنه تاب وأناب قبل وفاته ، ويروى عن مسعود بن همام أنه قال : « ما رأيت أحداً أشد اعترافاً بذنوبه عند موته ولا جزعاً مما أتاه من أبي نواس .

(١) تاريخ بغداد ٩ : ٣٠٣ .

(٢) انظر طبقات الشعراء : ٩٠ .

(٣) معجم الأدباء ١٤ : ٧ .

(٤) الفرج والتهاني بأخبار الحسن بن هان : ورقة ١٥ (مخطوط) .

ولقد قرأت وصيته فكانت : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به المسرف على نفسه ، المغتر بأمله ، المعترف بذنوبه ، الحسن بن هاني . أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ضد ولا مثل ، وكل معبود سواه باطل . . إلخ ^(١) » .

ومن يؤيد ثنوية أبي نواس ويحددتها بالمانوية أو المزدكية محمد بديع شريف ، فهو أولاً يتقل عن قون كريم أنه قال في أبي نواس « إنه كان واسع الحيلة فاستطاع بذلك أن يستخف بالعقيدة ، وينشر الضلال والزندقة ، ويتكلم بما يريد دون حياء أو خجل » ويعقب الكاتب على ذلك بقوله : « ومن مبادئ المانوية إثارة الشك في العقيدة ومهاجمة جميع الأديان ، أما الغزل بالمذكر فإنه ينحدر من أصولها . يقول البيروني في تاريخه عند الكلام على المانوية : « إن كل مانوي يصطحب غلاماً أمرد ويستخدمه في شئونه » ، ثم يقول محمد شريف : « إننا نجد في شعر أبي نواس مظهراً واضحاً من مبادئ المانوية والمزدكية من حيث إثارة الشك في العقيدة ومهاجمة الدين والإباحة المطلقة والغزل بالمذكر . ونرى إلى جانب ذلك تعصبه لقومه والإشادة بهم والخط من شأن الدين والأدب العربي وأساليبه ^(٢) » .

والباحث لا يؤيد اتهامه بدليل مادي من شعر أبي نواس يثبت به مانويته أو مزدكيته ، ولكنه كما ترى يجمع شتات أمور نظرية مثل المحجون والغزل بالمذكر ومهاجمة الدين ، ثم يرى أن نتيجتها ينبغي أن تكون زندقة أبي نواس . وهذا ما لا يمكن أن يقبله البحث العلمي الصحيح .

أما محمد جابر عبد العال فيرى أن أبا نواس لم يكن ماجناً عابثاً فحسب ، ولكنه كان يؤمن بقول الغلاة من الشيعة ، ويحدد مذهبه بالخطائية والمعمرية وهي فرع من الخطائية ، ومن أسس مذهبهم قولهم إن جعفر الصادق إله ، وعلى هذا الأساس يكون جبريل خادماً له ، كما يذكر أبو نواس نفسه في مديحه لعلي بن موسى الرضا :

أنا لا أستطيع مدح إمام كان جبريلُ خادماً لأبيه

ثم يقول الكاتب إن مذهب المعمرية ينكر البعث والحساب ويحل الخمر ويبيح

(١) الفرج والتهاني : ورقة ١٥ (مخطوط) .

(٢) الصراع بين الموالى والعرب : ٩٣ وما بعدها .

النساء والغلمان واقتناص اللذات . وأبو نواس يؤمن بذلك كله ويقول به في شعره^(١) .
ثم يقول الباحث في موضع آخر : « ولكن حين يقارن الكاتب بين دعوة أبي نواس
للخمر وبين تعاليم الشيعة المتطرفين الذين أباحوها ، يجده يختلف معهم في الوسائل
ويتفق وإياهم في النتيجة ، ذلك لأن متطرفي الشيعة أنكروا ما في الخمر من تحريم
فأباحوا شربها ، أما أبو نواس فاعترف أنها محرمة ولكن لذة الإنسان فيها^(٢) » .

والواقع أن هذا الكاتب قد غالى مغالاة شديدة في نسبة الشعراء إلى حركات
الشيعة المتطرفين ، وحمل النصوص أكثر مما تطيق ، فهذا البيت اليتيم الذي ذكره
لأبي نواس في مدح علي بن موسى الرضا لا يمكن أن يحمل على أنه بصور عقيدة ما
من عقائد الرافضة . وكان الحق بيد ابن منظور حين لم ينظر إلى هذا البيت إلا على
أنه انحراف في المجون والاستهتار بالملائكة ومن إليهم .

ويرى عباس محمود العقاد أن من اللغو أن يبحث الباحث عن مذهب أبي نواس
في الزندقة ، فليس له في الزندقة مذهب غير العرض والإظهار ، بمعنى أنه يعرض من
طويته دوراً مسرحياً يلفت النظر^(٣) ، ثم هو يقول في موضع آخر إنه « كان
يتزندق لأنه كان يتفلسف ، وقد اطلع على النجوم وعلوم الأوائل من الهند والروم
فراغ عن اليقين ومرق عن الدين^(٤) » فالكاتب في هذا الموضوع يعترف بزندقة
أبي نواس وأنها جاءت عن طريق اتصاله بالفلسفة وعلم الكلام والمعارف الأجنبية
عموماً . إذن فالأمر لم يكن مجرد عرض وإظهار كما قال الكاتب من قبل ، ولكن
توجد مؤثرات قوية تدفع أبا نواس إلى اتخاذ مذهب الزندقة والتعبير عنه . وفرق بين
المعنى الأول والثاني ، فالزندقة كما صورها الكاتب أولاً زندقة اجتماعية ، وهي على
المعنى الآخر زندقة فكرية ، تصور حالة من الشك تنتاب المرء بعد اتصاله بهذه
الثقافة الأجنبية ، وهذه الفلسفات وعلم الكلام . وابن منظور سبق أن توصل إلى
معنى الزندقة الفكرية ونسب أبا نواس إليها حين قال عنه : « واشتهى علم الكلام
فقعده إلى أصحابه فتعلم منهم شيئاً من الكلام ، ثم دعاه ذلك إلى الزندقة^(٥) » .

(١) حركات الشيعة المتطرفين : ٢٧٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٩١ .

(٣) أبو نواس : ٤٧ .

(٤) المصدر نفسه : ١٧١ .

(٥) أخبار أبي نواس ١ : ٦ .

واتصال أبي نواس بعلم الكلام والمتكلمين مسألة مؤكدة فيما يبدو ونص عليها أكثر الكتاب الأقدمين ولاحظوا أثرها في شعره ، كما فعل الجاحظ في البيان والتبيين^(١)، وكما ذكر صاحب «الفرح والتهاني» الذي يقول : «صحب أبو نواس إبراهيم النظام واشتهى الكلام فبان ذلك في أشعاره»^(٢) وابن المعتز يقول إن دراسة أبي نواس التي شغل بها نفسه في أول أمره كانت علم الكلام ثم انتقل إلى الشعر ، بعكس إبراهيم النظام الذي كان شاعراً في أول أمره ثم صار إلى علم الكلام^(٣) . ويرى العقاد في موضع آخر من كتابه أن أبا نواس كان مرجئاً ويستدل على ذلك باعتزاله نار الفتنة التي شبت في بغداد بين الأمين والمأمون ، وتعبيره عن الحياء الذي يلتزم به المرجئة في قوله :

خَلُّ جَنْبَيْكَ لِرَامٍ وَامْضِ عَنْهُ بِسَلَامٍ
مَتَّ بِدَاءِ الصُّمْتِ خَيْرٌ لَّكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ^(٤)

والواقع إننا لا ندري هل قال أبو نواس هذه القصيدة في الفتنة حقاً ، أم قالها في وقت آخر لا يرتبط بفتنة ما ، على سبيل الزهد وما يفرضه من تسامح وبعد عن اللغو ؟ هذا ما لا يمكن الجزم به على أية حال . وفي إحدى الروايات التي يذكرها المرزباني عن أبي نواس يتبين لنا أن معاصريه كانوا يرون ما يفرض منه في الخروج عن جادة الدين إغراقاً في المجون فحسب ، ولم يكونوا ينظرون إليه على أنه زندقة ، فقد ذكر المرزباني أن أبا نواس أنشد الجمار قصيدته التي يقول فيها :

مَا جَاءَنَا أَحَدٌ يُخَبِّرُ أَنَّهُ فِي جَنَّةٍ مَنْ مَاتَ أَوْ فِي نَارٍ

فقال له يا هذا ، إن لك أعداء وهم ينتظرون مثل هذه السقطات فاتق الله في نفسك ودع الإفراط في المجون واكتمها ، قال : لا والله لا أكتتمها خوفاً وإن قضى شيء كان^(٥) فأبو نواس إذن مغرق في المجون فحسب ، وهو لا يتسرف فيه أو

(١) البيان والتبيين ١ : ٧٩ .

(٢) الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هاني : ورقة ٤ (مخطوط) .

(٣) طبقات الشعراء : ٢٧٢ .

(٤) أبو نواس : ١٨٧ .

(٥) الموشح : ٢٧٨ .

يتحرز اتباعاً لسياسة المجاهرة والإعلان التي شرحنا أمرها في حديثنا عن المجنون وقلنا إنها كانت تشعر الماجنين بلذة عجيبة، إذ يتحدثون مجتمعهم جهاراً نهاراً فيبلغون بذلك ما يريدون بمجونهم . فزندقة أبي نواس من هذه الناحية زندقة اجتماعية فحسب ، وإلى هذا ذهب النويهي حين قال : إن أبا نواس ليس كافراً ولا متشككاً ولكنه في المرتبة التي سموها (منزلة المؤمن العاصي) والذي يسوقه إلى هذا العصيان ضعف نفساني لا ضعف إيماني ^(١) .

وهذا الكاتب يرى في موضع آخر أن مجاهرة أبي نواس بالإثم سببها اندفاع هستيري تحدوه الرغبة في التشهير بالنفس والانتقام منها ومحاولة عصبية في التغلب على عمق شعوره بالذنب ^(٢) . وهذا الجانب سبق أن شرحناه عند حديثنا عن زندقة الوليد ابن يزيد ، وجعلناه جزءاً لا يتجزأ من تيار المجنون في القرن الثاني . وما لنا نذهب بعيداً وأبو نواس نفسه يعترف بأنه كان عبداً للوسط الاجتماعي الذي عاش فيه ، وأنه اضطر إلى هذا النوع من الزندقة الاجتماعية ، ليرضى نفسه ووسطه دون أن يكون له اعتقاد فيها ، أو إيمان بنحلة من نحلها ، فحين سجن على الزندقة قال :

يا رَبُّ إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ ظَلَمُونِي وَبِلاَ اقْتِرَافٍ مُّعْطَلٍ حَبَسُونِي
وإلى الجُحودِ بما عرفت خِلاقَهُ مِنِّي إِلَيْهِ بِكَيْدِهِمْ نَسَبُونِي
ما كَانَ إِلَّا الْجَرِيُّ فِي مَيْدَانِهِمْ فِي كُلِّ جَرِيٍّ وَالْمَخَافَةُ دِينِي
لَا الْعُذْرُ يُقْبَلُ لِي فَيَفْرُقُ شَاهِدِي مِنْهُمْ وَلَا يَرْضَوْنَ حَلْفَ يَمِينِي ^(٣)

ولكن إلى أي مدى وصل أبو نواس في شعره الذي ينكر عليه والذي اتهم بالزندقة بسببه ؟ إن أول ما يصدمننا من هذا الشعر إنكاره للبعث والقيامة إنكاراً يجعله أهون ما يستطيع البوح به ، فهو يقول :

وَأَيْسَرُ مَا أَبْثُكَ أَنَّ قَلْبِي بِتَصْدِيقِ الْقِيَامَةِ غَيْرُ صَافٍ ^(٤)

(١) نفسية أبي نواس : ١٢٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٠٩ .

(٣) تاريخ الطبري ١٠ : ٢١١ .

(٤) محاضرات الأدباء ٢ : ١٨٣ .

وهو يقول في موضع آخر :

قلتُ والكأسُ على كَفِّي تَهْوِي لالتشامِي
أنا لا أعرفُ ذاكَ اليَوْمَ في ذاكَ الزُّحامِ^(١)

وفي أبيات أخرى ينكر القدر والجبر اللذين كانت الفرق المختلفة تشغل نفسها
ببيحتهما والإيمان بأحدهما ، وهو يظهر إيمانه بالموت فحسب على اعتبار أنه غاية
الحى التى لا توجد بعدها غاية ، يقول :

يا عاذلى فى الدينِ ذا هَجْرُ لا قَدْرُ صَحَّ ولا جَبْرُ
ما صَحَّ عِنْدِي مِنْ جَمِيعِ الذى يُذَكِّرُ إلا الموتُ والقَبْرُ
فاشْرَبْ على الدَّهْرِ وأَيَّامِهِ فَإِنَّمَا يُهْلِكُنَا الدَّهْرُ^(٢)

وهو يكرر نفس هذه المعانى فى أبيات أخرى له ويشير فيها إلى عصبية المجان
التي ينتمى إليها ويقول إن أفرادها جميعاً مؤمنون بهذه الأفكار الخطيرة ، يقول :

عاذِلَتْنِي بالسَّفاةِ والزَّجْرِ استمعى ما أبثُّ مِنْ أَمْرِي
باحِ لِسَانِي بِمُضْمَرِ السَّرِّ وذاكَ أَنَّنِي أَقَوُّ بالدَّهْرِ
بينَ رِياضِ السُّرورِ لى شِيعُ كافِرَةٌ بالحِسابِ والحَشِيرِ
مُوقِنَةٌ بالمَماتِ جاحِدَةٌ لِمَا رَوَّهَ مِنْ ضَغْطَةِ القَبْرِ
ولَيْسَ بَعْدَ المَماتِ مُنْقَلَبٌ إِنَّمَا المَوْتُ بَيَّضَةُ العُقْرِ^(٣)

وهذه الأبيات فى الحقيقة صريحة فى زندقته وكفرها ، فهو ينكر البعث والحساب
ويؤمن بقول الدهرية بأن ليس للإنسان إلا حياته الدنيا ، ثم ينقضى أمره كإنقضاء
النبات والحيوان ، وكانت هذه المعتقدات أيضاً تؤمن بها إحدى فرق الرافضة من
الشيعة كما رأينا من قبل . فأى مذهب كان عليه أبو نواس إذن ؟ أكان من
الشيعة الرافضة ومن الخطابية والمعمرية بالذات كما يقول محمد جابر عبد العال ،
أم أنه كان مانوياً كما يقول محمد بدیع شريف لأن من مبادئ المانوية إثارة الشك

(١) سرقات أبي نواس : ١٤٤ . (٢) الوساطة : ٦٣ .

(٣) الوساطة : ٦٣ .

في العقيدة ومهاجمة الدين ، والغزل بالذكر ، وكلها عناصر موجودة في شعر أبي نواس ؟ أم تراه كان مرجحاً كما يقول العقاد خصوصاً وأنه يرفض حظر العقو الذي قال به المعتزلة بالنسبة لمرتكب الكبيرة إذ يقول للنظام :

لَا تَحْظُرِ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرِجًا فَإِنَّ حَظْرَكَهُ بِالْدِّينِ إِزْرَاءُ^(١)

وهو يؤمن بعفو الله عن كل مسلم - على مذهب الإرجاء فيما يبدو - ولهذا لا يرى داعياً لترك الآثام والإقلاع عن المعاصي إذ يقول :

وَوَيْقْتُ بِعَفْوِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ مُسْلِمٍ فَلَسْتُ عَنِ الصُّهْبَاءِ مَاعِشْتُ مُقْصِرًا^(٢)

أم تراه وقد درس علم الكلام والفلسفة والمنطق انتابته حالة من الشك ودفعته إلى نوع من الزندقة الفكرية ينكر فيها أسس دينه وعناصر الإيمان فيه ، ويشك في كل شيء ويهاجمه ؟ أم هو يسير على مبدأ الزندقة السياسية بمهاجمته العرب في قصائد كثيرة وتعصبه للفرس ونوع حياتهم التي تلائم الحياة التي يرواها ؟ أم أنه رجل يؤثر الدنيا على دينه كما يقول في إحدى قصائده ، ولهذا جعل اللذة مبدأه الذي لا يحيد عنه ، وانطلق مع عصاة الحجاب مستهزين بكل شيء في مجتمعهم ، يتحدثونه جهاراً ولا يستحيون من ارتكاب المحرمات . فزندقة أبي نواس من هذا السيل زندقة اجتماعية ؟ إننا في الواقع نميل إلى تصديق هذه الناحية أكثر من غيرها وخاصة أنها متفقة مع أبيات أبي نواس الصادقة الصريحة التي قالها في سجنه والتي ذكرناها من قبل ، كما أنها تتفق مع مجونه الذي أشرنا إليه فيما سبق ، وحاله في ذلك شبيه بحال الشاعر آدم بن عبد العزيز حين سمع المهدي قوله :

أَنْتَ دَعَهَا وَارْجُ أُخْرَى مِنْ رَحِيقِ السُّلُسَبِيلِ

فقال له : ويلك تزندقت ؟ قال : « لا والله يا أمير المؤمنين .. ولكنه طرب غلبني ، وشعر طفع على قلبي في حال الحداثة فنطقت به »^(٣) .

وأبو نواس تحقيقاً لهذه الزندقة الاجتماعية يربط في شعره بين الزندقة والظرف في قوله :

(١) ديوان أبي نواس : ٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٥٩ .

(٣) الأغاني ١٤ : ٥٨ .

وَصِيفُ كَأْسٍ مُحَدَّثَةٌ مَلِكٍ تِيَهُ مُغْنٌ وَظَرْفٌ زِنْدِيقٍ

ويقول حمزة الأصفهاني في ذلك : « سمعت من يقول : أول من ظرف الزنديق أبو نواس ، وإنما أخذه من قول والبة بن الحباب : لهو أظرف من الزنديق ، وكان يقوله لكل ظريف ^(١) .

ويبدو أن المعنى كان بصرف أولاً إلى شخص بعينه كان زنديقاً وكان ظريفاً في آن واحد . والمرضى يثبت أن هذا الشخص هو يحيى بن زياد الحارثي ، وأن أبا نواس كان يقصده بالفعل في هذا البيت . ويروى عن الصولي أنه قال : « وإنما قال ذلك لأن الزنديق لا يدع شيئاً ولا يمتنع عما يدعى إليه ، فنسبه إلى الظرف لمساعدته على كل شيء وقلة خلافه » ^(٢) وهذا في الحقيقة هو لب الزندقة الاجتماعية التي يبدو أنها صارت بالفعل مذهباً بعينه . وإلى هذا يشير ابن القارح في رسالته حين يتحدث عن نوع من الزنادقة « يتظرفون ويتدثنون إعجاباً بذلك المذهب : تيه مغن وظرف زنديق ^(٣) » ، ومما يدل على صيرورته مذهباً تردد هذا المعنى في أشعار من أتوا بعد أبي نواس ، وقد ذكر الراغب الأصفهاني بيتاً لأحد الشعراء يقول فيه :

لَيْسَ بِزِنْدِيقٍ وَلَكِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُوسَمَ بِالظَّرْفِ
وَلَاخِر :

تَزَنَّدَقَ مُعَلِّناً لِيَقُولَ قَوْمٌ إِذَا ذَكَرُوهُ زِنْدِيقٌ ظَرِيفٌ

كما ذكر لنا عبارة لأحد الزنادقة تجرى على مذهب الظرفاء منهم إذ سئل عن عيد الأضحى فقال : « وباء كل سنة يقع في الأغنام والبقر ! » ^(٤) .

ومما يؤكد لنا أن زندقة أبي نواس كانت زندقة اجتماعية لم تمس جوهر إيمانه قط ما قاله مهلهل بن يموت حين ذكر كفريات أبي نواس ثم عقب عليها فقال : « لا أعرف له في البوح بها عذراً مع ما كان عليه من اعتقاد شريعة الإسلام بشرائطها لا يشك في ذلك أحد » ^(٥) وما يرويه أبو هفان أيضاً عن ابن الداية من

(١) ديوان أبي نواس (ط . فاجر) : ١٨٩ . (٢) أمال المرتضى ١ : ٩٩ .

(٣) رسائل البلغاء : ٢٥٩ .

(٤) محاضرات الأدباء ٢ : ١٨٤ .

(٥) سرقات أبي نواس : ١٤٦ .

قوله : « إن أبا نواس كان محافظاً على صلاته إلا أن يسكر ، وكان يقضى ما يفوته منها حين يفيق من سكره »^(١) ثم إن ما يروى له من شعر الزهد وما يتخلله من نبرة صادقة يؤكد أيضاً وجود عناصر إيمان قوية في نفسه ، طغت عليها وغشتها زندقته الاجتماعية ، ثم ما لبثت أن خلصت عناصر الإيمان هذه وبدأ أبو نواس يطلب عفو الله في رنة ذليلة خاضعة :

يا رَبُّ إِنِّ عَظُمْتُ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
مَالِي إِلَيْكَ وَسِيْلَةٌ إِلَّا الرَّجَا وَجَمِيلُ عَفْوَكَ ثُمَّ إِلَيْنِي مُسْلِمُ
وإذا تركنا الحديث عن زندقة أبي نواس الشاعر الماجن العايب الذي جعلناه أول الشعراء الثلاثة الكبار الذين اتهموا بالزندقة في القرن الثاني ، فلننا نتناول الشاعر الثاني الذي يختلف عن أبي نواس اختلافاً بيناً في منهجه وفي موضوع شعره وأسلوب حياته ، ونعني به أبا العتاهية شاعر الزهد ، فهو أيضاً لم يسلم من تهمة الزندقة . وكانت هذه التهمة تتردد في عصره ، كما ظلت تتردد في كتابات الباحثين المحدثين حتى الآن . فما مدى صحتها ؟ وإن وجدت فما نوعها وما الدافع إليها ، وهل نستطيع أن نحسبها ونلتمحها في شعر أبي العتاهية حقاً ؟

إن أبا الفرج الأصفهاني قد عالج هذا الموضوع على طريقته فروى لنا كثيراً من الأخبار التي تؤيد زندقته أبي العتاهية أو تنفيها ، ولم يرجح هو إحدى الناحيتين . يقول في بعض رواياته : « كان قوم من أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث ، ويحتجون بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاد »^(٢) .

وهذا يعني لدينا أنه كان دهرياً ، مثله في ذلك مثل أبي نواس في بعض أبياته التي مرت بنا . ويبدو أن الذي أشاع هذه الفكرة عن أبي العتاهية هو منصور بن عمار — أحد قصاص القرن الثاني — بسبب عداوة كانت بينهما ، وأبو الفرج يذكر هذه العداوة وسببها ، ويروي عن منصور بن عمار ثلاثة أخبار تتفق في مضمونها وفي هدفها ، فقد زعم منصور أنه سمع أبا العتاهية يقول : قرأت البارحة (عم يتساءلون)

(١) أخبار أبي نواس لأبي هفان : ٤٩ .

(٢) الأغاني ٤ : ٢ .

ثم قلت قصيدة أحسن منها . وفي الخبر الثاني يقول لجمهور سامعيه إن أبا العتاهية زنديق والدليل على ذلك أنه لا يذكر في شعره الجنة ولا النار وإنما يذكر الموت فقط (١) .

أما الخبر الثالث فهو يبيح لنفسه استخراج عناصر زندقة أبي العتاهية من شعره في قوله :

كَأَنَّ عَتَابَةَ مِنْ حُسْنِهَا دُمِيَّةٌ قَسٌ فَتَنَتْ قَسَّهَا
بَا رَبِّ لَوْ أَنْسَبْتَنِيهَا بَمَا فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ لَمْ أَنْسَهَا
وبفهم منصور من البيتين أن أبا العتاهية يتهاون بالجنة ويبتذل ذكرها في شعره بمثل هذا التهاون ، كما يعقب على بيتي أبي العتاهية الآخرين :

إِنْ الْمَلِكُ رَأَى أَحْسَنَ خَلْقِهِ وَرَأَى جَمَالَكَ
فَحَذَا بِقُدْرَةِ نَفْسِهِ حُورَ الْجِنَانِ عَلَى مِثَالِكَ

بقوله : أيصور الحور على مثال امرأة آدمية (٢) ؟

ومضمون اتهامات منصور بن عمار أن أبا العتاهية دهري لا يؤمن بالبعث ولا الحساب ولهذا يتهاون بذكر الجنة وما فيها ، كما أنه لا يؤمن بالقرآن ولا ينزله من نفسه منزلة القداسة : ولهذا يرى أن شعره قد يفوق بعض سور القرآن وآياته . ومن الواضح أن أبا الفرج لم يكن يؤمن بهذه الاتهامات ولا يعبرها شيئاً من الاهتمام ، ولهذا كان يبدأ ذكرها بقوله : « وقيل إن منصور شنع عليه بهذا » أو « شنع عليه منصور بكذا » (٣) وفيما عدا اتهام أبي العتاهية بالدهرية ، يروي الأصفهاني عن الصولي عن موسى عن أحمد بن حرب اتهاماً لأبي العتاهية بمذهب جديد ، في رأيي ، فيه محاولة للتوفيق بين الإسلام وعقائد الثنوية فهو يقول : « كان مذهب أبي العتاهية

(١) الأغاني ٤ : ٣٤ وهذا الدليل غير صحيح لأن أبا العتاهية ذكر الجنة والنار في مواضع كثيرة من شعره ، ومن ذلك قوله :

فلو كان هول الموت لا شيء بعده

ولكنه حشر ونشر وجنة

لهان علينا الأمر واحتضر الأمر

وزار وما قد يستطيل به الخبر

(٢) المصدر نفسه ٤ : ٥١ .

(٣) الأغاني ٤ : ٣٤ ، ٥١ .

القول بالتوحيد ، وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء ، ثم إنه بنى العالم هذه البنية منهما وأن العالم حديث العين والصنعة لا يحدث له إلا الله ، وكان يزعم أن الله سيرد كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعاً . وكان يذهب إلى أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعاً^(١) وهذا الاتهام يجعلنا أمام مذهب متكامل العناصر يقوم على التوفيق بين فكرة التوحيد والإثنينية ، فالله قديم وهو الذى أحدث العالم وخلق الجوهرين المتضادين ، والمقصود بهما النور والظلمة بطبيعة الحال ، ومن هذين الجوهرين المتضادين أحدث الكون . وواضح أن هذا المذهب يؤمن بالعقل الإنسانى ما دام قد جعل المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال والبحث ، ولكنه فى الوقت نفسه يجعلها طبيعة مركوزة فى النفس البشرية أى أنه يذهب مذهب الجبرية . وقد نص الأصفهاني فى إحدى رواياته بالفعل على جبرية أبى العتاهية^(٢) . ويورد الأصفهاني اتهاماً من نوع آخر يثبت به زندقته أبى العتاهية فينسبه إلى التشيع ، وإلى مذهب الزيدية البيرية المبتدعة بالذات . وهذه الطائفة تنتسب إلى كثير النوى الأبر ، وهم يكفرون جميع الصحابة شأن فرق الروافض من الشيعة جميعاً ، إلا أنهم قد توقفوا فى أمر عثمان^(٣) .

هذه هى الأنواع الثلاثة من الزندقة التى اتهم بها أبو العتاهية . وما يلاحظ أن أبا الفرج الأصفهاني لم يؤيد تهمة من هذه التهم ، ولكنه قال مظهراً حيرته إن أبا العتاهية كان مذبذباً فى مذهبه ، يعتقد شيئاً فإذا سمع طاعناً عليه ترك اعتقاده لياؤه وأخذ غيره^(٤) . والحقيقة إن زندقته أبى العتاهية كانت شيئاً واقعاً معروفاً فى عصره ، لأن أبا الفرج يذكر أن حمدويه صاحب الزنادقة أراد أن يأخذ أبا العتاهية ففرع من ذلك وقعد حججاً^(٥) . وادعت جارة له فى إحدى المرات أنه يخاطب القمر فى الليل ، فاتصل الخبر بحمدويه فصار إلى منزلها وبات وأشرف على أبى العتاهية فرآه يصلى ، فأنصرف خاسئاً^(٦) .

(١) المصدر نفسه ٤ : ٦ .

(٢) المصدر نفسه ٤ : ٥ .

(٣) الفرق بين الفرق : ٢٦ .

(٤) الأغاني ٤ : ٦ .

(٥) الأغاني ٤ : ٧ .

(٦) المصدر نفسه ٤ : ٣٥ .

وهذه الروايات عن زندقة أبي العتاهية من جانب الكتاب الأقدمين لم تأت عن أبي الفرج وحده ، ولكن الخطيب البغدادي ذكر أن الرشيد قال لأبي العتاهية :
الناس يزعمون أنك زنديق ، فقال : يا سيدي كيف أكون زنديقاً وأنا القائل :
أَبَا عَجَبِي كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ
وَاللَّهُ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ وَفِي كُلِّ ذَكِيَّةٍ شَاهِدٌ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ^(١)

ولو صح عن أبي العتاهية أنه اعتنق ذلك المذهب الذي يوفق بين الإسلام والثنوية لكان جوابه على الرشيد متمشياً مع مذهبه وتهرباً واضحاً من تهمة الزندقة ، لأن أساس مذهبه الإيمان بوحدة الله ، وهي التي صورها في تلك الأبيات دون أن يزيد عليها شيئاً .

أما ابن المعتز فيقول إن « أبا العتاهية يرمى بالزندقة والذي يصح لي أنه كان ثنويّاً »^(٢) .

وقد فهمنا فيما سبق من هذا النص أنه يعني بالثنوية الزرادشتية ، أما بالملاحظ فلم يذكر شيئاً عن زندقة أبي العتاهية وكذلك المرتضى . ولكن ابن قتيبة يذكر بعض أبيات لأبي العتاهية نسب فيها إلى الزندقة مثل قوله :

إِذَا مَا اسْتَجَزْتَ الشُّكَّ فِي بَعْضِ مَا تَرَى فَمَا لَا تَرَاهُ الدَّهْرُ أَمْضَى وَأَجْوَزُ

وفي مثل الأبيات التي ذكرها الأصفهاني وأثبتناها فيما سبق . ولم يعلق ابن قتيبة على شيء مما رواه^(٣) . أما الكتاب المحدثون فلهم في زندقة أبي العتاهية آراء كثيرة أهمها ما قاله فيدا من أن « أول ما فلاحظه في معتقدات أبي العتاهية أنه كان يؤمن بالاثنيانية بكل صراحة : فالعالم الظاهر مكون من جوهرين متعارضين ، والوجود تتنازعه طبقتان إحداها خيرة والأخرى شريرة . وهو يرجع الوجود كله في النهاية إلى الجوهرين المتعارضين اللذين نشأ منهما الكون وتكون ، غير أن أبا العتاهية صاغ نظرياته الاثنيانية في صيغة واحدة إذ جعل الله الواحد عند بدء الأشياء ، وقال : إنه

(١) تاريخ بغداد ٦ : ٢٥٣ .

(٢) طبقات الشعراء : ٢٢٨ .

(٣) الشعر والشعراء : ٧٦٩ .

خالق الجوهريين ؛ وإن العالم ما كان له أن يوجد بدون الله وحده ، طارحاً بذلك أسطورة الخليط الأزلي بين الجوهريين أو المبدئين ونعني بهما النور والظلمة^(١) .
ويقول فيدا في موضع آخر : « إننا لا نعلم أكان أبا العتاهية موحداً فأخذ نظرية الاثنينية من المانوية ليستعين بها على توضيح العالم في وجهتي الخير والشر حيث تنوء أحياناً بالآلام وأخرى تسر بالمباهج ، أم أن توحيد هذه كان قناعاً يتستر به لنشر مبادئ المانوية كما هي طبيعة أهل هذه النحلة ؟ »^(٢)

وفيدا بهذه الآراء إنما يركز على ما رواه الأصفهاني عن مذهب أبي العتاهية الذي يوفق بين الإسلام والثنوية كما شرحناه من قبل ، فهو إذن يعتقد بصدق هذه الرواية ويحدد هذه الثنوية بالمانوية ، وهو لم يبد رأيه بصورة نظرية بل استطاع من خلال أرجوزة أبي العتاهية أن يستخلص عناصر مذهب هذا المتراوح بين الإسلام والمانوية . وإلى هذه الفكرة أيضاً - وهي وجود مذهب جديد يوفق بين الإسلام والثنوية ، أو إيجاد حل لمعضلة الاثنينية - ذهب المستشرق « ويسترب » فيما كتبه عن عقيدة أبي العتاهية^(٣) .

أما محمد برانق فقد نفي في دراسته عن أبي العتاهية زندقته قائلاً : « لم يكن زنديقاً وما أظهر الزندقة وما فعل فعل المتردقين » . ولا أدري من أين جاءه هذا الحكم القاطع الجازم دون أن يقدم له بأدلة مقنعة اللهم إلا ذلك التعليل الساذج الذي يقول فيه : « وما كان للرجل وهو نديم الخلفاء وسيرهم والمقرب إليهم أن يتزندق في رحابهم »^(٤) وكأن كل الشعراء الزنادقة الملحدين كانوا مبعدين عن رحاب الخلفاء ، وكأن هذه الرحاب تستطيع أن تدخل في قلوب الواردين عليها فتكشف الزنديق وتظهر الورع فتد هذا وتقبل ذلك .

وأما محمد بديع شريف فيرجع اتهام أبي العتاهية بالزندقة إلى « ما انتشر في تضاعيف شعره من المعاني الدالة على الاثنينية ، وإلى هذا الزهد الذي هو مبدأ أصيل في مبادئ المانوية ، وإلى ما كان يقال عنه إنه لا يذكر البعث في شعره وإن شأنه شأن

(١) من تاريخ الإلحاد في الإسلام : ٣٨ . .

(٢) الصراع بين الموالى والعرب : ٩٨ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) : مادة أبي العتاهية .

(٤) أبو العتاهية : ٣١ .

الزنادقة من شعراء هذا العصر الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس^(١) والكاتب بهذه الآراء يثبت مانوية أبي العتاهية ويؤكد لها ، ويجعل زهده سبيلا لنشر الدعوة المانوية أو كما يقول إنه (وجد أسلم الطرق لبلوغ المانوية مرامها في صرف النفوس عن الطموح واستكانتها للخوف والذعر . . . وإذا كان أبو نواس فتح للناس باباً جديداً في الغزل والإباحة والبراعة في وصف الخمر ، فإن أبا العتاهية فتح لهم باباً آخر في الزهد والكف عن الحياة ، وأصبح أثر شعره واضحاً في كثير من تعاليم النحل التي نبطت في الحياة العربية . وليس الضرر الذي يصل من شعر أبي نواس إلى النفوس فيحللها ، بأكثر من هذا الضرر الذي يقتل الطموح ويصرف الأنفس عن الحياة ، وينقل الأمة من أفقها الواسع الذي ينتظم الإنسانية إلى أفق ضيق فيه عكوف وانطواء تسعى المانوية إليه »^(٢) .

والكاتب في نسبته أبا العتاهية إلى المانوية لا يخلى الشعوبية من أن تكون هي الدافع إلى سلوك هذا السبيل ، ففي رأيه إذن أن زنادقة أبي العتاهية إنما هي زنادقة سياسية في دوافعها ، وأنها تهدف إلى هدم النشاط والقوة والحيوية في المجتمع الإسلامي ، وإشاعة روح التواكل والتشاؤم في أركانه حتى ينحل وتخبو شعلته ، وهذا ما كان يريده الشعوبيون بالفعل .

وأما محمد جابر عبد العال فهو في دراسته متردد أشد التردد في تحديد نوع زنادقة أبي العتاهية ، فهو تارة ينسبه إلى المانوية لأن المشهور عن المانوية أنها تدعو إلى الزهادة في الغذاء والاكتفاء بملبس واحد في السنة ، وإلى ذم البخل والكذب والسرقة والزنا^(٣) . وتارة أخرى يلمح في شعره أثر الزرادشتية كما في قوله :

لَا تُمَضِ رَأْيَكَ فِي هَوَى إِلَّا وَرَأْيُكَ فِيهِ قَصْدُ
مَنْ كَانَ مُتَّبِعًا هَوَاهُ فَإِنَّهُ لِهَوَاهُ عَبْدُ

ويفسر هذا الأثر بقوله : « نرى الشاعر يطلب من الإنسان قبل أن يتبع هذه الحياة أو تلك أن يحكم عقله . وهو في هذا ينظر إلى الزرادشتية التي تجعل السعيد من فكر فاختر طريق الصواب ، والشقي من عدل عن ذلك »^(٤) .

(٢) المصدر نفسه : ١٠٢ .

(١) الصراع بين الموالى والعرب : ٩٨ .

(٤) المصدر نفسه : ١٦٣ .

(٣) حركات الشيعة المتطرفين : ١٤٨ .

والكاتب في موضع آخر يصدق رواية أبي الفرج التي تنسب أبا العتاهية إلى عقيدة الزيدية البترية ويقول عنها إنها « أشد مذاهب الشيعة اعتدالا وأقربها إلى مذهب السنة » - ولا أدري من أين استقى هذا الوصف - ومع ذلك فلا يجد دليلا على هذا المذهب في شعره ، ومن ثم فهو ينفي انتساب الشاعر إليها ، وخاصة لأن هذه الفرقة اتخذت من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة للخروج على السلطان ، ولكن أبا العتاهية لم يفعل ذلك ^(١) . ولا يلبث الكاتب أن يلحظ في شعر أبي العتاهية تأثيره بعقيدة الروافض في قوله :

وَالَّذِي يَحْمِلُكَ الْأُمُورَ جَمِيعًا مَلِكٌ جُلُّ نُورِهِ الْمَكْنُونُ

باعتبار أنه يصف الإله بأن نوره مكنون فيه ، مع أن هذه الفكرة تختلف عن تصوير القرآن بأن الله نور السموات والأرض . والكاتب في موضع آخر من دراسته ينسب أبا العتاهية إلى الثنوية دون تحديد لقوله في أرجوزته :

لِكُلِّ إِنْسَانٍ طَبِيعَتَانِ خَيْرٌ وَشَرٌّ وَهُمَا ضِدَّانِ

ويقول إنه ينظر إلى الثنوية بلا شك ويتحدث عن تعاليمها في الخير والشر المتمثلين في النور والظلام ^(٢) . ومرة أخرى يظهر الكاتب تردده وحيرته إذ يجعل أبا العتاهية متأثراً بالمذاهب الفلسفية اليونانية التي عاشت في جند نيسابور ، كما تأثر بالمذاهب المسيحية . وهو يستدل على ذلك بقوله في أرجوزته :

لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْدَنٌ وَجَوْهَرٌ وَأَوْسَطٌ وَأَصْغَرٌ وَأَكْبَرٌ ^(٣)

ومع هذه الحيرة وهذا التردد لم يصل الكاتب إلى حكم قاطع في نوع زندقة أبي العتاهية واكتفى بعرض هذه الأفكار دون الوصول إلى نتيجة عن طريقها . أما أنيس المقدسي فيقول إنه ليس في شعر أبي العتاهية ما يثبت زندقته أو اتهامه بمذهب الفلاسفة ، ويستدل على ذلك بأن ابن النديم لم يذكره في جملة الشعراء الزنادقة . وفي رأي أن هذا ليس دليلا قط وقد سبق لنا أن قلنا إن الجاحظ والمرتضى

(١) حركات الشيعة المتطرفين : ١٢٦ .

(٢) المصدر نفسه : ١٣٨ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣٦ .

لم يذكراه أيضاً في الشعراء الزنادقة ، ولكن ليس معنى هذا أنه ليس زنديقاً ، إذ ربما سقط ذكره عند هؤلاء الكتاب ، وربما كانت آراؤهم متفقة على نفي الزندقة عنه ، ولكن هذه الآراء لا تعتبر حجة تثبت براءة أبي العتاهية بصفة قاطعة . وقد استعرض أنيس المقدسي بعض الآيات التي ذكرناها في خلال حديثنا عن أبي العتاهية والتي دلت بها بعض الكتاب على زندقته وعقب عليها الكاتب قائلاً : « وليس في هذه الآيات عند التحقيق غير مبالغات خيالية قد تجرى على لسان المؤمن لتقرير أو إيضاح معنى شعري^(١) » .

وإلى هذه النتيجة العامة أيضاً – وهي نفي الزندقة عن أبي العتاهية – توصل أحمد أمين^(٢) .

وجولد زهير يطلع علينا برأى جديد في عقيدة أبي العتاهية إذ يقول إنه يعرض أنموذجاً للرجل الفاضل الجليل بقوله :

بَا مَنْ تَرْفَعُ لِلدُّنْيَا وَزِينَتِهَا لَيْسَ التَّرَفُّعُ رَفْعُ الطَّيْنِ بِالطَّيْنِ
إِذَا أَرَدْتَ شَرِيفَ النَّاسِ كُلَّهُمْ فَانْظُرْ إِلَى مَلِكٍ فِي زِيٍّ مُسْكِينٍ

ويفهم جولد زهير من هذين البيتين أن أبا العتاهية يشير إلى بوذا ، وبذلك يربط بينه وبين المذاهب الهندية التي كانت في رأيه ذات تأثير كبير في نزعة الزهد التي ظهرت في القرن الثاني^(٣) . ولكن نكلسون يرى أن أبا العتاهية لم يشر إلى شخص بعينه في هذين البيتين ولكنه يصف التقى الزاهد عموماً ، وبذلك فهو ينفي أن يكون أبو العتاهية متأثراً بالمذهب البوذي^(٤) .

هذه إذن خلاصة لما كتبه الأقدمون والمحدثون عن عقيدة أبي العتاهية ، فهل نفهم من هذه الآراء المختلفة أن أبا العتاهية كان زنديقاً ؟ وإن صدقنا هذا الاتهام فما نوع تلك الزندقة ؟ الواقع إننا نؤمن لإيماناً وثيقاً بأن أبا العتاهية ليس زنديقاً ولا كافراً ولكنه يؤمن لإيماناً لا يتطرق إليه الشك . وكل ما في الأمر أنه رجل عاش وسط تيارات

(١) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي : ١١٤ .

(٢) ضحى الإسلام : ١٦٢ .

(٣) العقيدة والشرعة : ١٤٢ .

(٤) A Literary History of The Arabs : ٢٩٧ .

من الفلسفات المختلفة والمذاهب المتباينة ، فتأثر بها لا تأثر الزنديق ولكن تأثر المؤمن ، فهو يستخدم ما في الثنوية من فكرة الخير والشر لتوضيح تيارهما في نفس الإنسان وفي العالم كله ، ولكنه لم يتعد هذه الحدود ، ولم يجعل لأيهما سلطاناً ، وإنما جعل الأمر كله بيد الإله الأوحد ، وبذلك لم يتعد حدود الإسلام . ومما لاشك فيه أنه تأثر بالفلسفة اليونانية أيضاً ، وظهر أثر ذلك في شعره ، ولكن هذه الفلسفة كانت وسيلة في يده لإدراك بعض ظواهر الكون ووصفها ولم تكن غاية للشك والإلحاد . ولن نجد هنا قط ما يرويه أبو الفرج من أن أبا العتاهية كان يجهل الفرق والمذاهب في عصره ، وأنه كان « من أقل الناس معرفة » وأن بشراً المربى قال له : يا أبا إسحق لا تصل خلف فلان جارك وإمام مسجدكم فإنه مشبه ، فقال : كلا ! إنه قرأ بنا البارحة في الصلاة (قل هو الله أحد) وإذا هو يظن أن المشبه لا يقرأ (قل هو الله أحد)^(١) . نحن لا نصدق هذه القصة أبداً إذ لا يعقل أن يجهل أبو العتاهية - الذي كان شعره صدى قوياً للمذاهب والفلسفات في عصره - المذاهب والفرق التي كانت تحيط به ، أو الثقافات المختلفة التي كانت ترسل إشعاعات قوية في ذلك العصر . ونحن في هذا الرأي نخالف ما ذهب إليه خلف الله إذ تابع رواية الأصفهاني فأخذ يتلمس مصادر زهد أبي العتاهية في جداول الحياة الإسلامية العربية المشتركة ، لأن أبا العتاهية لم يكن واسع الثقافة ولا عميق التأمل^(٢) . كما نخالف محمد برائق الذي اطمأن إلى رواية الأصفهاني أيضاً وقرر أن أبا العتاهية لا علم له^(٣) . ولعل خير ما نؤكد به صحة إيمان أبي العتاهية تلك الآيات الأخيرة التي قالها في مرضه الذي مات فيه والتي يشيع الصدق وحرارة الإيمان في أثنائها ، يقول :

إِلَهِي لَا تُعَذِّبْنِي فَإِنِّي	مُقِرٌّ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي
فَمَا لِي حِيلَةٌ إِلَّا رَجَائِي	لِعَفْوِكَ إِنَّ عَفْوَتَ وَحُسْنُ ظَنِّي
وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لِي فِي الْخَطَايَا	وَأَنْتَ عَلَيَّ ذُو فَضْلٍ وَمَنْ
إِذَا فَكَّرْتُ فِي نَدَمِي عَلَيْهَا	عَصَفْتُ أَنَامِلِي وَقَرَعْتُ سِنِّي

(١) الأغاني ٤ : ٨٠ .

(٢) دراسات في الأدب الإسلامي : ٩٨ .

(٣) أبو العتاهية : ٤٩ .

أَجْنُ بَزَهْرَةِ الدُّنْيَا جُنُونًا وَأَقْطَعُ طُولَ عُمُرِي بِالتَّمْنَى
 وَلَوْ أَنِّي صَدَقْتُ الزُّهْدَ عَنْهَا قَلَبْتُ لِأَهْلِهَا ظَهَرَ الْمِجَنِّ
 يَظُنُّ النَّاسُ بِي خَيْرًا وَإِنِّي لَشَرُّ الْخَلْقِ إِنْ لَمْ تَعْفُ عَنِّي^(١)

وإذا تركنا الحديث عن أبي العتاهية وصلنا إلى الشاعر الثالث الذي كان من أكبر شعراء القرن الثاني ، وأتهم بالزندقة أيضاً ، وهذا الشاعر هو بشار بن برد . والروايات حول عقيدة بشار مختلطة متضاربة ومحيرة للباحث أكثر من حيرته بالنسبة لأبي نواس أو أبي العتاهية. فبينما نجد إحدى الروايات تتحدث عن تقوى بشار وصومه ، نجد أخرى تتحدث عن كفره وإلحاده ومروقه عن الدين . ولعل الجاحظ هو أول من اتهم بشاراً بالزندقة فقد نسبته إلى عقيدة الرافضة من الشيعة إذ قال إنه كان (يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة)^(٢) . ولكنه لم يحدد لنا أى مذهب من مذاهب الروافض اختار بشار . وقد أضاف له في موضع آخر أنه اعتذر لإبليس في أن النار أكرم عنصراً من الأرض^(٣) ، ولكنه لم يبين أيضاً إذا كان هذا الاعتذار جزءاً من مذهب بشار الرافضى أو أنه أساس لعقيدة أخرى اعتنقها بشار . ومع ذلك فقد أورد الجاحظ قصيدة هامة لصفوان الأنصاري الشاعر المعتزلي برد فيها على دعوى بشار بأن النار أكرم عنصراً من الأرض . ويكشف لنا عن حقيقة اعتقاد بشار فإذا به يثبت بالفعل انتساب بشار إلى الروافض من الشيعة ، وإلى مذهب الكاملية بالذات . لأن أتباع هذا المذهب خلعوا علياً أيضاً لأنه لا يصلح في نظرهم للإمامة بعد تركه حقه في الخلافة لأبي بكر وعمر وعثمان . والكاملية من الشيعة الإمامية ، وهم يتسبون إلى أبي كامل^(٤) . يقول صفوان في هجاء بشار وفي نسبته إلى الكاملية :

اتَّهَجُوا أَبَا بَكْرٍ وَتَخَلَّعَ بَعْدَهُ عَلِيًّا وَتَعَزَّوْا كُلُّ ذَاكَ إِلَى بُرْدٍ
 ولكنه لا يلبث أن يضيف إلى بشار شيئاً جديداً حين ينسب إليه السخط على الدين عامة ، أى ينسبه إلى الزندقة الفكرية التي شرحنا أمرها من قبل ، كما يجعله من أتباع الناعظية ومن المؤمنين بالتناسخ والرجعة ، وذلك في قوله :

(١) الأغاني ٤ : ١٠٩ . (٢) البيان والتبيين ١ : ١٣ .

(٣) المصدر نفسه ١ : ١٦ .

(٤) انظر : الفرق بين الفرق : ٣٥ .

كَأَنَّكَ غَضَبَانُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَطَالِبُ دَخَلٍ لَا يَبِيتُ عَلَى حَقْدٍ
أَتَجْعَلُ لَيْلِي النَّاعِظِيَّةَ نِخْلَةً وَكُلُّ عَرِيْقٍ فِي التَّنَاسُخِ وَالرَّدِّ؟^(١)

وما قاله الجاحظ وصفوان الأنصاري يشرحه لنا عبد القاهر البغدادي عند حديثه عن فرقة الكاملية إذ يقول : « وكان بشار بن برد الشاعر الأعمى على هذا المذهب ، وروى أنه قيل له : ما تقول في الصحابة ؟ قال : كفروا . فقيل له : فما تقول في علي : فتمثل بقول الشاعر :

وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أَمَّ عَمَرُو بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تُصْبِحُنَا
وحكى أصحاب المقالات عن بشار أنه ضم إلى ضلالتهم في تكفير الصحابة وتكفير علي معهم ضلالتين آخرين :

إحداهما : قوله برجعته إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، كما ذهب إليه أصحاب الرجعة من الرافضة .

والثانية : قوله بتصويب إبليس في تفضيل النار على الأرض^(٢) . ومعنى هذا أن الكاملية لم تكن تؤمن بالرجعة ولا بتفضيل النار على الأرض ، وأن بشاراً أضاف هاتين الفكرتين إلى عقيدته في الكاملية . ولعل الجاحظ لم يكن يرى في انتساب بشار إلى الكاملية مجردة من هاتين الفكرتين ما يوجب اتهامه بالزندقة ، ولهذا يذكر بعض الزنادقة مثل الحمادين ويونس بن هارون وعلي بن الحليل وأبان ووالبة وغيرهم الذين كانوا (يتواصلون كأنهم نفس واحدة) ثم يقول (وكان بشار ينكر عليهم)^(٣) أي أنه لم يكن على مذهبهم في الزندقة . ومن يؤكد نسبة بشار إلى الكاملية صاحب نكت الهميان^(٤) .

أما المبرد فيذكر ما روى عن بشار من أنه كان يتعصب للنار على الأرض ويصوب رأى إبليس في امتناعه عن السجود لآدم ويروى له قوله :

الْأَرْضُ مُظْلِمَةٌ وَالنَّارُ مُشْرِقَةٌ وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مُذْ كَانَتْ النَّارُ

(١) البيان والتبيين ١ : ١٧ وليلى الناعظية امرأة كوفية كانت تعيش زمن محمد بن الحنفية ولما انتهت ثورة المختار كانت تستقبل كل غال من الشيعة سراً .

(٢) انظر : الفرق بين الفرق : ٣٥ .

(٣) الحيوان ٤ : ٤٤٧ . (٤) نكت الهميان : ١٢٧ .

ثم يصرح بأن هذه الرواية منقولة عن المتكلمين . ويحدث في موضع آخر عن المازني أنه قال : قال رجل لبشار : أتأكل اللحم وهو مباين لديانتك ؟ يذهب إلى أنه ثنوي ، قال : فقال بشار : ليسوا يلربون أن اللحم يدفع عني شر الظلمة^(١) . ولو صح هذا الخبر لكان السائل يقصد أن بشاراً على دين المزدكية لأنهم — كما ذكرنا — هم الذين حرموا اللحم على أتباعهم . وفي جواب بشار ما لا يدع مجالاً للشك في أنه يتهكم بالمزدكية وبسذاجة سائله الذي ظن أنه من أتباعها .

ولا شك أن إلقاء المبرد تبعة رواياته عن زندقة بشار على عاتق المتكلمين ، ويقصد بهم المعتزلة ، كان له ما يبرره وما يشعرنا بوجوب التيقظ لأمثال تلك الروايات ، خوفاً من أن يكون مصدرها حقد المعتزلة على بشار لتركه مذهبهم ومناوئتهم ، فنحن نعلم من الأصفهاني أن بشاراً كان أحد ستة من أصحاب الكلام بالبصرة ، وبقيتهم : عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وصالح بن عبد القلوس ، وعبد الكريم بن أبي العوجاء ، ورجل من الأزدي . وكانوا يجتمعون في منزل الأزدي ويختصمون عنده فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصمما على الثنوية^(٢) . وأما الأزدي فقال إلى قول السمنية وهو مذهب من مذاهب الهند يقول بالتناسخ وينكر وقوع العلم بالأخبار ، وهو منسوب إلى بلد بالهند اسمه سومنات . وأما بشار فبقي متحيراً مختلطاً كما يقول الأصفهاني^(٣) . أو أنه مال إلى مذهب يناوئ مبادئ المعتزلة — في رأي — ومن هنا وقع التنافر بينه وبينهم حتى إن واصل بن عطاء كان يقول : « أما لهذا الأعمى المكنتي بأبي معاذ من يقتله ؟ . أما والله لولا أن الغيلة خلق من أخلاق الغالية لبعثت إليه من يبيع بطنه على مضجعه^(٤) » .

ويرى الطاهر بن عاشور أن سبب الخلاف بين بشار والمعتزلة أنهم كفروا بالخوارج لتكفيرهم علياً ، وإلى هذا يشير بشار في هجائه لواصل :

عَنقَ الزَّرَافَةَ مَا بَالِي وَبَالِكُمْ تَكْفُرُونَ رِجَالًا كَفَرُوا رِجَالًا^(٥)

وواضح أن مذهب المعتزلة هذا يتعارض مع مذهب بشار في الكاملية التي تسقط إمامة علي .

(١) الكامل : ٥٤٧ .

(٢) في الأغاني (فصحما التوبة) وهو تحريف ينقضه ما جاء بعده في النص .

(٣) الأغاني ٣ : ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٤) مقدمة ديوان بشار ١ : ٢٣ .

(٥) الكامل : ٥٤٧ .

وأبو الفرج يروى بعض الروايات التي تثبت أن بشاراً لم يكن يقوم بتأدية بعض فرائض الإسلام كالصلاة والحج، حتى إنه حين انتوى أن يحج لنفى الزندقة عن نفسه، مال إلى محلة في الكوفة يسكر ويفسق^(١). ويروى في موضع آخر أن بشاراً كان يؤمن بالفلسفة الحسية التي لا تثبت شيئاً إلا إذا عاينته^(٢). والمرتضى يروى بعض هذه الروايات دون أن يعلق عليها بشيء، وإن كان يروى على لسان بشار إحساسه بالخذلان وتعبيره عنه في أبياته التي يقول فيها :

طُبِعْتُ عَلَى مَا فِي غَيْرِ مُخَيَّرٍ هَوَى وَلَوْ خُيِّرْتُ كُنْتُ الْمُهْدَبَا
أَرِيدُ فَلَا أُعْطَى وَأُعْطَى وَلَمْ أَرِدْ وَغَيَّبَ عَنِّي أَنْ أَنَالَ الْمُغَيَّبَا
وَأُضْرَفُ عَنْ قَصْدِي وَعِلْمِي مُبْصِرٌ وَأُمْسِي وَمَا أُعْقِبْتُ إِلَّا التَّنْدَمَا^(٣)

وإحساس بشار بالخذلان في حياته إنما يوضح لنا الدافع النفسي العميق الذي كان يلح عليه للخروج على تعاليم الدين وفرائضه، وعدم الإيمان بشيء والتردد بين المذاهب والنحل المختلفة. والأصفهاني ينقل عن الأصمعي ما يؤكد وجود ذلك الدافع في نفس بشار إذ يقول عنه إنه (كان من أشد الناس تبرماً بالناس)^(٤) ولهذا تبدى أثر هذا السخط والتبرم في إيمان بشار وعقيدته فلم يصحح له طول حياته، وكان الدين بالنسبة إليه كالناس موضع سخط وتبرم وضيق أيضاً، أو كما عبر صفوان الأنصاري في هجائه له :

كَأَنَّكَ غَضْبَانٌ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَطَالِبٌ دَخْلٍ لَا يَبِيتُ عَلَى حِقْدٍ
ويروى ابن المعتز خبراً غريباً عن سبب مقتل بشار إذ وشى به إلى المهدي بأنه يدين بدين الخوارج^(٥). ولكن ابن المعتز لا يوثق هذه الرواية ويؤكد قتله على الزندقة. ولعل مصدر هذا الخبر هجاء بشار للمعتزلة لتكفيرهم الخوارج في حين أن بشاراً لا يرى هذا الرأي. ثم يروى ابن المعتز في موضع آخر عن السدري أن بشاراً

(١) الأغاني ٤ : ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ٤ : ٢٢٧ .

(٣) أمالي المرتضى ١ : ٩٦ .

(٤) الأغاني ٤ : ١٤١ .

(٥) طبقات الشعراء : ٢١ .

كان من أفقه الناس وأعلمهم بكتاب الله فعاشر قوماً من الحرائيين فخبث دينه^(١) .
ولا ندرى كيف خبث دينه ، أو إلى أى نحلة كان ينتمى هؤلاء الحرائيون الذين
عاشرهم ، وهل كانوا من الصابئة أو من المانوية أو من غيرها ، ومع ذلك فهذه
الرواية موضع شك لأننا نعلم أن بشاراً لم يذهب إلى حران إلا بعد أن نجح واصل
ابن عطاء في نفيه عن البصرة .

وعلى أية حال فإن أحداً من الكتاب الأقدمين لم يثبت أن بشاراً كان ينكر
البعث ، بل لعل شعره يثبت صحة إيمانه باليوم الآخر كما في قوله :

كَيْفَ يَبْكِي لِمَحْبَسٍ فِي طُلُولٍ مَنْ سَيَبْكِي لِحَبْسٍ يَوْمٍ طَوِيلٍ
إِنَّ فِي الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ لَشُغْلًا عَنْ وَقُوفٍ بِرَسْمِ دَارٍ مَحِيلٍ^(٢)

أما الباحثون المحدثون فقد اختلفت مواقفهم بالنسبة لزندقة بشار اختلافاً كبيراً .
ففرى قيذا يجعل نزعة الشعوبية أكبر دافع لبشار على الزندقة . أما الدوافع الأخرى
فيحصرها فيما طبع عليه بشار من المحجون وروح التشاؤم والسخرية من الناس ،
كما يلاحظ أن الاتهام بالزندقة كان يسير جنباً إلى جنب مع الانتساب إلى مذهب
الرافضة . ومن هنا كان الشك في معنى الزندقة التي تنسب إلى بشار . ولهذا كله
يقرر قيذا أنه من غير الممكن الفصل في موضوع هذه الزندقة ، وإن كان يميل
إلى القول بأن بشاراً شاك من الشكاك فحسب^(٣) .

ومن يؤيد أن زندقة بشار كانت زندقة سياسية إذ كان الدافع وراءها هي حركة
الشعوبية محمد بدیع شریف الذي يستدل على ذلك بأن سادة الفرس قد حفظوا
لبشار هذه اليد في ثورتهم الأدبية حين انتصر المأمون على الأمين ، فجاء طاهر
ابن الحسين إلى بغداد وأخذ يسأل عن أولاد بشار كي يساعدهم ويعطف عليهم^(٤) .
أما محمد جابر عبد العال فهو ينحى عامل الشعوبية قائلاً : (إن تاريخ حياة
بشار في صغره وشبابه لا يدل على شيء يثير نفسه أو يسخطها على العرب فيبغض
جنسهم ودينهم ، لذلك كان ما بدا منه في ثورته على العرب وزهادته في دينهم إنما

(١) طبقات الشعراء : ٢٤ .

(٢) طبقات ابن المعتز : ٢٤ .

(٣) من تاريخ الإلحاد في الإسلام : ٣٧ .

(٤) الصراع بين الموالى والعرب : ٨٨ .

هو نتيجة عوامل أخرى^(١) . ونحن وإن كنا لا نجعل للتأثير الشعبي خطراً كبيراً في زندقة بشار ، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر وجوده في شعره ، بل إننا نعتبر بشاراً من رموس الشعوبية كما سنبين فيما بعد . ولهذا لا نقر الكاتب قط على تلك الفكرة التي يبدئها . أما العوامل الأخرى التي يراها الكاتب سبباً في زندقة بشار فهي اتصاله بالمشيعين المتطرفين ، فهو بعد أن خرج من المجالس السرية التي كانت تعقد في بيت الأزدى متحيراً لم يقتنع بمذهب معين ، رأى عبد الله بن معاوية يقيم حكماً في الري عام ١٢٧ هـ يعتمد على مذاهب المشيعين المتطرفين فقال إليهم ، واكتشف واصل بن عطاء هذا الميل فوقف يناصبه العداء ويحرض عليه . ونحشى بشار على نفسه فهرب من البصرة ولم يعد إليها إلا بعد موت واصل عام ١٣١ هـ . ولما استطاع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن - الذي أيدته الروافض - أن يتغلب على البصرة ، شايعه بشار كما شايح الروافض في عقيدتهم ، ولما انتهى الأمر بقتل إبراهيم وعودة سلطان العباسيين على البصرة ، تحول نشاط بشار إلى الغزل . وفي ميدانه ظاهر مذاهب الإباحيين الكوفيين ، واتخذ مطية لدعوته إلى إباحة اللذة ، وذلك بتحريض الشباب ألا يعبأوا بتقاليد أو أوضاع دينية في سبيل الفوز باللذة^(٢) .

أما فون كريمر فيعتقد أن بشاراً لم يستطع أن يتخذ له وجهة معينة وظل ملحداً حتى آخر حياته ، وهو يعتبره أنموذجاً صادقاً لطائفة كبيرة من رجال ذلك الزمن الذين اعتنقوا الإسلام في الظاهر ، ولكنهم كانوا في الحقيقة غير مخلصين له كثيراً أو قليلاً . ويرجع فون كريمر موقف بشار هذا إلى ميوله القوية نحو الآراء الفارسية القديمة^(٣) . فكأنه بذلك يعتقد أن زندقته كانت بدافع حركة الشعوبية أيضاً .

أما محمد الطاهر بن عاشور فيبعد أن استعرض أكثر أقوال الكتاب الأقدمين الذين تناولوا عقيدة بشار قال : (إن من يقرأ أخباره وشعره يراه ملتزماً عقد الإيمان الصحيح ، مخبراً عن نفسه بأداء الصلاة والصوم والحج وشرائع الإسلام)^(٤) ولهذا ينكر ابن عاشور الآبيات التي تظهر فيها زندقة بشار مثل قوله :

(١) حركات الشيعة المتطرفين : ٢٢٧ .

(٢) حركات الشيعة المتطرفين : ٢٣٠ .

(٣) الحضارة الإسلامية : ١٠١ .

(٤) مقدمة ديوان بشار ١ : ٢٦ .

إِبْلِيسُ أَفْضَلُ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ فَتَنَّبَهُوا يَا مَعْشَرَ الْفُجَّارِ
النَّارَ عُنْصُرُهُ وَآدَمُ طِينُهُ وَالطِّينُ لَا يَسْمُو سُمُو النَّارِ^(١)

ونحن من جانبنا لا نستطيع أن نقطع بشيء في أداء بشار لقرائض الإسلام ، ولو أن الأخبار التي بين أيدينا تنفي ذلك . أما هذه الأشعار المنسوبة إليه فلا نستطيع أيضاً أن نؤكد صحتها أو خطئها ، وإن كانت الروايات المختلفة تصوبها ، كما أننا نجد لمعاصرين له نقائص عليها مما يرجح جانب الصحة فيها .

والطاهر بن عاشور لا ينكر مع ذلك موضوع نسبة بشار إلى التشيع أو الرفض ، ولا دافع الشعوبية له على الخروج عن دينه ، ولكنه يرى أن أعداءه وخاصة المعتزلة هم الذين أشاعوا عنه الزندقة وحرصوا المهدى على قتله ، وأن بشاراً كان يحس بكيدهم له ، وقد عبر عنه في قصيدة مدح بها المهدى فقال :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَشْمَتَ بِي عَيْنَ نَائِمٍ فَنَامَ وَهَمِّي سَاهِرٌ يَتَوَهَّجُ
ثم اضطر أن يعلن توبته فقال :

وَقَدْ تَبَّتْ فَأَقْبَلَ تَوْبَتِي يَا ابْنَ هَاشِمٍ فَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُدْمَجٌ^(٢)
ولم يذكر لنا ابن عاشور ذلك الذنب الذي يعلن بشار توبته منه ، مع أننا نلاحظ أنه في أرجوزته التي مدح بها داود بن يزيد يتبرأ من فرقة كانت قطعتة عما يرضى الله ، وذلك في قوله :

فَالْآنَ وَدَّعْتُ الْفُسُوقَ الْحُزْبَا أَعْتَبْتُ مَنْ عَاتَبَنِي أَوْ سَبَا
وَرَجَعْتُ نَفْسِي حِجَابَهَا عُقْبَا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَهْبَا
مِنْ فِرْقَةٍ كَانَتْ عَلَيْنَا قَضْبَا أَتَى بِهَا الْغَىُّ فَلَا غُصَى الرَّبَا^(٣)

وفي هذه المرة أيضاً لم يشر شارح الديوان — وهو ابن عاشور أيضاً — إلى هذه الفرقة التي يتبرأ منها بشار . والذي يبدو لي أن بشاراً كان يدين برأى الرافضة من الشيعة حقاً ، واعلمها الكاملة بالذات ، وأن المعتزلة حين عاداهم كشفوا عنه القناع ،

(١) مقدمة ديوان بشار : ٢٤ . (٢) المصدر نفسه : ٢٩ .

(٣) ديوان بشار : ١٢٧ ، ١٣٨ الحزبا جمع حزيب أي الشديد ، العقب : آخر الأمر ، والقضب : القطع .

فلما أحس بمخرج موقفه ، حاول التبرأ عند الخليفة وعند المقربين إليه من ممدوحيه مما نسب إليه ، ولكن ذلك لم يجده فتيلاً إذ انضاف إلى غلوه في التشيع هجاؤه للمهدي ووزيره يعقوب بن داود فأدى ذلك إلى قتله على الزندقة .

ومن هذا يتبين لنا أن بشاراً كان من الشعراء الذين ظهر في شعرهم الاتجاه إلى الزندقة ، وأن ظهور هذا الاتجاه عنده كان نتيجة عوامل كثيرة، أهمها اطلاعه الواسع على الثقافات الأجنبية والمذاهب والنحل المختلفة في عصره ، حتى لقد عبر عن ذلك حماد عجرد فقال : « هو والله أعلم بالزندقة من ماني »^(١) وانضاف إلى ذلك تبحره في علم الكلام والفلسفة والمنطق بطبيعة الحال ، ومخالطته ألواناً مختلفة من العقليات والشخصيات ذوى المذاهب المتباينة . كل ذلك صادف نفساً يائسة متبرمة قلقاً ساخطة بطبيعتها الفطرية، وبحكم أصلها ونشأتها على التعصب ضد السيادة العربية ودينها الإسلام ، وبحكم تكوين صاحبها الجسماني وما اقترن به من قبح وعي ، فكان نتاج ذلك كله هذا الاتجاه إلى الزندقة في شعر بشار، وهي خليط من الزندقة الدينية والفكرية والسياسية ، ولكنه خليط يتكافأ مع ثقافة هذا الشاعر وتنوعها وشمولها . وهذا الاتجاه إلى الزندقة الذي ظهر في شعر القرن الثاني لم يكن مقصوراً على من ذكرنا من الشعراء ، ولكننا نجد أخباراً كثيرة عن شعراء آخرين اتهموا بالزندقة أو ظهرت آثارها في شعرهم بالفعل ، ولكن كتب الأدب والتاريخ لم تحفل بذكرهم . ومن هؤلاء سليمان الأعمى أخو مسلم بن الوليد . ويقول عنه الجاحظ إنه كان من مستجبي بشار ، وإنه كان يختلف إليه وهو غلام فقبل عنه مذهبه^(٢) . وآدم ابن عبد العزيز الذي أخذه المهدي وضربه ثلثمائة سوط ليقر بالزندقة بعد أن شاعت عنه أبيات كثيرة ، واضح فيها استهتاره بالدين مثل قوله :

اسْقِنِي وَاسْقِ خَلِيلِي فِي مَدَى اللَّيْلِ الطَّوِيلِ
قَهْوَةً صَهْبَاءَ صِرْفًا مُسَيِّتٍ مِنْ نَهْرٍ بَيْلِ

.....

أَنْتَ دَعَّاهَا وَارِجُ أُخْرَى مِنْ رَحِيقِ السُّلَسْبِيلِ
تَعْطَشُ الْيَوْمَ وَتُسْقَى فِي غَدٍ نَعْتِ الطُّلُولِ

ولكن الشاعر أبي أن يقر بالزندقة واستنكر ذلك قائلاً للمهدى : « ومتى رأيت قرشياً تزندق ؟ . . ولكنه طرب غلبني وشعر طفح على قلبي في حال الحداثة فنطقت به (١) ، فكان زندقته لم تكن في رأيه إلا إفراطاً في المحجون فحسب .
وعمرو الحاركي لم يكن خبيثاً ماجناً فحسب ، بل كانت تبدو في شعره عناصر زندقة واضحة كمثل قوله :

إِنْ كُنْتُ أَرْجُوكَ إِلَى سَلْوَةٍ فطالَ في حَبْسِ الضَّنَى لَبِثِي
وَعِشْتُ كَالْمَغْرُورِ فِي دِينِهِ يُوقِنُ بَعْدَ الْمَوْتِ بِالْبَعْثِ (٢)

والشاعر منقذ بن عبد الرحمن بن زياد الهلالي (كان خليعاً ماجناً متهماً في دينه يرمى بالزندقة) كما يقول المرزباني (٣) . ودلك الجن الحمصي لا يبرأ من الزندقة بل تنسب إليه أبيات أبي نواس المعروفة :

أَتَرَكُ لَذَّةَ الصَّهْبَاءِ نَقْدًا لَمَّا وَعَدُوهُ مِنْ لَبَنِ وَخَمِرٍ
حَيَاةً ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ بَعْثٌ حَدِيثُ خُرَافَةٍ يَا أُمَّ عَمْرُو (٤)

وإبراهيم بن سيابة الشاعر كان يرمى بالزندقة أيضاً (٥) . وكذلك إسحق بن خلف وسلم الحاسر وعلى بن ثابت (٦) . كما رى بها كثرة من شعراء آخرين وخاصة ممن أسرفوا في المحجون وهؤلاء تحدثنا عنهم من قبل في هذا الفصل . وهذه الكثرة من الشعراء الذين انعكس في شعرهم تيار الزندقة في القرن الثاني ، إنما يمثلون اتجاهاً كان موجوداً بالفعل في ذلك العصر — على الرغم من شذوذ هذا الاتجاه ، ولكن وجوده كان نتيجة حتمية لهذه الثقافات الأجنبية الزاخرة بالفلسفات والمنطق وعلم الكلام ، المليئة بالمذاهب والنحل المختلفة التي غزت الفكر العربي في القرن الثاني ، فجعلته في حالة شك مؤقته أو مستمرة أحياناً عند بعض الشعراء . وانضاف ذلك كله إلى عوامل سياسية واجتماعية فقوى تيار الزندقة وكثر الزنادقة الذين يعتبرهم بعض

(١) الأغاني ١٤ : ٥٨

(٢) الوقعة : ٥٦ .

(٣) معجم الشعراء : ٤٠٤

(٤) محاضرات الأدباء ٢ : ١٨٣

(٥) طبقات ابن المعتز : ٩٣ والفهرست ٤٧٣

(٦) الفهرست : ٤٧٣

المستشرقين مفكرين أحراراً^(١) ، وما هم بأحرار - كما اتضح لنا - فهم يخلعون عقائدهم القديمة السوية ليربطوا أنفسهم بنحل غريبة ومذاهب شاذة بحكم الدوافع المختلفة التي شرحنا أمرها في هذا الفصل .

بيد أن المجتمع الإسلامي لم يكن معرضاً لتأثير هذا التيار الخطر وحده ، وإلا صار إلى الانحلال السريع ، ولكن كان يؤثر فيه تيار آخر قوى غلاب ، مناقض للتيار الأول ، وهو تيار الزهد وتقوى الله والإيمان القوى الراسخ . وسنتناول فيما يلي تطور هذا التيار في الشعر العربي منذ ظهوره في أوائل القرن الثاني كاتجاه جديد من اتجاهات الشعر العربي في هذا العصر .

الزهد

هل كان أول ظهور الزهد في القرن الثاني حقاً كموضوع جديد من موضوعات الشعر العربي ، أم تراه كان اتجاهاً قديماً في الشعر ظهر بصورة بدائية ساذجة ثم نما وزكا عوده في القرن الثاني ؟

إن المستشرق كارلو نلينو يعتبر الزهد من موضوعات الشعر الجاهلي^(٢) كما يعتبر عدى بن زيد العبادي النصراني من الشعراء الزهاد إذ يقول : إن دينه حمله مراراً عديدة على اعتبار زوال أمور الدنيا كلها وذكر ما هو قريب من الزهد في بعض قصائده لطيفة فقال مثلاً بلسان حال المقابر :

مَنْ رَأَى فَلْيُحَدِّثْ نَفْسَهُ	أَنَّهُ مُوفٍ عَلَى قَرْنٍ زَوَالٍ
وَصُرُوفُ الدَّهْرِ لَا يَبْقَى لَهَا	وَلِمَا تَأْتِي بِهِ صُمُّ الْجِبَالِ
رُبُّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا	يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالمَاءِ الزَّلَالِ
وَالْأَبَارِيقُ عَلَيْهَا قَدَمٌ	وَجِيَادُ الْخَيْلِ تَرْدِي فِي الْجِلَالِ
عَمَرُوا دَهْرًا بِعَيْشٍ حَسَنِ	أَمْنَى دَهْرِهِمْ غَيْرَ عِجَالِ

(١) انظر : العربية ليوهان فك ٩٩ ، ٢٩١ : A Literary History of the Arabs

(٢) تاريخ الآداب العربية : ٧٨ .

ثم أضحوا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وكذلك الدَّهْرُ يُودَى بِالرُّجَالِ

وكذلك الدَّهْرُ يَرَى بِالْقَتَى في طِلَابِ الْعَيْشِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ^(١)

ويعلق نلينو على هذا الشعر قائلا : « فظاهر ما في هذا الشعر من مشابهة زهديات بعض الشعراء الإسلاميين لا سيما أبي العتاهية ، فليس من البعيد أن شعر عدى بن زيد ومن سلك منهجه من القدماء صار أنموذجا للمتأخرين في وصف فناء الأمور الدنيوية وذكر عواطف الزهد الناشئة عن اعتباره^(٢) » .

ولا أدري في الحقيقة كيف يمكن اعتبار مثل هذا الشعر شعراً في الزهد وهو لا يتضمن غير فكرة عابرة عن موت الناس وزوالهم بعد أن كانوا ، وملاحظة تغير الزمن ودورانه بالناس . وإذا افترضنا صحة الأبيات ورجعنا إلى شعر عدى لنستخرج ما يمكن أن يكون مشابهاً لها وجدنا له بيتين في صدر إحدى قصائده يقول فيهما :

لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى الْمَنُونِ بِبَاقٍ غَيْرَ وَجْهِ الْمُسَبِّحِ الْخَلَّاقِ

إِنْ نَكُنْ آمَنِينَ فَاجَانَا شَرُّ مُصِيبٍ ذَا الْوَدِّ وَالْإِشْفَاقِ

ونجد له أيضاً قصيدة تدور حول المعنى الذي أشرنا إليه ، والتي يقول فيها :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيَّرُ بِالدَّهْرِ أَنْتَ الْمُبَرِّأُ الْمَوْفُورُ

أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الْأَيَّامِ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورٌ

مَنْ رَأَيْتَ الْمَنُونَ خَلَّدَنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ

أَيْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمَلُوكِ أَنْوَ شُرَوَانَ أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ

وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكَرَامِ مَلُوكِ الرُّومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ

وَأَخُو الْحَضَرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَلَهُ تُجَبَّى إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ

شَادَهُ مَرَمَرًا وَجَلَّلَهُ كَلَسًا قَلِيلُطَيْرٍ مِنْ ذُرَاهُ وَكُورُ

لَمْ يَهَبْ رَيْبَ الْمَنُونَ فَبَادَ الْمَلِكُ عَنْهُ فَيَابَةُ مَهْجُورٍ^(٣)

(١) الأغاني ٢ : ١١٢ .

(٢) تاريخ الآداب العربية : ٧٤ .

(٣) الأغاني ٢ : ١٣٥ .

هذه هي الأمثلة التي نجدتها في شعر عدى بن زيد العبادي والتي يريد نلينو اعتباره من أجلها رائداً للشعر الزهدي في الأدب العربي ونموذجاً احتذاه أبو العتاهية وأضرابه ، مع أن المنطق العلمي لا يؤيد ذلك . فعدي بن زيد - كما هو واضح من شعره - لم يتعد فكرة زوال الناس وتغير الأزمان والأحوال ، وهذه الفكرة نجدتها عند أي شاعر قديم أو حديث لأنها فكرة عادية ساذجة لا تنبئ عليها فلسفة في الزهد ، وإن كان الشعراء الزهاد يستخدمونها ضمن أفكار كثيرة أخرى كوسيلة لتذكير الناس بما كان من أمر أسلافهم الذين بلغوا في الحياة أقصى ما يتمنون ، ثم طواهم الموت فكأنهم ما كانوا . وعلى النقيض من فكرة نلينو نجد شوقي ضيف يذهب إلى أن الزهد نشأ نشأة إسلامية خالصة فقد دعا إليه القرآن الكريم ودعت إليه السنة النبوية ، ولكنه في عهد الفتوح دخلته عناصر أجنبية كثيرة على رأسها عناصر مسيحية من تلك التي كانت في العراق والشام ومصر . وحركة الرهبنة في المسيحية وما يتصل بها من زهد معروفة ، وقد كان لها أثرها في اتساع هذه النزعة لا في وجودها ولا في تنشئتها ولكن في نموها وازدهارها^(١) .

وحين يتبع شوقي ضيف حركة الزهد في العصر الأموي يلاحظ أن أهم إقليم انتشرت فيه هذه الموجة هو إقليم العراق ، وأنه قد تأثر فيها بعناصر أجنبية حتى إننا نرى قتادة أحد زهاده ينقل عن التوراة ، كما نرى الشعبي أحد عباده ينقل عن عيسى ابن مريم . وهو يرجح أن يكون السبب في ذلك اتصال العراق بالرهبنة المسيحية^(٢) .

ويرى شوقي ضيف أيضاً أن حركة الزهد قد نشطت في العصر الأموي للأسباب التي ذكرها ، ونظراً لكثرة الحروب في عهدهم وما تجره الحروب دائماً من آثار تلجئ الناس إلى الزهادة ، ونظراً كذلك لظلم حكامهم وولاتهم ، ومع الظلم يشعر الناس بضرورة التجأهم إلى الله لينجيهم مما هم فيه ، وإلى الدين يستملكون منه الصبر وقوة الاحتمال . وقد دلل الكاتب على قوله بما لاحظته من وجود آثار قوية لحركة

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي : ٣٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٥ .

الزهد في الشعر الأموي حتى في شعر الفرزدق المشهور بفسقه^(١) . وهو يقول في موضع آخر : « لا نبالغ إذا قلنا إن كثيراً من صفحات الشعر الأموي طبع بطابع ديني ، ويضرب لذلك مثالا من شعر الطرماح ، إذ يقول :

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ عُدَّةَ الْعُمُرِ وَمُؤَدٍّ إِذَا انْقَضَى عَدَدُهُ
عَجَبًا مَا عَجِبْتُ لِلْجَامِعِ الْمَالِ يُبَاهِي بِهِ وَيَرْتَفِدُهُ
وَيُضِيعُ الَّذِي يَصْبِرُهُ اللَّهُ إِلَيْهِ فَلَيْسَ يَعْتَقِدُهُ
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الْمَخُولَ ذَا الثَّرْوَةِ خُلَاتُهُ وَلَا وَلَدُهُ
يَوْمَ يُؤْتَى بِهِ وَخَصْمَاهُ وَتَطَّ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ رِجْلُهُ وَيَدُهُ
خَاشِعَ الصَّوْتِ لَيْسَ يَنْفَعُهُ ثُمَّ أَمَانِيهِ وَلَا لَدَدُهُ
قُلْ لِبَاكِي الْأَمْوَاتِ لَا يَبْكُ لِلنَّاسِ وَلَا يَسْتَنْعِ بِهِ فَنَدُهُ
إِنَّمَا النَّاسُ مِثْلُ نَابِتَةِ الزَّرْعِ مَتَى يَأْنٍ يَأْتِ مُحْتَصِدُهُ^(٢)

ونحن في الحقيقة نلاحظ في هذه الأبيات أفكاراً جديدة في الزهد ، ما كان يستطيع أن يصل إليها شعر عدى وأضرابه . فانقضاء عمر الإنسان أمر مقرر حقاً ولكنه مرهون بإرادة الله ، وجامع المال المتكثر به ، والمتقوى بكثرة الولد يجب عليه أن يذكر يوم لا ينفعه المال أو البنون ، ولا يجزيه إلا عمله الصالح حيث تشهد عليه رجليه ويده . والموت حق على كل إنسان فالحياة لا بد أن تصل إلى غاية محددة تنهى عندها ، ولا بد للإنسان أن يتقبل هذه الحقيقة كسنة من سنن الوجود لا بد أن يخضع لها ولا يستهوها ، أو يخرج عند حدوثها ، والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . هذه هي الأفكار التي تضمنتها أبيات الطرماح – كما تستبين لنا – وهي تفرق افتراقاً واضحاً عن أبيات عدى بن زيد كما تتضح فيها العناصر الإسلامية وضوحاً تاماً . بل إن هذه الأفكار جميعها مأخوذة من آيات القرآن

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي : ٣٨ ونلاحظ أن أغلب أسباب نشاط حركة الزهد في القرن الأول قد سبق أن ذكرها نكلسون في كتابه (التصوف الإسلامي وتاريخه) وقد أثبتناهما في حديثنا عن التأثير الاجتماعي في الباب الأول .

(٢) المصدر نفسه : ٤٢ .

الكريم . ونحن وإن كنا نتفق مع شوقي ضيف في أكثر من موضع في حديثه عن نشأة الزهد وظهوره في الشعر الأموي ، إلا أننا نرى أن مثل هذه الأشعار التي ظهرت في القرن الأول ليست هي الشعر الزهدي الذي ظهر في القرن الثاني ، وأنها تختلف عنه اختلافاً جوهرياً لا يمكن التغاضي عنه ، بحيث يمكننا أن نعتبر هذا الشعر الذي توجد فيه عناصر من الزهد والتقوى والإيمان والذي ظهر في القرن الأول ، إرهاباً للشعر الزهدي الذي برز في القرن الثاني وكان اتجاهه جديداً من اتجاهات الشعر العربي .

وأول حقيقة ينبغي التنبيه إليها أن الزهد في القرن الثاني إنما هو مذهب له خصائص معينة وله أصول وعناصر يرتكز عليها ، وليس مجرد ميل فطري إلى الزهادة وتقوى الله ، أو حالة من حالات الإيمان يصورها الشاعر ، كما يصور أي شعور ينتابه أو يعرض له . إنه فكرة عميقة يعتنقها الشاعر فتتغلغل في كيانه ويتلبس بها شعره ، فلا يكاد يصور الشاعر سواها من أحاسيس النفس ، أو من الصور التي تقع تحت بصره ، ولا يكاد ينحرف عنها إلى غرض من أغراض الشعر التي يخوض فيها الشعراء أجمعون . والحقيقة إن الميل إلى الزهد في المجتمع الإسلامي تجلى في العراق منذ عهد الأمويين ، إذ كان مرتبطاً بالثورة على السلطة الحاكمة . وربما كان بدء ذلك في أيام عثمان بن عفان نفسه . وقد وجد في العراق منذ القرن الأول الهجري كثير من النساك الذين أطلق عليهم اسم (العباد) مثل معضد بن يزيد العجلي ، والربيع بن خثيم الكوفي . ويقول جولد زيهر إن انتشار الإسلام ، وخاصة في الشام والعراق ومصر أفسح للنفس المتعطشة هذا المجال الروحي ، وخاصة بعد أن تيسر لها اكتساب تجارب في هذا المجال من مخالطة المسيحيين^(١) . ويرى جولد زيهر في الوقت نفسه أن تأثير البوذية في حركة الزهد الإسلامي في القرن الثاني واضح كل الوضوح فيقول : « في القرن الثاني حينما بذل المترجمون جهوداً عظيمة في نقل الكتب الأعجمية لإغناء اللغة العربية ، نقلت بعض المؤلفات البوذية إلى الأدب العربي ، ومن ذلك ترجمة عربية معدلة لكتاب « بيلا وهر وبوداسف » وكذلك « كتاب البد » . وفي المجالس الخاصة للأدباء والمثقفين ، وهي مجالس كانت تجمع أفراداً يمثلون مللاً دينية متباينة يتبادلون

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام : ١٣١ .

الرأى فيها فى حرية وانطلاق ، لم تكن لتخلو ممن يعتق السمنية وهى نحلة بوذية من نحل الهند^(١) . ولهذا يرى ببولد زيهـر أن (الفكرة الدينية المسماة بالزهد التى صادفت الإسلام السنى ، والتى لا تتفق مع السمات المألوفة التى نعرفها فى التصوف الإسلامى تكشف عن آثار قوية تدل على تسرب المثل الأعلى للحياة عند الهنود إلى الإسلام^(٢)) .

والحقيقة إن ببولد زيهـر هو من أوائل الباحثين الذين لاحظوا تأثير العناصر الهندية فى حركة الزهد فى القرن الثانى^(٣) . أما تأثير العناصر المسيحية فقد لاحظته من قبل ثون كريمـر ، إذ قرر أن المسيحية أدت إلى نمو عناصر الزهد^(٤) . وكذلك بروكلمان فى حديثه عن أبى العتاهية^(٥) . ونكلسون فى حديثه عن نشأة التصوف^(٦) ونحن وإن كنا نؤمن بأن حركة الزهد فى المجتمع الإسلامى نشأت بدوافع إسلامية محضة وتحت ظروف موجودة بالفعل فى ذلك المجتمع ، إلا أننا لا نستبعد وجود تأثيرات مختلفة فى حركة الزهد مسيحية أو بوذية ، تسربت مع حركة التقاء الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية المتباينة . ومع ذلك فما أصدق « جيوم » إذ يقول : (وتساؤلنا إلى أى حد كان المتصوفة متأثرين بعوامل ودوافع خارجة عن الإسلام أمر لا أهمية له ، فالمؤكد أن الإسلام نفسه بعقيدته وصومه وذكره كان أساس حياتهم^(٧)) والواقع إن حركة الزهد التى ظهرت آثارها فى الشعر العربى فى القرن الثانى لم تكن متصلة بدوافع دينية فحسب كما يرى ثون بـجرونباوم^(٨) ، ولكنها كانت نتيجة دوافع مختلفة تحث على وجودها إلى جانب الدوافع الدينية . حقيقة إن الدافع الدينى كان

(١) العقيدة والشرية : ١٤١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٤٢ .

(٣) أوليرى لاحظ هذا التأثير أيضاً عند حديثه عن إبراهيم بن آدم ، وهو يقول إن سيرته كما وصلت إلينا تشبه سيرة غوتاما بوذا ويعمل ذلك بأن المسلمين قد وقفوا على هذه السيرة فى مرو حيث انتشرت الثقافة البوذية . (مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب : ١٩٨) .

(٤) الحضارة الإسلامية : ١٢٠ .

(٥) تاريخ آداب اللغة العربية (الترجمة العربية) ٢ : ٣٥ .

(٦) التصوف الإسلامى وتاريخه : ٣ .

(٧) الإسلام : ١٣٨ .

(٨) دراسات فى الأدب العربى : ٤٠ .

أساساً في حركة الزهد يتمثل في أولئك الذين اتقوا الله حق تقاته واستشعروا تفاهة هذه الحياة الدنيا فلم تشغلهم زخارفها وزينتها ، وعكفوا على أنفسهم يطهرونها من أدران الحياة المادية ، ويصفونها من شوائبها ، متطلعين إلى رى ظمئهم لله عن طريق التجربة الروحية الصافية ، لا عن طريق الاستدلال العقلي والبحث المنطقي المعقد^(١). وقد وجد أغلب أولئك النساك الذين أطلق عليهم اسم (العباد) في العراق كما ذكر جولدنزيهر ، وفي البصرة بالذات فيما يبدو لنا من استعراض أسماء المتصوفة. وقد أشار إلى ذلك « جب » حين أرجع أصول شعر أبي العتاهية إلى زهاد البصرة وواعظيها^(٢). وفي كتاب الفهرست لابن النديم وحلية الأولياء لأبي نعيم ، وصفة الصوفة لابن الجوزي ، وغيرها من الكتب التي اهتمت بذكر النساك والمتصوفة ، نجد عشرات من الأسماء الذائعة في الزهد والتصوف – ذكرنا بعضها في الحديث عن مجتمع القرن الثاني في الباب الأول – تصور لنا مدى أهمية تيار الزهد في هذا القرن الذي شهد تحول حركة الوعظ إلى زهد حقيقى ثم إلى تصوف وتجرد^(٣) كان أساساً لفرق الصوفية التي أتت بعد ذلك . فمئذ ظهر في أواخر القرن الأول الحسن البصرى وكان يتخذ مجلسه في مسجد البصرة ويلقى فيه مواعظه وحكمه وقصص الصالحين من عباد الله فتنعطف حوله القلوب المؤمنة ، حتى لربما استحال مجلسه إلى مجلس ذكر يتردد فيه ذكر الله في إيمان صادق وحرارة يقين . منذ ذلك الوقت اشتدت الحركة المضادة لتيار المحجون والزندقة فظهر عديد من الزهاد والمتنسكين الذين تجردوا لله وهجروا زخرف الدنيا ، على تفاوت بينهم في درجات الزهادة والانفصال الروحي عن الحياة المادية ، فنجد في القرن الثاني رياح بن عمرو القيسى الذي لم يكن يعرف غير البكاء والتهجد والتضرع والصراخ من أعماق الهاوية إلى الله ، ويرى دائماً هائماً بين المقابر ، حتى إذا جن الليل وضع في عنقه غلاً من حديد ثم أخذ يتضرع ويكي حتى الصباح^(٤) .

(١) يقول نيكلسون إن إدراك الصوفية الأولين المستول عليهم للخطيئة ، تصحبه الرهبة من يوم القيامة وعذاب النار ، تلك الرهبة التي صورت في القرآن تصويراً حياً دفعتهم إلى أن يجدوا في الهرب من الدنيا (الصوفية في الإسلام : ٤) .
(٢) (٤٣ : Arabic Literature, Introduction) .
(٣) يرى نيكلسون أن متصوفة القرن الثاني ظلوا على مذهب أهل السنة ملتزمين قواعد الشرع وأن تصوفهم لم تكن فيه صفات بارزة يمتاز بها ولا وجهة نظر خاصة ، بل هم وقفوا في منتصف الطريق بين الزهد والتصوف ، وربما كان أفضل وصف يعبر عن موقفهم هو وصفهم بالرضا . (في التصوف الإسلامى وتاريخه : ٧٠) .
(٤) شهيدة العشق الالهى : ٥ .

ولإبراهيم بن أدهم الذي كان يقول : (اخرج من الدنيا قبل أن يخرج منها)^(١) . ونجد كذلك من زهاد القرن الثاني ومتصوفيه أبا سليمان الداراني ، والقضيل ابن عياض ، وهيب بن الورد ، وعبد العزيز بن سليمان الراسبي الذي كان يطلق عليه اسم (سيد العابدين)^(٢) . ونجد أيضاً محمد بن سيرين ، وهرم بن حيان ، وعلقمة الأسود ، وإبراهيم النخعي ، ومحمد بن واسع ، وعطاء السلمي ، وسفيان الثوري ، وثابت البناني ، وإبراهيم التيمي ، وابن السماك ، وصالح المري ، ويحيى بن معاذ الرازي – وكان من العباد الزهاد المتجهدين كما يقول ابن النديم – وبشر بن الحارث الذي يقال له أيضاً بشر الحافي^(٣) ، وشقيق البلخي ، والحارث بن أسد المحاسبي وعشرات غيرهم من الزهاد والمتصوفين الصادقين^(٤) . بل نجد في هذا القرن أيضاً عدداً كبيراً من النساء الزاهدات القانتات اللائي تجردن لله وعكفن على العبادة والتهجد ، نجد منهن الزاهدة المشهورة رابعة العدوية ، كما نجد ربحانة ، وحبيونة ، ورابعة أو ربيعة الشامية ، وسلمونة ، وميمونة ، وأخوات بشر الحافي : مضغة ، مخة ، زبدة ، وغيرهن كثيرات^(٥) .

وما قاله جولد زيهر من أن المتصوفين قد بدأوا يرتبطون في جماعات شيئاً فشيئاً منذ عهد بعيد حوالي عام ١٥٠ هـ ، وذلك في منازل خاصة وصوامع منعزلة حيث يعيشون بعيداً عن جلبة الدنيا وضجيجها وفق مثلهم النفسية العليا^(٦) – حقيقة لا شك فيها ، فأول رباط صوفي أنشئ كان في حدود التاريخ الذي ذكره جولد زيهر في عبادان القريبة من البصرة حيث اجتمع في هذا الرباط تلامذة الزاهد الكبير عبد الواحد بن زيد وانقطعوا عن الحياة متجردين لعبادة الله والوصول إلى نهج الحق^(٧) . وقد مدح أبو العتاهية زهاد عبادان هؤلاء بأبيات مثبتة في ديوانه^(٨) .

(١) شهيدة العشق الإلهي : ١٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٤ .

(٣) أنظر طبقات الصوفية : ٣٤ .

(٤) أنظر : الفهرست لابن النديم ، حلية الأولياء لأبي نعيم ، وصفة الصفوة لابن الجوزي .

(٥) أنظر : صفوة الصفوة ٢ : ٢٩٤ .

(٦) العقيدة والشرعة : ١٤٥ .

(٧) شهيدة العشق الإلهي : ٣٢ .

(٨) ديوان أبي العتاهية : ٢١٨ .

ولكن هذا الدافع الديني الذي كان أساساً في حركة الزهد لم يكن وحده بطبيعة الحال ، بل لقد اختلط بعوامل سياسية واجتماعية وربما اقتصادية أيضاً . فمما لا شك فيه أن نشأة الأحزاب السياسية وتطاحنها المرير الذي شهده القرن الأول ، والذي امتد إلى القرن الثاني أيضاً ، كان من الأسباب التي دفعت عدداً من الناس إلى التماس النجاة بعيداً عن هذا الصراع السياسي ، فلم يجدوا موئلاً خيراً من الدين بلوذك به ويقصرون أنفسهم عليه . ثم كان لظهور الدولة العباسية التي تركزت على فكرة دينية أثر كبير في انتعاش الحركة المذهبية وظهور العقائد والنحل المختلفة ، وهنا شهد القرن الثاني صراعاً من نوع آخر دفع عدداً من المتقين إلى الاعتزال بعيداً عنه ، محافظة منهم على عناصر إيمانهم ، فكان ما رأينا أيضاً من نمو حركة الزهد وازدهارها في خلال القرن الثاني . وقد لاحظ قون جرونباوم أنه كان من نتائج قيام الدولة العباسية جيشان الشعور الديني ، ولهذا ثبتت للدين مكانته كموضوع ثابت من موضوعات القصيد الشعري ، إذ أصبح كل امرئ عند ذاك لا يستغنى زاده الروحي بأى حال عن قدر - وإن قل - من الورع والتقوى^(١) .

ولا شك أن التطور الاجتماعي الذي حدث في القرن الثاني كان له أثر خطير في تيار الزهد وتطوره . فشيوع تيار اللهو والمجون والزندقة ووجود فوارق واضحة بين الطبقات الاجتماعية في ذلك العصر ، كان لابد أن يوجد حركة عكسية مضادة تعكف على تقوى الله وتقصر نفسها على العبادة ، وتحتقر المال وزخرف الدنيا وزينتها . ولا شك أن الذي ساعد على وجود هذه الحركة المضادة ظهور طائفة القصاص في المجتمع الإسلامي الذين كانوا يقصون على الناس في المساجد أساطير الأولين ، وسير الأولياء والصالحين ، ويستخلصون منها العبر والعظات ليردوا إلى الناس عناصر إيمانهم في هذا المجتمع ، الذي زرع الشك أركانه والذي غزته المذاهب والنحل والآراء والثقافات الأجنبية ، والذي يحاول أعداؤه من الشعوبيين هدمه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ولهذا يقول كاتب دائرة المعارف الإسلامية إن فكرة الزهد اتسعت من عهد الحسن البصري ثم استقرت فيما بعد بين القرنين الثاني والثالث^(٢) . بل يرى نيكلسون أن الحسن البصري يمكن اعتباره مؤسساً لمدرسة البصرة

(١) حضارة الإسلام : ١٥٩ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) : مادة الزهد .

في الزهد والتصوف وأنه يعد في نظر الصوفية واحداً منهم ، وهم محقون في ذلك لأن لحسن البصري كان ينزع إلى حياة روحية خالصة في عبادته غير قانع بمجرد الصور الشكلية في أدائها^(١) .

ثم إننا نجد طوائف الزهاد الذين تحدثنا عنهم من قبل لم يمارسوا الزهد بطريقة نظرية فحسب تبعاً لميلهم الطبيعي ، ولكنهم بدأوا يجعلون منه علماً واسعاً ويؤلفون فيه الكتب التي تحدد طبيعته مثل « كتاب المريدين » الذي ألفه يحيى بن معاذ الرازي المتوفى عام ٢٠٦ هـ ، ومثل « كتاب الزهد » الذي ألفه بشر بن الحارث المتوفى عام ٢٢٧ هـ^(٢) .

ويقون نيكلسون إن أقوال بعض زهاد القرن الثاني في صميم التصوف النظري في معانيها وعباراتها ، مثل أقوال أبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي^(٣) .

ولم يكن الوضع الاقتصادي للجماعة الإسلامية بعيداً عن التأثير في حركة الزهد فالفرق الواضحة بين الطبقات الاجتماعية أوجدت طبقة فقيرة بائسة لم تكن تستطيع شيئاً إلا أن تقنع بالكفاف من الرزق معتصمة بتقوى الله . وربما كان سوء توزيع الثروة أوضح في البصرة منه في أي مكان آخر ، وهذا هو السر في كثرة الزهاد بها . ثم إن تدفق الثروة على طبقات معينة في المجتمع الإسلامي من التجارة أو من الفتوحات أو ما أشبه ، أشاع الترف والإباحة وطلب اللذة المحرمة في المجتمع كما بينا في الباب الأول . وفتح الباب على مصراعيه أمام الشهوات والإلحاد . ولهذا كان من الضروري أن توجد فئة تنعى على هذه الحياة الشاذة وترى مثلها الأعلى في الفضيلة الإنسانية ، وفي تجرد النفس من الشهوات ، والبعد عن مصادر الإغراء والفتنة .

ويرى محمد جابر عبد العال أن بعض الزنادقة من الغلاة الخطابية أو من غيرهم أخفوا أنفسهم تحت مظهر الزهد . وهو يظن أن تحول الأدب في بيئة الكوفة من المحبوس إلى الزهد كان من أثر السياسة العنيفة التي اتبعها العباسيون مع الزنادقة . ويقول في ذلك : (كان من أثر السياسة التي انتهجها بنو العباس أن اختفت في الكوفة تلك الصراحة التي جعلت الشاعر يلائم بين شعره ونفسه ، وأخذ الأدب يتلون ليرضى

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه : ٣ .

(٢) الفهرست ٢١٠ ، ٢١١ .

(٣) في التصوف الإسلامي وتاريخه : ٥ .

طبقة الحاكمين . . . وليس الأدب ثوب الخداع وانتقل من التعبير عن اللذة واقتحام الحرام إلى الدعوة إلى التقشف والزهد ، ولكنه تقشف وزهد لا يصوران نفساً أثرت الباقية على الفانية ، وإنما يصوران مذاهب اتخذت هذا اللون من الحياة لتخدع الناس عن حقيقة أمرها وما تبطن من بغض وكراهية للإسلام . . . وكان يحمل لواء هذا الأدب الخداع أبو العتاهية^(١) . وأعتقد أننا لسنا في حاجة لتبيان ما في هذا الكلام من مغالطة وغلو لأن الشعوبيين والزنادقة لم يتحرزوا قط من المجاهرة بمذهبهم وعقائدهم والإعلان عنها في شعرهم . ولم يكن لشدة العباسيين في تقصى الزنادقة وتعقبهم هذا التأثير الخطير الذي يتصوره الكاتب . ثم لماذا يلجأ الزنادقة إلى التهرب من الزندقة خشية القتل متخذين الزهد سبيلاً لهذا التهرب ؟ ألا يكفيهم التخلي عن المجاهرة بالزندقة أو المظاهرة بتقوى الله والتمشي مع عقيدة المسلم الصحيحة ؟ أما إن أبا العتاهية قد حمل لواء هذا النوع من الخداع فهذا ما سنتناوله فيما بعد بالتحليل والدرس .

وأخيراً فإن وجود تيار الزهد المضاد لتيار المجون في بيئة الكوفة وفي غيرها كان — كما ذكرنا من قبل — المنطق الطبيعي لتطور الأشياء . وهو ليس حدثاً غريباً يستدعى أن نتأول له بأنه كان تقية من السلطان أو ما أشبه . وقد سبق لنا أن بينا في الفصل الأول ظهور حركات اجتماعية هدفها إيقاف تيار اللهو والمجون والقضاء على أسباب الفتنة والحلاعة في المجتمع الإسلامي ، مثل حركة الدريوش وحركة سهل بن سلامة . ولعل أول شعر وصلنا يعبر عن اتجاه الزهد في القرن الثاني هي تلك المقطوعات الدينية العميقة التي شددت بها رابعة العدوية منذ أوائل هذا القرن . وهي مولاة آل عتيك ، ولدت في البصرة عام ٩٥ هـ فشهدت في هذه المدينة — وهي بعد طفلة — ألواناً من الصراع السياسي والمذهبي ، كما تأثرت حياتها بهذه الفوارق الاجتماعية الخطيرة التي كانت تفصل بين الطبقات في البصرة . ويقول الرواة إنها ولدت في أسرة فقيرة رقيقة الحال ، فذاقت الطفلة من مرارة الفقر الشيء الكثير ، ثم تقلبت بها الأحوال وجرفها تيار اللهو والمجون حيناً من الدهر ، حتى أفاقت روحها مما غشيها من إثم ، وتجلت تلك الصحوحة في اعتزالها الحياة والناس ، وعكوفها على نفسها تنشد

(١) حركات الشيعة المتطرفين : ١٢٨ .

الاتصال الروحي بالله . ولم تكن رابعة مجرد متنسكة زاهدة شأن(العباد) الذين تحدثنا عنهم ، ولكنها تعتبر من أوائل الصوفيين الذين اختاروا لحياتهم الشظف والحرمات ليظهروا نفوسهم من شوائب الحياة المادية فتصفو وتستجيب للاتصال الروحي بالمعشوق وهو الله^(١) .

ويقول عبد الرحمن بدوي : « إن رابعة تنتسب إلى الجيل الأول من الصوفية المسلمين الحقيقيين الذين أشاعوا في التصوف روحاً جديدة كل الجدة على التطور العام للحياة الروحية في الإسلام »^(٢) وقد حاول الباحث من خلال الكتابات المتناثرة التي وصلتنا عن رابعة ، والتي اختلطت إلى حد كبير بأخبار رابعة أخرى أو رابعة في بعض الأقوال وكانت زاهدة مقيمة في الشام - حاول أن يستخلص عناصر مذهبها الصوفي ، وقد تبين له أن هذا المذهب قد مر بتطورات كثيرة ، وأن الجديد فيه الذي ربما صار أساساً للصوفية فيما بعد ، هو التجرد والعزوبة^(٣) . وغاية ما وصلته الحياة الروحية عند رابعة بلوغها الذروة من التجريد والتسامي عن كل ما هو حسي ، كما يقول الكاتب نفسه^(٤) . ولا شك أنه كان من أسس مذهب رابعة الزهدى الاستغراق في حب الذات الإلهية ، وهو مبدأ ربما كان جديداً في التصوف ، ورابعة هي التي أحدثته ، وربما كان مقررأ عند جماعة الزهاد الذين عاصروا رابعة أو عاشوا قبلها بقليل . وعلى أية حال فقد كان واضحاً - شعر رابعة ذلك الحب الجارف القوي الذي يملك عليها زمام نفسها والذي كانت تكنه للذات الإلهية كما في قولها :

أُحِبُّكَ حُبِّينِ : حُبُّ الهوى	وَحُبًّا لَأَنَّكَ أَهْلٌ لِيذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الهوى	فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ	فَكَشْفُكَ لِلْحُجُبِ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي	وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ ^(٥)

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) : رابعة العدوية .

(٢) شهيدة العشق الإلهي : ١٠ .

(٣) شهيدة العشق الإلهي : ٥٩ .

(٤) المصدر نفسه : ٦٤ .

(٥) المصدر نفسه : ٨٧ .

ويجيء بعد رابعة العدوية في تاريخ الشعر الزهدي في القرن الثاني أبو العتاهية أو أبو الشعر الديني في الأدب العربي بحق . وأبو العتاهية لقب له غلب عليه ولكن اسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان وهو مولى عترة^(١) وليس عربي الأصل كما فهم بعض المستشرقين مثل هوار ونكلسون^(٢) . وربما كان اسم بلدته التي ولد فيها وهي (عين التمر) هو الذي أوحى لهم بعروبة أصله باعتبار أن عين التمر في الحجاز ، ولكنها على التحقيق اسم آخر لبلدة تقع في العراق بالقرب من الكوفة^(٣) . أما لقب أبي العتاهية فيقال إنه لصق به لأنه كان يحب الشهرة والمجون والتعته ، وعلى أية حال فإن نشأة أبي العتاهية في الكوفة ، وهي على ماصورتنا كانت مركزاً لتيار اللهو والمجون في المجتمع الإسلامي ، وفيها جماعات من الشعراء يتخذون المجون ديناً لهم وأساساً في حياتهم ، كل ذلك أثر في نفس أبي العتاهية ، وبخاصة لأنه كان من أسرة فقيرة دفعت به إلى الحياة العملية في وقت مبكر من حياته ليكسب قوته ، فاختار أن يبيع الفخار في الكوفة^(٤) .

ويبدو أن انغماس أبي العتاهية في الإثم بعد أن عاش فترة من حياته في هو ومجون وعبت ، قد جعل نفسه تعاف هذا النوع من الحياة ، تماماً كما حدث في نفس رابعة العدوية . ولا أشك في أن عناصر الإيمان وتقوى الله لا بد أنها كانت موجودة بصورة قوية في نفس كل منهما . بل في نفس كل زاهد تحيط به المؤثرات العنيفة والعوامل القوية فتجعله ينحرف إلى المجون واللهو . ولكنها تكون بمثابة غشاء رقيق يستر الإيمان العميق ولا يذهب ، به أو هي كالضباب تغشيه ولا تمحوه حتى إذا حانت لحظة الصحو — وتكون في الغالب إثر حادثة معينة ربما كانت تافهة إلى حد بعيد — ينقشع هذا الضباب ويزول الغشاء . وتبدو عناصر الإيمان راسخة قوية . قد زادت تجارب الحياة رسوخاً وقوة ، وعمقتها أحداث الزمان فصارت تتسع لنفس صاحبها بحيث يصبح جزءاً منها بعد أن كانت جزءاً منه . ويرى محمد خلف الله أن وراء زهد أبي العتاهية وتحوله من تيار اللهو والمجون إلى الإيمان وتقوى الله

(١) الأغاني ٤ : ١ .

(٢) A literary History of the Arabs : ٢٩٦ ، Litterture Arabe : ٧٤

(٣) انظر أمراء الشعر في العصر العباسي : ١١٣ .

(٤) الأغاني ٤ : ١ ، ٣ .

عاملين رئيسيين : أولهما : إحساسه الدفين بضعة أصله ونقصه ، وهذا الإحساس النفسى حمله على أن ينادى بأن التقوى هى العز والكرم كما فى قوله :

دَغْنِي مِنْ ذِكْرِ أَبٍ وَجَدْتُ وَنَسَبٍ يُعْلِيكَ سُورَ الْمَجْدِ
ما الْفَخْرُ إِلَّا فِي التُّقَى وَالزُّهْدِ وَطَاعَةٍ تُعْطَى جَنَّاتِ الْخُلْدِ^(١)

والعامل الثانى : حبه لعتبة الذى صهر مشاعره وكان بلا أمل فصار بذلك حرماناً جديداً أضيف إلى أسباب تنسكه ، ويرى خلف الله أن صدمته فى حبه لعتبة هى نقطة التحول الحقيقية فى حياته^(٢) .

ولم يكن هذان العاملان وحدهما هما السبب فى تنسك أبى العتاهية وزهادته ولكن اتصاله بالثقافات المختلفة فى عصره ، وبخاصة حركة الزهد التى بدأت تأخذ طريقها فى ذلك الوقت . كان له تأثير كبير فى تحوله . يقول خلف الله فى ذلك : (أبو العتاهية شهد حركة الزهد والتصوف الإسلامى فى مهدها ، فقبله بقليل عاش الحسن البصرى ، وفى أيامه عاش إبراهيم بن أدهم ، وشقيق البلخى ، ورابعة العدوية ، والفضيل بن عياض ، كما وجد فى ثقافات القرن الثانى من هندية ويونانية مدداً جديداً)^(٣) ثم ماذا كانت نتيجة ذلك كله ؟ كانت نتيجة ثورة نفسية قلبت حياة أبى العتاهية من النقيض إلى النقيض ، ثورة حملته من حياة لاهية ماجنة خبيثة إلى حياة زاهدة متنسكة طاهرة . وهذه الثورة حولت تيار شعره من الموضوعات التى كانت تتفق مع حياته الأولى إلى موضوع واحد لا يكاد يحيد عنه ، وهو تقوى الله والزهد فى الحياة الدنيا وما إلى ذلك . ولم تكن هذه الثورة فى نفس أبى العتاهية فحسب ، أى ثورة شخصية محدودة . ولكنها كانت أيضاً صدى ثورة أعم وأشمل ، أو كما وصفها خلف الله بقوله (إذا كان تنسكه ثورة نفسه على ماضيه فإنه كان كذلك صدى لثورة أوسع منبعثة من الجانب المتدين من المجتمع ضد الخلاعة والفجور ، وربما حاول الباحث أن يقرأ فيها رد فعل لغضب الطبقات الفقيرة المحرومة على الطبقات الغنية ، فهى فى هذا الفهم ثورة دينية اجتماعية اقتصادية أوحى بها

(١) ديوان أبى العتاهية : ٦٩ .

(٢) دراسات فى الأدب الإسلامى : ٨٥ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه : ٩٤ .

ضمير الفرد وضمير الجماعة وعبر عنها بيان الشاعر الشعبي أصدق تعبير (١).
ومما لا شك فيه أن أبا العتاهية كان لديه الاستعداد الفطري للزهد ، وأن فقره
وضعة أصله كانا من بين الدوافع القوية له على سلوك سبيل الزهادة ، كما لاحظ
خلف الله . وقد ظهر بالفعل أثر هذين العاملين في شعر أبي العتاهية بوضوح ،
فكان يردد دائماً أن الإنسان لا يجب أن يفخر بحسبه ونسبه وماله ، يقول :

لَا يَفْخَرُ النَّاسُ بِأَحْسَابِهِمْ فَإِنَّمَا النَّاسُ تُرَابٌ وَمَا
ويقول في موضع آخر :

وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى الْقُبُورِ فَمَا مَيَّزْتُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْمَوْلَى (٢)

أما فشله في حبه لعتبة الذي يشبهه أنيس المقدسي بفشل حب دانتى لبياتريس
الذي نشأت عنه الكوميديا الإلهية (٣) فلا شك أنه كان من العوامل القوية التي دفعته
إلى التنسك . وهو لا يصرح في شعره بهذا الفشل ولكننا نلمحه لحناً في مثل قوله :

تَزَاهَدْتُ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي لَرَاغِبٌ أَرَى رَغْبَتِي مَمْرُوجَةً بِزَهَادَتِي (٤)

وقد صدق أبو العتاهية في تصوير حالته بالضبط إذ طابق بين شعره وبين
ما حدث له أيام المأمون . إذ دخل عليه فحادثه ساعة ثم قال له : يا أبا إسحق في
قلبك من عتبة شيء ؟ قال : ذهب ذاك وخرج . قال : فبقيت منه باقية ؟ قال :
لا والله ! قال : فهذه والله عتبة . قال : فنظر إليها وخرج يعدو وترك نعليه (٥) .

ومما لا شك فيه أيضاً تأثر أبي العتاهية بثقافات عصره وبحركة الزهد التي عاصره ،
وبحركة الوعاظ والقصاص التي انتشرت في القرن الثاني ، حتى إن صاحبي قصة الأدب
في العالم يريان أن أبا العتاهية اتخذ شعره من منابع نثرية كوعاظ الحسن البصري (٦)
وهذا صحيح إلى حد ما وقد لاحظته الأقدمون أنفسهم ، فقد ذكروا أن أبا العتاهية
أخذ قوله :

(١) دراسات في الأدب الإسلامي : ٩٤

(٢) ديوان ابن العتاهية : ٤ .

(٣) أمراء الشعر في العصر العباسي : ١١٨ .

(٤) ديوان ابن العتاهية : ٥٠ .

(٥) كتاب بغداد : ١٨ (٦) قصة الأدب في العالم ١ : ٣٨٥ .

تَزِيدُهُ الْأَيَّامُ إِنْ أَقْبَلَتْ شِدَّةَ خَوْفٍ لِيَتَصَارِبَهَا
كَأَنَّهَا فِي حَالٍ إِسْعَافٍهَا تُسَمِّعُهُ أَوْقَاتُ تَخْوِيفِهَا
من قول الحسن البصري وقد سئل عن الدنيا : شغلني توقع بلائها عن الفرح
لرخائها^(١) .

كذلك قول أبي العتاهية :

أَبْقَيْتَ مَالَكَ مِيرَاثًا لِوَارِثِهِ فَلَيْتَ شِعْرِي مَا أَبْقَى لَكَ الْمَالَ
الْقَوْمُ بَعْدَكَ فِي حَالٍ تَسْرُهُمْ فَكَيْفَ بَعْدَهُمْ دَارَتْ بِكَ الْحَالُ
مَلُّوا الْبُكَاءَ فَمَا يَبْكِيكَ مِنْ أَحَدٍ وَاسْتَحْكَمِ الْقَبِيلَ فِي الْمِيرَاثِ وَالْقَالَ

مأخوذ فيما يروى عن الحسن البصري حيث يقول : (يا ابن آدم أنت أسير في
الدنيا راضيت من لذتها بما ينقضي ، ومن نعيمها بما يمضي . ومن ملكها بما ينفد ، فلا تجمع
الأوزار لنفسك ، ولا هلك الأموال ، فإذا امتحلت الأوزار لنفسك ولا هلك الأموال)^(٢)

أما تأثير الثقافة المسيحية في شعر أبي العتاهية فقد تناوله كارل بروكلمان في
حديثه عن الشاعر قائلاً إن أبا العتاهية مولع بافتتاح أبياته بلفظ أين « ولعل ذلك
راجع إلى تأثير وعاظ النصارى ، كما أنه ربما لم يكن من قبيل المصادفة أن تذكرنا
المعاني الشعرية في ديوانه بنظرات الشاعر السرياني يعقوب السروجي . وربما أخذ
كلاهما هذا المذهب من الوعاظ . وقد دل « رشر » Rescher في ترجمته الألمانية
لديوان أبي العتاهية على المعاني والأفكار النصرانية في زهدياته^(٣) .

والحقيقة إن صلة الزهد بالتأثيرات النصرانية موضوع لهج به المستشرقون لغرض
واضح في نفوسهم ، وهو محاولة إثبات أن العناصر الروحية في الإسلام إنما تتبع من
المسيحية . وقد سبق لنا أن بينا أننا لا نستبعد وجود تأثير هندي أو نصراني على تنمية
حركة الزهد بصفة عامة ، ولكننا ننفي أن يكون الزهد العربي نابعاً من هذه المؤثرات ،
والفرق كبير بين المعنيين . ثم إن هذه الدلائل التي يذكرها بروكلمان ليست قاطعة

(١) ديوان أبي العتاهية : ١٦٩ .

(٢) ديوان أبي العتاهية : ٢٣٧ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية (الترجمة العربية) ٢ : ٢٥ .

في الدلالة على ما يدعيه . فافتتاح القصائد بلفظ « أين » إنما يضاهي ما هو موجود في الآيات القرآنية التي تحكي لنا أساطير الأولين . كما أنه موجود في الشعر العربي قبل أبي العتاهية . ثم ما هي هذه المعاني التي نقلها أبو العتاهية عن يعقوب السروجي؟ إننا نرى أن شعر أبي العتاهية يعتمد غالباً على معان قرآنية، ربما ظهرت في صياغته لها بعض التأثيرات الفلسفية التي لا بد أن يكون قد تعرض لها في عصره .

ولعل مما يشبه هذه الناحية ما قاله جولد زيهر من أن أبا العتاهية قد تأثر بعناصر بوذية في شعره، وقد ناقشنا هذه الفكرة في حديثنا عن الزندقة، وأوضحنا أن الشعر الذي استدل به جولد زيهر على وجود هذا التأثير، إلى جانب قلته — فهو لا يتعدى بيتين — لا نكاد نلمح فيهما هذا التأثير . وما قلناه بالنسبة للثقافة المسيحية نقوله أيضاً عن الثقافة البوذية . فالتأثير الهندي ربما نمت تيار الزهد العربي ولكنه لم يوجد ، ولم يكن له منبعاً ومصدراً . ونحن لا نذكر وجود تأثير هندي في ثقافة القرن الثاني وقد أوضحنا ذلك من قبل ، ولكن لا بأس أن نخصص حديثنا في هذا الموضع عن التأثير البوذي . فما ذكره جولد زيهر من ترجمة بعض المؤلفات البوذية إلى اللغة العربية مثل « كتاب البد » وكتاب « بيلاوهر وبوداسف » صحيح لا شك فيه، إذ ذكرهما غير ابن النديم . وابن النديم يصرح في كتابه أن « بوداسف » هو نبي السمنية^(١) . ومن الواضح أن بوداسف إنما هو بوذا نفسه . ونفهم من كلام ابن النديم أيضاً أن المقصود بكلمة « البد » هو تمثال بوذا^(٢) .

ولم تقتصر ترجمة الكتب الهندية الدينية على ترجمة هذين الكتابين فقط ، بل يذكر ابن النديم كتباً أخرى كثيرة منها « كتاب بوداسف » مفرداً ، وكتاب « أدب الهند والصين » وكتاب « هایل في الحكمة » و « كتاب الهند في قصة هبوط آدم عليه السلام » و « كتاب حدود منطق الهند » و « كتاب ساديرم » و « كتاب ييدبا في الحكمة »^(٣) .

ويذكر لنا ابن النديم في موضع آخر أنه رأى كتاباً « فيه ملل الهند وأديانها » وأن الذي أمر بترجمته يحيى بن خالد البرمكي^(٤) . وواضح من هذه الكتب جميعاً

(١) الفهرست : ٤٨٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٨٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٢٤ .

(٤) المصدر نفسه : ٤٨٤ .

التي نقلت تراث الهند الديني إلى اللغة العربية أنها كانت تمثل تياراً ثقافياً هاماً في القرن الثاني ، لا أعتقد أن أبا العتاهية قد أغضى عنه بصورة ما .

ويميل خلف الله إلى تلمس مصادر زهد أبي العتاهية في جداول الحياة الإسلامية العربية المشتركة ، أي أنه يرد مصادره إلى القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الزهاد والعباد الذين عاصروهم ، ولكنه مع ذلك يرى أن بعض أفكار أبي العتاهية في الزهد لا تطابق موقف الإسلام^(١) .

أما أنيس المقدسي فيرى أن أبا العتاهية يعكس لنا روح الشرق الدينية بصفة عامة ، وأساس انطباع هذه الروح : احتقار الحياة الدنيا وتعظيم الآخرة^(٢) .

وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل كانت لأبي العتاهية فلسفة خاصة في زهده ؟ وما هو المحور الذي دار حوله شعره ؟

إن نكلسون يرى أن شعر أبي العتاهية فلسفي في شخصيته ، وأنه لا يمكن أن يكون كله شعراً دينياً بالمعنى الإسلامي ، بل يمكن اعتباره بعضه فقط الذي ردد فيه معاني البعث والحياة الثانية^(٣) . ومن الواضح أن نكلسون إنما يعبر في هذا عن رأي المستشرقين الذي سبق أن فندناه ، لأن الغرض الذي يرمى إليه هو أن النواحي الإسلامية في شعر أبي العتاهية هي أقل ما فيه ، والنواحي النصرانية والبوذية هي الأكثر والأغلب ، فهو بذلك يساير أفكار المستشرقين عامة بالنسبة لشعر أبي العتاهية . ولهذا نجد « ويسترب » أيضاً يصف شعر أبي العتاهية بأنه فلسفي^(٤) . وبينما نجد أنيس المقدسي يقرر أن أبا العتاهية لا يحمل رسالة جديدة ولا يضع مبادئ فلسفية خاصة ، وأن شعره يعكس الروح الشرقية القديمة التي تحتقر الدنيا وتنظر إليها كمر زائل لحياة عليا^(٥) نجد خلف الله يستخلص من شعر أبي العتاهية فكرتين أساسيتين :

الأولى : زوال الدنيا وغرورها وباطلها .

والثانية : هول الموت ووحشة القبر وبشاعة الفناء .

(١) دراسات في الأدب الإسلامي : ٩٨ .

(٢) أمراء الشعر في العصر العباسي : ١١٩ .

(٣) A literary History of The Arabs : ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) : مادة أبي العتاهية

(٥) أمراء الشعر في العصر العباسي : ١٢٢ .

ويلاحظ الباحث أن الفكرة الأولى عادية موجودة في القرآن وأقوال الزهاد ، أما الثانية فموقف الشاعر فيها غريب ، لأنه في تصوير الموت يقف موقف الساخط المتشائم الذي يكره الموت والبلى ولكن أين المفر ؟ ويقرر الباحث أن هذا الموقف لا يطابق موقف الإسلام الذي يحبب الناس إلى لقاء ربهم^(١) .

والحقيقة التي أستخلصها من شعر أبي العتاهية أن مدار شعره هو الإنسان : الإنسان من حيث سعيه الملح في الحياة الدنيا ، يستكثر من الولد ، ويجمع المال ، ويشيد الدور والمصانع ، ويقبل على الشهوات وملذات الحياة ، ويقع في الخطايا ، ثم ماذا ؟ إنه يموت وبصبح كأنه ما كان ، ويتساوى في التراب مع العبيد وعامة الناس ، ولهذا — وهنا يأتي الجانب التعليمي في شعر أبي العتاهية — ينصح الشاعر إخوانه في الإنسانية أن يتعظوا وأن يرقوا بعقولهم إلى مستوى الأحداث ، فالحياة ليست حلواً خالصاً ولكنها ممزوجة بعلقم ، وهي شيء موقوت له نهاية ، وأن هذه النهاية بشعة . ولهذا كله ينبغي نبذ الحرص على زخرفها وزينتها ، ولا بد من الرفق وحسن الخلق ولين الطبع والتسامح في معاملة الناس ، وأن القناعة كثر لا يفنى ، وخلاص النفس من شرها يكون في رضاها بواقع حالها .

هذا إذن مدار شعر أبي العتاهية ، وهذا هو الجانب التعليمي فيه ، وفيما يلي نماذج من أبياته الدالة على ما أقول ، فهو يصور سعي الإنسان الذي يعقبه الموت فيقول :

تَرَقَّ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى أَىْ غَايَةٍ سَمَوْتَ إِلَيْهَا فَالْمَنَابَا وَرَاعَهَا^(٢)

ويقول :

فِيَا عَجَبًا تَمُوتُ وَأَنْتَ تَبْنِي وَتَتَّخِذُ الْمَصَانِعَ وَالْقِيَابَا^(٣)

ويخاطب المستقبل على الحياة فيصدمه بسوء المصير في قصيدته التي أولها :

أَيَا مَنْ بَيْنَ بَاطِيَةٍ وَدَنٍّ وَعُودٍ فِي يَدَيَّ غَاوٍ مُغْنٍ^(٤)

(١) دراسات في الأدب الإسلامي : ٩٥

(٢) ديوان أبي العتاهية : ١٠ .

(٣) المصدر نفسه : ١٤ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٥٤ .

وما فائدة الطعام المترف :

أنافس في طيب الطعام وكُلُّهُ سَوَاءٌ إِذَا مَا جَاوَزَ اللُّهُوَاتِ^(١)

ثم يصور انقلاب الحياة فيقول :

كم راتِعٍ في رِياضِ العَيْشِ تُنْعِبُهُ مِنْهُنَّ دَاهِيَهُ تَرْتَجُّ دَهْيَا^(٢)

ويقول في هذا المعنى :

فلا تَعَشِقِ الدُّنْيَا أُخَى فَإِنَّمَا يُرَى عَاشِقُ الدُّنْيَا بِجُهْدِ بَلَاءِ

حلاوتُها مَمْرُوجَةٌ بِمَرَارَةٍ وَرَاحَتُهَا مَمْرُوجَةٌ بِعَنَاءِ^(٣)

ويقول أيضا :

مَا يَكُونُ العَيْشُ حُلُوءًا كُلُّهُ إِنَّمَا العَيْشُ سُهولٌ وَحُزُونٌ^(٤)

أما الحياة الدنيا ، فما شأنها ؟ إنها :

دَارُ الفَجَائِعِ وَالهُمُومِ وَدَارُ البُؤْسِ والأَحْزَانِ وَالشَّكْوَى^(٥)

وأين راح — إلا إلى الموت والقضاء — كل من عاشوا قبلنا ؟ فالموت لا يترك أحداً

من حقير ووزير :

وَذَوو المَنَابِرِ والعَسَاكِرِ والدُّسَاكِرِ والحَضَائِرِ والمَدَائِنِ والقُرَى

وَذَوو المَوَاكِبِ وَالكَتَائِبِ وَالنَّجَائِبِ وَالمَرَاتِبِ وَالمَنَاصِبِ فِي العُلَى^(٦)

ولهذا يجب على المرء القناعة والزهد لتخلص روحه من قيد الحياة العادية الحقيرة :

وَالنَّفْسُ فِي طَلَبِ الْخَلَاصِ وَمَالِهَا مِنْ مَخْلَصٍ حَتَّى تَصِيرَ إِلَى الرِّضَا

شَرُّ أَيَّامِي هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي أَقْبَلُ الدُّنْيَا بِدِينِي عِوَضًا^(٧)

(١) ديوان أبي العتاهية : ٤٦ .

(٢) المصدر نفسه : ١ .

(٣) ديوان أبي العتاهية : ٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٦٨ .

(٥) المصدر نفسه : ٨ .

(٦) المصدر نفسه : ٥ .

(٧) المصدر نفسه : ١٣٩ .

أما الناحية التعليمية التي أوضحنا أهميتها في شعر أبي العتاهية فهي منتشرة في ديوانه في مثل قوله :

إِيَّاكَ أَنْ تَأْمَنَ الزَّمَانَ فَمَا زَالَ عَلَيْنَا الزَّمَانُ يَنْقَلِبُ
إِيَّاكَ وَالظُّلْمَ إِنَّهُ ظَلَمَ إِيَّاكَ وَالظَّنَّ إِنَّهُ كَذَبٌ^(١)

ونجده في شعره التعليمي هذا يحض على الفضائل وينهى عن الرذائل ، فهو يطلب إلى المرء الرفق في المعاملة وحسن الخلق ، ولين الطبع ، ومسالمة الناس والمؤاخاة ، وطلب المحامد ، ومصادقة العقلاء^(٢) إلى غير ذلك من هذه الفضائل التي تحض عليها آداب الإسلام . ويرى خلف الله أن أبا العتاهية في شعره التعليمي أخلاقى مسلم خالص^(٣) .

وواضح من عناصر شعر أبي العتاهية الزهدى أن التشاؤم يظله بروحه الكثيرة . وقد صدق خلف الله في إدراكه أن هذه الناحية لا تطابق الإسلام لأن نتيجة الخضوع لما يطلبه أبو العتاهية في مثل قوله :

فِيَا عَجَبًا تَمُوتُ وَأَنْتَ تَبْتِئُ وَتَسْتَحِذُ الْمَصَانِعَ وَالْقَبَابِ

تكون توقفاً تاماً عن السعى في الحياة الدنيا والتعمير وإقامة المصانع وإظهار النشاط في مختلف الميادين . والإسلام إنما يزين لمتبعيه العمل والسعى والكفاح في سبيل الحياة كأن الإنسان يعيش أبداً ، في الوقت الذي يحضه فيه على تقوى الله وطاعته وكأنه يموت غداً . ولكننا مع ذلك لا نجرؤ على القول أن هذه الناحية في شعر أبي العتاهية جاءت من مصادر أجنبية ، ولكنها على العكس من ذلك إسلامية محضة نشأت مع حركة التصوف التي بدأت في هذا القرن ، وكانت من آثار عنف حركة الزهد العكسية التي خالفت تيار اللهو والمجون ، ثم أصبحت فيما بعد فكرة شائعة عند المتصوفة أدت إلى التوكل في المجتمع الإسلامي ، وخاصة بسبب اقترانها بالجبرية عند المتصوفة ، ومنهم — في رأينا — أبو العتاهية . وقد ظهرت في شعره أيضاً إذ يقول :

(١) ديوان أبي العتاهية : ١٧ .

(٢) المصدر نفسه : ١٧١ .

(٣) دراسات في الأدب الإسلامي : ١٠٣ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ يَقْضِي مَا يَشَاءُ وَلَا يُقْضَى عَلَيْهِ وَمَا لِلْخَلْقِ مَا شَاءُوا
لَمْ يُخْلَقِ الْخَلْقُ إِلَّا لِلْفَنَاءِ مَعًا تَفَنَّى وَتَبَقَّى أَحَادِيثُ وَأَسْمَاءُ^(١)

ويقول كاتب مادة الزهد في دائرة المعارف الإسلامية إن المحاسبي توسع في هذه الفكرة حتى أصبح التعويل على زهد النفس بترك الأغراض والشهوات يؤدي إلى فكرة التوكل^(٢). ويبدو أن هذه الفكرة قد عاجلها زهاد آخرون قبل المحاسبي لأن صاحب فوات الوفيات يقول عن شقيق البلخي المتوفى عام ١٩٤ هـ إن له كلاماً معروفاً في التوكل^(٣).

وما دمننا قد بينا عناصر زهد أبي العتاهية يحق لنا أن نتساءل : هل كانت حياة أبي العتاهية مطابقة لشعره ؟ إن محمد جابر عبد العال — كما سبق أن ذكرنا — يعتبره زنديقاً متخفياً في ثياب الزهاد، وهذا ما نرفضه رفضاً باتاً مستنديين إلى ما قدمنا من دواع وأسباب. أما برائق فيقول : (ما كان شعره في الزهد لله وفي الله ، ولكنه طريق سلكه في شعره لإظهار الحسرة والأسى على حبيبته عتبة)^(٤). وقد يكون فشله في حب عتبة أحد الدوافع له على التزهد — كما ذكرنا — أما أن يكون التزهد وسيلة للتعبير عن فقدان الشاعر لحب عتبة فهذا ما لا أظنه قط . ويقول الباحث في موضع آخر إن أبا العتاهية (تزهد لا حباً في التزهد ولكنه رجل شاعر سلك بشعره هذا المسلك لأنه زعم أن له خيراً فيه)^(٥) والباحث يريد أن يثبت بهذا أن زهد أبي العتاهية لم يكن مذهباً له في حياته ولكنه كان مذهباً شعرياً فحسب ، ولا أدري كيف يوجد الخير في هذا المذهب الشعري المتعلق بالزهد ؟

وشبيه بهذا الرأي ما قاله عبد الله الطيب المجذوب من أن أبا العتاهية (قد وقع في وهم أن الأناقة التي يتكلفها أصحابه مرجعها إلى جزالة اللفظ وقوته . وقد أتى هنا من جهة شعوبيته وزندقته ، ولو كان نظر بمنظار دقيق لكان أدرك أن أناقة أبي نواس وبشار وأضرابهما ليس مصدرها طلب الجزالة وإنما طلب الزخرف في اللفظ . ولا أنكر

(١) ديوان أبي العتاهية : ١ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية .

(٣) فوات الوفيات ١ : ٢٤٠ .

(٤) أبو العتاهية : ٣١ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٤ .

أنه قد تنبه إلى ناحية الزخرف عند معاصريه شيئاً ما ، ولكنه حسب أن تقيضها هو التعبير عن الموت والزهد ، مع أن تقيضها هو طلب البساطة والوضوح في العبارة بغض النظر عن الموضوع . . . أما ناحية النفاق في أبي العتاهية فتبدو في أنه كان يعيش عيشة مخالفة لدعواه ، ثم إنه لم يكن يتعدى في نصائحه الزهدية الأشياء المعروفة التي عبر عنها الحسن البصري والمتصوفة فيما بعد تعبيراً أدق وأعمق وأوسع (١) .

ولا أدري كيف يكون رد أبي العتاهية على الناحية الشكلية في شعر معاصريه باختيار موضوع جديد هو موضوع الزهد ، فهذا خلط بين طبيعة الأشياء ، ثم إننا سوف نثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن أسلوب أبي العتاهية لم يكن طلب زخرف اللفظ ، ولكنه كان طبعاً شعبياً سيالاً جارفاً لا يقدر على صنعة إلا شاعر له مثل طبعه الشعري .

أما أنيس المقدسي فيرى أيضاً أن حياة أبي العتاهية لم تكن مطابقة لشعره ، وهذا وجه الضعف في رسالته (إنه قام ينشد أناشيد الدين دون أن يتفنن في تطبيقها على الحياة العملية (٢) . وهو يحصر عناصر الشك في زهد أبي العتاهية في أسباب ثلاثة : سيرته الأولى الماجنة ، حرصه على المال ، تبرم الناس من الوعظ والإنذار (٣) .

ولا أدري كيف يكون هذا السبب الأخير عنصراً للشك في زهد أبي العتاهية . أما حرصه على المال فقد ذكرته المصادر المختلفة ، ويحكى لنا طيفور أن المأمون كان يبعث إلى أم جعفر في كل سنة من ضرب السنة دنانير ودرهم ، فكانت تصل أبا العتاهية منها ، فجاء أبو العتاهية إلى مسلم بن سعدان كاتب أم جعفر فأعطاه رقعة وسأله أن يرفعها إلى أم جعفر وفيها :

زَعَمُوا لِي أَنَّ مِنْ ضَرْبِ السَّنَةِ جُدُّدًا بَيْضًا وَصُفْرًا حَسَنَةً

سِكِّكَ قَدْ أُحْدِثْتُ لَمْ أَرَهَا مِثْلَ مَا كُنْتُ أَرَى كُلَّ سَنَةٍ (٤)

فكيف يتفق هذا مع ما يدعو إليه من تقشف وقناعة وزهد ؟ إن خلف الله

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب ٢ : ١٦٧ .

(٢) أمراء الشعر في العصر العباسي : ١٢٢ .

(٣) المصدر نفسه : ١١٨ .

(٤) كتاب بغداد : ١٦٠ .

وجد تفسيراً لهذا التناقض فقال إن أبا العتاهية يبدو لنا إنساناً بما تستلزمه الإنسانية من مظاهر النقص والكمال ، وإن زهده ليس فيه شطحات ولكنه قريب من واقع الحياة اليومية ، لا يمنع صاحبه أن يعيش وأن يجمع المال^(١) . ونحن من جانبنا نؤيد هذا المفهوم تأييداً تاماً ، فأبو العتاهية شاعر زاهد حقاً ، بل إن فيه - كما ذكرت - عناصر صوفية واضحة ، وهو بعد أن تاب وقطع صلته بحياته اللاهية العابثة ولبس الصوف ، لم يتسفل ولم يترك فريضة من فرائض الدين أو الخلق ، بل إنه كان يؤدي - كما نفهم من أخباره - فريضتين من فرائض المتصوفة هما : التهجد وقيام الليل ، وتذكر الموت في كل حين . وهاتان الناحيتان كانتا وسيلة التعبد عند رابعة العدوية^(٢) .

أما حرصه على المال أو تعلقه بعتبة فهو بقية حبه للدنيا ، ودليل إنسانيته وصدقه في نزعتة ، وإلا لما عبر عن ذلك بصراحة في قوله الذي ذكرناه من قبل :

تزاهدت في الدنيا وإني لراغب أرى رغبتى ممزوجة بزهادتى
وأما الذين أنكروا عليه بقية حبه للدنيا من الكتاب المحدثين فما شأنهم في ذلك
إلا شأن الشاعر المعاصر لأبي العتاهية الذي هجاه فلم يجد ما يقوله إلا هذه الفكرة
فقال :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بيته المسجد^(٣)

أما من شك في أمر أبي العتاهية لإقباله على مدح الخلفاء مع أن هذا ليس من طبيعة الزاهد ، فإننا نرد عليه بأن أبا العتاهية كانت تخالجه هذه الثورة على المديح ووقوفه بباب الخلفاء وقد عبر عن هذا الشعور بقوله :

إن الملوك بلاء حيثما حلوا فلا يكن لك في أكنافهم ظل
ماذا ترجى يقوم إن هم غضبوا جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا

(١) دراسات في الأدب الإسلامي : ١٠١ : ١٠٢ .

(٢) شهيدة العشق الإلهي : ٢٩ .

(٣) الأغاني ٤ : ٧٦ .

وإن نَصَحْتَ لَهُمْ ظَنُّوكَ تَخَذَعُهُمْ واستثقلوك كما يُستثقل الكلُّ
 فاستغنِ بالله عن أبوابهم كَرَمًا إنَّ الوقوفَ على أبوابهم ذُلٌّ^(١)
 وكم كان يتشوق أبو العتاهية إلى حياة الزهد الحقيقية التي هي عبارة عن :

رَغِيفٌ خُبْزٌ يَابِسٌ تَأْكُلُهُ فِي زَاوِيَةٍ
 وَكُوْزٌ مَاءٌ بَارِدٌ تَشْرِبُهُ مِنْ صَافِيَةٍ
 زُغْرَفَةٌ ضَيِّقَةٌ نَفْسُكَ فِيهَا خَالِيَةٌ
 أَوْ مَسْجِدٌ بِمَعْرَلٍ عَنِ الْوَرَى فِي نَاحِيَةٍ^(٢)

ولكن الحياة المادية وطبيعته الإنسانية كانت تشده بعيداً عما يريد . وعلى أية حال إن كان أبو العتاهية في نظر الباحثين لم يصدق مع نفسه في زهده، فهاذا يفسرون صدقه مع الخلفاء، وخاصة حين يتخذ منهم موقفاً إيجابياً ويبصرهم ببؤس الرعية وهوان أمرها وكساد مالها وانحطاط قدرتها على الشراء كما في قصيدته :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِ الْإِمَامِ نَصَائِحًا مُتَوَالِيَةً
 إِنِّي أَرَى الْأَسْعَارَ أَسْعَارَ الرِّعْيَةِ غَالِيَةً
 وَأَرَى الْمَكَاسِبَ نَزْرَةً وَأَرَى الضَّرُورَةَ فَاشِيَةً
 وَأَرَى هُمُومَ الدَّهْرِ رَائِحَةً تَمُرُّ وَغَادِيَةً
 وَأَرَى الْمَرَضِعَ فِيهِ عَنْ أَوْلَادِهَا مُتَجَافِيَةً
 وَأَرَى الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلَ فِي الْبُيُوتِ الْخَالِيَةِ^(٣)

أليست هذه شجاعة أدبية عظيمة لا تصدر إلا عن زاهد واعظ حقيقي يعتمد على ناحية إيجابية في زهادته ؟ ولعل مما يعزز — إلى حد ما — صدق زهادة أبي العتاهية أن ابنه محمداً^(٤) قد حذا طريقة أبيه في القول في الزهد — كما يقول الخطيب البغدادي — فكان محمد بن أبي العتاهية ناسكاً زاهداً معروفاً في عصره، وهو الذي يقول :

(١) ديوان أبي العتاهية : ٣٦٦ .

(٢) ديوان أبي العتاهية : ٣٠٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٠٦ .

(٤) يسميه ابن المعتز العتاهية بن أبي العتاهية (انظر : طبقات الشعراء : ٢٦٤) .

قد أَفْلَحَ السَّاكِتُ الصَّمُوتُ كلامٌ واعي الكلامِ قُوتُ
ما كُلُّ نُطْقٍ لَهُ جَوَابُ جوابٌ ما يكرهُ السُّكُوتُ
يا عَجَبِي لَامَرِي ظُلُومِ مُسْتَيْقِنٌ أَنَّهُ يَمُوتُ^(١)

ويروى له ابن المعتز أبياتاً أخرى في الزهد قائلا عنه إنه (كان صحيح الدين ورعاً وكان محمود السيرة حسن الصفة) وما رواه له قوله :

أَرَاكَ شَيْبٌ فِي السَّوَادِ يَلُوحُ يَبْتُ بِأَسْبَابِ الْبَلَى وَيَبُوحُ
وما شَيْبٌ إِلَّا لِلْخُطُوبِ وَمَرُّهَا لَعَمْرُكَ تَغْدُو مَرَّةً وَتَرَوْحُ
تَمُرُّ خُطُوبٌ مُفَصِّحَاتٍ بِنُطْقِهَا فَتَزُورُ أَحْيَانًا وَهَنَ جُنُوحُ
وَكَمْ جَسَدٍ يَهْتَزُّ بِالْخَفَضِ نَاعِمًا سَيُصْبِحُ مَفْقُودًا وَيَذْهَبُ رُوحُ
تَغَيَّرْتُ عَنْ عَهْدِ الشَّبَابِ وَطِيبِهِ وَكَانَ وَطِيبُ الْعَيْشِ مِنْهُ يَفُوحُ
إِذَا شِئْتَ فَاسْتَدْعِ الْمَشِيبَ خِضَابَهُ فَرَأْسُكَ يَبْكِي لِلْبَلَى وَيَنُوحُ^(٢)

ولكن يبدو أن ابن أبي العتاهية لم يكن متفرغاً للشعر ، إذ كان فقيهاً كما نخبرنا ابن المعتز . ولهذا لم يهتم الرواة بتسجيل شعره كله لتبين منه إن كانت له فلسفة خاصة في الزهد ، أم هي أفكار عامة في تقوى الله والتذكير بالآخرة يرددها في شعره .

ومن الزهاد الذين نجد لهم شعراً الفضيل بن عياض وقد أورد له ابن الجوزي قوله :
بَلَغْتَ الثَّمَانِينَ أَوْ جَزْتُهَا فَمَاذَا أُوْمَلُّ أَوْ أَنْتَظَرُ
أَتَى لِي ثَمَانُونَ مِنْ مَوْلَدِي وَبَعْدَ الثَّمَانِينَ مَا يُنْتَظَرُ
عَلَنِي السُّنُونُ فَأَبْلَيْتُ شَيْدِ

وهنا خنفته العبرة فأتم البيت أحد الجالسين قائلا :

فَرَقَّتْ عِظَامِي وَكَلَّ الْبَصَرُ^(٣)

والزاهد المعروف بشر بن الحارث كانت له أشعار أيضا ، منها قوله :

(١) تاريخ بغداد ٢ : ٣٤ ، ٣٥ ، طبقات ابن المعتز : ٣٦٥ .

(٢) طبقات الشعراء : ٣٦٥ .

(٣) صفة الصفوة ٢ : ١٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ٢ : ١٨٩ .

قَطَعُ اللَّيَالِي مَعَ الْأَيَّامِ فِي خَلَقَ وَالنُّوْمُ تَحْتَ رُواقِ الْهَمِّ وَالْقَلَقِ
أَحْرَى وَأَعْدِرْ لِي مَنْ أَنْ يُقَالَ غَدًا إِنْ التَّمَسْتُ الْغِنَى مِنْ كَفِّ مَخْتَلِقِ
قَالُوا قَنَعْتُ بِذَا قَلْتُ الْقَنُوعُ غِنَى لَيْسَ الْغِنَى كَثْرَةُ الْأَمْوَالِ وَالْوَرَقِ
رَضِيتُ بِاللَّهِ فِي عُسْرِي وَفِي يُسْرِي فَلَسْتُ أَسْأَلُكَ إِلَّا أَوْضَحَ الطَّرِيقَ^(١)

ومن شعراء الزهد في القرن الثاني أيضا محمد بن كناسة وهو ابن أخت الزاهد المشهور وأول المتصوفة إبراهيم بن أدهم . وابن كناسة من الكوفة (كان امرأ صالحاً لا يتصدى لمذح ولا لهجاء) كما يقول الأصفهاني^(٢) . وكان من الواضح أن مجان الكوفة يحاولون إغراءه بالاشتراك في تيار لهُوم لُوجُومهم ، ولكنه ترفع عن حياتهم واعتصم بقوى إيمانه وأظهر زهده في تلك الحياة الآثمة قائلا :

تَوَنَّبَنِي أَنْ صُنْتُ عِرْضِي عِصَابَةً لَهَا بَيْنَ أَطْنَابِ اللَّثَامِ بِصِيصُ
يَقُولُونَ لَوْ غَمَّضْتَ لَزِدْتَ رِفْعَةً فَقُلْتُ لَهُمْ إِنْ إِذْنُ لَحَرِيصُ
أَتَكَلِّمُ وَجْهِي لَا أَبَا لِأَبِيكُمْ مَطَامِعُ عَنْهَا لِلْكَرَامِ مَحِيصُ
مَعَاشِي دَوَيْنَ الْقُوتِ وَالْعِرْضُ وَافِرُ وَبَطْنِي عَنْ جَدْوَى اللَّثَامِ خَمِيصُ
سَأَلَنِي الْمَنَايَا لَمْ أَخَالِطْ دَنِيَّةً وَلَمْ تَسْرِ بِِي فِي الْمُخْزِيَّاتِ قُلُوصُ^(٣)

ومن الشعراء الزهاد أيضا محمود بن الحسن الوراق وكان - كما يبدو من شعره الذي وصلنا - مكثرًا من القول في الزهد شأنه شأن أبي العتاهية والشعراء الزهاد الآخرين الذين نذكرهم في هذا الفصل . ومن قوله في الحلم وهو ينظر فيه إلى قوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) قوله :

رَجَعْتُ عَلَى السَّفِيهِ بِفَضْلِ حِلْمِي فَكَانَ الْحِلْمُ عَنْهُ لَهُ لِحَامًا
وَضَنُّ بِي السَّفَاهَةِ فَلَمْ يُجِرْنِي أَسَافِهِهُ وَقُلْتُ لَهُ سَلَامًا
فَقَامَ يَجْرُ رِجْلِيهِ ذَلِيلًا وَقَدْ كَسَبَ الْمَذَلَّةَ وَالْمَلَامًا
وَفَضْلُ الْحِلْمِ أَبْلَغُ فِي سَفِيهِ وَأَحْرَى أَنْ تَنَالَ بِهِ انتِقَامًا^(٤)

(٢) الأغاني ١٣ : ٢٢٧ .

(٤) تاريخ بغداد ١٣ : ٨٧ .

(١) صفة الصفوة ٢ : ١٨٩ .

(٣) الأغاني ١٣ : ٣٤٠ .

وتظهر عند الوراق جبرية المتصوفة وتوكلهم الذي أشرنا إلى وجوده عند أبي
العتاهية ، وذلك في قوله :

كَبُرَ الْكَبِيرُ عَنِ الْأَدَبِ أَدَبُ الْكَبِيرِ مِنَ التَّعَبِ
حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى هَذَا التَّمَادِي فِي اللَّعِبِ
وَالرِّزْقُ لَوْ لَمْ تَأْتِهِ لِأَنَّكَ عَفْوًا مِنْ كَثَبِ
إِنْ نِمْتَ عَنْهُ لَمْ يَنْمَ حَتَّى يُحَرِّكَ السَّبَبُ^(١)

ومن شعره التعليمي — وهو ناحية هامة ضرورية موجودة عند الزهاد جميعا —
تلك القصيدة التي يحض فيها على الصبر والتجمل لمصائب الدهر ، يقول :

يُمَثِّلُ ذُو الْحَزْمِ فِي نَفْسِهِ مَصَائِبُهُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَا
فَإِنْ نَزَلَتْ بَغْتَةً لَمْ تَرُعْهُ لِمَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مَثَلَا
رَأَى الْهَمَّ يُفْضِي إِلَى آخِرٍ فَصِيرٌ آخِرُهُ أَوَّلَا
وَذُو الْجَهْلِ يَأْمَنُ أَيَّامَهُ وَيَنْسِي مَصَارِعَ مَنْ قَدْ خَلَا
فَإِنْ بَدَّهَتْهُ صُرُوفُ الزَّمَانِ بِبَعْضِ مَصَائِبِهِ أَعْوَلَا
وَلَوْ قَدَّمَ الْحَزْمُ فِي نَفْسِهِ لَعَلَّمَهُ الصَّبْرُ عِنْدَ الْبَلَا^(٢)

ويظهر أن الوراق كان من طلاب اللهو والفتك قبل أن يتزهد ، ونحن نفهم
ذلك من رواية لابن المعتز في أخبار أبي الشبل الشاعر الكوفي^(٣) . ويبدو أيضا أن
ثقافته كانت واسعة وأنه كان يستخدمها جيداً في شعره . وقد سبق لنا أن أشرنا إلى
تفسيره لآية قرآنية بالشعر ، والمبرد يذكر له بيتين يستخدم فيهما القياس والمنطق
ليسكت الذين يدعون حب الله وهم يعصونه ، يقول :

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا مَحَالٌ فِي الْقِيَّاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لَنْ يُحِبَّ مُطِيعُ

(١) تاريخ بغداد : ١٣ : ٨٨ .

(٢) طبقات ابن المعتز : ٣٦٨ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٨٠ .

ومن المتزهدين الذين ظهوروا في نهاية القرن الثاني وأوائل الثالث محمد بن يسير - وهو من البصرة - وقد وصلنا شعر له ينم على حبه للعلم وقراءة الكتب والأنس بها ، كما وصلنا شعر له يدل على تنسكه وزهادته ، ويحس الإنسان إزاءه أنه يعبر بالفعل عن اتجاه حياته ومذهبه في تلك الدنيا . ومن شعره الذي يذكر فيه الموت قوله :

وَيْلٌ لِّمَنْ لَمْ يَرْحَمْ اللَّهُ وَمَنْ تَكُونُ النَّارُ مَثْوَاهُ
يَا حَسْرَتِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مَضَى يَذْكُرُنِي الْمَوْتُ وَأَنْسَاهُ
مَنْ طَالَ فِي الدُّنْيَا بِهِ عُمُرُهُ وَعَاشَ فَالْمَوْتُ قُصَارَاهُ
كَأَنَّهُ قَدْ قِيلَ فِي مَجْلِسٍ قَدْ كُنْتُ آتِيهِ وَأَغْشَاهُ
سَارَ الْيَسِيرِيُّ إِلَى رَبِّهِ يَرْحَمُنَا اللَّهُ وَإِيَّاهُ^(١)

ويبدو أن فكرة الموت كانت تعذب محمد بن يسير وتثير شجونه وتدفعه إلى التمسك بعري التقوى والدين ، ولكننا لا نلمح في شعره هذا التصوير البشع للموت الذي نجده عند أبي العتاهية ، يقول :

أَيُّ صَفْوٍ إِلَّا إِلَى تَكْدِيرٍ وَنَعِيمٍ إِلَّا إِلَى تَغْيِيرٍ
وُسُورٍ وَلَذَّةٍ وَحُبُورٍ لَيْسَ رَهْنًا لَنَا بَيُّومٍ عَسِيرٍ
عَجَبًا لِي وَمَنْ رِضَايَ بَدُنِيَا أَنَا فِيهَا عَلَى شَفَا تَغْرِيرٍ
عَالَمٌ لَا أَشْكُ أَنِّي إِلَى اللَّهِ إِذَا مِتُّ أَوْ عَذَابِ السَّعِيرِ
ثُمَّ أَلْهُو وَلَسْتُ أَدْرِي إِلَى أَيِّهِمَا بَعْدَهُ يَصِيرُ مَصِيرِي
أَيُّ يَوْمٍ عَلَى أَفْطَحٍ مِنْ يَوْمٍ بِهِ تُبْرِزُ النُّعَاةُ سَرِيرِي
كَلِمَا مَرُّ بِي عَلَى أَهْلِي نَادٍ كُنْتُ حِينًا بِهِمْ كَثِيرَ الْمُرُورِ
قِيلَ مَنْ ذَا عَلَى سَرِيرِ الْمَنَابِيَا قِيلَ هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ يَسِيرٍ^(٢)

(١) الكامل للمبرد : ٢٢٥ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٢٣ .

أما الناحية التعليمية في شعر محمد بن يسير فلم نجد له فيها إلا أبياتاً ثلاثة يتحدث فيها عن صاحب السوء ويطلب اجتناب خلقه قائلاً :

وصاحب السوء كالداء العياء إذا ما أرفض في الخد يجرى من هنا وهنا
يُبدي ويُخبر عن عوراء صاحبه وما يرى عنده من صالح دَفنا
فإن يكن ذا فكن عنه بِمَعزلة أومات هذا فلا تشهد له خَبنا^(١)
ولم يفارق ابن يسير بلدته البصرة قط ، ولا وفد إلى خليفة ولا شريف منتجعاً
كما يقول الأصفهاني ، ومع ذلك فهو يذكر أنه (كان ماجناً هجاء خبيثاً)^(٢) .
وصفة المحبون ثم الهجاء الخبيث لا يتفقان مع الزهد ولا مع هذا الشعر الذي
قدمناه لابن يسير ، ولعل الأصفهاني كان يقصد بعبارة أن ابن يسير كان كذلك
في مطلع حياته قبل أن يتنسك ويتجه إلى الزهد ، ولعله كان يقصد أن ابن يسير متردد
في حياته بين الزهد والمجون ، وإلى هذا الرأي ذهب طه الحاجري إذ صورته في صورة
الرجل القلق الذي يجد حيناً ويهزل أحياناً ، والذي كان يقبل على التبيد كما يقبل
على الكتب^(٣) . وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أبياتاً لابن يسير في المجون
كما ذكر له أبياتاً في الزهادة والتنسك^(٤) ، وذكره أيضاً في عداد البخلاء^(٥) .
ونستظهر من هذا كله أن ابن يسير كان رجلاً يحب العلم ويتخذ الزهادة مذهباً في
حياته ، ولكنه لا يقيم عليه شأن المترهدين المتقطعين .

والشاعر سعيد بن وهب مولى بني سامة بن لؤي كان من أهل البصرة ، وكان
خليعاً ماجناً في أول أمره ، أكثر القول في الغزل والخمر كما يقول الخطيب البغدادي^(٦)
بل كان مشغولاً بالغلمان والشراب كما يقول الأصفهاني^(٧) ، ولكنه ما لبث أن تاب
ونسك ، وانطلق إلى الحج سائراً على قدميه ليكفر عما ارتكب من آثام ومعاص ،
فحكى بذلك فعل أكثر زهاد عصره كإبراهيم بن أدهم ورابعة العلوية أيضاً فيما تذكر

(١) طبقات ابن المعتز : ٢٨٣ .

(٢) الأغاني ١٤ : ١٧ .

(٣) انظر : البخلاء بتحقيق الحاجري : ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٤) البيان والتبيين ٣ : ٨٧ ، ١٢٧ .

(٥) البخلاء : ١٨١ .

(٦) تاريخ بغداد ٩ : ٧٣ .

(٧) الأغاني ٢٠ : ٦٩ .

الأخبار، إذ سعيًا إلى الحج مشيًا على الأقدام . ولسعيد شعر في رحلة توبته تلك يقول فيه :

قَدَمَيَّ اعْتَوَرَا رَمْلَ الْكَثِيبِ وَاطْرُقَا الْآجِنَ مِنْ مَاءِ الْقَلِيبِ
رُبَّ يَوْمٍ رُحْتُمَا فِيهِ عَلَى زَهْرَةِ الدُّنْيَا فِي وَادٍ خَصِيبِ
وَسَمَاعٍ حَسَنِ مِنْ حَسَنِ صَخْبِ الْمِزْهَرِ كَالظُّبَى الرَّبِيبِ
فَاحْسِبَا ذَاكَ بِهَذَا وَاضْبِرَا وَخُذَا مِنْ كُلِّ فَنٍّ بِنَصِيبِ
إِنَّمَا أَمْشَى لِأَنِّي مُذْنِبٌ فَلَعَلَّ اللَّهَ يَغْفِرَ عَن ذُنُوبِي^(١)

ومن الذين نسكوا أيضا بعد مجون وتهتك آدم بن عبد العزيز ، ولكن شعره الذي وصلنا لا يصور إلا حياته المأجنة ، ولم يهتم الأصفهاني أو الخطيب البغدادي بذكر أشعاره في فترة نسكه ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنه تنسك بعد ما عمر كما كما يقول الأصفهاني^(٢) .

وكلثوم بن عمرو العتابي شاعر من قنسرين كان - كما يقول الخطيب البغدادي - (يتجنب غشيان السلطان قناعة وتنزهها ، وصيانة وتقززا ، وكان يلبس الصوف ويظهر الزهد)^(٣) . وكان مذهبه فيما يبدو معروفاً بين الشعراء من معاصريه حتى إننا نجد في أخبار منصور العمري أنه كان (مجله ويعظمه لقناعته وديانته)^(٤) . ولم يكن العتابي شاعرا فحسب ، ولكنه كان كاتباً مجيداً فيما يقول الرواة ، ومما كتبه إلى أبي يوسف القاضي : (أما بعد فخفف الله الذي أنعم عليك بتلاوة كتابه ، واحذر أن يكون لسانك عدة للفتنة ، وعملك رداءاً للمعتدين ، فإن أئمة الجور إنما يكيئون الصالحين باستصحاب أهل العلم)^(٥) والذي وصلنا من شعر العتابي لا يدل على مذهبه إنما هي بضعة أبيات في المدح لا تكاد تجلو لنا شيئاً من شعره .

والشاعر عبد الله بن المبارك - وهو من خراسان - (له الأبيات بعد الأبيات

(١) تاريخ بغداد ٩ : ٧٤ .

(٢) الأغاني ١٤ : ٥٨ ، تاريخ بغداد ٧ : ٢٥ .

(٣) تاريخ بغداد ١٢ : ٤٨٨ .

(٤) طبقات ابن المعتز : ٢٤٢ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٦٢ .

(٦) الورقة : ١٤ .

في الزهد وذم الدنيا دون غير هذا الصنف من الشعر (كما يقول ابن داود الجراح ^(١)) .
ومن أشعاره التي وصلتنا قوله يذم انغماس الخلفاء في اللهو :

أرى أناساً بأذني الدين قد قنعوا ولا أراهم رَضَوْا بِالْعَيْشِ بالدُّنُونِ
فاستغن بالدين عن دُنْيَا المُلُوكِ كما استغنى المُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ الدِّينِ ^(٢)
ومن شعره أيضاً قوله في الذنوب :

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُحَيِّتُ الْقُلُوبَ وَيَخْتَرِمُ الْعَقْلَ إِدْمَانُهَا
يَبِيعُ الْفَتَى نَفْسَهُ فِي رِذَاهِ وَأَسْلَمَ لِلنَّفْسِ عَصِيَانُهَا ^(٣)

وصاحب (حلية الأولياء) يجعل عبد الله بن المبارك من الزهاد الورعين الذين عرفوا بالتجرد للعبادة، وهو يذكر له أبياتاً في الناحية التعليمية من الزهد يقول فيها :

الصَّمْتُ أَزْيَنُ بِالْفَتَى مِنْ مَنَطِقٍ فِي غَيْرِ حِينِهِ
وَالصَّدْقُ أَجْمَلُ بِالْفَتَى فِي الْقَوْلِ عِنْدِي مِنْ بِمِينِهِ
وعلى الفتي بوقاره سِمةٌ تَلُوحُ عَلَى جَبِينِهِ ^(٤) .إلخ

والشاعر يحيى بن المبارك اليزيدي لم يعرف عنه هو ولا مجون ، بل كان عفيفاً تقياً كما يقول ابن المعتز ^(٥) . ولكنه مدح الرشيد والبرامكة وبعض ذوى السلطان . فأبت نفسه الزاهدة أن يموت ومثل هذا الشعر منسوب إليه ، ولهذا أحرق شعره كله ما عدا المواعظ والزهديات ^(٦) . ويروى ابن المعتز عن محمد بن الأشعث المكي أنه قال : قدم علينا اليزيدي مكة في رجب ، فأقبل على العبادة والاجتهاد والصوم والصدقة . وكان أصحابنا من أهل الأدب يجتمعون له ليؤانسوه فيقول : ما شيء أحب إليّ من مشاهدتكم ومحادثتكم ، ولكن هذا بلد يتقرب فيه إلى الله بالأعمال الصالحة ، وإنما أقيم شهراً أو شهرين ثم أنصرف إلى بلدي . فإن رأيتم ألا تجروا في مجلس رفقاء ولا خنا ولا هجاء في شعر ولا غيره فافعلوا ^(٧) .

(١) الورقة : ١٤ .

(٢) المصدر نفسه : ١٤ .

(٣) المصدر نفسه : ١٥ وتوجد رواية أخرى لهذين البيتين ضمن أبيات أخرى في حلية الأولياء

٨ : ٢٧٩ .

(٤) انظر : حلية الأولياء ٨ : ١٧٠ .

(٥) طبقات الشعراء : ٢٧٣ .

(٦) الورقة : ٢٧ .

(٧) طبقات الشعراء : ٢٧٥ .

ومن شعر اليزيدى فى الزهد قوله :

رُبُّ مَغْمُومٍ بِعَافِيَةٍ غَمَطَ النُّعْمَاءَ مِنْ أَشْرَةٍ
وَأَمْرٍ طَالَتْ سَلَامَتُهُ فَرَمَاهُ الدَّهْرُ مِنْ غَيْرَةٍ
بِإِسْهَامٍ غَيْرِ مُشْوِيَةٍ نَقَضَتْ مِنْهُ عُرَى مِرَّةٍ
وَكَذَاكَ الدَّهْرُ مُنْقَلِبٌ بِالْفَتَى حَالِينَ فِي عُصْرَةٍ
يَخْلِطُ الْعُصْرَ بِمَيْسَرَةٍ وَيَسَارُ الْمَرْءُ فِي عُصْرَةٍ^(١)

وابن الحجازة شاعر يذكره الخطيب البغدادي ويقول إن له شعراً كثيراً فى الزهد والرقائق والتذكير بالموت والمواعظ^(٢) ولكنه للأسف لا يذكر لنا شيئاً من هذا الشعر ولا نجد ذكراً لصاحبه فى المصادر الأخرى .

وكذلك يذكر الأصفهاني شاعراً من شعراء الزهد كان « يتدين ويتصون » اسمه سلمة بن عياش ولا يذكر لنا شيئاً من شعره^(٣) . ولعله هو نفسه الذى ذكره ابن الجوزى باسم أبى بكر بن عياش وكان من زهاد الكوفة المشهورين^(٤) .

والشاعر عمرو بن المغيرة الصيرفى الكوفى أو كما يسمى « بهلول المجنون » كان أحد عقلاء المجانين ، وكان معاصراً لهارون الرشيد . وقد توفى عام ١٩٠ هـ وينسب إليه كثير من الشعر فى الأخلاق والزهد، ويقال إنه كان يعظ الرشيد ويرفض عطاءه . كما يروى أنه تعرض للرشيد فى أثناء مروره بالكوفة فى طريقه للحج فقال له :

هَبْ أَنْكَ قَدْ مَلَكَتِ الْأَرْضَ طُرّاً ودانَ لَكَ الْبِلَادُ فَكَانَ مَاذَا ؟
أَلَيْسَ غَدًا مَصِيرُكَ جَوْفَ تَرْبٍ وَيَعْخُشُو التُّرْبَ هَذَا ثُمَّ هَذَا ؟^(٥)

ومن شعره فى الزهد قوله :

يَا مَنْ تَمَتَّعَ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَلَا تَنَامُ عَنِ اللَّذَاتِ عَيْنَاهُ

(١) طبقات الشعراء المحدثين : ٢٧٣ .

(٢) تاريخ بغداد ٥ : ٤٢٥ .

(٣) الأغاني ٢٠ : ٨٤ .

(٤) صفة الصفوة ٣ : ٩٦ .

(٥) انظر : دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) : مادة بهلول ، صفة الصفوة ٢ : ٩٠^٢

(٦) فوات الوفيات ١ : ١٠٥ .

شَغَلْتَ نَفْسَكَ فِيمَا لَسْتَ تُدْرِكُهُ تقولُ اللهُ ماذا حينَ تَلْقَاهُ^(١)
ومن شعره الذى يكشف لنا عن زهادته الحقيقية وتسامحه النبيل ، ما قاله حين
رماه بعض الصبية بالحصى فأدمته حصاة :

حَسْبِيَ اللهُ تَوَكَّلْتُ عَلَيْهِ مَنْ نَوَّاصِي الْخَلْقِ طُرًّا بِيَدَيْهِ
ليس للهَارِبِ فِي مَهْرِبِهِ أَبَدًا مِنْ رَاحَةٍ إِلَّا إِلَيْهِ
رَبُّ رَامٍ لِي بِأَحْجَارِ الْأَذَى لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ الْعَطْفِ عَلَيْهِ^(٢)

وابن الجوزى يجعل فى كتابه فصلا عن عقلاء المجانين يذكر لنا فيه غير بهلول
كثيرين ، أهمهم سعدون المجنون الذى يقال إنه صام ستين سنة حتى خف دماغه ومن
شعره :

يا طَالِبَ الْعِلْمِ هَهُنَا وَهَهُنَا وَمُعَدِّنُ الْعِلْمِ بَيْنَ جَنْبَيْكََا
إِنْ كُنْتَ تَبْغَى الْجِنَانَ تَدْخُلُهَا فَأَذْرِفِ الدَّمْعَ فَوْقَ خَدَيْكََا
وَقُمْ إِذَا قَامَ كُلُّ مُجْتَهِدٍ وَادْعُ لِكَيْمَا يَقُولُ لَبَّيْكََا
ومن شعره أيضا :

تَرَكَتُ النَّبِيذَ لِأَهْلِ النَّبِيذِ وَأَصْبَحْتُ أَشْرَبَ مَاءٍ قَرَّاحَا
لَأَنَّ النَّبِيذَ يُذِلُّ الْعَزِيزَ وَيَكْسُو الْوُجُوهُ النَّضَارَ الصُّبَا
فَإِنْ كَانَ ذَا جَائِزًا لِلشَّبَابِ فَمَا الْعُذْرُ فِيهِ إِذَا الشَّيْبُ لَاحَا^(٣)
ونجد غير هذه الكثرة من شعراء الزهد فى القرن الثانى شواعر مترهدات مثل
رابعة العدوية ، وصلتنا بعض أخبارهن وأشعارهن . ومنهن ريحانة التى ذكرت
لإبراهيم بن أدهم فخرج إلى الأبله لبراها ، فإذا بجارية سوداء قد أثر البكاء فى
خديها خطأ ، فذاكرها شيئا من أمر الآخرة فأنشأت تقول :

مَنْ كَانَ رَاكِبَ يَوْمٍ لَيْسَ بِأَمْنُهُ وَلَيْلَهُ تَائِهًا فِي عَتَبِ دُنْيَاهُ
فَكَيْفَ يَلْتَنِدُ عَيْشًا لَا بَطِيبُ لَهُ وَكَيْفَ تَعْرِفُ طَعْمَ الْغَمِّ عَيْنَاهُ

(٢) المصدر نفسه .

(١) فوات الوفيات ١ : ١٠٥ .

(٣) صفة الصفوة ٢ : ٢٨٨ - ٢٩٠ .

ومن شعرها أيضا في كراهية الدنيا :

وما عاشقُ الدنيا بناجٍ مِنَ الرَّدَى ولا خارجٌ مِنْهَا بغيرِ غَلِيلٍ
فكم مَلِكٌ قد صَفَرَ المَوْتَ بَيْنَهُ وأُخْرِجَ مِنْ ظِلٍّ عَلَيْهِ ظَلِيلٍ
ويبدو أنها كانت تسير في نفس اتجاه الحب الإلهي الذي سارت فيه رابعة
العلوية ويتضح ذلك في قولها :

حَسْبُ المُحِبِّ مِنَ الحَبِيبِ بعلمِهِ أَنَّ المُحِبَّ ببابِهِ مَطْرُوحُ
والقلبُ فِيهِ إِنَّ تَنَفَّسَ في الدُّجَى بِسِهامِ لوعاتِ الهَوَى مَجْرُوحُ
كما يتضح أيضا في قولها وهي تنشد الجنة لوجود الذات الإلهية فيها :

بِوَجْهِكَ لَا تُعَذِّبْنِي فَإِنِّي أُوْمَلُّ أَنْ أَفُوزَ بِخَيْرِ دَارٍ (١)
مَنْجَدَةٌ مَزْحَرَقَةٌ العَلَالَى بِهَا المَأْوَى وَنِعْمَ هِيَ القَرَارُ
وَأَنْتَ مُجَاوِرُ الأَبْرَارِ فِيهَا وَلَوْلَا أَنْتَ مَا طَابَ المَزَارُ
ومن شعرها التعليمي الذي كان جزءاً من مذهب الصوفية والزهاد كما ذكرنا،
قولها :

تَعَوَّدَ	سَهَرَ	اللَّيْلَ	فَإِنَّ	النَّوْمَ	خُسْرَانُ
وَلَا	تَرْكَنْ	إِلَى	الذَّنْبِ	فَإِنَّ	الذَّنْبَ
فَكُنْ	لِللَّوْحِي	دَرَأَا	وَالْقُرْآنَ	أَخْدَانُ	
إِذَا	مَا	الَّيْلَ	فَاجَاهُمْ	فَهُمْ	فِي
يَمِيلُونَ	كَمَا	مَالَ	مِنْ	الأَرْيَاحِ	أَغْصَانُ (٢)

وحياة المتزهدة من شواعر العشق الإلهي أيضا في القرن الثاني وهي تقول حين
آذتها الشمس :

إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّنِي بِكَ وَالِهُ فَاصْرِفْ سُمُومَ الشَّمْسِ عَنِّي سَيِّدِي

(١) في البيت إقواء .

(٢) انظر : شهيدة العشق الإلهي : ١١٣ ، ١١٤ .

وتقول أيضا :

يا ذا الذى وَعَدَ الرُّضَا لِحَبِيبِهِ أَنْتَ الذى مَا لَنْ سِوَاكَ أُرِيدُ^(١)
وميمونة الشاعرة كانت من عقلاء المجانين أيضا وقد عاشت فى القرن الثانى ،
وهى من المتزهديات المتنسكات حتى لتعد من الصوفية ، ومن شعرها قولها فى المكاشفة ،
وفيه إشارة أيضا للخمر الرمزية عند المتصوفة :

قلوبُ العارفينَ لها عُيُونُ ترى مالا يَرَاهُ الناظرونَا
وَألسنةُ بِسِرٍّ قد تَنَاجَى تَغِيبُ عَنِ الكرامِ الكَاتِبِينَا
وأجنحةُ تطيرُ بِغَيْرِ رِيَشٍ إِلَى مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينَا
فَتَسْقِيهَا شَرَابَ الصُّدُقِ صِرْفًا وَتَشْرَبُ مِنْ كُتُوسِ الْعَارِفِينَا^(٢)

وفى عدا هؤلاء الشعراء والشواعر الزهاد فى القرن الثانى نجد تيار الزهد يمتد إلى
شعراء آخرين لم يعرفوا بالزهد قط ، بل ربما كانوا إلى المجون والزندقة والتهتك والإباحة
أقرب وألصق ، ولكن هذا التيار الزهدى ربما ظهر عندهم فى فترات صحو كانت
تنتابهم - وهذا ما اعتقده - وهو يفسر وجود شعر فى الزهد لشاعر كأبى نواس
عددناه من أكبر المجان فى القرن الثانى ، وكانت شكوك الزندقة تحوم من حوله .
وهذا الشعر لا يخلو من نظرات جدية وعواطف دينية وأفكار زهدية حقيقية وتأملات
فى الحياة والموت قد تكون سطحية أو عميقة . ولعل شعر أبى نواس الزهدى يمثل
هذا الاتجاه خير تمثيل . وقد توقف الباحث على الزبيدى فى تلك المجموعة من
أشعار الزهد التى تنسب إلى أبى نواس وهو يقول فى ذلك : (لقد كان أبو نواس
ماجنًا سكيرًا ، وكان شعره من خير ما نظم فى فنون المجون والخمر ، فكيف يمكن
أن ينظم فى الزهد ، زد على هذا أن كثيرا من شعره يدل على استهتاره بالدين
واستخفافه بالفقهاء والعلماء . ألا يجوز أن تكون زهدياته من صنع بعض الزهاد
بقصد اختلاق الأمثال للعبرة وقوة التأثير ، كأنى بهم يقولون : انظروا إلى هذا الفاسق
الذى كان سادراً فى غيه ، كيف ندم ندماً شديداً وانقلب تائباً يستغفر الله ويعلن

(١) شهيدة العشق الإلهى : ١١٥ .

(٢) المصدر نفسه : ١١٧ .

أسفه وخوفه من العقاب^(١) وهذا الشك الذي يخالجه الزبيدي لا أعتقد أن له ما يبرره . فمن غير المعقول أن يلفق الزهاد الشعر ويلفقوا هذه المجموعة من الأخبار والروايات التي تحفل بها كتب الأدب ، والتي تشير من قريب أو من بعيد إلى أشعار أبي نواس في الزهد . ثم ما هو الشيء الغريب في ظهور مثل هذه الأشعار منسوبة إلى أبي نواس ؟ ألم يكن تيار الزهد قوياً جارفاً في القرن الثاني كما بينا ؟ ألم يوجد شعراء ماجنون أشد مجوناً من أبي نواس ثم تابوا وتزهدوا والتزموا ذلك في أشعارهم ؟ فلماذا نشك في توبة أبي نواس إن كان قال زهدياته قبيل وفاته ، كما يذهب بعض المؤرخين والكتاب ، ولماذا نشك في صدق إيمان أبي نواس ، الذي يتجلى في ساعات صحوه من الإثم ، إن كان قال زهدياته في فترات مختلفة من حياته ؟ أنا شخصياً لا أرى داعياً إلى هذا الشك على كلا الرأيين ، وأرى أن زهديات أبي نواس شيء طبيعي ، ومن المعقول جداً أن تصدر عنه . والذي يصدق هذا الرأي شعر أبي نواس نفسه في الزهد ، فهو لا يتضمن نظريات في التصوف ، ولا يكشف لنا عن تبحر صاحبه في مجالات الزهد وتقوى الله ، بل هو يتضمن « نظرات » في الزهد والتدين ومجموعة « خبرات » في سوء الحياة الدنيا التي تنهى بالفناء . وهي خبرات مجرب عرف الله والإثم ومارسهما حق الممارسة ، كما يتضح في قوله :

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ وَأَيُّ جِدٍّ بَلَغَ الْمَارِحُ
لِلَّهِ دُرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَاعِظٍ . وَنَاصِحٍ لَوْ حَظَى النَّاصِحُ
يَأْبَى الْفَتَى إِلَّا اتَّبَاعَ الْهَوَى وَمَنْهَجُ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحُ
فَاسْمُ بَعِينِكَ إِلَى نِسْوَةٍ مُهَوَّرُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ
لَا يَجْتَلَى الْحَوْرَاءُ مِنْ خِذْرِهَا إِلَّا أَمْرُ مِيزَانُهُ رَاجِحُ^(٢)

بل إن اختيار أبي نواس تصوير الأعمال الصالحة بالنسوة يصدق تمام التصديق نسبة هذا الشعر إليه لمطابقته لحياته النفسية .

وهو يتحدث في قصيدة أخرى عن تجربة ثانية له في اتصاله بالدنيا فيقول :

(١) زهديات أبي نواس : ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) زهديات أبي نواس : ٢٧ .

أَيَا رَبِّ وَجْهِ فِي التُّرَابِ عَتِيقِ وَيَا رَبِّ حُسْنٍ فِي التُّرَابِ رَقِيقِ
 وَيَا رَبَّ حَزْمٍ فِي التُّرَابِ وَنَجْدَةٍ وَيَا رَبِّ رَأَى فِي التُّرَابِ وَثِيقِ
 أَرَى كُلَّ حَيٍّ هَالِكًا وَابْنَ هَالِكٍ وَذَا نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ عَرِيقِ
 فَقُلْ لِقَرِيبِ الدَّارِ إِنَّكَ نَارِحٌ إِلَى مَنْزِلِ نَائِي الْمَحَلِّ سَحِيقِ
 إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكْشَفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ
 سَلَكْنَا مِنَ الدُّنْيَا بِكُلِّ طَرِيقِ فَيَوْمَانِ يَوْمًا فُسْحَةً وَمَضِيقِ^(١)

وفي المقطوعة التالية يتحدث أبو نواس عن توبته بعد أن عاف الملاهي :

انقضت شِرَّتِي فَعَفْتُ الْمَلَاهِي إِذْ رَمَى الشَّيْبُ مَفْرُقِي بِالْدَّوَاهِي
 وَنَهْنِي النَّهْيَ فَعَمِلْتُ إِلَى الْعَدْلِ وَأَشْفَقْتُ مِنْ فُعَالَةِ نَاهِي
 أَيُّهَا الْغَافِلُ الْمُقِيمُ عَلَى السَّهْوِ وَلَا عُذْرَ فِي الْمَقَامِ لِسَاهِي
 لَا بِأَعْمَالِنَا نَطِيقُ خَلَاصًا يَوْمَ تَبْدُو السَّمَاتُ فَوْقَ الْجِبَاهِ
 غَيْرَ أَنِّي عَلَى الْإِسَاءَةِ وَالتَّفْرِيطِ. رَاجٍ لِحُسْنِ عَفْوِ الْإِلَهِ^(٢)
 ويخاطب أبو نواس في مقطوعات كثيرة نفسه، طالباً إليها الاتئاد وخوف الله
 وخشية العذاب في اليوم الآخر ، كما أنه يحاول الاستفادة من تجاربه في وعظ الناس
 وإرشادهم ، ولهذا نجد عنده مقطوعات كثيرة تصلح لأن تكون شعراً تعليمياً ، في مثل
 قوله :

يَا طَالِبَ الدُّنْيَا لِيَجْمَعَهَا جَمَحْتَ بِكَ الْأَمَالَ فَاقْتَصِدِ
 وَالْقَصْدُ أَحْسَنُ مَا عَمِلْتَ لَهُ فَاسْلُكْ سَبِيلَ الْخَيْرِ وَاجْتَهِدِ
 وَالْحِرْصُ يُفْقِرُ أَهْلَهُ حَسَدًا وَالرِّزْقُ أَقْصَى غَايَةِ الْأَمَدِ^(٣)
 وقوله أيضاً :

حَذَرْتُكَ الْكِبَرَ لَا يَعْطِقُ مَيْسَمُهُ فَإِنَّهُ مَيْسَمٌ نَازِعَتُهُ اللَّهُ

(١) زهديات أبي نواس : ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٥٦ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٠ .

وقوله :

اصبرْ لِمَرٍّ حَوَادِثِ الدَّهْرِ فلتَحْمَدَنَّ مَغَبَّةَ الصَّبْرِ^(١)

إلى ما سوى ذلك من شعر وعظي نجده عند أبي نواس .
ومن الطبيعي أن يذكر أبو نواس الموت ، بل يكثر من ذكره وتصوير نزوله
بالإنسان ، ليجعل منه عظة وعبرة ، ويستدل بوقوعه على تفاهة الحياة الدنيا وهوان شأنها ،
فمن ذلك قوله :

الموتُ مِنَّا قَرِيبٌ وليس عَنَّا بِنَازِحُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ نَعْيٌ تَصْبِحُ مِنْهُ الصَّوَائِحُ
تَشْجِي الْقُلُوبَ وَتَبْكِي مَوْلُودَاتِ النَّوَائِحُ
حَتَّى مَنَى أَنْتَ تَلْهُو فِي غَفْلَةٍ وَتُمَازِحُ
وَالْمَوْتُ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِي زَنْدِ عَيْشِكَ قَادِحُ^(٢)

والحقيقة إن هذه الأشعار كلها إنما تطابق حياة أبي نواس مطابقة تامة . وهو
يطل من كل بيت فيها بحياته العابثة الماجنة ، ولا يفتأ يذكر في كل مقطوعة ما فرط
منه في حياته ، فيظهر الندم عليه ، ويطلب نفسه بنسيان ما فات . ولهذا السبب
نجد مشكلة عفو الله تشغل حيزاً كبيراً من شعره الزهلي ، فهو يقر بإثمه ولكنه يرجو
عفو الله ، ويظهر ثقته بحصوله على هذا العفو . وهو لهذا السبب أيضاً قد خاصم
المعتزلة واختلف معهم لحرمانهم مرتكب الكبيرة من عفو الله ، وما أكثر ما ارتكب
هو من الكبائر . فمن أقواله في طلب العفو :

غَفَرَ اللَّهُ ذَنْبَ مَنْ خَافَ فَاسْتَشَعَرَ الْحَذَرَ^(٣)

وقوله :

أَكْبَرُ الْأَشْيَاءِ فِي أَصْغَرِ عَفْوِ اللَّهِ يَصْغُرُ^(٤)

(١) زهديات أبي نواس : ٤٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٠ .

(٣) المصدر نفسه : ٧٧ .

(٤) المصدر نفسه : ٥١ .

وقوله :

غير أنى على الإساءة والتفريط . راج . لِحُسْنِ عَفْوِ الْإِلَهِ^(١)

وقوله :

يا رَبِّ إِنَّ عَظُمَتِ ذُنُوبِي كَثْرَةً فلقد علمت بأنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ^(٢)

وقوله :

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا^(٣)

إلى ما سوى ذلك مما تحفل به زهديات أبي نواس . وفيما قدمنا دلالة واضحة على
على مذهبه في العفو .

وإلى هذا الحد نكون قد أوضحنا تيار الزهد في القرن الثاني ، ذلك الذى كان
اتجاهاً جديداً من اتجاهات الشعر العربى في ذلك القرن يعاكس الاتجاه الماسجن
المتزندق الذى سبق لنا أن درسناه في هذا الفصل .

أما الاتجاه الجديد الذى ستناوله بالدراسة فيما يلى ، فهو لا يبعد كثيراً عن
الاتجاهات التى درسناها من قبل ، بل هو قريب منها ، هذا إذا اعتبرنا أن المجون
والزندقة والزهد لم تكن اتجاهات فى الشعر فحسب ، ولكنها كانت مذاهب يعتنقها
أصحابها ويتعصبون لها ، ويفنون حياتهم فى الارتباط بها . وهذا الاتجاه الجديد الذى
نقصده هو (الشعر المذهبي) .

(١) زهديات أبي نواس ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٧٠ .

الشعر المذهبي

نقصد بالشعر المذهبي الشعر الذي قاله أصحابه في الانتصار لمذاهبهم المختلفة ، سواء أكانوا من الخوارج ، أم من الشيعة ، أم من المرجئة ، أم من أى فرقة من هذه الفرق التى كانت تصطرع وتتناحر منذ نهاية القرن الأول وأوائل الثانى ، وبدأت تحل شيئاً فشيئاً محل الأحزاب السياسية التى شهد القرن الأول صراعها المرير واختلافاتها العميقة .

والأصل فى المذاهب التى نتحدث عن شعرها فى هذا الفصل أنها كانت تستمد أصولها من أفكار دينية ثم اصطبغت بعد ذلك بترعات سياسية أو لم تصطبغ ، فظل بعضها يناظر الفرق الأخرى على أساس دينى وفلسفى دون أن تكون له نواح عملية فى الحياة السياسية .

والفرق المذهبية بهذا المعنى تختلف اختلافاً بيناً عن الأحزاب السياسية التى سنتحدث عنها فى فصل ثان . فالأصل فى الأحزاب السياسية أنها قامت بوحى من المصلحة السياسية التى لم تكن غير تولى شئون الحكم فى الفترات المضطربة التى شهدتها الخلافة الإسلامية ، ثم رأت هذه الأحزاب أن من مصلحتها لتكون مقبولة لدى جمهور الناس أن تأخذ صبغة دينية إلى حد ما ، ولكن هذه الصبغة على أية حال لم تكن فى عمق أو فى تعقد الأسس الفلسفية التى كانت تقوم عليها الفرق المذهبية .

وفى هذا الفصل سنتحدث عن الفرق المذهبية ، وقد نضطر أحياناً للحديث عن حزب سياسى أو آخر ، ولكن سنقصر حديثنا عما اتخذته من صبغة مذهبية تاركين الناحية السياسية للحديث آخر . ولعل سائلاً يسأل : ألم تكن الزندقة مذهباً من المذاهب ، بل كانت لفظاً يشمل عديداً من المذاهب الخارجة عن الإسلام ، فلماذا أفردناها بالبحث ولم ندخلها فى حديثنا العام عن الشعر المذهبي ؟ ؟ ولهذا السائل أقول : بل إن الزهد أيضاً يعتبر عند الباحثين الأقدمين مذهباً من المذاهب حتى إن منهم من جعل له أوصافاً تقربه من الزندقة إلى حد بعيد ، لأن الأفكار

حينذاك، لم تكن تستطيع أن تتقبل بسهولة ما في عناصر الترهّد والتصوف من فلسفة عميقة وخطرات رمزية لا تقصد لذاتها . بل نذهب إلى أكثر من ذلك فنقول إن حركة المحجون التي تحدثنا عنها أيضا تعتبر مذهباً من المذاهب التي زخر بها القرن الثاني، إذ كانت لها أصول مرعية بدليل أرجوزة الرقاشي التي أرسى فيها قواعد المحجون وعناصره وأركانه وقد سبق لنا ذكرها ، وبدليل وجود أتباع مخلصين لهذا المذهب ينفذون شعائره وفروضه بدقة ، ويقيمون حياتهم على أساس مذهبهم هذا ، وينسون في سبيل ذلك كل ما يفرضه عليهم دينهم من أبسط الواجبات . ومع هذا كله رأينا أن نفرد للمجون والزندقة والزهد أحاديث مستقلة لأهميتها كتيارات مذهبية ولكثرة ما فيها من شعر يصور اتجاهاتها .

والمفهوم الذي حددناه للشعر المذهبي يعتبر جديداً على الشعر العربي حقاً ، لم يظهر فيه قبل القرن الثاني ، والسبب في ذلك بسيط وهو عدم وجود فرق مذهبية في الحياة الإسلامية قبل ذلك ، اللهم إلا إذا نظرنا إلى نشأة هذه الفرق في القرن الأول الذي جعلناه منذ بداية هذا البحث : عصر حضارة واستعداد للتطورات الكبيرة التي حدثت في الحياة الإسلامية في القرن الثاني وفي شعره على السواء . ويحاول بعض الكتاب الأقدمين أن يثبتوا وجود أفكار مذهبية حتى في الشعر الجاهلي . فالشهرستاني يقول إن العرب كانت لهم « شبهات » في الجاهلية ، وإن هذه الشبهات كانت مقصورة على شيئين : إنكار البعث ، وجحد بعث الرسل . وقد عبروا عن ذلك في أشعارهم فقال بعضهم :

حَيَاةٌ ثُمَّ مَوْتُ ثُمَّ بَعْثٌ حَلِيثُ خُرَافَةٍ يَا أُمَّ عَمْرُو^(١)
وأبو الفرج الأصفهاني يقول إن الأعشى كان قدرياً أي أنه كان ينكر أن الله قدر على عباده الشر ، وهو ما ذهب إليه المعتزلة فيما بعد ، ويضرب مثالا لقدريته قوله :

اسْتَنَاءَرُ اللَّهَ بِالْوَفَاءِ وَبِالْعَدْلِ وَوَلَّى الْمَلَامَةَ الرَّجُلَا^(٢)
كما يقول في موضع آخر إن لبيد بن ربيعة كان جبرياً حيث يقول :
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلَّ^(٣)

(١) الملل والنحل : ٤٣٣ . (٢) الأغاني ٩ : ١١٣ .

(٣) المصدر نفسه ١٢ : ٣ .

ونحن لا نعتقد بصحة مثل هذه الآيات التي تنسب إلى الأعشى أو لبيد ، ونراها من صنع الرواة المتأخرين كحماد الراوية وغيره . وحتى بفرض صحتها فهي لا يمكن أن تكون شعراً مذهبياً كما صور لنا الأصفهاني . فالكلام في الجبر والاختيار إنما نشأ في دوائر المتكلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية ، وبعض العناصر المسيحية التي كانت تبحث هذه المشكلة في الوقت نفسه كما بينا من قبل . فمن غير المعقول أن تكون هذه المشكلة الكلامية العويصة قد نبتت في العصر الجاهلي الذي كان فقيراً فقراً واضحاً في حياته العقلية .

وبما لا شك فيه أن المتكلمين كان لهم تأثير كبير في نشأة المذاهب المختلفة فهم قد أثاروا مجادلهم الديني مشكلات كثيرة وعقائد مختلفة ، ووضعوا في أيدي أصحاب الفرق سلاحاً يدافعون به عن آرائهم ، ويفندون به مذاهب مخالفيهم من الفرق الأخرى ، وهذا السلاح هما الجدل والمحاكاة اللذان أرسيت أصولهما بعد ترجمة المنطق اليوناني ونظريات الفلسفة الهيلينية . ويبدو أن قيام الدولة العباسية على أساس ديني ونشاط حركة الترجمة في عهدها ، والاختلاط بالثقافات والعناصر الأجنبية ، كل ذلك كان له أثره في نشاط الفرق المذهبية والشعر المذهبي . وهذه الحقيقة يؤكدتها فون جرونباوم بقوله : (لقد شهد مطلع العصر العباسي قيام ظاهرة دينية في الحقل الشعري . فالأحزاب الدينية مثل الخوارج والشيعة قد تركت الكثير من القصائد المثيرة الناطقة بعقائد أصحابها)^(١) .

وبعض شعراء القرن الثاني كانوا يؤمنون أحياناً بمذهب معين يندرون له أنفسهم وشعرهم . مثل السيد الحميري الذي قصر نفسه على الدعوة لمذهبه الشيعي ، وهو من فرقة الكيسانية . وقد روى الأصفهاني عن الفرزدق ملاحظة له عن أولئك الشعراء المذهبيين — إن صحت هذه التسمية — يقول فيها : (إن السيد الحميري وعمران ابن حطان لو أخذوا في معنى الناس لما كنا معهما في شيء ، ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول في مذهبه)^(٢) . وأعتقد أن الأصفهاني قد أخطأ في نسبة هذا القول إلى الفرزدق إذ يوجد بعد زمني بينه وبين السيد الحميري يجعل التقاءهما من المحال .

(١) دراسات في الأدب العربي : ١٤٨ .

(٢) الأغاني ٧ : ٢٣٢ .

والشاعر المذهبي الحق لا يمدح فرداً إلا إذا كان لهذا المدح صلة بمذهبه ،
فقد روى أن السيد الحميري وقف على بشار وهو ينشد الشعر فأقبل عليه وقال :

أَيُّهَا الْمَادِحُ الْعِبَادَ لِيُعْطَى إِنَّ لِلَّهِ مَا بَأْيَدِي الْعِبَادِ
فَأَسْأَلُ اللَّهَ مَا طَلَبْتَ إِلَيْهِمْ وَارْجُ نَفْعَ الْمُنْزَلِ الْعَوَادِ
لَا تَقُلْ فِي الْجَوَادِ مَا لَيْسَ فِيهِ وَتُسَمِّى الْبَخِيلَ بِاسْمِ الْجَوَادِ

فقال بشار : من هذا ؟ فعرفه ، فقال : لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح
بنى هاشم لشغلنا ، ولو شاركنا في مذهبنا لأتعبنا . ويقول الأصفهاني إن هذا الخبر
روى في أن عمران بن حطان الشاري هو الذي خاطب الفرزدق لا بشارا هذه
المخاطبة (١) .

ومع هذا فلم يكن كل الشعراء المذهبيين بهذه الشجاعة ولا بهذا التعفف عن
مدح الأفراد البعيدين عن مذهبهم ، فكثيراً ما استخدم شعراء الشيعة التقية في مهادنة
الخليفة ومدحه ، مع أنه يمثل رأس العداوة بالنسبة إليهم سواء أكان أمويًا أم عباسيًا .
ولعل مشكلة الخبر والاختيار كانت أولى المشكلات التي اختلفت حولها الفرق
المذهبية ، والتي شغلت حتى الأفراد العاديين الذين لا ينتمون إلى أية فرقة . ومدارها :
هل نعترف بأن الله قدر على عباده الشر فتنى بذلك العقل عن الإنسان ونسبه إلى
الله ، ونبرئ المخلوق ونقر بظلم الخالق أم نقر بأهمية عقل الإنسان وفعاليته وقدرته على
التمييز بين الخير والشر دون تأثير إلهي ، فنصطدم ببعض آيات القرآن وبعض الأحداث
التي لا يملك الإنسان لها ردًا كالموت ؟ وقد ظهر صدى هذا الخلاف في الشعر
المذهبي الذي وصلنا من القرن الثاني ، فنجد من الشعراء من ينتصر للقدرية ، ومنهم
من يقف إلى جانب الجبرية ، وفريق ثالث مذبذب الرأي مرة إلى هؤلاء ، ومرة إلى
أولئك . فصالح بن عبد القدوس مثلاً ينفي الجبرية نفيًا باتًا في قوله :

وَلَا أَقُولُ إِذَا مَا جِئْتُ فَاحِشَةً إِنِّي عَلَى الذَّنْبِ مَحْمُولٌ وَمَجْبُورٌ

وهو في موضع آخر متحير في نسبة الأفعال التي يأتيها البشر : هل هي جبرية
أم اختيارية أم بين بين ، يقول :

لم تَخْلُ أفعالنا اللاتي نُدِلُّ بها إحدى ثلاث خصالٍ في معانيها
 إما تَفَرُّدُ مولانا بصنعتها فاللوم يسقط عنا حين نأتيها
 أو كان يَشْرَكُنَا فاللوم يُلْحَقُهُ إن كان يُلْحَقُنَا مِن لائِمٍ فيها
 ولم يَكُنْ لِإلهي في جنائيتها صنَعُ فما الصنَعُ إلا ذنبُ جانيتها^(١)
 وأبو العتاهية يذهب مذهب الجبرية شأن غالبية المترهدين والصوفية فيقول :
 الحمدُ لله يَقْضِي ما يشاء ولا يُقْضَى عَلَيْهِ وما لِلْخَلْقِ ما شاءوا
 لم يُخْلَقِ الخلقُ إلا للفناء معاً تَفْنَى وتَبْقَى أحاديثُ وأسماءُ^(٢)
 وبشار أيضاً يذهب إلى نوع من الجبرية في قوله :

خُلِقْتُ على ما في غيرِ مُخَيَّرٍ هَوَايَ ولو خَيْرْتُ كُنْتُ المَهْدَبَا^(٣)
 وأهل أقدم الفرق المذهبية في تاريخ الإسلام هي فرقة الخوارج التي تفرعت إلى
 شعب كثيرة تبلغ نحو عشرين فرقة في رأي ابن طاهر البغدادي ، منها ما يعتبر
 أتباعه من غلاة الكفرة الخارجين عن الإسلام مثل اليزيدية المتفرعة من الإباضية ،
 والميمونية المتفرعة من العجاردة ، وفيما عدا ذلك تجتمع فرق الخوارج كلها على تكفير
 على وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل ، وكل من رضى بتحكيم الحكمين ، كما
 تتفق أيضاً على وجوب الخروج على الإمام الجائر^(٤).

والخوارج على هذا الأساس حزب ثوري صريح في عداته للدولة القائمة . وإذا
 كان مذهبهم مذهباً سياسياً إلا أنه مؤسس على فكرة دينية . فهم يريدون توجيه
 الأمور العامة وفقاً لأوامر الله ونواهيه . وبعد أن كان الخوارج طوال العصر الأموي
 مركزين في الكوفة والبصرة ، وكثيراً ما قاموا بثوراتهم من هاتين المدينتين ، إلا أنهم
 في أواخر القرن الأول وبداية الثاني — حين بان التداعي في صرح الدولة الأموية —
 استطاعوا أن يكتسبوا أنصاراً أقوياء في الموصل وما جاورها ، ثم اتخذت حركتهم —
 كما يقول قلهوزن — أسلوباً آخر يختلف تماماً عما مضى (بعد أن كانت قلة العدد
 طابع جيوشهم أصبحوا يقاتلون بجماهير قوية)^(٥) وهذه الجماهير كان طابعها

(١) محاضرات الأدباء ٢ : ١٨٥ . (٢) ديوان أبي العتاهية : ١ .

(٣) ديوان بشار ١ : ٢٤٦ . (٤) الفرق بين الفرق : ٤٥ .

(٥) الخوارج والشيعة : ١٣٠ .

الحماسة والإيمان يذهبها إلى حد الفناء في سبيله . ولم تكن النسوة تفرق عن الرجال في هذه الحماسة ولا هذا الإيمان ، فكان يقاتلن قتالاً مجيداً حين تضطرن الظروف إلى القتال كما حدث في جيش الضحالك بن قيس الشيباني . وكان شعر الخوارج صدى لنفوسهم المؤمنة الثابتة على مبادئها ، كما سنتبين عند الحديث عن الشعر السياسي . وحسبنا في هذا المجال أن نذكر الناحية المذهبية في شعرهم التي نجدناها ساذجة بالنسبة إلى الفرق الأخرى التي تكونت بعدهم . ويرى أحمد أمين أن السبب في ذلك يرجع إلى أن ثقافة الخوارج كانت بحكم غلبة البداوة عليهم ثقافة عربية خالصة لا أثر فيها لفلسفة اليونان ، كما هو الشأن في ثقافة المعتزلة ، ولا أثر فيها لثقافة الفرس كما هو الشأن في الشيعة^(١) .

وقد لاحظت سهر القلماوى في دراستها لشعر الخوارج أن الكلام في نفس العقيدة من حيث هي لم يشغل حيزاً يذكر في شعرهم ، كما أن شعورهم الديني لم يكن شعور المفكرين المتفلسفين ، وإنما كان شعور أعراب سذج لم يدرسوا ويبحثوا ، أو يعطلوا ويحللوا ، ولهذا لا نجد في أدبهم جدالاً أو دفاعاً بالحجج والبراهين ، وإنما نجد نغماً دينياً قوياً في إيمانهم^(٢) . وهذا الوصف لشعر الخوارج أو بالأحرى للناحية المذهبية فيه صادق كل الصدق ، فهذا الصحاري بن شبيب يذهب إلى خالد القسري يسأله الفريضة فيقول خالد : وما يصنع ابن شبيب بالفريضة ؟ فلما خرج عليه ابن شبيب قال :

لم أُرِدْ مِنْهُ الْفَرِيضَةَ إِلَّا	طَمَعًا فِي قَتْلِهِ أَنْ أُنَالَا
فَأَرْيَحُ الْأَرْضَ مِنْهُ وَمَعْنَى	عَاثٌ فِيهَا وَعَنِ الْحَقِّ مَا لَا
كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ أَرَاهُ	تَرَكَ الْحَقَّ وَسَنَ الضَّلَالَا
لِأَنِّي شَارٍ بِنَفْسِي لِرَبِّي	تَارِكٌ قَيْلًا لَدَيْهِمْ وَقَالَا
بَائِعٌ أَهْلِي وَمَالِي وَأَرْجُو	فِي جَنَانِ الْخُلْدِ أَهْلًا وَمَالًا ^(٣)

وفي هذه الأبيات يشير ابن شبيب إلى مبدأ الخوارج الذي لا يحيدون عنه وهو

(١) ضحى الإسلام ٣ : ٢٤٤ .

(٢) أدب الخوارج : ٤١ .

(٣) تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ .

الخروج على السلطان الذي ترك الحق في نظرهم ، مضحين في سبيل ذلك بالأهل والمال ، راجين أن ينالوا جزاءهم عند الله في الآخرة .

واللاحظ على الرغم من الخلاف بين المعتزلة والخوارج ينصف شعر الخوارج فيصفهم بالصدق في نواحيهم على ذنوبهم ، ويصف أصحابهم بالنسك والفضل ، وأنهم لم يخلعوا إلا المصاحف وإلا السيوف والخيل ^(١) .

والمرزباني يروي لنا أبياتاً لأحد شعراء الخوارج واسمه عمرو بن الحسن الإباضي الكوفي ، وهو يصف في هذه الأبيات أصحابه فيؤكد معنى تضحياتهم بأنفسهم في سبيل عقيدتهم ، وأنهم اشتراكيون بمعنى من المعاني التي تؤديها كلمة الاشتراكية ، وأنهم متعففون عن مغايم الدنيا ، وأنهم رجال ثابتون لا يجزعون من نبوة الدهر . يقول :

فِي فِتْنَةٍ شَرَطُوا	نَفُوسَهُمْ	لِلْمَشْرِفِيَّةِ	وَالْقَنَا	السُّمْرِ
مُتَرَا حِمِينَ	ذَوُو	يَسَارِهِمْ	يَتَعَطُّفُونَ	عَلَى ذَوَى الْفَقْرِ
وَذَوُو	خَصَاصَتِهِمْ	كَأَنَّهُمْ	مِنْ صِدْقِ عِفَّتِهِمْ	ذَوُو وَفَرٍ
مُنَجَّمُونَ	لِطِيبِ	ضَمِيمِهِمْ	لَا يَهْلَعُونَ	لِنَبْوَةِ الدَّهْرِ ^(٢)

ولا يفوتنا أن نسجل أن هذا الشاعر إباضي ، وقد لاحظ أحمد أمين من قبل أن الأدب الخارجي العباسي إن وجد فهو أدب إباضي ^(٣) .

وعلى أية حال فالقرن الثاني لم يشهد للخوارج نشاطاً كبيراً بعد هزيمتهم الساحقة على يد مروان بن محمد قبيل قيام الدولة العباسية بوقت يسير . وحتى البقية الباقية منهم لم يتطور شعرها المذهبي تطوراً يذكر ، بل ظل يتضمن نفس هذه المعاني التي ذكرنا طرفاً منها للدلالة على ما يمثّلها . وأحمد أمين يرجع السبب في ضعف شعر الخوارج في القرن الثاني إلى ما ذكرنا ، ويعتقد أيضاً أن مدونى الأدب في العصر العباسي أباحتم لهم السياسة أن يرووا الأدب الخارجي الأموي دون العباسي ^(٤) .

(١) الانتصار : ١٤١ .

(٢) معجم الشعراء : ٢٢٩ .

(٣) ضحى الإسلام ٣ : ٢٤٥ .

(٤) المصدر نفسه ٣ : ٢٤٥ .

أما المرجئة - وهم من أقدم الفرق المذهبية في الإسلام أيضا - فقد أطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم يرجئون الحكم ويكتفون بالإيمان ، وقد جعلهم ابن طاهر البغدادى ثلاثة أصناف :

١ - صنف قالوا بالإرجاء في الإيمان وبالقدر على مذاهب القدرية المعتزلة .

٢ - وصنف قالوا بالإرجاء بالإيمان وبالخير في الأعمال على مذهب جهم

ابن صفوان .

٣ - وصنف ثالث خارجون عن الجبرية والقدرية وهم خمس فرق : اليونانية

والفسانية والثوبانية والتومنية والمريسية^(١) .

ومن الشعر الذى وصلنا ويصور مذهب الإرجاء ، بعض قصائد لثابت قطنه الذى

يعد أكبر داعية لهذا المذهب بعد أن آمن به . وهو يشرح عناصر مذهبهم فيقول :

يا هِنْدُ فاسْتَمِعى لى إنَّ سِيرَتَنَا	أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ لَمْ نُشْرِكْ بِهِ أَحَدًا
نُرْجى الأُمُورَ إذا كَانَتْ مُشَبَّهَةً	وَنَصْدُقُ الْقَوْلَ فيمن جَارَ أو عُدَا
المُسْلِمُونَ على الإسلامِ كُلُّهُمْ	والمُشْرِكُونَ استَوُوا فى دِينِهِم قَدَا
ولا أرى أَنَّ ذَنْبًا بالغٍ أَحَدًا	مِ النَّاسِ شِرْكَاءُ إذا ما وَحَدُوا الصَّمَدَا
لا نَسفك الدَّمَّ إلا أَنْ يُرادَ بنا	سَفْكُ الدِّمَاءِ طريقًا واحدًا جَدَا
كُلُّ الخَوارجِ مُخْطِئٌ فى مقالته	ولو تَعَبَّدَ فيما قال واجْتَهَدَا
أما على وعُثمانُ فإِنَّهُما	عَبْدَانِ لم يُشْرِكَا باللهِ مَذَّعَبَدَا ^(٢)

وَقون كَرِيمُ يعلق على هذه القصيدة فيقول : (إنها تبين أن المرجئة نظروا إلى

هذه الحياة والحياة الأخرى نظرة أكثر أملاً وثقة من الحزب السنى القديم والخوارج

المتعصبين ، وأنكروا بصفة خاصة خلود عذاب النار للمسلمين . ونجد في نظريتهم

هذه اتفاقاً شديداً مع نظرية الآباء الإغريق^(٣) .

(١) الفرق بين الفرق : ١٢٢ .

(٢) الاغانى ١٣ : ٥٠ .

(٣) الحضارة الإسلامية : ٦٨ .

والحقيقة إن المرجئة حاولوا - كما يقول ثان فلوطن - التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين ، حين تطور التراع بين الأحزاب والطوائف وحلت تلك المشكلة الاجتماعية محل الخلاف على الإمامة . وكان المرجئة يطلبون العودة إلى مبدأ المساواة بين الشعوب الذي أقره الإسلام ، وعلى هذا المبدأ قامت ثورة الحارث بن سريج المرجئي عام ١٢٨ هـ .^(١) على أن هذه الناحية هي جزء من مذهب المرجئة وهو ظاهر في قول ثابت قطنة (المسلمون على الإسلام كلهم) ولكن هناك ناحية أخرى هامة كان لها تأثير كبير في المجتمع الإسلامي في القرن الثاني ، كما كانت موضع جدل مذهبي بين الفرق المختلفة : هذه الناحية هي العفو . فالمرجئة تجيز احتمال عفو الله حتى مع عدم التوبة ومع الإكثار من المعاصي ، بينما يرى المعتزلة أن الكبيرة تستحق العقوبة حتماً ما لم يتب مرتكبها ، وأن من مات عاصياً مرتكباً للكبيرة لا بد في النار . قد أوضح ثابت قطنة موقف المرجئة من هذه النقطة في قوله :

ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً مِ الناسِ شرّاً إذا ما وحدوا الصّمداً
ويبدو أن أكثر الذين اعتنقوا مذهب الإرجاء كان دافعهم إلى ذلك هذه النقطة بالذات في مذهب المرجئة . ويظهر أن أبا نواس قد مال إلى هذا المذهب - كما أشرنا من قبل - لينال عفو الله عن آثامه ، ولهذا قال لشيخ المعتزلة :

لا تحظرِ العَفْوَ إن كنتَ امرئاً حَرَجاً فَإِنَّ حَظْرَكَهُ بالدينِ إزراءُ
وفي نفس الوقت يصرح بثقته في عفو الله على مذهب المرجئة فيقول :
وثَقْتُ بِعَفْوِ اللَّهِ عن كُلِّ مسلمٍ فَلَسْتُ عن الصُّهْبَاءِ ماعشتُ مُقْصِراً^(٢)
وربما كان حقاً ملاحظه أحمد أمين من أن مذهب المرجئة في العفو ، حتى مع عدم التوبة والإكثار من المعاصي ، فتح باباً واسعاً من أبواب الأدب إذ ركن كثير من شعراء الدولة العباسية إلى عفو الله على مذهب الإرجاء حينما أفرطوا في اللهو وأسرفوا في اللذة^(٣) . وربما كان ذلك أيضاً من الأسباب التي جعلت الدولة الأموية

(١) انظر : السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات : ٦٤ وما بعدها .

(٢) ديوان أبي نواس : ٢٥٩ .

(٣) ضحى الإسلام ٣ : ٣٣٨ .

تقاتل الحارث بن سريج المرجئي في حرب متواصلة لا هوادة فيها حتى تم لها القضاء عليه . والطبري يروي لنا قصيدة مهمة لنصر بن سيار يوضح فيها موقف الحزب السني من مذهب الإرجاء حين يتحدث عن الحارث بن سريج فيقول :

دع عنك دُنْيا وأهلاً أنتَ تارِكُهُمُ ما خَير دُنْيا وأهلٍ لا يَدُومونا
إلا لبُضعةٍ أيا مٍ إلى أَجلٍ فاطلبُ مِنَ الله أَهلاً لا يَمُوتونا
فامنح جهادَكَ مَنْ لَمْ يَرْجُ آخِرَةَ وَكُنْ عَدُوًّا لِقَوْمٍ لا يَصِلُونَا
واقْتُلْ مَوَالِيَهُمُ مِنّا وناصرَهُمُ حِينا تَكْفُرُهُمُ والعَنَهُمُ حِينا
والعائِبِينَ عَلَيْنَا دِيننا وَهُمْ شُرُ العِبادِ إِذا خابَرْتَهُمُ دِينا
والقائِلِينَ سَبيلُ اللهِ بَغيتُنا لَبُعْدُ ما نَكبُوا عَمّا يَقولُونَا
فاقتُلَهُمُ غَضَباً اللهُ مُنتَصِراً مِنْهُمْ بِهِ وَدَعِ المُرْتابَ مَفْتُونَا
ارْجائِهمْ لَزَكُمُ والشُّركَ في قَرَنٍ فَأَنْتُمْ أَهلُ إِشراكٍ ومُرْجُونَا
لا يَبْعُدُ اللهُ في الأَحْداثِ غَيْرَكُمُ إِذْ كانَ دِينُكُمْ بالشُّركِ مَقْرُونَا^(١)

وغير ثابت قطنة لا نجد شاعراً من شعراء القرن الثاني يصور لنا مذهب الإرجاء، اللهم إلا في خطرات نلمحها لمحا مثل خطرات أبي نواس . ومع أن الشهرستاني يقرر أن الرقاشي والعتابي كانا مرجئين إلا أن شعرهما كما يؤكد بحق أحمد أمين لا تظهر فيه آثار هذا الإرجاء^(٢) . وأنا أشك في أن يكون مذهب هذين الشاعرين الإرجاء إلا أن يكون ذلك مذهب الرقاشي في باب العفو مثله مثل أبي نواس . أما العتابي فكان رجلاً متزهداً كما ذكرنا عند الحديث عن الزهاد ، ولم تكن له من آثام كبيرة يضطر معها إلى الإرجاء لترفع عن كاهله .

أما المعتزلة فقد تفرقوا شأن الفرق المذهبية الأخرى إلى شعب كثيرة بلغت عدتها عشرين كما يقول ابن طاهر البغدادي^(٣) وسبع عشرة في قول الرازي^(٤) ، وهي مختلفة أشد الاختلاف فيما بينها ، إلى حد أن بعضها يكفر بعضاً . ومن المعتزلة

(١) تاريخ الطبري ٧ : ٢٢٣ .

(٢) ضحى الإسلام ٣ : ٣٢٨ .

(٣) الفرق بين الفرق : ٦٧ .

(٤) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ٤٠ .

فرفقتان تعتبران من فرق الغلاة في الكفر هما الحباطية والحمارية^(١) . وتتفق فرق المعتزلة على نفي صفات الله تعالى من العلم والقدرة ، وعلى أن القرآن محدث ومخلوق ، وأن الله تعالى ليس خالقاً لأفعال العبد^(٢) . ومذهب المعتزلة يرتكز على أسس خمسة : القول بالتوحيد ، القول بالعدل ، القول بالوعد والوعيد ، القول بالمتزلة بين المنزلتين ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد نشطت حركة المعتزلة في مطلع القرن الثاني الهجري وانبث دعائهم في أنحاء المملكة الإسلامية ينشرون مذهبهم ويحاجون به الفرق الأخرى . وقد صور لنا أحد شعراء المعتزلة - وهو صفوان الأنصاري - جهاد المعتزلة في دعوتهم ، كما كشف لنا عن بعض مبادئهم في قصيدته التي يتحدث فيها عن رأس من رؤوس المعتزلة وهو واصل بن عطاء ، فيقول :

له خَلَفَ شَعْبُ الصُّينِ فِي كُلِّ ثَغْرَةٍ	إِلَى سُورِهَا الْأَقْصَى وَخَلَفَ الْبَرَابِرِ
رَجَالٌ دَعَاؤُهُ لَا يَقْلُ عَزِيمَهُمْ	تَهَكُّمُ جَبَّارٍ وَلَا كَيْدُ مَاكِرِ
إِذَا قَالَ مُرُّوا فِي الشِّتَاءِ تَطَاوَعُوا	وَإِنْ كَانَ صَيْفًا لَمْ يَخَفْ شَهْرَ نَاجِرِ
بِهَجْرَةِ أَوْطَانٍ وَبَذَلٍ وَكَلْفَةٍ	وَشِدَّةِ أخطَارٍ وَكَدِّ الْمُسَافِرِ
وَمَا كَانَ سَحْبَانُ يَشْقُ غُبَارَهُمْ	وَلَا الشُّدُقُ مِنْ حَيٍّ هِلَالِ بْنِ عَامِرِ
.....

تَلَقَّبَ بِالْفَزَالِ وَاحِدُ عَصْرِهِ	فَمَنْ لِيَلْتَامِي وَالْقَبِيلِ الْمُكَاثِرِ
وَمَنْ لِحَرُورِي وَآخِرِ رَافِضِ	وَأَخِرِ مُرْجِيٍّ وَآخِرِ حَائِرِ
وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْكَارٍ مُنْكَرِ	وَتَحْصِينِ دِينِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ كَافِرِ
يُصِيبُونَ فَضْلَ الْقَوْلِ فِي كُلِّ مَنْطِقِ	كَمَا طَبَقَتْ فِي الْعَظْمِ مُدْيَةُ جَازِرِ ..

وشعر المعتزلة الذي وصلنا يصور جانباً من مبادئهم ، كما يتضمن رأيهم في مذاهب بعض الفرق الأخرى . فمن ذلك مثلاً قول بشر بن المعتمر في شعره المزاج

(١) الفرق بين الفرق : ٦٧ .

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ٣٨ .

يذكر الخوارج بفضل علي بن أبي طالب - الذي يناصبونه العداء ويكفرونه -
عليهم فيقول :

ما كان في أسلافهم أبو الحسن	ولا ابن عباس ولا أهل السنن
غر مصابيح الدجى مناجيب	أولئك الأعلام لا الأعارب
كمثل حرقوص ومن كحرقوص	فقعة قاع حولها قصيص
ليس من الحنظل يشتار العسل	ولا من البحور يصطاد الورل
هيات ما سائلة كعالية	ما معدن الحكمة أهل البادية ^(١)

ولبشر بن المعتمر أيضا قصيدتان مطولتان ذكرهما الجاحظ في الحيوان وموضوعهما
الفلسفة الطبيعية ، وقد أشاد فيهما بحكمة الله المتجلية في أنحاء الطبيعة ، وأن الكون
يتضمن عجائب كثيرة ومخلوقات متباينة ، لو فكر الإنسان فيها بعقله لأدرك الكثير
من الحقائق التي تخفى على بعض الناس ، وفي ذلك يقول بشر :

ما ترى العالم ذا حشوة	يقصر عنها عدد القطر
أوابد الوحش وأحناشها	وكل سبع وافر الظفر
وبعضه ذو همج هامج	فيه اعتبار لذوى الفكر
والوزغ الرقط على ذلها	تطاعم الحيات في الجحر

لو فكر العاقل في نفسه	مدة هذا الخلق في العمر
لم ير إلا عجباً شاملاً	أو حجة تنقش في الصخر
فكم ترى في الخلق من آية	خفية الجسماني في قعر
أبرزها الفكر على فكرة	يحار فيها وضح الفجر

(١) الحيوان ٦ : ٤٥٥ والحرقوص في الأصل دويبة سوداء مثل البرغوث والقصيص نبت
ينبت في أصل الكمأة .

لِلَّهِ دَرُّ الْعَقْلِ مِنْ رَائِدٍ وصاحبٍ في العُسرِ واليُسْرِ
وحاكمٍ يَقْضِي على غَائِبٍ قَضِيَّةَ الشَّاهِدِ لِلأَمْرِ
وإنَّ شَيْئًا بَعْضُ أَفْعَالِهِ أنْ يفصلَ الخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ
بَدَى قُوَى قَدْ خَصَّهُ رَبُّهُ بخالصِ التقديسِ والطُّهْرِ^(١)

وواضح أن ابن المعتز يوضح ركنًا هامًا في مبدأ المعتزلة في هذه الآيات وهو أهمية سلطان عقل الإنسان وإرادته وتحررها من سلطان الجبرية .
وكان المعتزلة ينصبون أنفسهم للرد على أصحاب الضلالات والفتن : فحين قام بشار يعتذر لإبليس اللعين في أن النار خير من الأرض بيئته اللذين ذكرناهما من قبل :

إِبْلِيسُ أَفْضَلُ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ فتنبَّهوا يا مَعْشَرَ الْفُجَّارِ
النَّارُ عِنْصَرُهُ وَآدَمُ طِينَةٌ وَالطِّينُ لَا يَسْمُو سُمُو النَّارِ

ثم قام سليمان الأعشى أخو مسلم بن الوليد وقال في اعتذار بشار لإبليس :

لَا بُدَّ لِلْأَرْضِ إِنْ طَابَتْ وَإِنْ خَبِثَتْ مِنْ أَنْ تُحِيلَ إِلَيْهَا كُلَّ مَغْرُوسٍ
وَتَرْبِيَةِ الْأَرْضِ إِنْ جِيدَتْ وَإِنْ قَحَطَتْ فَحَمَلَهَا أَبَدًا فِي إِثَرِ مَنَفُوسٍ
وَيَطْنُهَا بِفُلْزِ الْأَرْضِ ذُو خَبَرٍ بِكُلِّ جَوْهَرَةٍ فِي الْأَرْضِ مَرْمُوسٍ
وَكُلِّ آتِيَةٍ عَمَّتْ مِرَاقِفُهَا وَكُلِّ مُنْتَقَدٍ فِيهَا وَمَلْبُوسٍ
وَكُلِّ مَاعُونِهَا كَالْمَلْحِ مَرْفَقَةٌ وَكُلِّهَا مُضْحِكٌ مِنْ قَوْلِ إِبْلِيسِ^(٢)

تصدي صفوان الأنصاري شاعر المعتزلة لدعوة بشار وأدار حديثه على المفاضلة بين النار والأرض ، وكيف أن الأرض أكرم عنصراً من النار لاحتواء الأرض على أعاجيب وأسرار ، ويربط الشاعر المعتزلي ذلك بمبدأ التوحيد كما فعل بشر بن المعتز في قصيدته التي تدور حول فلسفة الطبيعة ، يقول صفوان :

(١) الحيوان ٦ : ٢٩١ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ١٨ .

زعمتَ بأنَّ النارَ أكرمُ عنصراً
ويُخلقُ في أرحامها وأرومها
وفي القعرِ من لُجِّ البحارِ منافعُ
كذلك سرُّ الأرض في البحرِ كله

وفي كلِّ أغوارِ البلادِ معادنُ
وكلُّ يواقيتِ الأنامِ وحليها
وفيهما مقامُ الخِلِّ والركنِ والصفاءِ

مفانيرُ اللطيفِ الذي كان أصلنا
فذلك تدبيرٌ ونفعٌ وحكمةٌ
ونحنُ بنوه غيرُ شكٍ ولا جحدٍ
وأوضحُ برهانٍ على الواحدِ الفردِ^(١)

والمعتزلة يرفضون مذهب الجهمية أتباع جهم بن صفوان مع أنه يوافقهم في نفي الصفات الأزلية ، ولكنه يناقضهم في ذهابه مذهب الجبرية الخالصة^(٢) . ومعظم المعتزلة أنكروا أيضا أن يكون منهم أتباع ضرار وحفص لأنهما مشبهان لقولهما بالماهية ، ولقولهما بأشياء أخرى ينكرها المعتزلة ، وبشر بن المعتز يثبأ من هذه الفرق بقوله :

فنحنُ لا ننْفَكُ نلقى عارا
ننفيهم عَنَّا ولسنا منهم
نفرُّ من ذِكْرِهم فِرارا
ولا همُّ منا ولا نَرْضاهم
إمامهم جَهْمٌ وما لِجَهْمِ
وصحب عمرو ذى التقى والعلم^(٣)

ولا شك أن المعتزلة كان لهم تأثير كبير في شعر القرن الثاني وفي أدبه بصورة عامة وقد وصف أحمد أمين هذا الأثر بقوله : (لقد أغنى المعتزلة الأدب من حيث المعاني وقوة العقل وسعة الذهن ، وتوليد الأفكار العقلية والنظر إلى الكون وإلى الطبيعة ،

(٢) الملل والنحل : ٦٠ .

(١) البيان والتبيين ١ : ١٧ .

(٣) الانتصار : ١٣٤ .

ولاجراء التجارب عليها ودلالاتها على خالقها ، وغاصوا على المعاني غوصا ، ونقلوا الأدب من لفظ رشيق إلى معنى عميق ، ومن عبارات مجملة منهقة إلى موضوعات واسعة مسهبة . وبعد أن كان الأدب خلواً من الموضوع جعلوا له موضوعا ، فن موضوعه : الحيوان والبخلاء والإماء والقيان ، إلى غير ذلك من موضوعات لم تكن في الأدب قبل المعتزلة ، ووجهوا الذهن وجهات لم تكن قبلهم^(١) .

والمتكلمون على وجه العموم كان لهم تأثير كبير على الشعر في القرن الثاني ، ومنذ نشأ علم الكلام في المجتمع الإسلامي اهتم به عدد كبير من الشعراء باعتبارهم طبقة مفكرة ربما كانت أرقى طبقات المجتمع في هذه الفترة . ولهذا رأينا أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام قبل ظهور المعتزلة كان منهم شاعران هما بشار وصالح ابن عبد القدوس^(٢) . بل إن ثون كريمة يرى أن مذهب القدرية تطور بالبصرة إلى مدرسة كلامية ذات نزعة عقلية ، وأن ذلك تم على يد بشار بن برد ، وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء^(٣) .

وفي البصرة في القرن الثاني أيضا ظهر شاعر متأثر بمذاهب المتكلمين إلى حد بعيد ، هو أبو عبد الرحمن العطوي وقد (كان له فن من الشعر لم يسبق إليه ، ذهب فيه مذهب أصحاب الكلام ففارق جميع نظرائه ، وخف شعره على كل لسان وروى واستعمله الكتاب واحتذوا معانيه وجعلوه إماما) فن شعره :

فيثى إلى أهدى السُّبُلُ قولاً وعِلْماً وعَمَلْ
قاتلها اللهُ لقد سامتُكما إحدى العُضُلْ
تقول هَلَّا رِحْلَةً تنقلنا خَيْرَ نَقْلْ
أنحشى على جائلةِ الآمالِ جَوَالَ الأَجَلْ^(٤)

ويروى ابن المعتز أن العطوي كان يذهب مذهب الحسين النجار — وكان من الحبيزة — كما يروى عنه أنه كان أحد المتكلمين المتقدمين^(٥) .

(٢) الأغاني ٣ : ١٤٦ .

(١) ضحى الإسلام ٣ : ٣١٤ .

(٤) الأغاني ٢٠ : ٥٨ .

(٣) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية : ١٧٧ .

(٥) طبقات الشعراء : ٣٩٥ .

ولإبراهيم النظام المعتزلي كان له (شعر دقيق المعاني على طريقة المتكلمين) كما يقول الخطيب البغدادي ، وينقل عن المرزباني أنه قال : كان لإبراهيم مذهب في ترفيق الشعر وتدقيق المعاني لم يسبق إليه ، ذهب فيه مذاهب أصحاب الكلام المدققين ، ومنه :

وشادين ينطق بالطرف يقصر عنه منتهى الوصف
رق فلو بزت سرايله علقه الجو من اللطف
يجرحه اللفظ بتكراره ويشكي الإيماء بالطرف
أفديه من مغرى بما ساءني كأنه يعلم ما أخفى^(١)

وقد أثرت مذاهب المتكلمين على شعراء القرن الثاني تأثيراً واضحاً ، فنجدهم يستخدمون مصطلحات علم الكلام وأساليبه في أشعارهم في الموضوعات المختلفة . فالعباس بن الأحنف مثلاً يذكر في غزله مشكلة القدرية فيقول :

إذا أردت سلوا كان ناصركم قلبي وما أنا من قلبي بمنتصر
فأكثروا أو أقلوا من إساءتكم فكل ذلك محمول على القدر

ويبدو أن الهذيل العلاف قد استأثره استخدام المشكلة الفلسفية على هذه الصورة ، لهذا كان يشنع على العباس بأنه يعقد الكفر والفجور في شعره^(٢) . والتأثير الكلامي في شعر أبي نواس وغيره واضح كل الوضوح ، وقد لاحظته من قبل الباحث واستنكر وجود اصطلاحات علم الكلام في الشعر قائلاً : (وإنما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حيث عجزت الأسماء عن اتساع المعاني) ولكنه يستترك قائلاً : (وقد تحسن أيضاً ألفاظ المتكلمين في مثل شعر أبي نواس وفي كل ما قالوه على جهة التظرف والتملح كقول أبي نواس :

تأمل العين منها محاسناً ليس تنفذ
فبعضها قد تناهى وبعضها يتولد

(١) تاريخ بغداد ٦ : ٩٧ .

(٢) الأغاني ٨ : ٣٥٤ .

وكقوله :

يا عاقِدَ القَلْبِ مِنِّي هَلَّا تَذَكَّرْتَ حَلًّا
تركتَ قلبي قليلاً مِن القليل أَقْلاً
يكادُ لَا يَتَجَزَّأُ أَقْلٌ فِي اللَّفْظِ مِن لَّا^(١)

وصاحب « الفرخ والتهاني » يدرك تأثر أبي نواس بعلم الكلام أيضاً ويرجع سبب ذلك إلى مصاحبة أبي نواس لإبراهيم النظام فهي التي جعلته يشتهى علم الكلام ، ثم تركه فبان ذلك بعد في أشعاره^(٢) . وابن منظور يؤكد صلة أبي نواس بعلم الكلام أيضاً ويقول إنه قعد إلى أصحاب الكلام فتعلم منهم ، ويضرب مثلاً لظهور هذا الأثر الكلامي في شعر أبي نواس بقوله :

إِنْ اسْمُ حُسْنٍ لَوَجْهَهَا صِفَةٌ وَلَا أَرَى ذَا فِي غَيْرِهَا اجْتِمَاعًا
فَهِيَ إِذَا سُمِّيَتْ فَقَدْ وُصِفَتْ فَيَجْمَعُ الْاسْمُ مَعْنَيْنِ مَعًا

ويعلق ابن منظور على البيتين قائلاً : إن أبا نواس يشير بذلك إلى مسألة كلامية مشهورة وهي أن الصفة هل هي عين الموصوف أو غيره^(٣) ؟
أما فرق الشيعة فلعلها أغزر الفرق المذهبية في إنتاجها الشعري ، وهذا يرجع إلى تأثيرها القوي في الحياة الفكرية في الإسلام ، كما يرجع إلى الكثرة الهائلة من الشعب التي تفرعت عن الفرقة الأصلية . ويقسم ابن طاهر البغدادي فرق الروافض من الشيعة فحسب إلى ثلاثة أقسام :

١ - الزيدية : وتنقسم بدورها إلى ثلاثة فرق : الجارودية ، السلمانية أو الحريرية ، البترية .

٢ - الكيسانية : وتنقسم بدورها إلى فرق كثيرة منها الكربية ، الراوندية ، البائية (أو البنائية كما مر بنا) ، الحريرية .

(١) البيان والتبيين ١ : ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) الفرخ والتهاني : ورقة ٤ (مخطوط) .

(٣) أخبار أبي نواس ١ : ١٣ ، ١٤ .

٣ - الإمامية : وتنقسم إلى أكثر من خمس عشرة فرقة منها الكاملية ، المحمدية الباقرية ، الشيعية ، الإسماعيلية ، الإثنا عشرية ، الهشامية ، الشيطانية^(١) .

ومذاهب هذه الفرق تختلف اختلافاً بيناً فيما بينها وتراوح في قربها من المذهب السني أو في بعدها عنه إلى حد الكفر والإلحاد . كما تتباين أيضاً في تأثيرها بالعناصر والأفكار الأجنبية ، من فارسية كالزرادشتية والمناوية والمزدكية والمرقونية والديصانية وسواها ، إلى هندية كالبوذية ومذاهب تناسخ الأرواح ، ومسيحية ويهودية أيضاً . وقد حصر أحمد أمين أساس الاختلاف بين فرق الشيعة - فيما عدا ما ذكرنا من اختلافات - في شيئين :

الأول : اختلاف في المبادئ والتعاليم ، فمنهم المغالي والمتطرف في التشيع الذي يسبغ على الأئمة نوعاً من التقديس ، ويبالغ في الطعن على من خالف علياً وحزبه إلى درجة الكفر ، ومنهم المعتدل المتزن الذي يرى أحقية الأئمة في اعتدال ، وخطأ من خالفهم خطأ لا يبلغ الكفر .

الثاني : الاختلاف في تعيين الأئمة^(٢) .

على أن فرق الشيعة تكاد تجتمع على تعاليم معروفة منها عصمة الأئمة واستخدام التقية والإيمان بالرجعة والمهدي المنتظر .

ومن الشعراء المذهبيين الذين كانوا يؤمنون بالتشيع كُثَيِّرٌ ، ومع أنه توفي في أول القرن الثاني (سنة ١٠٥ هـ) إلا أننا نعتبره من شعراء هذا القرن بسبب هذه الناحية المذهبية في شعره التي تجعله يمت إلى القرن الثاني بصلة قوية . فشعره المذهبي إذن هو الذي يسوغ لنا دراسته وليست وفاته في أول القرن الذي ندرسه . وكان كثير على مذهب الكيسانية الذين ادعوا أن محمد بن الحنفية لم يمت^(٣) . ومن قوله في ذلك :

(١) الفرق بين الفرق : ٢٢ وما بعدها (ويرى الطبري في أصل كلمة الروافض أن قوما من الشيعة زعموا أن أبا جعفر محمد بن علي أخا زيد بن علي هو الإمام ، وكان قد هلك يومئذ ، وكان ابنه جعفر بن محمد حياً ، فقالوا جعفر إمامنا اليوم بعد أبيه ، ولا تتبع زيد بن علي فسماهم زيد الرافضة (تاريخ الطبري ٨ : ٢٧٢) .

(٢) ضحى الإسلام ٣ : ٢١٠ . (٣) الفرق بين الفرق : ٢٨ .

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَلَاَ الْحَقُّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ
 عَلَى وَالثَّلَاثَةِ مِنْ بَنِيهِ هُمْ الْأَسْبَاطُ. لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ
 فَيَسْبُطُ. يَسْبُطُ. إِيْمَانٍ وَبِرٍّ وَسَبْطُ. غَيْبَتُهُ كَرِبْلَاءُ
 وَسَبْطُ. لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ حَتَّى يَقُودَ الْخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللَّوَاءُ^(١)

ويرى قلهوزن أن مسألة رجعة محمد بن الحنفية من كهفه برضوى فيملاً الدنيا عدلاً، فيها أصداء لما ورد في سفر أشعيا^(٢)، فكان في الرجعة تأثيراً أجنبيّاً واضحاً في تعاليم الشيعة .

ويقول الأصفهاني عن كثير إنه كان (شيعياً غالباً يزعم أن الأرواح تناسخ ويحتج بقوله تعالى (في أي صورة ما شاء ركبك) ويقول : ألا ترى أنه حوله من صورة إلى صورة ؟)^(٣) .

وكثير يلزم في مدحه قواعد الشعر المذهبي التي أشرنا إليها من قبل ، فهو لا يمدح فرداً إلا إذا كان لذلك صلة بمذهبه ، كما لا يمدحه إلا بما فيه ، ويتضح لنا ذلك في مدحه لعمر بن عبد العزيز :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتِمَ عَلِيًّا وَلَمْ تُخِفْ بَرِيًّا وَلَمْ تَتَّبِعْ مَقَالََةَ مُجْرِمٍ
 وَقُلْتَ فَصَدَّقْتَ الَّذِي قُلْتَ بِالَّذِي فَعَلْتَ فَأُضْحَى رَاضِيًّا كُلُّ مُسْلِمٍ^(٤)

وحينما كان كثير بمكة أمر بلعن عليّ فرفق المنبر وقال :

لَعَنَ اللَّهُ مَنْ يَسُبُّ عَلِيًّا وَبَنِيهِ مِنْ سُوقَةٍ وَإِمَامٍ
 أَيْسَبُ الْمُطَهَّرُونَ أَصُولًا وَالكَرِيمُ الْأَخْوَالِ وَالْأَعْمَامِ
 يَأْمَنُ الطَّيْرُ وَالْحَمَامُ وَلَا يَأْمَنُ آلُ الرَّسُولِ عِنْدَ الْمَقَامِ
 رَحْمَةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِمْ كُلَّمَا قَامَ قَائِمُ الْإِسْلَامِ^(٥)

(١) الأغاني ٩ : ١٤ وتلاحظ أن هذه الأبيات تروى للسيد الحميري أيضا .

(٢) الخوارج والشيعة : ٢٤٧ .

(٣) الأغاني ٩ : ٢٥٨ .

(٤) الأغاني ٩ : ٢٦٠ . (٥) ديوان كثير : ٢٦٦ .

وكثير يستخدم التقية خوفاً من بطش الأمويين ، ولهذا يمزج مذهبه في إنكار بعض الخلفاء ، بالاعتراف بخلافة بعض الأمويين ، وذلك في قوله :

وكان الخلائفُ بَعْدَ الرسولِ لِلّهِ كُلّهمُ تابِعاً
شَهِيدانِ من بَعْدِ صِدِّيقِهمُ وكان ابنُ خَوَلَى لهم رابعاً
وكان ابنُهُ بَعْدَهُ خَامِساً مُطِيعاً لمن قَبْلَهُ سابعاً
وَمُرَوَانُ سَادِسٌ مَنْ قَد مَضَى وكان ابنُهُ بَعْدَهُ سابعاً^(١)

والسيد الحميري كان على مذهب الكيسانية أيضاً وهو يقر بالرجعة حين يسأله سائل عن ذلك^(٢) ، ومن شعره في الحسين :

امرُّ على جَدَثِ الحُسَـيْنِ فقل لأَعْظَمِهِ الزُّكِّيَّةَ
آعْظَمًا لازلَّتْ مِنْ وَطْفَاءٍ سَاكِبَةٍ رَوِيَّةُ
وإذا مررتَ بِقَبْرِهِ فَاطِلُ بِهِ وَقَفَ المَطِيَّةُ
وابكِ المَطْهَرُ لِلْمَطْهَرِ م والمُطَهَّرَةُ النَّقِيَّةُ
كُبُكَاءُ مَعُولَةٍ أَنْتَ يَوْمًا لَوَاحِدِهَا المَئِيَّةُ^(٣)

ومن قوله في رجعة محمد بن الحنفية :

حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى وَمَتَى المَدَى يَا ابنَ الوَصِيِّ وَأَنْتَ حَيٌّ تُرْزَقُ؟^(٤)
ويقول أيضا :

يَا ابنَ الوَصِيِّ وَيَا سَمِيَّ مُحَمَّدٍ وَكَنِيَّةُ نَفْسِي عَلَيْكَ تَذُوبُ
لو غابَ عَنَّا عُمَرُ نُوحٍ أَيْقَنْتُ مِنَّا النُّفُوسُ بِأَنَّهُ سَيُؤُوبُ

(١) ديوان كثير : ٢٦٨ ، وقد يفهم من قوله (شهيذان من بعد صديقهم) أنه يقصد عمر وعثمان بعد أبي بكر ، ولكن شارح الديوان يقول إنه يعني بالشهيدين الحسن والحسين ، وبابن خويلد محمد بن الحنفية ، وبمروان مروان بن الحكم ، وبابنه عبد الملك بن مروان ، وكأنه بذلك أخرج من سرد الخلفاء عمر وعثمان وعلياً ، مع أن الكيسانية يعترفون بزعامة علي كما مر بنا في أبيات سابقة لكثير .

(٢) الأغاني ٦ : ٢٤٣ . (٣) المصدر نفسه ٦ : ٢٤٠ .

(٤) طبقات ابن المعتز : ٣٣ .

وينهكم على بن الجهم بفكرة الروافض في الرجعة فيقول :

ورافضة نقولُ بِشَغْبِ رِضْوَى إِمَامُ خَابَ ذَلِكَ مِنْ إِمَامِ
إِمَامٌ مَنْ لَهُ عَشْرُونَ أَلْفًا مِنْ الْأَتْرَاكِ مُشْرَعَةُ السُّهَامِ^(١)

ولكن هذه الفكرة كانت أساسية عند الكيسانية بالذات ، فهم يؤمنون بأن ابن الحنفية في شعب بجبل رضوى تحرسه الوحوش الضارية ، وأنه سيؤوب فيملاً الدنيا عدلاً ، ويصور هذا الاعتقاد السيد الحميري بقوله :

تَغَيَّبَ غَيْبَةً مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ وَلَا قَتْلٍ وَسَارَ بِهِ الْقَضَاءُ
وَبَيْنَ الْوَحْشِ بَرَعَى فِي رِيَاضٍ مِنْ الْآفَاقِ مَرْتَعُهَا خَلَاءُ
فَحَلَّ فَمَا بِهَابَشَرٍ سِوَاهُ بِحَقْوَتِهِ لَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ
إِلَى وَقْتٍ وَمُدَّةٌ كُلُّ وَقْتٍ وَإِنْ طَالَتْ عَلَيْهِ لَهَا انْقِضَاءُ
فَقُلْ لِلنَّاصِبِ الْهَادِي ضَلَالًا تَقُومُ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ غَنَاءُ
فِدَاءُ لَابِنِ خَوْلَةَ كُلُّ نَذْلٍ يُطِيفُ بِهِ وَأَنْتَ لَهُ فِدَاءُ
كَأَنَا يَا بَنَ خَوْلَةَ عَنْ قَرِيبٍ وَرَبُّ الْعَرْشِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ
يَهْزُ دُوَيْنَ عَيْنِ الشَّمْسِ سَيْفًا كَلِمَعِ الْبَرْقِ أَخْلَصَهُ الْجِلَاءُ^(٢)

وفي مذهب الكيسانية يجوز سب أصحاب رسول الله وأزواجه والطعن عليهم . والسيد الحميري يصور هذه الناحية من مذهبه في قصيدته التي يقول فيها معرضاً بالأمويين وبالسيدة عائشة :

أَبْنِ التَّطَرُّفُ بِالْوَلَاءِ وَبِالْهَوَى أَلَى الْكُوَاذِبِ مِنْ بَروقِ الْخُلْبِ
أَلَى أُمِيَّةَ أَمْ إِلَى الشُّبُعِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَى الْجَمَلِ الْخِذْبُ الشُّوقَبِ
تَهْوَى مِنَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ فَنَبِهَتْ بَعْدَ الْهُدُوِّ كَلَابَ أَهْلِ الْحَوَابِ^(٣)

(١) الأغاني ١٠ : ٢٠٥ .

(٢) فوات الوفيات ١ : ٢٥ .

(٣) طبقات ابن المعتز : ٣٥ والحوَاب نمر من مياه العرب نزلته السيدة عائشة حين ذهبت إلى البصرة في وقعة الحمل .

ويقال إن السيد الحميري قد رجع عن مذهب الكيسانية في فترة من حياته وآمن بإمامة جعفر بن محمد بعد أن ناظره وألزمه الحجة . وينسب إلى السيد أنه قال في ذلك :

تَجَعَّفَرْتُ بِاسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَأَيَقَنْتُ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ وَيَغْفِرُ
ويثبت مهما شاء ربي بأمره ويمحو ويَقْضِي في الأمور ويَقْدِرُ^(١)

ولكن راويه مع ذلك يؤكد أنه مات على مذهب الكيسانية وأنه لم يقل بإمامة جعفر بن محمد^(٢) . ونحن نؤمن بما قاله راوية السيد لأن شعره كله الذي بين أيدينا إنما هو تصوير لمذهب الكيسانية ودفاع عنه . وكانت بين فرق الشيعة بالذات محاجة وملاحاة مذهبية عنيفة . والسيد الحميري كان ممن يشتركون دائماً في الدفاع عن إمامة محمد بن الحنفية . ويقول الرواة إنه ناظر محمد بن علي بن النعمان المعروف بشيطان الطاق وهو صاحب فرقة الشيطانية فغلبه محمد في رفع ابن الحنفية عن الإمامة ، فقال السيد في ذلك :

ألا يا أيها الجدِلُ المعْنَى لنا ما نَحْنُ وَيُحَكِّ والعِنداءُ
أَتُبْصِرُ ما تقولُ وأنتَ كَهْلٌ تُرَاكَ عليك من ورَعٍ رداءُ
ألا إنَّ الأئمةَ من قُرَيْشٍ ولايةَ الحقِّ أربعةٌ سَوَاءُ
على والثلاثةُ مِنْ بَنِيهِ همُ أسباطُهُ والأوصياءُ
فأنا في وصِيَّتِهِ إليهمُ يكونُ الشُّكُّ مِنَّا والعِراءُ
هم أوصاهمُ ودعا إليه جميعَ الخلقِ لو سَمِعَ الدُّعاءُ
فسبَط. سبَط. إيمانٍ وحِلْمٍ وسبَط. غيْبَتُهُ كَرِبلاءُ
وسبَط. لا يذوق الموتَ حتى يقودُ الخَيْلَ يقدِّمُها اللِّواءُ^(٣)

ولما كان الكيسانية يخلصون الحب والإجلال لعلي بن أبي طالب – كما رأينا في

(١) طبقات ابن المعتز : ٣٣ .

(٢) الأغاني ٧ : ٢٣١ .

(٣) المصدر نفسه ٦ : ٢٤٥ .

شعر كثير - لهذا كان السيد الحميرى يؤكد في شعره المذهبي هذه الحقيقة دائماً ،
يقول مثلاً :

أَقْسِمُ بِاللَّهِ وَآلِهِ وَالْمَرْءُ عَمَّا قَالَ مَسْئُولٌ
إِنَّ عَلَىَّ بَنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَى التُّنَى وَالْبِرُّ مَجْبُولٌ^(١)
ولكن حبه لعلى لا يصل إلى حد المغالاة التي وصلتها مذاهب بعض الشيعة
المتطرفين الذين ألَّهوا عليّاً ، ولهذا نجد السيد يهاجمهم بلا هوادة في قوله :
قَوْمٌ غَلَّوْا فِي عَلِيٍّ لَا أَبَا لَهُمْ وَأَجْشَمُوا أَنْفُسًا فِي حُبِّهِ نَعْبَا
قالوا هو الله جلَّ اللهُ خَالِقُنَا عن أن يكون ابن شئى أو يكون أباً^(٢)
وحين سمع السيد قول محارب بن دثار الدهلى - وهو من فرقة شيعية ترجى
إمامة على إلى الدرجة الرابعة - ينتصر لمذهبه هذا قائلاً :

يَعِيبُ عَلَى أَقْوَامٍ سِفَاهَا بِأَنْ أَرْجَى أَبَا حَسَنِ عَلِيًّا
وَأَرْجَأَى أَبَا حَسَنِ صَوَابٌ عَنِ الْعُمَرَيْنِ بَرًّا أَوْ شَقِيًّا
فَإِنْ قَدَّمْتُ قَوْمًا قَالَ قَوْمٌ أَسَاءَتْ وَكُنْتَ كَذَّابًا رَدِيًّا
إِذَا أَيْقَنْتُ أَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَأَرْسَلَ أَحْمَدًا حَقًّا نَبِيًّا
وَأَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بُعِثُوا بِحَقٍّ وَأَنَّ اللَّهَ كَانَ لَهُمْ وَلِيًّا
فَلَيْسَ عَلَىَّ فِي الْإِرْجَاءِ بَأْسٌ وَلَا تَبَسُّ وَلَسْتُ أَخَافُ شَيْئًا

أخذ يسب ابن دثار لاختلافهما على الإمام ومكان على في الأئمة ، وأخذ يترحم
على الشاعر أبى الأسود - وهو من الكيسانية - ويذكر بانخير قصيدته التي يقول فيها :

أَحِبُّ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا وَعَبَّاسًا وَحَمَزَةَ وَالْوَصِيَّا

وحين يسمع منصور النمرى بهذه الملاحاة المذهبية يشترك فيها أيضاً ، وكان على
الرغم من مدائحهم في العباسيين وظهوره بمظهر المنافر لآل على شيعياً محضاً ، ويبدو

(١) الأغاني ٦ : ٢٤٧ .

(٢) الانتصار : ١٤٨ .

أنه كان على مذهب الكيسانية أيضا ، كما يتبين لنا في رده على محارب بن دثار إذ يقول :

يَوَدُّ مُحَارِبٌ لَوْ قَدْ رَأَاهَا وَأَبْصَرَهُمْ حَوَالِيَهَا جَنِيَا
وَأَنْ لِسَانَهُ مِنْ نَابٍ أَفْعَى وَمَا أَرْجَا أَبَا حَسَنِ عَلِيَا
وَأَنْ عَجُوزَهُ مَضَعَتْ بِكَلْبٍ وَكَانَ دِمَاءُ سَاقِيهَا جَرِيَا
مَتَى تُرْجِيءُ أَبَا حَسَنِ عَلِيَا فَقَدْ أَرْجَيْتَ يَالْكَعُ نَبِيَا^(١)

ولا أدري إن كان الفمري يبالي في مدح على يجعله نبيا على سبيل المجاز . أو أن مذهبه الشيعي هو الذي دفعه إلى هذا التصوير ، وحينئذ لا يكون كيسانياً كما فهمنا من شعره من قبل .

وعلى أية حال فالفمري كان متلونا في مذهبه ، أو هو شيعي ولكنه يستخدم التقية استخدماً واسعاً خوفاً من السلطان ، كما يفهم من كلام ابن قتيبة^(٢) ، وإن كنا نلاحظ أنه كان يذهب بعيداً جداً في مدحه للعباسيين إلى حد إنكار حق آل علي في الخلافة كما في قوله يمدح الرشيد :

يَا ابْنَ الْأَثَمَةِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ يَا ابْنَ ٢ الْأَوْصِيَاءِ أَقْرَ النَّاسِ أَوْ دَفَعُوا
إِنْ الْخِلَافَةُ كَانَتْ لِإِثْ وَالِدِكُمْ مِنْ دُونِ تَيْمٍ وَعَفَوُ اللَّهِ مُتَّسِعٌ
لَوْلَا عَدِيٌّ وَتَيْمٌ لَمْ تَكُنْ وَصَلْتُ إِلَى أُمِيَّةٍ تَمْرِيهَا وَتَرْتَضِعُ
وَمَا لَآلِ عَلِيٍّ فِي إِمَارَتِكُمْ وَمَا لَهُمْ أَبَدًا فِي إِرْثِكُمْ طَمَعُ
الْعَمُّ أَوْلَى مِنْ ابْنِ الْعَمِّ فَاسْتَمِعُوا قَوْلَ الْحَقِيقَةِ إِنَّ الْحَقَّ مُسْتَمَعٌ^(٣)

وربما كان مدحه للعباسيين خضوعاً لما يمليه مذهب الكيسانية الذي يفهم منه أنه يقر خلافة العباسيين ، حتى يسلموها إلى محمد بن الحنفية الذي سيعود فيملاً الأرض عدلاً .

وكان الفمري مع هذا في أشعاره المذهبية الأخرى شيعياً إلى أقصى حد ، وقد طلبه الرشيد لقتله حين اتضحت له حقيقة ، وحين سمع بقصيدته التي يظهر فيها

(١) الأغاني ٦ : ٢٤٨ . (٢) الشعر والشعراء : ٨٣٥ . (٣) المصدر نفسه .

مذهبه بوضوح ويحمل على الأمويين والعباسيين حماسة شعواء :

شَاءَ مِنَ النَّاسِ رَاتِعٌ هَامِلٌ يُعَلِّلُونَ النَّفْسَ بِالْبَاطِلِ
تُقْتَلُ ذُرِّيَةُ النَّبِيِّ وَيَرْجُو نِجْنَانَ الْخُلُودِ لِلْقَاتِلِ
وَيْلَكَ يَا قَاتِلَ الْحُسَيْنِ لَقَدْ نُوتَ بِحَمْلِ يَنْوٍ بِالْحَامِلِ
أَيُّ حِبَاءٍ حَبَّوتَ أَحْمَدَ فِي حُفْرَتِهِ مِنْ مَرَارَةِ الثَّائِلِ
بَأَى وَجْهِ تَلَقَى النَّبَى وَقَدْ دَخَلْتَ فِي قَتْلِهِ مَعَ الدَّائِلِ^(١)

ويقول ابن المعتز إن النمرى في هذه القصيدة تناول أبا بكر وعمر - على طريقة الكيسانية - وزعم أنهما ظلما بنت الرسول في قوله :

مَظْلُومَةٌ وَالْإِلَهَ نَاصِرُهَا تَدِيرُ أَرْجَاءَ مَقْلَةٍ حَافِلِ^(٢)
ويقول ابن المعتز أيضا إن أشعار النمرى في آل الرسول عليهم السلام كثيرة جدا وهي من أجود ما مدحوا به ويذكر له في ذلك قوله :

آلُ الرَّسُولِ وَمَنْ يُحِبُّهُمْ يَتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ
أَمِنْ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ وَهُمْ مِنْ أُمَّةٍ التَّوْحِيدِ فِي أَزْلِ^(٣)
ولعل النمرى في هذين البيتين يعتذر لاضطراره إلى الكذب في مدح العباسيين وإنكار حق العلويين .

والسيد الحميرى عنى في شعره المذهبي أيضا بالناحية التعليمية لتلقين الأجيال الجديدة مبادئ التشيع ، وستناول هذه الناحية فيما بعد ، وهو يكشف لنا عن بغضه لعثمان وأبي بكر وعمر في قوله للمتشييعين الذين يؤخرون إمامة علي :

خَلِيلٌ لَا تُرْجَا وَاعْلَمَا بَأَنَّ الْهُدَى غَيْرُ مَا تَزْعُمَانِ
وَأَنْ عَمَى الشُّكَّ بَعْدَ الْيَقِينِ وَضَعَفَ الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعِيَانِ
ضَلَالٌ فَلَا تَلْجِجَا فِيهِمَا فَبِثَّتْ لَعْمُرُكُمَا الْخَصْلَتَانِ

(١) الأغاني ١٣ : ١٤٩ .

(٢) طبقات الشعراء : ٢٤٤ .

(٣) طبقات الشعراء : ٢٤٧ .

أُبرجى على إمام الهُدى وعثمانُ ما أعندَ المُرجيان^(١)
 ويُرجى ابنُ حَرْبٍ وأشياؤه وهُوج الخوارجِ بالنَّهروانِ
 يكونُ إمامهمُ في المَعادِ خبيثُ الهوى مؤمنُ الشَّيْصَبانِ^(٢)
 وظل السيد الحميرى على مذهبه هذا لم يغيره بدليل ما يرويه الرواة من أنه قال
 عند موته :

برئت إلى الاله من ابنِ أروى ومن دين الخوارجِ أجمعينا
 ومن فُعلٍ برئت ومن فُعيلٍ غداةَ دُعى أميرَ المؤمنينِ
 والشراح يذكرون أنه يقصد بفعل وفعل عمر وأبا بكر^(٣) .
 ودعبل الخزاعي من الروافض الغلاة أيضا ، وقد كان صريحا في عدائه
 للعباسيين ونقمته عليهم لإيذائهم العلويين ، ولهذا عاش طريداً يحدُّ السلطان في أثره
 حتى لقد قيل عنه في ذلك إنه نحت خشبته وجعلها على عنقه يدور بها يطلب من
 يصلبه ثلاثين سنة وهو لا يبالي^(٤) .

ودعبل له شعر في مدح المأمون حينما قرب إليه العلويين ورفع الظلم عنهم .
 أما شعره في مدح العلويين فأشهره قصيدتان تائيتان أولاهما قوله :

مدارسُ آياتٍ خلتُ مِنْ تلاوةٍ ومنزلٌ وَحْيٍ مقفَرُ العَرَصاتِ
 والأخرى يقول فيها :

طَرَقْتُكَ طَارِقَةُ المُنَى بِبَيَاتٍ لا تُظهرى جَزَعاً فَأَنْتِ بَدَاتِ
 فِي حُبِّ آلِ المِصْطَفَى وَوَصِيهِ شُغْلٌ عَنِ اللِّذَاتِ والقَيْنَاتِ
 فاحْشُ القَصِيدَ بِهِمْ وَفَرِّغْ فِيهِمْ قلباً حشوتِ هواهُ باللِّذَاتِ
 واقطع حباله من يُريدُ سواهم فِي حُبِّهِ تَحُلُّ بِدارِ نِجاةٍ^(٥)

(١) في البيت إقواء إذا كانت ما للتعجب .

(٢) الأغاني ٧ : ٢٥٩ . والشَّيْصَبان من أسماء الشيطان .

(٣) المصدر نفسه ٧ : ٢٧٦ .

(٤) طبقات ابن المعتز : ٢٦٥ .

(٥) طبقات ابن المعتز : ٢٦٨ .

ودعبل الخزاعي يمثل في الواقع التقاء الروافض من الشيعة بالمجوس والحمير . فقد كان مولعاً بالشراب متهكاً خبيث الهجاء ، وهذا النواحي سبق أن أرجعنا بعض أسبابها إلى غلاة الروافض .

ومن فرق الشيعة أيضاً فرقة الحمديّة وهم من الشيعة الإمامية ، أطلقت عليهم هذه التسمية لا لتظارهم محمد بن عبد الله بن الحسن ، وكانوا يقولون برجعة الأموات إلى الدنيا قبل القيامة ، وفي ذلك قال شاعرهم :

إلى يَوْمٍ يُووبُ النَّاسُ فِيهِ إلى دنياهمُ قبل الحسابِ^(١)
ويقول عبد القاهر البغدادي إن الخلاف بين الإمامية والزيدية من الشيعة بلغ حدّاً كبيراً لدرجة أنهم كان يكفر بعضهم بعضاً . وظهر هذا الخلاف في شعرهم المذهبي ، فشاعر الإمامية يهجو الزيدية بقوله :

يا أيُّها الزيديةُ المُهمَّلةُ إمامكم ذو آفةٍ مُرسَّلةٍ
يا رَحِماتِ الجوّ تبا لكم عِصْتُمْ فَأَخْرَجْتُمْ لَنَا جَنْدَلَةً
ويرد عليهم شاعر الزيدية بقوله :

إمامنا منتصبٌ قائمٌ لا كالذي يُطلبُ بالغربلةِ
كل إمامٍ لا يُرى جَهْرَةً ليس يساوي عندنا خردلة^(٢)

والخلاف يدور في هذه الأبيات حول نظرة كل فريق للإمامة . فالزيدية لهم إمام معروف هو زيد بن علي بن الحسن ، أما الإمامية فينتظرون رجعة إمام يختلفون عليه . والسبئية أتباع عبد الله بن سبأ يزعمون أن علياً لم يقتل ، ولكنه صعد إلى السماء وأنه في السحاب ، والرعد صوته ، والبرق سوطه ، ولهذا كلما سمع السبئيون صوت الرعد ، قالوا : وعليك السلام يا أمير المؤمنين ! وقد هجا أعشى همدان السبئية وأوضح تفاهتهم بإيمانهم بكرسي المختار الذي ادعى الألوهية ونزول الوحي عليه ، وذلك في قوله :

شهدتُ عليكم أنكم سبئيةٌ وإني بكم يا شُرطةَ الكُفر عارفُ
وأقسمُ ما كرسِيكم بمَكينةٍ وإن كان قد لُفَّتْ عليه اللُفائفُ

(١) الفرق بين الفرق : ٣٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٤ .

وإن لبس الثابت فُتْنَا وإن سَمَتُ حَمَامٌ حَوَالِيهِ وَفِيكُمْ زَخَارِفُ^(١)
 وإني امرؤُ أحببتُ آلَ محمدٍ وآثرتُ وَحْيَا ضُمَّنْتُهُ الْمَصَاحِفُ^(٢)
 ويرى قلهوزن أن مذهب السبئية متأثر باليهودية أكثر من الفارسية ، فكما كان
 لموسى خليفة هو يوشع كذلك لمحمد خليفة هو علي^(٣) .

وقد هجا السبئية والخوارج جميعا الشاعر إسحق بن سويد العدوي في قوله :
 بَرِئْتُ مِنَ الْخَوَارِجِ لَسْتُ مِنْهُمْ مِنَ الْغَزَالِ مِنْهُمْ وَابْنُ بَابٍ
 وَمِنْ قَوْمٍ إِذَا ذَكَرُوا عَلِيًّا يَرْدُونَ السَّلَامَ عَلَى السَّحَابِ
 وَلَكِنِّي أَحَبُّ بِكُلِّ قَلْبٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَاكَ مِنَ الصَّوَابِ
 رَسُولُ اللَّهِ وَالصَّدِيقُ حَبِيبَا بِهِ أَرْجُو غَدَا حُسْنَ الثَّوَابِ^(٤)
 والخطابية - وهم من غلاة الروافض الحلولية التي تؤمن بالتناسخ - زعموا أن
 جعفر الصادق قد أودعهم جلدأ فيه علم كل ما يحتاجون إليه من الغيب ، وسموا
 ذلك الجلد جفرا ، وزعموا أنه لا يقرأ فيه إلا من كان منهم . وقد أوضح لنا هارون
 ابن سعيد العجلي - وهو شاعر على مذهب الزيدية - في هجائه للخطابية ، عناصر
 مذهبهم ومذاهب الغلاة من أمثالهم الذين يتعلقون بأوهام وخرافات ، كما يكشف
 لنا عن العلاقة بين معتقداتهم وبين ما يعتقدونه النصارى بالنسبة إلى المسيح وذلك
 في قوله :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الرَّافِضِينَ تَفَرَّقُوا وَكُلُّهُمْ فِي جَعْفَرٍ قَالَ مُنْكَرَا
 فَطَائِفَةٌ قَالُوا إِلَهُ وَمِنْهُمْ طَوَائِفٌ سَمَّتُهُ النَّبِيُّ الْمُطَهَّرَا
 وَمَنْ عَجَبٍ لَمْ أَقْضِهِ جِلْدَ جَعْفَرٍ بَرِئْتُ إِلَى الرَّحْمَنِ مِمَّنْ تَجَعَّفَرَا
 فَإِنْ كَانَ يَرْضَى مَا يَقُولُونَ جَعْفَرُ فَإِنِّي إِلَى رَبِّي أَفَارِقُ جَعْفَرَا

(١) الفُتْنُ جمع فتان وأصله غشاء يجعل للرجل من آدم . وأما الحمام فقد أرسله ابن الأشر في
 معركة ضد عبيد الله بن زياد ليوم جنده أن الملائكة أتت لنصرته (انظر : الملل والنحل
 ١ : ١٩٩) .

(٢) الحيوان ٢ : ٢٧١ . (٣) الخوارج والشيعة : ٢٤٤ .

(٤) الفرق بين الفرق : ١٤٤ .

بَرِئْتُ إِلَى الرَّحْمَنِ مِنْ كُلِّ رَافِضٍ بِصِيرُ بَبَابِ الْكُفْرِ فِي الدِّينِ أَغُورَا
 إِذَا كَفَّ أَهْلُ الْحَقِّ عَنْ بِدْعَةٍ مَضَى عَلَيْهَا وَإِنْ يَمْضُوا إِلَى الْحَقِّ قَصْرَا
 وَلَوْ قِيلَ إِنَّ الْفِيلَ ضَبَّ لَصَدَّقُوا وَلَوْ قِيلَ زِنْجِيُ تَحَوَّلَ أَحْمَرَا
 وَأَخْلَفَ مِنْ بَوْلِ الْبَعِيرِ فَإِنَّهُ إِذَا هُوَ لِلْإِقْبَالِ وَجْهٌ أَذْبَرَا
 فَيَا قُبْحَ أَقْوَامٍ رَمَوْهُ بِفِرْيَةٍ كَمَا قَالَ فِي عَيْسَى الْفَرَسِيِّ مِنْ تَنْصُرَا^(١)

وقد سبق أن أشرنا إلى أن محمد جابر عبد العال قد حاول أن ينسب أبا نواس إلى مذهب الخطابية والمعمرية وهم فرع من الخطابية ، ولكننا نفينا ذلك نفياً تاماً إذ لا يوجد عليه دليل .

أما بشار فقد سبق أن بينا نسبته إلى الكاملية ، وهم من غلاة الروافض أيضاً ، وبيننا رأى عبد القاهر البغدادي والصفدي صاحب نكت الهميان في ذلك ، وقد جوزنا في تعليقنا على هذا الموضوع أن يكون بشار قد تأثر في فترة من حياته بمذهب هؤلاء الروافض .

وأما أبو العتاهية وصلته بالثنوية من أما نوية وزرادشتية فقد فصلنا فيها القول عند الحديث عن الزندقة ، وكذلك تحدثنا عن الآراء التي نسبته إلى مذهب الزيدية البيرية نسبة إلى كثير النوى الملقب بالأبتر . وأوضحنا من قبل أيضاً أن مطيع بن إلياس من روافض الشيعة لقوله :

أَمْسَيْتُ جَمَّ بِلَالِ الصُّدْرِ دَهْرًا أَزَجَّيْهِ إِلَى دَهْرِ
 إِنَّ فُهْتَ طُلَّ دَمِي وَإِنْ كُتِمَتْ وَقَدَّتْ عَلَى تَوَقُّدِ الْجَمْرِ
 مِمَّا جَنَاهُ عَلَى أَبِي حَسَنِ عَمْرٌ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ^(٢)
 ولكننا لا نستطيع أن نقطع إلى أي فرقة كان ينتمي مطيع لأن هذه الأبيات وحدها هي التي عثرنا عليها في الشعر المذهبي منسوباً إليه .

ومن روافض الشيعة الغالية الذين ينسبون إلى الكفر فرقة المنصورية نسبة إلى أبي منصور العجلي ، وقد كفرت بالقيامة والجنة والنار ، وكانت تستخدم الحق غيلة للقضاء على أعدائها ، وفي هذه الفرقة يقول أعشى همدان :

(١) الفرق بين الفرق : ١٥٣ . (٢) شعراء عباسيون : ٤٩ .

إِذَا سِرْتُ فِي عِجْلٍ فِيسِرْ فِي صَحَابَةٍ وَكِنْدَةً فَاحْذَرَهَا حِذَارَكَ لِلْخَسْفِ
وَفِي شِيعَةِ الْأَعْمَى خِثَاقٌ وَغِيلَةٌ وَقَشْبٌ وَإِعْمَالٌ لَجَنْدَلَةِ الْقَذْفِ
وَكُلُّهُمْ شَرٌّ عَلَى أَنْ رَأَسَهُمْ حُمَيْدَةَ وَالْمِيلَاءَ حَاضِنَةُ الْكِسْفِ^(١)
والمغيرية أيضا كانت تغتال أعداءها - وهي تنسب إلى المغيرة بن سعيد العجلي
- وهي الشيعة التي يشير إليها أعشى همدان في البيت الثاني من الأبيات السابقة .
وفي هؤلاء الروافض الغلاة وفي غيرهم من السبئية والكربية - نسبة إلى أبي كرب
الضرير - يقول أبو السري معدان الشميطي :

خَشَبِيٌّ وَكَافِرٌ سَبْيَانِي كُرْبِيٌّ وَنَاسِخٌ قَتَالٌ
تِلْكَ تَيْمِيَّةٌ وَهَاتِيكَ صَمْتٌ ثُمَّ دِينَ الْمُغِيرَةِ الْمُغْتَالِ
خَنَقٌ مَرَّةٌ وَشَمٌّ بُخَارٌ ثُمَّ رَضَمُخٌ بِالْجَنْدَلِ الْمُتَوَالِي^(٢)
ويروى الجاحظ لمعدان الشميطي هذا قصيدة صنف فيها الرافضة ثم الغالية
زقدم الشميطية على جميع أصناف الشيعة^(٣) والشميطية فرقة من الشيعة الإمامية
نسبت إلى أحمد بن شमित وكان صاحب المختار .

وفيما عدا هؤلاء الروافض الغلاة من الشيعة ومن لديهم من الشعراء المذهبيين
نجد شعراء شيعيين آخرين ليسوا من الغلاة ، ويأتى في مقدمة هؤلاء الكميت الذى
يعد من أوائل الشعراء المذهبيين في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني . وقد اختلف
الكتاب الأقدمون في تحديد مذهب الكميت ، فالجاحظ يجعله من الغالية^(٤) ،
والأصفهاني يجعله من الروافض ، ولكن شعره يكشف لنا أن مذهبه الزيدية بدليل

(١) انظر : الحيوان ٦ : ٣٨٩ والقشيب خلط السم بالطعام ، أما حميدة فهي من أصحاب
للى الناعظية ولها رئاسة في الغالية ، والميلاء حاضنة أبي منصور صاحب المنصورية وهو الكسف ،
قالت الغالية : إياه عنى الله بقوله : (وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا محاب مركوم) .
(٢) انظر : الحيوان ٢ : ٢٧٠ والخشبى من طائفة كانوا يقتلون بالخشب والكربية طائفة من
السبئية ، والشطر الأول من البيت الثاني غامض المعنى ويبدو أن به تحريفاً والجر في البيت الأول على تقدير ما قبله .
(٣) الحيوان ٢ : ٢٦٨ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ٤٦ ويقول شوقى ضيف إن الجاحظ نعت الكميت بذلك لإرضاء
للعباسيين لأن الكميت يقرر في حماسة إرث بيت على للرسول معتمداً على القرابة ولذلك كان يقف
في صف بنى فاطمة . وكل هذا لا يرضى العباسيين منه فقد ادعوا أنهم أصحاب هذا الإرث وأنهم
الأحق به (انظر : التطور والتجديد في الشعر الأموى : ٣١٥) .

عدم شتمه لأبي بكر وعمر والقول بظلمهما فاطمة بنت الرسول كما جاء في شعر النمرى مثلاً ، يقول الكميت في ذلك :

أَهْوَى عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَرْضَى بِشَتْمِ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عَمْرًا
وَلَا أَقُولُ وَإِنْ لَمْ يُعْطَا فَدَكَاً بِنْتَ الرَّسُولِ وَلَا مِيرَاثَهُ كَفَرَاً
اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يَأْتِيَانِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عُذْرٍ إِذَا اعْتَذَرَا^(١)

ويقول شوقي ضيف في ذلك إن مبادئ الزيدية معتدلة ، والكميت يصور هذا الاعتدال في هاشمياته ، فليس فيها غلو في تصور حقيقة الإمام ولا في العلم الذي بثه الله فيه . فالإمام ينبغي أن يكون فقيهاً وليس هناك بعد ذلك ما يصور علماً باطنياً أو شعوذة . ونستطيع أن نقول إن نظرية الزيدية كما تصورها الهاشميات إنما تركز على نظرية الإمامة والوراثة الشرعية لها ، ثم شروط تشرط في الإمام من الزهد والتقوى والشجاعة والسخاء والعلم بالكتاب والسنة واتباع هدى الشريعة ، والعدل بين الناس . وليس في الهاشميات بعد ذلك تقرير لرجعة أو تناسخ أو نحو ذلك مما يؤمن به غلاة الشيعة^(٢) .

وتقول سهير القلماوى إن الكميت هو أول من جاهر بحب آل البيت في شعره ، حتى إن شعره يعد وثيقة تاريخية في بعض مصطلحات الشيعة ، وجولد زهر يقول إن الكميت أول من استعمل كلمة « التقية » في معناها الاصطلاحي في قوله :

وإني، على أنى أرى في تَقِيَّةٍ أَخَالَفَ أَقْوَاماً لِقَوْمٍ ، لَمْ يُزِيلْ

ويقول دى جوية في مقال له عن الكميت إن قيمة شعر الكميت الأدبية أقل من قيمته السياسية والتاريخية^(٣) . وفي نفس هذا المعنى ذكرنا من قبل نصاً لشوقي ضيف يقول فيه إن هاشميات الكميت أقدم نص يعرفنا بالمقالة الزيدية . ومن أجل ذلك كانت الهاشميات تعد لوناً أدبياً جديداً في تاريخ الشعر العربي ، فمن قبل الكميت لم يتخذ شاعر شعره لإثبات مقالة مذهبية ، أما الكميت فإنه عمد عمداً إلى

(١) الهاشميات : ١٥٦ .

(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموى : ٣١٤ ، ٣١٥ .

(٣) أدب الحوارج : ١٣٠ .

صياغة مقالة الزيدية في الشعر مستعينة بكل ما ثقفه العقل العربي في العراق لهذا العصر من صور حجاج وجدال واستدلال^(١).

ومن الشعر الذي دافع به الكميت عن حق البيت الهاشمي في الخلافة قوله :

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آل حَامِمٍ آيَةً تَأُولُهَا مِنَّا تَقِيٌّ وَمُعَرِبٌ^(٢)
وَفِي غَيْرِهَا آيَا وَآيَا تَتَابَعَتْ لَكُمْ نَصَبٌ فِيهَا لَدَى الشَّكِّ مُنْصَبٌ
بِحَقِّكُمْ أَمْسَتْ قُرَيْشٌ تَقْوِدُنَا وَبِالْفَدِّ مِنْهَا وَالرَّدِّ يَفِينُ نُرْكَبُ^(٣)
وَقَالُوا وَرِثْنَاهَا أَبَانَا وَأَمْنَا وَمَا وَرَثَتُهُمْ ذَاكَ أَمْ وَلَا أَبٌ
يَرُونَهُمْ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا سَفَاهَا وَحَقُّ الْهَاشِمِيِّينَ أَوْجَبُ^(٤)

ويرى شوقي ضيف أن الكميت قد استفاد من علم الكلام ومن صلته بالمعتزلة، وأن الهاشميات صورة دقيقة لطرقهم في الاستدلال والحوار وما يشفعون به هذا الاستدلال والحوار من نظر عقلي عميق . وهو يفرق بين الشعر المذهبي للكميت وشعر كثير لأن شعر الكميت يخدم نظرية معينة ومذهباً محدداً ، ولهذا لا يكاد يذكر الكميت اسم إمامه زيد ، أما كثير فشعره المذهبي يتصل بشخص الإمام وهو محمد بن الحنفية قبل أي شيء آخر^(٥). وهذا الكلام في الواقع لا ينطبق على كثير وحده ولكنه ينطبق على جميع الشعراء المذهبيين الذين تناولناهم في هذا الفصل. وقد كان ذكرهم للإمام مسألة ضرورية لوجود خلاف على الأئمة وعقائد مذهبية معينة تتعلق بهم كالاختفاء والرجعة ، وهذا الخلاف وتلك العقائد لم يكن للزيدية علاقة بهما ، ومن هنا حدث هذا الفارق بين محور شعر الكميت ومحور الشعراء المذهبيين الآخرين الذين ليسوا على مذهب الزيدية .

وما كان يشترطه الزيدية في الإمام ، كأن يكون من أبناء فاطمة ، وأن يكون عالماً

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي : ٢٥٥ .

(٢) يقصد بآيات سورة حاميم وغيرها مثل قوله تعالى (لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) وقوله تعالى (وآت ذا القربى حقه) إلى غير ذلك .

(٣) يقصد بالفد معاوية وبالرد يفين الذين أتوا من بعده .

(٤) الهاشميات : ٣٧ .

(٥) التطور والتجديد في الشعر الأموي : ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

زاهداً شجاعاً سخياً، يردده الكميت في ديوانه ما دام قد أخذ على عاتقه أن ينشر دعوة الزيدية وأسسها في شعره ، يقول في ذلك :

الحماءُ الكُفَاةُ في الحَرْبِ إِنَّ لَفِ ضِرَامَا وَقودُهَا بِضِرَامِ
والْغُيُوثُ الذينَ إِنَّ أَمَحَلَ النَّاسُ فَمَاوَى حَوَاضِنِ الْآيَتَامِ
غَالِبَيْنِ هَاشِمِيَيْنِ فِي الْعِلْمِ رَبَّوْا مِنْ عَظِيَّةِ الْعَلَامِ
وَهُمُ الْآخِذُونَ مِنْ ثِقَةِ الْأَمْرِ بِتَقْوَاهُمْ عُرَى لَا انفِصَامِ^(١)

ومن شعراء الشيعة أيضاً الذين لم يكونوا من الغلاة المتطرفين إبراهيم بن هرمة ويقول عنه صاحب تاريخ بغداد إنه كان ممن اشتهر بالانقطاع إلى الطالبين^(٢). ويقول ابن المعتز إنه كانت له مدائح في عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب وفي حسن بن زيد عليهما السلام ، وكان منقطعاً إليهما ، ومن قوله في آل البيت :

ومهما أَلَامُ عَلَى حُبِّهِمْ فَإِنِّي أَحِبُّ بَنِي فَاطِمَةَ
بَنِي بِنْتٍ مَن جَاءَ بِالْمُحْكَمَاتِ م وَالَّذِينَ وَالسُّنَّةِ الْقَائِمَةِ^(٣)

ولم يصلنا من شعر ابن هرمة المذهبي إلا هذان البيتان ، ومع ذلك فقد أنكر أنه قالهما خوفاً من بطش العباسيين . ويبدو لنا أن ابن هرمة كان يميل فقط إلى العلويين دون أن يتخذ مذهبهم عقيدة صحيحة له ، خاصة أنه كان مدمناً على الشراب ، كل ما يرجوه قبل موته أن يسكر ويصبح به الصبيان :

أَسْأَلُ اللَّهَ سَكْرَةً قَبْلَ مَوْتِي وَصِيَّاحَ الصُّبَّيَّانِ يَا سَكْرَانُ^(٤)

ويروى المبرد أن الحسن بن زيد لما ولي المدينة قال لابن هرمة : إني لست كمن باع لك دينه رجاء مدحك أو خوف ذمك (وهو هنا يعرض بولاة الأمويين) .. وأنا أقسم بالله لئن أتيت بك سكران لأضربنك حداً للخمر وحداً للسكر ، فقال ابن هرمة :

(٢) تاريخ بغداد ٦ : ١٢٧ .

(٤) الأغاني ٤ : ٣٩٧ .

(١) الهاشميات : ٢ .

(٣) طبقات الشعراء : ٢١ .

نَهَانِي ابْنُ الرَّسُولِ عَنِ الْمُدَامِ وَأَدَّبَنِي بِآدَابِ الْكِرَامِ
 وَقَالَ لِي اصْطَبِرْ عَنْهَا وَدَعَهَا لِخَوْفِ اللَّهِ أَوْ خَوْفِ الْأَنَامِ
 وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَنْهَا وَحُبِّي لَهَا حُبُّ تَمَكُّنٍ فِي عِظَامِي
 أَرَى طِيبَ الْحَلَالِ عَلَى خُبْنًا وَطِيبُ النَّفْسِ فِي خُبْنِ الْحَرَامِ^(١)

ولا ندرى أكان إبراهيم بن هرمة - ما دام بهذا الخلق - من غلاة الرافضة الذين يبيعون لأنفسهم المحرمات، أم أنه كان يتشيع تشيعاً ظاهرياً وكان بطبيعته ماجناً سكيراً لا يصبر عن شراب ؟ وسواء أكان هذا أم ذاك فهو لا يعتد به في الشعر المذهبي لأنه لا يصور لنا عقيدة معينة ولا يرسى أصول مذهب يعتقه ، شأن الشعراء المذهبيين الذين تحدثنا عنهم . ولا يحتاج على ذلك بعدم وصول شعره إلينا ، فإنه لو كان قد وقف شعره أو أكثره على الناحية المذهبية، لوصلنا كما وصل شعر الكميت وغيره .

ومهما يكن من شيء فإن الشعر المذهبي كان اتجاهاً جديداً حقاً في الشعر العربي في القرن الثاني ، قد تكون قيمته الفنية أقل بكثير من قيمته التاريخية والفكرية ، لأنه يعنى بالاستدلال والوقائع والأسس والنظريات، دون أن يرعى رقة التعبير ولا جمال الأسلوب والأداء أو رونق الألفاظ ، ولكنه على أية حال يصور الاصطراع بين المذاهب والفرق المختلفة التي كانت تمارس نشاطها الفكري في القرن الثاني ، وما وصلنا من شعر ربما كان يصور جانباً صغيراً من هذه الفرق والمذاهب لأنها كانت متعددة لا يحيط بها حصر ولا فكر ، والمذهب الواحد يتفرق إلى عشرين فرقة أو أكثر كما أوضحنا من قبل . ولعل خير ما نختم به الكلام عن الشعر المذهبي تلك الأبيات التي قالها محمد بن يسير في إظهار ضيقه بهذه الفرق والمذاهب التي كانت في عصره :

بَا سَائِلِي عَنْ مَقَالَةِ الشُّبَّاعِ وَعَنْ صُنُوفِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ
 دَعُ مَنْ يَقُودُ الْكَلَامَ نَاجِيَةً فَمَا يَقُولُ الْكَلَامَ ذُو وَرَعِ

كُلُّ أَنَايِرٍ بَدِيْهِمْ حَسَنٌ ثُمَّ يَصِيرون بَعْدُ لِلشُّنْعِ
 أَكْثَرُ مَا فِيهِ أَنْ يُقَالَ لَهُ لَمْ يَكُ فِي قَوْلِهِ بِمُنْقَطِعٍ^(١)
 وهذان البيتان اللذان أنشدهما الرياشي لأحد شعراء القرن الثاني أيضا ،
 يؤكد فيهما ما ذهب إليه ابن يسير من الضيق بالتناحر بين الفرق والمذاهب المختلفة :
 قَدْ نَقَرَّ النَّاسُ حَتَّى أَحْدَثُوا بِدْعًا فِي الدِّينِ بِالرَّأْيِ لَمْ تُبْعَثْ بِهَا الرُّسُلُ
 حَتَّى اسْتَخَفَّ بِحَقِّ اللَّهِ أَكْثَرُهُمْ وَفِي الَّذِي حُمِّلُوا مِنْ حَقِّهِ شُغْلٌ^(٢)
 وهذه الأبيات تمثل تيار المؤمنين السنين الكارهين للبدع والفضلالات وما
 كان أكثرهما في هذا العصر كما أوضحنا في هذه الدراسة .

الشعر التعليمي

لعل آخر الاتجاهات الجديدة التي نتناولها بالدراسة والتي لاحظنا نشأتها في
 شعر القرن الثاني ، هو الفن التعليمي الذي يصطنعه الشعراء عادة لنظم أنواع شتى
 من العلوم والمعارف تسهيلا لحفظها . ومما لاشك فيه أن نشأة هذا الفن إنما تقترن
 باتساع أنواع المعارف والعلوم وازدياد الإقبال على التعليم والتعلم في القرن الثاني ، وما
 كان ممكنا أن ينشأ في الشعر العربي فن تعليمي قبل هذا القرن لهذا السبب
 نفسه .

والارتباط بين اتجاه الشعر التعليمي والاتجاهات الأخرى التي ذكرناها في هذا
 الفصل واضح تمام الوضوح فيما كتبناه عن تلك الاتجاهات . فكل منها كانت
 توجد فيه ناحية تعليمية ، حتى المجون كما بينا في أرجوزة الرقاشي . وما دامت الثقافة

(١) الكامل للمبرد : ١٤٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٤١ .

العربية قد تأثرت بثقافات أجنبية مختلفة كما أوضحنا في أول هذه الدراسة، فهل يجوز لنا أن نتساءل : هل نشأ الفن التعليمي في الشعر العربي تحت وجود تأثير أجنبي من أى نوع ؟

إن اليونان عرفوا هذا الفن منذ زمن بعيد ، بل لعلهم كانوا من أسبق الأمم في ذلك المصنوع . فالشاعر اليوناني « هزيود » الذي كان يعيش في القرن الثامن قبل الميلاد نظم طائفة من القصائد فيها جمال شعري لا بأس به—كما يقول طه حسين — ولكنه قصد بها إلى تقييد طائفة مما كان اليونان يرونه علما في ذلك الوقت ، فقد نظم تاريخ الآلهة وأحاديثهم ، كما نظم هذه القصيدة المشهورة التي تعرف بالأعمال والأيام ، والتي بين فيها فصول السنة وما يلائمها من ضروب الزراعة، وما يحتاج إليه الزارع من أداة وجهد وفن ، إلى غير ذلك مما نجده في هذه القصيدة من معارف زمن صاحبها^(١).

وفي الوقت نفسه نجد أن الهنود كان لهم ولع شديد بهذا الفن التعليمي، حتى إن البيروني شكك من نظمهم لقواعد الرياضة والفلك . لأن ذلك يخرجهم أحيانا عن ضبط القواعد وما يستلزمه من دقة في التعبير . ويرى أحمد أمين أن هذا الاتجاه ربما كان له تأثير في نشأة الفن التعليمي عند العرب^(٢).

فأى الثقافتين إذن كان لها التأثير في نشأة الفن التعليمي في الشعر العربي في القرن الثاني ؟

الثقافة اليونانية أم الهندية ؟ إن كلا الثقافتين قد اتصلت بالفكر العربي اتصالا وثيقا كما بينا من قبل ، ولكن اتصال العرب بالأدب الهندي كان أوثق بكثير من اتصالهم بالأدب اليوناني ، لأن أدب الهنود أقرب إلى الطبيعة العربية بما فيه من أساطير وأسمار وحكايات . ثم إن علوم الهند التي كانت متقدمة فيها أو تتفرد بها، مثل الفلك والحساب وغيرهما ، كانت سببا في توثيق العلاقة بين الثقافتين العربية والهندية أيضا ، هذا بالإضافة إلى تأثير الشعراء المولدين الذين هم من أصل هندي، وتأثير عملية المزج بين الجنسيتين على وجه العموم ، وما يترتب عليها من آثار مختلفة .

نحن نميل إذن إلى إقرار هذا التأثير الهندي في نشأة الفن التعليمي في الشعر

(٢) ضحى الإسلام ١ : ٢٥٨ .

(١) حديث الأربعاء ٢ : ٢٢٠ .

العربي ، إذا كان لابد من وجود تأثير أجنبي ، وإذا لم يكن الشعر التعليمي قد نشأ نشأة طبيعية بانتشار حركة التعليم وإحساس المعلمين والمتعلمين على السواء بحاجتهم إلى نوع من التأليف (المدرسي) يسهل نقل المعلومات وحفظها ، فلم يجدوا غير الاستعانة بالشعر ليكون وسيلة مشوقة وسهلة في الوقت نفسه — خاصة بالنسبة للعقلية العربية المشهورة بقدرتها على حفظ الشعر وروايته .

ويرى شوقي ضيف أن الشعر التعليمي نشأ نشأة عربية خالصة في أواخر الدولة الأموية ، أي في أواخر القرن الأول وبداية الثاني ، إذ يعتبر أراجيز رؤية والعجاج ومن إليهما « متونا لغوية » ، ويقول الكاتب في ذلك : (والإنسان لا يلم بديوانيهما حتى يقطع بأنهما كانا يؤلفان أراجيزهما قبل كل شيء من أجل الرواة ، ومن أجل أن يمداهم بكل لفظ غريب وكل أسلوب شاذ ، ومن هنا كنا نسمى هذه الأراجيز متونا لغوية . وقد بلغت هذه المتون صورتها المثالية عند رؤية فهو النمو الأخير لهذا العمل التعليمي الذي أرادته المدرسة اللغوية من جهة ، والذي استجاب له الرجاز من جهة أخرى . ولعل ذلك ما جعل اللغويين يوقرونه أعظم التوقير . فأبو الفرج يقدمه في ترجمته له بقوله : (أخذ عنه وجوه أهل اللغة وكانوا يقتدون به ويحتجون بشعره ويجعلونه إماما) . . . وبين أيدينا أخبار كثيرة تدل على أن أصحاب اللغة والنحو من مثل يونس ، كانوا ما يزالون يلتقطون ما ينثره من درر الوحشي الغريب . وفي ديوانه إشارات كثيرة إلى النحاة من مثل قوله : (يلتمس النحوى فيها قصدى) ويفتخر بأن النحوى مهما كان عالما باللغة فإنه لا يبلغ مبلغه فيها إذ يقول :

لا ينظرُ النَحْوِيُّ فيها نظري وهو دهيُّ العلمِ والتعبيرِ

ولا يقرأ الإنسان في أراجيز رؤية حتى يشعر شعورا واضحا بأنه اتخذ لنفسه وظيفة غريبة هي ، صياغة الألفاظ والأساليب والإتيان بكل غريب شاذ فيها ، حتى يرضى ذوق اللغويين وحاجتهم . وقرأ له هذا المطلع في أرجوزة له مشهورة :

وقاتم الأعماق خاوى المُخْتَرَقُ	مُشْتَبِهُ الأعمامِ لَمَاعِ الخَفَقُ
يَكِلُ وفدُ الرِّيحِ مِنْ حَيْثُ انْخَرَقُ	شَارِ بِمَنْ عَوَّةَ جَذْبِ المُنْطَلَقُ
ناء من التَّصْبِيحِ نَائِي المُنْتَبِقُ	تبدو لنا أعلامُهُ بَعْدَ الغَرَقُ

فِي قِطْعِ الْآلِ وَهَبَاتِ الدُّقُقِ خَارِجَةً أَعْنَاقُهَا مِنْ مُعْتَنَقِ
تَنْشِطَتُهُ كُلُّ مِغْلَاةِ الْوَهَقِ مَضْبُورَةٍ قِرْوَاءِ هِرْجَابِ فُنُقِ^(١)

..... نحن إذن بإزاء متون تؤلف لا بإزاء أشعار تصاغ ويعبر بها أصحابها عن حاجاتهم الوجدانية أو العقلية ، فقد تطور الشعر العربي وأصبحت الأرجوزة منه خاصة تؤلف من أجل حاجة المدرسة اللغوية وما تريده من الشواهد والأمثال . والأرجوزة الأموية من هذه الناحية تعد أول شعر تعليمي ظهر في اللغة العربية . ولعل في هذا ما يدل على المكان الذي ينبغي أن توضع فيه ، أو الذي وضعت فيه فعلا ، فكانها صحف العلماء من مثل يونس وأبي عمرو بن العلاء ، يتعلمونها ويعلمونها الناس ، وينقلونها إلى أذهانهم وينقشونها في عقولهم ، ليدلوا بها على مدى علمهم في اللغة ومعرفتهم بالفاظها المستعملة والمهملة^(٢) .

ونحن وإن كنا نقر ما ذهب إليه شوقي ضيف من اعتبار أراجيز رؤبة وأضرابه متونا لغوية ، إلا أننا لا نجعلها شعرا تعليميا بالمعنى المفهوم من الشعر التعليمي ، وذلك لأنها باعتراف الباحث نفسه وضعت من أجل علماء اللغة أنفسهم ليلتقطوا منها ما لا يعرفونه من الغريب ، فهي إذن محدودة بهذا النطاق لا تتعداه بعكس الشعر التعليمي الذي يتوجه إلى المتعلمين أولا ليسهل عليهم حفظ ما يتضمنه هذا الشعر من علوم ومعارف .

ومع ذلك فقد كان الرجز والمزدوج منه في الغالب هو الشكل الذي اعتمد عليه الشعر التعليمي اعتمادا كلياً في القرن الثاني . ولعل أقدم ما وصلنا من هذا الرجز المزدوج ، تلك الخطبة التي ألقاها الوليد بن يزيد على منبر المسجد في يوم الجمعة ولعلها كانت مقدمة للرجز التعليمي في هذا القرن ، وقد قال فيها :

(١) قاتم الأعماق يقصد ما بعد من أطراف المقازة التي يصفها ، الخثوق : مهيب الريح ، مشته الأعلام : متشابه الجبال ، الخفق : السراب ، وفد الريح : أولها ، الخثوق : هب ، شاز : غليظ ، عوه : أقام ، ومعنى البيت الثالث : لا يوجد فيه ماء يورد صباحاً أو عشية ، وبعد الفرق أي بعد الفرق في السراب ، الدقق : التراب الدقيق ، تنشطه : جازته ، مغللة الوهق : يريد أن ناقتة سريعة ، مضبورة : مجموعة الخلق ، قرواء : طويلة الظهر ، هرجاب : ضخمة ، الفثق : الكثيرة اللحم .

(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي : ٣٤٥ وما بعدها .

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَلِيُّ الْحَمْدِ أَحْمَدُهُ فِي يُسْرِنَا وَالْجَهْدِ
 وَهُوَ الَّذِي فِي الْكَرْبِ أَسْتَعِينُ وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ قَرِينُ
 أَشْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَمَا سِوَاهَا أَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِلَّا هَا
 مَا إِنْ لَهُ فِي خَلْقِهِ شَرِيكُ قَدْ خَضَعْتُ لِمُلْكِهِ الْمُلُوكُ^(١)

وتتابع بعد ذلك النظم في الشعر التعليمي واستخدام الرجز المزدوج في صوغ أنواع العلوم والمعارف ، فنجد محمد بن إبراهيم الفزاري ينظم شعرا تعليميا في الفلك ، لم تصلنا منه غير مقطوعة صغيرة رواها صاحب الوافي بالوفيات ، وياقوت في معجم الأدباء . وكذلك نظم أبو-فيما يبدو - إبراهيم بن حبيب الفزاري قصيدة في علم النجوم أيضا لم يصلنا منها شيء^(٢) . وربما كان الأب والابن شخصا واحدا لأن الصفدي يقول عن محمد بن إبراهيم بن حبيب الفزاري إنه (كان عالما بأمر النجوم ، له قصيدة تقوم مقام التريجات وهي مزدوجة ، قال المرزباني تدخل هي وشروحها في عشرة أجلاد ، وأولها :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْأَعْظَمِ ذِي الْفَضْلِ وَالْمَجْدِ الْكَبِيرِ الْأَكْرَمِ
 الْوَاحِدِ الْفَرْدِ الْجَوَادِ الْمُنْعِمِ
 الْخَالِقِ السَّبْعِ الْعُلَى طِبَاقاً وَالشَّمْسِ يَجْلُو ضَوْئُهَا الْإِغْسَاقَا
 وَالْبَدْرِ يَمْلَأُ نُورُهُ الْآفَاقَا
 وَالْفَلَكَ الدَّائِرِ فِي الْمَسِيرِ لِأَعْظَمِ الْخَطْبِ مِنْ الْأُمُورِ
 يَسِيرُ فِي بَحْرِ مِنَ الْبُحُورِ
 فِيهِ النُّجُومُ كُلُّهَا عَوَامِلُ مِنْهَا مُقِيمٌ دَهْرُهُ وَزَايِلُ
 فَطَالِعٌ مِنْهَا وَمِنْهَا آفِلُ^(٣)

(١) الأغاني ٧ : ٥٧ .

(٢) الفهرست : ٣٨١ .

(٣) الوافي بالوفيات ١ : ٣٣٦ .

والملاحظ على الشعر التعليمي كله - كما يتضح في هذه المنظومة - أنه كان من العوامل القوية التي حررت الشعر في القرن الثاني من نظام القصيدة التقليدية وخاصة في القوافي . وذلك لأن طبيعة الشعر التعليمي وصوغه لمعارف وعلوم شتى ، ألزمت الشعراء بالاتجاه إلى المزدوج وغيره من ضروب النظم ، كما سنيين بالتفصيل في الباب الثالث من هذا البحث .

واسحق بن حنين له قصيدة تعليمية في تاريخ الطب يقول فيها :

أنا ابنُ الذين استودع الطب فيهمُ	وسمى به طفلٌ وكهلٌ وبافعُ
يُبصرني آرسطاليس بارعاً	يقوم مني منطقٌ لا يدافعُ
وبقراط في تفصيل ما أثبت الألى	لنا الضرر والإسقام طبّ مضارعُ
وما زال جالينوس يشنى صدورنا	لما اختلفت فيه علينا الطبائعُ
ويحيى بن ماسويه وأهرن قبله	لهم كتبٌ للناس فيها منافعُ ^(١)

واحتاج العلماء بسبب فساد الألسنة إلى تحجيب علم النحو - الذي نشأ في القرن الثاني واستقرت أوضاعه - إلى الناشئة ، ولهذا نجد لهم شعرا تعليميا في مدحه ، ربما كان هو الأساس فيما بعد لألفية ابن مالك وغيرها من النظم التعليمية في النحو . ومن ذلك الشعر قول إسحق بن خلف البهراني :

النحو يبسط من لسان الألكن	والمرء تكريمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها	فأجلها منها مقيم الألسن ^(٢)

وللكسائي قصيدة في هذا المعنى أيضا يقول فيها :

إنما النحو قياس يتبع	وبه في كل أمر ينتفع
فإذا ما أبصر النحو فتى	مر في المنطق مرا فأتسع
فاتقاه كل من جالس	من جليس ناطق أو مستمع
وإذا لم يبصر النحو فتى	هاب أن ينطق جبناً فانقطع

(١) شعراء النصرانية بعد الإسلام : ٢٤٩ .

(٢) الكامل للمبرد : ٢٣٩ .

فتراه يَنْصِبُ الرَّفْعَ وما
 يقرأ القرآن لا يعرف ما
 والذي يعرفه يقرؤه
 ناظرًا فيه وفي إعرابه
 فهما فيه سواء عندكم
 كم وضع رفع النخو وكم
 كان من خفض ومن نصب رفع
 حرف الإعراب فيه وصنع
 فإذا ما شك في حرف رجع
 فإذا ما عرف اللحن صدع
 ليست الألسن فينا كالبدع
 من شريف قد رأيناه وضع^(١)

وفي علم التاريخ نجد قصيدة للجري تبلغ نحو مائة وخمسين بيتاً، أتى فيها على جميع الحوادث ببغداد، في الحرب التي دارت رحاها بين الأميين والمأمون ، وقد تركها لطلوها ابن الأثير^(٢) فلم نعثر للأسف عليها عند غيره . والجاحظ في (الحيوان) يقول إن للأصمعي قصيدة (يذكر فيها من أهلك الله عز ذكره من الملوك وأباد من الأمم الحالية) ومنها قوله :

أَعْلَقَتْ تَبَعًا حِيَالُ الْمُنُونِ
 وَأَصَابَتْ مِنْ بَعْدِهِمْ آلَ هِرْمَا
 مَلَكَ الْحَضَرَ وَالْفُرَاتَ إِلَى دِجْ
 كُلُّ حِمْلٍ بِمَرٍّ فَوْقَ بَعِيرٍ
 وَانْتَحَتْ بَعْدَهُ عَلَى ذِي جُدُونِ
 سَ وَعَادَتْ مِنْ بَعْدِ السَّاطِرُونِ
 لَمَ شَرْقًا فَالْطُّورُ مِنْ عَبْدِينَ
 فَلَهُ مَكْسُهُ وَمَكْسُ السَّنِينِ^(٣)

وفي باب الفرائض نجد مزدوجة لأبان بن عبد الحميد اللاحقي يشرح فيها أحكام الصوم والزكاة وقد افتتحها بقوله :

قَصِيدَةُ الصَّيَامِ وَالزَّكَاةِ
 ثُمَّ يَبْدَأُ حَدِيثَهُ عَنِ الصَّوْمِ فَيَقُولُ :
 هَذَا كِتَابُ الصَّوْمِ وَهُوَ جَامِعُ
 مِنْ ذَلِكَ الْمُنَزَّلِ فِي الْقُرْآنِ
 نَقْلُ أَبَانٍ مِنْ فَمِ الرُّوَاةِ
 لِكُلِّ مَا قَامَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ
 فَضْلًا عَلَى مَنْ كَانَ ذَا بَيَانٍ

(١) تاريخ بغداد ١١ : ٤١٢ . (٢) الكامل ٦ : ١٠٠ .

(٣) الحيوان ٦ : ١٤٩ وذو جدون لعله يقصد ذا جدن وهو من أدواء اليمن ، والهرماس نهر نصيبين ، والساطرون من ملوك العجم ، والحضر مدينة بإزاء تكريت بالعراق ، وطور عبيد بن بليدة من أعمال نصيبين .

ومنه ما جاء عن النبي من عهده المتبع المرضى
صلى الإله عليه وسلما كما هدى الله به وعلمنا
وبعضه على اختلاف الناس من أثر ماض ومن قياس
والجامع الذي إليه صاروا رأى أبي يوسف مما اختاروا
قال أبو يوسف أما المفترض فرمضان صومه إذا عرض
والصوم في كفارة الأيمان من حيث ما يجرى به اللسان...^(١)

وفي ميدان الفلسفة الطبيعية وعلم الحيوان أيضا نجد قصيدتين لبشر بن المعتمر ،
جمع فيهما كما يقول الجاحظ (كثيرا من هذه الغرائب والفوائد ، ونبه بهذا على وجوه
كثيرة من الحكمة العجيبة والموعظة البليغة) ، يقول في إحداها :

تبارك الله وسبحانه بين يديه النفع والضرر
من خلقه في رزقه كلهم الذئخ والتيتل والغفر
وساكن الجوّ إذا ماعلا فيه ومن مسكنه القفر
والصدع الأعصم في شاهق وجابة مسكنها الوعر
والحيّة الصماء في جحرها والتنفّل الرائغ والذر^(٢)

وذكر الجاحظ أيضا قصيدة للحكم بن عمرو البهراني موضوعها الحيوان أيضا
ويقول الجاحظ إنه (ذكر فيها ضروبا كلها طريف غريب) وأولها :

إنّ ربّي لما يشاء قدير ما لشيء أرادته من مفر^(٣)
كما ذكر أرجوزة للرقاشي في الفهد^(٤).

وإذا صح ما ذكره الرواة عن أبان اللاحقي ونظمه التعليمي لكان يعد بحق
شاعر هذا النوع في القرن الثاني . فهو إلى جانب نظمته في الفرائض ، قد نظم
قصائد أخرى تعليمية في تاريخ الفرس ، منها ما هو في سيرة أردشير ، ومنها ما هو في

(١) الأوراق (أخبار الشعراء) : ٥١ .

(٢) الحيوان ٦ : ٢٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ٦ : ٨٠ .

(٤) المصدر نفسه ٦ : ٤٧٢ .

سيرة أنوشروان ، كما نظم قصائد في العقائد الفارسية والهندية ، كما يذكر « هوتسما » ، فنظم كتاب بلوهر وبوداسف وكتاب مزدك^(١) .

وكان لأبان أيضا مجهود واضح في صياغة الأسماء والأساطير الأجنبية في شعر تعليمي ، فيقال إنه نظم كتاب السندباد - وهو من أصل هندي - كما نظم كتاب كليلة ودمنة بما فيه من حكم تلقى على ألسنة الحيوان ، وجعله في أربعة عشر ألف بيت كما يقول الخطيب البغدادي^(٢) . وقد أورد الصولي جزءا من منظومة أبان لكليلة ودمنة يقول فيه :

هذا كتابُ أدبٍ ومُخَنَّةٌ	وهو الذي يُدعى كليله ودمنه
فيه دَلالاتٌ وفيه رُشْدٌ	وهو كتابٌ وَضَعَتْهُ الهِنْدُ
فوصفوا آداب كُلِّ عالمٍ	حكايةً عن ألسنِ البهائم
فالحكماء يعرفون فضله	والسُّخفاء يشتهون هزلَه
وهو على ذاك يَسِيرُ الحِفْظُ	لَدُ على اللُّسانِ عند اللفظِ
يا نَفْسُ لا تشاركِي الجُهَّالَ	في حُبِّ مَذْمُومٍ كأن قد زالا
يا نَفْسُ لا تشقى ولا تعنى	في طَلَبِ الدُّنيا ولا تمنى ..

ويقول في باب الأسد والثور :

وإنَّ مَنْ كان دَنِيءَ النُّفْسِ	يَرْضَى مِنَ الْأَرْفَعِ بِالْأَخْسِ
كَمِثْلِ الْكَلْبِ الشَّقِيِّ الْبَائِسِ	يَفْرَحُ بِالْعَظْمِ الْعَتِيقِ الْيَائِسِ
وإنَّ أَهْلَ الْفَضْلِ لا يَرْضِيهِمْ	شَيْءٌ إِذَا مَا كان لا يَعْنِيهِمْ
كالأسد الذي يَصْبِدُ الْأَرْنَبَا	ثم يرى العَيْرَ الْمُجَدَّ هَرَبَا ^(٣)

وابن النديم يذكر أن أبان بن عبد الحميد لم يكن وحده الذي نظم كليلة ودمنة ، فقد نظمها أيضا علي بن داود ، وبشر بن المعتز^(٤) . ويقول ابن النديم

(١) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) : مادة أبان اللاحق .

(٢) تاريخ بغداد ٧ : ٤٤ . (٣) الأوراق (أخبار الشعراء) : ٤٦ وما بعدها .

(٤) الفهرست : ٤٢٤ .

في موضع آخر إنه كانت توجد جماعة يعملون الخرافات والأسمار على ألسنة الحيوان وغيره^(١) — لا ندرى إن كان ذلك شعرا أم نثرا — وهم سهل بن هارون ، وعلى ابن داود ، والعتابي ، وأحمد بن أبي طاهر^(٢) . فكأن هذا النوع من الشعر التعليمي قد اتسع مداه واستقر وضعه في الأدب العربي منذ القرن الثاني .

وقد نظم أبان اللاحقي أيضا قصيدة في نظام الكون (ذكر فيها مبتدأ الخلق وأمر الدنيا وأشياء من المنطق) وسماها ذات الحلال^(٣) ، ولكن لم يصلنا منها شيء .
لنعرف موضوعاتها بالتفصيل .

وحمدان بن أبان اللاحقي لم يقصر أيضا في ميدان الشعر التعليمي عن مدى أبيه وإن لم يبلغ مبلغه ، وإه قصيدة تعليمية طريفة في فن الحب وحيل المحبين . ويبدو أن أباه لم يترك له مجالا في الشعر التعليمي ، فابتكر هو هذا الموضوع ليكون شيئا جديدا فيه ، يقول :

ما بال أهل الأدب	مننا وأهل الكتب
قد وضعوا الآدابا	واتبعوا الكتابا
لكل فن دفتر	منقط محبر
ففرقت أجناسا	وعلموها الناسا
بالحيل الرقيقة	والفطن الدقيقة
فأرشدوا الضاللا	وعلموا الجهالا
سوى المحبين فلم	يرعوا لهم حق الذمم
في علم ما قد جهلوا	وما به قد ابتلوا
قد غلقت رهونهم	واستعبرت عيونهم
وحالفوا السهادا	وخالفوا الرقادا

.....

وصفت أهل العشق ولم أمل عن حق

(٢) المصدر نفسه ٤٢٨ .

(١) الفهرست : ٤٢٨ .

(٣) انظر : تاريخ بغداد ٧ : ٤٤ .

فاسمع مقالاً صادقاً يا مَنْ يَبِيتُ عاشقاً
للحب خَلَّتَانِ هما هما اللتان
الصبرُ والرَّفْقُ معاً يوماً إذا ما اجتمعا
في عاشقٍ مهجورٍ مُبَاعِدٍ مغرورٍ
قضى قريباً وطراً وبلَغَ غَاةَ الوَطَرِ^(١)

وكما وسع الشعر التعليمي أنواع العلوم والمعارف والآداب التي كانت شائعة في القرن الثاني ، كذلك وسع المذاهب المختلفة التي كانت موجودة في هذا العصر ، حتى إن أحد الباحثين المحدثين يرى وجود علاقة قوية بين الشعر التعليمي والمذهبي فهو يقول : (إن الشعر التعليمي مرحلة من مراحل التطور في شعر الأخلاق والحكمة ، إذ أن الشعر يكون في أول أمره نصيحة وإرشاداً ومواعظ تقوم على أساس التجارب الإنسانية العامة ، حتى إذا بلغ الشعراء من العلم والمعرفة مبلغاً حسناً ، أغراهم ذلك بأن يستخدموا معارفهم الجديدة في هذا الطراز من الشعر . وقد نشأ هذا الضرب من الشعر عند أصحاب الآراء والمذاهب الدينية من الشعراء)^(٢) .

ولعل أهم الشعراء المذهبيين الذين اهتموا بهذه الناحية التعاليمية في شعرهم السيد الحميري فهو - كما يقول ابن المعتز - (لم يترك لعل بن أبي طالب فضيلة معروفة إلا نقلها إلى الشعر)^(٣) وقد أراد بذلك ، فيما يبدو لي ، تنشئة أطفال الشيعة على حب الإمام ، والإيمان بما يرتبط به من أساطير وكرامات ، وتلقين هؤلاء الأطفال أيضاً حب آل البيت وأئمتهم الذين يقروهم جميعاً .

ومن تلك القصص التعليمية التي نظمها السيد ماروي عن علي بن أبي طالب أنه عزم على الركوب فلبس ثيابه وأراد لبس الخف ، فلبس أحد خفيه ثم أهوى إلى الآخر ليأخذه ، فانقض عقاب من السماء فحلق به ثم ألقاه فسقط منه ثعبان انساب فدخل جحراً ، نظمها السيد فقال :

(١) الأوراق (أخبار الشعراء) : ٥٧ وما بعدها .

(٢) انظر : الشعر في بغداد : ٢٥٥ .

(٣) طبقات الشعراء : ٣٢ .

أَلَا يَا قَوْمُ لِلْعَجَبِ الْعُجَابِ لِيُخَفُّ أَبِي الْحُسَيْنِ وَلِلْحَبَابِ
 أَنِّي خُفًّا لَهُ وَانْسَابَ فِيهِ لِيَنْهَشَ رِجْلَهُ مِنْهُ بِنَابِ
 فَخَرُّ مِنَ السَّمَاءِ لَهُ عُقَابٌ مِنْ الْعُقْبَانِ أَوْ شَبَّهِ الْعُقَابِ
 فَطَارَ بِهِ فَحَلَّقَ ثُمَّ أَهْوَى بِهِ لِلْأَرْضِ مِنْ دُونِ السَّحَابِ
 إِلَى جُحْرِ لَهُ فَانْسَابَ فِيهِ بَعِيدَ الْقَعْرِ لَمْ يُرْتَجْ بِبَابِ
 كَرِيهُ الْوَجْهِ أَسْوَدُ ذُو بَصِيصٍ حَدِيدُ النَّابِ أَزْرَقُ ذُو لُعَابِ
 وَدُفِعَ عَنْ أَبِي حَسَنِ عَلِيٌّ نَقِيعَ سَامِهِ بَعْدَ انْسِيَابِ^(١)

وفي الروايات التي تدور حول الحسن والحسين أنهما وجدا النبي عليه السلام ساجدا فركبا على ظهره ، فقال عمر بن الخطاب : نعم المطى مطيكما ، فقال الرسول : ونعم الراكبان هما . وقد أوحى هذه الرواية للسيد الحميري بقصيدة تعليمية قال فيها :

أَنِّي حَسَنًا وَالْحُسَيْنَ النَّبِيَّ وَقَدْ جَلَسَا حَجْرَةَ يَلْعَبَانِ
 فَفَدَاهُمَا ثُمَّ حَيَّاهُمَا وَكَانَا لَدَيْهِ بِذَاكَ الْمَكَانِ
 فَرَاخًا وَتَحْتَهُمَا عَاتِقَاهُ فَنِعْمَ الْمَطِيَّةُ وَالرَّاكِبَانِ
 وَلِيدَانِ أُمَّهُمَا بَرَّةٌ حَصَانٌ مَطْهَرَةٌ لِلْحَصَانِ
 وَشَيْخُهُمَا ابْنُ أَبِي طَالِبٍ فَنِعْمَ الْوَلِيدَانِ وَالْوَالِدَانِ^(٢)

وشعراء الزهد والتصوف في القرن الثاني كانت لهم ناحية تعليمية في شعرهم كما سبق أن أشرنا ، ولعل أبا العتاهية أبرز هؤلاء الشعراء في هذا الميدان ، ويقول خلف الله إن قصائد أبي العتاهية التعليمية أخذت مكانها في تربية الذوق الإسلامي وفي تهذيب الناشئين من مثل قوله :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْمَعَالِي وَالْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ الْجَلِيلِ

(١) الأغاني ٧ : ٢٥٧ .

(٢) الأغاني ٧ : ٢٥٩ .

وقوله :

اللَّهُ أَكْرَمُ مَنْ يُنَاجِي والمرءُ إنْ راجَيْتَ راجي^(١)

ومن هذه الأشعار التعليمية أيضا قوله :

أَيُّ عَيْشٍ يَكُونُ أَبْلَغُ مِنْ عَيْشِ^٢ كَفَافٍ قَوْتٍ بِقَدْرِ الْبَلَاغِ
صَاحِبُ الْبَغْيِ لَيْسَ يَسْلَمُ مِنْهُ وَعَلَى نَفْسِهِ بَغْيٌ كُلُّ بَاغِي
رُبُّ ذِي نِعْمَةٍ تَعَرَّضَ مِنْهَا حَائِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَسَاغِ
أَبْلَغُ الدَّهْرِ فِي مَوَاعِظِهِ بَلُّ^٣ زَادَ فِيهِنَّ لَهُ عَلَى الْإِبْلَاغِ
غَبَسَتْنِي الْأَيَّامُ عَقْلِي وَمَالِي وَشَبَابِي وَصِحَّتِي وَفَرَاغِي^(٢)

ولعل أرجوزة أبي العتاهية المسماة « ذات الأمثال » تصور لنا أصدق تصوير تلك الناحية التعليمية في شعره ، فهي قصيدة تهذيبية في مجموعها تتضمن مواعظ وحكما يقدمها أبو العتاهية ناصحا محذرا ، وهو يقف من الناس موقف المعلم من تلاميذه أو موقف الحكيم الذي يلقي عظاته من فوق منبر . وما يقوله أبو العتاهية في هذه الأرجوزة :

مَا انْتَفَعَ الْمَرْءُ بِمَثَلِ عَقْلِهِ وَخَيْرُ ذُخْرِ الْمَرْءِ حُسْنُ فِعْلِهِ
إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَّةَ مَفْسَدَةٌ لِلْعَقْلِ أَيْ مَفْسَدَةٌ
اصْحَبْ ذَوِي الْفَضْلِ وَأَهْلَ الدِّينِ فَالْمَرْءُ مَنْسُوبٌ إِلَى الْقَرِينِ
إِيَّاكَ وَالْغَيْبَةَ وَالنَّمِيمَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ ذَمِيمَةٌ
لَا تَذْهَبَنَّ فِي الْأُمُورِ فَرَطًا لَا تَسْأَلَنَّ إِنْ سَأَلْتَ شَطَطًا
وَكُنْ مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا وَسَطًا^(٣)

ولم تخل الأندلس ، على الرغم مما وصفناه من ضعف الحياة الأدبية فيها في القرن الثاني ، من شعر تعليمي لعله كان صدى لهذا النوع الذي كان موجوداً في

(١) دراسات في الأدب الإسلامي : ١٠٩ .

(٢) الأغاني ٤ : ٤٠ .

(٣) ديوان أبي العتاهية : ٣٨٨ .

المشرق ، فجوميذ يقول (إن يحيى بن الحكم الغزال نظم أرجوزة في فتح الأندلس قال فيها ابن حيان إنها كانت جميلة طويلة ، عرض فيها أسباب الفتح والوقائع التي جرت بين المسلمين والنصارى ، وأطال الحديث عن أمراء هذا الصقع في أسلوب جميل فيه عمق . وكانت شائعة متداولة بين أيدي الناس ، وقد ضاعت هذه الأرجوزة) . كما يقول أيضا إن تمام بن عامر بن علقمه نظم (الأرجوزة المشهورة في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولايتها والخلفاء فيها ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم)^(١) .

ومما تقدم يتبين لنا أن الشعر التعليمي كان اتجاهاً جديداً من اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، دعا إلى وجوده انتشار التعليم وامتزاج الثقافات ودخول علوم ومعارف أجنبية إلى الفكر العربي . وسواء أكانت نشأته عربية خالصة أم بتأثير أجنبي هندي أو يوناني ، فهو في نظرنا ليس فناً مؤثراً ولا شعراً خالداً وليس له من الشعر إلا اسمه ، أو كما عبر عنه طه حسين قائلاً : (هو فن ليس له في نفسه قيمة أدبية ولا سيما في العصور المتحضرة كعصر العباسيين ، وإنما قيمته في تلك العصور التي لاحظ لها من علم ولا من حضارة ، والتي لا تنتشر فيها الكتابة ولا يسهل فيها تسجيل العلم وتدوينه ، ففي مثل هذه العصور ينفع الشعر التعليمي ويفيد لأنه أيسر حفظاً من النثر)^(٢) .

وقد كان لهذا النوع من النظم أثر خطير بعد ذلك في حياة الشعر العربي إذ أصبح في العصور المتأخرة النوع الوحيد الذي يسمى شعراً وما هو بشعر . وبحديثنا عن الشعر التعليمي نكون قد انتهينا من دراسة الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي في القرن الثاني ، وهي اتجاهات متشعبة أحياناً متشابكة أحياناً أخرى ، ولكنها على العموم جديدة في شعر هذا العصر ، لم توجد قبله ، وربما اختفى بعضها بعد انتهائه . وسنتحدث في الفصل التالي عن اتجاهات الشعر التي كانت موجودة قبل القرن الثاني ، ولكن دخلها بعض التطور والتغيير بفعل العوامل المختلفة ، وهذه الناحية من التطور والتغيير هي التي ستكون موضع عنايتنا في هذه الدراسة .

(١) الشعر الأندلسي : ٥٦ .

(٢) حديث الأربعاء ٢ : ٢٢١ .

الفصل الثالث

الاتجاهات المجددة

كان من الطبيعي أن تظل أبواب الشعر العربي القديمة مستمرة الحياة في القرن الثاني بصورة أو بأخرى ، بسبب الظروف التي سبق لنا أن شرحناها وأهمها أن تطور الحياة الفكرية عند العرب ليس معناه انقطاع الصلة بالقديم انقطاعاً تاماً ، وخصوصاً أن الفترة بين الجاهلية وبين التطور الهائل الذي بلغته الحياة العربية في القرن الثاني قصيرة إذا قيست بمقياس حياة الأمم والشعوب وتطور الحضارات . وقطع الصلة بالقديم لا بد أن يحدث هزة نفسية عميقة الجذور قد تطيح بكيان ومقومات الأمة التي تقدم على قطع هذه الصلة . هذا بالإضافة إلى أن أبواب الشعر العربي ، وكلها تنحصر في النوع الغنائي ، هي التي كان يمكن أن توجد في كل شعر إنساني في هذا التاريخ البعيد ، ومعظمها لا يزال لب الشعر الغنائي وأهم أغراضه حتى عصرنا الحاضر . فلذلك كله كان لا بد أن تستمر هذه الأبواب ، ولكن مع شيء من التحوير والتعديل في بعضها تقتضيها سنة التطور وطبيعة المتحضر . فبعض هذه الأبواب إذن دخلته اتجاهات جديدة لم تكن موجودة من قبل ، وبعضها الآخر اتسع أفقه وانفسح ميدانه ، ونوع ثالث انكمش أمره وتعدلت أهدافه ، هذا إلى جانب بعض الأبواب التي استمرت على ما هي عليه تقريباً ، وهذه لن نغنى بها كثيراً في هذا الفصل ، ولكننا سنتناول فيه جميع الأغراض القديمة التي تضمنها شعر القرن الثاني وتجددت فيه ، موضحين أهم اتجاهاتها التي دخلها التطور أو التغيير ، أو بالأحرى التي تجددت بفعل المؤثرات المختلفة التي كانت تعمل عملها في هذا العصر ، ولعل أول تلك الأغراض الجديدة بالبحث شعر المديح الذي يقترن بالشعر السياسي في اتصال وثيق ، ولهذا سندرسهما فيما يلي :

المدح والشعر السياسي

كان من الطبيعي أن يتطور شعر المديح منذ انقضى العصر الجاهلي وركز الإسلام لواءه في أرض الجزيرة العربية ، لأن الفضائل التي كان يمدح بها الجاهلي دخلها شيء من التعديل من وجهة النظر الإسلامية ، فوصف الممدوح بالفتوة وشرب الراح والمقامرة والإقبال على الشهوات ، أصبح من المساوي والردائل التي ينبغي للمسلم أن يتجنبها ويتحاشاها لينجو بدينه . ومع ذلك فقد كان في شعر المديح الجاهلي مجموعة من الفضائل الإنسانية التي لا تجرى عليها أحكام التغيير والتعديل ، وقد أحصاها قدامة بن جعفر فوجد أنها تنحصر في أربع فضائل هي : العقل والعفة والعدل والشجاعة .^(١) ووضح أن قدامة بنى رأيه هذا على مذهب أرسطو في الأخلاق . وهذه الفضائل استمرت من غير شك في شعر المديح العربي في العصور المختلفة ، ولكن دخلتها تفريعات كثيرة وزيادات متنوعة منذ ظهور الإسلام ، بل قبل ظهوره . فابن رشيق مثلاً يلاحظ أن فضيلة العقل قد تفرعت إلى أنواع منها : ثقابة المعرفة ، والحياء ، والبيان ، والسياسة ، والصدع بالحجة ، والعلم ، والحلم عن سفاهة الجهلة ، وغير ذلك . أما الشجاعة فقد دخلت فيها : الحماية ، والأخذ بالثأر ، والدفع عن الجار ، والنكاية في العدو ، وقتل الأقران ، والمهابة ، والسير في المهامه والقفار الموحشة ، وما شاكل ذلك . وأما العدل فقد أصبحت فيه : السماحة ، والتغابن ، والانظلام ، والتبرع بالنائل ، والإجابة للسائل ، وقرى الأضياف وما جانس هذه الأشياء^(٢) .

وما لا شك فيه أن المعاني الإسلامية المحضة كانت أول تطور موضوعي يدخل شعر المديح منذ القرن الأول الهجري . وقد لوحظ وجود هذه المعاني في قصائد شعراء الرسول مثل حسان بن ثابت وغيره ، ثم كثر ظهورها في قصائد الشعراء الذين مدحوا بني أمية وبخاصة الذين مدحوا الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ذلك أن تقواه وعدله وزهده قد جعلت الشعراء يستشيرون معاني كل الفضائل الإنسانية في مدحه ،

(٢) العدة ٢ : ١٠٥ ، ١٠٦ .

(١) انظر : نقد الشعر : ٥٩ .

يرجون بذلك الوفاء بما في نفوسهم من تقدير وإكبار له ، أكثر مما يودون عطاءه ونواله ، لعلمهم أن ذلك الجانب المادى لا يتفق مع نهجه في الحياة وسبيله في الحكم . ومن ذلك المديح أبيات جرير التى يقول فيها :

هذى الأراميلُ قد قَضِيَتْ حاجَتَها فمن لِحاجةِ هذا الأَرَمَلِ الذِّكْرُ
خليفة الله ماذا تأمرنُ بنا لسنا إليكم ولا فى دار مُنتظر
أنتَ المُبارك والمهدى سِيرتُه تعصى الهوى وتقومُ اللَّيْلُ بالسُّور^(١)

وقد ذكرنا فى فصل سابق أبيات كثير فى مدح عمر بن عبد العزيز أيضا ، والتى كان الدافع إليها الاعتراف بالجميل ، لأن الخليفة منع شتم على بن أبى طالب ، فأبطل بذلك سنة أسلافه من خلفاء بنى أمية ، وفيها يقول كثير :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عَلَيَّا وَلَمْ تُخِفْ بَرِيًّا وَلَمْ تَتَّبِعْ مَقَالَةَ مُجْرِمٍ
وَقَلْتَ فَصَدَّقْتَ الَّذِي قُلْتَ بِالَّذِي فَعَلْتَ فَأُضْحِي رَاضِيًّا كُلُّ مُسْلِمٍ
أَلَا إِنَّمَا يَكْفَى الْفَتَى بَعْدَ زَيْفِهِ مِنْ الْأَوْدِ الْبَاقِي ثِقَافُ الْمُقَوْمِ
لَقَدْ لَبِسْتُ لِبْسَ الْمُلُوكِ ثِيَابَهَا وَأَبَدْتُ لَكَ الدُّنْيَا بِكَفٍّ وَمِعْصَمٍ
وَتَوَمَّضُ أَحْيَانًا بَعِينٍ مَرِيضَةٍ وَتَبَسُّمٍ عَنْ مِثْلِ الْجُمَانِ الْمُنْظَمِ
فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا مُشْمِزًا كَأَنَّمَا سَقَتَكَ مَلُوفًا مِنْ سِهَامٍ وَعَلَقَمِ
وَقَدْ كُنْتَ مِنْ أَجْبَالِهَا فِي مُنْتَعٍ وَمِنْ بَحْرِهَا فِي مُزِيدِ الْمَوْجِ مُنْعَمٍ
وَمَا زِلْتَ سَبَاقًا إِلَى كُلِّ غَايَةٍ صَعَدْتَ بِهَا أَعْلَى الْبِنَاءِ الْمَقْدَمِ^(٢)

ومع تشعب الحياة الفكرية وتعقدها ظهر التخصص فى شعر المديح من ناحية معانيه وقد لاحظ ابن رشيقي هذه الفكرة ، ولهذا فرق بين المعانى التى يمدح الشاعر بها وزيراً أو كاتباً ، والمعانى التى يمدح بها قائداً أو قاضياً ، أو غير ذلك . فالكاتب والوزير يمدحان بحسن الروية ، وسرعة الخاطر بالصواب ، وشدة الخزم ، وقلة الغفلة ، وجودة النظر للخليفة ، والنيابة عنه فى العضلات بالرأى ، وبأنه محمود السيرة لطيف

(١) الإمامة والسياسة ٢ : ٩٦ .

(٢) الأغاني ٩ : ٢٥٨ .

الحس ، فإن أضاف الشاعر إلى ذلك مدحه بالبلاغة والخط والتفنن في العلم ، بلغ الغاية . وأفضل ما مدح به القائد الجود والشجاعة ، وما تفرع منهما مثل الإفراط في النجدة ، وسرعة البطش وما شاكل ذلك . ويمدح القاضي بما يناسب معاني العدل والإنصاف وتقريب البعيد في الحق ، وتبعيد القريب ، والأخذ للضعيف من القوى ، والمساواة بين الفقير والغني ، وانبساط الوجه ، ولين الجانب ، وقلة المبالاة في إقامة الحدود واستخراج الحقوق ، فإن زاد الشاعر إلى ذلك ذكر الورع والتحرج وما شاكلهما فقد بلغ النهاية . ولا يرى ابن رشيقي داعياً لأن يمدح الشاعر أحداً في مرتبة أدنى من هذه الطبقات التي ذكرها ، فإذا اضطر الشاعر إلى ذلك وجب عليه أن يصف الممدوح بالفضل في صناعته والمعرفة بطريقته التي هو فيها^(١).

ومما لا شك فيه أيضاً أن شعر المديح منذ ظهور الإسلام قد بدأ يهتم بالفضائل المعنوية أكثر من اهتمامه بالفضائل الحسية ، كالبسطة في الجسم وتألق الوجه وما إلى ذلك . وقد ازداد هذا الميل إلى الناحية المعنوية مع اتساع آفاق الثقافة وانتشار العلوم الفلسفية وما إليها ، وكان أظهر ما يكون ذلك في القرن الثاني ، وإن كنا لا ننفي أن شعر المديح في هذا القرن كان يتضمن أيضاً بعض الأوصاف الحسية ، إلا أنها لم تكن تقصد لذاتها ، بل كانت مقترنة في الغالب بمعان دينية ترمي إليها ، فائتلاق الوجه دليل على التقى والورع وصفاء السريرة ، وقوة أسر العينين دليل الذكاء والفطنة ، والبسطة في الجسم يقصد بها المهابة وما إلى ذلك .

هذه إذن مظاهر التطور في شعر المديح بصفة عامة بعد ظهور الإسلام ، ولئن كان أكثر هذه المظاهر قد وجد في القرن الأول ، إلا أنها قويت ووضح فيها جانب التطور في القرن الثاني . ثم إننا نلاحظ على شعر المديح في هذا القرن تطورات أخرى غير التي ذكرناها ، بعضها يدخل في موضوع المدح نفسه ، وبعضها الآخر يتصل بشكل قصيدة المدح .

أما بالنسبة للناحية الشكلية فقد سبق أن أشرنا إلى التغير الكبير الذي طرأ على مقدمات قصائد المديح في القرن الثاني ، فبدلاً من افتتاح هذه القصائد بالبكاء على الأطلال والنسيب التقليدي ، بدأ الشعراء يفتتحون هذه القصائد بوصف

الخمر والتعبير عن إقبالهم على ملذات الحياة ، بل إن أبا نواس لم يتحرج — كما رأينا — من افتتاح إحدى قصائده مديحه بالغزل بالذكر . وكانت هذه الدعوة — كما أكدنا — عامة بين الشعراء ، ليست مقصورة على شاعر بعينه ، بل لقد وصل تأثيرها إلى بعض الشعراء الذين يميلون إلى التيار المحافظ من أمثال مسلم بن الوليد ، فقد بدأ إحدى قصائده في مدح هارون الرشيد بوصف الخمر ، وهي التي يقول فيها :

هَاتِ اسْقِنِي طَالِ بِي الْحَبْسُ مِنْ قَهْوَةٍ بَائِعُهَا وَكَسُ^(١)

وكثيراً ما أحس الشعراء في القرن الثاني بعد قصائد المديح عن رغبتهم في التعبير عن نفوسهم وأحاسيسهم ، ولهذا كانوا يستغلون مقدمات هذه القصائد في إظهار مشاعرهم والتعبير عنها ، لدرجة أنهم كانوا في بعض الأحيان يستغرقون أكثر القصيدة في عرض مشاعرهم الذاتية وأقلها في المدح . وهذا الاتجاه بوجه عام يتضح لنا في أغلب القصائد الجديدة التي خرج فيها أصحابها عن النهج القديم للقصيدة العربية ، ومن ذلك مثلاً قول النمرى في مدح الرشيد :

يا زائرنا مِنْ الخيامِ	حَيَّاكُمَا اللهُ بِالسَّلامِ
لَمْ نَطْرُقَانِي وَبِي حَرَاكُ	إِلَى حَلَالٍ وَلَا حَرَامِ
هِيَهَاتَ لِلَّهِوِ وَالتَّصَابِي	وَاللَّغَوَانِي وَالْمُسْدَامِ
أَقْصَرَ جَهْلِي وَثَابَ جِلْمِي	وَنَهَنَهُ الشَّيْبُ مِنْ عُرَامِي
لِلَّهِ حَبِيٍّ وَتَرَبَّ حَبِيٍّ	لَيْلَةَ أَعْيَاهُمَا مَرَامِي

بُورِكَ هَارُونُ مِنْ إِمَامٍ بِطَاعَةِ اللهِ ذُو اعْتِصَامِ^(٢)

ومن هذا المثال نستطيع أيضاً أن نلمح تطوراً آخر في شكل قصيدة المديح ، إذ تأثرت بالعوامل المختلفة التي ذكرناها من قبل ، والتي أدت إلى رقة الأوزان والألفاظ على السواء ، مع أن قصائد المديح بالذات كان أساسها في العصر الجاهلي

(١) ديوان مسلم بن الوليد : ٢٧٩ .

(٢) طبقات ابن المعتز : ١٧٥ .

والإسلامي أيضاً الجزالة والفخامة وقوه أسر الألفاظ وطول البحر الشعري ، ليتلاءم مع جزالة الألفاظ وفخامة التعبير ، حتى إننا لو نظرنا في قصائد المديح قبل القرن الثاني لوجدنا غالبيتها في بحرى الطويل والبسيط لأنهما يحققان الغاية المبتغاة من شعر المديح كما أوضحناها . ولكن على النقيض من ذلك كانت أشهر قصائد المديح في القرن الثاني أرقها لفظاً وأخفها وزناً ، مثل قصيدة علي بن جبلة (العكوك) في مدح أبي دلف التي يقول فيها :

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ بَيْنَ مُعْرَاهُ وَمُخْتَضِرِهِ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ^(١)

ومثل قصيدة أبي العتاهية في مدح المهدي التي يقول فيها :

أَنْتَ الْخِلَافَةُ مَنْقَادَةٌ إِلَيْهِ تَجْرُرُ أَذْيَالَهَا
وَلَمْ تَكُ تَصْلَحُ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلَحُ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَاغَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ لَزُلْزَلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا
وَلَوْ لَمْ تُطِعْهُ بَنَاتُ الْقُلُوبِ لَمَا قَبِلَ اللَّهُ أَعْمَالَهَا^(٢)

وأبو العتاهية بالذات يعتبر من أول شعراء القرن الثاني الذين أدخلوا بساطة التعبير وشعبيته في قصائد المديح التي كانت تلتزم فيها فخامة التعبير وأرستقراطيته . بل إن الوزن الذي ابتكره سلم الخاسر - وهو على وزن مستفعلن واحدة في كل شطرة - إنما كان في مدح الهادي من قصيدة يقول فيها :

مُوسَى الْمَطَرُ غَيْثٌ بَكَرَ ثُمَّ نَهَمَرَ أَلْوَى الْعِرَزِ
كَمْ اغْتَسَرَ وَكَمْ قَلَدَ ثُمَّ غَفَرَ عَدْلَ السَّيْرِ
بَاقِي الْأَثَرِ خَيْرٌ وَشَرُّ نَفْعٍ وَضُرُّ خَيْرٍ الْبَشَرِ
فَرَعٌ مُضَرٌّ بِدَرٍّ لِيَمَنْ نَظَرَ هُوَ الْوَزَرُ
لِيَمَنْ حَضَرَ وَالْمُفْتَحَرُّ لِيَمَنْ غَبَرَ^(٣)

(١) طبقات ابن المعتز : ١٨٤ . (٢) ديوان أبي العتاهية : ٣١١ .

(٣) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين : ١٨٧ .

أما في موضوع المدح نفسه فقد تميز القرن الثاني بخلو بعض الشعراء في معاني مدحهم فأبو نواس يقول :

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشُّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافَكَ النَّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ^(١)
وقد حاول ابن عبد ربه الاعتذار لأبي نواس في هذا الغلو فقال إن مجاز هذا قريب إذ لحظ أن من خاف شيئاً تخافه بجوارحه وسمعه وبصره ولحمه وروحه ، والنطف داخله في هذه الجملة ، فهو إذاً أخاف أهل الشرك أخاف النطف التي في أصلابهم^(٢) .

ومن غلو أبي نواس أيضاً قوله :

حَتَّى إِذَا فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةٌ لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانٌ^(٣)
وفي هذا البيت يقول المرزباني : « وما لم يكن صورة فكيف يكون له فؤاد ، فقد أحوال وأسرف وتجاوز »^(٤) .

ومن غلو أبي نواس في مدحه أيضاً قوله :

كَيْفَ لَا يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ مَنْ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ نَفْسَةٍ^(٥)
ويعلق المبرد على هذا البيت بقوله : « وهو العمزي كلام مستهجن موضوع في غير موضعه ، لأن حق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضاف إليه ولا يضاف إلى غيره »^(٦) .

ويبدو أن بعض الخلفاء كانوا يشجعون على هذا الغلو ، فأبو الفرج الأصفهاني يقول : « كان هارون الرشيد يحتمل أن يمدح بما تمدح به الأنبياء فلا ينكر ذلك ولا يرده »^(٧) . ويبدو أيضاً أن هذا الاتجاه شجع الشعراء على الإغراق في مدحه هو بالذات ، حتى أسرفوا في ذلك كل الإسراف ، وجاوزوا حد الاعتدال ، وقد لاحظ هارون نفسه في إحدى المرات ، إغراق شاعر من ولد زهير بن أبي سلمى في مدحه إذ قال فيه : (فكأنه بعد الرسول رسول) .

فغضب هارون وحرم الشاعر جائزته^(٨) .

(٢) العقد الفريد ٣ : ١١٧ .

(٤) الموشح : ٢٦٩ .

(٦) الكامل : ٢٣٤ .

(٨) المصدر نفسه .

(١) ديوان أبي نواس : ٤٠ .

(٣) ديوان أبي نواس : ٤٥ .

(٥) ديوان أبي نواس : ٢٧ .

(٧) الأغاني ١٣ : ١٤٤ .

ومن الاتجاهات الجديدة التي ذهب إليها شعر المديح في القرن الثاني مدح المدن والتعصب لها والإفاضة في تعداد محاسنها ونواحي جمالها ، وكان أكثر هذا النوع من المديح يدور حول الكوفة أو البصرة أو بغداد باعتبارها المراكز الرئيسية للحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية النشطة ، وخاصة بالنسبة للشعراء المادحين . ومن ذلك قول عمارة بن عقيل في مدح بغداد :

أَعَايَنْتَ فِي طُولِ مِنَ الْأَرْضِ وَالْعَرْضِ كِبْغَدَادَ دَارًا إِنَّهَا جَنَّةُ الْأَرْضِ
صَفَا الْعَيْشُ فِي بَغْدَادَ وَاخْضَرَّ عُودُهُ وَعَيْشُ سِوَاهَا غَيْرُ صَافٍ وَلَا غَضِّ

وكان من أثر نشاط تيار الزهد والتصوف في القرن الثاني ظهور نوع جديد من المدائح يتوجه بها أصحابها إلى الذات الإلهية يمتدحونها مستغنين بمديحها عن البشر ، وما يضطرون إليه من كذب ونفاق في مديحهم . وقد سبق لنا أن ذكرنا قول أبي العتاهية معبرا عن رغبته في التوجه بمدحهم إلى الله تعالى دون الملوك والخلفاء :

فَاسْتَغْنِ بِاللَّهِ عَنْ أَبْوَابِهِمْ كَرَمًا إِنَّ الْوُقُوفَ عَلَى أَبْوَابِهِمْ ذُلٌّ^(٢)

وقد سبق أبا العتاهية إلى هذا الاتجاه الشاعر الخارجي عمران بن حطان في قوله ، وقد مر بنا أيضا :

أَيُّهَا الْمَادِحُ الْعِبَادَ لِيُعْطَى إِنَّ لِلَّهِ مَا بَأْيَدِي الْعِبَادِ
فَاسْأَلِ اللَّهَ مَا طَلَبْتَ إِلَيْهِمْ وَارْجُ نَفْعَ الْمُنَزَّلِ الْعَوَادِ
لَا تَقُلْ فِي الْجَوَادِ مَا لَيْسَ فِيهِ وَتُسَمِّ الْبَخِيلَ بِاسْمِ الْجَوَادِ^(٣)

وتحقيقاً لهذا الاتجاه نجد بعض الأشعار التي اتجه فيها أصحابها إلى مدح الله عز وجل كآبيات عبد الخالق بن عبد الواحد بن النعمان بن بشير التي يقول فيها :

امْتَدَحْتَ الْغَنَى عَنْ مِدَحِ النَّاسِ بِصِدْقِ الْمَدِيحِ وَالْأَحْكَامِ
بِكَلَامِ أَشَادِ إِعْظَامِهِ النَّاسِ وَقَالُوا : قُلْ يَا صَدُوقَ الْكَلَامِ
فَرَجَوْتُ النِّجَاةَ مِنْ كِبَوَةِ النَّارِ وَفَوْزًا بِالْدارِ دارِ الْمَقَامِ

(١) تاريخ بغداد ٤ : ٦٨ .

(٢) ديوان أبي العتاهية : ٢٦٦ .

(٣) الأغاني ٧ : ٢٣٦ .

رَبُّ إِنْ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَأَفْرَطْتُ وَأَنْتَ الْغَفُورُ لِلظَّلَامِ
 فَاعْفُ عَنِّي يَا مَالِكَ الْعَفْوِ وَاغْفِرْ لِي رُكُوبِي هَوْلَ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ
 كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِاللَّهِ مَا لِلَّهِ نِدٌّ وَمَالُهُ مِنْ مُسَامٍ^(١)

وربما دفع إلى هذا الاتجاه أيضا - إلى جانب قوة تيار الزهد - إحساس الشعراء برغبتهم في عدم الانغماس في الصراع الحزبي الذي كان دائرا في ذلك العصر . فالمديح لم يعد في تلك الفترة مجرد ذكر لبعض الفضائل المعنوية أو الحسية التي يتميز بها الخليفة - المدار الأول للمديح - ولكنه أصبح مبررات وحججاً وأسانيد يؤيد بها الشاعر حق الخليفة في ولاية أمر المسلمين ، ويدحض بها دعاوى أعدائه وخصومه الذين ينازعونه هذا الحق . وكان مثل هذا النوع من المديح تقبلا على نفس بعض الشعراء الذين لا يودون الانتصار لفريق على حساب فريق آخر ، لهذا كانوا يرغبون بأنفسهم عن مدح هؤلاء وأولئك ، ويلجئون إلى مدح الله مستغنين به عن مدح العباد .

ولعل السر في وجود مجموعات أو بيئات للشعراء المادحين في هذا العصر يرجع إلى وجود هذا الصراع الحزبي والمذهبي فيه . وقد بدأ هذا الصراع بأخذ شكله التقريبي بعد استقرار الحكم للعباسيين ، فكنا نجد مجموعة من الشعراء يختصون بالخليفة ، ومجموعة أخرى تختص بالبرامكة ، ومجموعة ثالثة تختص بالعلويين أو الأمويين ، إلى غير ذلك من الأحزاب السياسية التي كانت لا تزال تحارب في سبيل الفوز بالحكم . ومن الطبيعي أن يكون الشعراء الملتفون حول الخليفة من أعداء العلويين ، ومن المبشرين بالخلافة العباسية وأحقيتها ، والعكس بالعكس بالنسبة للشعراء الملتفين حول العلويين . أما بالنسبة للبرامكة فكانت الرابطة التي تجمع أغلب شعرائهم كونهم من الموالي ومن أصحاب الميل الشعبي ، والعطف على الشيعة في معظم الأحيان ، ولا بأس أن يكون فيهم بعض المائلين إلى الزندقة أيضا .

وكان من الطبيعي كذلك أن ينتقل بعض الشعراء بين هذه البيئات إما بدافع الحصول على المال من أي سبيل ، وإما لتغطية موقفهم السياسي والحزبي ، ومداواة

أمرهم أمام الدولة . فكان بعض الشعراء العلويين يمدحون الخليفة العباسي ، كما كان أكثر شعراء البرامكة يفعلون ذلك ، بل يصطنعون نفس المعاني التي يؤيد بها شعراء الخليفة حق العباسيين في الحكم والسلطان .

ومما لا شك فيه أن نوع الحكومة العباسية كان له أثر كبير في اصطباغ شعر المديح بهذا اللون الحزبي أو المذهبي ، فالحكم العباسي قام على أساس دعوة دينية مؤداها أن حق العباسيين الشرعي في الخلافة يستند إلى وراثتهم لجدهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول وصاحب الحق الشرعي بعده لأنه عمه ووارثه وعصبته . مصداقاً لقوله تعالى (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) ، وهم يعتقدون أن الناس قد غصبوا العباس حقه ، إلى أن جاء علي بن أبي طالب فأجاز العباس خلافته ورضى بها وبايعه قائلاً : (يا ابن أخي هلم إلى أن أبايعك فلا يختلف عليك اثنان) (١) . وهكذا أجاز العباسيون خلافة علي وارتضوها ، اقتداءً بجدهم العباس ، وتبرأوا من أبي بكر وعمر وعثمان لأنهم — في زعمهم — أخذوا الحكم بغير حق .

ويلاحظ أحمد الجواري أن الدعوة العباسية كانت تقوم على فكرة دينية ذات شقين : الأول إعادة سلطان الدين إلى مكانه من الحياة الإسلامية ، والثاني أن الحق الموروث يجب أن يعود إلى أهله ، وهكذا قامت الدولة العباسية على أساس النص والتفويض في ولاية أمور المسلمين ، أو على أساس الحق الإلهي (٢) .

ومن هنا كان من الطبيعي أن تجتذب إليها عدداً من الشعراء يؤكدون هذا الحق في شعرهم ، ويدحضون حجج العلويين الذين كانوا يرون الإمامة والخلافة في علي وفي أبنائه من بعده ، على اعتبار أنهم أحق الناس بإرث الرسول وأن الرسول نص علي إمامة علي في حديث الغدير الذي جاء فيه (من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه) . ويستندون أيضاً إلى قول الرسول لعلي (أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، وقد خلف هارون موسى في قومه بدليل قوله تعالى (وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) . ولكن فرقة الكيسانية من الشيعة — كما مر بنا — لم تكن

(١) مروج الذهب ٣ : ١٦٧ . (٢) انظر : الشعر في بغداد : ٩٠ .

تري الإمامة في ولد فاطمة رضى الله عنها، وإنما تراها في محمد بن الحنفية بعد علي ، وأن محمداً أوصى بها إلى ابنه أبي هاشم، وأن أبا هاشم أوصى إلى علي بن عبد الله بن العباس ، وأن علياً أوصى إلى ابنه محمد ، وأن محمداً أوصى إلى ابنه إبراهيم الإمام، وأن إبراهيم الإمام أوصى إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد الذي عرف فيما بعد بالسفاح، وكان أول خلفاء العباسيين. ولهذا نجد هذه الطائفة من العلويين يعترفون بحق العباسيين في الخلافة ، ويصرح شعراؤهم بذلك كما سنرى في شعر السيد الحميرى شاعر الكيسانية الأكبر ، ويؤمنون بأن الخلافة سوف تبقى فيهم إلى أن يسلموها إلى مهدي الأمة المنتظر - وهو محمد بن الحنفية - عند رجعته إلى الدنيا . وهكذا نجد أن شعر المديح تحول في أساسه إلى شعر سياسى ومذهبي مدعوم بالأسانيد والحجج الدينية والفقهية ، وأن هذا الشعر كان ينحصر أولاً في هذا الحزب الحديد الذى ظهر في القرن الثانى ، وهو الحزب العباسى الذى لم يكن له وجود من قبل ، لأن العباسيين والعلويين كانوا متحدين أيام بنى أمية في دعوة هاشمية واحدة تدعو للرضا من آل محمد. ولهذا كان العلويون يذكرون العباس في شعرهم بالثناء والحمد ويجعلونه صنو الرسول ويذكرون ابنه عبد الله والفضل بكل خير ، ومن ذلك قول الكمي :

ولن أعزلَ العباسَ صنوَ نبينا وصنوانه ممن أعد وأنذبُ

ولا ابنه عبد الله والفضل لئننى جنيبُ حبِّ الهاشمين مُضْحَبُ^(١)

ويأتى الحزب العلوى بعد الحزب العباسى فى القوة ، ولكنه فقد كثيراً من عنفوانه لأن العباسيين استطاعوا أن يعطفوا قلوب الناس حولهم بسبب قربانهم من الرسول هم أيضاً ، فلم يكونوا مبغدين عن حب الناس كما كان الأمويون ، يضاف إلى ذلك أن بعض العلويين - كما قدمنا - كانوا يقرون للعباسيين بحقوقهم فى الخلافة مما أضعف دعوة الحزب العلوى فى القرن الثانى بعد قيام الحكم العباسى .

أما الأحزاب القديمة الأخرى فلم تكن لها قيمة تذكر فى هذا القرن ، فالأمويون قد انقضى شأنهم أو كاد، وأصبح صوتهم ضعيفاً خافتاً لا يتضمن دعوة ما، ولكنه فى الغالب يظهر النواح والبكاء والعطف على دولتهم الذاهبة. وأما الخوارج فقد

قضى عليهم الأمويون قبل ذهاب دولتهم ، ولم تبق منهم إلا فئة ضعيفة ليست بذات وزن في الشعر السياسي في القرن الثاني .

ومع ذلك فكما ظهر العباسيون في حزب قوى في هذا العصر ، ظهر حزب آخر جديد مكتمل العناصر وهو حزب الموالى وكانت الشعوبية أساس دعوته . وبين هذه الأحزاب المختلفة دار الصراع عنيفاً في ميدان السياسة ، وكان الشعر وسيلة قوية تصطنعها هذه الأحزاب لبلوغ أغايتها ، وستناول فيما يلي كل حزب من هذه الأحزاب التي ذكرناها وكيفية استخدامه للشعر لنشر دعوته وتأكيد حقه .

الحزب العباسي

ذكرنا فيما تقدم الأساس الذي قامت عليه دعوة هذا الحزب منذ نشأته ، وكيف أنه كان العدو المباشر للحزب العلوي بصفة خاصة ، لهذا كان العباسيون منذ البداية يحاولون استمالة الناس بعيداً عن دعوة الشيعة العلوية . ولا كانت فكرة المهدي المنتظر قد راجت في هذا العصر ، لهذا حاول شعراء العباسيين أن يوهبوا الناس أن أبا جعفر المنصور هو ذلك المهدي ، وكثيراً ما وصفه الشعراء في مدائحهم بلقب المهدي . يقول أبو دلامة مخاطباً أبا مسلم الخراساني :

أَفِي دَوْلَةِ الْمَهْدِيِّ حَاوَلْتَ غَدْرَهُ أَلَا إِنَّ أَهْلَ الْغَدْرِ آبَاؤُكَ الْكُرْدُ^(١)

وكما أن للشيعة أئمتهم كذلك كان الخليفة العباسي هو الإمام للمسلمين جميعاً ، وبذلك لم يصبح الخليفة حاكماً سياسياً فحسب ، بل أصبح أيضاً إماماً دينياً يجب على الناس اتباعه ، ويؤكد شعراء العباسيين هذه الصفة في أشعارهم دائماً ، يقول أبو دلامة :

وَكُنَّا نُرَجِّي مِنْ إِمَامٍ زِيَادَةَ فَزَادَ الْإِمَامُ الْمُصْطَفَى فِي الْقَلَائِسِ^(٢)

ومن الطبيعي أن يكون حق العباسيين في وراثة الخلافة أهم محور تدور حوله قصائد شعرائهم ، ولهذا يخاطب أبو دلامة المنصور قائلاً :

(١) ديوان أبي دلامة : ١٣٢ . (٢) المصدر نفسه : ١٣٣ .

يا ابنَ عَمِّ النَّبِيِّ دَعْوَةُ شَيْخٍ قَدْ دَنَا هَدْمُ دَارِهِ وَدَمَارُهُ
يا ابنَ مَنْ وَرَّثَ النَّبِيُّ الَّذِي حُلٌّ بِكَفْيِهِ مَالُهُ وَعَقَارُهُ^(١)

ومنذ عهد المنصور بدأ شعراء العباسيين يؤكدون وجود شيعة عباسية ليجتمع الناس حولها وتصبح مذهباً مقرباً وحزباً معترفاً به ، ولهذا كان أبو دلامة يقول :

دِينِي عَلَى دِينِ بَنِي الْعَبَّاسِ مَا خَتَمَ الطُّيْنُ عَلَى الْقُرْطَاسِ^(٢)

ويرى محمد الطاهر بن عاشور أن تلقيب أبي جعفر المنصور ابنه محمداً بالمهدي كان تمهيداً إلى تأييد الدولة به ، وإيهام الناس أنه المهدي المنتظر الذي يزعم الشيعة وجوده . ويستدل على ذلك بأن بعض السلف كان ينكر هذا اللقب ، فقد ذكر الغزالي في كتاب الأمر بالمعروف من إحياء علوم الدين أن ابن أبي ذئب وسفيان الثوري حضرا مجلساً وعظ فيه ابن أبي ذئب أبا جعفر المنصور ، وقال له في آخر الموعظة : (والله إني لأنصح لك من ابنك المهدي) فلما انصرف ابن أبي ذئب ، قال له سفيان : لقد سرني ما خاطبت به هذا الجبار ولكن ساعني قولك له (ابنك المهدي) فقال ابن أبي ذئب : يغفر الله لك يا أبا عبد الله ، كلنا مهدي ، كلنا كنا في المهد . وأراد المهدي أن يظهر بالفعل في مظهر المؤيد للدين المحيي لعقيدة الإسلام وسيرة السلف ، فأظهر من ذلك ثلاث خلال شهد بها التاريخ وهي : الشدة في تقصى الزندقة ، والإعراض عن الشعر الغزلي ، والإفراط في الغيرة على النساء وإغلاظ الحجاب ليحقق بذلك أنه المهدي المنتظر ، ولذلك ظهر في زمانه الحديث الموضوع (المهدي منا واسمه يواطيئ اسمي ، واسم أبيه يواطيئ اسم أبي) . والخليفة المهدي اسمه محمد بن عبد الله وهو ابن عم الرسول ، فهو منه ، ولذلك مدحه ابن المولى بقوله :

إِلَى الْقَائِمِ الْمَهْدِيِّ أَعْمَلْتُ نَاقَتِي بِكُلِّ فَلَاةٍ آلِهَآ يَتَرَقَّرُقُ^(٣)

ولم يشار إلى موضوع المهدي المنتظر في مدحه للخليفة المهدي إذ قال :

يَحْيَى لِهَذَا وَذَا وَذَاكَ وَلَا يَحْسَبُ مَعْرُوفُهُ كَمَنْ حَسَبَا

(١) ديوان أبي دلامة : ١٣٤ . (٢) المصدر نفسه : ١٣٨ .

(٣) انظر : مقدمة ديوان بشار : ٢٠٤١٩ .

وقد شرح ابن عاشور هذا البيت بقوله : إن بشاراً يشير إلى ما روى في بعض الأخبار عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن في أمي المهدي فيجئ إليّ الرجل فيقول : يا مهدي أعطني . فيحشي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله والمال يومئذ كدوس ، ومع ذلك فالحديث ضعيف^(١) .

ونصيب مولى المهدي يؤكد حق العباسيين في وراثة الرسول قائلاً :

وَرَثْتَ رَسُولَ اللَّهِ عَضْوًا وَمَفْصَلًا وَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ عَضْوًا وَمَفْصَلًا^(٢)
وبشار في مديحه للمهدي يؤكد دعوتهم قائلاً :

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِأَهْلِ الْبَيْتِ إِنَّ لَهُمْ عَهْدَ النَّبِيِّ وَسَمْتَ الْقَائِمِ الْهَادِي^(٣)
ويقول أيضاً في المهدي مبيناً كيف استرجع العباسيون حماة الدين حقهم المسلوب من الأمويين فيقول :

ورثتم رسول الله بيت خلافة وعزاً على رغم العدو وسوددا
وأنتم حماة الدين لولا دفاعكم لقد قذيت عيناه أو كان أرمدا
ومروان لما إن طغى وأنتكم زوائر منه بادئات وعودا
نصبتكم له البيض اللوامع بالردي وخطبة أحمدين ما كان أوقدا
ففرقتم أشياعه وهدمتهم بملككم العادي ملكاً مولدا^(٤)

ولعل مروان بن أبي حفصة كان من أكبر دعاة العباسيين بشعره ، فهو يؤكد حقهم في قصيدته التي مدح بها المهدي قائلاً :

هل تطمسون من السماء نجومها بأفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية بترائهم فأردتم إبطالها^(٥)

(١) ديوان بشار ١ : ٣٣٠ (هامش) .

(٢) الأغاني ٢٠ : ٢٦ .

(٣) ديوان بشار ٢ : ٢٩٨ .

(٤) المصدر نفسه ٣ : ٣٩ .

(٥) تاريخ بغداد ١٣ : ١٤٢ .

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) . ولما كان العلويون من أولى الأرحام أيضاً ، كان من الضروري أن يبين شعراء العباسيين قريبتهم من الرسول ، وأن العم أولى بميراث ابن أخيه من بني بنته ، وفي هذا المعنى يقول مروان بن أبي حفصة للمهدي أيضاً :

يا ابن الذي ورث النبي مُحَمَّدًا	دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوَحْيُ بَيْنَ بَنِي الْبَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ	قطع الخصام فلات حين خصام
ما لِلنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فَرِيضَةٌ	نَزَلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ
أَنِّي يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ	لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ ^(١)

وقد تنبّه أبو الفرج الأصفهاني إلى أن الخلفاء العباسيين كانوا يريدون من الشعراء الذين يمدحونهم تأكيد حقهم في الخلافة ونصرة مذهبهم في وراثة الرسول دون العلويين ، ولم يكونوا يرغبون في أن يمدحهم الشعراء بالفضائل التقليدية المعروفة سواء أكانت معنوية أم حسية . وفي هذا يقول عن منصور النمرى إنه قد (عرف مذهب الرشيد في الشعر وإرادته أن يصل مدحه لإياه بنفى الإمامة عن ولد علي بن أبي طالب - عليهم السلام - والطنع عليهم ، وعلم مغزاه في ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبي حفصة وتفضيله لإياه على الشعراء في الجوائز ، فسلك مذهب مروان في ذلك ، ونحا نحوه ولم يصرح بالهجاء والسب ، كما كان يفعل مروان ، ولكنه حام ولم يقع ، وأوماً ولم يحقق ، لأنه كان يتشيع وكان مروان شديد العداوة لآل أبي طالب ، وكان ينطق عن نية قوية ، يقصد بها طلب الدنيا فلا يبقى ولا يذر^(٢)) ويظهر آل النمرى لم يفز بطائل من الرشيد بسبب هذا الاعتزال الذي فرضه عليه تشيعه المستور ، ولهذا اضطر إلى استخدام التقية وهجاء آل علي وطلبهم حتى ضجر هارون نفسه وقال له : يا ابن اللخناء أتظن أنك تتقرب إلى بهجاء قوم أبوهم أبي ، ونسبهم نسي ، وأصلهم وفرعهم أصلى وفرعى ؟ وصادفت هذه الرغبة هوى في نفس النمرى فحاول أن يقرب ما أمكنه بين العلويين والعباسيين - بصورة ملتوية - في قصيدة أخرى مدح بها الرشيد وقال فيها :

(٢) المصدر نفسه ١٣ : ١٤٠ .

(١) الأغاني ٢٠ : ٧٥ .

بنی حَسَنٍ ورَهْط. بنی حسین
فقد دُقْتُمْ قِرَاعَ بَنِي أَبِيكُمْ
أَحِينَ شَفَوَكُمْ مِنْ كُلِّ وَتِرٍ
وجادوكم على ظَمًا شَدِيدٍ
فَمَا كَانَ الْعُقُوقُ لَهُمْ جَزَاءً
وإنَّكَ حِينَ تَبْلُغُهُمْ أَذَاةً
عليكم بالسَّدادِ مِنْ الْأُمُورِ
غَدَاةَ الرُّوعِ بِالْبَيْضِ الذُّكُورِ
وَضَمُّوْكُمْ إِلَى كَنْفٍ وَثِيرٍ
سُقَيْتُمْ مِنْ نَوَالِهِمُ الْغَزِيرِ
بِفَعْلِهِمْ وَآدَى لِلشُّوورِ
وإن ظَلَمُوا لَمَحْزُونُ الضَّمِيرِ^(١)

ولكنه مع ذلك لم يستطع إلا أن ينكر على العلويين حقهم في الخلافة قائلا
في نفس هذه القصيدة :

أَمِيطُوا عَنْكُمْ كَذِبَ الْأَمَانِ
مننتَ على ابن عبد الله يحيى
ولو جاريتَ ما اقترفتَ يَدَاهُ
يَدُكَ فِي رِقَابِ بَنِي عَلِيٍّ
أَلَا لِلَّهِ دَرُّ بَنِي عَلِيٍّ
يَسْمُونَ النَّبِيَّ أَبَا وَيَّاسِي
وأحلاماً يعدن عِدَاتِ زُورِ
وكانَ مِنَ الْخُتُوفِ عَلَى شَفِيرِ
دَلَفْتَ لَهُ بِقَاصِمَةِ الظُّهُورِ
وَمَنْ لَيْسَ بِالْمَنْ الصَّغِيرِ
وَزُورٍ مِنْ فَعَالَتِهِمْ كَبِيرِ
مِنَ الْأَحْزَابِ سَطْرٌ مِنْ سُطُورِ

وهو يريد بذلك قوله تعالى (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ) .

وكان النعمري مضطراً في مدائحه لهارون الرشيد، للحصول على نواله وعطاياه،
أن يؤيد مذهب العباسيين في كل تفصيلاته ودقائقه ، فهو يؤكد حقهم في ميراث
النبي دون بني علي بقوله :

يا ابن الأئمة مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ يَا ۞ ابنَ الْأَوْصِيَاءِ أَقْرَ النَّاسِ أَمْ دَفَعُوا

(١) الأغاني ١٣ : ١٤٤ .

(٢) طبقات ابن المعتز : ٢٤٥ .

إِنَّ الْخِلَافَةَ كَانَتْ إِرْثًا وَالدَّيْمُ مِنْ دُونَ تَيْمٍ وَعَفُوَ اللَّهُ مُتَّسِعٌ (١)
لَوْلَا عَدِيٌّ وَتَيْمٌ لَمْ تَكُنْ وَصَلَتْ إِلَى أُمِّيَّةٍ تَمْرِيهَا وَتَرْتَضِعُ
وَمَا لَأَلٍ عَلَى فِي إِمَارَتِكُمْ حَقٌّ وَمَا لَهُمْ فِي إِرْثِكُمْ طَمَعُ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَغْرُبْ عُقُولَكُمْ وَلَا تُضِفْكُمْ إِلَى أَكْنَافِهَا الْبَدْعُ
الْعَمُّ أَوْلَى مِنْ ابْنِ الْعَمِّ فَاسْتَمْعُوا قَوْلَ النَّصِيحِ فَإِنَّ الْحَقَّ يُسْتَمَعُ (٢)

وقد وضحت للشعراء جميعاً في القرن الثاني رغبة الخلفاء العباسيين في تحديد موضوع مدحهم بهذا النوع من الشعر السياسي ، فكما فعل النمرى فعل أبان اللاحقى شاعر البرامكة بقصيدته التى مدح بها الرشيد ، وافتتح بها صلته بالخليفة ، ويقول فيها مؤكداً حق العباسيين فى إرثهم للرسول :

نَشَدْتُ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا أَعَمُّ بِمَا قَدْ قَلَتْهُ الْعُجُمُ وَالْعَرَبُ
أَعَمُّ رَسُولُ اللَّهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً لَدَيْهِ أَمْ ابْنُ الْعَمِّ فِي رَتْبَةِ النَّسَبِ
وَأَيُّهُمَا أَوْلَى بِهِ وَبَعْدَهُ - لَدَيْهِ وَمَنْ ذَا لَهُ حَقُّ التُّرَاثِ بِمَا وَجَبُ
فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقُّ بِنَسْلِكُمْ وَكَانَ عَلَى بَعْدِ ذَاكَ عَلَى سَبَبِ
فَلْأَبْنَاءُ عَبَّاسٍ هُمْ يَرِثُونَهُ كَمَا الْعَمُّ لَابْنِ الْعَمِّ فِي الْإِرْثِ قَدْ حَجَبُ (٣)

وفى هذه المعانى كان أغلب شعر المديح الذى قيل فى الخلفاء العباسيين : إثبات حقهم فى الخلافة لأن جدهم العباس عم الرسول أولى بميراثه ، وسب مغتصبى هذا الحق من الخلفاء الراشدين والأمويين ، ودحض حجج العلويين فى أحقيتهم فى الخلافة ، إلى غير ذلك مما تضمنه شعر المديح الذى قلنا له الأمثلة .

ويبدو أن العلويين ليسوا وحدهم الذين كانوا يستندون فى دعواهم إلى قرابتهم من الرسول ، بل إن الأمويين أيضاً ادعوا - تمويها على الجماهير - أنهم من آل البيت ، وفى ذلك يقول إبراهيم بن المهاجر البجلي شاعر العباسيين :

(١) يقصد بتيم أبا بكر الصديق وكان من بنى تيم بن مرة ، وهذا يتفق مع مذهب العباسيين فى أن عمر وأبا بكر قد اغتصبا حقهم فى الخلافة وأسلماء لعثمان والأمويين ، وقد أشار النمرى فى البيت التالى إلى عمر - وكان من بنى عدى - وإلى أبي بكر مرة أخرى .

(٢) طبقات ابن المعتز : ٢٤٥ .

(٣) الأوراق (أخبار الشعراء) : ١٤ .

أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا أَخْبِرْكُمْ عَجِباً زَادَ عَلَى كُلِّ الْعَجَبِ
عَجِباً مِنْ عَبْدٍ شَمْسٍ إِنَّهُمْ فَتَحُوا لِلنَّاسِ أَبْوَابَ الْكَذِبِ
وَرِثُوا أَحْمَدَ فِيمَا زَعَمُوا دُونَ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
كَذَبُوا وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُهُ يُخْرِزُ الْمِيرَاثَ إِلَّا مَنْ قَرُبَ^(١)

وفيما عدا هذه المعاني التي تكررت في شعر المديح الذي توجه به الشعراء إلى الخلفاء العباسيين ، نجد أن اصطباغ الخلافة العباسية بالصبغة الدينية واهتمام الخلفاء بأن يكونوا أئمة لا ملوكاً فحسب ، كما كان الأمويون ، دفع الشعراء المادحين إلى خلط صفات دينية على الخلفاء ووصفهم بالتقوى وحماية الدين والحفاظ عليه ، وأنهم أحيوا سنة الرسول ، وأنهم في مصاف الأنبياء ، يستملكون سلطانهم من الله ويتبعون نهج الحق ولا يحيدون عنه ، لذلك فمن اتبعهم فقد فاز ، ومن خالفهم باء بخسران مبین . يقول مروان بن أبي حفصة في مدح المهدي :

هُوَ الْمَرْءُ أَمَادِينُهُ فَهُوَ مَانِعٌ صَوْنٌ ، وَأَمَّا مَالُهُ فَهُوَ بَاذِلُهُ
أَبَى لَمَّا بَأَى ذَوُو الْحَزْمِ وَالتُّقَى فَعَوْلٌ إِذَا مَا جَدَّ بِالْأَمْرِ فَاعِلُهُ
تَرَوُّكَ الْهَوَى لَا السُّخْطُ مِنْهُ وَلَا الرِّضَا لَدَى مَوْطِنٍ إِلَّا عَلَى الْحَقِّ حَامِلُهُ
يَرَى أَنَّ أَمْرَ الْحَقِّ أَحْلَى مَغَبَّةً وَأَنْجَى وَلَوْ كَانَتْ زُعَافاً مَنَاهِلُهُ
فَإِنَّ طَلِيقَ اللَّهِ مَنْ هُوَ مُطْلَقٌ وَإِنَّ قَتِيلَ اللَّهِ مَنْ هُوَ قَانِدُهُ
وَإِنَّكَ بَعْدَ اللَّهِ لِلْحَكَمِ الَّذِي تُصَابُ بِهِ مِنْ كُلِّ حَقٍّ مَفَاصِلُهُ^(٢)

ويسرف النمرى في مدح الرشيد ويغالى في وصف سخطه إذ يجعله مساوياً لسخط الله عز وجل وذلك في قوله :

أَيُّ امْرِئٍ بَاتَ مِنْ هَارُونَ فِي سَخَطٍ فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةً أَحْلَكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَتَسَعُ
إِذَا رَفَعْتَ امْرَأَةً فَاللَّهُ يَرْفَعُهُ وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ الْأَقْوَامِ مُنْضِعُ^(٣)

(١) مروج الذهب ١ : ٥٨ .

(٢) الأغاني ٢ : ٧٤ .

(٣) طبقات ابن المعتز : ٢٤٥ .

وفي هذا المعنى أيضاً يقول أبو العتاهية في مدح المهدي :

ولو لم تُطْعَمُ بَنَاتُ الْقُلُوبِ لَمَّا قَبَلَ اللَّهُ أَعْمَالَهَا^(١)

وما تقدم يتبين لنا أن مديح الخلفاء العباسيين قد آلت إلى نوع من الشعر السياسي فيه احتجاج واستدلال بآيات من القرآن الكريم ، يؤيد بها الشعراء حق العباسيين في الخلافة ووجهة نظرهم بالنسبة للأحزاب الأخرى . ولعل الكمية كان أول من اتجه هذه الواجهة في شعره لتأييد حق العلويين — كما رأينا — ولكن الشعراء العباسيين مع ذلك تناولوا معاني جديدة لم تعرفها الحياة الإسلامية من قبل ، إذ كانوا يؤيدون حق العباسيين باعتباره حقاً مقدساً موروثاً ، ويمدحون الخلفاء على أنهم ظل الله على الأرض . كما أوضحنا في الأمثلة التي ذكرناها من قبل .

الحزب العلوي

منذ انفصل العباسيون عن العلويين ونجحوا في الوصول إلى الخلافة أخذ شأن العلويون يضعف ، وينصرف الناس عن دعوتهم شيئاً فشيئاً ، ذلك لأن حجة القرابة من رسول الله صارت عاملاً مشتركاً بين الحزبين ، وموضع جدال مستمر بين شعراء كل منهما . وكانت حجة العباسيين أقوى لأنهم أبناء عم ، بينما العلويون أبناء بنت وبنتو العم أولى . ثم إن العباسيين كانوا ينفقون الأموال على شعرائهم بينما العلويون لا يستطيعون مجاراتهم في هذا الميدان . وفي الوقت نفسه كانت المجاهرة بالدعوة العباسية تنيل صاحبها ما يبتغي في دنياه ، بينما المجاهرة بالعلوية تقرب صاحبها من حقه إن لم تورده إياه . لهذا كله لم يكن الشعر السياسي للحزب العلوي بالقوة التي كان عليها أيام الأمويين ، وكان في معظمه رداً على دعاة العباسيين . فعندما قال مروان بن أبي حفصة :

أَنِّي يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرَاثَةُ الْأَعْمَامِ

رد عليه جعفر بن عفان الطائي شاعر العلويين قائلاً :

لِمَ لَا يَكُونُ وَإِنَّ ذَاكَ لَكَائِنٌ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرَاثَةُ الْأَعْمَامِ
لِلْبَنَاتِ نِصْفٌ كَامِلٌ مِنْ مَالِهِ وَالْعَمُّ مَشْرُوكٌ بِغَيْرِ سِهَامِ

ما للطلق وللثراث وإنما صلي الطليق مخافة الصمصام^(١)
وقد وضح في هذا الرد تغير موقف العلويين من موضوع الوراثة، بعد أن شاركهم
فيها العباسيون، فبعد أن كان الكمييت - كما رأينا - يكتفى بذكر القرابة لإثبات
حق العلويين :

فإن هي لم تصلح لحي سواهم فإن ذوى القربى أحق وأقرب
أصبح شعراء العلويين مضطرين إلى الجدل في أيهما أحق: العم أم أبناء البنت.
ولما كان الشيعة الكيسانية الذين يؤمنون بإمامة محمد بن الحنفية يقرون خلافة
العباسيين، كما ذكرنا من قبل، لهذا كانوا من أسباب ضعف الدعوة العلوية في
القرن الثاني، إذ كانوا عوناً عليها لا عوناً لها. فنذ نشأة الدولة العباسية والسيد الحميري
يمدح أبا العباس السفاح معلناً تأييده لخلافتهم حتى يسلموها لمهدي الأمة المنتظر
- وهو محمد بن الحنفية - الذي سيرجع لبعلاً الدنيا عدلاً، يقول في ذلك :

دُونَكُمْوْهَا يَا بَنِي هَاشِمٍ	فَجَدُّوْا مِنْ عَهْدِهَا الدَّارِيسَا
دُونَكُمْوْهَا لَا عَلَا كَعْبَ مَنْ	كَانَ عَلَيْكُمْ مَلِكُهَا نَافِيسَا
دُونَكُمْوْهَا فَالْبِيسَا تَاجَهَا	لَا تَعْدِمُوا مِنْكُمْ لَهُ لَا بِيسَا
لَوْ خَيْرُ الْمَنِيرُ فَرَسَانَهُ	مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسَا
قَدْ سَاسَهَا قَبْلَكُمْ سَاسَةً	لَمْ يَتْرَكُوا رَطْباً وَلَا يَابِسَا
وَلَسْتُ مِنْ أَنْ تَمْلِكُوهَا إِلَى	مَهْبِطِ عِيسَى فَيْكُمْ آبِسَا ^(٢)

وحين عقد المهدي ولاية العهد لولديه موسى وهارون مدحه السيد الحميري
بقصيدة يتضح فيها أيضاً مذهبه الذي أشرنا إليه، وأساسه إقرار الخلافة العباسية
لحين عودة محمد بن الحنفية الإمام المحتفى، قال :

آلَيْتُ لَا أَمْدَحُ ذَا نَائِلٍ	مِنْ مَعْشَرٍ غَيْرِ بَنِي هَاشِمٍ
أُولِيَّتُهُمْ عِنْدِي يَدُ الْمُصْطَفَى	ذِي الْفَضْلِ وَالْمَنْ أَبِي الْقَاسِمِ
فَإِنَّمَا بِيضَاءُ مَحْمُودَةٍ	جَزَاؤُهَا الشُّكْرُ عَلَى الْعَالَمِ

جزاؤها حفظ. أبي جعفر
وطاعة المهدي ثم ابنه
والرشيد الرابع المرتضى
ملكهم خمسون معسودة
ليس علينا ما بقوا غيرهم
حتى يردوها إلى هابط.
خليفة الرحمن والقائم
موسى على ذي الإربة الحازم
مفترض من حقه اللازم
برغم أنف الحاسد الراغم
في هذه الأمة من حاكم
عليه عيسى منهم ناجم^(١)

ولما كان مذهب العلويين جميعاً يتفق مع العباسيين ، في أن أبا بكر وعمر هما اللذان تسببا في تحويل حق الهاشميين في الخلافة إلى الأمويين ، لهذا كان العلويون يسيون الخليفتين ، رضى الله عنهما ، علناً ودون تحرج حتى في القصائد التي يمدحون فيها الخلفاء العباسيين . ومن ذلك ما روى أن المهدي حين جلس وهو ولي عهد يفرق صلاته على قريش ، بدأ ببني هاشم ثم بسائر قريش ، فرفع إليه السيد الحميري رقعة مختومة جاء فيها :

قل لا بن عباس سمي محمد
أحرم بنى نيم بن مرة إنهم
إن تعطهم لا يشكروا لك نعمة
وإن اتتمنتهم أو استعملتهم
ولئن منعهم لقد بدأوكم
منعوا تراث محمد أعمامه
وتأمرؤا من دون أن يستخلفوا
لم يشكروا لمحمد أنعامه
والله من عليهم بمحمد
ثم انبروا لوصيه ووليه
لا تعطين بنى عدي درهما
شر البرية آخرأ ومقدما
ويكافئك بأن تدم وتشتما
خانوك واتخذوا خراجك مغنا
بالمنع إذ ملكوا وكانوا أظلمأ
وبنيسه وابنته عديلة مرعأ
وكفى بما فعلوا هنالك مأثما
أفيشكرون لغيره إن أنعمأ
وهداهم وكسا الجنوب وأطعما
بالمُنكرات فجرعوه العاقما^(٢)

وفي هذه القصيدة نفث السيد الحميري بكل ما في صدور العلويين من حقد على الخليفين أبي بكر وعمر، يمتد إلى قبيلتهما، وهو يوغر صدر المهدي على القبيلتين بدعوى أن عمر وأبا بكر قد سلبا الهاشميين حقهم في الخلافة. ثم يثير قضية مشهورة اسمها قضية فذك، كثيراً ما استغلها العلويون في سب عمر. وفذك قرية بخير فيها عين ونخل أفاءها الله على نبيه في سنة سبع صلحا؛ ولما توفي الرسول قالت فاطمة رضي الله عنها إن رسول الله نحلنيها، فقال أبو بكر أريد لذلك شهوداً، وفي رواية أخرى أنه قال لها: سمعت رسول الله يقول: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث). ثم أدى اجتهاد عمر لما ولي الخلافة أن يردّها إلى ورثة رسول الله، فكان علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب يتنازعان فيها، فكانا يتخاصمان إلى عمر فيأبى أن يحكم بينهما، وإلى هذا يشير السيد الحميري بقوله (منعوا تراث محمد أعمامه)، وفي قصة فذك على العموم اختلاف كثير.

ويختلف الشعر السياسي للعلويين عن شعر العباسيين تبعاً لظروف كل منهما. فالشعر السياسي العلوي لم يكن يقتصر على ناحية الاحتجاج الفقهي لحق العلويين — كما رأينا في أبيات سابقة — ولكنه كان يتضمن أيضاً — كما يقول أحمد الشايب — جانباً تصويرياً مؤثراً كما في تائية دعبل الخزاعي التي قصد بها علي بن موسى الرضا بخراسان والتي مطلعها:

مدارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مَقْفَرِ الْعَرَصَاتِ

إذ كانت صورة لما ابتلى به العلويون من نكال وهوان^(١).

ولم يكن شعر العلويين السياسي متصلاً بالمديح فقط، والهجاء إلى حد ما كما رأينا عند العباسيين، بل كان يتصل بالرتاء أيضاً لاستثارة النفوس وتأليف القلوب، وعطفها نحو العلويين لما يلاقونه من عذاب على أيدي العباسيين الذين لم يرعوا قرابتهم وحرمتهم، بل كانوا أشد نكالا عليهم من الأمويين الظالمين في رأيهم. فنجد عهد أبي جعفر المنصور اشتد تعقب العباسيين للعلويين، إذ قبض على عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ثم قتل ابنه محمد المعروف بالنفس الزكية في

المدينة ، وابنه الآخر إبراهيم في باخري بالقرب من الكوفة ، وإلى هذا يشير دعبل بقوله :

قُبُورٌ بِكُوفَانٍ وَأُخْرَى بِطَبِيعَةٍ وَأُخْرَى بِفَخٍّ مَالِهَا صَلَوَاتُ
وَأُخْرَى بِأَرْضِ الْجُوزْجَانِ مَحَلُّهَا وَقَبْرُ بِيَاخَمَرَى لَدَى الْقُرْبَاتِ^(١)

وقتل فخ الذي يشير إليه دعبل - وهو مكان بين مكة والمدينة - الحسين بن علي ابن الحسن بن الحسن بن علي وقد قتل أيام المهدي ، وقتل يحيى أخو محمد النفس الزكية أيام هارون الرشيد ، ولهذا كان من الطبيعي أن يتجه الشعر السياسي للعلويين إلى ناحية التفجع على القتل وراثتهم ، ولا يقتصر على هجاء أعداء حزبهم أو الاستدلال على حقهم في الخلافة ، كما كان الشأن في الشعر السياسي للحزب العباسي .

الحزب الأموي

أما الحزب الأموي فقد ضعف شأنه كثيراً بعد قيام الدولة العباسية - كما سبق أن ذكرنا - لأن العباسيين تعقبوا كل أموي بالقتل حتى كادوا يستأصلون شأفهم ، ونحن نعلم أن أبا العباس السفاح قد هيا للأمويين مذبة عظيمة بتحريض من سديف حين قال له :

لَا يَغْرُنْكَ مَا تَرَى مِنْ رِجَالٍ إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا
فَضَعَ السَّيْفَ وَارْفَعَ السُّوْطَ حَتَّى لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أُمُيًّا^(٢)

ولم يكن الأمويون يواجهون عداء العباسيين فحسب ، بل إن الحزب العلوي كان يتعقبهم أيضاً ويحرض عليهم ، ويتربص بهم الدوائر ، لهذا كان من الطبيعي أن ينصرف الشعراء الذين عرفوا بولائهم لبني أمية ومدحهم إياهم ، إلى هذا الحزب أو ذاك متبرئين من تهمة الأموية . ومثل هؤلاء الشعراء الذين كان اعتدادهم بالمال أكثر من أي شيء آخر تحولوا بمدايحتهم إلى الحزب العباسي بطبيعة الحال ، لأنه

(١) انظر : مروج الذهب ٣ : ٢٢١ .

(٢) الأغاني ١٤ : ١٥٦ .

الحزب الحاكم الذى يأمنون على أنفسهم فى ظله ، ويفيدون من عطاياه وبره ،
ويكفى أن نقول - للتمثيل على تحول شعراء بنى أمية إلى العباسيين - أن مروان
ابن أبى حفصة الذى كان شديد العصبية للحزب العباسى كان من موالى الأمويين ومن
الشعراء المنقطعين إليهم . وكذلك أبو العطاء السندى الذى كان من أشد المتحمسين
لبنى أمية ، سارع بمدح أبى العباس السفاح أول خلفاء العباسيين مندداً بالأمويين
قائلاً :

إِنَّ الْخِيَارَ مِنَ الْبَرِيَّةِ هَاشِمٌ وَبَنُو أُمِيَّةٍ أَرَذُلُ الْأَشْرَارِ
وَبَنُو أُمِيَّةٍ عُودُهُمْ مِنْ خَرَوَعٍ وَلِهَاشِمٍ فِي الْمَجْدِ عُودُ نُضَارِ
أَمَّا الدُّعَاةُ إِلَى الْجِنَانِ فَهَاشِمٌ وَبَنُو أُمِيَّةٍ مِنْ دُعَاةِ النَّارِ^(١)

ولما لم يفز أبو عطاء بطائل من السفاح انقلب على العباسيين وأخذ يقول :
يَا لَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ عَادَ لَنَا وَأَنَّ عَدْلَ بَنِي الْعَبَاسِ فِي النَّارِ
ثم هجاهم ساخراً من استنادهم إلى قرابة الرسول فى إثبات حقهم فى الخلافة ،
فقال :

بَنِي هَاشِمٍ عُودُوا إِلَى نَخْلَاتِكُمْ فَقَدْ قَامَ سِعْرُ التَّمْرِ صَاعًا بِدَرِّهِمْ
فَإِنْ قُلْتُمْ رَهْطُ النَّبِيِّ وَقَوْمُهُ فَإِنَّ النَّصَارَى رَهْطُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ^(٢)

ولعل من أسباب هوان أمر الحزب الأموى عدم استناده إلى أساس دينى أو
فقهى فى إثبات حقه فى الخلافة ، كما كان شأن العباسيين والعلويين على السواء .
وأنسى له ذلك وهو البعيد عن الرسول حقيقة ومجازاً ! لهذا كان شعر المديح أيام بنى
أمية لا يستند إلى ناحية مذهبية أو عقيدة دينية فى الإمامة أو ما أشبه ، ولكنه كان
يدور فى الغالب حول الفضائل الأربع وتفريعاتها التى يتألف منها شعر المديح فى
كل زمان ومكان . ولما كان الأمويون قد جعلوا من الخلافة الإسلامية ملكاً على
غرار ملك الرومان أو الفرس ، مما دعا معاوية إلى القول (أنا أول الملوك) ، لهذا
كانوا يمدحون بما يمدح به الملوك عادة ، من الهيبة والحلم والوقار وشدة البأس على

(١) الشعر والشعراء : ٧٤٦ .

(٢) المصدر نفسه .

أعدائهم، وأن معدنهم معدن الملوك بالفعل، وأن التاج يأتلق فوق جبينهم، إلى غير ذلك من المعاني التي نستطيع أن نتمثلها في أبيات عبيد الله بن قيس الرقيات مثلا التي مدح بها عبد الملك بن مروان والتي يقول فيها :

ما نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَخْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهُمْ مَعْدِنُ الْمُلُوكِ فَلَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
إِنَّ الْفَنَيْقَ الَّذِي أَبُوهُ أَبُو م الْعَاصِي عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحَجَبُ
خَلِيفَةُ اللَّهِ فَوْقَ مِنْبَرِهِ جَفَتْ بِذَاكَ الْأَقْلَامُ وَالْكُتُبُ
بِأَتْلَقُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرَقِهِ عَلَى جَبِينِ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ
أَحْفَظَهُمْ قَوْمَهُمْ بِبَاطِلِهِمْ حَتَّى إِذَا حَارَبُوهُمْ حَارَبُوا
لَيْسُوا مَفَارِيحَ عِنْدَ نَوْبَتِهِمْ وَلَا مَجَازِيحَ إِنْ هُمْ نُكِبُوا
إِنْ جَلَسُوا لَمْ تَضِقْ مَجَالِسُهُمْ وَالْأَشَدُّ أَسَدَ الْعَرِينِ إِنْ رَكِبُوا
لَمْ تَنْكَحِ الصَّمَّ مِنْهُمْ عَزْبًا وَلَا يَعَابُونَ إِنْ هُمْ خَطَبُوا^(١)

ولهذا السبب - وهو عدم وجود أساس ديني أو مذهبي للحزب الأموي - كان من العسير أن يبقى لهذا الحزب أتباع أقوياء، حتى لو أن العباسيين لم يذيقوهم الهوان والنكال . والقلة من الشعراء الذين حافظوا على ولائهم للأمويين إنما حافظوا على ولاء شخصي لا مذهبي أو سياسي ، فأخبارهم تكشف لنا عن تأثرهم بمعروف الأمويين وإحسانهم إليهم، مثل أبي العباس الأعمى الذي كان في طريقه إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ليُمدحه ، فلقبه أبو جعفر المنصور واستنشده فأنشده قوله :

لَيْتَ شِعْرِي أَفَاحَ رَائِحَةَ الْمَسِّ لَكَ وَمَا إِنْ إِنْخَالَ بِالْخَيْفِ أَنْسَى
حِينَ غَابَتْ بَنُو أُمَيَّةٍ عَنْهُ وَالْبَهَائِلُ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ
خُطَبَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ قُرُوسًا نَ عَلَيْهَا وَقَالَةُ غَيْرُ خُرْسٍ
لَا يُعَابُونَ قَاتِلِينَ وَإِنْ قَالَ وَأَصَابُوا وَلَمْ يَقُولُوا بِلَبْسٍ
بَحُلُومٍ إِذَا الْحُلُومُ اسْتَحْفَتُ وَوَجُوهُ مِثْلَ الدَّنَانِيرِ مُلْسٍ

ثم لقيه المنصور بعد أن صار خليفة فذكره بتلك الأبيات فتنفس الرجل وأنشأ يقول دون أن يعرف شخصية المتحدث إليه :

أَمَتْ نِسَاءُ بَنِي أُمَيَّةٍ مِنْهُمْ وَبَنَاتُهُمْ بِمَضِيعَةٍ أَيْتَامُ
نَامَتْ جُلُودُهُمْ وَأَسْقَطَ نَجْمُهُمْ وَالنَّجْمُ يَسْقُطُ وَالْجُدُودُ نِيَامُ
نَخَلَتْ الْمَنَابِرُ وَالْأَسْرَةُ مِنْهُمْ فَعَلَيْهِمْ حَتَّى الْمَمَاتِ سَلَامُ

ولما عرفه أبو جعفر بنفسه قال الشاعر : يا أمير المؤمنين اعذر فإن ابن عمك محمداً صلى الله عليه وسلم قال : (جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها)^(١) .

أما عبد الله بن عمر العبلي فكان من عبد شمس ، ومع ذلك كان موقفه غريباً من الأمويين قبل انهيار دولتهم لسببين : الأول أنه كان يحس بنذر العاصفة التي ستطيح بحكمهم نتيجة الخلافات الواقعة بينهم ، وقد عبر عن هذا الإحساس بقصيدته التي يقول فيها :

شَرَكُوا الْعِدَا فِي أَمْرِهِمْ فَتَفَاقَمَتْ مِنْهَا الْفُتُونُ وَفُرِّقَتْ أَهْوَاؤُهَا
ظَلَّتْ هُنَاكَ وَمَا يِعَاتِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَنْفَعُ ذَا الرِّجَاءِ رَجَاؤُهَا
مَاذَا أَوْمَلُ إِنْ أُمِيَّةٌ وَدَّعَتْ وَبَقَاءُ سُكَّانِ الْبِلَادِ بَقَاؤُهَا
أَهْلُ السِّيَاسَةِ وَالرِّيَاسَةِ وَالنَّدَى وَأَسْوَدُ حَرْبٍ لَا يَخِيْمُ لِقَاؤُهَا
فَلْتَنْ أُمِيَّةٌ وَدَّعَتْ وَتَتَابَعَتْ لِغَوَايَةِ حَمِيَّتِ لَهَا خَلْقَاؤُهَا
لِيُودَّعَنَّ مِنَ الْبَرِيَّةِ عِزُّهَا وَمِنَ الْبِلَادِ جَمَالُهَا وَرَجَاؤُهَا^(٢)

والسبب الثاني نفوره من سياسة الأمويين في تقتيل بني هاشم وتعذيبهم وسب على بن أبي طالب على المنابر . هذان السببان هما اللذان جعللا العبلي يقف هذا الموقف الشاذ من الأمويين عشيرته الأقربين ، فأصبح هاشمي الهوى طالبي الدعوة بحكم شعوره الديني العميق . وأخذ يجهر بمشاعره هذه أيام الأمويين ، فاكتفوا

(٢) الأغاني ١١ : ٣٠٧ .

(١) انظر : مروج الذهب ٣ : ٢٠٩ .

بنفيه من مكة موطنه مراعاة لقربته لهم ، ولكن ذلك لم يزد إلا إمعاناً في الانتصار للهاشميين ، يقول في ذلك :

شَرَّدُوا بِي عِنْدَ امْتِدَاحِي عَلِيَا وَرَأَوْا فِي ذَاكَ دَاءَ دَوِيَا
فَوَرَّيْتُ لَا أَبْرَحُ الدَّهْرَ حَتَّى تَخْتَلِي مُهْجَتِي بِحُبِّي عَلِيَا
وَبَنِيهِ لِحُبِّ أَحْمَدَ إِنِّي كُنْتُ أَحْبَبْتُهُمْ بِحُبِّي النَّبِيَا
حُبِّ دِينٍ لَا حُبَّ دُنْيَا وَشَرُّ م الْحُبِّ حُبُّ يَكُونُ دُنْيَاوِيَا
صَاغَتِي اللَّهُ فِي الذُّوَابَةِ مِنْهُمْ لَا زَنْيماً وَلَا سَنِيْدَا دَعِيَا
عَدُوِيَا خَالِي صَرِيْحاً وَجَدِّي عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمٌ أَبَوِيَا
فَسَوَاءٌ عَلَيَّ لَسْتُ أَبَالِي عَبْشَمِيًّا دُعِيْتُ أُمَ هَاشِمِيَا^(١)

هذا إذن هو الموقف الغريب الذي وقفه العبد العبدى بمنزلة بين أمويته وحبه للهاشميين حتى ليعد هذا الموقف فريداً في هذا العصر لجمعه بين التقيضين ، ولكن سرعان ما تغلبت أموية العبدى على مشاعره حين انهارت دولة الأمويين وسعى وراءهم العباسيون بالقتل والتعذيب ، حينئذ عاد العبدى شاعراً أموياً فحسب ، وأخذ يوجه طاقته الشعرية في خدمة أغراض الأمويين ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يدعو لهم دعوة سياسية أو مذهبية للأسباب التي ذكرناها ، وكل ما كان يستطيعه هو البكاء عليهم والنواح على دولتهم والتعبير عن آلامه بفقد سلطانهم وزوال أمرهم كما في قوله :

تَقُولُ أَمَامَةً لِمَا رَأَتْ نُشَوِزِي عَنِ الْمَضْجَعِ الْأَنْفُسَ
وَقَلَّةَ نَوْمِي عَلَى مَضْجَعِي لَدَى هَجْعَةِ الْأَعْيُنِ النَّعْسَ
أَبِي مَا عَرَاكَ فَقُلْتُ اللَّهُمَّ وَمَنْ مَنَعَ أَبَاكَ فَلَا تُبْلِسِي
عَرَوْنَ أَبَاكَ فَحَبْسْنَاهُ مِنَ الذِّلِّ فِي شَرِّ مَا مَحْبَسِ^(٢)

واستطاع العبدى بنصرته القديمة للهاشميين أن يأمن على نفسه وأمواله وأولاده

(١) الأغاني ١١ : ٣٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ١١ : ٣٠٦ .

وكان يذكر العباسيين دائماً بموقفه منهم أيام حكم الأمويين ، فهو يقول لأبي العباس السفاح :

وَأَذَعُرُ إِنْ دُعِيتُ لِعَبْدِ شَمْسٍ وقد أمسكتُ بالحرمِ الصَّواري
بِنُصْرَةِ هَاشِمٍ شَهَرْتُ نَفْسِي بداري للعدا وبغيرِ داري
ومنزل هَاشِمٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ مكانَ الجِدِّ مِنْ عُلْيَا الْفَقَارِ^(١)

ولكن حينما وقع الانفصال بين الهاشميين أنفسهم وتفرقوا إلى عباسيين وعلويين واشتد بينهما النزاع ، لم يستطع أن ينسى العبد العباسي في ضياع دولة قومه ، فأتجه بكلية إلى جانب العلويين ، وشارك في ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن في الحجاز مشاركة فعلية ، لينتقم من العباسيين ويرضى في الوقت نفسه مشاعره الدينية القديمة التي دفعت به إلى حب الهاشميين ، ولكن سرعان ما أخذت هذه الثورة ومضى العبدى هارباً إلى اليمن ليقضى بقية حياته مشرداً بين قراها ، وبذلك فقد الأمويون صوتاً قوياً كان لا يفتأ يذكر الناس بهم ، في إيمان عميق وحب صادق لا زيف فيه ولا تكلف ، وما كان أحوج حزبهم المتهالك الضعيف إلى هذا الصوت القوي .

حزب الموالى أو الشعبوية

رأينا في الباب الأول من هذا البحث كيف أدى الصراع بين العرب والموالى إلى نشوء حزب قوى جديد له أثره في الحياة السياسية في القرن الثاني ، هو حزب الموالى الذى جمع أجناساً مختلفة ربط بينها الخضوع للحكم العربى ، ووقوعها تحت سيطرة المسلمين منذ القرن الأول الهجرى .

وطبيعة كل شعب فاتح منتصر أن يحس بالزهو والفخار حين يجد الأمم والشعوب تعنو له وتخضع لمشيئته وتستسلم أمام قوته ، وكان هذا شأن العرب بالفعل بعد أن أفاء الله عليهم تلك الأراضى الحصينة الشاسعة التى كانت تملكها أقوى دولتين في ذلك الوقت : الفارسية والبيزنطية .

شعر العرب إذن بعد هذه الانتصارات المتوالية أن الدم الذى يجري في عروقهم

دم ممتاز ليس في مرتبة دم الروم أو الفرس أو غيرهم ، وتملكهم هذا الشعور بالسيادة والعظمة — كما يقول أحمد أمين — فنظروا إلى غيرهم من الأمم نظرة السيد إلى المسود ، وكان الحكم الأموي مؤسساً على هذا النظر^(١) .

واحتقار العرب للموالى أيام الأمويين^(٢) كان يتجلى في مناسبات كثيرة لعل أبرزها ما حكاه صاحب الأغاني من أن رجلاً من الموالى خطب بئساً من أعراب بني سليم وتزوجها فركب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة ووالها يومئذ إبراهيم ابن هشام بن إسماعيل ، فشكا إليه فأرسل الوالى إلى المولى ففرق بينه وبين زوجته وضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال في ذلك محمد بن بشير :

قَضَيْتَ بِسُنَّةٍ وَحَكَمْتَ عَدْلًا وَلَمْ تَرِثِ الْحُكْمَةَ مِنْ بَعِيدٍ
وَفِي الْمَائَتَيْنِ لِلْمَوْلَى نِكَالٌ وَفِي سَلْبِ الْحَوَاجِبِ وَالْخُلُودِ
إِذَا كَافَأْتَهُمْ بَبْنَاتٍ كِسْرَى فَهَلْ يَجِدُ الْمَوْلَى مِنْ مَزِيدٍ
فَأَيَّ الْحَقِّ أَنْصَفُ لِلْمَوْلَى مِنْ أَصْهَارِ الْعَبِيدِ إِلَى الْعَبِيدِ^(٣)

ويقول ابن عبد ربه إن المتعصبين للعرب كانوا يقولون : لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى ، وكانوا لا يكونون الموالى بالكفى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ، ولا يمشون في الصف معهم ، ولا يقدمونهم في الموكب . وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم ، وإن أطعموا المولى لسته وفضله وعلمه أجلسوه في طرف الخوان لئلا ينحى على الناظر أنه ليس من العرب . ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب^(٤) ، إلى غير ذلك مما يؤكد لنا أن العرب كانوا ينظرون إلى الموالى نظرة احتقار شديد ، أو نظرة السيد للمسود .

والراغب الأصفهاني يؤكد هذه النظرة إلى الموالى من جانب العرب أيام الدولة الأموية ، ملاحظاً تغير الموقف بعد قيام الدولة العباسية فهو يقول : كانت العرب إلى أن جاءت الدولة العباسية إذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولى دفعه

(١) ضحى الإسلام ١ : ٢٣ .

(٢) هناك أمثلة كثيرة على ذلك مجموعة في كتاب « الموالى في العصر الأموي » : ص ٣٥ وما بعدها .

(٣) الأغاني ١٤ : ١٥٠ .

(٤) العقد الفريد ٣ : ٤١٣ .

إليه ليحمله عنه فلا يمتنع ولا السلطان يغير عليه ، وكان إذا لقيه راكباً وأراد أن يتزل فعل ، وإذا رغب أحد في تزوج مولاة خطبها إلى مولاها دون أبيها وأهلها^(١) .

وكان الحجاج - كما سبق أن ذكرنا - شديداً على الموالى في كل مجال ، فهو يبهظهم بالضرائب الفادحة ولا يسقط الجزية عن أسلم منهم ، ثم هو يخرجهم إلى قراهم الأصلية فيشردهم ويقطعهم عن مجالات عملهم وموارد رزقهم ، وهو يسم أيدي النبط بالمشرط ، وينتهز كل فرصة لإذلالهم والتضييق عليهم .

كل ذلك كان يقرب بين الموالى - والظلم أقوى وسيلة للربط بين المستضعفين - وكان يدفع بهم إلى هذا الحزب أو ذاك حين يتوسمون فيه قدرته على القضاء على الحكم الأموى البغيض إلى نفوسهم وإزالته من الوجود^(٢) ، لذلك نرى عدداً كبيراً منهم ينضم إلى الخوارج^(٣) . ونجدهم يتدفقون أيضاً على الحزب الشيعى حتى ليصبح معظمه منهم ، وفي ذلك يقول قلهوزن : (الخوارج قبلوا الموالى في جماعتهم وفي جيشهم ، وجعلوهم على قدم المساواة مع العرب ، وقد ترسم الشيعة خطى الخوارج في ذلك ونجحوا أكثر منهم بكثير^(٤)) .

ولم يترك الموالى ثورة ضد الأمويين إلا اشتركوا فيها وتحملوا العبء الأكبر منها ، وكانت ثورة المختار فرصة كبيرة بالنسبة لهم ، فقد أيقظ فيهم الأمل واجتذبهم إليه بفكرة المساواة بينهم وبين العرب ، تلك الفكرة التى نادى بها ونفذها بالفعل مما أحفظ العرب عليه - كما ذكرنا من قبل - وفي ذلك يقول قلهوزن أيضاً : (إن نظام التشيع كان يأخذ صورة فرقة دينية في معارضة مع الأرستقراطية ونظام العشائر . . . وحين جاء المختار ، ثار على أرستقراطية العشائر في الكوفة واجتذب الموالى أيضاً ، وهؤلاء كان اجتذابهم سهلاً لأنهم كانوا ذوى نزعة واضحة إلى الحكم الدينى لا القومى الشعبى ، فلما ارتبطت الشيعة بالعناصر المضطهدة تخلت عن تربة القومية العربية وكانت حلقة الارتباط هى الإسلام^(٥)) .

وكما فتح المذهب الشيعى باب الأمل للموالى فى مساواتهم بالعرب ، كذلك لعبت فكرة الإرجاء دوراً هاماً فى هذه الناحية ، فقد ذهب المرجئة إلى القول بأنه

(١) محاضرات الأدباء ١ : ٢٢٠ .

(٢) انظر : تاريخ البيهقي ٢ : ٢٦٢ .

(٣) تاريخ التولية العربية : ٦٨ .

(٤) الخوارج والشيعة : ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

لا يحل للحكومة أن تعامل هؤلاء كما لو كانوا لا يزالون على كفرهم بعد أن أصبحوا مسلمين لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم ، وعلى هذا كان المرجحة لا يتخرجون عن قتال أية حكومة تقر هذه المظالم^(١) .

وشيئاً فشيئاً أخذ دور الموالي يكبر في هذه الثورات التي قامت في وجه الأمويين ، وفي تلك الأحزاب التي دخلوها ليحققوا آمالهم في المساواة بالعرب ، وعندئذ بدأوا يحسون بكيانهم وبقدرتهم على توجيه الأمور الوجهة التي يترضاونها ، وظهر بينهم زعيم قوى هو أبو مسلم الخراساني ، نظم صفوفهم ووجد شملهم وجعلهم يشعرون بقوتهم ومكانتهم ، وألف منهم حزباً قوياً له قدرة على التأثير في سياسة الدولة . وقد وجه هذا الحزب كل قوته لمساعدة الدعوة العباسية إذ تركزت فيها آماله وأهدافه في المستقبل . وحين نجحت الدعوة العباسية في الاستيلاء على الحكم كان حزب الموالي قد حقق أهم أهدافه وهو إزالة الأمويين المتعصبين لعروبيتهم من الطريق ، وإتاحة الفرصة للعباسيين ليعيدوا المبدأ القديم في الإسلام (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) . والحقيقة إن الموالي من الفرس هم الذين حملوا العبء الأكبر في نجاح الدعوة العباسية ، ويبدو ذلك واضحاً من إشارة الطبري إلى أن اللغة الفارسية كانت هي اللغة السائدة في جيش أبي مسلم^(٢) . ومع ذلك لم تحقق الدولة العباسية كل ما كان يطمع فيه الموالي ، أولعلمهم زنوا بأبصارهم إلى أبعد مما وعدهم به العباسيون ، ومن هنا وقع الخلاف بين العباسيين والموالي الذين أصبحوا الآن حزباً له كيانه ، والذين حققوا خطوات كبيرة في سبيل التسوية الفعلية بالعرب ، فاقتحموا المناصب العالية في الجيش والإدارة والولايات ، وأسندت إليهم أعمال رئيسية هامة في الدولة ، فكان منهم الوزير والحاجب الذي يعتبر مستشاراً للخليفة في كل ما يهمه من شئون الحكم . وكان منهم قواد في الجيش وغير ذلك من المناصب الحساسة في الدولة . ومع ذلك فينبغي أن نقرر أن تعاظم نفوذ الموالي وبخاصة الفرس بعد قيام الدولة العباسية لم يكن معناه زوال العصية للعرب وتزعزع إيمانهم بأنهم أفضل أمم الأرض ، وإلا لما قامت الدعوة الشعبية أصلاً ، ولكن العصر العباسي لم يحل قط من التعصب للعرب ، والفارق

(١) انظر : السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات : ٦٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ : ٦٥ .

في ذلك بين العصر الأموي والعباسي — كما يقول محمد الطيب النجار — أن العصبية العربية في عهد العباسيين قد برز لها أعداء يكافحونها ويكيدون لها في وضوح النهار ، بينما كانوا في العصر الأموي لا يجراؤون على المجاهرة بالعداء^(١) .

وقد ذكرنا فيما سبق رأى فان قلوثن الذي يقول فيه إن قسوة النظام العباسي وعنفه منذ قيام الدولة العباسية لم يكن بأقل من النظام الأموي حفزاً للنفوس إلى التمسك بعقيدة المهدي والتطلع إلى ظهوره لتخليصها من قسوة النظام الجديد وجوره . ولدينا البراهين الكثيرة على فجعية الموالي في هذا العرش الجديد ومقدار انخداعهم به ، من ذلك قول شريك الذي ثار ببخاري في خلافة السفاح : (ما على هذا اتبعنا آل محمد ، على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق) ، كذلك الاضطرابات المستمرة في الجزء الشرقي للدولة العباسية كخروج المقنع وثورات الخوارج المتوالية وخروج يوسف البرم الذي لم يكن غرضه سوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٢) .

كل هذه العوامل إذن كانت تدفع بالموالي إلى التجمع والتآزر والطموح ، لا إلى التساوى فقط مع العرب ، بل إلى استرجاع مجد الفرس القديم ودولة الأكاسرة ، إذ داخلهم شعور جديد بأنهم أفضل بكثير من هؤلاء العرب الذين كانوا يعيشون في صحراء مقفرة عيشة جافية غليظة ، وأن أمجاد الفرس القديمة تؤكد امتيازهم كشعب وكجنس ، وتدعوهم إلى استعادتها وإزالة العرب الغزاة من أرضهم القديمة . ومما ساعد على تنمية هذا الشعور وجود أبي مسلم الخراساني في زعامة الموالي ، ونظرته إليه نظرة تقديس وإكبار ، ويبدو أن أبا مسلم كان يعدهم حقيقة باسترجاع مجدهم القديم حتى إنهم اعتبروه إمامهم الحق ، وزعموا أنه أحد أعقاب زرادشت الذي ينتظر المحجوس ظهوره كما ينتظر الشيعة ظهور المهدي^(٣) .

وكان لابن المقفع أيضاً دور خطير في تنمية شعور الموالي والفرس بالذات بامتيازهم على العرب ، ووجوب مطالبهم بالسيطرة على الحكم وإزالة العرب واحتقارهم لا مجرد التسوية معهم ، ويتضح لنا هذا الدور الذي قام به ابن المقفع في نقل

(١) الموالي في العصر الأموي : ٤٦ .

(٢) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات : ١٣٢ .

(٣) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات : ١٣٠ .

التراث الفارسي إلى اللغة العربية ، لا خدمة للثقافة العربية ، بل لتذكير الموالى — الذين انقطعت صلة معظمهم باللغة الفارسية — بأجداد آبائهم وأجدادهم التي لا يوجد عند العرب ما يماثلها ، ولهذا ينبغي أن يتفاخروا بها ويطالبوا بأبعد من التسوية التي كانت مطلباً قديماً أيام الأمويين . كذلك قام بنفس دور ابن المقفع كثير من الشعوبيين أمثال أبان اللاحق وغيره ، وكان للبرامكة دور التشجيع وبذل المكافآت على مثل هذا الصنيع من جانب المترجمين والكتاب وغيرهم . ويقول محمد بديع شريف في ذلك : « تمكن البرامكة من تدبير شئون المملكة والتصرف في أحوالها ، ولم يكتفوا بهذا القدر من السلطان ، فاندفعوا إلى توجيه الحياة وجهة خاصة ، وأعانتهم لتنفيذ خططهم جماعة من الأدباء والرواة والعلماء والمترجمين والشعراء الذين تفصح أعمالهم عن أهداف هذه الخطوة . وكان من أبرزهم أبو عبيدة وعلان الشعوبى في رواية التاريخ ووضع الأخبار ، وحمام الراوية وخلف الأحمر في رواية الشعر والانتحال ، وأبان بن عبد الحميد اللاحق والفضل بن سهل في الترجمة عن الفارسية ، وسعيد بن البختكان وسهل بن هارون من الناقمين على العرب والواضعين الكتب عليهم ، ومن شعراء البرامكة الذين يذودون بهم عن أنفسهم الفضل بن عبد الصمد المعروف بالرقاشي^(١) » .

كل هذا إذن كان له أثره في إحساس الموالى — وبخاصة الفرس — بأنفسهم وبمجدهم القديم ، ومن هنا بدأوا يعلنون تفوق جنسهم على العرب دون مواربة أو استحياء . ولعل تلك المناظرة التي جرت بين فارسي وعربي في حضرة يحيى بن خالد البرمكى تدلنا على إحساس الفرس بأنفسهم واعتزازهم بمجدهم القديم كما ذكرنا ، قال الفارسي للعربي : (ما احتجنا إليكم قط في عمل ولا تسمية ، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا في أعمالكم ولا لغتكم ، حتى إن طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سميناها ، ما غيرتموه) فسكت عنه العربي ، فقال له يحيى بن خالد في خبث تظهره عبارته ، وعصبية شديدة تكمن في ألفاظه (قل له : اصبر لنا فملك كما ملكتم ألف سنة بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج إليكم ولا إلى شيء كان لكم^(٢)) .

(١) الصراع بين الموالى والعرب : ٤١ .

(٢) أدب الكتاب : ١٩٣ .

ومما تقدم يتبين لنا كيف نشأت فكرة الشعوية وكيف تطورت ، لقد كانت في مبدأ أمرها تياراً معاكساً لما يدعيه العرب الفاتحون من أنهم خير أمة الأرض ، وأن بقية الشعوب تبع لهم وإلا لما خضعوا واستكانوا لقوة العرب وإرادتهم . وكان أمل الموالى أن يسود المبدأ الإسلامى الذى يسوى بين الناس تحقيقاً لقوله تعالى : (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) بل إن لفظ الشعوية إنما أطلق على هؤلاء الذين يريدون التسوية بين الشعوب من عرب وغيرهم . وقد جاء في الصحاح أن الشعوية فرقة لا تفضل العرب على العجم ، كما أثبت هذا المعنى ابن عبد ربه حين ذكر احتجاجات الشعوية قائلًا (وهم أهل التسوية) ، والتسوية كانت أهم مطالبهم بالفعل وهى التى أسس على قاعدتها حزب الموالى ، وهم يقولون في احتجاجهم لمذهبهم موجهين كلامهم للعرب الذين يؤمنون بسمو جنسهم : إنا ذهبنا إلى العدل والتسوية وإلى أن الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد واحتججنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم .. » فأبيتم إلا فخرا وقلتم لا تساويننا العجم وإن تقدمتنا إلى الإسلام . ويناقش أهل التسوية من الموالى العرب في احتجاجاتهم فيقولون : اخبرونا إن قالت لكم العجم : هل تعدون الفخر كله أن يكون ملكاً أو نبوة .. فإن لنا ملوك الأرض كلهم .. وإن زعمتم أنه لا يكون الفخر إلا بنبوة فإن لنا الأنبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ما خلا أربعة : هودا وصالحا وإسماعيل ومحمدا .. ثم يذكر الشعوبيون بعد ذلك مفاخر العجم في الصناعات المختلفة والعلوم قائلين في ختام ردهم : ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ويضم قواصمها ويقمع ظالمها وينهى سفيهاها ، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة إلا ما كان من الشعر وقد شاركها فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض^(١) .

ومن هذه الردود يتكشف لنا إحساس الموالى بمفاخر ماضيهم وإيمانهم بأن العرب لم يكونوا في يوم من الأيام أحسن منهم ، حتى فخر العرب بظهور نبوة محمد فيهم ، وبلوغهم في الشعر الغاية ، كان له ما يقابله عند هؤلاء الأعاجم من ظهور

(١) العقد الفريد : ٣ : ٤٠٣ وما بعدها .

أنبياء من بينهم ، وارتقاء الشعر عند اليونان وهم منهم . وما نلاحظه أيضا في تلك الردود أنها كانت صادرة عن أجناس من الموالى متحدين ، ولهذا نجدهم يفخرون بشيء من مجد الفرس ، وشيء آخر من مجد اليونان ، وهكذا . وقد لاحظ أحمد أمين أن الشعوبيين كانوا أصنافاً مختلفة : منهم فرس ونبط وقبط وأندلسيون ، وقد صبغت شعوبية كل صنف من هؤلاء صبغة خاصة ، فالفرس صبغت شعوبيتهم صبغة وطنية تدعو إلى الاستقلال ، واتخذت في بعض الأحيان شكل زندقة وإلحاد ، وشعوبية النبط ظهرت في شكل عصبية للأرض وزراعتها ، والقبط ثاروا ثورات مختلفة على العرب ، وكانت آخر ثورة كبيرة لهم في عهد المأمون . وفي الأندلس ظهر ابن غرسية ووضع رسالته في الشعوبية^(١) .

ونحن نتفق مع أحمد أمين فيما يقوله ، ولكننا نحس أن تؤكد أن الشعوبية برغم اختلاف ألوانها كانت متحدة الغاية والهدف والوسيلة أيضا . أما ظهور الشعوبية في الأندلس فكان صدى طبيعياً لما حدث في المشرق من جهة ، واختلاط العرب بالصقالبة وظهور طبقة المولدين أو المستعربين من جهة أخرى . وقد بدأ الشعوبية في الأندلس دعوتهم بالمطالبة بالتسوية بينهم وبين العرب كما حدث بالمشرق . ولما كان دعاة التسوية يرغبون في الاندماج في الكيان العربي اندماجاً كلياً ، لهذا كانوا يقبلون على الانتساب إلى العرب والاعتزاز بهم حتى إن أبا مسلم الخراساني قد اصطنع لنفسه نسباً عربياً كما يقول الطبري^(٢) . وقد فعل مثله كثيرون من الفرس وغيرهم . ويقال إن والبة بن الحباب كان يدعى أيضا النسب إلى العرب لذلك قال فيه أبو العتاهية :

أَوَالِبَ أَنْتَ فِي الْعَرَبِ كَمِثْلِ الشَّيْصِ فِي الرُّطَبِ^(٣)

وحدث الشيء نفسه عند طلاب التسوية من الشعوبيين في الأندلس كما يقول جولد زيهر^(٤) ، وهو يذكر من أقطاب شعوبية الأندلس محمد بن سليمان المعافري ،

(١) ضحى الإسلام ١ : ٦٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٩ : ١٦٧ .

(٣) الأغاني ١٦ : ١٤٩ .

(٤) مقدمة رسالة ابن غرسية (نوادير المخطوطات ج ٣) : ٢٤١ .

وأبا محمد عبد الله بن الحسن الذي كان معروفاً بشدة تعصبه للعجم ومحاوَلته الغرض من شأن العرب .

أما ابن غرسية الذي كتب رسالة في الشعوبية يفضل فيها العجم على العرب ، فيستظهر جولد زيه من رسالته أنه اطلع على كتابات الشعوبية بالشرق واستقى منها أهم الحقائق ، ولم يبتدع هو إلا الملاحظات والدواعي الخاصة . فابن غرسية يوازن بين المميزات الطبيعية والحاصل الخلقية عند كل من العرب والعجم فيفخر ببياض العجم على سمرة العرب ، ثم هو يقابل بين حياة العرب القدامى بين الإبل والشاة ، وحياة الأكاسرة والقيصرة في ظلال السيوف والرماح . ويعقد مقايضة بين هاجر أم العرب وسيدتها سارة أم العجم ، ويتكلم في قناعة العرب بالشهوات الدنيا كالطبل والزمر ومعاقرة الخمر ، ويذكر أن العجم يمتازون في لباسهم وطعامهم وشرابهم . ثم يفخر بأعجاد العجم السياسية والحربية والعلمية ، وأما أن محمداً عليه السلام كان عربياً فلا فخر في ذلك للعرب ، فإن التبر من الثرب والمسك بعض دم الغزال^(١) .

ومن الواضح جداً أن ابن غرسية قد اطلع على ردود الشعوبية على العرب في المشرق - التي ذكرنا أهمها فيما سبق - وإن كانت الردود جميعها لم تصلنا لتضمن أغلبها طعنًا على الإسلام نفسه مما جعل الأيدي تنقبض عن تداولها .

وهذا الطرف الذي تحدثنا فيه عن حركة الشعوبية في الأندلس يعتبر مكملًا لفكرة الشعوبية في المشرق من ناحية برنامجها وسياستها ، ولكنه لا يتصل بها من الناحية الزمنية لأن الشعوبية في الأندلس ظهرت متأخرة عن القرن الثاني لتأخر الفتح العربي وبالتالي تأخر ظهور طبقة المستعربين .

ويبدو أن الشعوبيين في المشرق قد أحسوا - بعد انتصار العباسيين بمساندتهم ، وبعد امتلاء مناصب الدولة الرئيسية بأفراد منهم وبخاصة البرامكة - بأن العرب يتضاءلون إلى جانبهم ، وأن الخطوة الأولى التي نادوا بها وهي التسوية قد تحققت ، فلا بد إذن من خطوات أخرى ومطامع يقصدون إليها ، وليس هناك من مطمع ترنو إليه أبصارهم أبعد من عودة دولتهم إليهم ، وإزالة ملك العرب والقضاء على نفوذهم

(١) مقدمة رسالة ابن غرسية (نوادير المخطوطات ج ٣) : ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

القضاء المبرم . وهنا يبرز التنظيم الدقيق الذى وضعه حزب الموالى للوصول إلى أهدافه ، فهو أولا يوعز إلى شعرائه - وبخاصة من كانوا من أصل فارسى - منذ أواخر العصر الأموى أن يفخروا بأصولهم القديمة ليوقفوا تيار دعوى العرب بأنهم خير الأمم ، وليشجعوا الموالى فى كل مكان على الشعور بشخصيتهم فيدفعوهم بذلك إلى المطالبة باستعادة دولتهم . ولعل أول الشعراء الشعوبيين الذين ظهرت فى شعرهم هذه السياسة إسماعيل بن يسار الذى خلط فخره بأصوله القديمة بمدح الخليفة هشام ابن عبد الملك فى قوله :

إِنِّى وَجَدْتُكَ مَا عُودِى بِذِى خَوَرٍ عِنْدَ الْحِفَاطِ . وَلَا حَوْضِ بِمَهْدُومٍ
أَصْلِي كَرِيمٌ وَمَجْدِي لَا يُقَاسُ بِهِ وَلِى لِسَانٌ كَحَدِّ الْمَيْفِ مَسْمُومٍ
أَخْبَى بِهِ مَجْدَ أَقْوَامٍ ذَوِى حَسَبٍ مِنْ كُلِّ قَرْمٍ بِنَاجِ الْمُلْكِ مَعْمُومٍ
أَسَدُ الْكَتَائِبِ يَوْمَ الرُّوعِ إِنْ زَحَفُوا وَهُمْ أَذَلُّوا مُلُوكَ التُّرْكِ وَالرُّومِ^(١)

وكان إسماعيل هذا كما يقول صاحب الأغاني (شعوبياً شديداً التعصب للعجم وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم^(٢)) .

ومن شعره الذى يفخر فيه على العرب قوله :

رُبُّ خَالٍ مُتَوَجِّحٍ لِي وَعَمُّ مَا جِدَ مُجْتَدِى كَرِيمِ النَّصَابِ
إِنَّمَا سُمِّى الْقَوَارِئُ بِالْف رِسْ مُضَاهَاةَ رِفْعَةِ الْأَنْسَابِ
فَاتْرِكِى الْفَخْرَ يَا أُمَامُ عَلَيْنَا وَاتْرِكِى الْجَوْرَ وَانْطَقِى بِالصَّوَابِ
وَاسْأَلِى إِنْ جَهِلْتِ عَنَّا وَعَنْكُمْ كَيْفَ كُنَّا فِي سَالِفِ الْأَحْقَابِ
إِذْ نُرَبِّى بِنَاتِنَا وَتَدُسُّونَ سَفَ هَا بِنَاتِكُمْ فِي التُّرَابِ^(٣)

(١) الأغاني ٤ : ٤٢٣ ويلاحظ أن كلمة مسموم أصلها الرفع فيكون فى البيت إقواء ولكن كسرهما جاء على أنها نعت لحد السيف على مذهب من يجوز نعت المعرفة بالنكرة (انظر : شرح الأشموني لألفية ابن مالك ٣ : ٦١ نشر المكتبة التجارية - القاهرة - ١٩٤٧) .

(٢) المصدر نفسه ٤ : ٤١٢ .

(٣) الأغاني ٤ : ٤١١ .

بل هو لا ينسى عصبية الفارسية حتى في تصويره الشعري ، فهو حين يمدح الغمر بن يزيد يقول :

تَرَاهُمْ خُشُوعاً حِينَ يَبْدُو مَهَابَةٌ كَمَا خَشَعَتْ يَوْمًا لِكِسْرَى الْأَسَاوِرُ^(١)

ثم تتابع بعد إسماعيل بن يسار الشعراء الشعوبيون يؤكدون هذا الاتجاه ، وهو أن الفرس وغيرهم خير من العرب وأحق بالنفوذ والسلطان منهم . وهذا الاتجاه هو الطور الأخير الذي بلغته الشعوبية . وقد أشار إليه صاحب اللسان بقوله : (والشعوبي هو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم) . وفي هذا الطور نجد الموالى لا يحرصون على الانتساب للعرب كما كان الشأن في الماضي . بل كثر ادعاء الموالى بانتسابهم إلى كسرى حتى قال جحظة :

وَأَهْلُ الْقُرَى كُلُّهُمْ يَنْتَمُونَ لِكِسْرَى ادَّعَاءُ فَأَيْنَ النَّبِيطُ^(٢) ؟

بل نجد ابن ميادة يزعم أن أمه فارسية ويفتخر بذلك قائلاً :

أَنَا ابْنُ أَبِي سَلَمَى وَجَدِّي ظَالِمٌ وَأُمِّي حَصَانٌ أَخْلَصَتْهَا الْأَعَاجِمُ
مع أن أمه كانت بربرية^(٣) .

وازدادت صراحة شعرائهم في الفخر بآبائهم الأقدمين ، ليس هذا فحسب ، بل تحقير العرب والتهكم على هوان ماضيهم وجفاء عيشهم . فالحريري يجهر بآبائه الصغد معرضاً بالعرب قائلاً :

لَمْنِي امْرُؤٌ مِنْ سَرَاةِ الصُّغْدِ أَلْبَسَنِي عِرْقُ الْأَعَاجِمِ جِلْدًا طَيِّبَ الْخَبْرِ^(٤)

ومثل هذا الشعر قد يفهم على أنه فخر عادي كما يقول شارل بلا عن الحريري^(٥) ولكن من السذاجة أن نعتقد ذلك ، لأن هذا الفخر كان جزءاً أساسياً في مبادئ الشعوبية . ونحن بذلك إنما نرد أيضاً على أحد الكتاب الذين حاولوا الدفاع عن أبي نواس وتبرئته من نزعة الشعوبية ، قائلاً إنه لم يذكر من مناقب الفرس إلا ما يتصل

(١) الأغاني ٤ : ٤٢٤ .

(٢) محاضرات الأدباء ٢ : ٢٢٣ .

(٣) الأغاني ٢ : ٢٦١ .

(٤) الشعر والشعراء : ٧٢٩ .

(٥) الحريري . The Encyclopaedia of Islam (new edition) :

بالشراب وعيش الحضارة ببغداد ، ولم يذكر للأعراب إلا عيشتهم النكد وصحراءهم
المجدبة ، ولم يتعرض للعقل الفارسي والمناقب الفارسية ويفضلها على ما عند العرب^(١) .
ولا ندرى كيف يبرأ أبو نواس مع هذا كله من تهمة الشعوبية إلا أن نلغى عقولنا
ونعتبر هجوم أبي نواس على العرب واحتقاره لنوع معيشتهم وأسلوب حياتهم أمراً
طبيعياً مباحاً للشعراء جميعاً . ولعل الذي يدفع بعض الكتاب إلى تبرئة أبي نواس
بالذات من تهمة الشعوبية ما يروى عن أبيه أنه كان عربياً ، ولكن عروبة أبيه
حتى إذا صحت لا تمنع شعوبية أبي نواس قط ، ثم إن هذه العروبة التي ينسبها
بعض الرواة إلى والد أبي نواس مشكوك فيها إلى حد كبير ، خصوصاً وقد روى
ابن منظور أن الأصمعي كان يقول إن والد أبي نواس فارسي وأنه ادعى البن
وتولاهم^(٢) . ويقول ابن منظور عن أبي نواس نفسه : (إنه كان يفضل العجم
ويعمدحهم ويشتهي أن يذكر مناقبهم وآثارهم وأن يتزيى بزيهم ويظهر للناس أنه
منهم^(٣)) . أليس في هذا كله ما يدل على شعوبية أبي نواس ؟ ثم هذا شعره بين
أيدينا يدلنا على أن أبا نواس قد خضع خضوعاً تاماً لمبادئ حزب الموالي ، ونفذ سياسته
بدقة في إحدى نواحيها ، إذ اتخذ جانب تمجيد الفرس ومدح نوع حياتهم الراقية ،
ووصف ما بها من سمو وجمال وبهاء ، وتحقير العرب وهجاء معيشتهم الخافتة
الغليظة ، ووصف ما بها من جذب وفقير ودناءة وقبح . يقول أبو نواس في شعره
الشعوبي :

إذا ما تَمِيْمِي أَتَاكَ مُفَاخِرًا فَقُلْ عَدُّ عَنْ ذَا كَيْفَ أَكَلُكَ لِلضُّبِّ
تَفَاخِرُ أَبْدَاءِ الْمُلُوكِ سَفَاهَةً وَبَوْلُكَ يَجْرِي فَوْقَ سَاقِكَ وَالْكَعْبُ^(٤)

ويقول أيضاً مقارناً بين حياة الفرس وحياة العرب منكراً عليهم أحاديث عشقهم
لينفي عنهم جانب الرقة والإحساس الراقى والمشاعر النبيلة :

(١) انظر : أبو نواس لعبد الحلیم عباس : ١٠٤ .

(٢) أخبار أبي نواس ١ : ١٥ .

(٣) المصدر نفسه ٢ : ٣٦ .

(٤) ديوان أبي نواس : ١٣٠ .

دَعِ الرُّسْمَ الَّذِي دَثُرَا يُقَاسِ الرِّيحَ وَالْمَطَرَا
وَكُنْ رَجُلًا أَضَاعَ الْعِلْمَ فِي م اللَّاسِدَاتِ وَالخَطَرَا
أَلَمْ تَرَ مَا بَنَى كِشْرَى وَسَابُورٌ لِمَنْ غَبَرَا
مَنَازِرُهُ بَيْنَ دِجْلَةَ وَالْفُ رَاتٍ أَحْفَهَا الشَّجَرَا
بِأَرْضٍ بَاعَدَ الرَّحْمَ نُ عَنْهَا الطَّلَحَ وَالْعُشْرَا
وَلَمْ يَجْعَلْ مَصَايِدَهَا يَرَابِعاً وَلَا وَحَرَا
وَلَكِنْ حُورٌ غِزْلَان تُرَاعَى بِالْمَلَأَ بَقَرَا

إِذَا مَا كُنْتَ بِالأَشْيَاءِ م فِي الأَعْرَابِ مُعْتَبَرَا
فَإِنَّكَ أَتَمَّا رَجُلٍ وَرَدْتَ فَلَمْ تَجِدْ صَدْرَا
وَمَنْ عَجَبٍ لِعَشْقِهِمْ م الْجُفَاةِ الْجَلْفِ وَالصَّحْرَا
فَقِيلَ مُرْقَشٌ أَوْدَى وَلَمْ يَعْجِزْ وَقَدْ قَدَرَا
وَقَالَ الْجَاهِلُ الْمُوطَا عَشَا الأَخْبَارِ وَالْغَرَا
فَقَدْ أَوْدَى ابْنُ عَجْلَانٍ وَلَمْ يَفْطِنْ بِهِ خَبَرَا
فَحَدَّثَ كَاذِباً عَنْهُ وَقَالَ بَغَيْرَ مَا شَعَرَا^(١)

ومثل هذه المقارنة بين حياة الفرس المرفهة الناعمة الأنيفة وحياة العرب القاسية
الخشنة الجديية، نجدها في قصائد كثيرة لأبي نواس وخاصة في خرياته التي يعدها
طرفة من طرف الحياة الفارسية ، فيقول في إحداها :

دَعِ الأَطْلَالَ تَسْفِيهَا الْجَنُوبُ وَتَبْكِي عَهْدَ جِدَّتِهَا الْخُطُوبُ
وَحُلْ لِرَاكِبِ الْوَجْنَاءِ أَرْضاً تَحُبُّ بِهَا النَّجِيَّةُ وَالنَّجِيبُ

ولا تَأْخُذْ عَنِ الْأَعْرَابِ لَهْوًا
ذَرِ الْأَلْبَانَ يَشْرَبُهَا أَنْاسٌ
بِأَرْضِ نَبْتِهَا عُسْرٌ وَطَلْحٌ
إِذَا رَابَ الْحَلِيبُ قَبْلُ عَلَيْهِ
فَأَطِيبُ مِنْهُ صَافِيَةٌ شَمُولٌ
.....

تَمُدُّ بِهَا إِلَيْكَ يَدَا غُلَامٍ
فَهَذَا الْعَيْشُ لِأَخِيْمِ الْبَوَادِي
فَأَيْنَ الْبَدْوُ مِنْ إِيْوَانِ كِسْرَى
وَأَيْنَ مِنَ الْمِيَادِينِ الزُّرُوبُ^(١)
أَغْنِ كَأَنَّهُ رَشَا رَبِيبُ
وهذا العيش لا اللبن الحليب
وأين من الميادين الزروب^(١)

وغير أبي نواس من شعراء الشعوبية نجد الكثيرين في القرن الثاني مثل علي ابن الحليل مولى معن بن زائدة، الذي تظهر لنا شعوبيته في تلك الأبيات التي قالها في صديق له من الدهاقين، غاب عنه مدة ثم عاد إلى الكوفة وقد أصاب مالا ورفعة، فادعى أنه من بني تميم، فقال فيه علي بن الحليل معرضاً بالعرب ونوع حياتهم الجافية:

بَا أَيُّهَا الرَّاعِبُ عَنْ أَصْلِهِ
مَنْ تَعَرَّبْتَ وَكُنْتَ أَمْرَةً
لَوْ كُنْتَ إِذْ صِرْتَ إِلَى دَعْوَةٍ
لَكَفَّ مِنْ وَجْدِي وَلَكِنِّي
فَلَوْ تَرَاهُ صَارِفًا أَنْفَهُ
لَقُلْتُ جِلْفٌ مِنْ بَنِي دَارِمٍ
دُعْمُوصُ رَمْلٍ زَلٌّ عَنْ صَخْرَةٍ
تَنْبُو عَنْ النَّاعِمِ أَعْطَافُهُ
مَا كُنْتُ فِي مَوْضِعٍ تَهْجِينِ
مِنْ الْمَوَالِي صَالِحِ الدِّينِ
فُزْتُ مِنَ الْقَوْمِ بِتَمَكِينِ
أَرَاكَ بَيْنَ الضَّبِّ وَالنُّونِ
مِنْ رِيحِ خَيْرِي وَنَشْرِينِ
حَنٌّ إِلَى الشُّيْحِ بَيْرِينِ
يَعَافُ أَرْوَاحَ الْبَسَاتِينِ
وَالْخَزْ وَالسَّنَجَابِ وَاللِّينِ^(٢)

(١) ديوان أبي نواس : ٢٤٥ .

(٢) الأغاني ١٣ : ١٧ .

ولعل خير من يمثل شعراء الشعوية الذين كانوا يتكلمون بلسان حزب الموالي ويعبرون عن اتجاهاته وآرائه أصدق تعبير هو بشار بن برد .

بل نجيل إلى أن بشاراً كان المتحدث الرسمي باسم الشعوبيين في القرن الثاني . وأبو الفرج الأصفهاني يقول عنه إنه كان (شديد الشغب والتعصب للعجم)^(١) . وقد روى أن المهدي سأل : فيمن تعتد يا بشار ، فقال : أما اللسان والرأي فعربيان وأما الأصل فعجمي ، كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين :

وَنُبِّئْتُ قَوْمًا بِهِمْ جِنَّةٌ يَقُولُونَ مَنْ ذَا وَكُنْتُ الْعَلَمُ
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِي جَاهِدًا فُرُوعِي وَأَصْلِي قُرَيْشُ الْعَجَمِ^(٢)

وجاء في مقدمة ديوان بشار أن أمه أصلها جارية رومية ، ولهذا كان يقول :

وَقَبِصْرٌ خَالِي إِذَا عَدَدْتُ يَوْمًا نَسَبِي^(٣)

أي أن بشار عجمي الأصل من ناحية أمه وأبيه ، ولعل هذا هو سبب شدة شغبه على العرب . وهذا البيت الذي ذكرناه من قصيدة شعوية لبشار يفخر فيها بأصله الأعجمي ويعرض بالعرب وحياتهم الحشنة الغليظة ، ثم يؤكد أهمية دور الموالي في إقامة الحكم العباسي ، وهذه ناحية جديدة أولها الشعوبيون أهمية خاصة ليأخذوا من العباسيين كل ما يستطيعون بالاستعطاف والتهديد ، يقول بشار في تلك القصيدة

هَلْ مِنْ رَسُولٍ مُخْبِرٍ عَنِّي جَمِيعَ الْعَرَبِ
مَنْ كَانَ حَيًّا مِنْهُمْ وَمَنْ ثَوَى فِي التُّرْبِ
بَأَنِّي ذُو حَسَبٍ عَالٍ عَلَى ذِي الْحَسَبِ
جَدِّي الَّذِي أَسْمُو بِهِ كِسْرَى وَسَاسَانُ أَبِي
وَقَبِصْرٌ خَالِي إِذَا عَدَدْتُ يَوْمًا نَسَبِي
كَمْ لِي وَكَمْ لِي مِنْ أَبٍ بِتَاجِهِ الْمَعْصَبِ

(١) الأغاني ٣ : ١٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ٣ : ١٣٨ .

(٣) مقدمة ديوان بشار : ٧ .

أَشْوَسُ فِي مَجْلِسِهِ يُجْنَى لَهُ بِالرُّكْبِ
يَسْعَى الْهَبَانِيقُ لَهُ بِأَنْبَاتِ الذَّهَبِ
لَمْ يُشَقَّ أَقْطَابَ سِنَى يَشْرِبُهَا فِي الْعَلْبِ^(١)
وَلَا حَدَا قَطُّ أَبِي خَلَفَ بَعِيرٍ جَرِبِ
وَلَا أَتَى حَنْظَلَةً يَثْقُبُهَا مِنْ سَغَبِ

نَحْنُ جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ بَلَخٍ بِغَيْرِ الْكَذِبِ
حَتَّى رَدَدْنَا الْمُلْكَ فِي أَهْلِ النَّبِيِّ الْعَرَبِ
نَغْضَبُ لِلَّهِ وَلِلْإِسْلَامِ أَسْرَى الْغَضَبِ^(٢)

وتحقير شأن العرب والفخر بمجد الفرس يتكرر كثيراً في شعر بشار . ولعل أهم قصائده في هذه الناحية الشعوية الظاهرة ، تلك القصيدة التي رد فيها على أحد العرب الذي يمثلون تيار التعصب لجنسهم والإيمان بسموه على بقية أجناس الأرض ، فقال :

أَنَا ابْنُ الْأَكْرَمِينَ أَبَا وَأُمَّا
نُغَاذَى الدَّرْمَكِ الْمَنْفُوطِ عِزًّا
وَنَرَكَبُ فِي الْفَرِيدِ إِلَى النَّدَامِ
أَسْرَتُكُمْ تَقْدَمُ مِنْ أَسِيرِ

إِذَا انْقَلَبَ الزَّمَانُ عَلَا بِعَبْدِ
أَحِينَ كُسِبَتْ بَعْدَ الْعُرَى خِزًّا
وَسَفَّلَ بِالْبَطَارِيقِ الْكِبَارِ
وَنَادَمْتَ الْكِرَامَ عَلَى الْعُقَارِ

(١) أوساط العرب كانوا يشربون في العلب حتى لا تتكسر .

(٢) ديوان بشار ١ : ٣٧٧ .

(٣) يقصد طخارستان موطنه الأصل .

(٤) الدرمك المنقوط هو السميكة المطبوخ .

وَنَلْتَمِنَ مِنَ الشَّارِقِ وَقَلَابِهَا وَأُعْطِيتَ الْبَنْفَسَجَ فِي الْخُمَارِ
تُفَاخِرُ يَا ابْنَ رَاعِيَةٍ وَرَاعٍ بَنَى الْأَحْرَارَ حَسْبُكَ مِنْ خَسَارِ
لَعَمْرُ أَبِي لَقَدْ بُدِّلَتْ عَيْشًا بِعَيْشِكَ وَالْأُمُورُ إِلَى مَجْدِ أَرَى
وَكُنْتَ إِذَا ظَمِئْتَ إِلَى قَرَارٍ شَرِكْتَ الْكَلْبَ فِي وَلَعِ الْإِطَارِ^(١)

ولما كان بهم حزب الموالي أن يذكر العباسيين دائماً بالدور الذي قام به حتى أتوا إلى الحكم ، لهذا نجد بشاراً يؤكد هذه الناحية ، ليس هذا فحسب ، ولكنه يتحدث باسم الحزب فيتبرأ إلى الخليفة من ثورات بعض الموالي التي قاموا بها أيام العباسيين بقصد تقويض ملك العرب ونقله إلى الأعاجم ، يقول بشار :

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِأَهْلِ الْبَيْتِ إِنَّ لَهُمْ عَهْدَ النَّبِيِّ وَسَمْتَ الْقَائِمِ الْهَادِي
لَمْ يَحْكُمُوا فِي مَوَالِيهِمْ وَقَدْ مَلَكُوا حُكْمَ الْمُحِلِّ وَلَا حُكْمَ ابْنِهِ الْعَادِي
لَكِنْ وَلَوْنَا بِإِنْصَافٍ وَمَعْدَلَةٍ حَتَّى هَجَدْنَا وَكُنَّا غَيْرَ هُجَادِ
صَلَّتْ لَكُمْ عَجْمُ الْآفَاقِ قَاطِبَةً فَوْجٌ وَفُودٌ وَفَوْجٌ غَيْرُ وُقَادِ

وبشار في هذه الأبيات يقر للعباسيين باسم الموالي بحقوقهم في الخلافة كما رث عن الرسول ، وهي الدعوة التي قام على أساسها الحزب العباسي ، كما رأينا ، كما أنه يشكرهم لرعايتهم للموالي بعد أن ظلمهم الأمويون وبغوا عليهم . ولعله يقصد بالمحل عبد الملك بن مروان الذي أحل حرمة مكة ، ويعني بابنه العادي هشام بن عبد الملك الذي قطع أيدي دعاة العباسيين عام ١٠٧ هـ . ثم يستأنف بشار حديثه على لسان (عجم الآفاق قاطبة) أي حزب الموالي ، فيقول :

إِنَّ الدَّعَى يُعَادِينَا لِنُلْحِقَهُ بِالْمُدَّعِينَ وَيَلْقَانَا بِالْحَادِ
وَلَا يَزَالُ وَإِنْ شَابَتْ لِهَازِمُهُ مُذَبَذَبًا بَيْنَ إِصْدَارٍ وَإِيرَادِ
يَنْفِيهِ أَصْحَابُهُ مِنْهُمْ إِذَا حَضَرُوا وَإِنْ أَتَانَا وَهَبْنَاهُ لِمُرْتَادِ

وهو في هذه الأبيات يقصد العلويين ومحاولتهم اجتذاب الموالي في ثورة الحسن ابن إبراهيم بن عبد الله فيما يبدو ، ولكن الموالي أبوا عليهم ذلك لأنهم وهبوا أنفسهم لتأييد العباسيين وتثبيت ملكهم ، وهم في سبيل ذلك لا يأبهون بكيد الحساد ولا سب الأعداء :

أنصفتمونا فعابوا حكمكم حسداً والله يعصمكم من غلّ حساد
سَطَوْا علينا بأن كُنّا موالِيكم وعَيَّرُونَا بِآبَاءِ وَأَجْدَادِ
وقد نرى عارَ قومٍ في أنوفهم ونتركُ العيبَ إذ ليسوا بأنْدَادِ
يُزْرِى علينا رجالٌ لَانِصَابَ لَهُمْ كانوا عِبَادًا وَكُنَّا غَيْرَ عَوَادِ
لَا رَأُونَا نُوَالِيكُمْ وَنَنْصُرُكُمْ ثَارُوا إِلَيْنَا بِأَضْغَانٍ وَأَحْقَادِ

وحين يصل بشار إلى هذه الغاية من بيان خدمات الموالي للعباسيين وخضوعهم لهم ، يعلو صوته شيئاً فشيئاً فيفخر بالدور الذي قاموا به في بناء الدولة العباسية وتثبيت أركانها فيقول :

دُونَ الْخَلِيفَةِ مِنَّا كُلِّ مَأْسَدَةٍ وَمِنْ خُرَاسَانَ جُنْدٌ بَعْدَ أَجْنَادِ
قَوْمٌ يَذُبُّونَ عَنْ مَوْلَى كَرَامَتِهِمْ وَيُحَسِّنُونَ جِوَارِ الْوَارِدِ الصَّادِ
لِلَّهِ كَرُّهُمْو جُنْدًا إِذَا حَمُسُوا وَشَبَّتِ الْحَرْبُ تَارًا بَعْدَ إِخْمَادِ
لَا يَفْشَلُونَ وَلَا تُرْجَى سُقَاطَتُهُمْ إِذَا عَلَا زَأْرُ آسَادِ لَآسَادِ
إِنَّا سِرَاةُ بَنِي الْأَحْرَارِ وَقُرْنَا رَكُضُ الْجِيَادِ وَهَزْ الْمُنْصُلِ الْبَادِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا عِيدٌ وَمِلْحَمَةٌ حَتَّى سَبَّأْنَا بِأَسْيَافٍ وَأَغْمَادِ
سُقْنَا الْخِلَافَةَ تَحْدُوهَا أَسِنَّتُنَا وَالْقَاسِطُونَ عَلَى جُهْدٍ وَإِسْهَادِ
حَتَّى ضَرَبْنَا عَلَى الْمَهْدَى قُبَّتَهُ فَسَطَاطَ مُلْكٍ بِأَطْنَابٍ وَأَوْتَادِ

ولعل هذه النغمة الحماسية العالية نبهت بشارا إلى أن الخليفة ربما تذكر معها ثورات الموالي التي قامت في وجه العباسيين ، لهذا سارع الشاعر بالاعتذار عنهم والتبرؤ منهم قائلا :

ونازعين يداً خائوا فقلت لهم
 راحت لهم من يد الوهاب عدتهم
 فأصبحوا في رقاد الملك قد خفتوا
 مثل المقتنع في حزب له سلفوا
 بُغداً وسحقاً وكانوا أهل إبعاد
 من المنايا توافيهم بميعاد
 ولم يكونوا على السواى برقاد
 أذباح أصيد للأبطال صياد^(١)

وهذه القصيدة الخطيرة إنما تكشف لنا بوضوح عن سياسة حزب الموالي تجاه العباسيين أيام المهدي ، وهي سياسة مهادنة ومحاولة كسب ثقة الخليفة للتمكن من الوصول إلى أغراضهم البعيدة بعد ذلك . ولهذا لا نستغرب أن يعهد المهدي إلى يحيى البرمكي بتربية ولده هارون ، ولا نستغرب أن توضع مقدرات الدولة كلها في عهد الرشيد في يد البرامكة ويصير للموالي نفوذ خطير في كل ركن من أركان الدولة ، مما دعى أوليرى إلى القول بأن هارون الرشيد نفسه كانت له ميول فارسية قوية لأن ثقافته اكتملت في خراسان ، وفي عاصمتها مرو بالذات التي كانت مهد الشعوبية^(٢) . وتؤكد هذه القصيدة أيضاً ما سبق أن قلناه من أن بشاراً كان فيما يبدو المتحدث الرسمي باسم حزب الشعوبية ، وأنه كان يقوم بدور خطير في هذا الحزب ، وهو بصور لنا هذا الدور في إشارة عابرة ولكنها ظاهرة الدلالة إذ يقول :

أحين أشارت بي الأكف مُعيدةً وحفت بي الحمراء خرقاً مُعصبا^(٣)
 ولعل أبا الفرج الأصفهاني يوضح لنا أهمية هذا الدور فيما رواه من أن رجلاً وقف على بشار فقال له : (يا بشار قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم إلى الانتفاء منا . وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء^(٤)) فكأنه كان يمارس عمل المختار في ثورته أيام بني أمية التي كانت في أصلها ثورة موال .
 ومن الملاحظ أن بشاراً كان يعبر عن الفرس دائماً بأنهم بنو الأحرار ، فقد ورد ذلك التعبير في بيته الذي يقول فيه :

تفاخر يا ابن راعية وراع
 بنى الأحرار حسبك من خَسار

(١) ديوان بشار ٢ : ٢٩٨ - ٣٠٦ .

(٢) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب : ٢٣٥ .

(٣) ديوان بشار ١ : ٢٤٦ .

(٤) الأغاني ٣ : ٢٠٣ .

كما مر بنا أيضاً في قوله :

إنا سرأة بني الأحرارِ وَقَرْنَا رَكْضُ الْجِيَادِ وَهَزْمُ الْمُتَّصِلِ الْبَادِي
وهذا التعبير ليس مجرد صفة عابرة ، ولكنه فيما يرى بول كراوس ترجمة حرفية
لكلمة (آزاد مرد) وهي التسمية الفارسية للأرستقراطية الإيرانية التي يفتخر بها
أنصار الشعوبية^(١) .

وللمرزباني إشارة لطيفة يؤكد فيها شعوبية بشار إذ يقول : لما هجا بشار سيويوه
قائلاً :

أَسِيَّوُهُ يَا ابْنَ الْفَارِسِيَّةِ مَا الَّذِي تَحَدَّثْتَ مِنْ شَتْمِي وَمَا كُنْتَ تَنْبِذُ
ظن بعض الناس أنه يشتم الفرس ، ولكن الحقيقة أنه كان بالبصرة امرأة زانية يقال
لها الفارسية ، وإلى هذا ذهب بشار ، وكان أشد عصبية للفرس من أن يقول ما توهمه
الناس^(٢) .

وقد أتت بعد مرحلة الفخر بالأعجاد الفارسية وتحقير العرب مرحلة أخرى كانت
نتيجة طبيعية لتغلغل الشعوبيين في أجهزة الدولة ، وفي مختلف ميادين العمل والعلم
بها ، كما كانت خطوة جديدة في سبيل الوصول إلى مأربهم البعيد وهو إقصاء
العرب عن الحكم وتولي شئونهم بأنفسهم ، فإذا بنا نجد في هذه المرحلة شعوبيين
يضعون القصص الشنيعة في شرح الأبيات الشعرية وأمثال العرب ، التي تعتبر عند
كل أمة تراثاً مقدساً ينبغي الحفاظ عليه واحترامه ، كما فعل أبو عبيدة في شرح
المثل (جبان ما يلوى على الصغير)^(٣) ، كما أن الشعوبيين أخذوا يؤلفون الكتب
في مثالب العرب ، وهي كتب شنيعة في موضوعاتها كما يتضح لنا من كتاب مثالب
العرب لابن الكلبي ، فهو يتحدث فيه عن مثالب القبائل في الجاهلية ، وعن كان
يأكل الربا من العرب ، ويتحدث عن لصوصهم والمختئين فيهم والأدعياء من قريش
واللاطاة والمأبونين والبغايا ، ويسمى من أتى به من سفاح الجاهلية ، ويتحدث عن
فساد الزواج في الجاهلية ، وأولاد الزنا الذين شرفوا من العرب ، إلى غير ذلك من
السقطات التي جمعها الشعوبيون إن صدقا وإن كذبا . ومن الملاحظ على كتاب

(١) انظر : البخلاء بتحقيق طه الحاجري : ٤٢٨ .

(٢) الموشع : ٢٤٧ .

(٣) انظر : التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه : ٧٧ .

ابن الكلبي أنه يقسم كل باب من هذه الأبواب وغيرها قسمين : قسم يتحدث فيه عن قريش بالذات ، والقسم الآخر عن بقية العرب ، ولا يتخفى ما في هذا التقسيم من خبث طوية وطعن صريح^(١) . بل لقد بلغ الأمر بالشعوبيين أن أحدهم وهو يونس بن هارون ، كتب كتابا للملك الروم في مثالب العرب وعيوب الإسلام أيضا^(٢) . ويضيف جولد زيهر في كتابه (الدراسات المحمدية) إلى واضعي الكتب ضد العرب سهل بن هرون الذي ألف عددا كبيرا من الكتب أظهر فيها تعصبه ضد العرب وفخره بالعجم ، وكان من متطرفي قومه في أيامه . وأدبه الغريب الذي اشتهر به إنما وضعه ليسخر به من العرب ، فإنه كتب سلسلة من الرسائل يمدح فيها البخل ، بل كتب كتابا على ما يقال يذم فيه الكرم ، وما ذلك إلا لأن الكرم صفة من صفات العرب^(٣) .

ومن هؤلاء أيضا سعيد بن البختكان وقد كتب كتابين : الأول سماه (انتصاف العجم من العرب) والثاني (فضل العجم على العرب وافتخارها) . كذلك وضع بعض الكتب في مثالب العرب محمد بن الليث بن الخطيب « ابن ادرياد بن فيروز » الذي كان يرمى بالزندقة^(٤) .

أما علان الشعوبي فله كتاب الميدان في المثالب (الذي هتك فيه العرب وأظهر مثالبها) كما يقول ابن النديم . وله من الكتب أيضا (كتاب المثالب) ويحتوي على مثالب قريش ومثالب بقية العرب قبيلة قبيلة ، كذلك كان للهميم بن عدى المتوفى عام ٢٠٧ هـ عدد كبير من الكتب في مثالب العرب^(٥) .

ونجد المحدثين من الشعوبيين يفسون كثيرا من الأحاديث المكذوبة على رسول الله ، وكان رأس هؤلاء أحمد بن بشير الذي يقول عنه الخطيب البغدادي إنه كان رأسا في الشعرية يخاصم فيها^(٦) .

(١) انظر : مثالب العرب لابن الكلبي (مخطوط) .

(٢) الأوراق (أخبار الشعراء) : ١٠ .

(٣) انظر : الصراع بين الموالى والعرب : ٤٩ ، الفهرست : ١٢٠ .

(٤) المصدران نفسيهما .

(٥) الفهرست : ١٤٧ ، ١٥٣ .

(٦) تاريخ بغداد ٤ : ٤٨ .

ويرى أحمد أمين أن الشعوبيين كانوا ينسبون الشيء إلى غير قائله لإفساد الأدب العربي وإضاعة معالمة^(١). وفي الوقت نفسه نجد أبا عبيدة الشعوبي الخطير يجعل الفضل في تقدم الأدب العربي راجعا إلى الموالي بما ترجموه من آداب آبائهم مثل أبان بن عبد الحميد ونحاله الكبير الفضل بن عيسى وولده عبد الصمد^(٢). ويلاحظ يوهان فك أن سيويه كان يستشهد بشعر زياد الأعجم وأبي عطاء السندی^(٣)، تعصبا منه فيما يبدو لعجميته. بل لاحظ بعض الدارسين عصبية خفية للموالي في مذهب أبي حنيفة. كما كانت هناك نواح خفية في معظم تأليفهم العادية تكمن فيها عصبيتهم، فقد لاحظت مثلا أن كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي بالولاء والمتوفى عام ٢٠٣ هـ، لا يذكر من الروايات والأحاديث إلا ما كان فيه تخفيف عن الموالي.

ومما لا شك فيه أنه كان من بين وسائل الشعوبية لإدراك أهدافها - إلى جانب ما ذكرنا من محاولتها تشويه تاريخ العرب وحياتهم وأديبهم وأنسابهم - محاولة تحطيم الإسلام باعتبار أنه مصدر قوة العرب الحقيقي، ولهذا رأيناهم يبدسون في أحاديث الرسول، ليس هذا فحسب، ولكنهم نشروا أنواعا من الزندقة في المجتمع الإسلامي ليحرفوا الدين في تيارها ويقوضوا أركانه. ويقول محمد بدیع شریف في ذلك إن المثقفين من الموالي كانوا يكيدون للعرب وللإسلام بترجمتهم كتب الزندقة مما أثر عن ماني ومزدك وغيرهما، فكانت هذه المترجمات سببا لإيجاد الخلاف بين المسلمين فتشأت الفرق المتعددة^(٤).

وقد بينا من قبل في حديثنا عن الزندقة تلك الصلة الوثيقة التي تربط بينها وبين الشعوبية واتجاهاتها الخطيرة، والذي نحسب أن نبينه في هذا المجال أن العرب في القرن الثاني لم يكونوا غافلين عن تيار الشعوبية ومسارها الخفية، بل كانوا متنبهين لها كل التنبيه، وكانوا يردون على رسائل الشعوبيين واحتجاجاتهم.

وفي كتاب العرب أو الرد على الشعوبية لابن قتيبة مثال كاف للتدليل على

(١) ضحى الإسلام ١ : ٧٧ .

(٢) انظر : مجمع الأمثال للميداني ١ : ٣٦٠ .

(٣) المريية : ٥٢ .

(٤) الصراع بين الموالي والعرب : ٥٣ .

هذه الناحية^(١) . وزاد ذلك التنبه في الأندلس بعد عدة قرون حين كتب ابن غرسية رسالته التي أشرنا إليها فانبرى له كثير من العرب الأندلسيين^(٢) . وقد صدق أحمد أمين حين قال إن حركة الشعوبية قد بلغت أوجها لأن الخلفاء العباسيين تعصبوا للإسلام ولم يتعصبوا كثيرا للعربية ، فحاربوا الزندقة ولم يحاربوا في شدة نزعة العجمية^(٣) . فكأنهم بذلك تركوا الأصل واتبعوا الظل ، ولهذا بلغت ما بلغت حركة الشعوبية التي اعتقد أنها حققت أغراضها البعيدة ، حين قامت الدويلات الفارسية على أنقاض المملكة الإسلامية بعد انهيار الحكم العباسي كما سبق أن أشرت .

تلك إذن هي ناحية التجديد في المدح والشعر السياسي في القرن الثاني . وقد اقترن هذان الفنان في ذلك العصر بل قبله أيضا ، كما اقترن بالشعر السياسي جانب من الفخر والهجاء أيضا مثلما استظهرنا من شعر الحزب الشعوبي . وعلى أية حال فإن الشعر السياسي لم يكن من الاتجاهات القوية في شعر القرن الثاني مثلما كان في القرن الأول أو في عصر الدولة الأموية بالذات ، ذلك أن الروح الحزبية التي كانت تؤثّر نار العداوة والمنافسة قد خمدت إلى حد كبير بانقضاء أمر الخوارج وهوان أمر الحزب الأموي وضعف العلويين إلى حد كبير . يضاف إلى ذلك ما ذكره طه حسين من أن الحكومة المركزية في بغداد كانت قوية شديدة البطش . ومن قوة الحكومة وامتدادها نشأ شيء من ضيق الحرية قضى على النزعات الحزبية القديمة وأكره الشعراء على أن يتركوا السياسة لأهل السياسة ، ولكن طه حسين يرى أن فن الشعر السياسي الذي ازدهر أيام الأمويين قد انمحي ولم يخلفه في الشعر فن جديد^(٤) ، وفيما قدمنا رد على هذا القول ، فالشعر السياسي لم يمح ، كما أن الشعر المذهبي الذي تحدثنا عنه من قبل قد حل محله في القرن الثاني .

وفيما يلي نتناول بالدراسة الجانب المجدد في فن قديم مناقض للمديح هو فن الهجاء .

(١) انظر : رسائل البلغاء : ٣٤٤ وما بعدها .

(٢) انظر رسالة ابن غرسية والردود المختلفة عليها .

(٣) ضحى الإسلام ١ : ٦٥ .

(٤) حديث الأربعاء ٢ : ٢١ .

الهجاء

من الفنون القديمة التي وجدت في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي فن الهجاء، ووجوده أمر طبيعي مع وجود المديح، فحينما وجد أناس يستحقون المديح، وجد آخرون يستحقون الهجاء. وقد تطور هذا الفن تطوراً كبيراً منذ الجاهلية حتى القرن الثاني لتغير الأسباب الدافعة إليه، وتطور الذوق العام من عصر لعصر. فما يراه عصر هجاء موجعا قد يمر به عصر آخر دون أن يأبه بما فيه. فأبو عمرو بن العلاء يرى أن خير الهجاء (ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها^(١)). وهذا المفهوم لا بد أن صاحبه قد تمثله من دراسته لشعر الهجاء في العصر الجاهلي الذي يمثل له ابن رشيقي بقول أوس:

إِذَا نَاقَةٌ شُدَّتْ بِرَحْلِ وَنَمْرَقٍ إِلَى حَيْكُمٍ بَعْدَى فَضْلٍ ضَلَّالُهَا^(٢)

بل إن علماء الشعر يرون أن أبيات النابغة الذبياني التي هجا بها عامر بن الطفيل تعد نموذجاً لفن الهجاء في الجاهلية وهي التي يقول فيها:

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا فَإِنَّ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ
فَكُنْ كَأَبِيكَ أَوْ كَأَبِي بَرَاءٍ تُصَادِفُكَ الْحُكُومَةُ وَالصُّوَابُ
فَلَا يَذْهَبُ بِلُبِّكَ طَائِشَاتٌ مِنَ الْخِيَلِ لَيْسَ لَهُنَّ بَابُ
فَإِنَّكَ سَوْفَ تَحْلُمُ أَوْ تَنَاهَى إِذَا مَا سُبِّتَ أَوْ شَابَ الْغُرَابُ^(٣)

مع أن هذه الأبيات لا تتضمن إلا عتاباً رقيقاً أرق من النسيم إذا ما قيس بشعر الهجاء عند جرير والفرزدق، ويعتبر هدهدة وتلطفاً إذا قارناه بالهجاء في القرن الثاني كما سنبينه فيما بعد.

وبعد ظهور الإسلام اعتبر فن الهجاء إنما كبيراً لا يجوز أن يجري به لسان شاعر، ويروى عن رسول الله عليه السلام أنه قال: (من قال في الإسلام هجاء

(٢) المصدر نفسه.

(١) العمدة ٢ : ١٣٨ .

(٣) العمدة ٢ : ١٣٩ .

مقدعاً فلسانه هدر^(١) . وقد فسر عمر بن الخطاب رضي الله عنه معنى الهجاء المقذع حين أطلق الخطيئة من سجنه بسبب هجائه للزبرقان بن بدر فقال له : إياك والهجاء المقذع . قال : وما المقذع يا أمير المؤمنين ؟ قال : المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف وتبنى شعراً على مدح لقوم وذم لمن تعاد بهم^(٢) . فتفسير الإقذاع هنا تفسير أخلاقي بمعنى أنه الذي يوقع العداوة والبغضاء بين قوم وقوم أو بين الممدوحين والمذمومين .

ويقول ابن رشيقي إن جميع الشعراء يرون قصير الهجاء أجود ولكن جريراً كان يرى تقصير المديح وإطالة الهجاء ، وهذه المخالفة إنما تصور لنا فرقاً فنيادقيقاً بين قصائد الهجاء وبين النقائض التي كان جرير يخوض معركتها مع الفرزدق والأخطل ويقول شوقي ضيف في تطور الهجاء الجاهلي إلى نقائض : (العرب قبل عصر بني أمية لم يعرفوا هجاء منظماً يستمر يوماً استمراراً متصلاً على نحو ما يستمر في عصرنا إخراج الصحف اليومية ، إنما عرفوا هجاء متقطعاً يظهر من حين إلى حين تبعاً لنشوب حروب وأيام بينهم . فلما جاء العصر الأموي واستقرت القبائل في مدينتي البصرة والكوفة وعادت العصبية جذعة ، رأينا هذه القبائل تجتمع وتحتشد في المربد وفي الكناسة حول الشعراء ، يستمعون منهم إلى ما ينشدونه في الهجاء ، وكأنهم وجدوا في ذلك لهواً لهم وتسليّة ، حيثئذ يتحول فن الهجاء من فن وقفي متقطع إلى فن دائم مستمر يحترفه الشاعر^(٣) . فالتقائض إذن عبارة عن هجاء دائم مستمر ، وعبارة عن احتراف لفن الهجاء ، ولهذا لم يكن يراد بها الجدل كما كان شأن الهجاء في الجاهلية ، ولكن يراد بها اللهو والإضحاك . والنقائض بعد هذا كله مناظرات أدبية أوجدتها ظروف عقلية واجتماعية في العصر الأموي أكثر من كونها أهاجى بالمعنى القديم المعروف في الجاهلية^(٤) . ومع ذلك كان التزاع القبلي مادة رئيسية في فن النقائض ، ذلك الفن الذي أخذ يتضاءل شأنه بعد انتهاء جيل الفرزدق وجرير والأخطل حتى لم تعد له في القرن الثاني قائمة ، إلا من بقية ضئيلة في أول هذا القرن لم توجد فيها

(١) العدة ٢ : ١٣٨ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) التطور والتجديد في الشعر الأموي : ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٤) أنظر : المصدر نفسه : ٢٠٤ وما بعدها .

العناصر الفنية للنقائض التي كانت مستعرة بين هؤلاء الشعراء الثلاثة ، وتمثل لنا هذه البقية في النقائض التي كانت بين ابن ميادة والحكم الحضري^(١) ، بل لقد اقتصرت هذه النقائض فيما بعد على نزاع قبلي محض فارتدت بذلك إلى فن النقائض البدائي الذي كان موجوداً في الجاهلية ، ومن ذلك مثلاً ما قاله الوليد بن يزيد في توبيخ أهل اليمن لتركهم نصرة خالد بن عبد الله القسري حين قتله :

ألم تَهْتَجْ فتُذَكِّرُهُ الوِصَالَا وَحَبَلَا كَانَ مُتَّصِلَا فَرَالَا
بلى فالدمعُ منك له سِجَامُ كماء المُرْنِ يَنْسِجَلُ انْسِجَالَا
فَدَعُ عَنْكَ ادُّكَارَكَ آلَ سَعْدَى فنحنُ الأكثرون حصى ومالا
ونحنُ المَالِكونَ النَّاسَ قَسْرَا نسومهم المَدَلَّةَ والنَّكَالَا
وهذا خَالِدٌ فِينَا أَسِيرَا أَلَا مَنَعُوهُ إِنْ كَانُوا رِجَالَا
عَظِيمُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ قَدِيمَا جعلنا المَخْزِيَاتِ لَهُ ظِلَالَا
فلو كانت قبائلُ ذاتِ عِزٍّ لما ذهبَتْ صَنَائِعُهُ ضَلَالَا
ولا تركوه مَسْلُوبَا أَسِيرَا يعالِجُ مِنْ سَلَاسِلِنَا الثَّقَالَا
فقال عمران بن هلباء يجيبه :

فَقِي صَدْرَ المَطِيَّةِ يَا حُلَالَا وَجُدِّي حَبْلَ مَنْ قَطَعَ الوِصَالَا
ألم يَحْزُنْكَ أَنَّ ذَوِي يَمَانٍ يرى مَنْ حَازَ قِيْلَهُمْ حِلَالَا
لئن عَيَّرْتُمُونَا مَا فَعَلْنَا لقد قُلْتُمْ وَجَدَكُمْ مَقَالَا
سَنَبِكِي خَالِدَا بِمُهَنْدَاتٍ ولا تَذْهَبُ صَنَائِعُهُ ضَلَالَا
ألم يَكُ خَالِدٌ غَيْثَ الْيَتَامَى إِذَا حَضَرُوا وَكُنْتَ لَهُمْ هُزَالَا
سَتَلْقَى إِنْ بَقِيَتْ مُسُومَاتٍ عَوَابِسَ لَا يُزَايِلُنَ الحِلَالَا^(٢)

انتهى إذن فن النقائض في القرن الثاني أو أوْشِك على الزوال بانتهاء الدوافع

(١) انظر : الأغاني ٢ : ٢٩٨ - ٣٠١ .

(٢) تاريخ الطبري ٩ : ٤ .

الاجتماعية والعقلية التي كانت تدعو إليه ، ولكن تطور فن الهجاء واتخذ وجهات جديدة كانت وراءها عوامل اجتماعية وثقافية مؤثرة في أدب القرن الثاني كله ، وقد سبق لنا أن بيناها في الباب الأول من هذا البحث .

ولعل أول ما نلاحظه في شعر الهجاء في القرن الثاني اقتصره على المقطعات القصيرة التي قد لا تتجاوز البيتين ، وبذلك انتصرت الفكرة القديمة التي عارضها جرير ، وأصبحت حقيقة واقعة في القرن الثاني ، لأن طبيعة الحياة ، بالإضافة إلى عوامل أخرى كثيرة سبق أن ذكرناها ، دعت إلى عدم الإطالة في القصائد عموماً ، في حين أن الهجاء كان يستلزم ذلك ضرورة ليبلغ الشاعر بآياته القليلة التي يركز فيها معاني محددة ما يريجه من سرعة إيلاام المهجوع ، وما يتمناه من سرعة انتشار هذه الأبيات بين جماهير الناس . ولهذا نجد فن الهجاء في القرن الثاني لا يندمج في قصيدة مطولة مع فنون أخرى كالقصر أو المدح أو ما أشبه ، مثلما كان الأمر في الجاهلية ، فتضل بذلك معانيه طريقها إلى المهجوع وإلى جماهير الناس ، وإنما يصبح فناً مستقلاً يقصد الشاعر إليه قصداً ويخصص له مقطوعة بعينها لا يشرك معه فيها غرضاً آخر من أغراض الشعر . وبهذه المناسبة نرد على ما ذكره محمد الطاهر بن عاشور من أن بشاراً ابتكر شيئاً جديداً في فن الهجاء إذ افتتحه بالنسيب مع أن العرب كانوا يفتتحون المديح فحسب بالنسيب^(١) . ونحن لا نعتبر هذا تجديداً على الإطلاق - إن صح - بل هو امتداد للقديم لأن القصيدة العربية لم يكن فيها أي تخصص بالنسبة للأغراض الشعرية ، والهجاء في القديم ربما جاء في قصيدة مدح افتتحها صاحبها بالنسيب ، ونجد هذا بالفعل في قصيدة الأعشى التي يهجو فيها الحارث بن وعله وأولها :

تَصَابِيَتْ أُمُّ بَانَتْ بَعْقَلَاكَ زَيْنَبُ وَقَدْ هَبَّ الْوُدُّ الَّذِي كَانَ يُذْهِبُ

فلا مجال إذن لنسبة ابتكار شيء جديد إلى بشار في هذا الموضوع . ومن التطورات الجديدة التي نلاحظها أيضاً على فن الهجاء في القرن الثاني ميله إلى الشعبية في معانيه وفي أسلوبه ، وهذه النقطة ترتبط بالناحية الأولى ، لأن صوغ الهجاء في قالب شعبي يجعل معانيه قريبة من نفوس الجماهير مما يكفل له انتشاراً

واسعا ، ولهذا كان بشار يخشى هجاء أبي الشمقمق له بهذا الأسلوب الشعبي الذي يمتاز به هجاء هذا الشاعر بالفعل مثل قوله :

هَلَّلَيْنَاهُ هَلَّلَيْنَاهُ طعن قَتَاة لَتَيْنَاهُ

إِنَّ بَشَّارَ بْنَ بُرْدٍ تَيْسٌ أَغْمَى فِي سَفِينَةٍ^(١)

وهذا الاقتراب من الشعبية كان يقترن بالميل إلى الهزل والمرح والترفيه ، لأن هذه العناصر جزء لا يتجزأ من الطبيعة الشعبية في كل زمان وفي كل بيئة ، ولعل أصدق مثال لذلك قصيدة أبان اللاحق في هجاء جابر له اسمه محمد بن خالد تزوج من عمارة بنت عبد الوهاب الثقفي طمعا في مالها ، فقال أبان :

لَمَّا رَأَيْتُ الْبَزَّ وَالشَّارَةَ وَالْفَرَّشَ قَدْ ضَاقَتْ بِهِ الْحَارَةُ

وَاللُّوزَ وَالسَّكَّرَ يُرْمَى بِهِ مِنْ قَوْقِ ذِي الدَّارِ وَذِي الدَّارَةِ

وَأَحْضَرُوا الْمُلْهَيْنَ لَمْ يَتْرَكُوا طَبْلًا وَلَا صَاحِبَ زُمَارَةٍ

قُلْتُ : لِمَذَا ؟ قِيلَ : أَعْجُوبَةُ مُحَمَّدٍ زَوْجَ عَمَّارَةٍ

لَا عَمْرَ اللَّهُ بِهَا بَيْتُهُ وَلَا رَأَتْهُ مُذْرِكًا ثَارَةَ

مَاذَا رَأَتْ فِيهِ مَاذَا رَجَتْ وَهِيَ مِنَ النُّسَوَانِ مُخْتَارَةُ

أَسْوَدُ كَالسَّقُودِ يُنْسَى لَدَى التَّنُورِ أَوْ مِحْرَاكِ قِيَّارَةِ

يُجْرَى عَلَى أَوْلَادِهِ خَمْسَةٌ أَرْغَفَةٌ كَالرِّيشِ طَيَّارَةِ

وَأَهْلُهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ خَوْفِهِ إِنْ أَفْرَطُوا فِي الْأَكْلِ سَيَّارَةُ

وَيَحْكُفُ فَرُّى وَأَعْصَبِي ذَاكَ بِي فَهَذِهِ أُخْتُكَ فَرَّارَةُ

إِذَا غَفَا بِاللَّيْلِ فَاسْتَيْقَظَ ثُمَّ اطْفَأَ إِنَّكَ طَفَّارَةُ^(٢)

ويتضح لنا من هذه القصيدة بساطة التعبير وسهولة الألفاظ واختيارها من لغة الحياة اليومية ، كما يتضح لنا منها ومن غيرها من شعر الهجاء في القرن الثاني ، تطور هذا الفن باتجاهه ناحية شخصية في الغالب وتناوله للفرد كفرد في مجتمع ، لا شأن

(١) الأغاني ٣ : ١٩٥ .

(٢) الأوراق (أخبار الشعراء) : ٢٤ .

لقيامته وقومه به على الإطلاق ، مثلما كان الحال في شعر الهجاء القديم حتى في القرن الأول ، حيث كان الشاعر ينظر إلى نسب المهجو ومخازي قبيلته كأساس لهجائه ، ولا ريب أن هذا التغير كان نتيجة للتحضر الذي بلغه المجتمع واكتمال الشخصية الاجتماعية لأفراده واستقلالها إلى حد كبير عن القبيلة وعلاقتها المختلفة . أما معاني الهجاء نفسها فقد دخلها التغير أيضا بسبب تطور المجتمع ، فبعد أن كانت في الهجاء القديم مجرد نفي للفضائل الأربع ومشتقاتها التي تحدثنا عنها في شعر المديح اتجه بها الشعراء وجهات جديدة تبعا لتعدد أنواع الهجاء ودوافعه . ففي هذا العصر اتسع نطاق الهجاء السياسي والمذهبي بصورة لم يعرفها القرن الأول ، مع أن الشعر السياسي بصفة عامة كان مزدهراً فيه ؛ فبعد أن كنا نسمع في القرن الأول أبياتاً متفرقة في هجاء الخلفاء مثل قول ابن عرادة في يزيد بن معاوية :

أَبْنَى أُمِيَّةٍ إِنَّ آخِرَ مُلْكِهِمْ جَسَدٌ بِحُؤَارِينَ ثُمَّ مُقِيمٌ
طَرَقَتْ مِنْبَتُهُ وَعِنْدَ وَسَادِهِ كُوبٌ وَزِقٌ رَاعِفٌ مَرثُومٌ
وَمُرْنَةٌ تَبْكِي عَلَى نَشْوَانِهِ بِالصَّنَجِ تَقْعُدُ تَارَةً وَتَقُومُ^(١)

أصبحنا نجد أن هذا النوع من الهجاء قد انتشر في القرن الثاني انتشاراً واسعاً وأصبح لوناً ثابتاً من ألوان الهجاء ، وكان الكميّ في أول هذا القرن غنياً في هجائه للأمويين هجاء سياسياً ومذهبياً في آن واحد . ومما قاله فيهم :

وَهَلْ أُمَّةٌ مُسْتَبْقِظُونَ لِرُشْدِهِمْ فَيَكْشِفُ عَنْهُ النُّعْسَةَ الْمُتَزَمِّلُ
فَقَدْ طَالَ هَذَا النَّوْمُ وَاسْتَخْرَجَ الْكُرَى مَسَاوِيَهُمْ لَوْ أَنَّ ذَا الْمَيْلِ يُعْدِلُ
وَعُظِّلَتِ الْأَحْكَامُ حَتَّى كَانَتْهَا عَلَى مِلَّةٍ غَيْرِ الَّتِي نَتَنَحَّلُ
أَهْلُ كِتَابٍ نَحْنُ فِيهِ وَأَنْتُمْ عَلَى الْحَقِّ نَقْضِي بِالْكِتَابِ وَنَعْدِلُ
فَكَيْفَ وَمَنْ أَنَّى وَإِذْ نَحْنُ خَلْقَةٌ فَرِيقَانِ شَتَّى تَسْمُنُونَ وَنُهْزِلُ
فَتَلِكْ مُلُوكُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مُلْكُهُمْ فَحَتَّامَ حَتَّامِ الْعَنَاءِ الْمُطَوَّلُ^(٢)

والخليفة الوليد بن يزيد تعرض لهجاء شديد من الشعراء الذين يعبرون عما في

(١) تاريخ الطبري ٧ : ٤٣ .

(٢) الهاشيات : ١١١ وما بعدها .

نفوس الرعية ، بسبب ما كان يرتكبه من موبقات ، ولتركه شئون الحكم وانغماسه في البطالة واللهو ، يقول فيه حمزة بن بيض :

يا وليدَ الخنا تركتَ الطريقا واضحاً وأرتكبتَ فجاً عميقاً
وتأديتَ واعتديتَ وأسرفتَ وأغويتَ وأنبعثتَ فسوقاً
أبدأ هاتِ ثم هاتِ وهاتِ ثم هاتِ حتى تخرِ صعباً
أنتَ سكرانُ ما تفيقُ فما ترتُقُ فتقاً وقد فتقتَ فتوقاً^(١)

ثم جاء الأمين بعد ذلك بفساده ولهوه وغيه فاستهدف طغاء الشعراء حيا وميتا ، وكانوا في ذلك معبرين عن روح الشعب الذي ضج من حكم الأمين وأباطيله ، وكثيرا ما أغفلت كتب الأدب أسماء هؤلاء الشعراء الذين هجوا الأمين ، إما لأنهم أفراد عاديون من أبناء الشعب كانوا يعبرون بصدق عما في نفوسهم ، وإما أنهم كانوا شعراء معروفين ولكنهم أخفوا أسماءهم خشية بطش هذا الخليفة الفاسد .
ومن هذه القصائد القوية المعبرة عن روح الشعب في معانيها وألفاظها وأسلوبها ، ما قاله أحد الشعراء المجهولين — بمناسبة مبايعة الأمين لابنه موسى — في هجاء الأمين وبطاته :

أضاعَ الخِلافةَ غشُّ الوزيرِ وفسقُ الإمامِ وجَهْلُ المُشيرِ
ففضلُ وزيرٍ وبكرٌ مُشيرٌ يُريدان ما فيه حَتْفُ الأميرِ
وما ذاك إلا طريقُ غرورٍ وشرُّ المسالكِ طُرُقُ الغرورِ
لواطُ الخليفةِ أعجوبةٌ وأعجبُ منه خلاقُ الوزيرِ
فلو يستعينان هذا بذاك لكانا بعرضِ أمرٍ سَثيرِ
وأعجبُ منْ ذا وذا أننا نُبائعُ للطفلِ فينا الصَّغيرِ
ومنْ ليس يُخسِنُ غَسَلَ امْتِهٍ ولم يَحُلْ مَتْنُهُ مِنْ حَجَرِ ظيرِ^(٢)

وكثيرا ما هجا هؤلاء الشعراء المجهولون الأمين بسبب شذوذه وإقباله على الغلمان دون النساء ، وفي ذلك المعنى يقول بعضهم :

(٢) تاريخ الطبري ١٠ : ١٤٣ .

(١) الكامل لابن الأثير ٥ : ١١٣ .

ألا يا مُزْمِنَ المَثْوَى بِطُوسٍ عَزِيباً ما يُفَادَى بالْنَفُوسِ ^(١)
لقد أَبْقَيْتَ لِلخِصْبَانِ بَعْلًا تحمّل مِنْهُم شُومَ البَسُوسِ
لهم مِنْ عُمُرِهِ شَطْرٌ وشَطْرٌ يعاقِرُ فِيهِ شُرْبَ الخَنْدَرِيسِ
وما لِلغَانِيَاتِ لَدَيْهِ حَظٌّ سوى التَّقْطِيبِ بِالوَجْهِ العَبُوسِ
إذا كَانَ الرَّئِيسُ كَذَا سَقِيمًا فكَيْفَ صَلَاحُنَا بَعْدَ الرَّئِيسِ ^(٢)

ولما قتل الأمين حاول بعض أنصاره أن يخلعوا عليه ثوباً أسطورياً مستعاراً من مذاهب الشيعة فاعتبروه إماماً وانتظروا رجعته لأنه - في رأيهم - لم يقتل بل اختفى في مكان أمين سيعود منه في فرصة ملائمة ليعيد الحق إلى نصابه ، عند ذلك قال أحد شعراء بغداد المجهولين :

لم نَبْكِيكَ لِمَاذَا لِلطَّرِبِ يا أبا موسى وتروِجِ اللعبِ
ولتَرْكِ الخَمْسِ فِي أَوْقَاتِهَا حرصاً مِنْكَ عَلَى ماءِ العِنَبِ
وَشَنِيفٌ أَنَا لَا أَبْكِي لَهُ وَعَلَى كَوْنِ لَا أَخْشَى العَطَبِ ^(٣)
لم تَكُنْ تَعْرِفُ مَا حَدَّ الرُّضَا لَا وَلَا تَعْرِفُ مَا حَدَّ الغَضَبِ
لم تَكُنْ تَصْلُحُ لِلْمُلْكِ وَلَمْ تُعْطِكَ الطَّاعَةَ بِالْمُلْكِ العَرَبِ
.....

زَعَمُوا أَنَّكَ حَيٌّ حَاشِرٌ كُلُّ مَنْ قَدْ قَالَ هَذَا قَدْ كَذَبُ
لَيْتَ مَنْ قَدْ قَالَهُ فِي وَحْدَةٍ مِنْ جَمِيعِ ذَاهِبٍ حَيْثُ ذَهَبُ
أَوْجِبَ اللَّهُ عَلَيْنَا قَتْلَهُ فَإِذَا مَا أَوْجِبَ الْأَمْرَ وَجِبَ ^(٤)

ونجد من الهجاء المذهبي قدراً كبيراً قيل بعد مقتل زيد بن علي عام ١٢١ هجرية ، فالطبري يروي أن شاعراً من صنائع الأمويين أقبل على زيد وهو مصلوب وقال :

(١) يقصد هارون الرشيد وقد دفن بطوس . (٢) تاريخ الطبري ١٠ : ٢١٥ .
(٣) شنيف وكثير من الغلمان الذين آثم بهم الأمين . (٤) تاريخ الطبري ١٠ : ٢٠٩ .

ألا يا ناقِضَ الميثاقِ أبشِرْ بالذى ساكا
نقضتَ العهدَ والميثاقَ قَدْ ما كان قُدْما كا
لقد أخلفَ إبليسُ الذى قد كان مَنَّا كا

فرد عليه شاعر الشيعة قائلا :

ألا يا شاعر السوء لقد أصبحت أفاكا
أنهجو ابنَ رسول الله تُرضى من تَوَلَّا كا
ألا صَبَّحَكَ اللهُ بخزِي ثم مَسَّا كا
ويوم الحشر لا شكَّ بأنَّ النارَ مَثْوا كا^(١)

وهذه الأبيات التى قدمناها كأمثلة للهجاء السياسى والمذهبى تنبها إلى ظاهرة جديدة فى هجاء القرن الثانى ، وهى اهتمام الشعراء بتركيز هجائهم على الانحراف الدينى عند المهجو وشذوذه بل زندقته أحيانا ، ولا شك أن انتشار المجون والزندقة وأنواع الشذوذ المختلفة والإباحة فى هذا القرن ، كل ذلك كان يغرى الشعراء بتضمين أهاجيهم مثل هذه الاتهامات الخطيرة ، وعلى الأخص الزندقة ، إذ كان الخلفاء يعاقبون صاحبها بالقتل متى ثبتت عليه تهمتها . وقد رأينا من قبل كيف هجا أبونواس والمعدل بن غيلان أبان بن عبد الحميد اللاحق واتهماه بالزندقة . وكذلك هجا أبو نواس النظام بالزندقة وشرب الخمر والشذوذ وذلك فى قوله :

قولا لإبراهيمَ قولاً هَتَرَا غلبتنى زَنْدَقَةٌ وكُفَرَا
إن قلتُ ما تشربُ قال خَمَرَا أو قلتُ ما تنكحُ قال دُبْرَا
أو قلتُ ما تتركُ قال بَرَا أو قلتُ ما ترهبُ قال بَحْرَا^(٢)

كما أن بشارا وحماد عجرد قد تبادلا الهجاء وهتك كل صاحبه بالزندقة وأظهرها عليه كما يقول الأصفهاني^(٣) . وقد ذكرنا من قبل أبيات بشار التى يتهم فيها حماداً بالثنوية :

(٢) ديوان أبى نواس : ١٤٦ .

(١) تاريخ الطبرى ٨ : ٢٧٦ .

(٣) الأغاني ١٣ : ٨٢ .

ابن نهى راسي على ثقبيل واحتمال الرعوس خطب جليل
اذع غيري إلى عبادة الائن من قاني بواحد مشغول
يا ابن نهى برئت منك إلى الله جهاراً وذاك مني قليل
وكان يهجو أيضاً بكل المويقات من قيادته على زوجته ، إلى إلحاده وفسقه ،
يقول فيه :

ما ذاك يا عجرد بيت الخمار
رفيق فساق ومأوى دُعار
عارٍ من الدين وليس بالعار^(١)

وعندما يوبع إبراهيم بن المهدي بالخلافة أيام الفتنة بين الأمين والمأمون هجاه
دعبل بقريب من معاني بشار ، وإن كان قد وضعها في أسلوب ساخر بل شديد
السخرية فقال :

يا معشر الأعراب لا تقنطوا خذوا عطاياكم ولا تسخطوا
فسوف يعطيكم حنينية يلتذها الأمرد والأشمط.
والمعبديات لقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربط.
وهكذا يرزق أصحابه خليفة مصحفه البربط.^(٢)

وإلى جانب الاتهام بالزندقة في الهجاء كان الاتهام بالخنا والفجور والخنث
أحياناً ، وقد اشتهر بهذا اللون حماد عجرد وبشار بالذات ، وما قاله حماد عجرد
تلك الأبيات التي هجا بها نافع بن عون سيد حبيته « جوهري » قائلا :

يا نافع ابن الفاجرة يا سيد المواجهة
يا حلف كل داعر وزوج كل عاهرة
تجارة أحدثتها في الكشح غير بائرة

(١) ديوان بشار ٣ : ٢٤٢ .

(٢) الورقة : ٢١ .

لو دخلت عَفِيفَةً بَيْتَكَ صارت فَاجِرَةً
 حَتَّى مَنَى تَرْتَعُ فِي مِ الْخُسْرَانِ يَا بَنَ الْخَاسِرَةِ ^(١)
 أما بشار فنمثل له في هذا اللون من الهجاء بأبيات قالها مخاطباً فيها أحد جيران
 حماد عجرد بمناسبة وفاة أم حماد :

أَبَا حَامِدٍ إِنْ كُنْتَ تَزْنِي فَأَبْعِدِ وَبِكَ حِرًّا وَلَّتْ بِهِ أُمُّ عَجْرَدِ
 حِرًّا كَانَ لِلْعُزَابِ سَهْلاً وَلَمْ يَكُنْ أَبِيًّا عَلَى ذِي الزَّوْجَةِ الْمُتَوَدِّدِ
 أُصِيبَ زُنَاةُ الْقَوْمِ لَمَّا تَوَجَّهْتَ بِهِ أُمُّ حَمَادٍ إِلَى مَضْجَعِ الرَّدَى
 لَقَدْ كَانَ لِلْأَدْنَى وَلِلْجَارِ وَالْعِدَا وَلِلْقَاصِدِ الْمُعْتَلِّ وَالْمُتَرَدِّدِ ^(٢)

أما الهجاء بالحنث فلدينا منه أبيات لإسحق بن سماعة المطيعي يهجو فيها
 سليمان بن المنصور وإلى الرقة من قبل الرشيد فيقول :

أَمَا تَرَى الرِّقَةَ الْبَيْضَاءَ شَاغِرَةً إِلَّا شَرَاذِمَ شُدَّاذَا وَخَصِيَانَا
 مَا تَرْتَجِي بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ لَا ظَفَرْتَ كَقَفَاكَ إِنْ لَمْ تَنْلُهَا مِنْ سُلَيْمَانَا
 لَا عَيْبَ بِالْمَرْءِ إِلَّا أَنَّهُ رَجُلٌ يَحْكِي الْخَرَائِدَ تَأْنِيثًا وَتَلْيَانَا ^(٣)

ويري محمد جابر عبد العال أن الهجاء بالزندقة والفجور وما إلى ذلك لم يكن
 شيئاً طبيعياً دعت إليه طبيعة العصر وما كان فيه من إباحة وتهتك وتيارات مجنون
 وزندقة كما أشرنا من قبل ، ولكنه كان نتيجة لإيمان بمذهب معين ، فهؤلاء الشعراء
 الهجاءون في رأيه استمعوا في الكوفة إلى قوم من الرافضة عرفوا بالسبايين ، كانوا
 ينهشون أعراض الصحابة ، فراقهم مذهبهم ورأوهم مثلاً يحتذى في هجاء الإنسان
 لخصمه ، فجعلوا السب والشتم والنيل من الأعراض هدفهم في الهجاء ، وتحطم في
 شعرهم كل قيد فرضه الإسلام ، ولم تقف أمامهم أية عقبة تحول بينهم وبين الشتم
 والسب والظعن واختلاق الأكاذيب التي تصور الخصم للمجتمع على أنه سليل

(١) الأغاني ١٣ : ٣٤٤ .

(٢) الأغاني ١٣ : ٣٤٧ .

(٣) الأوراق (أشعار أولاد الخلفاء) : ١٥ .

الدعارة أو مقصد للذة الآثمة تبغى فيه أو في بيته . ويرى الكاتب أيضا أن الشعراء
المجان الذين كان يصدر عنهم هذا النوع من الهجاء كانوا أحد رجلين : رجل
سكر وعربد فهجا صاحبه ، ولكن هذا الهجاء لا يقضى على إختامها ، والآخر
يهجو لأنه تحلل من القيود الاخلاقية التي فرضها الإسلام ، بل لعله يريد بهجائه
أن يتحدى هذه القيود كحماد عجرد وبشار . فهذه الطائفة اتخذت الهجاء وسيلة
لرغبات نفسية (١) .

وأنا أرى أن الكاتب قد أسرف على نفسه وعلى البحث العلمى ، فالمجان
والزنادقة والروافض أنفسهم كان لديهم مجال الشعر المذهبي فسيحاً ليقولوا فيه
ما يشاءون - وقد قالوا بالفعل كما سبق أن رأينا - أما إن مذاهبهم الخفية تحركهم
لاصطناع هجاء فرد من الأفراد ، فهذا ما لا أعتقد على الإطلاق ، إذ لا يوجد
ما يبرره .

ومن المعانى التي اتجه إليها الهجاء في القرن الثاني أيضا السخرية بالأدعياء الذين
ينتسبون إلى أصل عربي وما هم بعرب ، ومن ذلك قول بشار في أبي عمرو بن
العلاء - وكان يغمز في نسبه :

ارْفُقْ بِعَمْرٍو إِذَا حَرَّكَتْ نِسْبَتَهُ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ مِنْ قِوَارِيرِ (٢)

وكذلك قول أبي نواس في الهيثم بن عدي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا أَعْجَبُ الْعَجَبِ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ صَارَ فِي الْعَرَبِ

كَأَنِّي بِكَ فَوْقَ الْجِسْرِ مُنْتَصِباً عَلَى جَوَادٍ قَرِيبٍ مِنْكَ فِي الْحَسَبِ

لِلَّهِ أَنْتَ فَمَا قُرْبِي تَهْمُ بِهَا إِلَّا اجْتَلَيْتَ لَهَا الْأَنْسَابَ مِنْ كَثْبِ

فَلَا تَزَالُ أَنْخَا حِلٌّ وَمُرْتَعِلٌ إِلَى الْمَوَالِي وَأَحْيَاناً إِلَى الْعَرَبِ (٣)

ومن الطبيعي أن اتجه الهجاء إلى هذه الناحية كان نتيجة لوجود مشكلة
اجتماعية بالفعل وهي محاولة الموالى الانتساب إلى قبائل عربية . ولكن ربما كان
المهجو صحيح النسب ومع ذلك فهاجيه يريد أن يشتكى منه بالتشكيك في نسبه ،

(١) حركات الشيعة المتطرفين : ١١٢ وما بعدها . (٢) الأغاني ٣ : ١٩٠ .

(٣) ديوان أبي نواس : ١٤٠ .

ولا ندرى على أى السبيلين هجا حاجب القيل اليشكرى ثابت قطنة بقوله :

تُقْضَى الْأُمُورُ وَبِكُرٍّ غَيْرُ شَاهِدِهَا بَيْنَ الْمَجَازِيفِ وَالسَّكَانِ مَشْغُولُ

ما يعرف النَّاسُ مِنْهُ غَيْرَ قُطْنَتِهِ وَمَا سِوَاهَا مِنَ الْآبَاءِ مَجْهُولُ^(١)

وطبيعة اختلاط النسب بين العرب والعجم كانت تقترن بمشكلة أخرى هي مشكلة فساد الألسنة ولكنها ، وتطرق اللحن إليها حتى بين العرب أنفسهم ، ولهذا كانت هذه الناحية مادة أخرى للهجاء في القرن الثاني . وما يرويه الطبرى في هذا الصدد أن خالد بن عبد الله القسرى قال مرة وهو على المنبر : أطعمونى ماء . فاستنكر هذا الخطأ ابن زوفل الشاعر وهجاه متهما إياه أيضا بادعاء نسبه قائلا :

أَخَالِدٌ لِأَجْزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا وَأَيُّرُ فِي حِرَامِكَ مِنْ أَمِيرِ

تَمَحَّى الْفَخْرَ فِي قَيْسٍ وَقَسِرِ كَأَنَّكَ مِنْ سَرَاةِ بَنِي جَرِيرِ

وَأَمُّكَ عِلْجَةٌ وَأَبُوكَ وَغَدُ وَمَا الْأَذْنَابُ عَدَلًا لِلْصُّدُورِ

جَرِيرٌ مِنْ ذَوَى يَمَنِ أَصِيلِ كَرِيمِ الْأَصْلِ ذَى خَطَرٍ كَبِيرِ

وَأَنْتَ زَعَمْتَ أَنَّكَ مِنْ يَزِيدِ وَقَدْ دُوْحِقْتُمْ دَحَقَ الْعَبُورِ

وَكُنْتَ لَدَى الْمُغِيرَةِ عَبْدَ سُوءِ تَبُولُ مِنَ الْمَخَافَةِ لِلزُّبَيْرِ

وَقُلْتُ لِمَا أَصَابَكَ أَطْعَمُونِ شَرَابًا ثُمَّ بُلْتُ عَلَى السَّرِيرِ^(٢)

ومن الاتجاهات الجديدة في الهجاء التى ظهرت في القرن الثاني هجاء المدن وهو يقابل ما ذكرناه من قبل في مدحها ، والأمثلة على هذا النوع من الهجاء كثيرة نقدم منها هجاء أبى نواس للبصرة - مع أنه نشأ فيها - وهجاء ابن أبى الزوائد لبغداد ، يقول أبو نواس :

أَيَا مَنْ كُنْتُ بِالْبَصْرَةِ مَأْصِنِ لَهُمْ وَدَا

وَمَنْ كَانُوا مَوَالِي وَمَنْ كُنْتُ لَهُمْ عَبْدَا

(١) تاريخ الطبرى ٨ : ١٨٥ .

(٢) تاريخ الطبرى ٨ : ٢٤١ .

وَمَنْ قَدْ كُنْتَ أَرْعَاهُ وَإِنْ مَلَّ وَإِنْ صَدَا
 شَرِبْنَا مَاءَ بَغْدَاد فَأَنْسَانَاكُمْ جَدًّا
 تَبَدَّلْنَا بِهَا حُورًا لِأَلْحَانِ الْغِنَا إِذَا
 وَأَبْهَى مِنْكُمْ شَكْلًا وَأَخْلَى مِنْكُمْ قَدًا
 فَلَا تَرْعُوا لَنَا عَهْدًا فَمَا نَرْعَى لَكُمْ عَهْدًا
 وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ وَجَدْنَا مِنْكُمْ بُدًّا^(١)

أما ابن أبي الزوائد الذي كان من شعراء المدينة فقد هجا بغداد حين زارها أيام المهدي قائلا :

يَا ابْنَ يَحْيَى مَاذَا بَدَا لَكَ مَاذَا أَمَقَامٌ أَمْ قَدْ عَزِمْتَ الْخِيَاذَا
 فَالْبِرَاغِيثُ قَدْ تَشَوَّرَ مِنْهَا سَامِرٌ مَانِلُوذٌ مِنْهُ مَلَاذَا
 فَتَحَكَّ الْجُلُودَ طَوْرًا فَتَدَمَّى وَنَحَكَّ الصُّدُورَ وَالْأَفْخَاذَا
 فَسَقَى اللَّهُ طَيِّبَةَ الْوَبْلِ سَحَا وَسَقَى الْكَرَّخَ وَالصَّرَاةَ الرَّذَاذَا
 بِلَدَّةٍ لَا تَرَى بِهَا الْعَيْنَ يَوْمًا شَارِبًا لِلنَّبِيدِ أَوْ نَبَاذَا
 أَوْ قَتَى مَا جِنًا يَرَى اللَّهُوَّ وَالْبَا طِلَّ مَجْدًا أَوْ صَاحِبًا لَوَاذَا^(٢)

وكان من الطبيعي أن يتأثر الهجاء في بعض معانيه وصوره بثقافة العصر نفسه . وقد استخدم الشعراء هذه الناحية استخداماً بارعاً بلغوا فيه حدّاً من الطرافة ، من ذلك ما هجا به حماد عجرد أحد أصحابه مستخدماً مصطلحات من النحو والعروض فقال :

لَقَدْ كَانَ فِي عَيْنَيْكَ يَا حَفْصُ شَاغِلٌ وَأَنْتَ كَثِيلُ الْعُودِ عَمَا تَتَّبِعُ^(٣)
 تَتَّبِعُ لَحْنًا فِي كَلَامٍ مُرْقَشٍ وَوَجْهَكَ مَبْنِيٌّ عَلَى اللَّحْنِ أَجْمَعُ

(١) ديوان أبي نواس : ١٣٧ .

(٢) الأغاني ١٤ : ١٢٦ .

(٣) الثيل : قضيب البعير والعود : الحمل العجوز .

فَأُذْنَاكَ إِقْوَاءَ وَأَنْفُكَ مُكْفَأَ وَعَيْنَاكَ إِيْطَاءَ فَأَنْتَ الْمُرْقَعُ
وأبو نواس حين يهجو زهيراً المعنى يستخدم افتراضاً علمياً شاع في عصره نقلاً
عن الهنود وهو أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً ، فيقول :

قُلْ لِيْزْهَيْرُ إِذَا حَادَا وَشَدَا أَقْلَلْ وَأَكْثَرُ فَأَنْتَ مِهْذَارُ
سخنت من شِدَّةِ البُرودةِ حتَّى صِرْتَ عِنْدِي كَأَنَّكَ النَّارُ
لا يعجب السامعون من صِفَتِي كَذَلِكَ الثَّلْجُ بَارِدٌ حَارٌ^(١)
وكما تأثر الهجاء بثقافات العصر تأثر بالغناء أيضاً تأثراً كبيراً في شكله بالذات ،
فكثيراً ما كان الشعراء يختارون عبارة يرددونها لتكون بمثابة إيقاع لبقية الأبيات ،
كما جاء في هجاء أبي الشمقمق لبشار (هلالينه هلالينه) ، وكما جاء في مقطوعة لبشار
قوية الدلالة على ما نقول وهي :

ذَرُّ	خُلْتَا	ذَرُّ	خُلْتَا	يا ابن خَلِيقِ قَدِ	أَنِي
ذَر	خَلْتَا	ذَر	خَلْتَا	هَلْ لَكَ فِي	أَنِي فَنِي
ذَر	خَلْتَا	ذَر	خَلْتَا	عَرْدُ إِذَا قَامَ	عَدَا
ذَر	خَلْتَا	ذَر	خَلْتَا	سُخْنُ إِذَا جَاءَ	السُّتَا
ذَر	خَلْتَا	ذَر	خَلْتَا	فَعَلْتُ فِيكَ	الْقَلْتَا
ذَر	خَلْتَا	ذَر	خَلْتَا	قَالَ مَتَى	قَالَ مَتَى
ذَر	خَلْتَا	ذَر	خَلْتَا	فَتَّتْ قَلْبِي	فِتَّتَا ^(٢)

فصدور الأبيات في هذه المقطوعة عبارة واحدة متكررة هي الإيقاع الذي
تنشد به الأبيات ، والذي يدلنا على ذلك خلو هذه العبارة من معنى متصل بأعجاز
الأبيات ، بل الأعجاز وحدها هي المتصلة المعنى ، أما العبارة الإيقاعية فمعناها المحدد
وهو اترك صحتي (والألف فيها بدل ياء المتكلم لإثارة للنغم الموسيقي) ليس مقصوداً

(١) ديوان أبي نواس : ١٥٢ .

(٢) ديوان بشار ٢ : ٩٨ .

لذاته بقدر ما قصدت منه الناحية الإيقاعية هذه .

والتطور الفني الحقيقي للهجاء في القرن الثاني لا يتضح في القصائد الزاخرة بالسياب والأتهمات والفحش - وخاصة في تلك الأهاجي التي كانت تدور بين أفراد عصابة المحبان وتزخر بألفاظ وتعابير يندى لها الجبين - ولكننا نعتبر أن التطور الفني الذي حدث أساسه الهجاء الساخر الذي يستهدف إضحاك الناس على المهجو وسخريتهم منه . ولهذا يعتمد على فن أصيل في رسم شخصية المهجو من ناحية معنوية أو جسمية ، ولكنه ليس رسماً تصويرياً بل هو رسم (كاريكاتيري) يبعث على الضحك ، ويستعين الشاعر في هذا النوع الأصيل من الهجاء بكل معارف عصره وبجميع عناصر الفكاهة والهزل الشائعة بين الناس . ومن ذلك الهجاء الساخر قول ابن أبي عيينة في إسماعيل بن جعفر :

يا عُقَابَ الدَّجْنِ فِي الْأَمْنِ وَفِي الْخَوْفِ ابْنُ مَاءٍ ^(١)

وقوله أيضاً في علي بن محمد بن جعفر :

أَعْلَىٰ إِنَّكَ جَاهِلٌ مَغْرُورٌ لَا ظُلْمَةَ لَكَ لَا وَلَا لَكَ نُورٌ
فَدَعَ الْوَعِيدَ فَمَا وَعَيْدُكَ ضَائِرِي أَطْنِينُ أَجْنَحَةُ الذُّبَابِ يَضِيرُ؟
ومن الصور الساخرة أيضاً في الهجاء تصوير حماد عجرد لبشار بأنه قرد ولكن حين يعنى القرد :

وَيَا أَقْبَحَ مِنْ قِرْدٍ إِذَا مَا عَمِيَ الْقِرْدُ

ولمّا رأيتُكَ لَا فَاسِقاً قَوِيّاً وَلَا أَنْتَ بِالزَّاهِدِ
وَلَيْسَ عَدُوُّكَ بِالْمُتَّقِي وَلَيْسَ صَدِيقُكَ بِالْحَامِدِ
أَقَمْتِكَ فِي السُّوقِ سَوْقِ الرَّقِيقِ وَنَادَيْتَ : هَلْ فِيكَ مِنْ زَائِدِ

على رَجُلٍ غَادِرٍ بالصَّدِيقِ كَفُورٍ بِنِعْمَائِهِ جَاوِدٍ
 فما جَاعَنِي رَجُلٌ وَاحِدٌ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ وَاحِدٍ
 سوى رَجُلٍ خَانَهُ عَقْلُهُ وَحَلَّتْ بِهِ دَعْوَةُ الْوَالِدِ
 فَبِعْتُكَ مِنْهُ بِلَا شَاهِدٍ مَخَافَةَ رَدِّكَ بِالشَّاهِدِ
 وَأَبْتُ حَمِيدًا إِلَى مَنْزِلِي وَحَلَّ الْبَلَاءُ عَلَى النَّاقِدِ^(١)

ومن صور هذا الهجاء الكاريكاتيرى الساخر أبيات منصور الأصفهاني الطريفة
 التي يقول فيها :

وَجْهُهُ الْمُغِيرَةُ كُلُّهُ أَنْفُ مُوَفٍ عَلَيْهِ كَأَنَّهُ سَقْفُ
 رَجُلٍ كَوَجْهِ الْبَغْلِ طَلْعَتُهُ مَا يَنْقُضِي مِنْ قُبْحِهِ الْوَصْفُ
 مِنْ حَيْثُ مَا تَأْتِيهِ تُبْصِرُهُ مِنْ أَجْلِ ذَاكَ أَمَامَهُ خَلْفُ
 حِصْنٌ لَهُ مِنْ كُلِّ نَائِبَةٍ وَعَلَى بَنِيهِ بَعْدُهُ وَقْفُ
 جَفَّتِ الْمَدَائِحُ عَنْ خِلَافِهِ وَلَقَدْ يَلِيقُ بِوَجْهِهِ الْقَذْفُ^(٢)

ومن الواضح أن هذا الهجاء الكاريكاتيرى الساخر يعتمد على التصوير لا على
 اللفظ ، وعلى التجسيم والتشخيص والمقارنة لا السب والشتم والمهاترة ، وأنه يبتعد كثيراً
 عن النوع الآخر من الهجاء الذي يتضمن أنواعاً فاحشة من الاتهامات والقذف ،
 كما يبتعد أيضاً عن الهجاء الشعبي الذي يشبه (الروح) وقد قدمنا له فيما سبق مثالا
 من شعر أبي نواس ، وهي القطعة التي يقول فيها :

يَا غُرَابَ الْبَيْنِ فِي الشَّوْ م وَمِيزَابَ الْجَنَابَةِ
 يَا كِتَاباً بَطْلَاقَ يَا عِزَاءَ بِمُصَابَةِ
 يَا مِثَالاً مِنْ هُمُومٍ يَا تَبَارِيحَ كَابَةِ

(١) طبقات ابن المعتز : ٣١٥ .

(٢) طبقات ابن المعتز : ٣٤٩ .

يا رَغِيفاً رَدَّهُ الْبَقَالُ م يُبْساً وَصَلَابَةً

ومع ذلك فقد قدمنا لأبي نواس هجاء من النوع الكاريكاتيرى الساخر وهو وصفه لبخل إسماعيل بن نبيخت وتصويره لهذا البخل بأن صاحبه ضنين بالخبز — والشاعر يختار الخبز مادة لوصف البخل وتصويره لأنه أهون الأشياء — وأنه كلما شق لديه رغيف سارع إلى رفوه ، وكلما اقتطعت منه لقمة سارع بعلاج مكانها في حذق ومهارة حتى يعود الرغيف وكأنه آت لتوه من النور :

خُبِرُ إِسْمَاعِيلَ كَالْوَشِيِّ م إِذَا مَا انشَقَّ يُرْفَا

عجبا مِنْ أَثَرِ الصَّنْعَةِ فِيهِ كَيْفَ يَخْفَى

إِنَّ رَفَاعَكَ هَذَا أَخَذَقُ الْأُمَّةَ كَفَا

وإذا قابل بالنص فِ مِنْ الْجَرْدَقِ نِصْفَا

يُلْصِقُ النُّصْفَ بِنِصْفِهِ فِ فَإِذَا قَدْ صَارَ أَلْفَا

الطَّفَ الصَّنْعَةُ حَتَّى لَا تَرَى مَغْرَزَ إِشْفَى

مثل ما جاء مِنَ التَّنْثُورِ مَا غَادَرَ حَرْفَا

ووجد من هذا الهجاء الساخر لون يعتمد على توليد المعاني واستقصائها في مهارة ودقة ، مثال ذلك قول بشار في رجل ثقیل :

رَبِّمَا يَثْقُلُ الْجَلِيسُ وَإِنْ كَانِ خَفِيفاً فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ

كيف لا تحمل الأمانة أرضاً حملت فوقها أبا سفيان؟^(١)

ومن هذا اللون أيضا قصيدة حماد عجرد في هجاء بشار ، وهو يحاول أن يعدد فيها مزايا العمى وفوائده الجمّة بالنسبة إلى بشار فيقول ساخرا وهو يدير حواراً على لسان بشار :

إِنَّ ابْنَ بُرْدٍ رَأَى رُؤْيَا فَأَوَّلَهَا بِلا مَشُورَةٍ إِنْسَانٍ وَلَا أَثَرٍ

رَأَى الْعَمَى نِعْمَةً لِلَّهِ سَابِغَةً عَلَيْهِ إِذْ كَانَ مَكْفُوفاً عَنِ النَّظَرِ

وقال : لو لم أكن أعمى لكنت كما قد كان بُرْدًا بِي في الضيق والعُسْر
أكدُ نفسيَ بالتطمين مُجْتَهِدًا إما أجيرًا وإما غير مُسَوِّجَر
أو كنت إن أنا لم أقنع بفعل أبي قَصَاب شَاء شَقِيَّ الجَدُّ أو بَقَر
كأنحوي دائباً أشقى شقاءهم في الحرِّ والبرِّد والإدلاج والبُكر
فقد كفاني العمى عن كل مكسبة والرزقُ يأتى بأسبابٍ من القَدَر^(١)

وقد يعتمد هذا الهجاء الكاريكاتيرى الساخر على صور لفظية وتلاعب بحروف اللغة، وهذا النوع ربما أثر تأثيرا كبيرا في شعر العصور المتأخرة التي كانت تعتمد على الأحاجي والألغاز، ويمثل هذا اللون رزين العروضي في هجائه لأبي الحارث حيث يقول :

سلامٌ ناقصُ الميمِ على وجهك بالحاءِ
خروفٌ لك في البيتِ فكلُّ منه بلا فاءِ
وخَرْدَلَةٌ بلا دالٍ ولا لام ولا هاء...^(٢)

ومن الأمثلة التي قدمناها يتضح لنا أن الهجاء قد تطور تطورا كبيرا في القرن الثاني ، تطور في معانيه وأهدافه وأسلوبه وألفاظه وصوره ، وقد تراوح هذا التطور بين الهبوط إلى درجة السباب والفحش والابتذال ، وبين الارتفاع من الناحية الفنية إلى درجة التصوير الساخر الممتع الذي يدل على طاقة فنية مبدعة وذهنية ساخرة ، تعتمد على فن أصيل وروح مرحة ضاحكة ، ترفع عن السب الرخيص والاتهامات الدنيئة . وهذا التطور كان أمراً لا بد منه خضوعاً للعوامل المختلفة التي أثرت في تطور المجتمع نفسه واختلاف معاييرهِ وقيمه كما أشرت من قبل .

وفيما يلي نتناول فناً آخر له بالمديح صلة قوية . وهو من الفنون القديمة في الشعر العربي ، ولكن دخلته اتجاهات جديدة فيما نرى ، وهذا الفن هو الرثاء .

(١) الحيوان ١ : ٢٤١ .

(٢) الورقة : ٣٨ .

الرثاء

قد يبدو غريباً أن نجعل الرثاء من الموضوعات المحددة في شعر القرن الثاني ، باعتباره فناً يكاد يكون ثابت المعاني والهدف ، فهو تمجيد لحصال الميت في مقابل المديح الذي هو تمجيد لحصال الحي ، ولكن هل من الممكن أن يكون الرثاء قد تجدد بتجدد المديح ما دامت بينهما هذه الصلة الوثيقة؟ طبعاً لا ، فالرثاء لا يمكن أن يتبع الاتجاهات الجديدة التي سار فيها المديح — كما قدمناها — خطوة بخطوة ، ولكن كانت له سبل أخرى انتهجها متأثراً بعوامل مختلفة فكرية واجتماعية .

وابن رشيقي لاحظ من قبل تطور الرثاء فقال : (كان من عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة ، والأمم السالفة ، والوعول الممنعة في قتل الجبال ، والأسود الحادرة في الغياض ، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار ، والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها ، وذلك في أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر ، فأما المحدثون فهم إلى غير هذه الطريق أميل ^(١)) ...

ومع ذلك فقد استمرت بعض مظاهر الرثاء واتجاهاته القديمة في القرن الثاني كما هي ، وإن كانت قد أخذت في التضاؤل والانكماش لتخلي السبيل للمظاهر والاتجاهات الجديدة .

لقد ظل الرثاء السياسي والمذهبي — إن صحّت هذه التسمية — موجوداً في هذا العصر ، فكلما حدثت معركة بين فريقين متنازعين ، هب شعراء كل فريق يبكون قتلاهم ويثيرون الحزن والشجن عليهم ، ويتزلون الولايات على قاتليهم . ففي المعركة التي دارت بين الأمويين والحوارج عام ١٠١ هـ ، رثى أبو ثعلبة أيوب بن خولى قتلى الأمويين وأهمهم هذبة اليشكري ومقاتل بن شيبان فقال :

تَرَكْنَا تَمِيمًا فِي الْغُبَارِ مُلَحَّبًا تَبَكَّى عَلَيْهِ عِرْسُهُ وَقَرَائِبُهُ
وَقَدْ أَسْلَمَتْ قَيْسُ تَمِيمًا وَمَالِكَا كَمَا أَسْلَمَ الشَّعْجَاجُ أَمْسَ أَقَارِبُهُ

وأقبل من حرّان يحمل رايةً يُغالبُ أمرَ الله واللهُ غالبةٌ
 فياهذب للهيجاً وياهدب للندى وياهدب للخضم الألدُّ يحاربُهُ
 وياهدب كم من ملحم قد أجبتُهُ وقد أسلمتُهُ للرماحِ جوالِبُهُ
 وكان أبو شيبان خيرَ مقاتِل يُرجى ويخشى بأسُهُ من يحاربُهُ
 ففاز ولاقى الله بالخيرِ كُلِّهِ وخدمه بالسيفِ في الله ضاربُهُ
 تزودَ من دُنياهِ درعاً ومغفراً وعَضباً حُساماً لم تَخُنَّهُ مضاربُهُ ^(١)
 وفي نفس الوقت فجد شاعر الخوارج حسان بن جعدة يرنى قتلاهم ويخلص
 بالثناء قائدهم بسطاما (واسمه شوذب أيضاً) فيقول :

يا عينُ أذرى دموعاً منك تسجّاما وابكى صحابةً بسطامٍ وبسطاما
 فلن ترى أبداً ما عشتِ مثلهم أنتى وأكملَ في الأحلامِ أحلاما
 بسيهمٍ قد تأسوا عند شدّتهم ولم يريدوا عن الأعداءِ إحجاماً
 حتى مضوا للذى كانوا له خرجوا فأروثونا مناراتٍ وأعْلاماً
 إني لأعلمُ أن قد أنزلوا غُرفاً من الجنانِ ونالوا ثمَّ خُداما
 أسقى الآله بلاداً كان مصرعهم فيها سحابة من الوسمى سجّاما ^(٢)

واستمر الشيعة أيضاً في رثائهم المذهبي الذي كانوا يعطفون به القلوب نحوهم ،
 فكلما سقط منهم قتيل ، بادر شعراؤهم بالبكاء عليه والتفجع والتحسر على عثرة
 الرسول الزكية ، التي تتساقط على أيدي السفاحين سواء أكانوا أمويين أم عباسيين ،
 ومن ذلك قول عبد الله بن مصعب في رثاء إبراهيم بن عبد الله بن حسن الذي قتل
 عام ١٤٥ هـ .

يا صاحبيّ دعا الملامةَ واعلما أن لستُ في هذا بألوم منكما
 وقفا بقبر ابن النبيّ فسلّما لا بأس أن تقفا به فتسلّما

(١) تاريخ الطبرى ٨ : ١٤٣ . (٢) المصدر نفسه ٨ : ١٤٤ .

قبرٌ تضمّنَ خيرَ أهلِ زمانِهِ حَسْباً وطيبَ سَجِيَةٍ وتكرُّماً
 ضَحُّوا بإبراهيمَ خيرَ ضَحِيَّةٍ فتصرَّمتْ أَيَّامُهُ وتصرُّماً
 بطلاً يخوضُ بنفسه غمراتِها لا طائشاً رعشاً ولا مستسلماً
 واللهُ لو شهدَ النبيُّ محمدٌ صلى الإلهُ على النبيِّ وسلِّماً
 إشرعَ أُمَّتِهِ الأَسَنَّةُ لابنِهِ حتى نَقَطَرُ مِنْ ظَبَاتِهِمْ دماً
 حقاً لأيقنَ أَنهم قد ضَيَّعُوا تلكَ القَرَابَةَ واستحلُّوا المَحَرَّماً^(١)

وبعد سقوط الأمويين ونكبتهم على أيدي العباسيين والتخيل بهم ، تعددت مرثي شعرائهم الذين وفوا لهم صادقين مخلصين ، مثلما نجد في شعر أبي العباس الأعمى وعبد الله العجلي ، وقد ذكرنا طرفاً منه فيما سبق . وكما نجد في شعر حفص الأموي الذي رواه الطبري^(٢) . وحدث نفس الشيء عند نكبة البرامكة فتعددت مرثي شعرائهم فيهم وأخذوا يعددون محاسنهم وأيادهم عليهم ، وكثيراً ما كانوا يقفون بأطلال ديارهم الحربة يبيكونها في الخفاء خشية السلطان وبطشه ، ومن أكثر الشعراء رثاء للبرامكة الرقاشي الذي كان صنيعتهم في حياتهم .

والحقيقة إن هذا النوع التقليدي من الرثاء كان أثراً من آثار الجاهلية والقرن الأول أيضاً . فقد كانت مرثيته تشبه مرثي الجاهلية - كما يقول نلينو بحق - لقلة التنوع الشعوري والإلهام الشعري في هذا النوع ، ونسج شعراء القرن الأول على منوال الأقدمين^(٣) .

ولكن الحضارة الجديدة في القرن الثاني التي أثرت في كل نواحي الحياة ومظاهرها المختلفة أثرت في شعر الرثاء تأثيراً واضحاً ، فأصبحنا نجد الشعراء ينظمون رثاءهم في محور رقيقة رشيقة . مع أن الرثاء كان يكاد يقتصر على البحور الطويلة الرتيبة كالبيسط والطويل لتناسب جدية الموضوع نفسه ، ولكن العلاقة بين الوزن والموضوع لا يمكن أن تكون محددة لأن الوزن جزء من الشكل العام للشعر وليس من

(١) تاريخ الطبري ٩ : ٢٣١ .

(٢) المصدر نفسه ٩ : ٣١٧ .

(٣) تاريخ الآداب العربية : ٢٨٤ .

الطبيعي أن يهيمن الجزء على الكل فيمنحه اللون الذي يريده له . وستوسع في شرح هذه النقطة عند الحديث عن الاتجاهات الشكلية في شعر القرن الثاني .
ومن التغيرات التي طرأت على شعر الرثاء في هذا القرن أيضا أننا أصبحنا نجد الشعراء يرثون المغنين والملهين فيضمنون شعرهم صفات لم يعرفها الرثاء العربي من قبل مثل قول الشاعر في رثاء إبراهيم الموصلي :

تَوَلَّى المَوْصِلِيُّ فَقَدْ تَوَلَّتْ بِشَاشَاتُ المَزَاهِرِ والقِيَانِ
وَأَيُّ بِشَاشَةٍ بَقِيَتْ فَتَبَقَى حَيَاةُ المَوْصِلِيِّ عَلَى الزَّمَانِ
سَتَبَكِيهِ المَزَاهِرُ والمَلَاهِي وتسعدهن عَاتِقَةُ الدُّنَانِ

وهكذا بدلا من رثاء الميت في القديم بأن السيوف والخيل والأرماح قد بكته ، نجد الشعراء ينسبون البكاء للمزاهر والملاهي والدنان . ويقول أحد الباحثين المحدثين في هذا المعنى : (إن رثاء المغنين وأهل اللهو يصور لنا جانبا من تأثر الشعر بالحياة الحضارية الجديدة حتى نحار في ذلك الرثاء أيقصد فيه قائلوه إلى الهزل والعبث والمجون ، أم يقصدون به إلى الحزن والبكاء بحق ؟ والظاهر إن مثل هذا الشعر لم يكن حزناً كله بل كانت طائفة منه مجوناً وهزلاً ، من ذلك قول إسحق الموصلي يرثي هزيمة الحمارة وكانت جاريته :

أَضْحَتْ هُشَيْمَةٌ فِي القُبُورِ مُقِيمَةٌ وَخَلَّتْ مَنَازِلُهَا مِنَ الفَتَيَانِ
كَانَتْ إِذَا هَجَرَ المُحِبُّ حَبِيْبَهُ دَبَّتْ لَهُ فِي السَّرِّ والإِعْلَانِ
حَتَّى يَلِيْنَ لَمَّا تَرِيدُ قِيَادَهُ وَيَصِيرُ سَيِّئُهُ إِلَى الإِحْسَانِ

وكان بعضه حزناً لا شك فيه كقول جارية زلزل ترثيه :

أَقْفَرَ مِنْ أَوْتَارِهِ العُودُ فَالْعُودُ لِلْأَوْتَارِ مَعْمُودُ
وَأَوْحَشَ المِزْمَارِ مِنْ صَوْتِهِ فَمَالَهُ بَعْدَكَ تَغْرِيدُ
مَنْ لِلْمَزَامِيرِ وَعِيدَانِهَا وَعَامِرِ اللِّذَاتِ مَفْقُودُ
الخمر تبكى في أباريقها والقَيْنَةُ الخَمَصَانَةُ الرُّودُ

وحسبنا هذا دليلاً على أثر الحضارة في الشعر حيث أشاعت فيه المرح والبشاشة

وملاسته بصورها المشرقة البيهجة ، حتى لم يكن يفارقها في مواطن الجلد والحزن والبكاء (١) .
 وبما لا شك فيه أن إخراج الرثاء مخرج الفكاهة والضحك يعد شيئاً جديداً في
 شعر القرن الثاني ، وقد سبق أن قدمنا - عدا رثاء الموصلي لهشيمة - قصيدة أخرى
 لعبد الصمد بن المعتز يرثي بها طفلياً كان يحرص على إقحام نفسه في كل مأدبة ،
 وفي إحدى هذه المآدب ابتلع لقمة ساخنة من فالودج فقضى نحبه فقال فيه عبد
 الصمد :

أحزانُ نفسي عليه غيرُ مُنصرمة	وأدمعي من جفوني الدهرُ منسجمة
على صديقي ومولى لي فُجعتُ به	ما إن له في جميع الصالحين لمة
كم جفنة مثل جوف الحوض مُترعة	كوماة جاء بها طبائخها رذمة
قد كَلَلْتُها شحوم من قَلْبِتها	ومن سنام جزورٍ عبطة سمنة
غُيِّبَتْ عنها فلم تعرف لها خبراً	لهني عليك وويلي يا أبا سلمة
ولو تكونُ لها حياً لما بعدت	يوماً عليك ولو في جاحم حطمة
قد كنتُ أعلمُ أن الأكلَ يقتله	لكنني كنتُ أخشى ذاك من تُخمة! (٢)

والحقيقة إن شعراء القرن الثاني قد تفتنوا في الرثاء تفتناً لم يعرفه الشعر من قبل
 واتجهوا به وجهات جديدة فخرجوا به عن دائرة الأشخاص إلى آفاق أخرى معنوية
 أو حسية ، فإذا بنا نجد مطيع بن إلياس يرثي شبابه لا في بيت أو أبيات عابرة ضمن
 قصيدة كما كان يحدث في القديم ، ولكن في قصيدة كاملة قصرها على هذا الرثاء
 ويقول فيها :

إني لباك على الشباب وما	أعرف من شررتي ومن طربي
ومن تصابي إن صَبَوْتُ ومن	ناري إذا ما استعرت في لهي
أبكي خليلاً وليً ببهجته	بان بأثواب جدّة قُشِبِ
على الأحم الأنيث مُسدلاً	على جبيني نهذل العنب

(١) انظر : الشعر في بغداد : ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) الأغاني ١٣ : ٢٣٣ .

كان صفى دون الصفى وذا م الألفة منى في الود والحدب^(١)
 بل نجد من الشعراء من يرثى شيئاً عزيزاً كان يمتلكه ويشعر نحوه بالوفاء والمحبة .
 من ذلك رثاء محمد بن أبي كريمة لقميصه الذي أغار عليه فأر فقرضه ، ويقول
 في ذلك :

ما إن تملأته حتى أبيع له	خفى ديب لطيف الخطم والأذن
سريعة السمع تصغى ثم تنصبها	تحت الظلام حذار الطائر الطين
ترنو بكحلاء لا يرئو بها رمد	خوصاء صداعة مستكشف الدجن
مستتبع ذنباً كالسير تحسبه	سقيط مدري غداة البين من ظعن
ليلا فغادره للريح مخترقاً	كذلك من قد يتبعه الدهر بالاحن
قد صيرت نهب هموم مذكأصبت به	حليف حزن من البأساء والعطن ^(٢)

أما أبو نواس فهو يرثى كلب صيد لسعته حية فمات ونلاحظ في هذه القصيدة
 نظمها على بحر الرجز ، وكان الشعر قديماً لا يجعل الرجز يسع أى غرض من أغراض
 الشعر المعروفة ، كما نلاحظ فيها جنوح الشاعر إلى وصف مقتل الكلب ، وهذه
 الناحية هامة كان يخلو منها شعر الرثاء قديماً ، ولكن شعراء القرن الثانى اهتموا بها
 اهتماماً بالغاً فى قصائد رثائهم فارتقوا بفن الرثاء عن مجرد تعداد الحصال الحميدة
 والصفات الطيبة للمرثى ، يقول أبو نواس :

يا بؤس كلبي سيد الكلاب	قد كان أغنانى عن العقاب
وكان قد أجزى عن القصاب	وعن شرانى جلب الأجلاب
يا عين جودى لى على حلاب	من للظباء العفر والذئاب
وكل شطر طالع وذاب	يختطف القطان فى الروابى
كالبرق بين النجم والسحاب	كم من غزال لاحق الأقارب

(١) شعراء عباسيون : ٣٣ .

(٢) اختيار المتظوم والمنثور ١٣ : ورقة ٩٠ (مخطوط) .

ذِي جَيْثَةٍ صَعْبٍ وَذِي ذَهَابٍ أَشْبَعْنِي مِنْهُ مِنَ السُّكْبَابِ
 خَرَجْتُ وَالْدُّنْيَا إِلَى تَبَابٍ بِهِ وَكَانَ عُدَّتِي وَنَابِي
 أَصْفَرُ قَدْ خَرَجَ بِالْمَلَابِي كَأَنَّمَا يَدُهْنَ بِالزُّرْيَابِ
 فَبَيْمًا نَحْنُ بِهِ فِي الْغَابِ إِذْ بَرَزَتْ كَالِحَةُ الْأَنْيَابِ
 رَقِشَاءُ جَرْدَاءُ مِنَ الثِّيَابِ كَأَنَّمَا تُبْصِرُ مِنْ ثِقَابِ
 فَعَلَقْتُ عِرْقَوْبَهُ بِنَابِ لَمْ تَرَعْ لِي حَقًّا وَلَمْ تُحَابِ
 فَخَرًّا وَانْصَاعَتْ بِلَا ارْتِيَابِ كَأَنَّمَا تَنْفَخُ مِنْ جِرَابِ
 لَا أُبَيِّتُ إِنْ أُبَيِّتَ بِلَا عِقَابِ حَتَّى تَذُوقِي أَوْجَعَ الْعَذَابِ^(١)

ومن أمثلة اهتمام الشعراء بوصف مقتل المرنى - عدا رثاء أبي نواس لكلبه -
 قصيدة خزيمه بن الحسن التي رثى بها محمداً الأمين ، والتي استغرق أكثرها في وصف
 مقتله ، وهو يقول فيها :

سَارَتْ إِلَيْهِ الْمَنَايَا وَهِيَ تَرْهَبُهُ فَوَاجِهَتُهُ بِأَوْغَادِ ذَوِي عَدَدٍ
 بِشُورَجِينَ وَأَغْتَامٍ يَقُودُهُمْ قُرَيْشٌ بِالْبَيْضِ فِي قُمْصٍ مِنَ الزَّرْدِ^(٢)
 فَصَادَفُوهُ وَحِيدًا لَا مَعِينَ لَهُ عَلَيْهِمْ غَائِبُ الْأَنْصَارِ بِالْمَدَدِ
 فَجَرَّعُوهُ الْمَنَايَا غَيْرَ مُتَنَسِّعٍ فَرَدَا فَيَا لَكَ مِنْ مُسْتَسْلِمٍ فَرِدِ
 يَلْقَى الْوَجْهَ بِوَجْهِ غَيْرِ مُبْتَدِلٍ أَهْبَى وَأَنْقَى مِنَ الْقَوْهِيَّةِ الْجُدِّ
 وَاحْسَرْتَا وَقُرَيْشٌ قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَالسِّيفُ مَرْتَعِدٌ فِي كَفٍّ مَرْتَعِدِ
 فَمَا تَحَرَّكَ بَلْ مَا زَالَ مُنْتَصِبًا مِنْكَسِّ الرَّأْسِ لَمْ يُبْدِ وَلَمْ يُعِدِ
 حَتَّى إِذَا السِّيفُ وَافَى وَسْطَ مَفْرِقِهِ أَذْرَتْهُ عَنْهُ يَدَاهُ فِعْلَ مُتَّعِدِ
 وَقَامَ فَاعْتَلَقَتْ كَفَّاهُ لِبَتُّهُ كَضِيغَمٍ شِرْسٍ مُسْتَبْسِلٍ لِبَدِ
 فَاجْتَرَّهُ شَمُّ أَهْوَى فَاسْتَقَلَّ بِهِ لِلْأَرْضِ مِنْ كَفٍّ لَيْثٍ مَخْرَجِ حَرْدِ

(٢) قريش الدنداني هو الذي قتل الأمين .

(١) ديوان أبي نواس : ١٩٠ .

فكاد يقتله لو لم يكاثره وقام منفلتا منه ولم يكد
هذا حديثُ أمير المؤمنين وما نقصتُ من أمرِهِ حَرْفًا ولم أزدُ^(١)

وكان من طبيعة المجون الذي انتشر في القرن الثاني أن يؤثر حتى في شعر الرثاء،
فإذا بنانجد صداه في شعر أبي حكيمة الذي وصفه ابن المعتز فقال : (هو الذي
رئى متاعه بما لم يحىء أحد بمثله) وأورد له قصيدة طويلة في هذا المعنى نتمسك عن
ذكرها لما فيها من إفحاش ومجون^(٢) .

وتأكيداً لما قلناه من نمو إحساس الشعراء بوطنهم في القرن الثاني وتزايد وعيهم
بالرباط الذي يشدهم إليه ، نجدهم يرثون مدنها التي يسكنونها إذا جارت عليها
عواذى الزمن . وكانت نكبة بغداد أيام الفتنة بين الأمين والمأمون هي الحادثة التي
أثارت خيال الشعراء البغداديين وحركت عواطفهم . بل أسالت دموعهم فطفقوا
يكون مدينتهم الحبيبة إلى نفوسهم ويرثونها بأحر المعاني وأصدق العواطف ، يقول في
ذلك عبد الملك الوراق :

من ذا أصابك يا بغدادُ بالعينِ ألم تكوني زماناً قرّة العينِ
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم وكان قُرْبُهُمْ زِيناً مِنَ الزَّينِ
صاح الغرابُ بهم بالبين فافترقوا ماذا لقيت بهم من لَوْعَةِ البينِ
أستودع الله قوماً ما ذكرتهمُ إلا تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهرٌ وصدعهم والدَّهْرُ يصدع ما بين الفريقين^(٣)

ولعل أطول قصائد الرثاء في الشعر العربي كله هي قصيدة الحرّيمي في رثاء
بغداد وقد روى منها الطبري مائة وخمسة وثلاثين بيتاً أتى فيها على تاريخ بغداد كله .
ووصف كل ركن مشهور من أركانها متحسراً على دمارها وتهدمها . ثم وصف لنا
حياتها العابثة اللاهية وانتشار المجون في مجتمعها ولذلك عاقبها الله بهذه الفتنة الطاغية .
وتلك الحرب المدمرة التي قضت على محاسنها وأتت على عناصر فتنها وبهاؤها .

(١) تاريخ الطبري ١٠ : ٢١٤ .

(٢) انظر طبقات الشعراء : ٣٩٠ ، ٣٩١ .

(٣) تاريخ الطبري : ١٠ : ١٧٥ .

ويصف الحرّمي ما دار في هذه الفتنة وصفاً دقيقاً ليصور ما آل إليه حال بغداد من تخريب ودمار ، وفقداء أبنائها وهوان أمر بنائها إلى غير ذلك . ويقول أحمد أمين عن قصيدة الحرّمي هذه إن الإنسان يحس فيها (بنفس قصصى ممتع طويل لأعهد العرب به من قبل^(١)) . ومن أبيات الحرّمي في رثاء بغداد قواه وهو يتحسر على بجمالها وفتنتها ومغانيتها :

جَنَّةُ دُنْيَا وَدَارُ مَغْبُطَةٍ قَلَّ مِنَ النَّائِبَاتِ دَائِرُهَا
دَرَّتْ خُلُوفُ الدُّنْيَا لِسَاكِنِهَا وَقَلَّ مَعْسُورُهَا وَعَاسِرُهَا
وَانْفَرَجَتْ بِالنَّعِيمِ وَانْتَجَعَتْ فِيهَا بِلْدَاتُهَا حَوَاضِرُهَا
فَالْقَوْمُ مِنْهَا فِي رَوْضَةٍ أَنْقَ أَشْرَقَ غَيْبُ الْقِطَارِ زَائِرُهَا
فَلَمْ نَزَلْ وَالزَّمَانُ ذُو غَيْرٍ يَقْدَحُ فِي مُلْكِهَا أَصَاغِرُهَا
حَتَّى تَسَاقَتْ كَأْساً مَثْمَلَةً مِنْ فِتْنَةٍ لَا يُقَالُ عَائِرُهَا

ويعقد الشاعر في رثائه مقارنة بين ماضى بغداد وحاضرها بعد الفتنة فيبلغ ما يريد من التأثير بهذا التناقض بين العمران والدمار ، والجمال والقبح ، بل بين الحياة والموت ، يقول :

وَهَلْ رَأَيْتَ الْقُرَى الَّتِي غَرَسَ الْأَلَاكُ مُخَضَّرَةً دَسَاكِرُهَا
فَإِنَّمَا أَصْبَحَتْ خَلَايَا مِنَ الْإِزْ سَانٍ قَدْ دَمِيتُ مُحَاجِرُهَا
قَفْرًا خَلَاءَ تَعْوَى الْكَلَابُ بِهَا يَنْكُرُ فِيهَا الرُّسُومَ دَائِرُهَا

* * *

يَا بُوْسَ بَغْدَادِ دَارِ مَمْلَكَةٍ دَارَتْ عَلَى أَهْلِهَا دَوَائِرُهَا
أَمَهْلُهَا اللَّهُ ثُمَّ عَاقِبَهَا لَمَّا أَحَاطَتْ بِهَا كِبَائِرُهَا^(٢)
وما لا شك فيه أن شعر الرثاء الذي كان يدعو منذ الجاهلية إلى التفكير والتدبر

(١) ضحى الإسلام ١ : ١٥ .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠ : ١٧٦ - ١٧٨ .

والنظر في حكمة الكون ، أصبح أكثر انشغالا بهذه الأمور وأكثر تعمقا فيها بعد انتشار العلوم والمعارف في القرن الثاني وبخاصة الفلسفة اليونانية ومذاهب المتكلمين وآداب الأمم الماضية وحكمتها ، وقد ذكر الأقدمون^(١) أن أبا العتاهية قد اقتبس بعض الأفكار اليونانية في شعره وبخاصة في رثائه لعلى بن ثابت إذ يقول :

أَلَا مَنْ لِي بِأَنْسِكَ يَا أَحْيَا وَمَنْ لِي أَنْ أَبْشِكَ مَا لَدَيْـَا
طَوْتُكَ خُطُوبُ دَهْرِكَ بَعْدَ نَشْرِ كَذَاكَ خُطُوبُهُ نَشْرًا وَطَيَّا
بِكَيْتِكَ يَا عَلِيٌّ يَدْمَعُ عَيْنِي فَلَمْ يُغْنِ الْبُكَاءُ عَلَيْكَ شَيْئَا
وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتُ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا^(٢)

كما أن الرثاء عامة قد أصبح في أيدي الشعراء الزهاد وسيلة للتذكير بالموت وتنبيه الغافلين عن اليوم الآخر ، ونلاحظ هذا في شعر أبي العتاهية . فهو مثلا حين يرى المهدي ويرى جواريه قد لبس السواد يقول :

رُحْنٌ فِي الْوَشْيِ وَأَصْبَحَ—ن عَلَيْهِنَّ الْمُسُوحُ
كُلُّ نَطَاحٍ وَإِنْ عَاشَ—لَهُ يَوْمٌ نَطُوحُ
نُحْ عَلَى نَفْسِكَ يَامِسْ—كَيْنُ إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ
لَتَمُوتَنَّ وَلَوْ عُمُّ—رُتَ مَا عُمَّرَ نُوحُ
بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ حَيٍّ عَلِمُ الْمَوْتِ يَلُوحُ
كَلَدًا فِي غَفْلَةٍ وَالْمَوْتُ يَغْدُو وَيَ—رُوحُ^(٣)

ومما تقدم يتبين لنا أن الرثاء دخلته نواح تجديدية في القرن الثاني فاتخذ وجهات لم تكن له من قبل . وطراً عليه تغير في أسلوبه ومعانيه وإن كان ذلك في نطاق محدود بالنسبة للتجديد الواسع الذي حدث في أغراض الشعر القديمة الأخرى .

(١) انظر : الكامل للمبرد : ٢٣٠ ، ٢٣١ ، الأغاني ٤ : ٤٤ ، عيار الشعر : ٨٠ .

(٢) ديوان أبي العتاهية : ٣٦٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٦٧ .

الحكمة

وجدت في الشعر الجاهلي أبيات قليلة في الحكمة منتشرة في قصائده هنا وهناك ، يأتي بها الشاعر للنصح أو للموعظة وضرب المثل . ولعل أكثر الشعراء الجاهليين اهتماماً بهذه الناحية زهير بن أبي سلمى كما يتضح لنا من معلقته . وأمّية بن أبي الصلت كما نستظهر من شعره القليل الذي وصلنا . وظل الأمر على ما هو عليه في القرن الأول ، لم يحدث فيه تطور عاير من حيث معاني هذه الحكم التي كانت عبارة عن تجارب إنسانية عابرة ، ولا من حيث صياغتها وأسلوبها . ولعل الطرماح ابن حكيم كان أكثر شعراء القرن الأول اهتماماً بهذه الناحية الحكمية في الشعر .

ولما جاء القرن الثاني واتسعت آفاق الثقافة الإسلامية ووسعت علومها ومعارف أجنبية مختلفة ، أقبل المسلمون على ترجمة الكتب الخاصة بحكم ومواعظ وأمثال الأمم الأجنبية ، فنقلوا منها قدراً كبيراً فيما نستظهر من كلام ابن النديم . فن الكتب التي ذكرها كتاب زاد القروخ في تأديب ولده . وكتاب مهرداد وحسيس الموبدان إلى بزرجمهر بن البختكان . وكتاب موبدان موبد في الحكم والجوامع والآداب ، وكتاب شاناقي الهندي في الآداب وكتاب سيرة نامه ، وكتاب علي بن زين النصراني في الآداب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب^(١) .

وواضح من أسماء هذه الكتب أن العرب لم يقتصروا على مصدر واحد ينقلون عنه حكمه وآدابه ، ولكنهم نقلوا ألواناً مختلفة من حكم الأمم القديمة كالفرس والروم والهنود . ويبدو أن معظم هذه التراجم تم في أواخر القرن الأول وتداولته الأيدي منذ ذلك الوقت . فاطلع على هذه الحكم والآداب كثير من الشعراء في القرن الثاني واستفادوا بها واقتبسوا منها . هذا بالإضافة إلى الحكم والآداب التي اشتمل عليها كتاب كليلة ودمنة الذي نقل إلى العربية شعراً ونثراً كما سبق أن بينا ، والآثار التي خلفها ابن المقفع كالآداب الصغير والآداب الكبير ومادتها فيما يتضح لنا منقولة عن آداب الفرس والهنود بصفة خاصة .

(١) الفهرست : ٤٣٨ .

ونحب منذ البداية أن نوضح الفرق بين شعر الحكمة وشعر الزهد . فعلى الرغم من التقائهما في ناحية أو أكثر إلا أنهما يفترقان افتراقاً واضحاً . فالزهد مذهب في الحياة له قواعده ورسومه الخاصة ، وله ملابسه وفرائضه المعينة . ويفترض في متبعي هذا المذهب أن يتجردوا لله ويعكفوا على صلواتهم في خلوة من البشر متجردين من الترف وزخرف الدنيا ، لا يبتغون عرضاً من أعراضها ، ولا مطلباً من مطالب الحياة المادية التي يقبل عليها الإنسان العادي . أما الحكمة فهي — إن لم تكن تجربة ذاتية — مذهب في الشعر لا في الحياة ينظم فيه صاحبه بتأثير نظرة فلسفية للكون وحقائق الأشياء فيه بحكم ثقافته أو تكوينه الفكري ، ولا يطلب منه شيء وراء ذلك . فليس هناك قواعد ولا رسوم معينة لشعراء الحكماء ، وليست هناك فرائض عليهم أداؤها ، ولا أي تقليد آخر مثلما يفترض في الزهد . لهذا لا نستغرب إن وجدنا من الشعراء الذين يملأون شعرهم بالحكمة والأمثال والآداب والمواعظ زنديقاً أو فاسقاً أو ما أشبه ، لأن هذا لا ينفي ذاك كما بينا .

تطور شعر الحكمة إذن بتأثير الترجمة عن الأمم الأجنبية واتساع آفاق الثقافة . وكان أول مظاهر هذا التطور أن شعر الحكمة لم يصبح خطرات متناثرة كما كان في الجاهلية والقرن الأول ، ولكنه أصبح موضوعاً لقصائد خاصة به يقصد إليها الشاعر قصداً . وبذلك أصبحت الحكمة من الموضوعات الثابتة في شعر القرن الثاني وفي الشعر العربي عامة فيما تلا ذلك من عصور . وقد نما ذلك الفن فيما بعد على أيدي المتنبي والمعري بصفة خاصة .

بل نجد في القرن الثاني شعراء جعلوا الحكمة مداً لمعظم قصائدهم ، فعرفوا بذلك واشتهروا بشعرهم الحكمي ومنهم أبو بكر العرزمي الذي يقول عنه المرزباني :
(وجل شعره آداب وأمثال) . وهو القائل :

أرى عاجزاً يدعى جليداً لغشمه ولو كُلفَ التقوى لَكَلَّتْ مَضَارِبُهُ
وعفاً يُسَمَّى عاجزاً لعفافه ولولا التقي ما أعجزته مَذهِبُهُ
وليس بعجز المرء إخطاؤه الغنى ولا باحتيال أدركه المال كاسبُهُ^(١)

(١) معجم الشعراء : ٤١٧ وتروى الأبيات نفسها ضمن قصيدة منسوبة إلى صالح بن عبد القدوس (انظر : طبقات ابن المعتز : ٩١ ، ٩٢) .

ومحمود الوراق كان من شعراء الحكمة أيضا في القرن الثاني ، يقول عنه الحصري القيرواني : (كان كثيراً ما ينقل أخبار الماضين وحكم المتقدمين فيحلى بها نظامه ويزين بها كلامه)^(١) ، ويقول ابن المعتز عن شعره : (أكثره أمثال وحكم ومواعظ وأدب)^(٢) ، ومما يروى له في شعر الحكمة قوله :

يُمَثِّلُ ذُو الْحَزْمِ فِي نَفْسِهِ مَصَائِبُهُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَا
فَإِنْ نَزَلَتْ بَغْتَةً لَمْ تَرُعْهُ لِمَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مَثَلَا
رَأَى الْهَمُّ يُقْضَى إِلَى آخِرِ فَصِيرٌ آخِرُهُ أَوَّلَا
وَذُو الْجَهْلِ يَأْمَنُ أَيَّامَهُ وَيَنْسَى مَصَارِعَ مَنْ قَدْ خَلَا
فَإِنْ بَدَهَتْهُ صُرُوفُ الزَّمَانِ بَبَعْضِ مَصَائِبِهِ أَغْوَلَا
وَلَوْ قَدَّمَ الْحَزْمُ فِي نَفْسِهِ لَعَلَّمَهُ الصَّبْرُ عِنْدَ الْبَلَا^(٣)

ومن شعراء الحكمة أيضا الذين جعلوها مادة شعرهم صالح بن عبد القدوس وهو يحقق ما ذكرناه من اختلاف طبيعة شعر الحكمة عن شعر الزهد . فصالح كما بينا من قبل كان يُرى بالزندقة ، بل قتل بهذه التهمة . ومع هذا فقد كان من أبرز شعراء الحكمة في الأدب العربي . وقد وقع في هذا اللَّيْسِ ابن المعتز حين ذكر له أمثلة كثيرة من شعره الحكمي ثم قال : (فيا عجبا كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ، وكيف يكون قائله زنديقا ؟)^(٤)

ومما روى لابن عبد القدوس في الحكمة قوله :

وَإِنْ مِنْ أَدْبَتِهِ فِي الصَّبَا كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءُ فِي غُرْبِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاضِرًا مِنْ بَعْدِ مَا أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ
وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ أَخْلَاقَهُ حَتَّى يُوَارِيَ فِي ثَرَى رَمْسِهِ
إِذَا ارْعَوَى عَادَ إِلَى جَهْلِهِ كَذَى الضَّنَا عَادَ إِلَى نَكْبِهِ^(٥)

(٢) طبقات الشعراء : ٣٦٨ .

(٤) طبقات الشعراء : ٩٢ .

(١) زهر الآداب ١ : ١٣٨ .

(٣) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه : ٩٠ .

ومن جوامع حكمه قصيدته القافية التي يقول فيها :

المُرءُ يَجْمَعُ والزَّمانُ يُفَرِّقُ	ويَظِلُّ يَرْقَعُ والخطوبُ تَمَزِّقُ
ولأنَّ يُعَادِي عاقِلًا خَيْرٌ لَهُ	مِنْ أن يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحمَقُ
فارغِبْ بِنَفْسِكَ لَاتُصَادِقَ أَحمَقًا	إنَّ الصَّدِيقَ على الصَّدِيقِ مُصَدِّقُ
وَزِنِ الكَلَامَ إذا نَطَقْتَ فإنما	يُبْدِي عيوبَ ذَوِي العُقُولِ المَنطِقُ
وإنَّ امْرُوءًا لَسَعَتُهُ أَفْعَى مَرَّةً	تَرَكَتُهُ حِينَ يُجَرُّ حَبْلٌ يَفَرِّقُ
والنَّاسُ في طَلَبِ المَعاشِ وإنما	بِالْجَدِّ يُرْزَقُ مِنْهُمْ مَنْ يُرْزَقُ
وإذا الجَنَازَةُ والعَرُوسُ تَلَاقِيَا	أَلْفَيْتَ مَنْ تَبَعَ العَرائِسَ يُطَلِّقُ
ورَأَيْتَ مَنْ تَبَعَ الجَنَازَةَ باكِيًا	ورَأَيْتَ دَمْعَ نَوَاحٍ يَتَرَفَّرُ ^(١)

وهناك شعراء لم يشتهروا بالإكثار من الحكمة ولكنها وجدت طريقها إلى شعرهم بتأثير ثقافتهم الواسعة وميلهم إلى هذا النوع من القول . ومن هؤلاء بشار بن برد ، فهو يقول :

كُلُّ امرئٍ نَصَبٌ لِحاجَتِهِ	وعليه يُحْمَلُ أولُهُ نَصَبُهُ
فأربَعُ على خَلْقٍ لَهُ خَطَرٌ	في الصَّالِحِينَ يَفُوزُ مُحْتَسِبُهُ
عَمَى الشَّرِيفِ يَشِينُ مَنْصَبُهُ	وتَرى الوَضِيعَ يَزِينُهُ أدبُهُ
وَحِرَاثَةُ التَّقْوَى لِمُحْتَرِثٍ	كَرَمُ المَعَادِ وَمالُهُ حَسْبُهُ
وتَنقُصُ المَولى مـوالِيَهُ	عَارٌ يَكُونُ بِوَجْهِهِ نَدْبُهُ ^(٢)
وإذا نَسِيكَ غُلٌّ سَاعِدُهُ	ونَأَى فليس بِنافعٍ نَسْبُهُ ^(٣)

(١) الأغاني ٩ : ٣٠٤ .

(٢) يلاحظ في هذا البيت شعور بشار بالنقص لكونه مولى ، وقد صاغ شعوره هذا في صورة حكمة عامة ليكون لها تأثير واسع .

(٣) ديوان بشار ١ : ٢٥٢ .

ومما وجدناه لبشار في الحكمة أيضا قوله الذي نظر إليه المتنبي فيما بعد :

نُؤْمَلُ عَيْشاً فِي حَيَاةٍ ذَمِيمَةٍ أَضُرَّتْ بِأَبْدَانٍ لَنَا وَقُلُوبِ
وما خَيْرُ عَيْشٍ لَا يَزَالُ مَفْجَعاً بِمَوْتٍ نَعِيمٍ أَوْ فِرَاقِ حَبِيبٍ
إِذَا شِئْتُ رَاعَتْنِي مُقِيماً وَظَاعِناً مَصَارِعُ شُبَانٍ لَدَى وَشِيبِ^(١)

ولبشار أيضا قصيدة مطولة في الحكمة ، من أبياتها قوله :

يَعِيشُ بِجَدِّ عَاجِزٌ وَجَلِيلٌ وَكُلُّ قَرِيبٍ لَا يُنَالُ بَعِيدٌ
وَفِي الطَّمَعِ التَّنْصِيبُ وَالْيَأْسُ كَالْغِنَى وَلَيْسَ لَمَّا يَبْقَى الشَّحِيحُ خُلُودٌ
وَلَا يَدْفَعُ الْمَوْتَ الْأَطْبَاءُ بِالرُّقَى وَسَيَانُ نَحْسٍ يَتَّقِي وَسُعُودُ^(٢)

وشعر أبي نواس الذي ينسب إليه في الزهد يمكن اعتبار بعضه شعراً في الحكمة لأنه مجموعة تجارب إنسانية ومواعظ يسوقها الشاعر من واقع تجربته ، بل إن القسم الذي لا يتحدث فيه عن إقراره بالذنب وطلب العفو هو من شعر الحكمة الخالصة ، وذلك كقوله :

عَدُوُّكَ ذُو الْعَقْلِ خَيْرٌ مِنْ آلِ صَدِيقِكَ لَكَ الْوَامِقُ الْأَحْمَقُ
وَمَا سَاءَ أَمْرًا كَذَى شَيْبَةٍ بِصَبْرٍ بِمَا سَاسَ مُسْتَوْثِقُ
وَمَا أَحْكَمَ الرَّأْيَ مِثْلُ أَمْرٍ يَقِيسُ بِمَا قَدْ مَضَى مَا بَقِيَ
وَصَمْتُكَ مِنْ غَيْرِ عَيِّ اللُّسَانِ أَزَيْنُ مِنْ هَذَرِ الْمَنْطِقِ^(٣)
وأبو نواس كثيراً ما كان يستخدم في شعره أمثالا فارسية في أغراض مختلفة ، فمن ذلك قوله :

كَقَوْلِ كِسْرَى فِيمَا تَمَثَّلَهُ مِنْ فُرْصِ اللَّصِّ ضَجَّةِ السُّوقِ^(٤)

(١) ديوان بشار ١ : ٢٥٦ . (٢) المصدر نفسه ٢ : ١٦٢ .

(٣) ديوان أبي نواس : ١٧٧ ونلاحظ تكرار معنى المثل (عدو عاقل خير من صديق جاهل) في أكثر أبيات الحكمة ، ويبدو أنه من الأمثال التي نقلت من الآداب الأجنبية في القرن الثاني بدليل وجوده في كلية ودمنة .

(٤) المصدر نفسه : ١٩٠ .

ويقول أيضا في الغزل :

سألتها قُبْلَةً ففزتُ بها بعدَ امتناعٍ وشِدَّةِ التَّعبِ
فقلتُ بالله يا معذِّبتي جُودى بأُخرى أَقضى بها أُرْبى
فابتسمتُ ثم أرسلتُ مثلاً يعرفه العُجْمُ ليس بالكَذِبِ
لا تعطينِ الصَّبِيَّ واحِدةً يطلبُ أُخرى بأَعنفِ الطَّلَبِ^(١)
ويعتبر بعض أشعار أبي العتاهية في الزهد أيضا داخلا في باب الحكمة ، ومن ذلك قصيدته :

ربِّما ضاقَ الفَتَى ثم اتَّسع وأخو الدنيا على النَقْصِ طُبْعُ
إِنَّ مَنْ يطمع في كُلِّ مَنى أَطمعتهُ النَّفْسُ فيه لَطَمِعُ
لِلتَّقَى عاقِبَةُ محمودةً والتَّقَى المَحْضُ مَنْ كان يُرْعُ
وَقُنُوعُ المَرءِ يحمي عِرْضَهُ ما القريرُ العَيْنُ إِلَّا مَنْ قَنَعَ
وُسُورُ المَرءِ فيما زادَهُ وإذا ما نَقَصَ المَرءُ جَزَعَ^(٢)
وفي القرن الثاني أيضا بدأ شعر الحكمة يتطور إلى شعر فلسفي خالص نجده في
بيئات المتكلمين على الأخص في مثل شعر بشر بن المعتمر ، وقد مر بنا في الشعر
التعليمي ، كما يتضح لنا هذا الشعر الفلسفي في أبيات لسليمان الأعمى أخى مسلم
ابن الوليد ، وكان مغرما فيما يروى بعلم الكلام وبيئات المتكلمين ، يقول فيها :
إِنَّ في ذا الجِسمِ معتبرا لِطَلُوبِ العِلْمِ مَقْتَبِسَةً
هَبْ كُلُّ لِّلرُّوحِ يُنطقه عِرْقُهُ والصَّوْتُ من نَفْسِهِ
لا تَعِظْ إِلَّا اللَّيِّبَ فما يُعَدِّلُ الضِّلْعُ على قَوْسِهِ
رُبَّ مَغْرُوسٍ يُعاش به فَقَدْتَهُ كَفَّ مُغْتَرِسُهُ
وكذاك الدَّهْرُ مَاتِمُهُ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُرْسِهِ^(٣)

(١) ديوان أبي نواس : ٢٣٠ .

(٢) ديوان أبي العتاهية : ١٥٣ .

(٣) الحيوان ٤ : ١٩٦ .

هكذا تطور شعر الحكمة إذن في القرن الثاني . فبعد أن كان خطرات منتشرة في الشعر القديم صار له شعراء متخصصون وقصائد مقصورة عليه . كما اتسعت معانيه باتساع آفاق الثقافة في هذا العصر ، وباتصالها بآداب وحكم وأمثال الأمم الأخرى من فرس وهنود ويونان . ولعلنا إن وجدنا بعض التشابه في الشعر الحكمي ندرك أن من بين أسبابه نقل الشعراء المختلفين عن مصدر واحد . بل إننا نجد أحيانا مثل هذا التشابه بين الشعر الحكمي ، وبين الحكم والآداب التي تشتمل عليها كتب ابن المقفع ، والسبب في هذا هو نفسه ما ذكرناه . ومع انتشار الثقافة الفلسفية أخذ شعر الحكمة يتطور ويتخذ هذا السميت الفلسفي الذي نجده في شعر المتكلمين أو من يلوذ بهم .

أما القيمة الفنية لشعر الحكمة فهي ضئيلة للغاية لأن مثل هذا الشعر ينجح إلى ناحية عقلية محضة قليلة الحظ من الشعور العاطفي والوجداني ، ولهذا يجهد الإنسان عقله عند قراءته ولا يحس بأي تجاوب عاطفي معه ، شأنه في ذلك شأن الشعر المذهبي الذي تناولناه بالدراسة فيما سبق .

وغاية ما يقال في هذا النوع من الشعر أنه ضرب من النظم الذهني فيه ناحية تعليمية عظيمة القيمة ولكنه ليس بالشعر الذي يكون الشعور مداره ، والعاطفة أساساً فيه . وقد صدق ابن رشيقي حين قال : (فلا يجب للشعر أن يكون مثلاً كله وحكمة كشعر صالح بن عبد القدوس ، فقد قعد به عن أصحابه وهو يقدمهم في الصناعة ، لإكثاره من ذلك)^(١) .

الوصف

الوصف كلمة عامة تخرج تحتها معان كثيرة ، ولذلك صدق ابن رشيق حين قال (الشعر كله إلا أقله راجع إلى باب الوصف^(١)) . وأصل الوصف في اللغة الكشف والإظهار ، يقال قد وصف الثوب الجسم إذا نم عليه ولم يستره^(٢) ولهذا يصح أن نقول إن كل ما يقع تحت الحواس يمكن وصفه ، بل إن أحوال النفس والأفكار غير المحسوسة يمكن للإنسان وصفها أيضاً . على أننا لا نريد توسيع دائرة الوصف إلى هذا الحد في هذا الموضع ، بل نرى الاقتصار على وصف الأشياء المحسوسة ، أما غير المحسوسة فقد تحدثنا عنها في مواضعها من هذا البحث .

وما دام للوصف هذه الدائرة المتسعة الشاملة فإن من الطبيعي أن يكون من أول أبواب الشعر نشأة في كل زمان ومكان ، ولكن من الطبيعي أيضاً أن يتغير لتغير المحسوسات وغير المحسوسات من عصر لعصر ، ومن بيئة لأخرى . ولهذا جعلناه من الفنون الشعرية المجددة في القرن الثاني التي تستحق الدراسة لبيان ما فيها من اتجاهات ومظاهر جديدة .

وابن رشيق قد لاحظ من قبل تطور مادة الوصف فهو يقول : (وليس بالمحدث من الحاجة إلى أوصاف الإبل ونعوتها والقفار ومياهها ، وحمير الوحش والبقر والظلمان والوعول ما بالآعراب وأهل البادية . لرغبة الناس في هذا الوقت عن تلك الصفات)^(٣) ورغبة الناس عن تلك الأوصاف معناها تطور الذوق العام وتطور ما يقع عليه الحس . فكل ما يتعلق بالصحراء أصبح بعيداً عن الحياة العربية في القرن الثاني في الحواضر والمدن ذات القصور العالية والبساتين الفيحاء ، والتي تجلت فيها مظاهر الحياة المادية في أجمل صورها وأبهى معانيها . لهذا كان من الطبيعي جداً أن نجد الوصف في القرن الثاني يهتم بهذا الجانب المادي من الحضارة الجديدة . فمن ذلك وصف الشعراء للقصور كقول ابن أبي عيينة في قصر أنس بالبصرة^(٤) :

(١) العمدة ٢ : ٢٢٦ .

(٢) انظر : لسان العرب : مادة وصف .

(٣) العمدة ٢ : ٢٢٧ .

(٤) عيون الأخبار ١ : ٢٢٢ .

فِيَا حُسْنَ ذَاكَ الْقَصْرِ قَصْرًا نُزْهَةً بِأَفْيَحٍ سَهْلٍ غَيْرَ وَغَرٍ وَلَا ضَنْكٍ
بَغْرِيسٍ كَأَبْكَارِ الْجَوَارِي وَتُرْبَةٍ كَأَنَّ ثَرَاهَا مَاءٌ وَرَدٍ عَلَى مِشْكٍ
كَأَنَّ قُصُورَ الْأَرْضِ يَنْظُرْنَ حَوْلَهُ إِلَى مَلِكٍ مُوفٍ عَلَى مِنْبَرِ الْمُلْكِ
يُدِلُّ عَلَيْهَا مُسْتَطِيلًا بِحُسْنِهِ وَيَضْحَكُ مِنْهَا وَهِيَ مُطْرَقَةٌ تَبْكِي

وعلى بن الجهم يصف لنا قصرًا آخر به نافورة فيقول :

وُقْبَةُ مَلِكٍ كَأَنَّ النُّجُومَ م تُصْنِي إِلَيْهَا بِأَسْرَارِهَا
تَخْرُ الْوَفُودُ لَهَا سُجَّدًا إِذَا مَا تَجَلَّتْ لِأَبْصَارِهَا
وَفَوَارَةٌ ثَارُهَا فِي السَّمَاءِ فَلَيْسَتْ تُقَصِّرُ عَنْ ثَارِهَا
تَرُدُّ عَلَى الْمُزْنِ مَا أَنْزَلَتْ إِلَى الْأَرْضِ مِنْ صَوْبٍ مِذْرَارِهَا^(١)

أما أبو نواس فهو يصف لنا بعض حركات الأمين وقد ذكر الرواة أنه كان قد أمر باتخاذ خمس حركات على خلقه الأسد والفيل والعقاب والحية والدلفين ، وأبيات أبي نواس تشير إلى الحراقتين التي على شكل أسد والتي على شكل عقاب ، يقول :

سَخَّرَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا لَمْ تَسْخَرْ لِصَاحِبِ الْمِحْرَابِ
فَإِذَا مَا رِكَابُهُ سَارَ بَرًّا طَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْثَ غَابِ
أَسَدًا بِاسِطًا ذِرَاعِيهِ يَعْدُو أَهْرَتِ الشُّدْقِ كَالِحِ الْأَنْيَابِ
لَا يُعَانِيهِ بِاللُّجَامِ وَلَا السُّوْطِ م وَلَا غَمَزَ رِجْلِهِ فِي الرُّكَابِ
عَجِبَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْهُ عَلَى صُورَةِ م لَيْثَ يُمَرِّمُ السَّحَابِ
سَبَّحُوا إِنَّ رَأُوكَ سِرَتْ عَلَيْهِ كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذَاتَ زَوْرٍ وَمَنْسَرٍ وَجَنَاحِينَ م تَشَقُّ الْعُبَابِ بَعْدَ الْعُبَابِ
تَسْبِقُ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا م اسْتَعْجَلُوهَا لِجَيْئَةٍ وَذَهَابِ^(٢)

(١) الأغاني ١٠ : ٢٣٣ .

(٢) ديوان أبي نواس (ط . فاجر) : ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

ومن مظاهر الحضارة الحديدية التي أقبل شعراء القرن الثاني على وصفها لعبة الشطرنج ، يقول فيها خالد القناص :

أراد بلا دحل أخ لي يودني ويعظم حتى دون كل ودود
محاربتي لم يأل أن بث خيله وألقح حرباً تبها بوقسود
فأمحكني والحرب أمها بديها إذا ورد الأبطال خير وردود
فأحسن من عذارة مياسة الخطي رخيمة دل للرجال صيود
وآخرها شمطاء كالغول فحمة شبيهة عرفين بأم قُرود^(١)

ولما كانت بيوت القيان— التي شرحنا أمرها في الباب الأول من هذا البحث -- جزءاً لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية في القرن الثاني ، لهذا نجد الشعراء يهتمون بوصف الحياة داخل هذه البيوت ويسجلون ما يجري فيها . ولدينا من هذا الوصف صورة دقيقة شاملة لبيت المفضل ، وهو مقيّن معروف كان بيته يقع في باب الكرخ ، ينقلها لنا علي بن الجهم وهو يعد من شعراء القرن الثالث (توفي سنة ٢٤٩ هـ) ولكن قصيدته في وصف أحد بيوت القيان واضحة الدلالة على ما نشير إليه وهي التي يقول فيها :

نزلنا بباب الكرخ أطيب منزل على مَحْسَنَاتٍ مِنْ قِيَانِ الْمُفْضَلِ
فلا بن سُرَيْجٍ والغريض ومُعَبِدٍ بدائع في أسماعنا لم تبدل
أوانيس ما للضيفِ منهن حِشْمَةٌ ولا ربهن بالجليل المَبْجَلِ
يُسَرُّ إذا ما الضيفُ قلّ حياؤه ويغفل عنه وهو غيرُ مُغْفَلِ
ويُكْثِرُ من دَمِّ الوَقَارِ وأهله إذا الضيفُ لم يأنس ولم يتبدل
ولا يدفع الأيدي المريبة غيرةً إذا نال حظاً من لبوس وما أكل
ويطرق إطراق الشجاع مهابةً ليطلق طرف الناظر المتأمل
أشربيدٍ واغمز بطرفٍ ولا تخف رقيباً إذا ما كنت غير مبخل

وَأَعْرَضَ عَنِ الْمَصْبَاحِ وَالْهَجِّ بِمِثْلِهِ فَإِنْ خَمَدَ الْمَصْبَاحُ قَادِنٌ وَقَبْلُ
وَسَلَّ غَيْرَ مَمْنُوعٍ وَقُلَّ غَيْرَ مُسَكِّتٍ وَنَمَّ غَيْرَ مَذْعُورٍ وَفَمَّ غَيْرَ مُعْجَلٍ
لَكَ الْبَيْتُ مَا دَامَتْ هَدَايَاكَ جَمَّةً وَكُنْتَ مَلِيًّا بِالنَّبِيدِ الْمُعَلِّ^(١)
وحتى الجسور التي كانت منتثرة على نهر دجلة لم يسقطها الشعراء من دائرة منظوراتهم ، بل وصفوها وأبدعوا في وصفها . يقول علي بن الفرج :

أَيَا حَبْنًا جَسْرَ عَلَى مَتْنٍ دَجَلَةٍ بِإِنْقَانِ نَاسِيسٍ وَحُسْنٍ وَرَوْنَقِ
جَمَالٍ وَفَخْرٍ لِلْعِرَاقِ وَنُزْهَةٍ وَسَلْوَةٍ مَنْ أَضْنَاهُ فَرَطُ التَّشَوُّقِ
تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مَتَامُلًا كَسَطَرٍ غَيْرِ خُطٍّ فِي وَسْطٍ مُهَرَّقٍ^(٢)
ويقول علي بن المحسن في وصف جسر أيضاً :

يَوْمَ سَرَقْنَا الْعَيْشَ فِيهِ خُلْسَةٌ فِي مَجْلَسٍ بِفَنَاءِ دَجَلَةٍ مُفَرَّدِ
رَقٍّ الْهَوَاءِ بَرِيقَةٍ قُدَّامَهُ فَعْدَوْتُ رِقًا لِلزَّمَانِ الْمُسْعِدِ
فَكَأَنَّ دَجَلَةَ طَيْلَسَانَ أَبْيَضُ وَالْجَسْرُ فِيهِ كَالطَّرَازِ الْأَسْوَدِ^(٣)
وإذا كان وصف السفن في الشعر الجاهلي والقرن الأول نادرا بالنسبة لأوصاف الصحراء وما فيها من مهامه وقفار ووحوش وآل ، فقد كثر في شعر القرن الثاني كثرة ظاهرة ، إذ نجد في قصائد كثيرة لشعراء من هذا القرن . فبشار بن برد حين يمدح ابن هبيرة يصف السفينة والبحر قائلا :

وَمَلْعَبُ الثُّنُونِ يَرَى بَطْنَهُ مِنْ ظَهْرِهِ أَخْضَرَ مُسْتَصْعِبِ
عَطْشَانُ إِنْ تَأَخَّذَ عَلَيْهِ الصَّبَا يُفَحِّشُ عَلَى الْبُوصَى أَوْ يَصْخَبِ
كَأَنَّ أَصْوَاتًا بِأَرْجَائِهِ مِنْ جُنْدٍ قَاصٍ إِلَى جُنْدٍ
رَكِبَتْ فِي أَهْوَالِهِ ثِيْبًا إِلَيْكَ أَوْ عَذَاءً لَمْ تُرْكَبِ
لَا تَشْتَكِي الْأَيْنَ إِذَا مَا انْتَحَتْ تُهْدِي بِهَادٍ بَعْدَهَا قُلْبَ

(١) الأغاني ١٠ : ٢١٩ .

(٢) تاريخ بغداد ١ : ١١٦ .

(٣) المصدر نفسه ١ : ١١٧ .

عاري الذراعين لتحريزها من مَسْرَب غارٍ إلى مَسْرَب
 نصرُ أحياناً بسكانها صرير باب الدار في العذنب^(١)
 ولسلم بن الوليد وصف مطول للسفينة أيضاً نجده في قصيدته التي مطلعها :
 أدبى على الراح ساقية الخمر ولا تسأليني واسألي الكأس عن أمري
 وكذلك وصف الحسين بن الضحاك سفينة في نهر دجلة ، في قصيدة رواها
 صاحب الأغاني ومن أبياتها قوله :

سكنا إلى خير مسكونة تيممها راغب من أمم
 مباركة شاد بُنيانها بخير المواطن خير الأمم
 كأن بها نشر كافورة لبرد نداها وطيب النسم
 كظهر الأديم إذا ما السعد أب صاب على متنها وأنسجم
 مبرأة من وصول الشتاء إذا ما طمى وحله وارتكم
 فما إن يزل بها راجل يمرُّ الهوينى ولا يلتطم
 ويمشى على رجليه آمناً سليم الشراك نقي القدم^(٢)

ونجد لأبي الشبص أيضاً وصفاً دقيقاً للسفينة بجميع أجزائها وطريقة سيرها ، في
 قصيدته التي مدح بها عقبة بن الأشعث ومطلعها :

مرت عينه للشوق فالدمع منسكب طول ديار الحى والحى مغترب^(٣)

ويمكننا أن نقول إن شعراء القرن الثاني لم يدعوا مظهراً من مظاهر الحضارة
 المادية الجديدة التي كانت تقع تحت أبصارهم إلا وصفوه في دقة وتفصيل ، فوصفوا
 المتنزعات وأنواع الأزهار المختلفة ، كما وصفوا الجسور والقصور وحلبة السباق وكل
 ما أبدعته حضارتهم . وكل ما كانت تزخر به مدنهم . وقد وصف الحريري مدينة
 بغداد وصفاً شاملاً قبل تدميرها وبعده ، حينما استعرت نار الفتنة بين الأمين والمأمون
 فأطاحت بالمدينة الجميلة وشوهت معالمها . وقد وصف لنا الحريري جوانب من فتنة

(٢) الأغاني ٧ : ١٥٢ .

(١) ديوان بشار ١ : ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٣) طبقات ابن المعتز : ٨٣ - ٨٤ .

تلك المدينة وحضارتها حيث يقول :

يا هل رأيت الجنان زاهرة	بروق عين البصير زاهرها
وهل رأيت القصور شارعة	تكن مثل الدمي مقاصرها
وهل رأيت القرى التي غ	رّس الأملاك مخضرة دساكرها
محفوفة بالكروم والنخل والري	حان قد دميت محاجرها
بزندورد والياسرية والشطين م	حيث انتهت معابرها
وبالرحى والخيزرانية العلي	التي أشرفت قناطرها
وقصر عبدويه عبدة وهدي	لكل نفس زكت سرائرها
أين الأطباء الأبقار في روضة الما	لك نهادي بها غداثرها
أين غصارتها ولذتها	وأين محبورها وحابرها
بالمسك والعنبر اليماد	ي والأنجوج مشبوبة مجامرها
يرقلن في الخز والمجاسد والم	وشي مخطومة مزامرها

وفي مقابل وصف جوانب هذه الفتنة ونواحي الجمال التي كانت تتميز بها مدينة بغداد قبل الفتنة ، رسم لنا الحريري صورة رائعة حقاً حين وصف الكارثة التي حلت بهذه المدينة الجميلة وصور ما أصاب أهلها من قتل وتكل فقال :

كل رقاد الضحى مخبأة	لم تبد في أهلها محاجرها
بيضة خدر مكنونة برزت	للناس منشورة غداثرها
تعثر في ثوبها وتعجلها	كبة خيل زيفت حوافرها
نسأل أين الطريق والهة	والنار من خلفها تبادرها
لم تجتل الشمس حسن بهجتها	حتى اجتلتها حرب تباشرها
يا هل رأيت الشكلي مولوة	في الطرق تسعى والجهد باهرها
في إثر نعش عليه واحد	في صدره طعنة يساورها

تنظر في وجهه وتهنئ بالشكل م وعز الشعوع خامرها^(١)

ولم يقتصر شعراء القرن الثاني على وصف مظاهر الحضارة المادية فحسب بل نجدهم يصفون أيضاً وسائل الثقافة في عصرهم وأدواتها ، فيصفون الكتب ويصفون الخطوط والأقلام . وما قاله محمد بن يسير في وصف الكتب :

هم مؤنسون وألاف غنيت بهم	فليس لي في أنيس غيرهم أرب
لله من جلساء لا جلسهم	ولا عشيرهم للسوء مرتقب
لا بادرات الأذى يخشى رفيقهم	ولا يلاقيه منهم منطق ذرب
أبقوا لنا حكماً تبقى منافعها	أخرى الليالي على الأيام وانشعبوا
فأما أدب منهم مددت يدي	إليه فهو قريب من يدي كشب
إن شئت من محكم الآثار يرفعها	إلى النبي ثقات خيرة نجب
أو شئت من عرب علماً بأولهم	في الجاهلية أنبتني به العرب
أو شئت من سير الأملاك من عجم	تنبني وتخبر كيف الرأي والأدب
حتى كأني قد شاهدت عصرهم	وقدمضت دونهم من دهرهم حقب ^(٢)

وموضوع هذه القصيدة إلى جانب ابتكاره وجدته في باب الوصف في الشعر العربي شامل عميق ، يبين أن شعراء القرن الثاني لم يصفوا فقط الجانب المادي من حضارتهم ولكنهم اهتموا أيضاً بالجانب الفكري والثقافي . وقد روى ابن النديم أبياتاً أخرى لكلثوم بن عمرو العتابي في وصف الكتب أيضاً يقول فيها :

لنا ندماء ما نمل حديثهم	أمينون مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ماضى	ورأيا وتأديباً وأمرأ مسددا
بلا علة نخشى ولا خوف ريبة	ولا نتقى منهم بناناً ولا يدا
فإن قلت هم أحياء لست بكاذب	وإن قلت هم موتى فلست مفنداً ^(٣)

(١) تاريخ الطبري ١٠ : ١٧٧ .

(٢) الحيوان ١ : ٩٤ .

(٣) الفهرست : ١٦ .

أما المقنع الكندي فهو يصف لنا القلم فيقول :

قَلَمٌ كَخُرْطُومِ الْحَمَامَةِ مَائِلٌ	مستحفظ. للعلم من عَلَامِهِ
يَسِمُ الحُرُوفَ إِذَا يَشَاءُ بِنَاءَهَا	لبيانها بالنقطة. من أَرْسَامِهِ
مِنْ صُوفَةٍ نَفَثَ الْمِدَادَ سَخَامُهُ	حتى تغير لونها بسَخَاهِ
يَمْضِي فَيَقْصِمُ مِنْ شَعِيرَةِ أَنْفِهِ	كُقْلَامَةِ الْأَظْفُورِ مِنْ قَلَامِهِ
وَبِأَنْفِهِ شَقُّ تِلَاعِمٍ فَاسْتَوَى	سُقِيَ الْمِدَادَ فَزَادَ فِي تَلَامِهِ
مُسْتَعْجِمٌ وَهُوَ الْفَصِيحُ بِكُلِّ مَا	نَطَقَ اللِّسَانُ بِهِ عَلَى اسْتِعْجَامِهِ
وَلَهُ تَرَاجِمَةٌ بِالسَّنَةِ لَهُمْ	تَبْيَانٌ مَا يَتَلَوْنَ مِنْ تَرْجَامِهِ
مَا خَطَّ مِنْ شَيْءٍ بِهِ كُتَابُهُ	مَا إِنْ يَبُوحُ بِهِ عَلَى اسْتِكْنَامِهِ
وَهَجَاوَهُ قَافٌ وَلَامٌ بَعْدَهَا	مِيمٌ مَعْلَقَةٌ بِأَسْفَلِ لَامِهِ ^(١)

والحقيقة إن الوصف في القرن الثاني قد تعددت جوانبه واتسع ميدانه إلى حد بعيد ، فلم يعد مقصوراً على أمور مشاهدة ، ولكنه تعدى تلك الدائرة واقتحم مجالات جديدة فيها قدر كبير من ذاتية الشعراء أنفسهم . فمن ذلك مثلاً إقدام المكفوفين منهم على وصف ظلام عيونهم وما يلاقونه من عناء وشقاء في هذا العالم الرهيب : عالم الظلام . وقد قدمنا من قبل أمثلة لهذا اللون في الشعر الذائي لصالح ابن عبد القدوس والخريجي وأبي الشيص . وقدمننا من هذا اللون في الوصف الذائي أيضاً قصيدة لصالح بن عبد القدوس يصف فيها حياة السجون وانطباعاتها في نفوس الذين قدر عليهم البقاء فيها . وحياة المحبين وأحوالهم في الصمد والهجران ، والبكاء والسهاد ، والفرحة باللقاء والوصال وما إلى ذلك ، وصفها لنا أحد شعراء هذا القرن وهو حمدان بن أبان اللاحقي ، وقد أبي إلا أن يجعلها وثيقة في الشعر التعليمي . ولهذا ذكرناها عند دراسة هذا النوع من الشعر .

أما وصف الطبيعة في القرن الثاني فقد تطور تطوراً واضحاً عما كان عليه في الشعر القديم ، ونحن بهذا نرد على سيد نوفل الذي قال إن التطور في شعر الطبيعة

جزئى لم يخرج عن الحدود العامة القديمة بل لازمها ودار في نطاقها^(١) . أما دليلنا على ما نقول فأساسه شعر الطبيعة نفسه الذى خلفه لنا القرن الثانى فهو جديد في موضوعاته ومادته ، جديد في شكله وصورته . فبعد أن كان الشعراء الأقدمون يصفون القفار والمهامه الموحشة أصبحوا يصفون في هذا القرن المنارة والبساتين والأزهار والرياحين ، يقول محمد بن يسير في وصف بستان له :

لى بستان أنيق زاهر ناضر الخصرة ريان ترف
راسخ الأعراق ريان الثرى غديق تربته ليست تجف
لمجارى الماء فيه سنن كيفما صرفته فيه انصرف
مشرق الأنوار مياد الندى منشئ في كل ربح منعطف
تملك الريح عليه أمره فإذا لم يونس الريح وقف
يكتسى في الشرق ذوب غيبة ومع الليل عليها يلتحف
ينطوى الليل عليه فإذا واجه الشرق تجلى وانكشف^(٢)

وبعد أن كان الشعراء القدماء يعنون بوصف الناقة والفرس وبقر الوحش ونحو ذلك من الحيوان الذى تزخر به الصحراء، أصبحوا يصفون في القرن الثانى أنواع الحيوانات الأليفة الوديدة مثل الكلب أو البومة أو الحمامة وما إلى ذلك ، وكذلك أنواع الحيوان التى كانت غريبة عليهم مثل الفيل الذى نجد له أوصافاً كثيرة في لحيوان للجاحظ . وما رواه المسعودى في وصف الحمام لأحد شعراء هذا القرن :

هتفت هاتفة آذنها إلف بين
ذات طوق مثل عطف النون أفى الطرفين
وترى ناظرة نحوك من ياقوتتين
ترجع الأنفاس من ثقبين كاللؤلؤتين
وترى مثل البساتين لها قادمتين
ولها ساقان حمراوان مثل الوردتين

(١) شعر الطبيعة في الأدب العربى : ١٨٨ . (٢) الأغاني ١٤ : ٢٠ .

ثم هناك فارق هام بين وصف الطبيعة في الشعر القديم ووصفها في القرن الثاني يذكره قون جرونباوم إذ يقول : (إن المقاطع الشعرية العديدة التي عابحت من قريب أو من بعيد نواحي مختلفة من المشاهد العربية أو من ظواهر الطبيعة ، لم تنتج عن الآثار الوجدانية التي بعثتها الأشياء المرسومة في نفس الشاعر ، وإنما جرى إقحامها في تضاعيف القصيدة بواحد من الدوافع الثلاثة التالية : حرصاً على إبراز الخصائص الشخصية - جرياً على نمط تقليدي راسخ - رغبة في الشيء الموصوف بالذات . . وعلى الإجمال فالشاعر القديم عندما يأخذ في وصف الطبيعة التي تحيط به فإنه يتوجه بصورة خالصة إلى مظاهرها القاسية الجافية المخيفة . فواهبه الوصفية أسرع استجابة إلى داعي المشهد العاتي كمنظر الصحراء المهلكة والعاصفة العاتية . وجمال عرضه ينبثق من أمانة الشاعر في نقل المشاهد لا من انفعاله بالمؤثرات الموحية^(١) . أما في القرن الثاني فقد ازداد انجذاب الشاعر إلى الظواهر التي تتميز بالركة والجمال - كما أوضحنا في الأمثلة السابقة - كما ازداد إقباله على وصف ما أهمله الشاعر القديم من ظواهر محيطة به ، فلم يترك شيئاً في بيئته الطبيعية دون أن يصفه وصفاً دقيقاً .

وهناك ناحية هامة أخيرة وهي أن الشاعر في القرن الثاني قد زادت صلته الشخصية بالطبيعة . فأصبحت تثير في نفسه استجابة ذاتية بعيدة عن النمط التقليدي . ومن هنا كان التجاوب الوجداني بين الشاعر ومظاهر الطبيعة المختلفة . وكانت المحاولة لتشخيص الطبيعة ومحادثتها على سبيل التجريد ، كما قدمنا في شعر عبد الرحمن الداخل الذي يخاطب فيه النخلة ، وشعر مطيع بن لإياس الذي يناجي فيه نخلة حلوان .

ومما نلاحظه أيضاً في شعر الطبيعة في القرن الثاني ميل الشعراء إلى الوصف الشامل للجزئية من جزئيات الطبيعة . ولعل أصدق مثال لهذا النوع قصيدة أبي نواس في وصف النخل ، وقصيدة ابن أبي كريمة في وصف القطن . أما أبو نواس فالدافع له على وصف النخل هي الخمر التي يهاها ولا يقوى على فراقها ، وهي ليست خمر العسل ولكنها من نتاج النخل ، ولهذا فهو يصف لنا أم خمره المفضلة وصفاً شاملاً مفصلاً منذ غرس النخلة لحين إغداقها بالثمر المرجو ، يقول :

(١) دراسات في الأدب العربي : ١٦٠ وما بعدها .

لنا خَمَرٌ وليس بِخَمَرٍ نَخْلُ
كرائمُ في السَّماءِ زهين طُولاً
قلائصُ في الرعوس لها ضُرُوعُ
مسارحُها المَدارِ فبطن جُوخى
ولكن من نِتاجِ الباسقاتِ
ففات ثمارُها أيدى الجُناتِ
تدرُّ على أكفُ الحالباتِ
إلى شاطئ الأبلَّةِ فالفراتِ

* * *

فحين بدا لك السرطان يتلو
بدا بين الدَّوائِبِ في ذُرَاها
فشقت الأكفُ فخلتُ فيها
وما زال الزَّمانُ بحافتيها
فعاد زُمُردًا وانخضرَ حتى
فلما لاح للشارى سُهَيْلُ
بدا الياقوتُ وانتسبتُ إليه
فلما عاد آخرُها خَبِيصاً
بعثت جناتها فاستنزلوها
يرفقي من رُمُوسِ سامقاتِ^(١)

أما ابن أبي كريمة فكان الدافع له على وصف القطن — منذ كان بذرة ثم نبتها وارتفاع ساقها وظهور القطن فيها — فقدده لقميصه المصنوع من القطن والعزير على نفسه ، يقول :

وبقعة قد أجال الطَّرْفُ نَزَهَتَهُ
سَهْلِيَّةُ النَّجْدِ لا خَفْضٍ ولا شَرَفٍ
ما زال يُتَحَفُّها بالماءِ مجتهداً
حتى انتقى حَبٌ مَرُوى فَوَرَّهَهُ
حتى تَخَيَّرَها من مَنبتِ القُطنِ
شَيْخٌ من الفَرَسِ مطبوعٌ على القُطنِ
حولين طوراً وطوراً قِمةَ الدَّمَنِ
مثل اللَّآلِئِ لم يَدْنَسْ من الدَّرَنِ

حتى إذا بدَّ زرعُ الماءِ ناهضُها واستتبعَ الريحَ منها مائلَ الغُصنِ
أبدتْ طرائفَ ورْدٍ ثم أعقبها جَوْزٌ تَفَرَّقَ بين الساقِ والفَنَنِ
تولَّدَ الجوزُ منها بعدَ عَاشِرَةِ بيضاءَ تصدعَ منها مُحْكَمُ الجَبَنِ
فاستخلصتْ سِرَّهُ منهن غائِبَةً ببعضِ طورِها في السُرِّ والعلَنِ^(١)

وفيما عدا ما ذكرنا من أنواع الوصف التي ظهرت في القرن الثاني ، نشير إلى نوع جديد آخر نسميه الوصف الساخر وهو أثر من آثار الروح الشعبية التي سرت في شعر هذا القرن والتي تحدثنا عنها فيما سبق . ونمثل لهذا الوصف الساخر بقصيدة بشار التي وصف بها نعجة هزيلة أهداها له فتى من بني منقر ، وكان يبعث إلى بشار في كل أضحى ضحية سميئة ، قال بشار :

وَهَبْتَ لَنَا يَا فَتَى مِنْقَرٍ وَعَجَّلَ وَأَكْرَمَهُمْ أَوَّلَا
عَجُوزًا قَدْ أَوْرَدَهَا عُمرُهَا وَأَسْكَنَهَا الدَّهْرُ دَارَ الْبِلَى
سَلُوحًا نَوَهَّمْتُ أَنَّ الرُّعَاءَ سَقَوْهَا لِيُسَهِّلَهَا الْحَنْظَلَا
أَضْرَطَ مِنْ أُمَّ مُبْتَاعِهَا إِنْ اقْتَحَمْتُ بُكْرَةَ حَرْمَلَا
وَضَعْتُ يَمِينِي عَلَى ظَهْرِهَا فَخِلْتُ حَرَاقِفَهَا جَذَلَا
وَأَهْوَتْ شِمَالُ لُعْرُقِهَا فَخِلْتُ عَرَاقِبَهَا مَغْزَلَا
وَقَلَّبْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ ذَا فَشَبَّهْتُ عَصْعَصَهَا مِنْجَلَا^(٢)

ومن هذا الوصف الساخر أيضًا قصيدة إسماعيل بن عمار في وصف بشارية له قبيحة ، يقول فيها :

بُلَيْتُ بِزَمْرَدَةٍ كَالْعَصَا أَلْصُ وَأَخْبْتُ مِنْ كُنْدُشٍ^(٣)
تُحِبُّ النِّسَاءَ وَتَأْتِي الرِّجَالَ وَتَمْشِي مَعَ الْأَسْفَهِ الْأَطِيشِ

(١) اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ورقة ٩٠ (مخطوط) .

(٢) الأغاني ٣ : ٢٢٧ .

(٣) زمردة لنة في زمردة أي المرأة التي تشبه الرجال وهو لفظ فارسي معرب ، أما كندش

فهو لص مشهور .

لها وجهٌ فَرْدٍ إِذَا أَرِيْنَتْ وَلَوْنٌ كَبِيضُ الْقَطَا الْأَبْرَشِ
وإن نكهت كِدْتُ من نَتْنِهَا أَخْرُ على جانبِ المَفْرِشِ
وَتَدْنَى تَدَلَّى على بَطْنِهَا كِقَرْبَةِ ذِي الثَّلَّةِ الْمُعْطَشِ^(١)
وكما رأينا تأثير تيار المحجون في أغلب فنون الشعر في القرن الثاني ، نجد له تأثيراً
في فن الوصف أيضاً بحيث يمكننا أن نقول إنه قد وجد في شعر هذا القرن وصف
ماجن يتضح في وصف بعض الشعراء لمتاعهم أو متاع النساء . وأهون ما في هذا
النوع من الوصف الماجن تلك الأبيات التي يمكننا أن نمثل بها وهي لأحمد بن
إسحق الحاركي يصف فيها خروج لحية أمرد فيقول :

لهني عليك وما يردُّ تلَهني بعدَ الظَّلامِ غَضَارَةُ الْأَنْوَارِ
وَكأنَّ خَطَّ الشعرِ في جنبَاتِهِ ليلُ أَقام على نُجومِ نَهارِ
لو يبتلى بدر السماء بِلَحِيَةٍ لاسودَّ حتى لا يُضِيءَ لِسَارِي^(٢)

ويتضح لنا مما قدمناه من أمثلة أن الوصف كان من فنون الشعر التي تجددت
بالفعل في القرن الثاني واتسعت دائرتها إلى حد بعيد في وصف الماديات والمعنويات
على السواء ، ووصف المحسوس وغير المحسوس ، وأن مظاهر الحضارة الجديدة قد
انعكست بأجلى صورها وأدق جزئياتها في شعر هذا القرن ، كما اتخذ الوصف
ألواناً كثيرة ، منها شمول النظرة والاستقصاء ، والميل إلى السخرية والفكاهة . والتزوع
إلى المحجون أحياناً . يضاف إلى ذلك تطور شعر الطبيعة تطوراً ظاهراً ، فبعد أن كان
وصفاً تقليدياً يصور الجانب العنيف من الطبيعة أو الجانب الوحشي ، أصبح وصفاً
وجدانياً يصور جميع نواحيها وبخاصة الجانب الرقيق الباسم الهادي الفواح بالعطر والشذى .
وليس الوصف هو كل ما ذكرنا فحسب ، ولكنه كان يتضمن أيضاً ناحيتين
على جانب كبير من الأهمية يظهر فيهما التطور بأجلى معانيه وتقصد بهما وصف
الحيوان أو شعر الطرد ، ووصف الخمر وما يتصل بها . ونظراً لأهمية الناحيتين
وصيرورة كل منهما فناً رئيسياً من فنون الشعر العربي ، لهذا سنتناولهما بالدراسة
فيما يلي كلا على حدة .

(١) الأغاني ١١ : ٣٧١ .

(٢) الورقة : ٦٠ .

الطرد

الطرد أو الشعر الذى يقال فى الصيد عرف منذ الجاهلية حين كان الشاعر الجاهلى يصف مطاردته بجواده لحمار وحشى أو تتبعه لظبي أو طائر ، أو حين يصف صراع ظبي مع حمار وحشى ، أو ما أشبه من أنواع الصراع التى تنشعب بين الحيوان فى الصحراء القاحلة الجرداء التى كانت تحيط به . وكان هذا الوصف بطبيعة الحال جزءاً من القصيدة التى يكتبها الشاعر الجاهلى فى أغراض كثيرة من مدح إلى نسيب إلى هجاء إلى فخر ، إلى غير ذلك من الموضوعات التى كان يخوض فيها . وعندما ظهر الإسلام شغل الشعراء أيام الرسول والخلفاء الراشدين بموضوعات أخرى فى الرد على المشركين والانتصار للدين الجديد ، ولم يهتموا كثيراً بالموضوعات التى كان يخوض فيها الشاعر الجاهلى ومن بينها الطرد .

وفى الفترة الأولى من الحكم الأموى اشتد الصراع السياسى بين الأحزاب - كما نعلم - فشغل الشعراء ، واستغرق أكثر جهدهم . وحتى فى بيئة الحجاز التى ازدهر فيها فن التغزل - للأسباب التى نعلمها - لم يكن لفن الطرد حظ فيها ، لأن هواية الصيد نفسها لم تكن قد أصبحت جزءاً رئيسياً فى الحضارة الجديدة التى غزت مظاهرها معالم الحياة العربية فى كل ناحية .

وفى أواخر القرن الأول وأوائل الثانى بدأت هواية الصيد تأخذ مكانها فى المجتمع العربى وتنتشر بين الطبقة الأرستقراطية ، وفى البيئات المترفة الغنية ، ولم تكن تتابع فى هوايتها ما كان موجوداً فى العصر الجاهلى من أنواع الصيد وطرقه ، ولكنها كانت متأثرة بالحضارة الجديدة التى شاعت فى هذه الفترة والتى اقتبست فيما اقتبسته من مظاهر الترف المادى عند الأمم الأجنبية هواية الصيد ووسائلها وأدواتها . والذى يكشف لنا ذلك ما يذكره ابن النديم من كتب مؤلفة أو مترجمة فى فن الصيد ووسائله ، منها كتاب الجوارح لمحمد بن عبد الله بن عمر البازيار ، وكتاب البزاة للفرس ، وكتاب البزاة للترك ، وكتاب البزاة للروم ، وكتاب الجوارح واللعب بها لأبى دلف القاسم بن عيسى^(١) .

والذى يتضح لنا من هذه الكتب تأثرها بفن الصيد عند الفرس والروم وترك على السواء . وقد عرف بالفعل عن هذه الأمم استخدامها للجوارح من الطير فى الصيد مثل الباز والشاهين والعقاب والصقر . يدرّبونها على تتبع الحيوان والطير ، بالإضافة إلى تدريب الكلاب السلوقية وغيرها للاستعانة بها أيضاً فى صيد أنواع الطير والحيوان .

ولاشك أن تدفق المال على الدولة العباسية وانتشار الغنى فى بيئات كثيرة ، ساعد على سرعة انتشار هواية الصيد بين الطبقات المتفادرة ، التى تجدد الوقت فسيحاً لمزاولة أنواع من اللهو البرىء مثل الصيد ، إلى جانب فنون اللهو الأخرى المفرقة فى المجون والانحراف . ويبدو أن أفراد هذه الطبقات المترفة كانوا يخرجون للصيد فى جماعات صغيرة ترأسها شخصية كبيرة . وزير أو قائد أو وال أو أمير . وأحياناً الخليفة نفسه . وتضم بعض المقربين ومن بينهم الشاعر الأثير بطبيعة الحال .

وبينما نجد قلة من الخلفاء الأمويين تذكر لنا المصادر المختلفة هوايتهم للصيد مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد ، نجد جميع الخلفاء العباسيين بلا استثناء يقبلون على هذه الهواية لأنها — كما ذكرت — قد أصبحت فى عصرهم جزءاً من مظاهر الحضارة لا تُستكمل إلا به . مثلها مثل أنواع الطعام والشراب والفرش التى استحدثت فى الحياة العربية استحداثاً .

كان بعض الشعراء إذن يشهدون رحلات الصيد تلك بل يشتركون فيها . ولهذا كان من انطبعى أن يصفوها وينقلوا لنا صورة لما كان يحدث فى هذه الرحلات من صيد الحيوان وإنضاجه على النار والإقبال على أكله . ووصف أنواع الطير والحيوان المدربة التى يستخدمونها فى صيدهم وغير ذلك .

والملاحظ فى شعر الطرد الذى وصل إلينا أنه قد نظم فى بحر الرجز ، والسبب فى ذلك كما يراه نلينو أن هذا النوع من الشعر كان أصله بدريماً ، ومضمونه أقرب إلى أحوال أهل الوبر منه إلى شيشة سكان المدن وأهل الحضر^(١) . وهذا التفسير معقول نؤكد به بما لاحظناه على لغة شعر الطرد نفسها من جنوح إلى الغريب واستخدام الألفاظ الوحشية ، وكأنى بالشاعر قد أحس أنه فى شعر الطرد يرتد إلى العصر الجاهلى

بيئة وموضوعاً ، لهذا كان يصطنع هذه اللغة الجاهلية في طردياته اصطناعاً ليكمل صورة هذا النوع من الشعر بالملاءمة بين الشكل والمحتوى .

وأول الشعراء الذين ذكرت لنا المصادر المختلفة اهتمامهم بشعر الطرد هو الشمر دل ابن شريك الذي كان معاصراً لحرير والفرزدق . والذي يقول عنه صاحب الأغاني إنه (كان صاحب قنص وصيد بالجوارح وله في الصنتر والكلب أراجيز كثيرة^(١)) ولكنه لم يذكر لنا أمثلة وافية لطردياته يمكننا أن نعرف منها مدى ما بلغه فيها . ولأبي نخيلة أيضاً شعر كثير في الطرد ، فابن المعتز يذكر أن له في القنص أعاجيب كثيرة وأراجيز مشهورة . وما يذكره له أربوزة في طرد عشر نعائم يصفها فيقول :

أَنَعْتُ مُهْرًا سَبَطَ الْقَدَرَةَ وَرَدًّا طِمْرًا مُدْمَجَ السَّرَاةِ
يَغْدُو بِنَهْدٍ فِي اللَّجَامِ عَاتٍ نَعَائِمًا عَشْرًا مَطَسَرَّدَاتِ
صُكَّ الْعَرَاقِيبِ هُجْنَعَاتِ فَانْصَاعَ وَانْصَعْنَ مُوَلِّيَّاتِ
مَا كَانَ إِلَّا هَاكُهُ وَهَاتِ حَتَّى اجْتَمَعْنَ مَتَنَاغِصَاتِ
بِالسَّهْبِ وَالْغَدْرِ مِنَ الْحَمَاةِ وَاخْتَلَّ حُضُنَا هَيْقَةَ شُوشَاتِ
فَانْعَقَرَتْ مِنْ آخِرِ الْهَيْقَاتِ بِغَيْرِ تَكْبِيرٍ وَلَا صَلَاةِ
كَأَنَّهَا خَالِفَةُ السَّرَاةِ^(٢)

وواضح من هذه الأربوزة ما سبق أن قلناه عن لغة شعر الطرد ، كما أنها توضح أيضاً أن الصيد في أواخر القرن الأول كان لا يزال قريباً من البداوة الجاهلية ، فهو يطارد بجواده عشر نعائم تماماً كما كان يفعل الجاهلي .

ولعل أبا نواس هو أكبر شعراء الطرديات في الأدب العربي وأكثرهم تمثيلاً لما بلغته هواية الصيد في العصر العباسي من رقي وتحضر . وقد صدق كاتب دائرة المعارف

(١) الأغاني : ١٣ : ٣٦١ .

(٢) طبقات الشعراء : ٦٦ ، وفلاحظ على الأبيات بعض التحريف لم يتداركه المحقق .
والقراءة هنا بمعنى الظهر والتاء زائدة والطرير : الفرس الجواد ، والسراة : الظهر ، والنهد : الفرس الحسن ، والهجنعات : الطويلات ، وانصاع بمعنى أسرع . متناغصات : متزاحمات ، والسهب : الفرس الواسع الجري ، والحماة عضلة الساق ، والهيئة : النعامة ، وشوشات لعلها شوشات أي طويلة أبدلت همزتها تاء للرجز ، والخالفة التي تقف بعد ذهاب غيرها ، والسراة : جمع سار .

الإسلامية حين لاحظ أن ديوان أبي نواس هو أول ديوان في الأدب العربي يضم باباً في الطرد^(١) . وإن كنا نحترز فنقول : من بين الدواوين التي وصلتنا . ولا بد أن أبا نواس كان من الذين يشتركون دائماً في رحلات الصيد التي يقوم بها الخليفة وخاصة الأمين ، وأن هذه الهواية قد صادفت ميلاً من نفسه وإلا لما اهتم بوصف الصيد ذلك الاهتمام الذي يبدو لنا من شعره . ويرى عباس محمود العقاد أن فن الطرد عند أبي نواس كان من قبيل (العرض) أي يعرض من طويته دوراً مسرحياً يلفت النظر ، لأنه في رأيه — وإن صاحب الصيادين على ما يظهر من بعض شعره — لم يؤثر عنه أنه كان يحب الطرد والصيد ذلك الحب الغلاب ، وإنما نظم فيه ليعرض قدرته على النظم في هذا الباب ، فاختار أكثر طردياته من الرجز — وهو وزنه التقليدي عند الشعراء — واصطنع فيه الغريب ليحكي أمام الرجاز من أمثال رؤية أنه ليس أقل منهم علماً باللغة . فكل ما في هذا الباب في رأي العقاد (عرض فني) تنحصر بواعثه في هذه الرغبة ولا تعبر عن باعث نفسي غير هذا الباعث . ويرى الكاتب من الأدلة على إتقان العرض أن أبا نواس كان يتخير القوافي الفخمة العسيرة كالطاء والظاء ، كما أنه حرص على محاكاة الأعراب في أسلوبه حتى إنه اجتنب التصرف في مطالع الأراجيز . فهي تحكي مطالع الأقدمين في هذا الباب ، ومنها تكراره (أنعت كلباً) ، (وقد اغتدى) ، (يا رب) ، (لما) ، وكلها مما تفتح به الأراجيز^(٢) .

وهذه النظرة من جانب الكاتب قد تصح لو أن أبا نواس كان وحده هو الذي سلك هذا السبيل في الطرد من استخدام الغريب ومطالع الأراجيز القديمة إلى اختيار القوافي الصعبة النادرة . ولكن الحقيقة إن شعر الطرد كان هذا شأنه منذ الجاهلية ، وإن الرجز الذي كان يصاغ فيه بحر تقليدي عند الشعراء الذين كان لهم إسهام في هذا الفن ، وكذلك كانت المطالع القديمة تقليداً موروثاً عند شعراء الطرديات غير أبي نواس ، ونلاحظ ذلك في أرجوزة أبي نخيلة التي ذكرناها من قبل . وعلى هذا لا نجد مناصاً من نفي فكرة (العرض الفني) عن طرديات أبي نواس . وغاية ما يقال

(١) مادة أبي نواس The Encyclopaedia of Islam (new edition)

(٢) انظر : أبو نواس للعقاد : ١٥٨ وما بعدها .

في هذا السبيل أن فن أبي نواس فيه كان تقليداً موروثاً لأن بيئة الصيد وجوه وموضوعه كانت توحى - كما ذكرنا - بجو الصحراء وتلبس الروح الجاهلية القديمة .

وأكثر طرديات أبي نواس تدور حول وصف الكلاب ، والسبب في ذلك أن كلاب الصيد كانت من الأدوات التي شاع استعمالها في هذه الهواية آنذاك ، بينما كان استعمالها قليلاً في العصر الجاهلي . ولهذا نجد خلافاً ظاهراً في طرديات كلا العصرين ، فالقدماء كانوا يصيدون على الفرس ويقبحون في الغالب كلاب الصيد إذ يرون أن في استخدامها تهويناً من بأسهم وتقبيحاً للصيد نفسه ، بينما صورت طرديات القرن الثاني الكلب تصويراً قوياً وخلعت عليه أجمل الأوصاف من شجاعة وخفة وجمال شكل وبراعة في الوثوب على الفريسة واقتناصها . وقد مر بنا من قبل كيف أن أبا نواس قد رثى كلب صيد لسعته حية رثاء حاراً . وقد لاحظ الجاحظ من قبل اهتمام أبي نواس بالكلاب خاصة في طردياته واستقصاءه صفاتها ومعرفته دقائقها أكثر من الأقدمين فقال : (. . . كان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب ، وذلك موجود في شعره ، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه)^(١) .

وأبو نواس حين يصف الكلب يصور لنا شدة عناية مولاه به ورعايته له فهو يبيت إلى جانبه ، وإن تعرى كساه يبرده حتى لا يصيبه مكروه ، وهو يصف الكلب بأنه واسع الشدقين ، طويل الخد ، وبأنه شديد الجري حتى إن رجله لا تمسان الأرض ، ولهذا فصيده مضمون ، وسرعان ما يملأ الجو دخان الموقد إذ يشتوى عليه الصائدون ما غنمه لهم كلبهم النشيط . ومما وصف به أبو نواس كلب الصيد السلوقي قوله :

أَنَعْتُ كَلْبًا لَيْسَ بِالمَسْبُوقِ	مُطَهَّمًا يَجْرِي عَلَى العُرُوقِ
جَاءَتْ بِهِ الأَمْلَاقُ مِنْ سَلُوقِ	كَأَنَّهُ فِي المِقْوَدِ المَمْشُوقِ
إِذَا عَدَا عَدُوَّةَ لَا مَعُوقِ	يَلْعَبُ بَيْنَ السَّهْلِ والخُرُوقِ
يَشْنِي مِنَ الطَّرْدِ جَوَى المَشُوقِ	فَالوَحْشُ لَوْ مَرَّتْ عَلَى العِيُوقِ
أَنْزَلَهَا دَامِيَّةَ الحُلُوقِ	ذَاكَ عَلَيْهِ أَوْجَبُ الحَقُوقِ

لكل صياد به مرزوق^(٢)

وقد وصف أبو نواس بالإضافة إلى الكلاب الفهد والبازي والصقر والفرس وديك الهند والأسد والزُرَق وهو طائر بين البازي والباشق يصاد به ، وقيل هو البازي الأبيض^(١) . كما وصف أنواع الحمام المختلفة ، وكان يبيعها رجل في البصرة اسمه يغفور — كما نخبرنا أبو نواس نفسه — . ومما وصف به أبو نواس ديك الهند — وكانوا يستخدمونه في الهراش وهو جزء من هواية الطرد — قوله :

أَنْعَتُ دِيكاً مِنْ دِيوكِ الْهِنْدِ أَحْسَنُ مِنْ طَاووسِ قَصْرِ الْمَهْدِي
أَشْجَعُ مِنْ عَارِي عَرِينِ الْأُسْدِ تَرَى الدَّجَاجَ حَوْلَهُ كَالْجُنْدِ
يُقَعِّنُ مِنْهُ خَيْفَةً لِلْسَفْدِ لَهُ سِقَاعٌ كَدَوِيٍّ الرَّعْدِ
مِنْقَارُهُ كَالْمِعْوَلِ الْمُمَدِّ يَقْهَرُ مَا نَاقَرَهُ بِالنَّقْدِ^(٢)

وكثيراً ما وصف أبو نواس في طردياته أيضاً رحلات الصيد نفسها منذ بدايتها كما في أرجوزته :

لَمَّا تَبَدَّى الصُّبْحُ مِنْ حِجَابِهِ كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ جِلْبَابِهِ
وَانْعَدَلَ اللَّيْلُ إِلَى مَائِهِ كَالْحَبَشِيِّ افْتَرَّ عَنْ أَنْيَابِهِ
هَجْنَا بِكَلْبٍ طَالَمَا هَجْنَا بِهِ بِنْتَسَفُ الْمِقْوَدِ مِنْ كَلَابِهِ
تَرَاهُ فِي الْحَضَرِ إِذَا هَاهُ بِهٍ يَكَادُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ إِهَابِهِ^(٣)

وواضح في هذه الأمثلة أن أبا نواس قد اختار للغة الطرد أسلوباً يغاير ما درج عليه في بقية شعره ، على الرغم من تقديمنا له أمثلة تعد ألفاظها من أخف طردياته . أما موضوع شعر الطرد عنده ففيه تجديد — لا شك في ذلك — من ناحية استقصائه صف الكلاب بينما كان الأقدمون يلمنون بها إلماً ، ووصف ديوك الهند وغيرها مما لم يعرفه القدماء من قبل . ولا ندرى إن كان أبو نواس قد تابع أحداً قبله في هذا الشعر ، وإن كان مهلهل بن يموت ينسب إليه سرقة بعض أبياته في الطرد من الشمر دل اليربوعي ، فهو يذكر أن قول أبي نواس :

(١) انظر : لسان العرب : مادة زرق .

(٢) ديوان أبي نواس : ١٩٨ .

(٣) ديوان أبي نواس : ١٨٣ .

لما تَبَدَّى الصُّبْحُ مِنْ حِجَابِهِ كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ جِلْبَابِهِ
مأخوذ من قول الشمر دل :

لما تبدى الصبح من جلبابه ينفر الليل إذا حدا به^(١)
وقول أبي نواس :

فانصاع كالكوكب في انكداره لفّت المشير موهناً بناره
مأخوذ أيضاً من قول الشمر دل :

أو كضرام قابس يسعى به تطيره الريح على ثيابه^(٢)
كما ينسب إليه سرقات أخرى في الطرد من حميد بن ثور وعدى بن
الرقاع وغيرهما .

ومع ذلك فلا أزال أعتقد أن أبا نواس قد جدد في شعر الطرد وجعله باباً في
ديوان الشعر العربي ، ولكن كان هذا التجديد في إطار التقليد الموروث في هذا الفن
نزولاً على ما تفرضه طبيعة الموضوع وبيئته كما سبق أن أشرنا .

الخمريات

الخمريات فن وصفي آخر استقل بنفسه وأصبح باباً هاماً من أبواب الشعر
العربي منذ القرن الثاني . وليس معنى هذا أن الخمريات لم تعرف من قبل في شعر
القرن الأول وفي الشعر الجاهلي . وكيف يمكن ألا تعرف والخمر كما تروى الأساطير
القديمة قد عرفتها الإنسانية منذ نشأتها الأولى . ووصلت في بعض البيئات إلى حد
التقديس حتى إن اليونانيين جعلوا لها إلهاً هو باخوس كما تصوره الأساطير الإغريقية .
والحقيقة إن الخمر في العصر الجاهلي كانت جزءاً من حياة العرب يقبلون على
شربها على اختلاف طبقاتهم دون تحرج ، ويصفونها في شعرهم باعتبارها مظهراً من
مظاهر الفتوة والكرم وسماحة النفس . ولكن إلى أي حد بلغت أوصاف الخمر في

(١) سرقات أبي نواس : ٦٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٨ .

أشعار الجاهلين ، ومن هم شعراؤها الذين يمكن أن نسميهم شعراء الخمريات الجاهليين ؟ الواقع إن شعر الخمريات كان منتثراً في الشعر الجاهلي في أبيات قليلة لم يقصد فيها أصحابها إلى وصف الخمر ، ولكنهم ذكروها لبعض المناسبات ومروا بها مروراً سريعاً فقالوا إنها حمراء وإن ريحها طيب فواح كالمسك ، وإنها معتقة ، وشبهوا بها رضاب صوابهم ووصفوا الساقى الذى يحملها في بعض الأحيان^(١) . ويضيف جميل سعيد إلى ذلك أنهم تحدثوا في أبيات قليلة عن أثر الخمر في نفوسهم ، وعرضوا لآنية الخمر فلم يزيدوا على وصف الإداوة بأنها مقيّرة ، ووصفوا الإبريق على أنه من الفضة فحسب . وكذلك وصفوا الخمر بالصفاء وبأنها كالدم أو دم الغزال بالذات . ويظهر أن الخمر الحمراء كانت هي الشائعة عندهم . يضاف إلى ذلك أننا نجد عند بعضهم رثاء لأطلال مجالس الشراب ، كما نجد الأعشى يصف هذه المجالس ، ويوجد عنده نوع من القصص الخمرى^(٢) .

وينبغى أن نقرر أننا لا نجد في هذه الأوصاف الجاهلية للخمر إلا تشبيه المحسوس بالمحسوس ، وقل أن نراهم يتعرضون لإيضاح صورة معقولة بأخرى محسوسة ، كما أن أغلب هذه الأوصاف تعتبر ساذجة أولية بالنسبة لما بلغه فن الخمريات في القرن الثانى ، فأثر الخمر في النفوس عندهم لا يعدو أنها تدفع للكرم كما في قول عمرو بن كلثوم :

تَرى اللَّحْزَ الشَّجِيحَ إِذَا أُمِرْتُ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهَيَّنَا

وغاية ما يصل إليه تأثيرها عند الأعشى أنها تفتّر المفاصل :

تَدِبُّ لَهَا فَتْرَةٌ فِي الْعِظَامِ وَيَغْشَى الذَّوَابَةُ فَسْوَارَهَا

وطعمها لا يوصف إلا بأنه لذيذ ورائحتها كالمسك ، إلى غير ذلك من الأوصاف الساذجة . ومجموع الأبيات التى وصف فيها الجاهليون الخمر لا تزيد على مائة وخمسين بيتاً — كما يقول محمد حسين — باستثناء الأعشى فإن له وحده ما يوازى هذا العدد .

(١) انظر : أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة : ٧ .

(٢) انظر : تطور الخمريات في الشعر العربى : ٣٤ وما بعدها .

والأعشى يعتبر بالنسبة للشعر الجاهلي قمة الشعر الحمري ، ولم يكن عبثاً ما وصفه به القدماء من إنه أشعر الناس إذا طرب . فالواقع أنه أطال في وصف الحمير بحيث نجد له عشرين بيتاً أو يزيد في بعض قصائده يقصرها على وصف الحمير ، مع أننا لا نكاد نجد في شعر الجاهليين أبياتاً تزيد على الخمسة أو الستة . ويقول في ذلك محمد حسين : (ليست الإطالة والتفصيل هي كل ما يميزه عن غيره من الشعراء الجاهليين ، فهناك ميزة أخرى لعلها أكثر أهمية ، وهي أن الأعشى قد اصطنع في خرياته البحور القصار التي تلائم ما يصور من ألوان المجون والحلاعة)^(١) ونجد بعد الأعشى من الشعراء الجاهليين الذين فصلوا في الحمير بعض التفصيل حسان بن ثابت وعدى بن زيد وعلقمة بن عبدة ، ويتبين لنا من القدر الضئيل الذي وصلنا من شعرهم أنهم عنوا بوصف الحمير عناية الفنان الذي لا يقصد غير اللذة التي يجدها في التعبير عما بنفسه ، فهم لم يمحروا عليها مروراً . ولم يذكروها مفتخرين متمدحين بفتوتهم ولم يذكروها لأنهم أرادوا أن يشبهوا رضاب صواحبهم بها ، ولكنهم ذكروها لأن لهم في وصفها لذة فنية خالصة^(٢) .

ويمكننا أن نضيف إلى هؤلاء الشعراء الثلاثة شاعراً مخضرمًا آخر غير حسان هو أبو محجن الثقفي ويتضح لنا في شعر هذا الشاعر لأول مرة الصراع بين لذة شرب الحمير ونهى الإسلام عن شربها ، يقول في ذلك أبو محجن :

أَلَا سَقَى يَاصَاحُ خَمْرًا فَإِنِّي عَمَّا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي الْخَمْرِ عَالِمٌ
وَجُدُّ لِي بِهَا صِرْفًا لِأَزْدَادٍ مَائِمًا فَمَنْ شَرِبَهَا صِرْفًا تَتِمُّ الْمَائِمُ
هِيَ النَّارُ إِلَّا أَنِّي نِلْتُ لَذَّةً وَقَضَيْتُ أَوْطَارِي وَإِنْ لَامَ لَائِمٌ

وعلى الرغم من تحريم الإسلام للخمر وفرضه على أتباعه الامتناع عن شربها إلا أن العرب لم ينقطعوا تماماً عن معاقبتها خفية وبعيداً عن أعين الرقباء ، وخاصة كلما أخذ العهد يبعد عن زمن الرسول والخلفاء الراشدين ، وكان موضوع الحمير من أكثر الموضوعات جدلاً عند الفقهاء لعدم وجود نص قاطع بالتحريم . وقد أشار مجولد زهير إلى هذه الناحية فقال إن الحرية العربية كانت تود ألا تتخلص من الحمير

(١) أساليب الصناعة في شعر الحمير والناقة : ١٥ .

(٢) المصدر نفسه : ١٠ .

من أجل الحد الشرعي ، ولهذا ظهرت في هذه المسألة وجهتا نظر متناقضتان إذ استدلل أحد أشراف الصحابة وهو أبو جندل بآية من القرآن على تحطيه وهي قوله تعالى (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا)^(١) . ولم يقبل عمر بن الخطاب هذا التفسير الحرجي وطلده . وهناك وجهة نظر أخرى وهي أن الفقهاء في المشرق أعملوا ذكاءهم ليحذوا من دائرة هذا المنع لأشربة أخرى ، وذلك بواسطة التفسير . فمن جهة سعى أن يستنتجوا أنه فيما عدا خمر العنب لا تحرم الأشربة الأخرى في نفسها بل فقط عند ما يحصل منها الإسكار ، ووضعوا لذلك أحاديث مثل حديث عائشة (اشربوا ولا تسكروا) وتحت حماية هذا الدليل لم يقتصر حتى بعض الأتقياء على الماء القراح ، وسعى المتشددون للتدليل على أن (ما أسكر كثيره فقليله حرام) ثم انتشرت مدرسة فقهية تمسكت بحرفية النص ، وأن خمر العنب وحده هي المحرمة وأن ما عداها ليس إلا (شرباً) فقط أو (نبيذاً) وليس خراً . وبهذا يمكن أن يشرب نبيذ التفاح والتمر وأمثالهما ، ويكون بهذا باب الشرب مفتوحاً على مصراعيه للمؤمنين بناء على هذا الإذن المبني على المعنى اللغوي ، وطبعاً بدون أن يصل ذلك إلى حد السكر . وقد صرح الخليفة عمر بن عبد العزيز نفسه بجواز التبيذ كما جاء في طبقات ابن سعد . وقد جاءت تدقيقات الفقهاء الكوفيين في القرن الثاني بهذه النظرية من رأى لابن مسعود ، وأنه إذا لم يكن التحلل من ماء العنب ممكناً فقد حاولوا إيجاد تسهيلات كثيرة للإنسان تطيناً لضميره الديني ، وليس من النادر أن نجد في التراجم أن وكيع بن الجراح أحد الفقهاء الكوفيين المشهورين بالزهد (١٢٩ - ١٩٧ هـ) كان يداوم على شرب نبيذ الكوفيين . وشريك القاضي في عصر الخليفة المهدي كان يحدث بحديث الرسول وتشتم من فيه رائحة النبيذ^(٢) .

وقد كان لتحليل أبي حنيفة لشرب النبيذ أثر كبير في جميع الأوساط حتى ليحكى أن رجلاً بالكوفة وضع على باب المسجد نبيذاً بين يديه وجعل ينادي : من يشتري رطلاً بدرهم بتحليل أبي حنيفة ؟ فقال له أبو حنيفة : يارجل إنك فعلت قبيحاً . فقال : أأستحللت : قال : صدقت ، ومن الحلال أن تجامع امرأتك

(١) المائدة : ٩٣ .

(٢) انظر : العقيدة والشرعية في الإسلام : ٦٠ - ٦٢ .

ولو استحضرتها الجامع وجامعتها لاستقبح ذلك^(١).

ومما لا شك فيه أن الذي أعان على انتشار شرب الخمر في المجتمع الإسلامي وزوال التحرج الديني بشأنها شيئاً فشيئاً وجود فرق مذهبية كثيرة تتصرف تصرفاً واسعاً في مسائل المنع والتحريم ، ولها رأى في درجات الآثام ، ما يكبر منها وما يصغر ، وفي عفو الله ومدى اتساعه لهذا الإثم أو ذاك . وقد ادعى بعض المعتزلة أن آيات القرآن لا تدعو إلى تحريم الخمر ، فقالوا : إن الخمر ليست محرمة وإنما نهى الله عن شربها تأديباً^(٢) . وقد علمنا من قبل مذهب المرجئة في أن الذنب مهما عظم فهو لا يذهب بالإيمان . ولهذا فشرب الخمر عندهم من أهون الآثام . كذلك تقدم القول بأن غلاة الشيعة ومتطرفيهم قد أنكروا ما في الخمر من تحريم فأباحوا شربها ، بل يروى لنا الأصفهاني أن إمام الشيعة جعفر بن محمد حينما سأل عن السيد الحميري قال له محدثه إنه يشرب النبيذ ، فسأله قائلاً : أتعني الخمر ؟ فقال نعم . وعندئذ قال جعفر : وما خطر ذنب عند الله أن يغفره لمحبة علي^(٣) ؟ هذه الناحية المذهبية كان لها خطرهما إذن في انتشار الخمر في أوساط المجتمع الإسلامي منذ القرن الأول الهجري حتى في الحجاز نفسه ، فكان فيه من شعراء الحمريات ابن أوطاة . والسري بن عبد الرحمن وكانا يدمنان الشراب ، ثم كان ابن هرمة في أواخر هذا القرن وأوائل الثاني يجاهر بحبه للخمر . ووجد إلى جانب هذا التأثير المذهبي ما ذكرناه في الباب الأول من شيوع الترف في المجتمع الإسلامي وتدفق الثروة عليه ، وتسليط التأثيرات الأجنبية على حضارته وخاصة في جانبها المادي . ونحن لا نقول في هذا الصدد إن اختلاط العرب بالفرس أو الروم قد جعل الخمر تتسرب إلى المجتمع الإسلامي ، فنحن نعلم أن الخمر كانت موجودة بل شائعة في العصر الجاهلي ، وكان من الواضح أن وجودها في الجزيرة العربية كان نتيجة لاتصال العرب بإمارتي الحيرة وغسان ، فقد كانت مجالس أمرائهما تفيض بالخمور وبأنواع الترف حتى تشبه مجالس الشراب التي وجدت فيما بعد في القرن الثاني . ويتضح لنا ذلك مما رواه أبو الفرج الأصفهاني في وصف مجلس لبلبة بن الأيهم^(٤) . ومع ذلك فنحن لا نستبعد وجود تأثير جديد فارسي أو رومي على موضوع

(١) محاضرات الأدباء ١ : ٣١٩ .

(٢) الأشربة : ٤ .

(٣) الأغاني ٧ : ٢٤٢ .

(٤) المصدر نفسه ١٤ : ٦ ، ٥ .

الخمير سواء من ناحية انتشارها في المجتمع الإسلامي أم في نهضة مجالسها وما يتصل بها من أوان وسقاة وورود وغناء ، أم من ناحية طريقة وصفها في الشعر . وقد عرف عن الفرس بالذات أنهم كانوا يشربون الخمير كثيراً ، وكان « قورش » فيما يقال يأمر بتقديم الخمير لحيوشه . ولم تكن تجري مناقشة جدية في الشؤون السياسية في مجالس الفرس إلا وهم سكارى . ويقول « استرابون » في ذلك : (وهم يمشون في أهم مناقشاتهم وهم يحتسون الخمير ، ويرون أن ما يصدرونه من قرارات وهم على هذه الحال أنقى مما يصدرونه منها وهم غير سكارى)^(١) . يضاف إلى ذلك ما يقوله جميل سعيد من أن المسلمين قد حفظوا لأهل الذمة حاناتهم وخمورهم ، ولم يزيدوا على أن يأخذوا منهم العشر ضريبة . وهذه الضريبة لا تؤخذ إلا من أصحاب الحانات وباعة الخمور . وكان مذهب أبي حنيفة الذي انتشر في صدر الدولة العباسية أكثر المذاهب الإسلامية حرصاً على حرية هؤلاء الذميين . ويبدو أن الحانات كثرت وتزاحمت فانقسمت أقساماً خصص بعضها للطبقة العالية ، وبعضها للعامة . ويبدو كذلك أن الذميين الذين كانوا يتاجرون في الخمور منذ العصر الجاهلي قد رأوا فيها تجارة رابحة لأنها سهلة ميسورة أولاً ، ولأن المسلمين لا يستطيعون مزاحمتهم ثانياً^(٢) . ولا نستطيع أن نسقط من حسابنا تأثير الأطباء الأجانب الذين أشاعوا أن الخمير خير الأدوية فهي تسخن المعدة والكبد وتهضم الطعام وتدر البول وتلين البطن مع مسرة النفس وإطرابها^(٣) .

كل هذه العوامل إذن جعلت الخمير سهلة ميسرة في المجتمع الإسلامي ، وجعلت الإقبال عليها يتعاظم شيئاً فشيئاً . ولعل موقف الولاة والخلفاء أنفسهم من الخمير يعتبر صدى لما كان عليه مجتمعهم بصورة عامة . ففي عهد الخلفاء الراشدين شهد على الوليد بن عقبة أخى عثمان بن عفان لأمه بشربه الخمير فحده الخليفة وعزله^(٤) .

(١) قصة الحضارة ٢ : ٤١٢ .

(٢) انظر : تطور الخمر في الشعر العربي : ١٠٦ - ١٠٨ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣٠ .

(٤) انظر : الأغاني ٥ : ١٢٢ .

أما في أيام الأمويين فقد انتشر شرب الخمر واتسعت دائرته . حقيقة لم يعرف عن معاوية قط إقباله على شربها ، ولكنه كان كثيراً ما يغضى عن إقامة الحد على بعض شاربها خضوعاً للدوافع السياسية . فالشاعر الأموي ابن سيحان كان مشهوراً بشرب الخمر ، وله شعر كثير فيها . وحينما ضبط وهو سكران وأقام الوالى عليه الحد ، غضب معاوية وبعث إلى الوالى رسالة يعنفه فيها على إقامة الحد ويطلب إليه تكذيب الاتهام^(١) ، وما ذاك إلا لأن ابن سيحان من شعراء الحزب الأموي يدافع عنه بشعره ، فلا ينبغي زعزعة مركزه الاجتماعي .

أما يزيد بن معاوية فقد عرف عنه حبه للخمر ، وقد سبق أن ذكرنا مارواه صاحب الأغاني من إقامة يزيد لمجلس شراب في المدينة في أثناء حجه في خلافة أبيه ، وقد ضعفنا هذه الرواية للملابساتها فقط ، لا لأن يزيد بعيد عن شرب الخمر ، وكيف يكون وهو الذي يقول :

وَهَبْتُ النَّوْمَ لِلنَّوَا مِإْشْفَاقاً عَلَى عُمَرَى
وَأَفْنَيْتُ سَوَادَ اللَّيْلِ لِإِلَّا سَاعَةَ السُّكْرِ^(٢)

ويبدو لنا من الروايات المختلفة أن جميع خلفاء بني أمية كانوا يقبلون على الشراب ، وكان منهم من يحتشم في مجلسه ، ومنهم من لم يكن يبالي . فالجاحظ يقول : كان معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد يجلسون وبينهم وبين الندماء ستارة ، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة ، فأما الباقيون من خلفاء بني أمية فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ويتجردوا ويحضروا عراة بحضرة الندماء والمغنين^(٣) ويقول الراغب الأصفهاني إن الوليد كان يشرب يوماً ويدع يوماً ، وكان سليمان يشرب في كل ليلة ، وهشام يسكر في كل جمعة ، ويزيد بن الوليد يد من الشرب^(٤) . وإذا صح ما يروى في هذا الصدد فإن أحداً من خلفاء بني أمية فيما عدا معاوية وعمر بن عبد العزيز بطبيعة الحال — لم يكن يمتنع عن الشراب ، وكان أكبرهم إغراقاً فيه الوليد بن يزيد كما هو معروف .

(١) الأغاني ٢ : ٢٤٩ .

(٢) فصول التبايل : ٨٢ .

(٣) التاج في أخلاق الملوك : ٣٢ .

(٤) محاضرات الأدباء ١ : ٣٢٨ .

أما الخلفاء العباسيون فقد اشتد طلبهم للشراب واحتفاؤهم بمجلسه وإقبالهم عليه إلا المنصور فيما يقال ، ويروى أن أحد الأطباء زين للمنصور شرب النبيذ — وهذا يؤكد ما قلناه عن تأثير الأطباء الأجانب — فشربه في اليوم الأول فاستطابه ، فعاد له في اليوم الثاني وازداد منه فخلده ، ثم عاوده في اليوم الثالث فأبطأ عن صلاة الظهر والعصر والعشاء ، فلما كان من غد دعا بما عنده من الشراب فهراقه ثم قال : ما ينبغي لمثل أن يشرب شيئاً يشغله^(١) . ولعل الأمين كان أشد الخلفاء العباسيين هياماً بالشراب وشغفاً به ، مثله في ذلك مثل الوليد بن يزيد في الأمويين .

أما عن تطور شعر الحمريات بعد العصر الجاهلي ، فالقرن الأول لم يحدث فيه تجديد خطير ذو شأن ، وكان أهم شعراء هذا القرن الذين اهتموا بالحمريات هو الأخطل . ومعانيه لا تكاد تخرج عن معاني الأعشى في وصف سورة الخمر ونشوتها وصفائها وطيب رائحتها . وكان شعر الأخطل الحمري منبثاً في قصائد مديحه في الخالب كما كان الحال في الشعر الجاهلي . أما صياغته فلم تخرج عن الصورة الجاهلية التي استطاع الأعشى أن يخرج عليها من بعض نواحيها أحياناً — كما نجد في اختياره للأوزان الرشيقة — وهذا ما لم يفعله الأخطل .

وقد لا حظ جميل سعيد من قبل خلو شعر القرن الأول من القصص الحمري الذي وجدنا بذوره عند الأعشى وكنا نظن أننا سنجدّه في هذا العصر يطول ويزدهر لكثرة الشعراء الحمريين . كما لا حظ الكاتب أن الحجاز لم يخرج لنا فناً حمرياً قوياً كما أخرج فن التغزل ، على الرغم من توفر أسباب انثراء واللهوفيه . وذكر أن سبب ذلك يرجع إلى أن فقهاء الحجاز حرموا الشراب وأحلوا الغناء بعكس فقهاء العراق كما رأينا من قبل^(٢) .

أما فن الحمريات في القرن الثاني فقد تطور تطوراً كبيراً وظهرت فيه اتجاهات جديدة لم تكن موجودة من قبل ، ولعل هذا التطور كان موطنه الأول الكوفة لسببين : الأول موقف فقهاء من تحليل الخمر — وقد أوضحناه من قبل — والثاني ما يقوله نلينو من أن مدينة الكوفة قد أسست على مسافة قليلة من الحيرة ، فلا

(١) كتاب الوزراء والكتاب : ١٤٠ .

(٢) انظر : تطور الحمريات في الشعر العربي : ١٧٢ .

شك أن جملة من أهل الحيرة انتقلوا إلى المدينة الجديدة واستوطنوها للتجارة فيها . وأحوال الحيرة قبل الفتح الإسلامي وتأسيس الكوفة معروفة إذ كانت قاعدة اللخمين إلى نحو عام ٢٠ قبل الهجرة ، وأن معظم سكانها نصارى يعرفون بـ (العباد) اشتهروا عند عرب البادية في الجاهلية ببيع الخمر . وكانت في الحيرة كثرة من الخوانيت والحمارات التي كان يبيت فيها الناس معاقرين للشراب مستمعين لأغاني القيان . لهذا لا تستغرب وفرة الأشعار في الخمر ومدحها في الكوفة . ولم يزل خمارو الكوفة مشهورين إلى نحو أواخر القرن الثاني أو بعده بقليل ، كما نستنتج مما رواه صاحب الأغاني في ترجمة بكر بن خازم^(١) .

ونظراً لانتشار الأديرة في الكوفة وبالقرب منها ظهر شعر الأديرة الحمري فيها — وهو تطور جديد في فن الحمريات — قبل ظهوره في بغداد أو في غيرها من مراكز الحياة العقلية في القرن الثاني^(٢) .

ويعتبر الوليد بن يزيد من تلامذة مدرسة الكوفة — كما سبق أن ذكرنا — وخاصة في شعر الخمر (وهو ما برز فيه وجوده وتبعه الناس جميعاً وأخذوه منه) كما يقول صاحب الأغاني^(٣) . ونلاحظ في شعره آثار التجديد الذي حدث في فن الحمريات في القرن الثاني ، وأهم مظاهره استقلال هذا الفن بمقطوعات لا علاقة لها بفن آخر كما كان الشأن في العصر الجاهلي وفي القرن الأول على السواء . وهذه المقطوعات القليلة الأبيات كانت انعكاساً لتطور شكل القصيدة في القرن الثاني من ناحية قصرها ورشاقة وزنها ورقة ألفاظها وسهولة لغتها بحيث تقرب اقتراباً شديداً من لغة الحياة اليومية . والحقيقة إن الوليد بن يزيد لم يكن وحده الذي صادفنا عنده التجديد في شعر الخمر في أول القرن الثاني . بل يقف إلى جانبه أبو الهندي والأقيشر وعمار ذو كنانز وأمثالهم من الشعراء الذين ربطوا حياتهم بالخمر وأخلصوا لها ، فجاء شعرهم تعبيراً صادقاً عن عاطفتهم نحوها بحيث لا يسمحون لفرض آخر من أغراض الشعر أن يتداخل في التعبير عن هذا الحب للخمر ، اللهم إلا أن يكون

(١) انظر : تاريخ الآداب العربية : ٢٤٥ .

(٢) انظر خطط الكوفة : ٢٦ .

(٣) الأغاني : ٧ : ١٨ .

نتيجة لها كالمجون والتحلل من العقيدة واطراح القيود الاجتماعية . وهذه أمور طبيعية
تقرن دائماً بالشعر الحمري في كل عصر وفي كل بيئة .

ولعل خير ما يمثل شعر الوليد الحمري تلك القصيدة التي تنسب أيضاً إلى
أبي نواس وهي :

اصدغْ نَجِيَّ الهُمومِ بالطَّرَبِ	وانعمْ على الدهرِ بابتِ العَنَبِ
واستقبل العيشَ في غُضارتهِ	لا تَقْفُ منه آثارَ محتَقِبِ
من قهوةِ زانها تقادُمُها	فهي عَجوزُ تعلو على الحَقَبِ
أشهى إلى الشَّربِ يومَ جَلوتها	من الفتاةِ الكريمةِ النَّسَبِ
فقد تجلَّتْ ورقٌ جَوهَرُها	حتى تبدَّتْ في مظهرِ عَجَبِ
فهي بغيرِ المِزاجِ من شَرِّ	وهي لدى المزجِ سائلُ الذهبِ
كأنَّها في زُجاجِها قَبَسٌ	تذكو ضياءُ في عَيْنِ مُرتَقِبِ ^(١)

ويتضح لنا من هذه الأبيات التطور الجذيد الذي حدث في المعاني القديمة
بالنسبة لقدم الخمر ، فهي عجوز ومع ذلك فهي أحلى من العروس الجميلة عند
طلابها ، ثم هو يستخدم مصطلحاً فلسفياً حين يجعل جواهرها رقيقاً من القدم . أما
المزاج فقد أصبح معنى متسعاً يبدع الشاعر في وصفه ويفتن فيه .

أما أبو الهندي غالب بن عبد القدوس فهو عربي الأصل ولكنه هاجر إلى
خراسان واستوطن بقرية اسمها كوى زيان وعاش فيها عمره لا يخرج من حانة
إلا ليدخل أخرى ليواصل فيها ملذته ونهمه للراح ، وهو يصور لنا حياته في قوله :

ثبت الناس على راياتهم	وأبو الهندي في كوى زيان
منزل يزرى بمن حل به	تستحل الخمر فيه والزواني
إنما العيش فتاة غادة	وقعودى عاكفاً في بيت حان
أشرب الخمر وأعصى من نهى	عن طلاب الخمر والبيض الحسان

في حياتي لذة ألهو بها فإذا مت فقد أودى زمانى^(١)

لهذا لا نستغرب إذا كان أبو الهندي قد قصر شعره على وصف الخمر دون غيرها من فنون الشعر . ولعله يعد من هذه الناحية أول شعراء الخمریات في الأدب العربي ، وقد أدرك ذلك أبو الفرج الأصفهاني فقال عنه : (وهو أول من وصفها من شعراء الإسلام فجعل وصفها وكنده وقصده)^(٢) . وكان عشق أبي الهندي للخمر عشقاً غريباً حقاً ، إنها بالنسبة إليه كاللبن للطفل الرضيع ، وهو حليف لها لا يكاد يفارقها :

أديرا على الكأس إني فقدتها كما فقد المَفْطومُ دُرَّ المَراضِع

حليفٌ مُدامٍ فارقَ الرَّاحَ روحه فظلَّ عليها مُستهلَّ المَدامِ^(٣)

وأبو الهندي يدعو الناس جميعاً إلى شرب الخمر لأنها جديرة بالحب ولأنها تبهج القلوب ، والحياة قصيرة تقتصر فيها الملذات اقتصاصاً ، ولماذا يقبل الناس عليها متخرجين مع أنهم يرتكبون من الآثام ما هو أفظع وأشنع من شربها :

أصِيبُ على كبدك من بَرْدِها إني أرى الناس يموتونا

ودَغُ أناساً كرهوا شُرْبَها ليسوا بما في الخمر يدرونا

لو شربوها فانتشوا مرَّةً لأصبحوا بالخمير يَهْدُونَا

وقد عهدتُ الناسَ إذ دهرهم دَهْرٌ يلوطنون ويَزْنُونَا^(٤)

وهو يصف لنا إنفاقه كل ما يملك على الخمر وقضاء شهوته منها ، ويصف لنا الزق ، وأنه يشربها في البواطى البيض لاني العلب التي كان يحب فيها عامة العرب وأوساطهم ، كما يصف لنا تأثير الخمر في الشارب وصفاً جديداً لم يتح للشعراء من قبل ، يقول :

(١) طبقات ابن المعتز : ١٣٨ .

(٢) الأغاني ٢٠ : ١٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ٢٠ : ١٧٩ .

(٤) طبقات ابن المعتز : ١٤٣ .

أَجْمَعُ الْمَالَ وَمَا أَجْمَعُهُ أَطْلُبُ اللَّذَّةَ فِي مَاءِ الْعِنَبِ
وَأَسْتَبَائِي الزَّقَّ مِنْ حَانُوتِهِ سَائِلَ الرَّجْلَيْنِ مَعْضُوبَ الذَّنَبِ
وَإِذَا صُبَّتْ لِشَرْبٍ خَلَّتْهَا حَبَشِيًّا قُطِعَتْ مِنْهُ الرُّكْبُ
يَا خَلِيلِي اسْقِيَانِي عَفْوَهَا بِالْبَوَاطِي الْبَيْضِ لَيْسَتْ بِالْعُلْبِ
مِنْ شَرَابٍ خُسْرَوَانِي إِذَا ذَاقَهُ الشَّيْخُ تَغْنَى وَطَرَبُ
يَتْرُكُ الْقَوْمَ إِذَا مَا طَرَبُوا فِي صِيَاحٍ وَمِرَاءٍ وَصَخَبِ
وَإِذَا مَا مُنْتَشِشٍ قَامَتْ بِهِ رَفَعُوا الْأَوْصَالَ مِنْهُ بِالْخَشَبِ
ثُمَّ نَاحُوا نَوْحَةً ثُمَّ بَكَوْا ثُمَّ ضَجُّوا ضَجِّكَاً بِاللَّعِبِ^(١)

وخير ما يعبر عن مذهب أبي الهندي في وصف الخمر ، تلك القصيدة التي يجعل فيها الخمر حبيبة يسمو إليها بعد نوم أهلها ، وهو يقبلها فوق الفراش حين ينفحه عطرها ، ويصف أبو الهندي الأباريق التي تتلأأ في أيدي السقا ، كما يصف السقا أنفسهم والمجلس الذي تردد فيه أصوات الغناء يقول :

وَقَارَةَ مِسْكِ مِنْ عَذَارٍ شَمَمْتُهَا يَفُوحُ عَلَيْنَا مِسْكُهَا وَعَبِيرُهَا
سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا غَدَّوْا وَلَا تُلَقَّ عَنْهَا سُتُورُهَا
سَيَغْنِي أبا الهندي عَنْ وَطْبٍ سَالِمٍ أَبَارِيقُ كَالْغُزْلَانِ بَيْضُ نَحُورُهَا
مُقَدِّمَةٌ قُرَا كَأَنَّ رِقَابَهَا رِقَابُ الْكَرَاكِي أَفْرَعْتَهَا صُقُورُهَا
مُصَبَّغَةٌ الْأَعْلَى كَأَنَّ سَرَاتِهَا ذَبَائِحُ أَنْصَابٍ تَوَافَتْ شُهُورُهَا
تَلَأَأُ فِي أَيْدِي السُّقَا كَأَنَّهَا نَجُومُ الثَّرِيَّا زَيْنَتُهَا عَبُورُهَا
أَقْبَلُهَا فَوْقَ الْفِرَاشِ كَأَنَّهَا صَلَابَةُ عَطَّارٍ يَفُوحُ زَرِيرُهَا
إِذَا ذَاقَهَا مَنْ ذَاقَ جَادَ بِمَالِهِ وَقَدْ قَامَ سَاقِي الْقَوْمِ وَهْنًا يُدِيرُهَا
خَفِيفًا مَلِيحًا فِي قَمِيصٍ مَقْلَصٍ وَجُبَّةٍ خَزَّ لَمْ تُشَدَّ زُرُورُهَا

وجارية في كفها عودُ بربط . يجاوبُها عند الترنم زيرها
إذا حركته الكف قلت حمامة . تجيبُ على أغصان أيلك تصورها
تجاوبُ قمرياً أغنَّ مطوقاً . شقائقهُ منشورةٌ وشكيرها^(١)

وقد بلغ من حب أبي الهندي للخمر ووقفة حياته عليها واندماج روحه فيها أنه أراد أن يجعل كفه ورق الكرم وقبره المعصرة حيث يقول :

اجعلوا إن مت يوماً كَفَنِي وَرَقَ الْكَرْمِ وَقَبْرِي مَعْصِرَةَ
وَادْفِنُونِي وادفنوا الرَّاحَ مَعِيَ واجعلوا الْأَقْدَاحَ حَوْلَ الْمَقْبَرَةِ^(٢)

وما لاشك فيه أن فن الخمريات قد تطور على يد أبي الهندي تطوراً كبيراً من ناحية تخصصه فيه واقتصاره عليه دون فنون الشعر الأخرى ، ومن ناحية اتساع معالي الخمر ووصفها في شعره ووصفه مجالسها وأوانيتها وسقاتها ، ومن ناحية اهتمامه أيضاً بالقصص الخمرى الذى وضع الأعشى بذرته ، كما يتضح لنا في قصيدته :

ندامى بعد عاشرَةٍ تلاقوا وَضَمُّهُمْ بِكُوى زِيان راح^(٣)

وهو يروى قصة لقائه في إحدى الحانات مع جماعة من السكيرين كان يتبادل معهم الصحو والسكر يوماً بعد يوم . كل هذا نجمه في شعر أبي الهندي ، لهذا لا نستغرب ما يقوله ابن المعتز من أن أبا نواس والخليج وأبا هفان وطبقهم إنما اقتدروا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهندي وما استنبطوا من معانيه^(٤) .

ومع شيوع الخمر وانتشارها في القرن الثانى زاد إقبال الشعراء على وصفها بصورة لم تحدث من قبل . واهتموا بها لا باعتبارها موضوعاً تقليدياً يخوضون فيه ولكن لأن شربها أصبح جزءاً من حياتهم المتحضرة بالفنونه ويلتذون به . لذلك فهم يعبرون عن هذه الألفة وتلك اللذة بهذا الوصف للخمر ومجالسها وما يتصل بها من ندامى وسقاة ومجون وريحان وكثوس . ومن هؤلاء الشعراء حماد عجرد الذى يصف لنا في إحدى

(١) طبقات ابن المعتز : ١٤١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٣٨ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣٧ .

(٤) المصدر نفسه : ١٤٢ .

فصائله مجلس شراب بين الماء والكروم وساقيتهم حسناء ذات دلال فيقول :

في جنان بين أنه	سار وتعریش كروم
نتعاطى قهوة تشخص	يقظان الهموم
بنت عشر ترك المك	يسر منها كالأميم
في إناء كسروى	مستخف للحميم
عندنا دقانة	حنانة ذات هميم
جمعت ما شئت من	حسن ومن دل رخيم
في اعتدال من قوام	وصفاء من أديم
وبنان كالمدارى	وثنايا كالنجوم
لم أنل منها سوى غم	زفة كف أو شميم
غير أن أرقص منها	عكنة الكشح الهضم ^(١)

أما على بن الحليل فهو يصف لنا طعم الخمر التي كان يذمن احتساءها ويتحدث عن لونها ورائحتها وتأثيرها في شاربها ، ويمزج ذلك كله بالعدل لمن يعترض على شربها ، والتشكيك في راح الجنة التي وعدها المتقون ، يقول :

اشقنى واشق خيلي	في مدى الليل الطويل
قهوة صباء صرفاً	سبيت من نهر بيل
في لسان المرء منها	مثل طعم الزنجبيل
لونها أصفر صاف	وهي كالمسك الفتيل
ريحها ينفع منها	ساطعاً من رأس ميل
من ينل منها ثلاثاً	ينس منهاج السبيل
فمتى ما نال خمساً	تركة كالقتيل

ليس يدري حينَ ذاكُم ما دَبرُ من قَبيلِ
 قلْ لمن يَلْحَاك فيها من فِقْبِهِ أو نَبيلِ
 أنتَ دَعَّها وارْجُ أخرى من رَحيقِ السُّسْبيلِ
 تعطشُ اليومَ وتُسقى في غَدٍ نَعَتَ الطُّلولِ^(١)

ويحدثنا إبراهيم الموصلي عن مجلس شراب نام فيه سكرأ وخدراً لكثرة ما شرب
 ثم نبه ندماءه للقيام لمواصلة الشرب ، يقول :

ربُّما نَبَّهني الإِخوانُ م واللَّيْلُ بِهِمِ
 حينَ غارت وتدلَّتْ في مَهاوِها النُّجُومُ
 ونُعَّسُ اللَّيْلِ في عَيِّ نَيِّ كالثَّأويِ المُقْسِمِ
 لَلَّتِي تُعْصِرُ لَمَّا أَيْنَعَتْ مِنْهَا الكُرومُ
 أنا بالرَّيِّ مُقْسِمٌ في قُري الرِّيّ أَهْمِ
 ما أَرَانِي عن قُري الرِّيّ م مدى دَهري أَرِيمِ^(٢)

وأبو الشيبص كثيراً ما كان يصف الخمر في شعره وصف الحب لها المدمن
 عليها ، وهو في إحدى قصائده يحدثنا عن الخطوات التي مرت بها الخمر منذ
 اعتصارها إلى أن وصلت إليه عجوزاً تخفى تجاعيد الزمن في وجهها بما تضحك به
 جلدها من طيب وزعفران ، يقول :

وعِذراءٌ لم تَفْتَرَعِها السُّقاةُ ولا اسْتامَها الشُّرْبُ في بَيْتِ حانِ
 ولا احتلبتْ دَرَّها أَرَجُلٌ ولا وَسَمَتْها بِنارِ يَدانِ
 ولكنْ غَدَتْها بِأَلْبَانِها ضروعُ يحفُّ بها جَدُولانِ
 إلى أنْ تحوَّلَ عنها الصُّبا وأهدى الفِطامَ لها المُرْضَعانِ
 فلم تَزَلِ الشَّمْسُ مشغولةً بصيغتها في بُطونِ الدُّنانِ

(١) الأغاني ١٤ : ٥٩ .

(٢) المصدر نفسه : ١٥٣ .

تَرْشُحُهَا لِلثَّامِ الرَّجَالِ إِلَى أَنْ تَصْدَى لَهَا السَّاقِيَانِ
فَفَضًّا الْخَوَاتِمَ عَنْ جَوْنَةٍ صَدُوفٍ عَنِ الْفَحْلِ بَكَرِ عَوَانِ
عَجُوزٍ غَذَا الْمِسْكَ أَصْدَاغَهَا مَضْمَخَةِ الْجِلْدِ بِالزُّعْفَرَانِ^(١)

ولا يترك أبو الشيص وصف الحمر في قصيدة من قصائده حتى في قصائد مديحه كتلك القصيدة التي مدح بها عقبة بن الأشعث وأدار أغلبها على وصف الحمر . ومع هذا فقد كان يقصر بعض قصائده على وصف الحمر دون غرض آخر من أغراض الشعر . مثال ذلك قصيدته التي وصف الحمر فيها بأنها عذراء تخاف لمس الرجال ، وأنها تزف إليهم حين تجلوها الكئوس ، كما وصف ساقها وأثرها في شاربها ومجلسها القديم الذي درس ولم تبق غير آثاره التي تدعو إلى التحسر ، يقول :

وَسَبِيئَةٌ مِنْ كَرَمِهَا حَبِيرِيَّةٌ عَذْرَاءُ مِنْ لَمَسِ الرِّجَالِ شُمُوسُ
لَمْ يَفْتَقِ النُّعْمَانُ عُدْرَتَهَا وَلَمْ يَرُشِفْ مُجَاجَةً كَأْسَهَا قَابُوسُ
كُتِبَ الْيَهُودُ عَلَى خَوَاتِمِ دَذَّهَا يَادُنُ أَنْتَ عَلَى الزَّمَانِ حَبِيسُ
ذِمِّيَّةٌ صَلَّى وَزَمَزَمَ حَوْلَهَا مِنْ آلِ بَرْمَكٍ هَرَبَدٌ وَمَجُوسُ
تَجْلُو الْكُئُوسَ إِذَا جَلَّتْ عَنْ وَجْهِهَا شَمْسًا غَذَاهَا الشَّمْسُ فَهِيَ عَرُوسُ
عَكَفَتْ بِهَا عُفْرُ الظُّبَاءِ كَأَنَّهَا بَأَكْفَهْنُ كَوَاكِبُ شُمُوسُ
مِنْ كُلِّ مُرْتَجٍّ الرُّوَادِفِ أَحُورُ كِيسَرَى أَبُوهُ وَأُمُّهُ بِلَقْبِيسُ
رَخُو الْعِنَانِ إِذَا ابْتَدَيْتَ فَخَادِمُ وَإِذَا صَبَوْتُ إِلَيْهِ فَهُوَ جَلِيسُ
يَسْعَى بِإِبْرِيْقٍ كَأَنَّ فِدَامَهُ مِنْ لَوْنِهَا فِي عُصْفَرٍ مَغْمُوسُ
يَسْقِيكَ رِيْقٍ سَبِيئَةٍ حَبِيرِيَّةٍ مِمَّا اسْتَبَاهُ لِفَصْحِهِ الْقَيْسِيسُ
بَيْنَ الْخَوَزَنْقِ وَالسَّيْدِ مَحِلَّةٌ لِلَّهِوِ فِيهَا مَنْزِلُ مَطْمُوسُ
فَالنَّدُ مِنْ رِيحَانِهَا مُتَضَوِّعُ وَالظُّهْرُ مِنْ غُزْلَانِهَا مَدْحُوسُ

نَحِسَ الزَّمانُ بِأهلها فتصدَّعوا إِنَّ الزَّمانَ بِأهلها أَنَحُوسُ
كُنَّا نَحُلُّ بِهِ ونحن بِغِبْطَةٍ أَيَّامَ اللَّأَيامِ فيه حَسِيسُ
فبني عليه الدهرُ أبنية البلى فعلى رَباهُ كَابَةٌ وَعَبُوسُ^(١)

ومن الأمثلة التي قدمناها لشعر الحمر في القرن الثاني يتبين لنا أن هذا الفن قد تطور تطوراً واضحاً في الشكل والمحتوى على السواء ، فنجد بعض الشعراء أولاً يتخصصون في هذا الفن ويكادون يقصرون عليه حياتهم وشعرهم . ونجدهم يتخذون من القصيدة الحميرية مجالا لبث عواطفهم الصادقة والتنفيس عن مشاعرهم العميقة نحو الحمر، فلم تصبح أبيات الحمر غرضاً تقليدياً يقول فيه الشاعر بصورة عرضية . ثم نجد شعراء الحمر في هذا القرن يجعلون من القصيدة الحميرية فناً يستحق التجويد والنظر ، ولهذا نجد الصنعة الفنية تأخذ طريقها إلى هذا النوع من الشعر وتظهر فيه براعة الشاعر في صنعة الألفاظ والمعاني على السواء . وقد تكون هذه الصنعة قريبة من الطبع ، كما في شعر أبي نواس ، وقد تكون متكلفة كما نجدتها في شعر مسلم وأبي الشيص أيضاً .

وإلى جانب هذه القصائد التي تعتمد على الصناعة الفنية الدقيقة والتي كانت قصائد طويلة في الغالب ، نجد مقاطعات خمرية صغيرة يحس القارئ لها أنها كانت تنشد إنشاداً في الخانات ومجالس الشراب على البديهة وبلا تكلف . وكانت أغلب هذه المقطعات توضع لها اللحون وتغنى في كل مكان مثل أبيات حماد عجرد وإبراهيم الموصلي وعلى بن الخليل التي قد منها فيما سبق . وواضح أن الأوزان — وخاصة في تلك المقطعات — قد بلغت حدّاً كبيراً من الرشاقة والحفة مع وفرة نغمها الموسيقية بتأثير الغناء والذوق العام في العصر نفسه ، وتأثير موضوع الحمر بروحه اللاهية العابثة وما يصاحبه من مجون وورح وتهتك . وكذلك خفت الألفاظ واختار الشعراء أرقها نغماً وأخفها ظلاً ووقعاً ، واقتربوا بلغة الشعر اقتراباً واضحاً من لغة الحياة اليومية .

وأما من ناحية المعاني فقد اتسعت كما رأينا بصورة لم يشهد لها الأدب العربي

(١) طبقات ابن المعتز : ٨٥ ، ٨٦ .

مثيلاً من قبل ، فأصبح الشعراء يتحدثون عن الحمر حديثاً تفصيلياً دقيقاً لا يتركون فيه شيئاً من أوصافها المحسوسة أو غير المحسوسة ، كذلك كان لا يفوتهم وصف شيء من مجالسها التي أصبحت على درجة كبيرة من التحضر والأناقة فهي إما في ديار ذات بساتين رائحة ، وإما في حانات جميلة سواء أكانت تقع في القرى أم في المدن . وفي هذه المجالس كانت توجد الرياحين وأنواع الورود ذات الرائحة القوادة بالشذى ، وكان يوجد السقاة فتياناً أو فتيات يلبسون ملابس أنيقة زاهية الألوان ويتميزون بالجمال الباهر واللفظ والتهتك أيضاً ، ولا بأس لديهم من الاستجابة لأحلام السكارى ورغباتهم . وكان الشاربون أنفسهم يحضرون في هذه المجالس بملابس عجيبة مقلدين الفرس في ذلك ، فكانوا يضعون الثياب الملونة الحمراء والصفراء والخضراء وغيرها^(١) .

وأصبحت أواني الشراب موضعاً جديراً باهتمام الشعراء لتعدددها وجمال صنعها ودقة فنها ، وخاصة تلك الكؤوس البلورية التي كانت ترسم عليها نقوش وتصاوير فارسية قديمة . ولم تعد الأوصاف ساذجة تشبه المحسوسات بالمحسوسات فحسب ولكن الشعراء استخدموا معارف عصرهم وخاصة في الفلسفة والطبائع والفلك ليقدموا لنا صورة مجلوة للخمر وأوصافاً جديدة على جانب كبير من العمق والتفنن في الخيال . وفي هذا العصر — فيما نعتقد — وضعت للخمر وشرابها قواعد وآداب ، نجد بعضها في شعر هذا القرن وبعضها الآخر أثبتته الكتاب المتأخرون . منها ما يختص بالنديم إذ يشترط أن يكون (حسن البزة ، نبيل الهمة ، نظيف الكف ، نقي الظفر متعاهداً لتقليمه وتخليل أصابعه وغسل يديه ومعصميه . وتسريح لحيته ، عطر البشرة ، نظيف الوجه والشارب والأنف ، نقي الجبين . مستعملاً للسواك ، نظيف الثياب . خصوصاً عمامته لأن العين كثيراً ما تقع عليها ، مسبول الذبول وأطراف الأكمام ، نظيف المخفى من الملابس كالقلنسوة والسراويل والتكة والخف والمنديل والكم ، متطيباً بالبخور والغالية والروائح على الشعر والثياب)^(٢) . وكان للساقى شروط وآداب مرعية أيضاً إذ لا بد أن يكون (بديع الجمال زائداً في الظرف

(١) الفخرى في الآداب السلطانية : ١٨١ .

(٢) انظر : حلة الكعب : ٢٥ .

والدلال . ومن دأبه أن يستأذن بجلسائه وندماءه في المزج وعدمه ، فإن منهم من لا تناسبه الراح صرفاً ، ومنهم من يختار الممزوج قليلاً ، ومنهم من يختار الممزوج كثيراً فإن كان الساق عارفاً بأخلاق الجماعة . عامل كلامهم بما يلائم طباعه من غير سؤال^(١) .

وكان الغناء من العناصر المهمة في مجالس الشراب ، وكان الرقص يصاحبه أيضاً . وكثيراً ما كانت الأغاني هي نفسها تلك المقطعات الحميرية التي يشيع فيها الطرب والبهجة . وتستخفها النفوس لبساطتها وحلاوة لفظها ورشاقة وزنها .

وعلى الرغم من كثرة شعراء الحمريات في القرن الثاني كثرة ظاهرة — لم نذكر منهم إلا عدداً يسيراً لمجرد التمثيل — فإن أبا نواس يعتبر شاعر الحمريات الأول في هذا القرن ، فهي في الواقع منه العظيم الذي استحق من أجله هذه الشهرة الواسعة ، وهذا الخلود في عالم الأدب حتى اليوم . وكان هو نفسه يدرك ذلك فقد روى أبو حاتم السجستاني أن أبا نواس سئل عن شعره فقال : إذا أردت أن أبجد قلت مثل قصيدى : (أيها المنتاب عن غفره) ، وإذا أردت العبث قلت مثل قصيدى (طاب الهوى لعميده) ، فأما الذي أفنى فيه وحدي وكله جدد فإذا وصفت الخمر^(٢) .

وأبو نواس حين يطالع الدارس شعره يحده قد وقف حياته أو كاد على وصف الخمر والتغنى بها والتعبير عن إحساسه نحوها . ويحده يكاد يتخصص فيها وحدها دون باقي أغراض الشعر . فهي هي مذهبه الشعري وما سواها أنواع من القول ينحوض فيها اضطراراً لكسب العيش أو شفاء لما بنفسه من حب ووجد أو من مرارة إزاء بعض الناس أو غير ذلك من الأسباب العارضة . وكان أبو نواس يدرك ذلك جيداً ، فأبو الفرج يروي عنه أنه التقى بالحسين بن الضحاك فقال له أبو نواس : أنت أشعر أهل زمانك في الغزل ، فقال الحسين : ويحك يا أبا نواس لا تفارق مذهبك في الخمر البتة ، قال : لا والله وبذلك فضلتك وفضلت الناس جميعاً^(٣) .

(١) حلبة الكميت : ١٤٥ .

(٢) أخبار أبي نواس ١ : ٥٩ .

(٣) الأغاني ٧ : ١٧٤ .

ولكن المرتبة العالية التي بلغها أبو نواس في فن الخمریات ، والتي فضل بها الشعراء جميعاً ، لم تكن نتيجة تخصصه فيها فحسب ، ولكنها كانت ثمرة طبيعية لموهبته في هذا النوع من الوصف ، وصدى حقيقياً لحياته الاجتماعية والنفسية على السواء . لقد كان أبو نواس يحب اللذة : لذة شرب الخمر ولذة الحب سواء منه الطبيعي أم الشاذ ، وكان يريد انتهاب هذه اللذات انتهاباً لأن الحياة قصيرة :

رَأَيْتُ اللَّيَالِي مُرْصَدَاتٍ لِمُدَّتْنِي فَبَادَرْتُ أَيَّامِي مُبَادِرَةَ الدَّهْرِ

رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِكَأْسٍ وَشَادِنٍ تَحِيرُ فِي تَفْضِيلِهِ فِطْنُ الْفِكْرِ

وكان حبه للخمر حباً عجبياً حقاً ، إنه حب المدمن للشئ لا يكاد يفارقه بل يخلط به نفسه ولا يكاد يعرف الحد الفاصل بينهما ، لهذا كان وصف أبي نواس للخمر وصف المحب لحبيبته المتفنن في تخيل جمالاتها وتمثلها ، وإبراز أحلى ما فيها من خصائص وعناصر . ولهذا كانت قصائده الخمرية ذات وفرة ظاهرة وشمول واستقصاء بحيث يصدق قول جميل سعيد : (لو جمعنا كل ما قيل في الخمر في الشعر العربي إلى زمن أبي نواس ووضعناه في كفة ميزان ، ثم وضعنا في الكفة الأخرى خمریات أبي نواس لرجحت كفته رجحاناً بالغاً)^(١) .

والحقيقة إن الحديد في خمریات أبي نواس أنه أشاع الحياة في الخمر واعتبرها شقيقة روحه وتوأم نفسه واعتبرها في أحيان أخرى أمه التي ترضعه بلبانها ، وكان يتصورها كأنها عروس ويخاطبها وتخاطبه ، فمن ذلك قوله :

فَاسْتَوْحَشْتُ وَبَكَتْ فِي الدَّنِّ قَائِلَةٌ يَا أُمَّ وَيْحَكَ أَخْشَى النَّارَ وَاللَّهْبَا

فَقُلْتُ لَا تَحْذَرِيهِ عِنْدَنَا أَبَدًا قَالَتْ : وَلَا الشَّمْسُ قُلْتُ : الْحُرْقُ قَدْ ذَهَبَا

قَالَتْ : فَمَنْ خَاطَبِي هَذَا فَقُلْتُ : أَنَا قَالَتْ : فَبَعْلِي ؟ قُلْتُ : الْمَاءُ إِنْ عَذْبَا^(٢)

وفي حب أبي نواس للخمر يقول محمد النويهي إن أبا نواس عد الخمر (كائناً حياً) ثم خلص من هذا إلى اعتبارها (سر الحياة) وانتهى من هذه العقيدة إلى الاعتقاد بأنها (روح)^(٣) ولكن النويهي ذهب بعيداً بعد هذا في وصف العلاقة

(١) تطور الخمریات في الشعر العربي : ٢١٨ .

(٢) ديوان أبي نواس : ٢١٥ .

(٣) نفسية أبي نواس : ٢٨ .

بين أبي نواس والخمر . لقد قال أولاً إنها قادت أبا نواس إلى انفعال ديني وأن له مقطوعات هي في صميمها أناشيد دينية كما يفعل الصوفية حين يتغنون بأناشيد عشقهم الصوفي ، ودليله على ذلك ما جاء في بيت من هذه المقطوعات يقول فيه :

هِيَ لِيَدْفَعِ الْهَمَّ وَالْأَحْ زَانِ مِنْ خَيْرِ عِلَاجِ

فيرى الكاتب أن تسكين هي يذكرنا بصياح الصوفية في ذكرهم هو . وهذا تفسير مغرق في التصور والفهم ، فنشوة أبي نواس بالخمر يمكن أن تعد هيأماً وغراماً ولكنها لا يمكن أن تصل إلى نشوة دينية . وهذا الدليل اللفظي إنما هو دليل على اقتراب لغة الشعر من الحياة اليومية ، لا على ذكر الصوفية والنشوة الدينية .

ثم إن الكاتب بعد ذلك يرى أن إحساس أبي نواس نحو الخمر لإحساس جنسي لأنه يسميها بكراً وعذراء وفتاة ، وأن الماء يحل مثرها إلى غير ذلك . وعلى هذا فلا يعتبر الكاتب أن خطبة أبي نواس للخمر وإمهارها وعرسها تعبيرات مجازية . ولكنها حقيقية . ويستند في ذلك إلى أن علماء النفس يسوغون اللذة الجنسية من غير الواقعة المعروفة (١) .

وهذا التصور مبني على الإسراف في الوهم ومحاولة تطبيق علم النفس على الدراسة الأدبية تطبيقاً فيه قسر وإجبار ، ثم هو يوجه طاقة دراسته ناحية أبي نواس ، وكأنه كان وحده في القرن الثاني دون شعراء خمریات آخرين . ولو وسع الكاتب دائرة بحثه ونظر إلى شعر الخمریات في القرن الثاني نظرة أعم وأشمل لأدرك أن أبا نواس لم يكن أول من وصف الخمر بأنها عذراء وأنها افترعت وأنه خاطبها وأنه زوجها الماء ، إلى غير ذلك من الأوصاف ، بل إنها كانت شائعة في هذا العصر عند جميع شعراء الخمریات . وقد سبق أن قدمنا قصيده خمرية لأبي الشيص تضمنت مثل هذه المعاني . فهل يمكن إذن أن يكون كل شعراء الخمریات في القرن الثاني محبين للخمر حباً جنسياً شاذاً كما تصور الكاتب عن أبي نواس؟ طبعاً الجواب على ذلك نفى تام لأن طبيعة البحث العلمي تأبى هذه النتيجة لعدم ملائمة الأسباب والمسببات .

(١) نفسية أبي نواس : ٣٧ وما بعدها .

وهناك نواح جديدة أخرى في خريات أبي نواس إلى جانب تجسيده للخمر ،
وهي فلسفته في وصفها وتصوير قدمها فهي :

كَرْخِيَّةٌ قَدْ عُنُقَتْ حِقْبَةً حَتَّى مَضَى أَكْثَرُ أَجْزَائِهَا
وهي أيضاً قد :

تُخَيَّرَتْ وَالنُّجُومُ وَقَفَتْ لَمْ يَتِمَكَّنْ بِهَا الْمَدَارُ
فَلَمْ تَزَلْ تَأْكُلُ اللَّيَالِي جُثْمَانَهَا مَا بِهَا انْتِصَارُ
حَتَّى إِذَا مَاتَ كُلُّ دَامٍ وَخَلَصَ السِّرُّ وَالنَّجَارُ
عَادَتْ إِلَى جَوْهَرٍ لَطِيفٍ عَيَانٌ مَوْجُودِهِ ضِمَارُ
ومن أعجب ما وصف به شاعر قدم انحر تلك الصورة الرائعة التي أبدعها
أبو نواس في قوله :

قَدْ عُنُقَتْ فِي ذَنْهَا حِقْباً حَتَّى إِذَا آلَتْ إِلَى النُّصْفِ
سَلَبُوا قِنَاعَ الطِّينِ عَنْ رَمَقٍ حَتَّى الْحَيَاةِ مُشَارِفِ الْحَتَفِ
أما مزج الخمر بالماء فقد وصفه أبو نواس وصفاً فلسفياً أيضاً بقوله :
رَقْتُ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يَلَاتِعُهَا لَطَافَةٌ وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ
فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُوراً لَمَازَجَهَا حَتَّى تَوْلَدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

أما لغة أبي نواس في خرياته فقد وصف جانباً منها محمد حسين بقوله :
(إلى جانب هذا التفنن في عرض معاني القدماء وفي مزج الفلسفة بالأدب هذا
المزج اللطيف الذي لم يقصد به الشاعر إلى أكثر من التطرف فلم يحوج السامع إلى
جهد التفكير ، إلى جانب هذا نجد أبا نواس قد تخلص من البداوة والجزالة التي كان
الأخطل حريصاً على استبقائهما في شعره ، وحتى في البحور الطوال التي أنشأ عليها
أبو نواس بعض شعره في الخمر لا يكاد يشعر القارىء بالوقار والجزالة التي كان
يحسها في خريات الأخطل ، ذلك لأن أبا نواس قد خلع على شعر الخمر أسلوباً
ما جناً عابثاً بكل معاني المحبون والعبث ، ما جناً في بحوره وفي ألفاظه السهلة القريبة
التي حكى بها كلام الشرب والخمار والساقى ، وفي معانيه التي تشيع فيها الفكاهة

والاستهتار بكل المبادئ الدينية والخلقية (١).

واهتم أبو نواس في خمرياته بناحية تعليمية هي آداب الخمر ومجالسها ، فحقوق الكأس والندمان خمسة كما يقول :

حقوقُ الكأسِ والندمانِ خمسُ	فأولُها التزُّنُ بالوقارِ
وثانيها مُسامحةُ الندامى	وكم حَمَتِ السَّاحَةُ مِنْ ذِمَارِ
وثالثها وإن كنت ابنَ خَدَ	يُرِ البريَّةَ محتِداً تركُ الفَخَارِ
ورابعُها وللندمانِ حقُّ	سوى حقِّ القَرابةِ والجوارِ
إذا حَدَّثَتْهُ فاكُسُ الحديثِ	م الذى حَدَّثَتْهُ ثُوبَ اختصارِ
وخامسها يدل به أخسوه	على كرم الطَّبيعةِ والنُّجارِ
كلامُ الليل ينسأه نهاراً	فإنَّ الذنبَ فيه للعُقارِ
فإن حَكَمْتَ كَأْسَكَ فيه فاحْكُمْ	لَهُ بإقالةِ عندِ العِذارِ

والنديم تشترط فيه عدة خصال ليكون لطيف المنادمة ، وأبو نواس يتناول هذه الخصال بالتحليل في قوله :

ولستُ بقائلٍ لنديمٍ صدِّقٍ	وقد أخذَ النعاسُ بمقلتيه
تناولها وإلا لم أذُقها	فياخذها وقد ثقلتُ عليه
ولكني أدبرُ الكأسَ عنه	وأصرفُها بِغَمزةِ حاجبيه
وأحسُّها إلى أن يشتهيها	وأخذها بِرَفَقٍ مِنْ يَدَيْهِ
وإن مُدَّ الوِسادُ لِنومٍ سُكْرِ	دَفَعْتُ وسادتي أيضاً إليه

وهناك قواعد معينة يتبعها الشارب إذا عربد عليه نديمه وقد ذكرها أبو نواس في إحدى قصائده ، كما أنه اهتم بأنواع الطعام التي تصلح مع الشراب ، والعدد الصحيح الذي يجب أن يضمه مجلس الشرب بلا زيادة أو نقصان وهو خمسة ندماء فحسب ، وكميات الخمر وأنواعها وفوائدها ، كل ذلك تضمنته الناحية

(١) أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة : ٢٥ ، ٢٦ .

التعليمية في خمریات أبی نواس ، وهی جديدة علی هذا الفن بحق .

أما وصف أثر الخمر فی شاربها فقد بلغ به أبو نواس الذروة وسجل فيه المشاعر العميقة التي تتاب الشارب من توهمه سكر ما حوله حتى الأزهار فی البستان ، إلى خلطه بین الأشياء وتصوره اللاشيء شيئاً وسوى ذلك من مشاعر السكر الدقيقة .

وقد نما القصص الخمری علی يد أبی نواس — ذلك الفن الذي رأينا بذوره عند الأعشى فی الجاهلية — فبلغ عنده الذروة من حيث كثرة هذا القصص وتنوع أفكاره وتضمنه ألوانا من الحوار الذي قد يحكيه أبو نواس بأسلوب أصحابه : الساق أو المغنية أو تاجر الخمر أو صاحب الحان إلى غير ذلك . وهو يصف دائماً رحلته مع رفقاته إلى إحدى الحانات السرية متلبسين بالليل البهيم حتى يغيبوا عن أعين الشرط . وحين يصلون إلى الحانة يقرعون بابها فيفزع صاحبها خوفاً من أن يكون الطارق عيناً من الحكومة فيترل به العقاب ، وعندئذ يطمئنونه بإشارة متفق عليها فيفتح لهم الباب مرحباً ويهنيئ لهم مجلساً لطيفاً فيه الخمر وفيه الغناء والمتع الحسية الأخرى ، فيظلون عاكفين علی كئوسهم حتى ينبلج الصباح . يقول أبو نواس فی إحدى هذه القصص الخمرية :

وليلة دَجْن قد سَرَيْتُ بفتية	تَنَازَعُهَا نحو المدام قُلُوبُ
إلى بَيْتِ خَمَارٍ ودونَ مَحَلِّهِ	قصورٌ منيفاتٌ لنا ودُرُوبُ
فَقَزَّعَ مِنِّإِدلاجِنَا بَعْدَ هَجْعَةٍ	وليس سوى ذى الكبرياء رَقِيبُ
تناوَمَ خَوْفاً أن تكونَ سَعَايَةٌ	وعاودَهُ بَعْدَ الرُّقَادِ وَجِيبُ
ولما دَعَوْنَا بِاسْمِهِ طار دُعْرُهُ	وَأَيَقَنَ أَنَّ الرَّحْلَ مِنْهُ خَصِيبُ
وبادر نحو البابِ سَعْيًا مُلَبِّياً	لَهُ طَرَبٌ بالزائرين عَجِيبُ
فأطلق عن نابيه وانكب ساجداً	لنا وهو فيما قد يَظُنُّ مُصِيبُ
وقال: ادخلوا حَيِّتُمْ مِن عِصَابَةٍ	فمنزلكم سَهْلٌ لدى رَحِيبُ
وجاء بِمِصباحٍ لَهُ فَأَنارَهُ	وكل الذي يبغى لديه قَرِيبُ
فقلنا أَرَحْنَاهَا إِن كُنتَ بَاتِعاً	فإِنَّ الدُّجَى عن مُلْكِهِ سَيَغِيبُ

فَأَبْدَى لَنَا صُهْبَاءَ تَمَّ شَبَابُهَا لَهَا مَرَحٌ فِي كَأْسِهَا وَوُثُوبُ
 فَلَمَّا اجْتَلَاهَا لِلنَّدَامَى بَدَا لَهَا نَسِيمُ عَبِيرٍ سَاطِعٍ وَلَهْيَبُ
 فَجَاءَ بِهَا تَحْدُو بِهَا ذَاتُ مِزْهَرٍ يَتَوَقُّ إِلَيْهِ النَّاظِرُونَ رَبِيبُ... إلخ

وفي شعر أبي نواس وغيره من شعراء الحمريات في القرن الثاني نوع جديد - إلى جانب ما ذكرنا - من الأدب الحمري يمكن أن نطلق عليه اسم أدب الديارات ، ونقصه الشعر الحمري الذي كان يتردد حول مجالس الشراب في الأديرة التي كانت منتشرة في الشام والعراق وبخاصة في الحيرة . وهذه الأديرة قد اشتهرت بحداثتها الغناء الواسعة ومواقعها الممتازة التي تقرب من الأنهار دائماً ، وأغلب الظن أنها كانت تشتمل على دار للضيافة واللهو والسمر ، كما أن رهبانها عرفوا بخبرتهم الواسعة في صناعة الخمور وجنى العسل وتعهد الثمار والأزهار^(١).

وكان للعراق النصيب الأوفى من هذه الأديرة . فالشابشتي يعد لنا منها سبعة وثلاثين ديراً مقابل ثلاثة في الشام وأربعة في الجزيرة وتسعة في مصر^(٢) . ويطلب الشابشتي في وصف جمال هذه الأديرة وكيف كانت بمثابة جئات مورقة . فهو مثلاً يصف دير أشمونى الذى يقع بقطربل غربى دجلة ويتحدث عن عيده فيقول :

(إن عيده من الأيام العظيمة ببغداد يجتمع أهلها إليه كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم ولا يبقى أحد من أهل التطرب واللعب إلا خرج إليه فمنهم في الطيارات ومنهم في الزبازب والسمريات^(٣) ، كل إنسان بحسب قدرته . ويتنافسون فيما يظهرونه هنالك من زيههم ويباهون بما يعدونه لقصفهم . ويعمرون شطه وأكنافه وديره وحاناته ويضرب لذوى البسطة منهم الخيم والفساطيط وتعزف عليهم القيان)^(٤).

ويذكر الحسين بن الضحاك دير مديان . وهو على نهر كرخايا ببغداد فيقول :

يَا دَيْرَ مُدَيَانَ لَا عَزِيزَتَ مِنْ سَكَنٍ مَا هَجَّتْ مِنْ سَقَمٍ يَادَيْرَ مُدَيَانَ

(١) انظر : تاريخ سورية ٢ : ١٠٠ .

(٢) الديارات : ٧ (مقدمة) .

(٣) كلها أنواع من السفن تشاوت في حجمها .

(٤) الديارات : ٣٠ .

هل عند قسك من علم فيخبرني أم كيف يسعد وجه الصبر من خانا
سقباً ورعياً لكرخايا وساكنها بين الجنينة والروحاء من كانا^(١)
ولعمرو بن عبد الملك الوراق - الذي يقول عنه الشافعي إنه (من الخلاء
المجان المهمكين في البطالة والحسارة والاستهتار بالمرد والتطرح في الديارات)^(٢) -
شعر في أديرة كثيرة، منها قوله في دير مريخنا وكان يقع إلى جانب تكريت على نهر
دجلة :

أرى قلبي قد حنّنا إلى دَيْرِ مَرِي حنّنا
إلى غيظانهِ الفيحِ إلى بِرْكتهِ الغنّنا
إلى أحسن خلقِ الله إن قَدّس أو غنّنا
فلما أبلج الصُّبحُ بَزَلْنَا بيننا دنّا
فلما دارتِ الكـأسُ أدركنا بيننا لحنّا
فلما هَجَعَ السَّمارُ نِمْنَا فتعانقنا^(٣)

وقد عرف جماعة من الشعراء بالذهاب إلى هذه الأديرة مثل أبي نواس والحسين
ابن الضحّاك وعمرو الوراق ومطيع بن إياس وأبي الشبل البرجمي وغيرهم . وكان
أبو نواس في هذا المجال أيضاً أكثرهم شهرة إذ نجد له شعراً في أكثر ديارات العراق
مثل دير الزندورد ، ودير أشمونى ، ودير مرمار سرجيس الذى كان يسميه الناس
(معصرة أبي نواس)^(٤) ، ودير حنة ، ودير بهراذان ، ودير ميماس وغيرها . ومن
شعر أبي نواس في دير بهراذان قوله :

بِدَيْرِ بَهْرَاذَانَ لِي مَجْلِسُ
رُحْتُ إِلَيْهِ وَمَعِيَ فَتْبَةُ
وملعبٌ وَسَطٌ بِسَاتِينِهِ
نَزُورُهُ يَوْمَ شَعَانِينِهِ

(١) مسالك الأبصار : ٢٧٨ .

(٢) الديارات : ١١٠ .

(٣) مسالك الأبصار : ٣٠٩ .

(٤) مسالك الأبصار : ٢٧٨ .

بِكُلِّ طِلَابِ الْهَوَى فَاتِكَ قَدْ آثَرَ الدُّنْيَا عَلَى دِينِهِ^(١)

وفي شعر الديارات يصف لنا الشعراء المجالس اللطيفة والحدائق الغناء والبساتين المونقة الزاخرة بالورود والرياحين ، كما يصفون لنا أعياد النصارى وملابسهم إلى جانب وصف الخمر وسقاتها والمغنين والمغنيات ، وكان يوجد بالإضافة إلى الأديرة بضع حانات مشهورة بمن كان يتردد عليها من الشعراء مثل حانة عون في الحيرة وقد زارها أبو الهندي وكان فتيان الكوفة يترددون عليها كثيراً . وحانة دومة ، وحانة شهلاء وكان الأقيشر يلزمها ، وحانة جابر وكانت مزاراً لأبي نواس كلما قدم الكوفة . وكل هذه الحانات كانت تقع في الحيرة . أما حانات العراق الأخرى فقد اشتهرت منها حانة طيزاباذ وكانت الحانة المفضلة لدى أبي نواس . وحانة قطربل وخارها ابن أذين كان يتردد عليها أبو نواس أيضاً وقد ذكر خمارها في إحدى قصائده . أما حانة الشط فكانت مجلساً دائماً للحسين بن الضحاك . وفي حانة سجستان كان أبو الهندي يقضي أيامه ولياليه . وأما حانة خويت فيقال إنها كانت للخاصة من الناس يقبل عليها كبار السراة الذين يودون الاستتار من عامة الشعب . وأما حانات الشام فقد اشتهرت منها في هذا القرن حانة عزار وكان يتردد عليها إسحق الموصلي ، وحانة هزيمة بدمشق وكانت تخدم الوليد بن يزيد في شرابه وتتولى اتخاذه له كما يقول ابن فضل الله العمري ، وقد ذكرها يزيد نفسه في شعره حيث يقول :

قَدْ طَرَبْنَا وَحَنَّتِ الزَّمَارَةُ فَاسْقِنِي يَا بَدِيحَ الْقَرْقَارَةِ
مِنْ شَرَابٍ كَأَنَّهُ دَمٌ خَشَفٍ عَنَّقَتُهُ هُشِيمَةُ الْخَمَارَةِ

وحتى الحجاز لم يخل من حانات وجدت في الجاهلية وظلت تراول عملها فيما يبدو مثل حانة الطائف وحانة بني قريظة^(٢) .

هكذا تجدد إذن شعر الحمريات في القرن الثاني واتسع ميدانه وتعددت مجالاته وكثر شعراؤه ، وتغير في الشكل والمحتوى على السواء ، وكان يقترن بحسب طبيعة العصر بالمجون والغزل بالمدح وأحياناً بالزندقة كما سبق أن ذكرنا ، وبوصف البساتين التي

(١) ديوان أبي نواس : ١٣٣ .

(٢) انظر : مسالك الأبصار : ٣٠٩ وما بعدها .

كانت مجالس طيبة للشراب وغير ذلك مما سبق لنا تبياناه . وإننا إذ نترك هذا الفن الحمري الذي اعتبرناه جزءاً من فن الوصف بصورة عامة ، ننتقل فيما يلي إلى آخر الأغراض الشعرية التي نرى أنها تجددت في القرن الثاني ، وهو فن التغزل .

التغزل (١)

التغزل أو النسيب أو التشبيب من أقدم الفنون الشعرية عند العرب وأكثرها شيوعاً لاتصالها الوثيق بالطبيعة الإنسانية . فالحب أو محاولة الحب لغة عالمية وميل فطري في كل بيئة ، ووصف المحبوبة والتغنى بجمالها إحساس تلقائي . ومع ذلك فقد تطور فن التغزل بالذات في الشعر العربي تطوراً كبيراً منذ الجاهلية حتى القرن الثاني إذ طرأت عليه عوامل مختلفة خاصة في الحجاز حولته عن صورته الجاهلية القديمة إلى صورة جديدة تتضح فيها التأثيرات الحضارية المختلفة . وقد سبق لنا أن بينا كيف اقتضت سياسة الأمويين إغداق العطاء والأموال على أهل الحجاز ، وكيف أدت سياسة عثمان إلى وجود طبقة أرستقراطية فيه جلبت إليه فنون اللهو والعبث والغناء مع البحار والرقائق الذين تدفقوا على الجزيرة ، وكيف أدت الحياة المترفة فيه إلى ازدهار فن التغزل ازدهاراً لم يعرفه الشعر العربي من قبل بحيث تغيرت صورة النسيب القديم تغيراً يكاد يكون تاماً . ويقول شوقي ضيف في ذلك إن الشاعر كان يقصد في القطعة التي يعالجها إلى تصوير حبه وما يلقي فيه من وصب وعذاب . وبذلك كان تغزله معنوياً أكثر من النسيب القديم . فالشاعر يعنى بمحاكاة خواطره ، وقلما عنى بوصف المرأة وصفاً حسياً^(١) .

ولم يكن هذا هو التغير الوحيد فحسب ، بل إن شعر التغزل بالذات قد خضع

(١) يقول ابن رشيق في العمدة (النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد . وأما الغزل فهو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن وليس بما ذكرته في شيء ؛ فن جعله بمعنى التغزل فقد اخطأ . وقد نبه على ذلك قدامة وأوضحه في كتابه نقد الشعر) [العمدة ٢ : ٤٩] .

وقد جاء في اللسان أن الغزل حديث الفتيان والفتيات أو اللهو مع النساء بينما التغزل التكلف لذلك ، وهذا هو المعنى المراد به فناً شريفاً .

(٢) الشعر الفنائي في الأمصار الإسلامية : ١١١ .

خضوعاً تاماً لتأثير الغناء الذي شاع في الحجاز في القرن الأول، والذي انتقل إلى العراق بعد ذلك في القرن الثاني ، ولهذا أصبحت موسيقى الشعر الجديد في التغزل أكثر لطفاً من موسيقى الشعر القديم لأن الشعراء أخذوا يرققون اللفظ ويختارون اللغة المألوفة التي تكاد تقترب من لغة الحياة اليومية . يضاف إلى ذلك اختفاء الأوزان القديمة المطولة من شعر التغزل ، وإقبال شعراء الحجاز على الأوزان الرشيقة القصيرة التي تصلح للغناء . يقول شوقي ضيف إن المغنين والمغنيات كانوا يضطرون مع ألدانهم أن يطيلوا ويمددوا في بعض حروف تفعيلات البيت ، وأن يقصروا أو يهمسوا في حروف أخرى من هذه التفعيلات فأحدثوا زخافات وعللا كثيرة في شعرهم ، واضطر الشعراء أن يقبلوا على الأوزان الخفيفة السهلة مثل الوافر والخفيف والرمل والمتقارب والهجج ، ويجزئوا الأوزان الطويلة المعقدة ، بل والأوزان السهلة البسيطة أيضاً^(١) .

ولعل شعر عمر بن أبي ربيعة يمثل لنا خير تمثيل فن التغزل الحجازي في القرن الأول من حيث معانيه وألفاظه وأوزانه ، وهو أول شاعر عربي يكتب ديواناً ضخماً في فن التغزل ، ويكاد يقصر نفسه عليه وهذه نتيجة طبيعية لحياة الترفه التي عاشها .

وما إن اندثر الشعر في الحجاز وأقمرت بيئته إلا من أصداء خافته متصنعة نجدها في مثل شعر ابن المولى الذي يتغزل فيقول :

وأبكي فلا لي بكَّتْ مِنْ صَبَابَةٍ إلى ولا ليلى لدى الودِّ تبدلُ
وأقنع بالعُتْبَى إذا كنتُ مَذْنِباً وإنْ أذْنِيتُ كنتُ الذي أتنصّلُ

وحين يُسأل عن ليلى هذه يجيب بأنها قوسه سماها ليلى^(٢) . حين اندثر هذا الشعر التغزلي في الحجاز انتقل إلى العراق مع الحياة المتحضرة الجديدة التي أغرقت جوانب المجتمع الإسلامي ، والتي لم تكن تساويها الحياة المترفة في الحجاز بكل ما فيها من ألوان اللهو والعبث . فالعراق قد تعرض لتأثير الحضارات الأجنبية المختلفة وسارت فيه عملية المزج والتوليد بين العرب والأجناس الأخرى بنحطى سريعة ،

(١) الشعر الفنائ في الأمصار الإسلامية : ١١٦ .

(٢) الأغاني ٣ : ٢٨٩ .

وانتقلت إليه — كما سبق أن ذكرنا — القوى الاقتصادية للدولة بانتقال طريق التجارة فتدفقت الثروة عليه من كل مكان ، وشاع الترف في أنحائه ، وعمر بالقصور الشاهقة والبساتين الفيحاء . كل ذلك جعل من العراق بيئة صالحة لتطور فن التغزل في القرن الثاني تطوراً يعتبر في الحقيقة امتداداً لما حدث في الحجاز في القرن الأول ، وإن كان قد فاقه بكثير في أكثر من ناحية ، كما ظهرت فيه اتجاهات جديدة شهدها القرن الثاني لأول مرة في تاريخ الشعر العربي .

وينبغي أن نذكر منذ البداية أن المرأة التي هي مدار شعر التغزل قد تغيرت في القرن الثاني كل التغير ، فهي في الغالب أمة فارسية أو رومية أو هندية أو غير ذلك من أجناس أولئك الإماء المنتشرات في أرجاء العالم الإسلامي ، وهي مكشوفة الوجه تخالط الرجال وتجلس إليهم وتغدو وتروح في غير تخرج ، هذا إن لم تكن متبدلة تعيش في بيت من بيوت القيان التي وصفنا حالها في فصل سابق .

أما المرأة قبل هذا القرن فكانت في الغالب عربية حرة مسترة في بيتها لا يفارق الحجاب وجهها ، ممنعة بين أهلها ، لا تكاد تخالط أحداً أو تجد الحرية في تصرفاتها .

وهذا الخلاف في الواقع له تأثير كبير على تطور شعر التغزل لأنه غير مقاييس الجمال عند الشعراء تغييراً واضحاً ، وكيف لا يحدث هذا التغير وهناك فارق كبير بين العربية والرومية أو الفارسية أو الهندية في الملامح واللون وفي القد وفي كل ما يميز المرأة ويحدد جمالها. كذلك كان له تأثير آخر أخطر من ذلك وهو ظهور التغزل الفاحش المتهتك الذي لا يرعى حرمة المرأة أو يصونها . وكيف لا يظهر هذا النوع من التغزل والحواري — كما نعلم — قد نبغن في الخلاعة وألوان المجون والمتهتك في هذا العصر .

وهناك تأثير ثالث لتبدل المرأة في شعر التغزل وهو ظهور التغزل بالمذكر ، وهذا النوع من التغزل يبدو أنه كان نتيجة طبيعية لظهور التغزل الإباحي المكشوف . ذلك أن الشعراء الذين أوغلوا في المجون والإقبال على الملذات الحسية المختلفة والشهوات الدنيا ، لم تعد تفتنهم الجارية المتهتكة الخليعة التي يستطيعون أن ينالوا منها كل ما يريدون في سهولة ويسر . ولم تعد ترضى شهوتهم ونزعاتهم الرضاء الكافي . لهذا

لجأوا إلى حيلة أخرى لإدراك غايات ملاذهم ، فلم يجلدوا بدءاً من هذا الشذوذ الجنسي على الرغم من سهولة إدراك المرأة في عصرهم .

ويمكننا أن نحصر أنواع التغزل الجديدة في القرن الثاني في أربعة أنواع : التغزل المعنوي ، التغزل الحسي الفاحش أو العايب ، التغزل بالمدح ، القصص الغزلي . أما النوع الأول فالمقصود به ذلك التغزل الذي لا يُشَرِّح جسم المحبوبة ويصف لنا كل جزء فيه ومقدار ما به من جمال . فذلك النوع من التغزل الحسي يشعر الإنسان بنهم صاحبه أو بأنه يحب مواضع معينة محسوسة من حبيبته ، وبذلك لا يرضى التزعة الفنية للشعر لأنه بعيد عن روح الفن ، مرتبط بالنوازع الحسية المادية فحسب . أما التغزل المعنوي فمداره شعور الحب نفسه وتأثيره في نفس المحب . ومدى ارتباطه به واندماجه معه ، وموقف الحبيبة من صاحبها في الصدا والوصال ، إلى ما سوى ذلك من النواحي المعنوية التي لا تتعرض لمواضع حسية في المحبوبة كما ذكرنا من قبل . ومما قاله الحسين بن الضحاك في هذا النوع من التغزل المعنوي :

إِنَّ مَنْ لَا أَرَى وَلَيْسَ يَرَانِي نَصَبَ عَيْنِي مِمَثْلٍ بِالْأَمَانِي
بِأَبِي مِنْ ضَمِيرُهُ وَضَمِيرِي أَبَدًا بِالْمَغِيبِ يَنْتَجِيانِ
نَحْنُ شَخْصَانِ إِنْ نَظَرْتُ م وَرُوحَانِ إِذَا مَا اخْتَبَرْتُ يَمْتَزِجَانِ^(١)
ومما ينبغي التنبيه له أننا لا نستطيع أن نقسم الشعراء المتغزلين في القرن الثاني بحسب تلك الأنواع التي ذكرناها ، لأننا كثيراً ما نجد الشاعر الواحد يكتب في عدة أنواع ولا يلتزم ناحية بعينها . فالحسين بن الضحاك مثلاً له في التغزل بالمدح ، كما له في التغزل المعنوي ، بل إن التغزل بالمدح أحياناً كان فيه تغزل معنوي وهذه الأبيات التي ذكرناها للحسين بن الضحاك ضمن قصيدة في التغزل بالمدح . وبشار له في التغزل الحسي الفاحش كما له في التغزل المعنوي أيضاً ، وهكذا .

وبجملة المعاني التي يخوض فيها شعراء التغزل المعنوي تدور حول صديق الحبيب في حبه ورغبته الشديدة في محبوبته ، وأنه يلقي العناء كل العناء في سبيل هذا الحب ، ومع ذلك يصبر لعل الأيام تنيله مطلوبه ، يقول مطيع بن إلياس في مثل هذه المعاني :

نازَعَنِي الحُبُّ مَدَى غَايَةِ بَلَيْتُ فِيهَا وَهُوَ عَضُّ جَلِيدِ
 لَوْ صُبَّ مَا بِالْقَلْبِ مِنْ حُبِّهَا عَلَى حَدِيدٍ ذَابَ مِنْهُ الْحَدِيدُ
 حُبِّي لَهَا صَافٍ وَوَدَى لَهَا مَحْضٌ وَإِسْقَامٌ عَلَيْهَا شَدِيدُ
 وَزَادَنِي صَبْرًا عَلَى جُهِدِهَا أَلْقَى وَقَلْبِي مُسْتَهَامٌ عَمِيدُ
 أَنِّي سَعِيدُ الْجَدِّ إِنْ نِلْتُهَا وَأَنَّى إِنْ مِتُّ مِتُّ شَهِيدُ^(١)

وكثيراً ما يرق الشعراء المتغزلون في هذا النوع المعنوي فيتوسلون بالحمام لإبلاغ سلامهم للحبيبة التي ألفت بسهم الحب في قلوبهم وتركهم صرعى عاجزين ، يقول ربيعة الرقي وهو من أشهر المتغزلين في القرن الثاني :

حَمَامَةٌ بَلَّغَى عَنِّي سَلَامًا حَبِيبًا لَا أَطِيقُ لَهُ كَلَامًا
 وَقَوْلِي لِلَّتِي غَضِبْتَ عَلَيْنَا عَلَامَ وَفِيمَ يَا سَكْنَى عَلَامَا
 لَقَدْ أَقْصَدْتَ حِينَ رَمَيْتِ قَلْبِي بِسَهْمِ الحُبِّ إِنْ لَهُ سِهَامَا
 زَجَرْتُ الْقَلْبَ عَنْكَ فَلَمْ يُطْعَنِي وَيَأْنِي فِي الْهُوَى إِلَّا اعْتِزَامَا
 إِذَا مَا قَلْتُ أَقْصَرُ وَاسْلُ عَنْهَا أَبَى مِنْ صَرْمِكُمْ إِلَّا انْهَزَامَا^(٢)

وقد يتذلل الشاعر ويتضرع لمحبوبته ويقر لها بأنه عبد خاضع ويسألها أن تعتقه .
ومن ذلك قول إبراهيم السواق :

أَلَمْ تَنْهَ نَفْسَكَ أَنْ تَعْشِقَا وَمَا أَنْتَ وَالْعِشْقَ لَوْلَا الشَّقَا
 أَمِنْ بَعْدِ شُرْبِكَ كَأْسِ النُّهَى وَشَمِّكَ رِيحَانَ أَهْلِ التُّنَى
 عَشِقْتَ فَأَصْبَحْتَ فِي الْعَاشِقِينَ أَشْهَرَ مِنْ فَرَسٍ أَبْلَقَا
 أَدْنِيَايَ مِنْ غَمْرِ بَحْرِ الْهُوَى خُذِي بِيَدِي قَبْلَ أَنْ أَغْرَقَا
 أَنَا لَكَ عَبْدٌ فَكُونِي كَمَنْ إِذَا سَرَّهُ عَبْدُهُ أَعْتَقَا^(٣)

أما بشار فهو يذكر حزن قلبه ووجيبه ويصف دموعه التي تنهل كلما ذكرت

(١) تاريخ بغداد ١٣ : ٢٢٦ .

(٢) طبقات ابن المعتز : ١٦٣ .

(٣) الكامل للبرد : ٢٥٠ .

أمامه حبيبته . ويذكر كآبته الدائمة وصمته في المجالس كأنه غريب يمزى دون
أن يشارك في الحديث . وما ذاك كله إلا لأنه يرى حبيبته ولا يستطيع لقاءها ، ولو تم
له هذا اللقاء لهدأت نفسه وبرئ قلبه من جراحه ، يقول :

لقد زادني ما تعلمين صباية	إليك فليلقلب الحزين وجيب
وما تذكرين الدهر إلا تهللت	لعيني من شوق إليك غروب
أبيت وعيني بالدموع رهينة	وأصبح صبا والفؤاد كتيب
إذا نطق القوم الجلوس فإني	أكب كائي من هوائك غريب
أرانا قريباً في الجوار ونلتقى	مراراً ولا نخلو وذاك عجب
ألا ليت شعري هل أزورك مرة	وليس علينا يا عبيد رقيب
فنشني فؤادينا من الشوق والهوى	فإن الذي يشني المحب حبيب ^(١)

وفي قصيدة أخرى يخاطب بشار قلبه ويستغرق القصيدة كلها في هذا الخطاب ،
وهو يستنكر في مطلعها خضوعه لحبيبته ويقول له :

عَدِمْتُكَ عاجلاً يا قلبُ قلباً أتجعل من هويت عليك رباً ؟
وهو يسأله غاضباً كيف يخضع لها دون أن يأخذ ثمناً لهذا الخضوع ، وكيف
يبيت مروءة كل ليلة من هذه الحسناء التي تشبه الريحانة ، ومع ذلك فهو باق
على حبه :

بأي مشورة وبأي رأي	تملكها ولا تسقيك عذبا
أمن ريحانة حسنت وطابت	تبيت مروءة وتظل صبا

ويذكر بشار قلبه بما يلقاه في حبه من عذاب ومع ذلك فهو لا يتحول عن
يحب وكأنه لا يجد حساء سواها ، وهو ينذره بأن بكاءه من الحب وهو لا يزال طفلاً
سوف يتحول عذاباً حين يتمكن منه هذا الحب ويكبر :

تروغ من الصحاب وتبغيتها	مع الوسواس منفرداً مكباً
-------------------------	--------------------------

كَأَنَّكَ لَا تَرَى حَسَنًا سِوَاهَا وَلَا تَلْقَى لَهَا فِي النَّاسِ ضَرْبًا
بَكَيْتَ مِنَ الْهَوَى وَهَوَاكَ طِفْلٌ فَوَيْلَكَ ثُمَّ وََيْلَكَ حِينَ شَبَا
ثُمَّ يَصِفُ سَهَادَ هَذَا الْقَلْبِ وَشَقَاءَهُ فِي حَبِّهِ وَكَيْفَ أَنَّهُ أَشْقَاهُ مَعَهُ وَيَطْلُبُ مِنْهُ
الْسلو عمن يحب ، يقول :

إِذَا أَصْبَحْتَ صَبَّحَكَ التَّصَابِي وَأَطْرَابُ نَصَبٍ عَلَيْكَ صَبَا
وَتُمْسِي وَالْمَسَاءُ عَلَيْكَ مُسْرٌ يَقْلُبُكَ الْهَوَى جَنْبًا فَجَنْبًا
أَتُظْهِرُ رَهْبَةً وَتُسِرُّ رَغْبًا لَقَدْ عَذُّ بَتْنِي رَغْبًا وَرَهْبًا
أَلَا يَا قَلْبُ هَلْ لَكَ فِي التَّعْزَى فَقَدْ عَذَّبْتَنِي وَلَقِيتَ حَسْبًا
وَمَا أَصْبَحْتَ تَأْمَلُ مِنْ صَدِيقٍ يَعْدُ عَلَيْكَ طَوْلَ الْحُبِّ ذَنْبًا^(١)

ومثل هذه القصيدة تعتبر جديدة في شعر التغزل إذ تظهر فيها ذاتية المحب كما أنه يكشف عن مشاعره ويحللها باستخدام وسيلة مبتكرة حقًا وهي مخاطبة قلبه حيث يكمن الحب ويعذبه . ولئن كان الأصفهاني قد ذكر أن عمر بن أبي ربيعة هو أول من خاطب القلب ، فإن بشاراً قد أربى عليه وقارب الغاية لأن خطابه للقلب لم يكن في بيت أو بيتين كما جاء في شعر عمر ، وإنما كان في قصيدة كاملة تقتصر على هذه المخاطبة وهذا التحليل الدقيق لمشاعر الحب المعنوي .

وكما سبق عمر بن أبي ربيعة بشاراً في مخاطبة قلبه سبقه أيضاً في كتابة تغزله في صورة رسالة غرامية ولكن طبيعة هذه الرسائل الغرامية أوضح عند بشار بما فيها من خطاب وتسليم ، وأما بعد ، وكل ما تتضمنه الرسائل الحقيقية ، ولدينا من هذا النوع مقطعتان لبشار يقول في إحداهما :

مِنَ الْمَشْهُورِ بِالْحُبِّ إِلَى قَاسِيَةِ الْقَلْبِ
سَلَامٌ لِلَّهِ ذِي الْعَ رَشٍ عَلَى وَجْهِكَ يَا حَبِي
فَأَمَّا بَعْدُ يَا قُرَّ ةَ عَيْنِي وَمُنَى قَلْبِي

ويا نَفْسِي التي تَسْكُنُ بـ مِنْ الْجَنْبِ وَالْجَنْبِ
لقد أنكرتُ يا عبدُ جَف ۞ مِنْكَ في الكُتُبِ^(١)

وفي شعر التغزل المعنوي ظاهرة أخرى جديرة بالاعتبار حقاً ، وهي اقتصار بعض الشعراء الذين غلب عليهم هذا النوع من التغزل على محبوبة واحدة يديرون حولها جميع شعرهم . ومثل هذه الظاهرة لم توجد في شعر التغزل في الحجاز في القرن الأول اللهم إلا في الشعر العذري ، وهذا الشعر الذي نحن بصددده في القرن الثاني ، وهو تغزل معنوي يدور حول حبيبة بعينها ، يتوجه الشاعر إليها بكل غزله ويجعلها محوراً لشعره ويكون حديثه في الغالب عفيفاً نقياً ، لا تسفل فيه ولا مجون يمكن أن يكون امتداداً طبيعياً للشعر العذري^(٢) . ومن هؤلاء الشعراء الذين نقصدهم على ابن آدم وكان تاجراً من أهل الكوفة يبيع البز ، وكان متأدباً صالح الشعر - كما يقول أبو الفرج الأصفهاني . وقد توجه بشعره كله إلى جارية كان يحبها اسمها منهلة . ويظهر أنها كانت ملك يمينه ثم اضطر أن يبيعها . وهنا استعلن حبه الدفين بصورة قوية حارة حتى إنه مات أسفاً على فراقها . ويذكر أبو الفرج أن قصة حب علي بن آدم ومنهلة كانت قصة شعبية يتناقلها الناس ، وأن أهل الكوفة قد ألفوا فيها كتاباً يروي دقائق قصة هذا الحب العنيف وما قاله علي بن آدم من أشعار في حبيبته ، وكان أكثر هذا الشعر أغنيات تتردد في المجالس ومن ذلك الشعر قوله :

صاحوا الرَّحِيلَ وَحَثْنِي صَحْبِي قَالُوا الرُّوَّاحَ فَطَيَّرُوا لُبِّي
وَاسْتَقْتُ شَوْقاً كَادَ يَقْتُلُنِي وَالنَّفْسُ مُشْرِفَةٌ عَلَى نَحْبِ
لَمْ يَلْقَ عِنْدَ الْبَيْنِ ذُو كَلْفٍ يَوْمًا كَمَا لَاقَيْتُ مِنْ كَرْبِ
لَا صَبَرَ لِي عِنْدَ الْفِرَاقِ عَلَى فَقَدِ الْحَبِيبِ وَلَوْعَةِ الْحُبِّ^(٣)

(١) ديوان بشار ١ : ٢٠٦ .

(٢) في إنباتنا وجود شعر عفيف غير شعر ابن الأحنف مخالفة صريحة لقول شوقي ضيف (. .) وبذلك أصبحنا نفتقد في هذا العصر الشاعر المفيف إلا ما كان من العباس بن الأحنف ، وهو يعد شذوذاً على ذوق العصر وذوق إمامته وشعرائه [انظر : الفن ومذاهبه في الشعر العربي الطبعة الرابعة ص ٦٤] .

(٣) الأغاني ١٤ : ٤٩ .

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً المؤمل بن جميل بن يحيى بن أبي حفصة وقد عاش في أيام المهدي ، وهو ابن عم مروان بن أبي حفصة . ويعرف المؤمل باسم قتيل الهوى فيما نخبرنا الخطيب البغدادي . ويبدو أنه استنفذ شعره في حبيبة واحدة — لا نعرف اسمها — كان يرى أن عشقها سوف يودي به ، ومن هنا جاءت تلك التسمية « قتيل الهوى » وما قاله في تغزله :

أَنَا مَيِّتٌ مِنْ جَوَى الْحُبِّ بٌ فَيَا طَيْبَ مَعَانِي
 أَنْ مَوْتِي يَا ثِقَاتِي فَاحْضَرُوا الْيَوْمَ وَفَاتِي
 ثُمَّ قُولُوا عِنْدَ قَبْرِي يَا قَتِيلَ الْغَانِيَاتِ^(١)

وما نلاحظه على هؤلاء الشعراء الغزلين أنهم في الغالب لم يتجهوا إلى أى غرض آخر من أغراض الشعر ، بل اقتصروا على الغزل ، فلم يهتموا بالصراع السياسي أو المذهبي الذي كان دائراً في عصرهم . ولم يتجهوا بشعرهم إلى الخليفة أو غيره لمدحه ونيل عطاياه ، فقد شغلهم الحب عن كل ذلك . ولهذا يقول أبو الفرج عن عكاشة بن عبد الصمد : (شاعر مقل من شعراء الدولة العباسية ليس ممن شهر وشاع شعره في أيدي الناس ولا ممن خدم الخلفاء ومدحهم)^(٢) . والسبب في هذا أن هؤلاء الشعراء كانوا يعبرون عن أحاسيسهم ومشاعر قلوبهم في صدق ولا يتكلفون لذلك ، ولا يبغون من وراء شعرهم نفعاً مادياً اللهم إلا التنفيس عن حبيهم وعواطفهم الجياشة . ولهذا انزوى أكثرهم بعيداً عن الشهرة ولم يهتم أحد بجمع شعرهم ورواية أخبارهم ودراستهم . وعكاشة هذا قال أكثر شعره في جارية كان يهواها اسمها « نُعَيْم » ومن شعره فيها الذي تنضح منه لهفته ووجده ، والذي ترعى في أبياته نار الحب كما تتمثل في تكراره لكلمة نعيم وكأنه يجد لذة في مناداتها وترديد اسمها ، قوله :

أُنَعِّمُ حُبُّكَ سَلَّيَ وَبَرَانِي وَإِلَى الْأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ دَعَانِي
 أُنَعِّمُ لَوْ تَجْدِينَ وَجْدِي وَالَّذِي أَلْتِي بِكَيْتٍ مِنَ الَّذِي أَبْكَانِي
 أُنَعِّمُ سَيِّدَتِي عَلَيْكَ تَقَطَّعَتْ نَفْسِي مِنَ الْحَسَرَاتِ وَالْأَحْزَانِ

(١) تاريخ بغداد ١٣ : ١٨٠ .

(٢) الأغاني ٣ : ٢٥٨ .

أنعيمُ قد رَحِمَ الهوى قلبي وقد بكتِ الثَّيابُ أَسَى على جُثمانِي
 أنعيمُ وانحدرتُ مدايحُ مقلتي حتى رحمت لرحمتي إخواني
 أنعيمُ مثلكَ الهيامُ لمقلتي فكأنني ألقاك كلَّ مكانٍ ..

ويبدو أن نعيم هذه كانت جارية مغنية لأن الشاعر بعد أن استعطفها في
 الأبيات السابقة ووصف لها ما يلقاه في حبها من وجد وضنى ، وصف لنا كيف تعلق
 فؤاده بها عن طريق فيها الحميل فقال :

تُنسى الحكيمَ مِنَ الرجالِ معادَهُ بينَ الغِناءِ وعُودِها الحَنانِ
 حتى يعود كأن حَبَّةَ قلبه مشدودةً بِمِثَالِ ومثاني
 ظَلَّتْ تُغْنِي وتُعطف كَفَّها بالعودِ بين الراح والريحِ انِ
 فسمعتُ ما أبكى وأضحك سامِعاً وسكرت مِن طَرَبٍ ومن أشجانِ
 ومشيتُ في لُجَجِ الهوى مُتَبَخِّراً ومشي إلى اللّهُ في الأَلوانِ^(١)

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً الذين قصروا شعرهم الغزلي - وأحياناً شعرهم كله -
 على حبيبة واحدة ابن رهيمة المدني وكانت حبيبته اسمها زينب لذلك سمي الرواة
 قصائده بـ (الزيانب)^(٢) وشعره فيها بلغ حدّاً كبيراً من الخفة والرشاقة والركة ،
 ولذلك كان أكثره يغنى ، ومن قوله :

أَقْصَدْتُ زَيْنَبُ قلبي وَسَبَّتُ عَقْلِي وَلَبَّيْ
 تَرَكَتَنِي مُسْتَهَاماً أَسْتَغِيثُ اللهَ رَبِّي
 ليس لي ذَنْبٌ إِلَيْهَا فَتَجَازِينِي بِذَنْبِي
 وَلَهَا عِنْدِي ذُنُوبٌ فِي تَنَائِيهَا وَقُرْبِي^(٣)

ولعل أشهر هؤلاء الشعراء المتخصصين في محبوبة واحدة يتغزلون فيها تغزلاً معنوياً
 فيه عفة ورقة العباس بن الأحنف ، ومثله مثل الشعراء الذين ذكرناهم فهو (لم يكن

(١) الأغاني ٣ : ٢٦٦ .

(٢) الأغاني ٤ : ٤٠٢ - ٤٠٤ .

(٣) المصدر نفسه ٤ : ٤٠٢ .

يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني (١) والذي يقرأ ديوان العباس يدرك جيداً أنه لم يقل شعراً إلا في حبيبة واحدة هي (فوز) أما (ظلوم) و (ذلفاء) اللتان ذكرهما مرة أو مرتين في ديوانه فهما صفتان في الغالب أطلقهما على محبوبته .

وفي شعر الأحنف يتضح ما قلناه عن عفة أولئك الشعراء الذين قصرُوا شعرهم على التغزل بمحبوبة واحدة ويتضح لنا عفته في قوله :

وما بيننا من ربيبة غير أننا ولا مثلها يوماً يُسَىءُ إلى مثلى
ولاني لأرعى حقَّ فوزٍ وأتقى عليها عُيونَ الكاشحين ذوى المثل
ولاني وإياها كما شَفْنَا الهوى لأهل حِفَاطٍ لا يُدَنِّسُ بالجهل (٢)

وواضح أيضاً أن العباس كان يعيش بحبه وله ، فهو يقول :

كان لي قلبٌ أعيشُ بهِ فاضطلي بالحُبِّ فاحترقاً (٣)
ويقول أيضاً :

أحرمُ منكم بما أقولُ وقد نالَ به العاشقونَ منَ عشقوا
صِرْتُ كَأَنِّي ذُبَالَةٌ نُصِبْتُ نُضِيٌّ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ (٤)

ويعصور العباس مدى شعوره بالضيقة في حبه في ذلك البيت الصادق العميق :

أباح حِمَى قَلْبِي الهوى فَأَذَلَّهُ أَلَا لَيْتَ لَمْ أَخْلُقْ وَلَمْ يُخْلَقِ الحُبُّ (٥)

وقد صدق زكي مبارك في ملاحظته أن العباس بن الأحنف قد وقف عند غزل المؤنث حين كان النسيب يفيض بالكلام عن الغلمان (٦) . والحقيقة إن العباس لم يكن وحده في هذا وإنما جميع من ذكرنا من الشعراء الذين اقتصرُوا على حبيبة

(١) الأغاني ٨ : ٣٥٢ .

(٢) ديوان العباس بن الأحنف : ١١٩ .

(٣) المصدر نفسه : ١٠٩ .

(٤) ديوان العباس : ١١١ .

(٥) المصدر نفسه : ١٨ .

(٦) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) : العباس بن الأحنف .

واحدة يتغزلون فيها ، كانت العفة طابع شعرهم كما سبق أن بينا . ومع العفة تجنب التغزل بالمذكر بطبيعة الحال .

ويرى بلاشير أن العباس كان يتتبع خطوات شعراء الحجاز الغزلين وبخاصة جميل بثينة والأحوص والعرجي ونحن لا نستبعد وجود هذا التأثير عند هذه المجموعة من شعراء القرن الثاني الذين قصروا شعرهم على التغزل وفي محبوبة واحدة فقط ، ولكن هناك فوارق واضحة بين متغزلي الحجاز والمتغزلين في القرن الثاني من ناحية لغة شعرهم وتطور الصورة الشعرية بتأثير الحضارة الجديدة ، وتطور الثقافة بوجه عام ، ومن ناحية تغير الألفاظ والأوزان بصورة عامة خضوعاً لمقتضيات الغناء الذي انتشر انتشاراً واسعاً أكثر مما أتيح له في القرن الأول بحيث نجد أغلب ديوان العباس بن الأحنف مثلاً عبارة عن مقطعات صغيرة لا يتجاوز بعضها بيتين فحسب . وبلاشير يخطئ في فهم طبيعة القرن الثاني حين يتساءل إذا كان شعر العباس نابعاً عن عاطفة صادقة أم مجرد تقليد . وقد بنى سؤاله على ملاحظته أن شعر العباس لا يتضمن حبا مثالياً في مجموعته بل نجده يتحدث أحياناً عن حب القيان^(١) . والحب المثالي لا يتنافى إطلاقاً مع حب القيان لأنهن كما سبق أن ذكرنا كن مدار التغزل في القرن الثاني ، وليس من الغريب أن تكون « فوز » محبوبة العباس إحدى هؤلاء القيان . فلماذا لا يكون حب العباس لها مثالياً مع أنه يقتصر عليها ولا يتعداها إلى غيرها كما نجد عند بشار مثلاً ؟ وفي هذا التغزل المعنوي يخطر لنا نوع آخر من الحب يعرف عند الصوفية بالعشق الإلهي فتساءل : هل عرف هذا النوع من الحب في القرن الثاني ؟ إن ماسينيون يرى أن هذا القرن شهد خلافاً اصطلاحياً حول هذا الحب ، هل يسمى محبة أو عشقاً . ويقول في ذلك : (كان عبد الواحد ابن زيد يرى أن كلمة (عشق) هي الوحيدة المعترف بها في التحدث عن الله ، وكان يرفض كلمة (محبة) على أساس أنها أثر لا يليق من آثار اليهود والمسيحية ، مؤمناً كل الإيمان بالعشق الإلهي ، أما مالك بن دينار ومضر القاري وذو النون المصري فيقترحون اللفظ (شوق) . بيد أن كلمة (حب) التي اختارها أبان بن أبي عياش ويزيد الرقاشي وجعفر الصادق ورابعة هي التي انتهت بالظفر والسيادة

يفضل معروف الكرخي والمحاسبي (١) .

ويرفض عبد الرحمن بدوي أن يكون هذا الرأي المنسوب إلى عبد الواحد بن زيد صحيحاً مستنداً إلى قول صاحب (جامع الأصول) : « ولا يوصف العبد بالعشق لله تعالى لأن العشق مجاوزة الحد في المحبة ، ولا يجاوز أحد في محبة الله تعالى قدر استحقاقه ، بل لا يبلغ إلى ذلك القدر ، ولو اجتمعت محبة الخلق كلهم » . واستناداً إلى ذلك أيضاً يرى عبد الرحمن بدوي أن أحداً لم يتكلم في الحب (أو المحبة) الإلهي قبل رابعة العدوية وأنها هي أول من أدخلت هذا المعنى في التصوف الإسلامي بالمعنى الحقيقي الكامل للحب ، لا مجرد التعبير بالفاظ عنه تعبيراً ظاهرياً (٢) .

والآيات التي تنسب إلى رابعة في هذا الحب قد ذكرناها من قبل عند الحديث عن الزهد ، وهي قولها :

أَحِبُّكَ حُبِّينِ : حُبُّ الْهَوَى	وَحُبًّا لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِيَاكَا
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْهَوَى	فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ	فَكَشْفُكَ لِلْحُجُبِ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي	وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ

وقد جمع عبد الرحمن بدوي أكثر تفسيرات الصوفية في هذين النوعين من الحب اللذين تذكرهما رابعة ، وقد جاء في بعض هذه التفسيرات أن حب الهوى هو الصادر عن طريق النعم والإحسان أي الحب الناشئ عن المنح والهبات والأفضال ، فهو حب التمتع بأنعم الله ، فهو إذن حب حسي لأن المقصود بالنعم هنا النعم المادية لا الهبات القدسية . أما الحب الذي هو أهل له فهو حب التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذي الجلال أي الحب الذي لم يكن باعثة نعمة ولا مدخل فيه للمتعة الحسية ، بل باعثة المحبوب نفسه لذاته وبذاته (٣) .

وسواء أصحت هذه الآيات المنسوبة إلى رابعة العدوية أم لم تصح فإنها تعد بداية وأولية لموضوع العشق الإلهي الذي نأتمنح فيما بعد على يد الحلاج ومن جاء

(١) انظر : شهيدة العشق الإلهي : ٦٠ .

(٢) انظر : شهيدة العشق الإلهي : ٦٦ ، ٦٧ .

(٣) انظر : المصدر نفسه : ٦١ .

بعده من المتصوفة وخاصة ابن الفارض . ولكننا مع ذلك نشير — إن صحّت نسبة الأبيات — إلى أن القرن الثاني قد شهد بداية تحول في التغزل المعنوي إلى ناحية سامية علوية لم تكن موجودة من قبل لا في شعر العذريين ولا عند غيرهم . وهذا يكشف لنا أيضاً ذلك التناقض الذي كان موجوداً في اتجاهات شعر هذا القرن ما بين زندقة وزهد ، ومجون وتصوف ، وحب فاحش وعشق ذكور ، يقابله حب عفيف بل حب إلهي أيضاً .

وإذا تركنا التغزل المعنوي إلى التغزل الحسي وجدنا أن القرن الثاني تميز بنوع عابث ماجن يصل أحياناً إلى حد الإفحاش . وهذا التغزل الحسي إذا كانت بذوره قد وجدت عند امرئ القيس في العصر الجاهلي وعمر بن أبي ربيعة في القرن الأول ، فإنه قد بلغ في القرن الثاني درجة التهلك والعهر مع الانتشار الواسع بسبب التأثيرات الاجتماعية القوية وشيوع المجنون والحلاعة بين الطبقات المختلفة . والشاعر في هذا التغزل الحسي يذكر من الحببية كل ما يشتهي منها ويصف ما كان بينه وبينها أو ما يود أن يكون بينهما من صلة حسية ، ويكون محور شعره في الغالب تلك الرغبة الجنسية العارمة التي تتأجج في كيانه . ويتراوح هذا النوع من الشعر بين العبث الماجن والإفحاش الحبيث . ومن التغزل العابث قول محمد بن أمية بن أبي أمية :

أَيَا كَثِيرَ الْعِلَلِ وَيَا قَلِيلَ الشَّغْلِ
وَيَا لَذِيذَ الْقُبَلِ وَيَا عَظِيمَ الْكَفَلِ
سُرْعَةَ هَذَا خُنْتَنِي فَأَيْنَ أَيْمَانُكَ لِي
تُوَيْسُنِي مُجْتَهِدًا مِنْكَ وَيَا أَمَلِي (١)

ويشتد هذا العبث ويجنح إلى التصريح بالرغبة في المحبوبة كما في قول الخاركي :

قُلْتُ يَوْمًا لَهَا وَحَرِّكَ مَتَالْعُودَ بِمَضْرَابِهَا فَغَنَّتْ وَغَنِّي
لَيْتَنِي كُنْتُ ظَهَرَ عُودِكَ يَوْمًا فَإِذَا مَا احْتَضَنْتَنِي كُنْتُ بَطْنًا
فَبَكَتْ ثُمَّ أَعْرَضَتْ ثُمَّ قَالَتْ مَنْ هَذَا أَنَاكَ فِي النَّوْمِ عَذًّا
قُلْتُ لَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْهَا بَايَ مَا عَلَيْكَ أَنْ أَتَمْنَى (٢)

وكما في قول أبي نواس وهو أكثر تصريحاً حين يخاطب حبيبته :

إِنِّي رَأَيْتُكَ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّمَا أُرْوِيْتَنِي مِنْ رِيْقٍ فِيكَ الْبَارِدِ
وَكَأَنَّ كَفَّكَ فِي يَدِي وَكَأَنَّمَا بَيْنَا جَمِيعاً فِي فِرَاشٍ وَاحِدِ
ثُمَّ انْتَبَهْتُ وَمِعْصَمَاكِ كِلَاهِمَا بِيَدِي الْيَمِينِ وَفِي شِمَالِكَ سَاعِدِي^(١)

ومن الشعراء الذين نجد لهم شعراً في التغزل الحسي مسلم بن الوليد الذي نجد فيه أحياناً شيئاً من روح عمر بن أبي ربيعة ، ومع ذلك فمسلم لا يفحش في تغزله ، فهو يقول في إحدى قصائده :

نَهَانِي عَنْهَا حُبُّهَا أَنْ أُسَوِّرَهَا بِلَمْسٍ فَلَمْ أَفْتِكْ وَلَمْ أَتَبَتَّلِ
أَخَذْتُ لِطَرْفِ الْعَيْنِ مِنْهَا نَصِييَةً وَأَخْلَيْتُ مِنْ كَفِّي مَكَانَ الْمُخَلَّخَلِ
سَقَتْنِي بِعَيْنَيْهَا الْهَوَى وَسَقَيْتُهَا فِدْبٌ دَبِيبُ الرَّاحِ فِي كُلِّ مِفْصَلِ^(٢)

ولعل زعيم التغزل الحسي الفاحش في القرن الثاني هو بشار ، ونستطيع أن نتمثل خطورة تغزله في منع المهدي له وتحريمه عليه ، ويرى محمد جابر عبد العال أن بشاراً كان يتبع الغلاة والروافض من الشيعة الذين يستبيحون كل المحرمات وأنه اتخذ الغزل مطية لدعوته إلى إباحة اللذة ، وذلك بتحريض الشباب ألا يعبأوا بتقاليد أو أوضاع دينية في سبيل الفوز باللذة ، ولهذا حاربت الدولة تغزله لأنه كان يحمل في طياته الإثم والتحريض على الإباحية^(٣) .

وعلى الرغم من إيماننا بفحش تغزل بشار وتضمنه نوعاً من الإباحية إلا أننا نستبعد أن يكون هذا الفحش مقصوداً لذاته لإفساد المجتمع الإسلامي وتحريض الشباب على الفسق والفجور . ولماذا يكون بشار وحده صاحب مذهب في التغزل الحسي الفاحش ولا يكون غيره من الشعراء ، إننا نعتقد أن تيار التغزل الفاحش كان قوياً في القرن الثاني خضوعاً لتأثيرات اجتماعية متعددة ، وأن هذا التيار قد اجتذب إليه عدداً من الشعراء ممن وجد فيهم استعداداً طبيعياً لتقبله .

(١) ديوان أبي نواس : ٤٣ .

(٢) ديوان مسلم بن الوليد : ١٤٢ .

(٣) حركات الشيعة المتطرفين : ٢٤٢ .

ولعل خير ما يمثل لنا هذه النزعة الحسية الفاحشة عند بشار قصيدته الرائية التي يصف فيها تغريره بفتاة صغيرة وحيرتها فيما تتعلل به لأهلها حينما يرون في جسدها آثار فتكه بها ، يقول في هذه القصيدة :

حَسْبِي وَحَسْبُ الَّتِي كَلِفْتُ بِهَا	مِنِّي وَمِنْهَا الْحَدِيثُ وَالنُّظَرُ
أَوْ قُبْلَةً فِي خِلَالِ ذَاكَ وَلَا	بَأْسَ إِذَا لَمْ تُحْلَلِ الْأَزْرُ
أَوْ لِمُسْ مَاتَحْتَ مِرْطَهَا بِيَدِي	وَالْبَابُ قَدْ حَالَ دُونَهُ السُّتُرُ
وَالسَّاقُ بَرَّاقَةٌ خَالِجِلُهَا	وَالصُّوْتُ عَالٍ فَقَدْ عَلَا الْبَهْرُ
وَاسْتَرْخَتْ الْكَفُّ لِلْغِزَالِ وَقَا	لَتِ الْهَ عَتَى وَالْدَّمْعُ مَنْحَدِيرُ
أَذْهَبَ فَمَا أَنْتِ كَالَّذِي ذَكَرَ	رَوَا : أَنْتِ وَرَبِّي مُعَارِكُ أَشْرُ
وَوَغَابَتْ الْيَوْمَ عَنْكَ حَاضِنَتِي	فَاللَّهُ لِي الْيَوْمَ مِنْكَ مُنْتَصِرُ
يَا رَبِّ خُذْ لِي فَقَدْ تَرَى ضَعْفِي	مِنْ فَاسِقِ الْكَفِّ مَا لَهُ شَكْرُ
أَهْوَى إِلَى مِعْضَدِي فَرَضَضَهُ	ذُو قُوَّةٍ مَا يُطَاقُ مُقْتَدِرُ
يُلْصِقُ بِي لِحْيَةً لَهُ نَحْشَنْتُ	ذَاتِ سَوَادٍ كَأَنَّهَا الْإِبْرُ
حَتَّى اقْتَهَرَنِي وَإِخْوَتِي غَيْبُ	وَيَلِي عَلَيْهِمْ لَوْ أَنَّهُمْ حَضَرُوا ^(١)

وواضح من هذه القصيدة أن التغزل الحسي الفاحش قد لا يكون وصفاً حسيّاً مباشراً للمحبوبة ، ولكن من الجائز أن يصف فعلاً محسوساً وقع بين شاعر وصاحبته كما في هذه القصيدة . ويبدو أن بشاراً كان مغرماً بهذا النوع من الشعر الذي يصف فيه غرامه الحسي الفاحش ونهمه الشهواني للمرأة ، مما دفع الخليفة المهدي - كما ذكرنا - إلى تحريم هذا النوع من الشعر حفظاً للآداب العامة ورعاية لأخلاق الشبان والشابات الذين كانوا يتلهفون إلى سماع مثل هذه القصائد التي تكشف لهم أسرار الجنس ومغامراته ، تماماً كما يفعل الشباب في عصرنا الحاضر بالنسبة للكتب أو المجلات أو الصور الفاضحة التي يتداولونها سرّاً فيما بينهم .

ودليلنا على ما نقول عن نوع تغزل بشار أبياته التي يشير فيها إلى منع المهدي

لتغزله الذى يفهم أنه الحسى الفاحش وهى التى يقول فيها :

وغيرى يقال الرَّدْفِ هَبَّتْ تَلومنى ولو شهدت قَبْرِى لَصَلَّتْ على قَبْرِى
تركت لِمَهْدَى الصَّلَاةِ رُضَابَهَا وراعىتُ عَهْدًا بَيْنَنَا لَيْسَ بِالْخَتَرِ
وَكُنْتُ إِذَا اعْتَلَّتْ عَلَى قَرِينَةٍ ملأتُ بِأُخْرَى غَادَةً لَدُنَّ حِجْرِى^(١)
ومع شهرة بشار فى التغزل الحسى الفاحش فإننا نجد له تغزلاً حسيّاً عادياً ،
وتغزلاً معنويّاً أيضاً ، ذلك أن بشاراً قد ترك لنا ديواناً ضخماً فى التغزل متعدد المنازع
والألوان غزير المعانى ، متنوع الأسلوب بعضه يجرى على النهج القديم ، وبعضه
الآخر جديد فى وزنه وألفاظه وصياغته . وقد قدمنا من هذا الجديد ألواناً مختلفة .
وتغزل بشار ليس كله رقيقاً جميلاً ، بل إننا نجد فيه السخيف أيضاً ، ومن ذلك
قوله :

أَشْتَهَى أَنْ أَدَسَّ قَبْلَكَ فى مِ الثُّرْبِ لِكى تُصْبِحَ بِنَا كَالْمُصَابَةِ^(٢)
أو قوله :

هِيَ الرُّوحُ مِنْ نَفْسِي وَلِلْمَعِينِ قُرَّةٌ فِدَاءُ لَهَا نَفْسِي وَعَيْنِي وَحَاجِبِي^(٣)
وبشار فى تغزله يذكر أسماء كثيرات من نساء البصرة فى عهده ، فحبائبه
عديدات بصورة ظاهرة ، لأن العلاقة بينه وبينهن ليست علاقة حب بقدر ما هى
صلة عابرة أو نزوة طارئة . ومع ذلك فقد كانت « عبدة » مداراً لقصائد كثيرة
فى ديوانه .

وعلى الرغم من تعدد أنواع التغزل فى ديوان بشار إلا أنه يخلو من ذلك النوع
الجديد الذى ابتلى به القرن الثانى وهو التغزل بالمدكر . بل إن بشاراً يهجو حماد
عجراً لشغفه بالغلما ن إذ يقول :

يَا وَيْحَ حَمَادِ أَمِنْ نَظْرَةٍ رَاحَ أُسِيرًا غَيْرَ مَجْدُوبِ
لِلَّهِ مَا رَانَ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ سَاحِرِ الْمُقْلَةِ مَشْبُوبِ

(١) ديوان بشار ٣ : ٢٧٨ .

(٢) ديوان بشار ١ : ١٩٣ .

(٣) المصدر نفسه ١ : ٢٠٤ .

كَأَنَّهُ هَارُوتُ يَوْمَ اغْتَدَى يُدِيرُ عَيْنِيهِ بِتَقْلِيْبِ
أَغْنَى أَحْوَى لَانِ فِي رِقَّةٍ يَخْتَالُ فِي الْخَزْرِ فِي الطَّبِيبِ
بَدَا لِحِمَادٍ فَأَبْدَى لَهُ شُغْلًا عَنِ الدَّرِيَاقِ وَالْكُوبِ^(١)

وحب الجنس أو ما يسميه علماء النفس Homosexuality انحراف شاع في القرن الثاني لأسباب اجتماعية قوية التأثير . وقد ذكرنا من قبل أن وفرة الجوارى في هذا العصر وشيوع التهلك والحلاعة بيهن وتيسر الحصول عليهن بأهون سبيل ، كل ذلك دفع بعض الرجال إلى الزهد في المرأة ومحاولة اقتناص اللذة من سبيل آخر يرضى شهواتهم التي توجبها مظاهر الترف والفراغ ووفرة الثراء في مجتمعهم ، يضاف إلى ذلك أن مجالس الشراب التي شاعت في مختلف الطبقات كان سقاتها من فتيان الفرس والروم الذين دربوا على هذا العمل خير تدريب ، وكانوا على جانب كبير من الجمال والحلاعة في الوقت ذاته . وحينما كانت الحمر تسور في رؤوس الشاربين كانوا يتغزلون في أولئك السقاة ويمحشونهم ويحاولون مواصلتهم بأي سبيل ، ولهذا نجد كثيراً من شعر الغزل بالمدح يدور حول هؤلاء السقاة . يقول أبو نواس مثلاً :

يَسْعَى بِهَا خَنْثٌ فِي خُلُقِهِ دَمَثٌ يَسْنَأُ ثَرَايِي فِي مُتَدَرَجِ الرَّائِي
مُقَرَّطٌ . وَافِرٌ الْأَرْدَافِ ذُو غَنْجٍ كَأَنَّ فِي رَاحَتِيهِ وَشَمٌ حِنَاءِ
قَدْ كَسَرَ الشَّعْرَ وَأَوَاتٍ وَنَضَّدَهُ فَوْقَ الْجَبِينِ وَرَدَّ الصَّدْعَ بِالْفَاءِ

ومن الملاحظ دائماً أن هذا الشذوذ الجنسي يشيع في المجتمعات التي تبلغ قمة التحضر والرفاهية . وقد ذكر النويهي أن بعض الكتاب الأوروبيين لم ينظر إلى حب الغلمان على أنه انحراف أو شذوذ ولكنه علامة على نوع من التحضر والرفق . وذكر أن أندريه جيد وضع كتابه Corydon للدفاع عن حب الغلمان ، وهو يتنى فيه أن هذا الحب شذوذ أو التواء ويحاول أن يثبت أنه حب جميل نبيل مليء بالعواطف الرائعة وآيات المروءة والتبلى والتضحية وإنكار الذات في سبيل الغلام المحبوب ، وينفى أنه يذيع في فترات الانحطاط ويدعى أنه ينتشر في أوج ازدهار الحضارة كما حدث

(١) ديوان بشار ١ : ٣٦٩ . والمجنوب الذي يسير إلى جانب الفرس ، والمراد هنا أن حماداً

بين الإغريق زمن بركليس ، والرومان زمن أوغسطس ، والإنجليز زمن شكسبير ، والإيطاليين زمن النهضة ، والفرنسيين زمن النهضة أيضاً ثم في حكم لويس الثالث عشر. وفي هذه العصور الراقية كان حب الغلمان علناً ومقبولاً قبولاً رسمياً. ويحاول النوبي أن يطابق بين هذا الكلام وبين ما جاء في شعر التغزل بالمدكر عند العرب ، فيقول إن أبا نواس حاول بالفعل أن يبرر شذوذه بأنه شيء جميل مهذب متحضر أنتجته الحضارة العباسية الراقية ولم يكن يعرفه العرب الجاهلاء وذلك في قصيدته :

دَعِ الرَّسْمَ الَّذِي دَثَرَا يُقَاسِ الرِّيحَ وَالْمَطَرَا ^(١)
فهو يقول فيها :

أَمَّا وَاللَّهِ لَا أَشْرًا حَلَفْتُ بِهِ وَلَا بَطَرَا
لَوْ أَنَّ مُرْقَشًا حَيٌّ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ ذَكَرَا

ويجملو لنا صورة ذلك الفتى المعشوق فإذا به فتى ناعم جميل لم يخرج بعد من حجر حواضنه وقد خططن له طرة على جبينه وعطرته ، يقول فيه :

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعُ نَ مِنْ أَزْرَارِهِ قَمَرَا
وَمَرٌّ يُرِيدُ دِيْوَانَ الْخَ رَاجَ مُضْمَخًا عَطِرَا
بِوَجْهِ سَابِرِي لَوْ تَصَوَّبَ مَاوُهُ قَطَرَا
وَقَدْ خَطَّتْ حَوَاضِنُهُ لَهُ مِنْ عَنَبِرٍ طُرَا
بِعَيْنٍ خَالِطِ التَّفْنِيرِ فِي أَجْفَانِهَا حَوَرَا
يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتُهُ نَظَرَا ^(٢)

وأبو نواس في هذه القصيدة لا يبرر عشق الغلمان بأنه نوع من التحضر كما ذهب أندريه جيد وكما يحاول النوبي أن يقنعنا ولكنه يقارن بين حياة العرب الخافية الغليظة والحياة المتحضرة الرقيقة التي أنتجتها الحضارة الفارسية ويقول إن مرقشاً الذي أحب أعرابية جلفة لو رأى غلاماً في ظل تلك الحضارة الجديدة منعماً معطراً

(١) انظر : نفسية أبي نواس : ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) ديوان أبي نواس : ١٣٦ .

لعشقه وفضله على حبيته الأعرابية . وكيف يمكن أن يكون ما قاله أندريه جيد صحيحاً وهو مبني على المغالطة الصريحة . إن هذا النوع من الشذوذ ينشأ فعلاً في العصور التي تبلغ فيها الحضارة ذروتها، ولكنه لا يمثل قمة التحضر وإنما يمثل قمة الفساد المادي في هذه الحضارة وبداية السقوط والانحدار .

وقد انساق النويهي وراء فكرته وما يقوله علماء النفس فركز دراسته على أبي نواس دون غيره من شعراء عصره الذين عرف عنهم هذا الشذوذ أيضاً، لهذا نسب شذوذ أبي نواس إلى اضطراب جسماني في طبيعة تكوينه ، وإلى تربية أمه له دون وجود أبيه قدوة الذكورة ، بالإضافة إلى ظروف العصر نفسه^(١) .

ومثل هذا الاتجاه إلى الدراسة النفسية نجده عند العقاد أيضاً إذ يخصص شذوذ أبي نواس بالترجسية وهو شذوذ دقيق يؤدي إلى ضروب شتى من الشذوذ في غرائز الجنس وبواعث الأخلاق . وهذه النزعة منسوبة إلى نرجس وكان فتى من فتيان الأساطير اليونانية بارع الحسن فعشق نفسه . ويرى العقاد أن أبا نواس كان من الشواذ في تكوينه الجنسي ودوافعه النفسية ، ولكن شذوذه غير الشذوذ الذي اشتهر به وهو الإشارة الذكوران على الإناث ، فغرام أبي نواس بالجنسين وانحرافه مع بني جنسه فاعلاً ومنفعلاً أمر لا يفسره إيثار الذكوران على الإناث ، ولكن الترجسية تفسره كل التفسير^(٢) .

ونحن لا نرى أن أبا نواس كان معجباً بنفسه كنرجس ، وليس له شعر يصور تلك النزعة . ثم إنه لم يكن وحده في القرن الثاني فاعلاً ومنفعلاً ، بل إن جميع الما جنين والشواذ من الشعراء وغير الشعراء وخاصة عصابة المجان كانوا على هذه الشاكلة ، كما كان أغلبهم من عشاق النساء أيضاً كالحسين بن الضحاك وحماد عجرد ومطيع ابن إلياس وغيرهم . فلماذا إذن لا نصف هؤلاء الشعراء بالترجسية أيضاً لتفسير شذوذهم ؟

ويضيف محمد بديع شريف إلى أسباب انتشار التغزل بالذكر في القرن الثاني سبباً آخر إذ يجعله أثراً مباشراً لانتشار المانوية في هذا العصر ، وهو يؤكد قوله

(١) نفسية أبي نواس : ٩٣ .

(٢) أبو نواس للعقاد : ٥٧ .

بما ذكره البيروني عند حديثه عن المانوية من أن كل مانوي كان يصطحب معه غلاماً أمرد ويستخدمه في شؤنه^(١)

وسواء صح هذا أم لم يصح فإن هذه الآفة قد انتشرت في المجتمع الإسلامي في القرن الثاني انتشاراً واسعاً ظهر صدها في الشعر بطبيعة الحال ، حتى إن هذا اللون الشاذ من التغزل أصبح نوعاً جديداً في تاريخ الشعر العربي .

وكان ظهور الغلاميات أيام الأمين فيما يؤول الرواة — وهن فتيات في زى غلمان — جمعاً لنوعين من الشهوة أقبل على وصفه الشعراء المنحرفون ، فأبو نواس يقول في غلامية كانت تدور عليه بالخمير :

مِنْ كَفِّ ذَاتِ حِرٍّ فِي زِيٍّ ذِي ذَكْرٍِ لَهَا مُجِبَانٍ : لُوْطِيٌّ وَزَنْأُ
ولكن السقاة الغلمان مع ذلك كانوا مداراً — كما ذكرنا — لأكثر أشعار أبي نواس والحسين بن الضحاك وأضرابهما من رواد المجالس والحانات . ولم يكن التغزل بالمذكر قاصراً بطبيعة الحال على هؤلاء السقاة ، ولكنه كان يتناول غلماناً من شتى الطبقات ، وإن كان من الواضح أن هؤلاء الغلمان جميعاً كانوا من الروم أو من الفرس . ويبدو أيضاً أنهم كانوا يَهَيَّئون للقيام بهذا الدور في المجتمع ، وكان لهم مدربون متخصصون يشبهون المقينين الذين كانوا يعدون الجوارى لإرضاء نزعات الرجال .

والتغزل بالمذكر فيه المعنوي وفيه الحسي الفاحش أيضاً الذي يتضمن وصف سمات الغلام في التقاطيع البارزة والقصد الممشوق ، والتبذل في الحركات والحديث ، والتدلل والتخنث. يقول أبو نواس في وصف هؤلاء الغلمان :

يَا أَيُّهَا الرِّيمُ الَّذِي صَادَنِي	بِمُقْلَةٍ فِي اللَّحْظِ حَوْرَاءِ
وَحَاجِبِ كَالنُّونِ قَدْ نُمِّقَتْ	فَوْقَ حِجَاجِ الْعَيْنِ زَجَاءِ
وَمَحْجَرِ أَنْوَرٍ مِنْ فِضَّةٍ	مُجَلَدَوَةٍ بِالصَّقْلِ بَيضاءِ
وَعَارِضٍ أَظْهَرَ تَشْبِيكُهُ	كَرَوْضَةِ الْفَرْدَوْسِ خَضَاءِ . . .

وفي هذا النوع من التغزل الحسي يقول أيضاً في غلام آخر :

(١) الصراع بين المانوي والعرب : ٩٤ .

يا قَضِيًّا في القَوامِ وهِلالا في التَّمامِ
وبَدِيعاً في مِثالِ جُلُّ عن وصف الكلامِ
بأبي وَشْيُ أَنْيَقُ مِنْكَ في الخَدِّ الرُّخامِ
قد سباني نورُ خَدِّ كَمَصابيح الظُّلامِ
شَفَّني مِنْهُ قَوامُ فوقَ أَرْدافِ عِظامِ
وكنمتُ الحُبَّ حَتَّى عَيْلَ صَبْرِي واكتنامي

ويحب أبو نواس في معشوقه أن يكون فيه نظرف ومجون ، وأن يكون متورد الحدين كالتفاح ، ليناً في قد غزال . وهواه له دائماً دافعه الشهوة لا سواها ، يطلبها صراحة أحياناً واستخفاء في أحيان أخرى ، وواضح أن مثل هذه الأوصاف ليست جديدة بالنسبة لقن التغزل عامة اللهم إلا أنها تقال في مذكر وليست في مؤنث ، غير أننا نلمح في هذا النوع من التغزل بعض المعاني الجديدة التي يقتضيها الموضوع نفسه مثل وصف أبي نواس لاخضرار اللحية والشارب في غلامه حيث يقول :

قال الوشاةُ بدتْ في الخَدِّ لحيَتُهُ فقلت لا تكثروا ما ذاك عائبُهُ
الحسنُ مِنْهُ على ما كنت أعهدُهُ والشعر حِرْزُ له مِمَّنْ يُطالبُهُ
أبهي وأكثر ما كانت محاسنُهُ إِنَّ زال عارِضُهُ واخضرَّ شارِبُهُ
وصار من كان يَلْحَى في مَوَدَّتِهِ إِنَّ سال عني وعنه قال صاحِبُهُ

ويبدو أن أبا نواس كان حريصاً على المرور بالكتائب ليستعرض غلمانها ، إذ نجد كثيراً من قصائد تغزله في غلمان رآهم في الكتاب ، يقول في أحدهم :

إِنَّ في المكتبِ خشفاً جُعِلَتْ نفسي فِداهُ
شادِنٌ يكتب في اللُّوح لتعليم هِجاءِ
كلما خَطَّ أبا جادٍ قَرأه فَمَحاهُ
بِلِسَانٍ فتراهُ الدَّهْرَ قد سَوَّدَ فاهُ

وأبو نواس في هذا التغزل عابث لا يقصد إلى الفحش والتعهر ، ولكن يقصد

العبث والتماجن فحسب ، وتتضح لنا هذه النزعة في قصيدته التي يتحدث فيها عن غلام في مكتب حفص لم يكن ملتفتاً إلى دروسه فأُنزل به معلمه العقاب ، يقول فيها :

إِنِّي أَبْصَرْتُ شَخْصاً قَدْ بَدَأَ مِنْهُ صُدُودُ
جَالِساً فَوْقَ مُصَلًّى وَحَوَالِيهِ عَبِيدُ
فَرَى بِالطَّرْفِ نَحْوِي وَهُوَ بِالطَّرْفِ يَصِيدُ
ذَاكَ فِي مَكْتَبِ حَفْص إِنَّ حَفْصاً لَسَعِيدُ
لَمْ يَزَلْ مُذْ كَانَ فِي الدَّ رَسٍ عَنِ الدَّرْسِ يَحِيدُ
كُشِفَتْ عَنْهُ خُرُوزُ وَعَنِ الْخَزْرِ بُرُودُ
ثُمَّ هَالُوهُ بِسَيْرٍ لَيْنٍ مَا فِيهِ عُودُ
عِنْدَهَا صَاحَ حَبِيبِي يَا مُعَلِّمُ لَا أَعُودُ
قُلْتُ يَا حَفْصُ اعْفُ عَنْهُ إِنَّهُ سَوْفَ يُجِيدُ

ومن الشعراء الذين اشتهروا في هذا الفن غير أبي نواس يوسف بن الحجاج الثقفي والحسين بن الضحاك والحرابي وسعيد بن وهب قبل أن يتنسك ، وبكر ابن خازجة وأبو العبر الهاشمي . ويقول أبو الفرج الأصفهاني عن بكر بن خازجة أنه كان يتعشق غلاماً نصرانياً وله فيه قصيدة مزدوجة يذكر فيها النصاري وشرائعهم وأعيادهم ويسمى دياراتهم^(١) .

والحقيقة إن أحداً لم يكتب في التغزل بالمذكر مثلما كتب الحسين بن الضحاك حتى ليعتبر الشاعر الأول في هذا الفن في القرن الثاني . وكان الحسين فيما يبدو على صلة وثيقة بعدد كبير من الغلمان يردد أستاذهم في شعره مثل مقحم ويسر وغيرهما^(٢) . وتغزل الحسين بن الضحاك من النوع المعنوي ، فهو إذن بعيد عن الإفحاش الذي نجده عند أبي نواس وأضرابه . وربما كان السبب في ذلك عمل الخليل نفسه كنديم للخلفاء ، فأفحاشه يسقطه عند العامة ويؤلب الخلفاء عليه .

(١) الأغاني ٢٠ : ٨٧ .

(٢) أنظر الأغاني ٧ : ١٧٠ .

ويبدو أن أحمد الخوارى لم يتصور أن يكون في التغزل بالذكر نوع معنوى ، لهذا ذهب بعيداً حين قال إن شعر الخليل في المذكر (أصبح يعبر عن عاطفة يجد حرارتها قارئ شعره ، عاطفة تشبه إلى حد ما عاطفة العذريين وما فيها من الرضا بعذاب الحب والرغبة في الإقامة عليه تلذذاً به وحرصاً عليه . والقلب الذى امتلأ بالحب حتى لم يعد فيه لغير الحب موضع ، فى لهجة عفة لا مجنون فيها ولا إفحاش^(١)) ويمثل له بقوله :

لا وَحُبِّكَ لا أَصَافِحُ بِالذَّمِّ مَدْمَعاً
مَنْ بَكَى شَجْوَهُ اسْتَرَا حِوَانٌ كَانَ مُوجِعاً
كَبِدَى مِنْ هَوَاكَ أَسْقَمُ مِنْ أَنْ تُقَطَّعاً
لَمْ تَدْعُ سَوْرَةَ الضَّنَى فِى السَّقَمِ مَوْضِعاً

ولم يكتف الباحث بتشبيه تغزل الخليل بالذكر بشعر العذريين ولكنه قال إنه (فلسف حبه فنسبه إلى المشاكلة بينه وبين محبوبه ، وإنه وإياه روحان يمتزجان ، وتتوافق منهما الحركات والأفعال ، وهو ينحو فى هذه المعانى منحى الصوفية من بعده فى اتحاد الحب بذات محبوبه وفنائه فيه ، فهو لا يصدر إلا عن إرادته ولا يعمل إلا على وفاقه^(٢)) ويمثل له فى هذه الناحية بقوله :

إِنَّ مَنْ لا أرى وليس يرانى نصبَ عَيْنِي مُمَثِّلٌ بِالْأَمَانِي
بِأَبِي مَنْ ضَمِيرُهُ وَضَمِيرِي أَبداً بِالْمَغِيبِ يَنْتَجِيانِ
نَحْنُ شَخْصَانِ إِنْ نَظَرْتَ وَرُوحَانِ إِذَا مَا اخْتَبَرْتَ يَمْتَزِجَانِ
فَإِذَا مَا هَمَمْتُ بِالْأَمْرِ أَوْ هَمَّ بِشَيْءٍ بَدَأَتْهُ وَبَدَانِي
كَانَ وَفَقاً مَا كَانَ مِنْهُ وَمَنِ فَكَأَنِّي حَكِيمُهُ وَحَكَائِي
خَطَرَاتُ الْجُفُونِ مِنَّا سَوَاءٌ وَسَوَاءٌ تَحْرُكُ الْأَبْدَانِ

وهذا الشعر الذى يمثل فى نظرنا تغزلاً معنوياً عادياً يراه الباحث مرحلة وسطاً بين

(١) الشعر فى بغداد : ٢٧٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٧٤ .

الحب الجنسي والحب الإلهي . والذي قرب هذه الفكرة الغربية إلى ذهن صاحبها أنه (لم يكن يحسن بشعراء الصوفية أن يعبروا عن المحبوب الأول بلفظ التأنيث فكان أسلوب الغزل بالمذكر أدنى إلى طبيعة المعاني التي قالوا شعرهم فيها)^(١) . والفكرة في حد ذاتها غريبة وسببها أغرب ، فكيف يمكن أن يحتذى شعراء الصوفية شعر التغزل بالمذكر لمجرد أنهم يريدون أن يصفوا محبوبهم وهو الله بصفة التذكير ؟ إن هذا الاتحاد الذي توهمه الكاتب في قصيدة الخليج ليس إلا اتحاداً بين الشاعر وغلّامه ولا يمكن أن يكون مثلاً لاتحاد نفس الصوفي بالذات الإلهية ، فهذا سبيل آخر ربما يبتدىء بالفكرة الأولية عن الحب الإلهي التي وجدناها عند رابعة العلوية ، وما أبعد رابعة عن الخليج !

وإذا تركنا التغزل بالمذكر - وهو من أنواع التغزل الجديدة التي ظهرت في القرن الثاني - وصلنا إلى نوع جديد آخر هو ما سميناه بالقصص الغزلي ، ويبدو أن تأثير القصص والأساطير والروايات التي ترجمت إلى اللغة العربية في هذا القرن كان واضحاً في نزوع بعض الشعراء إلى الأسلوب القصصي في بعض الموضوعات ومنها التغزل .

ومن تلك القصص الغزلية التي عثرنا عليها قصة كتبها أبو موسى الشاعر (لم يذكر طيفور اسمه) عن غرام عريب جارية المأمون بجعفر بن حامد ، وكيف أنها وجدت من المأمون غفلة في أحد الأيام فوضعت على فراشها مثال رخام تحت الإزار بحيث يحسبه من رآه من بعيد أنها نائمة . وكان جعفر بن حامد قد نزل إلى جانب قصر المأمون فصعدت عريب إلى السطح فتدلت في زبيل ، فلما التقى الحبيبان ونالا ما يتمنيان ، قعدت عريب في الزبيل فصعدت ورجعت إلى مكانها ، وطلبها المأمون قبل أن ترجع إلى فراشها فلم يجدها فلم أين صارت . هذا هو ملخص القصة التي يرويها أبو موسى في شعر له فيقول :

قاتلَ	الله	عريباً	فعلت	فعلاً	عجيباً
ركبتُ	واللَّيْلُ	داجٍ	مركباً	صعباً	أريباً
لِعَظِيمٍ	جَعَلْتُ	ذلكَ	مَكْ	سَا	لَا هَيوباً

مُخَنَّةٌ لَوْ حُرُكَتْ خِفْ مَتَ عَلَيْهَا أَنْ تَذُوبَا
 رَعَى اللَّيْلَ فَلَمَّا اقْتَضَى النَّوْمَ الرَّقِيبَا
 مَثَلْتُ فَوْقَ حُشَايَاهُ ا لَكِي لَا يَسْتَرِيبَا
 بَدَلًا مِنْهَا إِذَا نَوَدَى م بِاسْمٍ لَا بِجِيْبَا
 وَمَضَتْ يَحْمِلُهَا الْخَوْفُ م قَضِيْبَا وَكُثِيْبَا
 فَتَدَلَّتْ لِمُحِبٍّ فَتَلَقَّاهَا حَبِيْبَا
 جَذَلَا قَدْ نَالَ بِالْذَّنْبِ ا مِنْ الدُّنْيَا رَغِيْبَا
 أَهِيَ الظِّيُّ الَّذِي تَج رَحُ عَيْنَاهُ الْقَلُوبَا
 وَالَّذِي يَأْكُلُ بَعْضَا بَعْضُهُ مَلْحَا وَطِيْبَا
 كُنْتُ نَضْبًا لِذِنَابٍ فَلَقَدْ أَطْعَمَتْ ذِيْبَا
 وَكَذَا الشَّاةُ إِذَا لَمْ يَكُ رَاعِيْهَا لَبِيْبَا

أما عبد الصمد بن المعذل فهو يروي لنا قصة امرأة شابة ملت زوجها الشيخ
 واسمه ابن الجوهري ، فهربت مع عشيقها الفتي فخلقت لزوجها العار والحسرة ،
 يقول في هذه القصة :

إِلَى أَمْرِي حَازِمٌ رَكِبْتُ إِلَى أَمْرِي عَاجِزٌ تَرَكْتُ
 فَتَنَةُ ابْنِ الْجَوْهَرِيِّ لَقَدْ أَظْهَرْتُ نَضْحًا وَقَدْ أَفَكْتُ
 أَكْذِبَتَهَا عَزْمَةٌ ظَهَرْتُ لَا تُبَالِي نَفْسَ مَنْ سَفَكْتُ
 ظَفَرْتُ فِيهَا بِمَا هَوَيْتُ وَنَجَتُ مِنْ قَرَبٍ مَنْ فَرَكْتُ
 ثُمَّ خُدُودُ بَعْدَهَا لُطِمَتْ وَجُيُوبُ بَعْدَهَا هُتِكَتْ
 وَعَيُونُ لَا يُرْقَأَنَّ عَلَى حُسْنِ وَجْهِ فَاتِهِنَ بَكَتْ
 خَرَجْتُ وَاللَّيْلُ مَعْتَكُرٌ لَمْ يَهْلُهَا أَيْةٌ سَلَكَتْ
 وَعَيُونُ النَّاسِ قَدْ هَجَعَتْ وَدَجَى الظُّلُمَاءُ قَدْ حَلَكْتُ

لم تخف وجداً بعاشقها حرمة الشهر الذي انتهكت^(١)
 وواضح في هاتين القصتين توفيق الشاعرين في اختيار الوزن والقافية على السواء
 ليسل هما الأسلوب القصصي الذي يبرز فيه تسلسل الأحداث وتتابعها .
 وقد تأثرت لغة شعر التغزل في القرن الثاني في عبارتها وصورها بالحياة المتحضرة
 الجديدة ، وبالثقافة الشائعة في ذلك العصر ، فاستخرج الشعراء للورود لغة يفهمها
 المحبون كما جاء في قول الشاعر :

أهدت إليه بنفسجاً يُسليه تنبيه أن بنفسها تفديه
 فارتاح بعد صباية وكآبة ورجا لحسن الحظ أن تدنيه
 وكما جاء في قول الآخر :

سُر بالآس الذي أهدت له ثم لما أهدت الورد جزع
 ذاك أن الآس باقٍ دائم ولأن الورد حيناً ينقطع
 وكانوا يذكرون أحبهم عندما تفوح رائحة التفاح كما يقول العباس بن الأحنف :
 ذكرتُك بالتُّفاح لما شممتُه وبالراح لما قابلت أوجه الشرب
 تذكّرتُ بالتُّفاح منك سوايَفا وبالراح طعماً من مُقبِّلِكَ العذب^(٢)
 ويشهون وجه الحبيبة ببستان متنوع الأزهار والرباحين كما جاء في قول أبي نواس :
 وجهُ جنانٍ سراءٍ بُستانٍ مجتمعٌ فيه كلُّ رِيحانٍ
 مبدولةٌ للعين زهرته ممنوعةٌ من أنامل الجاني
 وكان بعض شعراء هذا العصر يستخدمون في تغزلهم أصداء ما يشيع في عصرهم
 من مذاهب مثلما فعل ربيعة الرقي حين أشار إلى مذهب المعتزلة في العفو الذي
 يعتمد أصلاً على الآية القرآنية قائلًا :

يا لَيْتَ من لامنا في الحبِّ جرْبُهُ فلو يذوق الذي قد ذقت لم يَلُم
 الحبُّ دائِماً عيائُ لا دواءَ له إلا نسيم حبيبٍ طيبٍ النَّسيم

(١) الأغاني ١٣ : ٢٣٠ .

(٢) الأغاني ٨ : ٣٥٩ .

هذ حرامٌ لمن قد عَدَّهُ لَمَمًا وَلَنْ يُعَدَّ بِنَا الرَّحْمَنُ بِاللَّمَمِ^(١)
 وكان شعراء القرن الثاني يستخدمون في تغزلهم حتى في المذكر بعض المعاني
 أو العبارات القرآنية للتملح والتظرف ، فالحسين بن الضحاك يقول في غلام :
 أَيُّهَا النَّفَّاثُ فِي الْعُقَدِ أَنَا مَطْوِيٌّ عَلَى الْكَمَدِ
 إِنَّمَا زَخَرَفْتُ لِي خَدَعًا قَدَحْتُ فِي الرُّوحِ وَالْجَسَدِ^(٢)
 ويقول أبو نواس في محبوبة له وقد استعار وصف نار جهنم لنار الحب التي
 وقودها القلوب فقال :

يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تَجِدِي كَوْجِدِي لِأَنَّ الْحُبَّ أَهْوَنُهُ شَدِيدُ
 رَأَيْتُ الْحُبَّ نِيرَانًا تَلْظِي قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ لَهَا وَقُودُ
 فَلَيْتَ لَهَا إِذَا احْتَرَقَتْ تَفَانَتْ وَلَكِنْ كَلَّمَا احْتَرَقَتْ نَعُودُ
 كَأَهْلِ النَّارِ إِنْ نَضِجَتْ جُلُودُ أُعِيدَتْ لِلشَّقَاءِ لَهُمْ جُلُودُ
 واستخدم شعراء هذا القرن أيضاً الصنعة البديعية في التغزل بالذات استخداماً
 واسعاً للتملح والتظرف ، وكان الجناس أكثر الألوان البديعية استخداماً ، يقول
 الحسين بن الضحاك :

لَا تَلْمَنِي عَلَى فِتْنٍ إِنَّهَا كَاسَمَهَا فِتْنُ
 فَإِذَا لَمْ أَهْمْ بِهَا فَيَمَنْ لَا يَمْنُ إِذْنُ
 أَيْنَ لَا أَيْنَ مِثْلُهَا فِي جَمِيعِ الْوَرَى سَكْنُ^(٣)

ويتضح ميل الحسين للجناس أيضاً في قوله :

أَيُّ دِيبَاجَةٍ حُسْنِ هَيَّجَتْ لَوْعَةَ حُزْنِي

ونجد هذه الصنعة أيضاً في شعر العباس بن الأحنف حيث يقول :

قَالَتْ ظُلُومٌ سَمِيَّةُ الظُّلَمِ مَا لِي رَأَيْتَكَ نَاحِلَ الْجِسْمِ

(١) طبقات ابن المعتز: ١٦٧ .

(٢) الأغاني ٧ : ١٩٢ .

(٣) المصدر نفسه ٧ : ١٧٩ .

بل نجدها في شعر أكثر الشعراء المتغزلين في هذا القرن ، وهي تتراوح عندهم بين الطبع والتكلف والجهد .

وتميز أسلوب التغزل في القرن الثاني أيضاً بالمبالغة مثلما نجد في قول أبي العتاهية :

وَلَقَدْ طَرَبْتُ إِلَيْكَ حَتَّى صَدَّ رُتُّ مِنْ أَلَمِ التَّصَابِي

يَجِدُ الْجَلِيسُ إِذَا دَنَا رِيحَ الصَّبَابَةِ فِي ثِيَابِي

وقول العباس بن الأحنف :

لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا لَهَا شَبِيهَا إِنْ لَأَحْسَبُهَا لَيْسَتْ مِنَ الْبَشَرِ

وقوله أيضاً :

لَوْ يَقْسِمُ اللَّهُ جُزْءًا مِنْ مَحَاسِنِهَا فِي النَّاسِ طُرًّا لَتَمَّ الْحُسْنُ فِي النَّاسِ

ولم يعد للجمال مقياس مثالي ثابت يحتذيه الشعراء جميعاً ، ولكنهم تصرفوا

في هذا العصر في وصفهم فأخضع كل منهم مقياس الجمال لذوقه الخاص ، مثال

ذلك أن الشعراء طالما تمدحوا ببياض المرأة حتى لو لم تكن بيضاء حقيقة ، باعتبار

أن هذه الصفة مثالية في الجمال ، ولكن وجد في القرن الثاني شاعر يتغزل في المرأة

السوداء وهو أبوشبل عاصم بن وهب ، ومن شعره في ذلك المعنى قوله :

مُشَبِّهَاتِ الشَّبَابِ وَالْمِسْكِ تَفْدِيكُنْ نَفْسِي مِنْ نَائِبَاتِ الْخُطُوبِ

كيف يهوى الفتى الأديبُ وصالَ البيضِ والبيضُ مُشَبِّهَاتُ الْمَشِيبِ^(١)

واقتربت لغة التغزل في القرن الثاني من لغة الحياة اليومية إلى حد كبير . وكان

هذا الاتجاه خضوعاً للنزعة الشعبية التي سادت الشعر في هذا العصر كما سبق أن

ذكرنا . وتتضح هذه الشعبية في شعر بشار الغزلي بأجلى بيان ، وهذا هو السبب

في انتشار شعره في البصرة في أيامه . حتى إن الأصمعي يقول : (عهدي بالبصرة

وليس فيها غزل ولا غزلة إلا يروى من شعر بشار)^(٢) . ومن قول بشار في التغزل

بأسلوب يقرب من الشعبية :

(١) معجم الشعراء : ٢٧٥ .

(٢) الأغاني ٣ : ١٤٩ .

نُورَ عَيْنِي أَصَبْتَ عَيْنِي بِسَكْبٍ يومَ فارقَتَنِي على غَيْرِ ذَنْبٍ
 كيفَ لمَ تَذْكُرِي المَوَائِقَ والعَهْدَ وما قلتِ لِي وقلتِ لِصَاحِبِي
 وما تَصَبَّرْتُ عَنْ لِقَائِكَ إِلَّا قَلَّ صَبْرِي وبَاشَرَ المَوْتُ قَلْبِي
 لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ حُبِّكَ يَا قُرَّةَ عَيْنِي أَوْ عِشْتُ فِي غَيْرِ حُبٍّ^(١)

وكأنى بشار قد اختار هذا الأسلوب ليخاطب به تلك الحبيبة مباشرة دون أن يتأنق في القول أو يتروى فيه ليعجب به علماء اللغة والرواة وطلاب الغريب . ومما قاله أيضاً في هذا الأسلوب البسيط القريب من الروح الشعبية :

قُلْ لِحَبِيٍّ قَرَّبِي أَنْتِ نَفْسِي وَحَيَاتِي
 وَهُمُومِي حِينَ أَغْدُو وَحَدِيثِي فِي صَلَاتِي^(٢)

إلى غير ذلك من الأمثلة التي يحفل بها ديوان بشار في قصائد تغزله ، والتي نجدها بكثرة في تغزل أبي نواس أيضاً سواء في الذكور أم الإناث .

* * *

وإلى هنا نكون قد استوفينا الحديث عن الأغراض البارزة في الشعر العربي التي كانت موجودة فيه من قبل ، ولكن دخلتها في القرن الثاني اتجاهات جديدة ومؤثرات جعلتها تتطور تطوراً ظاهراً . وفيما عدا هذه الأغراض نجد أن شعر هذا القرن لم يخل من أغراض قديمة أخرى ظلت على ما هي عليه دون تغيير يذكر مثل الفخر . وقد ذكرنا عرضاً ما دخله من تجديد وهو اتجاه الموالى إلى الفخر بأعجميتهم بعد أن كان الفخر مقصوراً على العرب يفخرون بقبائلهم على القبائل الأخرى . ووجد في هذا العصر أيضاً شعر في الحماسة ظل على ما كان عليه في الشعر القديم إلا من ظهور عصبية قومية تبدو في هذه القصائد التي قالها شعراء العرب في الانتصار على الترك مثلاً كما جاء في شعر ثابت قطنة وغيره^(٣) ، أو على الروم كما جاء في قصائد الشعراء الذين مدحوا الرشيد لانتصاره على تقفور ملك الروم ، مثل قصيدة الحجاج ابن يوسف البني . وظلت الروح القبلية موجودة في شعر هذا القرن حتى عند الشعراء

(١) ديوان بشار ١ : ٢٧٤ .

(٢) المصدر نفسه ٢ : ٣٧ .

(٣) انظر : تاريخ الطبري ٨ : ١٦٤ .

الذين ليسوا من أصل عربي كبشار بن برد الذي كان متلوناً في ولائه ، وأبي نواس الذي أخذ يتردد بين المضرية واليمينية يمدح هؤلاء ويذم أولئك ثم يعكس الآية وهكذا دون أن تكون له في رأي مصلحة مباشرة اللهم إلا محاولة الإيقاع بين القبائل العربية بدافع شعوبى . ومع ذلك فلم يكن في مثل هذا الشعر المبني على العصبية القديمة أية ناحية جديدة تستحق أن تذكر . ولهذا أهملنا شأنه لأن فيه تكراراً لما يمكن أن يقال عن شعر القرن الأول بل عن الشعر الجاهلى ذاته .

وإلى هذا الحد نكون قد استوفينا الحديث عن الاتجاهات الموضوعية في شعر القرن الثانى سواء منها الجديدة أم المجددة ، ولم يبق أمامنا لاستكمال عناصر هذا البحث إلا الحديث عن الاتجاهات الشكلية في شعر هذا القرن .

الباب الثالث

الاتجاهات الشكلية

مقدمة

الفصل الأول : الأوزان ولغة الشعر

الفصل الثاني : الصنعة الشعرية

الباب الثالث الاتجاهات الشكلية

مقدمة

« المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروى والبدوى ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك . فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير^(١) » . هذه هي نظرة الجاحظ إلى الشعر بوجه عام وهي نظرة فنية أصيلة تسندها قاعدة فلسفية لم يبرزها لنا الجاحظ ولكن أبرزها من أتوا بعده . فقدمه بن جعفر يقرر (أن المعاني كلها معرضة للشاعر ، وله أن يتكلم منها فيما أحب وآثر من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة ، والشعر فيها كالصورة . كما يوجد في كل صناعة من أنه لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة^(٢) .

ثم وسع هذا المذهب عبد القاهر الجرجاني فسفّه آراء النقاد الذين جهلوا شأن الصورة فوضعوا لأنفسهم أساساً وبنوا على قاعدة فقالوا إنه ليس إلا المعنى واللفظ ولا ثالث^(٣) ولكن هل يمكن أن تكون الكلمة المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف كلاماً وشعراً من غير أن يحدث فيها النظم الذي حقيقته توحي معاني النحو وأحكامه^(٤) ؟ يستحيل هذا بطبيعة الحال ، ولذلك خرج عبد القاهر من دراسته لقضية اللفظ والمعنى وأيهما يعتبر أساساً بالنسبة للجمال الشعري بنظريته في النظم . وفكرتها المبسطة تكمن في تساؤله الذي أشرنا إليه .

والحقيقة إن الشعر كفن يؤثر في نفس الإنسان بما فيه من جمال ومتعة وإثارة فنية للأحاسيس والمشاعر ، لا يمكن أن ينظر إليه من ناحية محتواه فحسب ، أو من ناحية شكله بصورة عامة . فالإنسان لا يتلقى تأثير الشيء الجميل مجزئاً على

(١) الحيوان ١ : ٤٠ .

(٢) نقد الشعر : ١٣ .

(٣) دلائل الإعجاز : ٣٦٨ .

(٤) المصدر نفسه : ٣٧٣ .

دفعات ، ولكن الإحساس ينتقل إليه مباشرة وتنفع نفسه بالتأثر دفعة واحدة . ويعبر عن تلك الفكرة سانتيانا من وجهة نظر علم الجمال فيقول : (يتألف التأثير الرئيسي للغة من المعنى أى مما تعبر عنه من أفكار ، إلا أن التعبير يستحيل بدون العرض ، ولا بد للعرض أن يكون له شكل ما ، وهذا الشكل الذى تأخذه وسيلة التعبير هو ذاته أحد العناصر التى يتألف منها تأثير اللغة)^(١) . فالشعر إذن ليس (موضوعاً) فحسب وليس (شكلاً) فقط ، إنما هو صورة عامة يتلبس فيها الشكل بالموضوع ويلتحمان فى إطار هو الشعر نفسه بحيث لا يمكننا إدراك ما فيه من جمال إلا وهو على تلك الحالة ، تماماً كما لا نستطيع أن ندرك جمال غروب الشمس بعيداً عن الأفق ولونها عند الغروب ، وتلك المؤثرات المختلفة التى تحيط بالمنظر كله .

وبما أننا قد درسنا الاتجاهات الموضوعية فى شعر القرن الثانى ، ورأينا كيف أن الشعراء قد تكلموا فيما أحبوا وآثروا — كما يقول قدامة — فإننا نشعر أن حديثنا عن شعر هذا القرن لم يكتمل بعد ما دمنا لم ندرس الاتجاهات الشكلية . ومن الطبيعى أنه ليس من السهل — كما يقول سانتيانا — رد جمال الشكل إلى جمال العناصر التى يتألف منها ، وإلا يحق للعامة أن يعتقدوا أن جميع المنازل المبنية بالرخام تكون متكافئة فى جمالها^(٢) . ولكننا مضطرون إلى استخراج العناصر التى يتألف منها الشكل فى شعر القرن الثانى حتى يمكننا ملاحظة التطور الذى طرأ على الشكل فيه ومدى تلاؤمه مع المحتوى الذى أفردنا للحديث عنه الفصول السابقة .

ومن الطبيعى أيضاً أن حديثنا عن الاتجاهات الموضوعية لم يخل قط من التحدث عن الناحية الشكلية إذ كنا نضطر أحياناً كثيرة للإشارة إلى صوغ القوالب أو تركيب الحمل أو طريقة التعبير أو المادة اللغوية نفسها ، كما لم يخل حديثنا من الإشارة إلى الأوزان والقوافى والصور الشعرية . ومما لاشك فيه أيضاً أن حديثنا فى هذا الباب عن الناحية الشكلية لن يحول بيننا وبين التحدث عن نواح موضوعية كثيرة نظراً للارتباط الوثيق الذى أشرنا إليه بين مادة الشعر وصورته .

وقد رأينا أن نقسم هذا الباب إلى فصلين خضوعاً لما يفرضه المنهج العلمى من تحليل واستقصاء : الأول الأوزان ولغة الشعر ، والثانى الصنعة الشعرية .

(١) الإحساس بالجمال : ١٨٩ . (٢) الإحساس بالجمال : ١٠٧ .

الفصل الأول

الأوزان ولغة الشعر

حين بدأ الخليل بن أحمد في القرن الثاني يسجل أوزان الشعر العربي ، نظر في الشعر الجاهلي ليستخلص منه هذه الأوزان ، فعرف منها خمسة عشر وزناً استخدمها الجاهليون في أشعارهم مع تفاوت في طبيعة هذا الاستخدام من حيث الكثرة والقلّة . ثم جاء أبو الحسن الأنخفش فاستدرك على الخليل وزناً آخر استخدمه الجاهليون نادراً ولكنه مع ذلك وُجد في شعرهم ، ومن هذا يتبين لنا أن أوزان الشعر العربي التي صاغ فيها الشعراء قصائدهم كانت معروفة وتامة التكوين منذ العصر الجاهلي . ولهذا لم يكن أمام الشعراء بعد الجاهلية بد من استخدامها ما دام أسلافهم قد كتبوا شعرهم فيها ، وما داموا يجدون في هذا الشعر القديم القدوة والمثال .

والحقيقة إن استمرار الأوزان العربية القديمة حتى يومنا هذا لم يكن مجرد مسألة تقليدية أو قصوراً من الشعراء عن الابتكار والتجديد ، ولكن هذه الأوزان الستة عشر تمثل في الواقع تنوعاً موسيقياً واسع المدى يتيح للشعراء أن ينظموا في دائرته كل عواطفهم وخواطرهم وأفكارهم ، دون أن يجدوا تضيقاً أو حرجاً يضطرون معه إلى محاولة الخروج على هذه الأوزان ليلائموا بين مادة شعرهم الجديدة وما تقتضيه من موسيقى وإيقاع خاصين .

وهذا التنوع في موسيقى وإيقاع الشعر العربي الذي قد لا نجد له مثيلاً في أشعار الأمم الأخرى ، لم يكن يقترن بأي قيد غير القافية الموحدة . ولكن إذا أدركنا غنى اللغة العربية بالألفاظ التي تجري على نسق موسيقى واحد ، وثقافة الشعراء اللغوية الواسعة ، علمنا أن هذا القيد لم يكن عنيفاً بالنسبة للشعراء ، ولم يكن عقبة أمامهم للتخليق والإفاضة الشعورية ، ولكن كلما أخذت اللغة العربية في التطور فقدت على مر العصور كثيراً من ألفاظها القديمة التي كان الناس يهجرونها لبعدها عن واقع حياتهم وبيئتهم ، وبذلك أخذت تنكمش ذخيرتها من الألفاظ التي تجري على نسق موسيقى واحد . وفي الوقت نفسه ضعفت ثقافة الشعراء اللغوية وخاصة بعد

ظهور طبقة من الشعراء المولدين يكونون ثقافتهم اللغوية من لغة الحياة اليومية في الغالب فبدأت القافية عند ذاك تصبح قيداً ثقيلاً يحرم الشعراء من الانطلاق بخيالاتهم وأفكارهم ، مما كان له أثره في بعد الشعراء المتأخرين عن الأصالة والابتكار ، ودوراهم في فلك الشعر القديم . وقد تنبه إلى هذه الحقيقة « جويو » بالنسبة للشعر الفرنسي ، ولكن ملاحظته تنطبق أيضاً على الشعر العربي فهو يقول إن الشاعر مع قيد القافية الموحدة تصعب عليه الجدة والأصالة ، وهذا هو السبب الذي يحدو ببعضهم إلى نشدان الأصالة والجدة في الإتيان بمعان وصور زائفة^(١) .

فالشعر العربي إذن لم يكن وحده الذي يلتزم القافية الواحدة ، كما أن القافية الواحدة ليست هي النوع الوحيد من القيود في الشعر عامة فقد لوحظ أن النتاج الفني الذي يحتوي على تكرار بأية صورة مثل الشكل المعروف في الشعر الإنجليزى بالثنائي الحماسى Heroic couplet الذي تتألف وحدته المتكررة من بيتين على قافية واحدة ، كل منهما يحتوي على عشرة مقاطع أو خمس أقدام من بحر معين — يكون له تأثير جاف محدود لأن علاقاته قليلة بالضرورة ولا يمكن استعماله لأغراض شعرية متنوعة ، كما أنه ليس في مقدوره التعبير عن أفكار كثيرة^(٢) .

وما لا شك فيه أن التطور الزمني والحضاري لا بد أن يترك أثراً ولو ضئيلاً في أوزان الشعر وقوافيه ، أو في شكله الموسيقي بصفة عامة . فهل خضع الشعراء العرب لهذا التطور أم غلب عليهم التقليد والاحتذاء ، أم سمحت لهم وفرة الأوزان واتساعها وتنوعها بالتصرف في حدودها ؟

الحقيقة إن شيوع الغناء في القرن الثاني واهتمام الطبقات المختلفة به وإقبالها عليه — مما جعله فنا شعبياً عاماً ليس وقفاً على طبقة الأثرياء الذين يمكنهم تهيئة مجالس خاصة للغناء تمتاز بالبذخ والترف — قد أثر في شعر هذا القرن تأثيراً واضحاً بدا في انصراف الشعراء عن الأوزان الطويلة المعقدة حتى في أكثر فنون الشعر جدية كالمديح والرثاء ، وإقبالهم على الأوزان الرشيقة الخفيفة التي تلائم الغناء في المجالس والمنتديات ودور اللهو والرقص .

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة : ١٧٦ .

(٢) الإحساس بالجمال : ١٣٢ .

ولا ريب أن الغناء قد بدأ يشيع في القرن الأول في الحجاز خاصة ، فظهر تأثيره في شعر التغزل في هذا العصر حتى إن المغنين والمغنيات كانوا — كما يقول شوقي ضيف — يضطرون مع ألحانهم أن يطيلوا أو يمددوا في بعض حروف تفعيلات البيت ، وأن يقصروا أو يهمسوا في حروف أخرى من هذه التفعيلات ، فأحدثوا بذلك زحافات وعللا كثيرة في شعرهم . وكان الشعراء يقبلون على الأوزان الخفيفة السهلة مثل الوافر والخفيف والرمل والمتقارب والهجج ، ويجزئون الأوزان الطويلة المعقدة كما يجزئون للمغنين الأوزان السهلة البسيطة^(١) .

وأخذ هذا الاتجاه يبرز شيئا فشيئا منذ أواخر القرن الأول ويتسع مداه فلا يقتصر على شعر التغزل وحده بل يفرض نفسه — كما ذكرت — على أكثر فنون الشعر جدية ، تبعاً لتطور الذوق العام الذي أرفهته الحضارة الجديدة ورققته المدنية ، وخضوعاً لتأثير الغناء الذي أصبح فناً شعبياً كما بينت من قبل ، وإمكان الملازمة بين الأوزان والموضوعات الجديدة التي يصور أغلبها جوانب من حياة العبت والمجون التي كان يحياها المجتمع في القرن الثاني .

ويتضح هذا الاتجاه عند الوليد بن يزيد وشعراء الكوفة أجمعين ممن دار أغلب شعرهم حول معاني المجون والخمر والتغزل الفاحش . وكان هذا الشعر يغنى في المجالس الخاصة ، ولذلك كان لابد أن يصاغ في قوالب موسيقية بالغة الرقة والخفة . فلاحظ ذلك في شعر عمار ذي كنان مثل قوله :

أَشْتَهِي مِنْكَ مِنْكَ مِنْكَ البيت

كما نلاحظه في شعر مطيع بن إلياس حيث يقول :

إِكْلِيلُهَا أَلْوَانُ وَوَجْهُهَا فَتَانُ

وَنَحَالُهَا قَرِيدُ لَيْسَ لَهُ جِيرَانُ

إِذَا مَشَتْ تَشَنَّتْ كَأَنَّهَا تُعْبَانُ^(٢)

وفي شعر حماد عجرد أيضاً حيث يقول :

(١) الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية : ١١٦ .

(٢) الأغاني ٦ : ٢٨٠ .

إني لأهوى جَوْهَرًا وَيُحِبُّ عَلِيَّ قَلْبَهَا.

كما نلاحظه في أغلب أشعار الوليد بن يزيد مثل قوله :

يا سُلَيْمِي يا سُلَيْمِي كُنْتَ لِلْقَلْبِ عَذَابًا ..

والحقيقة إن هؤلاء الشعراء أجمعين كانوا يختارون الأوزان القصيرة الرشيقة المعدلة والمجزوءة ، بل إن الوليد يُنسب إليه تجديد جزئي في الوزن والقافية على السواء إذ روى له صاحب الأغاني قطعة من وزن المجثث — وهو وزن قصير يعتبر الوليد من أول للذين نظموا فيه لأن الجاهليين لم يكتبوا فيه إلا أبياتاً مفردة — كما يذكر له أبو الفرج قطعة من المزدوج كان قد جعلها خطبة من خطب الجمعة وهي التي يقول فيها :

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَلِيُّ الْحَمْدِ أَحْمَدُهُ فِي يُسْرِنَا وَالْجُهدِ

وهو الذي في الْكَرْبِ أَسْتَعِينُ وهو الذي ليس لَهُ قَرِينُ ..

وإذا صحّت نسبة هذه المزدوجة لكان الوليد من أقدم الشعراء الذين كتبوا في هذا النوع الجديد من نظام القوافي .

والأوزان القصيرة التي نجدها قد شاعت في القرن الثاني هي مجزوء الكامل ومجزوء الرجز ، والبسيط المخلع ومجزوء الرمل ومجزوء المنسرح ، والمزج والمضارع والمقتضب والمجثث والحبب : ومجزوء المقتضب ومجزوء المتقارب . وقد حاول عبد الله الطيب المجنوب أن يوجد علاقة بين الوزن في الشعر العربي ومادة الشعر نفسه ، فقال إن هذه البحور القصار التي ذكرناها لا تصلح إلا لحجود الدندنة والترويح عن النفس بمجرس الألفاظ^(١) .

وقد لاحظ أن الوليد بن يزيد قد استكثر من الرمل القصير في شعره وروجه ترويحاً فتح به باباً لمن بعده من المولدين^(٢) . أما الرمل نفسه فقد أدرك بعض المرققين من طبقات المولدين الأولين رفته وعذوبته فتعاطوه في غزلياتهم واستغلوا ناحية الأسى

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب ١ : ٨١

(٢) المصدر نفسه ١ : ١٢٦ .

فيه لتصوير مجونهم وغرامياتهم ، من ذلك ما فعله بشار في رائيته الرملية الفاجرة التي يقول فيها :

أَمَى بَدَدَ هَذَا لَعِبَى وَشَاحَى حَلَّةٌ حَتَّى انْتَشَرَ^(١)
أما المنسرح فيقول عنه الباحث إن روحه مخنثة وإن المولدين استعملوه بكثرة
كما جاء في قول أبي العتاهية وهو يمدح الرشيد :

اللَّهُ بَيَّنِّي وَبَيَّنَ مَوْلَانِي أَبَدْتُ لِي الصَّدَّ وَالْمَلَالَاتِ

ومع أن قصيدة الحريري في وصف فتنة بغداد ذات غرض جاد لأنها مرثية
إلا أنه استخدم فيها بحر المنسرح نزولاً على حكم البيئة - فيما يرى الباحث - وجرياً
مع طبيعة الذوق البغدادي الناعم^(٢) . ونحن إن وافقنا الباحث على وصف بحر
المنسرح بالتخنث بالنسبة لقصيدة أبي العتاهية ، إلا أننا نرفض هذا الوصف بالنسبة
لقصيدة الحريري التي قدمنا أبياتاً منها في فصل سابق والتي لا تتضح فيها أي روح
مخنثة، ولكن تشيع فيها السرعة وخفة الانتقال من وصف حدث إلى حدث آخر
لمضاهاة الوقائع التي تصورها القصيدة . ولا يجب أن ننسى أن سرعة الوزن كانت
لازمة وضرورية بالنسبة إلى تتابع الأحداث في هذه القصيدة التي ذكر لنا منها
الطبري جزءاً يبلغ مائة وخمسة وثلاثين بيتاً .

والباحث يختار بعض الأوزان مثل البسيط المتهوك ومجزوء المتقارب والمقتضب
والمضارع ويقول عنها إنها بحور شهوانية نغماتها لا تكاد تصلح إلا للكلام الذي
قصد منه قبل كل شيء أن يتغنى به في مجالس السكر والرقص المتهتك المخنث ،
وأن القارئ لو تأملها جميعاً لوجد في نغمها شيئاً يشعر بالشهوانية ولسمع من فقرات
تفاعيلها موسيقى ذات لون جنسي^(٣) .

والحقيقة إن محاولة تثبيت لون واحد لوزن من الأوزان جهد ضائع لأن الوزن
وحده لا يمكن أن يضفي على الشعر لوناً معيناً ولكن جميع عناصر الشكل تتحد
في إعطاء القصيدة لوناً سواء أكان هذا اللون صارخاً تشيع فيه الفتنة ويتأجج

(١) المصدر نفسه ١ : ١٤١ .

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب ١ : ٢٠٠ .

(٣) المصدر نفسه ١ : ٩٠ .

بالشهوة أم كان هادئاً يتسم بالجد والرزانة . وقد رأينا في الرثاء قصائد في بحور قصيرة من المجموعة التي يطلق عليها الباحث اسم البحور الشهوانية ومع ذلك فقد بلغت الغاية في تصوير جو الحزن والكآبة والجد .

ولم يقتصر شعراء القرن الثاني على الميل إلى البحور القصيرة والابتعاد عن الأوزان المعقدة الطويلة ولكنهم أحيوا أوزاناً قديمة كانت نادرة في الشعر الجاهلي والإسلامي بحيث يعتبر النظم فيها في هذا العصر ابتكاراً في الوزن بلا جدال . ويقول أبو العلاء المعري إن المولدين استحدثوا في هذا العصر المقتضب والمضارع ، وأن التحليل سجلهما وليس لهما أصل في الشعر القديم^(١) . ومن أمثلة المقتضب قصيدة أبي نواس :

حَامِلُ الْهَوَى تَعِبُ يَسْتَخِفُّ الطَّرِبُ

وأما المضارع فقد مثل له أبو العلاء بقول أبي العتاهية :

أَيَا عُتْبَ مَا يَضُرُّكِ أَنْ تُطْلِقِي صِفَادِي

ويقال أيضاً إن شعراء القرن الثاني قد استحدثوا وزن الخبب أو المتدارك أو دق الناقوس — وهو على وزن فعل — كقول أبي العتاهية :

هَمْ الْقَاضِي بَيْتٌ يُطْرِبُ قَالَ الْقَاضِي لَمَّا عُوتِبَ

ما في الدنيا إلا مُذْنِبٌ هذا عُدْرُ الْقَاضِي وَاقْلَبَ

وأبو العتاهية بالذات كانت له محاولات في الخروج على الأوزان التقليدية المعروفة . ويقول ابن قتيبة عنه إنه (كان لسرعته وسهولة الشعر عليه ربما قال شعراً موزوناً يخرج به عن أعاريض الشعر وأوزان العرب) ويضرب مثلاً لذلك بالشعر الذي قاله حينما كان يجلس عند قصار فسمع صوت المدقة فأراد أن يحاكيه في شعره فقال :

لِلْمُنُونِ دَائِرَاتُ يُدْرَنُ صِرْفَهَا

هُنَّ يَنْتَقِينَا وَاحِدًا فَوَاحِدًا^(٢)

(١) الفصول والغايات : ١٣٢ .

(٢) الشعر والشعراء : ٧٦٥ .

والحقيقة إن هذا الوزن لا يخرج عن الدوائر الخمس التقليدية التي اخترعها الخليل ، فهذا الوزن يمكن أن يكون من المقتضب ، ولكن الجدير بالذكر هو تحرر أبي العتاهية من القافية في هذا المثال تحريراً كاملاً .

وأبو العتاهية قد يخرج أيضاً على الأوزان المعروفة ولكن في حدود الدوائر الخمس كما في قصيدته الأخرى ووزنها فاعلاتن فعول التي يقول فيها :

عتبُ ما للخيالِ خبْرينى ومالى
لا أراهُ أتانى زائراً مُذْ ليلالى
لو رآنى صديقى رَقْ لى أو رثى لى
أو يرانى عَدُوّى لان من سوء حالى^(١)

وكان أبو العتاهية يدرك أنه يمثل هذه الأوزان يخرج على البحور التقليدية فقد ذكر ابنه محمد أن أباه سئل : هل تعرف العروض؟ فقال : أنا أكبر من العروض^(٢) ومن شعراء القرن الثانى الذين جددوا فى الأوزان تجديداً جزئياً أيضاً سلم الخاسر وقد مدح الهادى بقصيدة كل سطر فيها على وزن مستفعلن واحدة ، ويقول السيوطى فى ذلك : (وهو أول من عمله ولم نسمع لمن قبله شعراً على جزء جزء)^(٣) وهو يقول فى تلك القصيدة :

موسى المَطَرُ غَيْثٌ بَكَرَ ثم انْهَمَرَ أَلوى المِرَرِ
كم اعتسِرَ وكم قَدَرَ ثم غَفَرَ عَدْلُ السَّيَرِ

ويقول بروكلمان إن بعض الشعراء المحدثين قد اجترأوا فبدلوا محاولات لصياغة الشعر فى أوزان جديدة غير أوزان العروض المتوارثة . ومن هؤلاء رزى بن زندورد مولى طيفور بن منصور الحميرى خال المهدي ، والكثير من شعره يخرج عن العروض فلذلك قيل له رزى العروضى^(٤) . ولكن كتب الأدب لم تحفل كثيراً

(١) الشعر والشعراء : ٧٦٦ .

(٢) الأغاني ٤ : ١٣ .

(٣) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين : ١٨٧ .

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية : الترجمة العربية ٢ : ١١ .

بشعر رزين الذى خرج فيه على العروض ، ولهذا لا نستطيع أن نحكم على جدية محاولته، وكل ما ذكر له أبيات من قصيدة فى مدح الحسن بن سهل وهى على عروض جديد حقاً لا يدخل ضمن دوائر الخليل الخمس ولا يلتزم القافية ، وذلك فى قصيدته التى يقول فيها :

قَرَّبُوا جَمَالَهْمَ لِلرَّحِيلِ غُدُوَّةً أَحَبَّتُكَ الْأَقْرَبُونَ
خَلَّفُوكَ ثُمَّ مَضُوا مُدْلِجِينَ مُنْفَرِدًا بِهِمَّكَ مَا وَدَّعُوكَ^(١)

ولكن يبدو أن هذه المحاولة من جانب رزين لم تجد صدقاً قوياً فى الشعراء المعاصرين له ، وإلا لأصبحت الأوزان القديمة أثراً تاريخياً وحلت محلها أوزان أخرى مطلقة القواعد ، حرة الأصول .

ولم تكن الأوزان وحدها موضعاً للخروج عليها من جانب شعراء القرن الثانى ، ولكنهم حاولوا الخروج أيضاً على نظام القصيدة ونظام القافية الواحدة . ويقول كاتب دائرة المعارف الإسلامية إنه فى أوائل الدولة العباسية وليس قبل هذا نشأ ضربان جديدان من الرجز بفعل ما ساور الناس من ملل لكثرة ترديد أبيات رجزية ذات مصراع واحد أو بفعل مؤثرات خارجية . الأول منهما كان بتقفية المصراعين على قافية واحدة ، والثانى وهو أندر كان يجعل كل خمسة مصاريع فى المقطوعة على قافية واحدة . وبهذا وجدت المقطوعات ذات البيتين والخمسة وأطلق على الأولى (المزدوجة) وأطلق على الثانية (الخمسة) . والظاهر أن بشار بن برد هو أول من استعمل التخميس وفى نسخة مخطوطة من ديوان أبى نواس عثر على قصيدة تنسب له ، خمسة طويلة كل مقطع فيها من خمسة مصاريع من الرجز ثلاثى التفعيلات ، وجاء بعض مقاطعها موقوفاً وبعضها الآخر سالماً . وعلى أية حال فقد ظهر فى القرن الثانى اتجاه ملحوظ نحو التخصص فى استعمال هذا البحر . فبينما نراه فى الجاهلية وصدر الإسلام البحر المستعمل فى الحماسة ، فإننا نراه يستعمل بعد ذلك فى القصص والوصف والتعليم خاصة ، ويستعمل أبو نواس الرجز ذا المصراع الواحد والقافية الواحدة سواء أكان موقوفاً أم سالماً فى طردياته خاصة ، وبعضها قصصى والبعض الآخر وصفى^(٢) .

(١) معجم الأدباء ١٥ : ٢٦٥ .

(٢) انظر : دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) ، مادة رجز .

والازدواج والتسميط أو تغير القوافي في القصيدة الواحدة لا يراها ابن رشيق من وسائل الشاعر المبرز فهو يقول : (وقد رأيت جماعة يركبون الخمسات والمسمطات ويكثر منها ، ولم أر متقدماً حاذقاً صنع شيئاً منها ، لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه وضيق عطنه ما خلا امرأ القيس في القصيدة التي نسبت إليه وما أصححها له . وبشار بن برد كان يصنع الخمسات والمزدوجات عبثاً واستهانة بالشعر ، وبشر ابن المعتز فقد أنشد الجاحظ له أول مزدوجة (١) .

ومن هذا النص يتضح لنا موقف العلماء من تغير القوافي وعدم التزام الشعراء قافية واحدة . فهم يصفون الشاعر بالعجز ، ولتأييد تلك النظرة يشكك ابن رشيق في الخمسة المنسوبة لامرئ القيس ، ويرى أن ما نسب لبشار كان من قبيل العبث واللهو .

أما القصيدة المسمطة التي تنسب إلى امرئ القيس فهي قوله :

تَوَهَّمْتُ مِنْ هِنْدٍ مَعَالِمَ أَطْلَالٍ عَفَاهَنْ طُولُ الدَّهْرِ فِي الزَّمَنِ الْخَالِي
مَرَابِعُ مِنْ هِنْدٍ خَلَّتْ وَمَصَائِفُ يَصِيحُ بِمَغْنَاهَا صَدَى وَعَوَازِفُ
وغيرها هُوجُ الرِّيَّاحِ الْعَوَاصِفُ وَكُلُّ مُسِيفٍ ثُمَّ آخِرُ رَادِفُ
بِأَسْحَمَ مِنْ نَوَى السَّمَائِ كَيْنِ هَطَّالٍ (٢)

ولا أدري إن كان هذا النوع من الشعر قد سبق القافية الموحدة — كما يرى عبد الله المجذوب — (٣) فيجوز عندئذ نسبته إلى امرئ القيس ، أم أنه نوع من التنظيم — فيما أرى — يأتي بعد مرحلة القافية الموحدة .

وعلى أية حال فقد نظم شعراء القرن الثاني في المزدوجات كما في أرجوزة أبي العتاهية (ذات الأمثال) ، وكما في نظم أبان اللاحق لكليلة ودمثة الذي يراه يوهان فك مطابقاً للمثنوى الفارسي تمام المطابقة (٤) . ويقول ابن النديم عن أبان إن أكثر شعره مزدوج ومسمط (٥) . وبشر بن المعتز أيضاً له في المزدوج وقد ذكرنا له مثلاً

(١) العملة ١ : ١٢ .

(٢) العملة ١ : ١١٨ .

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب ١ : ١٠ .

(٤) العربية : ٩٦ .

(٥) الفهرست : ١٦٣ .

فيما سبق . ونجد من أوائل الذين كتبوا في هذا الضرب الحديد من القوافي محمد ابن إبراهيم الفزاري في نظمه التعليمي لعلم الفلك وهو من قبيل المزدوج الذي تألف أدواره من ثلاثة أبيات متحدة القافية على بحر الرجز ، وقد أثبتنا ما وجدناه من هذه المنظومة عند الحديث عن الشعر التعليمي .

أما الخمسة التي تنسب إلى أبي نواس فهي اثنا عشر دورا ، كل منها خمسة مصاريع ، الأربعة الأولى منها متحدة القافية ، أما الخامس فهو على قافية أخرى تكرر في المصراع الخامس من كل دور وهي التي يقول فيها :

ما رَوْضُ رِيحَانِكُمُ الزَّاهِرُ وما شَذَى نَشْرَكُمُ العَاطِرُ
وَحَقُّ وَجْدِي وَالْهَوَى قَاهِرُ مُذْ غَبِثْمُو لَمْ يَبْقَ لِي نَاطِرُ
وَالْقَلْبُ لَا سَمَالَ وَلَا صَابِرُ

قالت ألا لا تَلِجَنَّ دَارَنَا وكابدِ الْأَشْوَاقَ مِنْ أَجْلِنَا
وَاصْبِرْ عَلَى مُرِّ الْجَفَا وَالضُّنَى وَلَا تَمُرَّنَّ عَلَى بَيْتِنَا
إِنَّ أَبَانَا رَجُلٌ غَائِرٌ . . .^(١)

ومن المرجح عندي أن هذه الخمسة التي يرويها كمال الدين الدميري مكذوبة النسبة ، أولا لأنها ليست بأسلوب أبي نواس الذي نعرفه حق المعرفة ، وثانياً لأن الدميري وحده هو مصدرها ، وثالثاً لأن القصة المقترنة بها تقول إن أبا نواس أنشدها بين يدي الخليفة المستعين بالله مع أن الثابت أن أبا نواس مات قبل دخول المأمون بغداد .

ولا ندرى صحة ما نسب لأبي نواس وأبي العتاهية من شعر مزدوج . ففي الديوان المخطوط رواية الأصفهاني نجد في الباب الثاني عشر وهو باب المحجون مزدوجة لأبي نواس يقول فيها :

يا راقِدَ اللَّيْلِ احذَرُ مِنْ الْوَيْلِ
لَا تَأْمَنِ الدَّهْرَا إِنَّ لَهُ غَدْرَا
الدَّهْرُ ذُو صَرْفٍ يَرْمِيكَ بِالْحَتَفِ

(١) حياة الحيوان ١ : ٩٦ ، ٩٧ .

يا نَفْسُ يا نَفْسُ لقد مَضَى أَمْسُ
لا بُدَّ مِنْ بَيْنِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ
لا تُطِلِ النَّوْمَ إِنَّ لَهُ يَوْمًا
لِلدَّهْرِ تَقْلِبُ فِيهِ أَعْجَابُ
مَنْ غَالَهُ الْحَيْنُ لَمْ تَرَهُ الْعَيْنُ ...

ويروى الأصفهاني أن أبا العتاهية قد عارض هذه المزدوجة التي كتبها أبو نواس في الزهد بمزدوجة أخرى قال فيها :

إِنَّا لَفِي غُتْرٍ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
حَتَّى مَتَى التَّوَانِي وَنَحْنُ فِي التَّفَانِي
مَا أَوْضَحَ السَّبِيلَا وَأَسْرَعَ الرَّجِيلا
أَمَا تَرَى الْعُيُونُ مَا تَصْنَعُ الْمَنُونُ
أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا أَفْنَاهُمْ الزَّمَانُ
رَأَيْتُ كُلَّ يَوْمٍ فِيهِ هَلَاكُ قَوْمٍ^(١)

وعلى أية حال فإن أبا العتاهية قد كتب مزدوجة طويلة هي ذات الأمثال كما سبق أن ذكرنا .

ويرجح يوهان فلك صحة ما يروى عن بشار من أنه حاول نظم المزدوج والموشح ، كما يرى أن القرن الثاني ربما شهد نشأة الدوبيت أو الرباعي الذي تتحد مصاريعه في القافية ما عدا المصراع الثالث ، ويقول إن هذا القالب الذي لعب في وقت متأخر دوراً عظيماً في الشعر الفارسي يقرن أيضاً ببشار بن برد إذ روى أنه قال هذا الرباعي الخالي فيما يظهر من الإعراب في أواخره :

رَبَابُ رَبَّةُ الْبَيْتِ تَصُبُّ الْخَلَّ فِي الزَّيْتِ
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكَ حَسَنُ الصَّوْتِ^(٢)

(١) ديوان أبي نواس رواية الأصفهاني : ورقة ٢٢٩ (مخطوط) .

(٢) العربية : ٩٨ .

وإذا صبح ما نقله محمد الطاهر بن عاشور منسوباً إلى بشار في هجاء خياط
أفسد ثوباً له ، لكانت تلك الأبيات رباعية أخرى له وهي قوله :

خاط لي عمرو قبا لَيْتَ عَيْنِهِ سوا
قلت بَيْتاً ليس يَدْرِي أَمَدِيحُ أَم هِجَا^(١)

ويرى يوهان فلك أن وجود قافية مصرعة في داخل البيت وقافية متحدة في جميع
الأبيات في القصيدة يُعدّ تجديدًا في النظام الموسيقي للقصيدة العربية في القرن الثاني^(٢)
وقد نسبت قصيدة في مثل هذا النوع إلى حماد الراوية وهي قوله :

خلافُ الحُلُولِ بتلك الطُّلُولِ وَسَحْبُ الذُّيُولِ بذاك المُقَامِ^(٣)
ونجد أبياتاً متفرقة لأبي الشبص في إحدى قصائده تجري على هذا النسق تقريباً
وإن كان تكرار القافية في الشطر الأول فحسب ، يقول :

أَحْمُ الجَنَاحِ شَدِيدُ الصَّبَاحِ يُبْكِي بَعِينِينَ لَا تَهْمُلَانِ
جَرُورُ الإِزَارِ خَلِيعُ العِذارِ عَلَيَّ لِعَهْدِ الصَّبَا بُرْدَتَانِ^(٤)

بل نجد في ديوان أبي نواس مقطوعة كاملة توجد فيها قواف داخلية متحدة
غير القافية الموحدة الموجودة في أواخر الأبيات وهي التي يقول فيها واصفاً الخمر :

سُلاَفُ دَنْ كُشْمِسِ دَجْنِ	كدمع جَفْنِ كَخْمَرِ عَدْنِ
طَبِخُ شَمْسِ كَلَوْنِ وَرْسِ	رَبِيبُ فُرْسِ حَلِيفُ سِجْنِ
رَأَيْتُ عَلْجَا بباطر نَجَا	لَهَا تَوَجَّيْ وَلَمْ يُثْنِ
حَتَّى تَبَدَّتْ وَقَدْ تَصَدَّتْ	لَنَا وَمَلَّتْ حُلُولَ دَنْ
فاحت بريحِ كَرِيحِ شَيْخِ	يَوْمَ صَبُوحِ وَغَيْمِ دَجْنِ
يَسْقِيكَ ساقِ عَلَى اشْتِياقِ	إِلَى تَلَاقِ بِمَاءِ مُزْنِ

(١) مقدمة ديوان بشار : ١٤ .

(٢) العربية : ٩٧ .

(٣) الأغاني ٥ : ٢٨ .

(٤) طبقات ابن المعتز : ٧٨ .

يُدِيرُ طَرْفًا يُعِيرُ حَتْفًا إِذَا تَكَنَّى مِنَ التَّثْنَى . . (١)

وإذا صحت نسبة هذه الأبيات لكان معنى ذلك أن شعراء القرن الثاني كانوا يستحدثون أنواعاً جديدة من الموسيقى الشعرية في إطار الأوزان القديمة خضوعاً لمقتضيات الغناء في ذلك العصر وتأثيره العميق في الأوزان والقوافي على السواء . ونحن من جانبنا لا نشك في هذه النسبة لأن أبا نواس ليس وحده الذي نجد عنده هذا النوع ، فأبو الشيص وحماد الراوية قد ظهر عندهما كما رأينا، ونخالد القناص له قصيدة على هذا النمط وهي التي يقول فيها :

دَارُ لَجَارِيَةٍ بِيضَاءَ لَاهِيَةٍ كَالشَّمْسِ ضَاحِيَةٍ فِي خَلْقِ جِنَانٍ (٢)
بل إننا نجد أبا العتاهية قد استخدم في بعض الأحيان هذه الموسيقى الداخلية في شعره في مثل قوله :

وذو المناير والعساكر والدساكر والحضائر والمدائن والقرى
وذو المواكب والكتائب والتجائب والمراتب والمناصب في العلى (٣)
بل نجد قبل هؤلاء جميعاً الوليد بن يزيد يلترم هذه القوافي الداخلية المتحدة في إحدى قصائده التي يصف فيها حياته اللاهية الماجنة ، ويقول فيها :

أَحَبُّ الْغِنَاءِ وَشُرْبِ الطَّلَاءِ	وَأَنْسَ النِّسَاءَ وَرَبُّ السُّورِ
وَدَلُّ الْغَوَانِي وَعَرَفَ الْقِيَانِ	بِصُبْحِ بَعْمَانِي قُبَيْلِ السَّحَرِ
فَأَمَّا الصَّبَاحُ فَهَمِّي الْقِدَاحُ	وَنَحِيلُ شَوَاحِ جِيَادِ حُضُرِ
وَيُصَفُّ النَّهَارُ عِرَاكُ الْجَوَارِ	وَحُلُّ الْإِزَارِ إِذَا نَبَتْ هَرَارُ
وَأَمَّا الْعَشِيُّ فَأَمْرٌ جَلِيٌّ	وَقَتْلُ الْكَمِيِّ بِعَضْبِ ذَكَرِ
سَبْتَنِي الْبَغُومُ بِدَلٍّ رَخِيمِ	وَوَجْهِ نَضِيرٍ شَبِيهِ الْقَمَرِ
وَرَدَفِ نَبِيلٍ وَخَدِّ أَسِيلِ	كَسَيْفِ صَقِيلٍ يُحِيرُ الْبَشَرَ (٤)

(١) ديوان أبي نواس : ٣٣٣ .

(٢) طبقات ابن المعتز : ٣٢٥ .

(٣) ديوان أبي العتاهية ٥ : ٨ .

(٤) أنساب الأشراف ٨ : ٣١٩ (مخطوط) .

ونجد من ناحية أخرى بعض الشعراء يتحدثون هذه الموسيقى الداخلية في الأبيات لا عن طريق وجود قواف داخلية ولكن بإيجاد جمل متناسقة من الناحية الموسيقية كما نرى في أبيات علي بن الجهم :

أما ترى اليوم ما أحلى شمائله صَخَوْ وَغَيْمٌ وَإِبْرَاقٌ وَإِرْعَادُ
كَأَنَّهُ أَنْتَ يَا مَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ وَصَلٌ وَهَجْرٌ وَتَقْرِيبٌ وَإِبْعَادُ
وَأَشْرَبُ عَلَى الرَّوْضِ إِذَا حَتَّ زَخَارِفُهُ زَهْرٌ وَنُورٌ وَأَوْرَاقٌ وَأَوْرَادُ
كَأَنَّمَا يَوْمَنَا فِعْلُ الْحَبِيبِ بِنَا بَذَلٌ وَبَخْلٌ وَإِبْعَادُ وَمِيعَادُ
وَلَيْسَ يَذْهَبُ عَنِّي كُلُّ فِعْلِكُمْ غَيٌّ وَرُشْدٌ وَإِصْلَاحٌ وَإِفْسَادُ^(١)

ويحاول يوهان فك أن يثبت أن لغة الشعب بأوزانها الخاصة قد وجدت مساغها في التعبير الأدبي لأول مرة في القرن الثاني، هذا إذا صحت القصة المعروفة التي تقول إن جارية لجعفر بن يحيى بكت سيدها القليل بقصيدة نظمها باللسان الشعبي وكانت تختم أبياتها بقولها : يا مواليه ! . ويقول فك : (بيد أن حظ هذه الأسطورة من الصبغة ضئيل مثل التأويل الذي حاكه بعضهم في أن أول من نظم أغاني الموالية هم عبيد من واسط كانوا يتغنون بها في أثناء العمل . حقاً لقد وجدت في سائر العالم العربي بحور غنائية شعبية ولكنه ليس ممكناً بعد تحديد مبدأ ظهورها بحسب الزمان والمكان ، فجميع هذه الأغاني يناسبها شعر الأدوار الذي تتحد قافية كل دور فيه وإن اختلفت قوافي الأدوار بعضها مع بعض ، على حين أن الشعر العربي لا يعرف من مهده إلا القافية الواحدة في القصيدة كلها)^(٢) .

وإذا صح ما رواه ابن رشيقي منسوباً إلى أبي نواس ، لكان شعراء القرن الثاني قد تحلّلوا تماماً من القوافي في إحدى محاولاتهم للتجديد كما تحلّلوا من الأوزان في بعض هذه المحاولات ، ذلك أن ابن رشيقي يذكر مقطوعة لأبي نواس بلا قافية أو على النظام الذي عرف حديثاً باسم الشعر المرسل ، وهو يقول فيها :

ولقد قُلْتُ لِلْمَلِيحَةِ قَوْلِي

(١) الأغاني ١٠ : ٢٢٤ .

(٢) العربية : ٩٦ .

من بعيدٍ لِمَنْ يُجِبُكَ

إشارةً قُبْلَهُ

فأشارتُ بِمَعْصَمٍ ثُمَّ قَالَتْ

مِنْ بَعِيدٍ خِلَافَ قَوْلِي

إشارةً لَآلَا

فَتَغْنَيْتُ سَاعَةً ثُمَّ إِنِّي

قُلْتُ لِلْبَغْلِ عِنْدَ ذَلِكَ

إشارةً أَمَشَ^(١)

وفي هذه المحاولة لم يتحلل الشاعر من قيد القافية فحسب ، ولكنه تصرف في ترتيب تفعيلات هذا البحر الذي نظم فيه وهو الخفيف تصرفاً واسعاً . وعلى الرغم من أننا ذكرنا لأبي العتاهية بيتين لم يلتزم فيهما قافية موحدة وكذلك رزين العروضي إلا أننا نشك في هذه المقطوعة التي تنسب لأبي نواس لأن أسلوبها لا يشاكل أسلوبه . ومن هذا كله يتضح لنا أن شعراء القرن الثاني قد توسعوا توسعاً كبيراً في استخدام الأوزان القصيرة الرشيقة وأباحوا لأنفسهم تجزئة الأوزان الطويلة التي لم يقدم الشعراء قبلهم على تجزئتها ، كما أنهم ابتكروا أوزاناً جديدة ذكرها الخليل فعلاً ، ولكنه لم يذكر أن العرب في الجاهلية ولا في صدر الإسلام قد نظموا فيها . وقد بلغ تحرر شعراء هذا القرن في ناحية الوزن حدّاً جعلهم يبتكرون أوزاناً أخرى لم يعرفها العرب ولا أثبتها الخليل في عروضه ، ويعتبر شعر رزين العروضي قمة هذه المحاولة . ومع ذلك لم يكتب لهذا الاتجاه الذبوع والانتشار لأن الأوزان العربية — كما سبق أن ذكرنا — متنوعة الموسيقى وافرة الألوان ، مرنة إلى حد كبير بحيث استطاعت أن تستوعب كل تجديدات شعراء القرن الثاني في الموضوع وفي الوزن على السواء . كما أن محاولة رزين ليست إلا رغبة في التحرر من القديم فحسب . أما هي في ذاتها فلا تعدو أن تكون استبدال وزن بوزن بحيث لا يمتاز هذا الوزن الجديد بأية رنة موسيقية معينة ، بل أبجده على العكس بطيئاً ثقيلاً على السمع ، بعكس الأوزان

التي أحيّاها أو حورها أبو العتاهية في حدود دوائر الخليل الخمس فإنها تعبر عن لون موسيقى جديد إذ حاكى صوت مدق القصّار وصوت دق الناقوس . ولم يقتصر الشعراء على التجديد في الصورة العامة للوزن الشعري ، ولكننا رأيناهم يحدثون في الأوزان القديمة تجديدات موسيقية في داخل الأبيات عن طريق تساوي العبارات أو عن طريق وجود قواف داخلية . ثم هم بعد ذلك يحاولون نزع قيود القافية الموحدة فيكتبون في المزدوجات والخمسات وفي أنواع كثيرة من الشعر المسط والرباعي أو الدوبيت في محاولات قليلة . ليس هذا فحسب بل هم يخرجون على القافية من ناحية أخرى وهي ناحية وقوف معنى البيت عندها واستقلاله عن بقية القصيدة . وكان الأقدمون يرون في هذا الخروج عيباً كبيراً يسمونه التضمين ، ولكن أبا العتاهية لم يبال كثيراً بقواعدهم وخرج عليها في قصيدته التي يقول فيها :

ياذا الذي في الحبّ يلجى أما	والله لو كلفت منهُ كما
كلفت من حبّ رّخيمٍ لِمَا	لُمت على الحبّ فذرّني وما
ألّني فإني لست أدري بما	بليت إلا أننى بينما
أنا ببابِ القصرِ في بعض ما	أطوفُ في قصرهم إذ رى
قلبي غزالٌ يسهام ، فما	أخطأ بها قلبي ولكنما
سهماهُ عِنانٍ له كُلمًا	أرادَ قتلى بهما سلماً ^(١)

ومن الواضح تعتمد أبي العتاهية — إن صحت هذه القصيدة — في الخروج على قاعدة القافية التي ينتهى عندها معنى البيت بحيث يبعد كل بيت عن الآخر ويصير وحدة مستقلة . ويظهر هذا التعمد في لزومه ما لا يلزم بتصريح جميع الشطور . ولو أن هذا الخروج على تلك القاعدة وجد استجابة كاملة من الشعراء في القرن الثاني لحدث تغير ضخم في بناء القصيدة العربية كان يؤدي إلى ظهور ألوان شعرية أخرى كالملاحم والمسرحيات ، ولكن يبدو — للأسف — أن تيار العلماء الجارف قضى على هذه المحاولة في مهدها فلم تتعد حدود أبي العتاهية ولا حدود القرن الثاني نفسه .

ولإذا تركنا ناحية الأوزان والقوافي أو موسيقى الشعر بوجه عام إلى الناحية الشكلية الأخرى التي ندرسها في هذا الفصل وهي لغة الشعر وجدنا أنه قد حدث فيها تطور كبير وتجديد ظاهر . ومما لا شك فيه أن اللغة الشعر في كل عصر دلالة على حياته العقلية والاجتماعية . وما دام القرن الثاني قد تطور في هاتين الناحيتين فلا بد أن تكون لغة شعره قد تطورت هي أيضاً ، على الأقل لحدوث تفاعل بينها وبين نفوس الشعراء الذين تطورت عقليتهم وثقافتهم وأسلوب حياتهم . وشوقي ضيف يهون كثيراً من شأن هذا التطور في لغة الشعر فيقول : (كان المظنون أن يحدث تغير واسع في اللغة العربية أثناء العصر العباسي حين اتخذها الأجانب من الأعاجم وسيلة للتعبير عن فكرهم وشعورهم غير أن ذلك انحسر عن تغيرات طفيفة ، وإن كان العباسيون أنفسهم يشيرون إلى ما يسمى بأسلوب المولدين ، ولكن هذا الأسلوب لم يتحول تحولاً تاماً إلى صورة مخالفة للصورة القديمة)^(١) فأين وجه الصواب إذن في هذه القضية ؟ هل تطورت لغة الشعر في القرن الثاني تطوراً كبيراً أم أنها هي نفسها لغة الشعر القديم مع تعديل طفيف ؟

إن الملاحظ يشير إلى وجود لغة مولدة في القرن الثاني كانت أثراً من آثار اختلاط اللغة العربية بلغات أهل البلاد المفتوحة وبخاصة الفرس ، وهذه اللغة المولدة كانت لغة العامة الأكثر شيوعاً ، يقول الملاحظ : (وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر . . ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البطيخ الحربر . . وكذلك أهل الكوفة فإنهم يسمون المسحاة بال ، وبال بالفارسية . . وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها . . والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً وتدع ما هو أظهر وأكثر . ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه وكذلك المثل السائر)^(٢) .

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٦٤ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ١١ ، ١٢ .

إننا لا نقول إن اللغة العربية القديمة قد استبدلت في القرن الثاني بلغة أخرى ،
ولكننا نقول إنها تطورت وتغيرت في طرائق تعبيرها وفي تركيب جملها ، وفي مادتها
اللغوية نفسها . وهذا التطور قد يكون واضحاً وضوحاً جليئاً يدركه الإنسان لأول وهلة
وذلك حين يكون في المادة اللغوية أو طريقة التعبير ، ولكنه يخفى إلا على البصير
حين يكون في تركيب الجملة . ولعل أصدق مثال لذلك ما رواه أبو الفرج الأصفهاني
أن أبا عمرو بن العلاء ومعه خلف الأحمر أتيا بشاراً فقالا له : ما هذه القصيدة
التي أحدثتها في سلم بن قتيبة ؟ قال : هي التي بلغتكما ، قالوا : بلغنا أنك أكثر
فيها من الغريب . فقال : نعم . بلغني أن سلماً يتباصر بالغريب فأحييت أن أورد
عليه ما لا يعرفه ، قالوا : فأنشدناها ، فأنشدهما :

بَكْرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبَكِيرِ

حتى فرغ منها فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان (إن ذاك النجاح)
(بكرا فالنجاح) كان أحسن ، فقال بشار : بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت إن ذاك
النجاح كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : بكرا فالنجاح كان هذا من كلام
المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة^(٢) . وهذه الرواية
إنما تدلنا على الفروق الدقيقة — التي لا يبصرها إلا خبير — بين الأسلوب العربي
القديم والأسلوب المولد في تركيب الجملة^(٣) ، كما تدلنا أيضاً على أن بشاراً وأمثاله
من شعراء القرن الثاني كانوا يتكلفون الأسلوب القديم تكلفاً لإرضاء نزعة الممدوحين
على حساب إحساسهم الفني وميلهم الشعري .

ولعل أول خلاف يقع بين الأسلوب القديم والأسلوب المولد في القرن الثاني هو
الخلاف على مادة اللغة نفسها وهي الألفاظ ، فاللغة القديمة كانت تعتمد على ألفاظ
وحشية جزلة قوية الرنين تفتح الأسماع وتملأ فم منشدتها وآذان سامعيها ، وكان الشعراء
القدامى يصطنعون هذه اللغة لأنها بالفعل لغتهم ونتاج بيئتهم وصدى مجتمعهم وحياتهم

(١) الأغاني ٣ : ١٩٠ .

(٢) يرى عبد القاهر أن من شأن (إن) إذا جاءت على هذا الوجه أن تغني غناء الفاء العاطفة
وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجبياً فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف مقطوعاً
موصولاً معاً ، أفلا ترى أنك لو أسقطت (إن) لم تر الكلام يلتئم ، ولأريت الجملة الثانية لا تتصل
بالأولى (دلائل الإعجاز : ٢١١) .

العقلية . ولكن حين تطورت الحياة الاجتماعية والعقلية للمجتمع الإسلامى وشاعت مظاهر الترف والرفقة فى أنحائه تغير إحساس الناس بالألفاظ فصاروا ينفرون من الوحشى الغليظ ويميلون إلى الرقيق الموحى . ولا عبرة فى هذا بما يقوله « جب » عن تأثير الفرس فى لغة الشعر وميلها إلى الرقة والدمائة^(١) ، ذلك أن التطور الاجتماعى وتطور أحاسيس الشعراء أنفسهم والذوق العام فى العصر هو الذى أدى إلى هذه الرقة والبعد عن الوحشى الغريب . وقد تنبه إلى هذه الحقيقة من قبل قدامة بن جعفر فهو يقول فى كتابه (نقد الشعر) : (من عيوب الشعر أن يركب الشاعر منه ما ليس بمستعمل إلا فى القوط ولا يتكلم به إلا شاذاً . . . وهذا الباب مجوز للقدمات ليس من أجل أنه حسن ، ولكنه لأن من شعرائهم من كان أعرابياً قد غلبت عليه العجرفية . . . ولأن من كان يأتى منهم بالوحشى لم يكن يأتى به على جهة التطلب له والتكلف لما يستعمله منه ، لكن لعادته وعلى سجية لفظه^(٢)) .

وقد أدرك يوهان فلك التطور الذى حدث فى لغة الشعر فى القرن الثانى فقال إن الذى دعا إليه هو الانتقال من حياة البداوة إلى حضارة المدن وتغلغل غير العرب فى مناطق الأدب ، ولهذا تراجع فى ذلك العهد الطابع الوحشى للعربية القديمة بثروتها الفياضة فى الألفاظ والقوالب أمام أسلوب منمق مهذب لا يسبب استوائه وسهولته صعوبات ذات بال للأفهام . وهذه اللغة المنسكبة الواضحة سرعان ما احتذيت واستعملت فى الأدب من قبل المثقفين جميعاً فى العالم الإسلامى دون تمييز بين أصل وجنس ، ولا بين لغة أصلية ولهجة وطنية خاصة^(٣) .

وما يقوله يوهان فلك حقيقة جذيرة بالنظر ، فالأسلوب المولد ، أو الأسلوب العربى المتطور لم يكن وفقاً على الشعراء المولدين دون غيرهم ، بل كان لغة الشعر نفسها بصفة عامة ، إذا استثنينا تيار الشعر المحافظ الذى لم تتطور لغته ، ذلك التيار الذى لم يكن له كبير تأثير على الصورة العامة للشعر فى القرن الثانى . وقد سئل السيد الحميرى : مالك لا تستعمل فى شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء ؟ فقال : لأن أقول شعراً قريباً من القلوب بلذه من سمعه خير من أن أقول شيئاً متعقداً تضل فيه الأوهام^(٤) .

(٢) نقد الشعر : ١٧٠ ، ١٧١ .

(١) Arabic Literature : ٤٢

(٤) الأغاني ٧ : ٢٤٨ .

(٣) انظر : العربية : ٥٨ .

والسيد الحميرى بهذه الحملة البسيطة إنما يضع يده على مشكلة فنية دقيقة تتعلق بجمال الشعر وقيمته ، فأيهما أجمل فى رأى الناس : أن يفهموا الشعر فهماً مباشراً لبساطته وسهولة تعبيره أم أن يفهموه بعد أن يتكلفوا له الجهد والفهم الشئ الكثير لتعقيده وإغرابه ؟ والمذهبان فيما يبدو كان لهما أنصار فى القديم كما يوجد لهما أنصار فى عصرنا الحاضر . ومحك التفرقة — فى رأى — هو الاقتراب من الشعبية والبعد عنها ، فأنصار الشعر البسيط الذى تصل معانيه مباشرة إلى نفوس الناس فتتفاعل بها هم الذين يؤيدون اقتراب الشعر من عامة الناس وتصويره لعواطفهم وأفكارهم . أما أنصار الشعر المعقد الغريب الذى تلتوى معه الأفهام فهم الذين يرون فى الشعر فناً سامياً لا يجوز أن يقترب من الأوساط الشعبية ، بل يظل محلقاً بأفكاره الغامضة وأسلوبه المعقد الغريب فى سموات عالية .

وقد وضح هذا الفرق جيداً فى الخلاف بين أنصار لغة الشعر القديمة — وهم علماء اللغة ورواة الشعر القديم الذين يحرصون على بضاعتهم — وبين أنصار لغة الشعر الحديثة وهم الشعراء أنفسهم الذين كانوا صدى طبيعياً لتطور مجتمعهم وتطور الحياة من حولهم فى مظاهرها المختلفة المادية والمعنوية على السواء . لقد كان معظم الشعراء المحجدين فى هذا القرن يحرصون على أن تكون لغة شعرهم هى لغة الحياة اليومية نفسها ، أو على الأقل أن تكون قريبة منها ، ولهذا وجد من بين هؤلاء الشعراء كثيرون كان نظم الشعر عليهم أهون من شرب الماء كما يقولون . والسبب فى ذلك أنهم لم يكونوا مضطرين إلى اصطناع لغة شعرية عالية تغاير اللغة الشائعة فى مجتمعهم فيضطدم إلهامهم عند ذاك بعقبة كأداء تجعل نظمهم بطيئاً . ولم يكونوا مضطرين أيضاً إلى التأنق فى ألفاظهم والتروى فيها مثلما كان يفعل بعض الشعراء من المتكلفين فى عصرهم ومثلما كان يفعل زهير والحطيئة وغيرهما فى الجاهلية ممن أطلق عليهم اسم عبيد الشعر ، لم يكونوا مضطرين إلى شئ من هذا كله ، لذلك كانت تنثال عليهم الأشعار فى سهولة وبساطة تعبر عن أفكارهم مباشرة بلا تعقيد ، وتؤدى هذه المعانى المباشرة ألفاظ سهلة موحية قريبة من لغة الحياة اليومية أو هى بالفعل منها . وسرعان ما تذيع هذه الأشعار ويقبل عليها الناس فى سهولة ويسر وتصبح جزءاً من ثقافتهم ومرآة تنعكس عليها أفكارهم وعواطفهم .

ومن هؤلاء الشعراء أبو الشيص الذي يقول عنه الأصفهاني : (كان الشعر عليه أهون من شرب الماء على العطشان^(١)) ، كما نجد هذه السهولة المفرطة عند أبي دلالة في مثل قوله :

أبلغني سيّدتي بالله يا أمّ عبّيدة^(٢)

وعند ربيعة الرقي الذي يشبه أبو الفرج أسلوبه بأسلوب أبي العتاهية المفرط في السهولة^(٣) . وكذلك كان شعر إبراهيم الموصلي ليناً رقيق الألفاظ بسيط التعبير ، كما في قوله مثلاً :

لِذَاتِ الْخَالِ أَرْقَنِي خَيَالُ بَاتَ يَلْتُمُنِي
بِكَي وَجَرِي لَهُ دَمْعٌ لَمَّا بِالْقَلْبِ مِنْ حُزْنِ
فَلَا أَنْسَاهُ أَوْ أَنْسَى إِذَا أُدْرِجْتُ فِي كَفَنِي^(٤)

وتنضح شعبية الأسلوب الشعري عند بعض الشعراء واختيارهم ألفاظهم من لغة الحياة اليومية في مثل شعر أبي الشمقمق الذي يعتبر شاعر الفقر في القرن الثاني ، كما في قوله :

ولقد قلتُ حينَ أَحْجَرَنِي الْبَرْدُ مَ كَمَا تَحْجَرُ الْكِلَابُ تُعَالَهُ
فِي مَبِيتٍ مِنَ الْغَضَارَةِ قَفَرٍ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا النُّوَى وَالنُّخَالَهُ
عَطَّلَتْهُ الْجُرْدَانُ مِنْ قِلَّةِ الْخَيْرِ مَ وَطَارَ الدُّبَابُ نَحْوَ زُبَالَهُ
هَارِبَاتٍ مِنْهُ إِلَى كُلِّ خَصْبٍ حِينَ لَمْ يَرْتَجِينَ مِنْهُ بِلَالَهُ
وَأَقَامَ السَّنَوْرُ فِيهِ بِشَرٍّ يَسْأَلُ اللَّهُ ذَا الْعُلَا وَالْجَلَالَهُ^(٥)

ولم يكن الأسلوب المولد يمتاز بالبساطة في التراكيب ورقة الألفاظ وسهولتها وبعدها عن الغريب واقترابها من لغة الحياة العادية فحسب ، ولكنه أيضاً كان

(١) الأغاني ١٥ : ١٠٤ .

(٢) ديوان أبي دلالة : ١٤٨ .

(٣) الأغاني ١٥ : ٣٧ .

(٤) الأغاني ١٥ : ٨١ .

(٥) شعراء عباسيون : ١٤٩ .

ذا سمات جديدة من ناحية خروجه على بعض قواعد اللغة ليستكمل في الغالب صورته الشعبية وغايته في السهولة والرفقة والوضوح . فقد لاحظ يوهان فك أن في شعر محمد بن يسير مثلاً بعض السمات المولدة الطابع مثل حذف الهمزة المحققة لا في الصيغ الدارجة فحسب ، بل كذلك في مثل قراة بدلاً من قراءة^(١) ، كما أنه أدخل نوعاً من الاختصار الذي اشتهر في اللهجات المتأخرة بجمعه لفظ شاهين بمعنى صقر على شواهن^(٢) . كما أنه يلاحظ أن بشاراً كان يستعمل أحياناً عبارات شعبية مثل استعماله لفظ قارورة أى زجاجة بمعنى المرأة ، وكان لا يرى بأساً في أن يدخل في شعره رطانة نبطية ليقلد أسلوب نبطي في النطق كما في قوله (لا دَهْل من جَمَلًا) أى لا خوف من الحمل^(٣) .

ويبدو أن أصحاب الأسلوب المولد كانوا يريدون التوسع في استخدام الألفاظ العربية القديمة وفق هواهم ، وابتكار اشتقاقات لهذه الألفاظ بعيدة عن المشتقات المألوفة ، ومن ذلك قول بشار :

على الغزلى سَلامُ الله مِنّى وإنْ صَنَعَ الخَلِيفَةُ ما يَشَاءُ

فليس في المصادر على وزن فعلى هذا الجمع (الغزلى) ولهذا خطأ سيوييه بشاراً فيه^(٤) ، كما خطأه في مشتقات مماثلة . وليس في اللغة أيضاً كلمة (الزراء) بالمعنى الذى أراده بشار في قوله :

ليس مِنّا مَنْ لا يُعَابُ فاعْضَى رَبُّ زارٍ بادٍ عليه الزَّراءُ^(٥)

ونجد المولدين أيضاً يتوسعون في حذف الهمزة بعد المد أى تسهيلها فيقولون (ورا) بدلاً من وراء ، كما في قول الوليد بن يزيد :

إِنّى سَمِعْتُ بَلِيلَ وَرا المُصَلّى بِرَنَّةٍ

وكما نجد في شعر أبي العتاهية (الأحياء) بدلاً من (الأحياء) حيث يقول :

(١) انظر : الأغاني : ١٢ : ١٣٣ .

(٢) العربية : ٩٥ .

(٣) العربية : ٥٨ .

(٤) انظر : ديوان بشار ١ : ١٠٥ .

(٥) المصدر نفسه ١ : ١١٥ .

نخرجنا مِنَ الدُّنْيَا ونَحْنُ مِنَ أَهْلِهَا فَلَا نَحْنُ فِي الْأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الْأَحْيَا^(١)
و (الما) بدلا من (الماء) في قوله : (فَإِنَّمَا النَّاسُ تَرَابٌ وَمَا)

و (الفنا) بدلا من (الفناء) في قول بشار :

(قُلْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ عِيِ الْفَنَاءِ)^(٢)

بل نجدهم أيضاً يتوسعون في حذف الهمزة عموماً مثل (راس) بدلا من (رأس)
و (باس) بدلا من (بأس) كما في قول أبي نواس :

بِكَ أَسْتَجِيرُ مِنَ الرُّدَى وَأَعُوذُ مِنْ سَطَوَاتِ بَاسِكَ

وَحَيَاةِ رَاسِكَ لَا أَعُوذُ لِمِثْلِهَا وَحَيَاةِ رَاسِكَ

و (قَرَاهُ) بدلا من (قَرَأَهُ) في قول أبي نواس أيضاً :

كُلَّمَا خَطَّ أَبَا جَادٍ قَرَاهُ فَمَحَاهُ

و (جِيتُ) بدلا من (جِئْتُ) كما في قول بشار :

أَحْيَى لَيْسَ لِي صَبْرٌ وَإِنْ رَخَّصْتَ لِي جِيتُ^(٣)

وكان الشعراء المولدون أيضاً يستخدمون ألفاظاً شعبية جديدة في مثل قول بشار :

وَعْدَاةَ الْخَمِيسِ قَدْ مَوْتَنَنِي ثُمَّ رَاحْتُ فِي الْحُلَّةِ الْخَضْرَاءِ

ولفظ (موتني) من الألفاظ الجديدة في شعر أهل العصر من المولدين ،
والأصل أمات وهو من قياس التضعيف على همزة التعدية^(٤) . ولفظ (ست) أيضاً

من الألفاظ المولدة الجديدة التي دخلت لغة الشعر في هذا العصر ، يقول بشار :

بِتُّ بِهِ أَسْفَى رَهَاوِيَّةً لَعَبَبَ سِتُّ خُلِقْتُ لِلْعَابِ^(٥)

ومن الألفاظ الجديدة التي نجدناها عند بشار أيضاً كلمة (المسباح) في قوله :

وَأَصَابَهُ سِحْرُ الْبَخِيلَةِ بَعْدَ مَا أَلِفَ الصَّلَاةَ وَعَادَ بِالمِسْبَاحِ

(١) ديوان أبي العتاهية : ١٠ .

(٢) ديوان بشار ١ : ١٣٣ .

(٣) ديوان بشار ٢ : ٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ١ : ١١٥ .

(٥) المصدر نفسه ١ : ٢٧٦ .

والسبحة مولدة اسماً ومسمى في القرن الأول وأصل السبحة في العربية صلاة النافلة^(١) .

كما نجد عند أبي نواس استعمال (باس يبوس) بمعنى قبل - وهو لفظ مولد - في قوله :

ولو عَلِمْنَا أَنَّهُ هَكَذَا كُنَّا إِذَا بُسْنَا مَسْحَنَاهَا

والشعراء المولدون كانوا في سبيل تصوير كلام العامة لا يبالون بحركات الإعراب أو همزات القطع والوصل وما أشبه ، فأبو نواس يقول في إحدى قصائده :

قَالَ حَفْصُ إِجْلِدُوهُ إِنَّهُ عِنْدِي بَلِيدٌ

عِنْدَهَا قَالَ حَبِيبِي يَا مُعَلِّمٌ لَا أَعُودُ

فقطع الهمزة في قوله (اجلدوه) وسكن آخر (يا معلم) .

ولم تقتصر لغة الشعر المولدة على استخدام ألفاظ دارجة شعبية ولكنها كثيراً ما تضمنت عبارات مستقاة من أفواه العامة في ذلك العصر ، ومن ذلك مخاطبة الحبيبة بعبارة (يا نور عيني) التي ترد كثيراً في شعر أبي نواس وبشار ، يقول أبو نواس :

عِنَانُ يَا نُورَ عَيْنِي قَدْ حَلَّ جَسْمِي الْخُطُوبَا

ويقول بشار :

نُورَ عَيْنِي أَصَبْتُ عَيْنِي بِسَكْبٍ يَوْمَ فَارَقْتَنِي عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ

وكانوا يصفون الشخص العزيز في لغتهم العامية بأنه (على العينين والرأس) كما في قول بشار :

لَقَدْ كُنْتُ عَلَى الْعَيْنَيْنِ مِ وَالرَّأْسِ فَتُحِيتُ

وحين يطلب بشار من محبوبته أن تجد في حبها إياه يقول لها (لا تلعي بحياتي) وحين يستغرب هجرها يقول (كأني قد قتلت لها قتيلاً) .

وتضمنت لغة الشعر أيضاً في ذلك العصر أمثالا شعبية بعضها يرجع إلى

أصل فارسي ، كما لم تجد هذه اللغة بأساً في أن تتضمن ألفاظاً فارسية بكثرة — كما سبق أن رأينا في فصل سابق — وهذه الناحية نتيجة طبيعية لأثر التوليد أو اختلاط اللغة العربية القديمة بلغات الأمم المفتوحة وأهمها الفارسية .

ومن الأمثلة والعادات الشعبية التي نجدتها في شعر بشار ما يقوله العامة عن اختلاج العين وارتباطه بالخير أو الشر ، فهو يذكر هذه الفكرة الشائعة في قوله :

إِنِّي أَبَشِّرُ نَفْسِي كُلَّمَا اخْتَلَجَتْ عَيْنِي أَقُولُ بِنَيْلِ مِنْكَ تَخْتَلِجُ^(١)

وهذه العادة يذكرها أبو نواس أيضاً في أكثر من موضع في شعره .
وكثيراً ما يتحدث العامة عن أم العروس وكيف أن فرحتها بزواج ابنتها لا يعادله شيء وقد ذكر بشار هذه الفكرة قائلاً :

وَمَا كَانَ إِلَّا كَأَمِّ الْعُرُوسِ إِذَا نَكَحَتْ بِنْتُهَا تَفْرَحُ^(٢)

والتعبير عن الأخوة والصدقة بأكل الخبز والملح يذكره بشار أيضاً مع بعض التحوير في قوله :

صَبِرْتُ عَلَيْهِ حَتَّى بَانَ فَسْلاً كَأَنَّ إِخَاءَهُ خُبِزٌ وَمِلْحُ^(٣)

وأبو نواس يستخدم مثلاً فارسياً، واضح أنه من أمثال العامة في قوله :
كَقَوْلِ كِسْرَى فِيمَا تَمَثَّلَهُ مِنْ فُرْصِ اللَّصِّ ضَجَّةُ السُّوقِ
ويستخدم مثلاً آخر من هذا النوع فيقول :

لَا تُعْطِينَ الصَّبِيَّ وَاحِدَةً يَطْلُبُ أُخْرَى بِأَعْنَفِ الطَّلَبِ

ومن الأمثال الشعبية التي أدخلها أبو نواس في لغة شعره قوله :

وَمَنْ غَابَ عَنِ الْعَيْنِ فَقَدْ غَابَ عَنِ الْقَلْبِ

وقد تنبه اللميري من قبل إلى وجود أمثال مولدة ليست من كلام العرب في أشعار المحدثين ، وذكر لها مثلين الأول لبشار حيث يقول :

(١) ديوان بشار ١ : ٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ١ : ١١١ .

(٣) المصدر نفسه ١ : ١٤٧ .

أَبَا مِخْلَفٍ مَا زِلْتَ نَبَّاحَ غَمْرَةٍ صَغِيرًا فَلَمَّا سُبَّتْ خَبِثَتْ بِالشَّاطِئِ
كِسْنُورٍ عَبْدَ اللَّهِ بَيْعَ بَدْرِهِمْ صَغِيرًا فَلَمَّا شَبَّ بَيْعَ بَقِيرِاطٍ^(١)

أما المثال الثاني فهو من شعر أبي نواس إذ يقول :

إِنِّي أَظُنُّكَ تَحْكِي بِمَا فَعَلْتَ الْقِرْلَى

ويشرح الهميري معنى (القِرْلَى) فيقول إنه طائر صغير الجرم حديد البصر سريع الاختطاف وهو فارسي معرب^(٢) والحقيقة إن لغة الشعر المولدة بجميع عناصرها وسماتها تظهر وتتضح عند بشار وأبي نواس في بابي التغزل والهجاء بالذات لأنهما أكثر أبواب الشعر اقتراباً من نفوس الجماهير وأحظاهما عند الناس من الناحية الموضوعية ، فكان من الطبيعي أن يصاغ موضوعهما في شكل يلائمه من ناحية الشعبية والبساطة التي تجعل عامة الناس تقبل على مثل هذه الأشعار ، أما أبو العتاهية فتتضح لغة شعره المولدة في ديوانه كله في جميع الموضوعات التي نخاض فيها وما أقلها إلى جانب موضع الزهد ، ولما كان الزهد - الذي يتضمن الموعظة الحسنة والتذكير بالآثم السالفة وبالموت وبتفاهة الحياة الدنيا وما إلى ذلك - من أقرب الموضوعات وأحبها إلى نفوس الجماهير ؛ لهذا كان من العبث أن يصاغ هذا الفن في اللغة الشعرية القديمة ذات الألفاظ الغريبة الجزلة والعبارات الرنانة الخطابية وطرق التعبير التي أصبحت غريبة على الناس . وكان من الضروري اختيار عناصر لغة الشعر الزهدي من لغة الحياة اليومية ليفهمها الناس فهماً مباشراً ، ويتأثروا بمعانيها فتحدث الاستجابة المطلوبة . وكان أبو العتاهية نفسه مدركاً تماماً لهذه الفكرة فهو يقول : (الشعر ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين أو مثل شعر بشار وابن هرمة فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ولا سيما الأشعار التي في الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر وطلاب الغريب^(٣)) .

(١) حياة الحيوان ٢ : ٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ٢ : ٢٧٢ .

(٣) الأغاني ٤ : ٧٠ .

وأبو العتاهية يضع أيدينا في هذه العبارة على تطور لغة الشعر بصورة عامة ،
 فالشعر عنده ثلاثة أنواع : شعر فحل، قاله المتقدمون ، شعر وسط كان يتردد
 بين الفحولة والشعبية كشعر بشار وابن هرمة وأضرابهما ، شعر شعبي يبتعد عن
 الفحولة تماماً كشعره هو نفسه . وخاصة لأنه اختار الزهد موضوعاً لهذا الشعر ،
 وهو ليس محل إعجاب الملوك من ناحية موضوعه وما فيه من تذكير بالموت وتفاهة
 الحياة الدنيا ، وقيمة العمل الصالح إلى غير ذلك ، كما أنه ليس محل إعجاب الرواة
 الذين لا يبغون له الذيوع والانتشار بين الناس لسهولة وفهم الناس له لمشاكلته
 لغتهم وحياتهم ، وهذا يفسد عليهم صناعتهم كرواة للشعر الفحل القديم يتكسبون
 بهذه الرواية . وأخيراً فهذا الشعر الشعبي ليس محل إعجاب علماء اللغة لأن كل
 ما يطلبونه من الشعر ليس جمال مبناه ولا معناه ولكن ما به من الغريب الشاذ الذي
 لم تلتقطه أسماعهم من أفواه الأعراب الضاربين في البوادي .

والحقيقة إن استخدام بشار للأسلوب المولد كان محدوداً بالنسبة لما نجده عند
 أبي نواس وأبي العتاهية . وكان اقترابه من حدود الشعبية أقل بكثير من إيغالهما
 في ميدانها . وقد سبق أن تنبه ابن شرف القيرواني إلى شعبية شعر أبي نواس وخروجه
 عن الأسلوب العربي القديم في الموضوعات المحببة إلى نفسه وإلى نفوس الناس ،
 كالتغزل والمجون وما أشبه من الموضوعات التي يبعد فيها عن التكلف والتصنع كما في
 شعر المديح والطرده والرثاء ، فقال : (. . .) وأما أبو نواس فأول الناس في خرم
 التماس ، وذلك أنه ترك السيرة الأولى ونكب عن الطريقة المثلى وجعل الجلد هزلاً
 والصعب سهلاً ، فلهل المسرد وبلبل المنضد وخلخل المنجد وترك الدعائم وبنى
 على الطامى والعائم ، وصادف الأفهام قد نكلت وأسباب العربية قد تخلخلت
 وانحلت والفصاحات الصحيحة قد سثمت وملت ، فقال الناس إلى ما عرفوه وعلقت
 نفوسهم مما ألفوه ، فتهاذوا شعره وأغلوا سعره وشغفوا بأسخفه وكلفوا بأضعفه . وكان
 ساعده أقوى وسراجه أضوى ، لكنه عرض الأنفق وأهدى الأوفق وخالف فشر
 وعرف وأغرب فذكر واستظرف ، والعوام تختار هذه الأعلاق وأسواقهم أوسع
 الأسواق ، فشعر أبي نواس نافق عند هذه الأجناس ، كاسد عند أنقد الناس^(١) .

ولكن كساد ورواج هذا الشعر الذى يقرب من الشعبية أمر مختلف عليه ، والمحك فيه عدم ابتداله وسقوط معناه ، فالشعبية لا تعنى أبداً تفاهة الشعر وسقوطه إلا عند علماء اللغة ورواة الشعر القديم الفحل ، وابن شرف يتابعهم فيما يبدو لأنه يرى بعد ذلك أن أبا نواس تدارك (بفصيح طروده) ضعف شعره .

وقد تعرض أبو العتاهية لمثل هذا التحامل من جانب العلماء فقد اتهموا شعره بالضعف وكانوا يسمونه المخنث المفكك لسهولة شعره^(١) . وكان هو نفسه يعترف بهذه السهولة لأنها مذهبه فى الشعر كما رأينا ، وقد سئل كيف تقول الشعر فقال : ما أردت قط إلا مثل لى فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد^(٢) .

ومن العجيب أن ابن الأعرابي الذى عرف بتعصبه للشعر القديم وتهجمه على شعر المحدثين ، قد قن ببساطة وسهولة شعر أبي العتاهية فرد على الذين ضعفوه بقوله : ما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر^(٣) .

ويروى صاحب الموشح أنه قيل لأعرابي مرة : أيعجبك هذا البيت :

عُتِيبُ السَّاعَةِ السَّاعَةُ أَمُوتُ السَّاعَةُ السَّاعَةُ

قال : لا والله ولكنه يغمى^(٤) .

ولعل هذا المذهب الذى حكم به الأعرابي على تغزل أبي العتاهية هو نفسه الذى جعل ابن قتيبة يضعف تغزل أبي العتاهية ويقول عنه إنه مشاكل لطبائع النساء^(٥) . وكان العلماء والشعراء يأخذون على أبي العتاهية استخدامه فى لغة شعره ألفاظاً لا يرونها (شعرية) مثل (تقفز) فى قوله : (رويدك يا إنسان لا أنت تقفز) . وقد علق مسلم بن الوليد على ذلك بقوله : (أخرجت تقفز من فم شاعر محسن قط^(٦) ؟) مع أن كلمة (تقفز) هنا فى موضعها التعبيرى تماماً وما سواها لا يصلح فى مكانها ، ولا شك أن الفكرة القديمة عن وجود ألفاظ شعرية وأخرى غير شعرية

(١) الأغاني ٤ : ٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ٤ : ١٣ .

(٣) الأغاني ٤ : ١٤ .

(٤) الموشح : ٢٥٥ .

(٥) الشعر والشعراء : ٧٦٥ .

(٦) الموشح : ٢٦٠ .

لم تجد صدى كبيراً عند شعراء القرن الثاني الذين اقتربوا بلغتهم من لغة التخاطب العادية ، وكان مذهبهم في اختيار الألفاظ ملاءمتها للناحية التعبيرية لا من حيث هي كلمات مفردة ولكن من حيث مساقها التعبيري وارتباط بعضها ببعض ، لأن جمال الشكل في الشعر لا يمكن أن يركز على الألفاظ المفردة ولكن على تشابكها وقوة تعبيرها وتصويرها للمادة الموضوعية .

والحقيقة إن شعبية أبي العتاهية اللفظية والموضوعية على السواء قد أدت بلغة الشعر في القرن الثاني إلى مرحلة جديدة وتطور ظاهر ، ذلك أنها اقتربت بلغة الشعر من النثر اقتراباً واضحاً ، ولهذا نوافق على ما قاله أحد الباحثين من أن شعر أبي العتاهية يعتبر مرحلة بين الشعر في أسلوبه الفني المؤلف ، وبين النثر المنطلق من القيود الفنية القادر على التعبير عن الأفكار بكل حرية^(١) .

ولعل خروج أبي العتاهية على قاعدة القافية فيما يسمى بالتضمن كان محاولة منه للاقتراب بالشعر إلى أقصى حد من النثرية ، وإلا فماذا كان هدفه في هذه المحاولة :

يا ذا الذي في الحُبِّ يلحى أما والله لو كَلِفْتُ مِنْهُ كما
كَلِفْتُ مِنْ حُبِّ رَخِيمٍ لَمَّا لُئِمْتُ عَلَى الْحُبِّ فَذَرْنِي وَمَا... إلخ
وتتضح لنا هذه النثرية في قصائد كثيرة له يكاد ينسى الإنسان حين يقرأها أنها شعر له وزن وله قافية والذي يهتئ له هذا الإحساس استخدام أبي العتاهية لعبارات نداء مثل (أخي) و (أيا إخوتي) و (يا أخي) :

فلا تَعْشَقِ الدُّنْيَا أَخِي فَإِنَّمَا يرى عاشقُ الدُّنْيَا بِجَهْدِ بلاءِ
(أيا إخوتي آجالنا تَتَقَرَّبُ)

ليس هذا فحسب بل نجد أبا العتاهية يكرر أحياناً عبارات النداء مما يشعر بالنثرية أيضاً كما في قوله :

يا مَوْتُ يا مَوْتُ كم أَخِي ثِقَةٌ كَلَفْنِي غَمَضَ عَيْنِهِ بِيَدِي
يا مَوْتُ يا مَوْتُ

(١) الشعر في بغداد : ٢٩ .

(٢) ديوان أبي العتاهية : ٧١ .

وهو يأخذ في تكرار هذه العبارة في أربعة أبيات متتالية ، وتنضح لنا ثرية شعره أيضاً بسبب تكرار بعض العبارات التي كثيراً ما تكون عبارات ثرية عادية كما في قوله :

ماتَ وَاللَّهِ سَعِيدُ بْنُ وَهْبٍ رَحِمَ اللَّهُ سَعِيدَ بْنَ وَهْبٍ
يا أبا عُمَانَ أَبَكَيْتَ عَيْنِي يا أبا عُمَانَ أَوْ جَعْتَ قَلْبِي^(١)
ويبدو أن أبا العتاهية لم يكن وحده في محاولة الاقتراب بلغة الشعر من الثرية حتى في أكثر فنون الشعر صرامة كالرثاء والمدح ، فطيفور يروي لنا أبياتاً للبطين الحمصي في مدح عبد الله بن طاهر تنضح فيها هذه النزعة نحو الثرية إذ يقول :

مَرْحَباً مَرْحَباً وَأَهلاً وَسَهلاً يا ابنَ ذِي الْجُودِ طَاهِرَ بْنَ الْحُسَيْنِ
مَرْحَباً مَرْحَباً وَأَهلاً وَسَهلاً يا ابنَ ذِي الْعِزَّةِ فِي الدَّعْوَتَيْنِ
مَرْحَباً مَرْحَباً بِمَنْ كَفَّهُ الْبَحْرُ م إذا فَاضَ مُزِيدَ الرَّجَوَيْنِ^(٢)
وعلى العموم فقد كان نزوع الشعر إلى الشعبية مرتبطاً بنزوعه نحو الثرية أيضاً كما هو ظاهر في الأمثلة التي قدمناها .

وكان من الطبيعي أن تتأثر لغة الشعر في القرن الثاني بأنواع الثقافة التي كانت تشيع فيه . ومن أبرزها الفلسفة وعلم الكلام ، ولهذا دخلت في لغة الشعر تعبيرات كثيرة لم تكن موجودة من قبل في لغة الشعر القديم من مثل قول أبي نواس :

تَكِلُ عَنْ إدْرَاكِ تَحْصِيلِهِ عَيْنُ أَوْهَامِ الضَّيَّابِ
وقوله :

تَأْمَلُ الْعَيْنُ مِنْهَا محاسناً ليس تنفذ
فبعضُها يَتَنَاهَى وبعضُها يَتَوَلَّدُ

إلى آخر هذه التعبيرات التي سبق لنا أن أشرنا إليها عند الحديث عن الشعر المذهبي .

وما تقدم يتضح لنا أن لغة الشعر في القرن الثاني قد تطورت بالنسبة للغة الشعر

(١) الموشح : ٢٥٨ .

(٢) كتاب بغداد : ٨٩ .

القديم تطوراً بيناً ظهر أثره في مادتها اللغوية وطرق تعبيرها بإدخال ألفاظ وأمثلة أجنبية ، وألفاظ وأمثلة تتردد بين عامة الناس ، وتعبيرات تناهت إليها من الثقافات التي كانت شائعة في ذلك العصر ، كما ظهر أثره أيضاً في هجر الألفاظ الجزلة القديمة والبعد عن الحوشي الغريب ما أمكن ، واستخدام ألفاظ رقيقة سهلة . ليس هذا فحسب بل تطور الأمر إلى حد اختيار ألفاظ وتعبيرات من لغة التخاطب العادية في الحياة اليومية ، فالت لغة الشعر في بعض الفترات وعند بعض الشعراء إلى الناحية الشعبية ، كما تطورت من ناحية أخرى بالنزوع إلى لغة النثر العادية إمعاناً في السهولة والوضوح والبعد عن التراكيب اللغوية المعقدة وما فيها من تقديم وتأخير وحذف وزيادة وما إلى ذلك . وتحرر شعراء القرن الثاني في استخدام كثير من الألفاظ والمشتقات وصيغ الجموع ، وفي حذف الهمزات بعد المد أو في وسط الكلمات ، وفي إغفال همزة القطع أحياناً وذكر همزة الوصل أحياناً أخرى ، وفي إغفال حركات الإعراب على أواخر الكلمات واختصار صور بعض الألفاظ وما إلى ذلك مما قدمنا له أمثلة مختلفة .

وهكذا تطور عنصران مهمان من عناصر الشكل في شعر القرن الثاني هما الأوزان ولغة الشعر ، وكان هذا التطور ضرورياً ليتسق ويتلاءم مع التطور الموضوعي الذي عرضنا اتجاهاته فيما سبق . وسنرى في الفصل الثاني كيف أن بقية عناصر الشكل وهي الصنعة الشعرية اللفظية والمعنوية على السواء قد تطورت أيضاً بتطور العناصر الشكلية الأخرى .

الفصل الثاني

الصنعة الشعرية

حينما قال الملاحظ إن الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير لم يكن يتحدث عبثاً ، ولكنه كان يعنى ما يقوله تماماً بعقل المفكر وإحساس الفنان . فالشعر لا يمكن أن يسمى شعراً ما لم تدخله الصناعة الفنية الدقيقة لتبرز معانيه وتضعها في صور رائعة معجبة يضفي عليها الخيال ألواناً جذابة فتعلق بالنفوس وتناط بالعقول ويحس الإنسان معها بمتعة الحس ولذة القراءة والتفكير معاً . إن المعاني المجردة قد تكون أساساً في حقائق العلوم والمعارف الإنسانية ، ولكنها لا يمكن أن تكون أساس الشعر وغايته ، بل لا بد أن يصوغها الشاعر صياغة جديدة تظهر فيها براعته وقوة تخيله ودقة فنه وصدق إحساسه . وهذه الصياغة هي ما نعبر عنه بالصنعة الشعرية .

والصنعة الشعرية لا تعنى تكلف الشاعر وتصنعه ومحاولته جاهداً زخرفة مادة الشعر الخام بألوان وأشكال حينما اتفق ، كلا فالتصوير والتخيل اللذان يضيفهما الشاعر على مادة الشعر ليسا شيئاً منفصلاً عن تلك المادة نفسها ، فالصنعة يلهم بها الشاعر إلهاماً كما يلهم بمادة الشعر نفسها . وتلبس المادة بالألوان والأشكال المختلفة يتم في نفس القائل في وقت واحد . لهذا لا تظهر في الصنعة الموهوبة آثار التعمل والتكلف ، ولكن هذه الآثار تظهر عند الفصل بين مادة الشعر وصورته أو عند التعمل والتكلف في تركيب الشكل على المادة قسراً .

وما دام الشعر لا يسمى شعراً بدون هذه الصناعة الفنية ، فلا بد أنها وجدت إذن في الشعر الجاهلي الذي كان صدى طبيعياً لعصره في مادته وصورته على السواء ، ولا عبرة في هذا بما يقوله القاضي الجرجاني من أن العرب (إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل

لها عمود الشعر ونظام القريض^(١) . والقاضي الجرجاني في هذه العبارة لا يقول إن شعر الجاهليين كان يخلو من الصنعة ، ولكنه يقول إنهم لم يكونوا يتعمدونها تعمداً مثل المحدثين الذين أتوا من بعدهم ، وإنما كانت تأتي في شعرهم عفواً . ومسألة العقوية والتعمد هذه مسألة اعتبارية محضة تتدخل فيها عناصر ثقافة الشاعر نفسه ودرجة تخيله ، كما تتدخل فيها عناصر الإلهام ووسائله .

والرافعي يحاول أن يفرق بين الصنعة الشعرية عند الجاهليين ومن تابعهم من شعراء القرن الأول ، والصنعة عند المولدين فيقول إن المولدين لم يلتزموا سنن العرب في الوصف بل قلبوه إلى التشبيه وبينهما فرق عند العرب ، وهو أن الوصف إخبار عن حقيقة الشيء ، والتشبيه مجاز وتمثيل لأنه مبني على أن يوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، إذ لا بد أن يكون بين المشبه والمشبه به اشتراك في معانٍ تعمهما ويوصفان بها ، واقتراق في أشياء ينفرد كل منهما بصفتها فهو يدخل في الوصف وليس في الحقيقة ومن أجل ذلك بالغ المولدون في أوصافهم وجاءوا بالتشبيه المفرط والبعيد ، وكأن هذا شيء اقتضته حضارتهم المبنية على الترف وتمويه الأشياء بالزخرفة^(٢) .

وما يقوله الرافعي في الحقيقة هو ما يلتزمه العرب في عمود الشعر . والتجديد الذي حدث في القرن الثاني في الصنعة الشعرية يمكن اعتباره خروجاً على ذلك العمود ذلك أن إدراك الشعراء للعلاقات بين الأشياء قد تطور تطوراً كبيراً بالنسبة لما كان عليه في العصر الجاهلي . فتشبيه بشار مثلاً لحديث المرأة اللطيف ذي الأفانين بقطع الرياض المتنوعة الأزهار لا يركز على تغير البيئة فقط ولكنه يركز أولاً على تغير إدراك العلاقة بين الأشياء ، فالشاعر الجاهلي لم يكن يستطيع الوصول إلى إيجاد مثل العلاقة بين حديث المرأة وقطع الرياض ، إذ كان إدراكه في هذه الناحية محصوراً في العلاقات المتشابهة المتجاورة أو القريبة من الحقيقة فإن بعد هوناً ما عن هذا النطاق فهو لا يتعدى بيئته كما تتمثل في قوله النابغة (فإن مطيئة الجهل الشباب) ، أو يتعدى الأساطير الشائعة كما تتمثل في قول امرئ القيس (ومسنة زرق كانياب أغوال) .

(١) الوساطة : ٣٣ .

(٢) تاريخ آداب العرب ٣ : ١٢٤ .

وهناك ناحية أخرى في الخلاف بين الصنعة الشعرية عند الجاهليين وعند المحدثين من شعراء القرن الثاني وهي أن المحدثين قد أتيح لهم من الثقافة وقوة التمثيل ما جعلهم قادرين على التوسع حتى في الصور القديمة الجاهلية ، وإضافة جزئيات كثيرة إليها ومحاولة تشخيص الصورة وتجسيمها .

ويمكننا أن نقسم الصنعة الشعرية في القرن الثاني إلى نوعين ظاهرين : الصنعة اللفظية ونقصدها بها تلك الزخرفة التي أحدثها الشعراء من جناس وطباق ومقابلة وما إليها ، وصنعة معنوية ونعني بها الصورة الشعرية التي تركز على عناصر التشبيه والتمثيل والاستعارة وغيرها من ضروب التصوير والتخييل . والحقيقة إن الناحيتين تكملان بعضهما البعض ، بل إن عناصر الشكل كلها مرتبطة متشابكة تتعاون جميعاً في تصوير مادة الشعر وإعطائها لونها الحقيقي الجذاب .

ويروى بروكلمان أن هذه الصنعة اللفظية في شعر القرن الثاني كانت أثراً من آثار اختلاط الفرس بالعرب فهو يقول : (لئن لم يستطع العجم في هذا العصر أن يقدموا نماذج خاصة بهم في شعر الغناء ، فقد تغلغلت أذاقة التعبير ورقة الذوق التي اقتصوا بها في أساليب الشعر البدوي باطراد^(١)) ويذهب هوار إلى مثل هذا الرأي أيضاً^(٢) . ولكن نكلسون يعارضهما ويرى أن الصنعة اللفظية لم توجد عند الشعراء المولدين من الفرس فحسب ، ولكنها وجدت عند شعراء عرب أيضاً^(٣) . والجاحظ يتعصب فيما يبدو للعرب إذ يقول إن البديع — أي الصنعة الشعرية بصفة عامة — مقصور عليهم ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان^(٤) . وما لا شك فيه أن الصنعة اللفظية وجدت في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، ولكنها كانت خفيفة إلى حد بعيد لا يكاد يدركها الشاعر أو يتعمدها لإحداث موسيقى في أبياته ، بعكس الشعراء المحدثين الذين اهتموا بهذه الزخارف اهتماماً كبيراً وأولوها عنايتهم في شعرهم . والخلاف بين الجاهليين والمحدثين في ذلك إنما هو خلاف بين مجتمعين : مجتمع بدوي وآخر متحضر ، أو كما عبر عن ذلك ولديورانت

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : الترجمة العربية ٢ : ٨ .

(٢) Histoire Des Arabes ٩١ : ١ .

(٣) A Literary History of the Arabs : ٢٩٠ .

(٤) البيان والتبيين ٣ : ٢١٢ .

إذ قال إن الشعر الذى كان ينشد فى الصحراء للبدو أضحى فى ذلك العصر بوجه إلى قصور الخلفاء ورجال حاشيتهم المترفين المتأنقين ، فكان لابد إذن من العناية والاهتمام بهذه الناحية الشكلية^(١) .

وهناك أسباب أخرى تعلق بزيادة الاهتمام بهذه الناحية الشكلية فى شعر القرن الثانى وهى ناحية الصنعة اللفظية — أهمها ما يذكره عبد الله الطيب المجذوب خاصاً بالعلاقة بين هذه الصنعة اللفظية وبين الفنون بصفة عامة يقول : (كان الإسلام ديناً يرفض الأنصاب والتصاوير وما يجرى مجراها من آثار المشركين ، وكانت طبيعة المجتمع الحضري الجديد تدعو أشد دعاء إلى التصاوير والتماثيل فكان لابد لهذا المجتمع من أن يجد فناً آخر يعوض به فقدان الرسم والفنون المماثلة له . وقد بدأت بوادر هذا النوع من التعويض فى أواسط العهد الأموى عندما اهتم الخلفاء بالعمارة وجعل فن الزخرفة يجد سبيله إلى تزيين المساجد . وقد سرى هذا الفن إلى العصر العباسى ونما وازداد حتى وصل إلى الأواني والنسيج وجعل يبرز فى الخطوط . . . وكما أن الزخرفة التى ارتبطت أولاً بهندسة البناء ثم بالنسيفساء والزجاج الملون انتقلت إلى الخطوط ، فكذلك سرت موجة الزخرفة التى كانت تصطبغ بها الأفتدة العباسية إلى صناعاتي الإنشاد والنظم^(٢)) .

وهذا السبب مهم فى الواقع لتفسير ازدياد الاهتمام بالصنعة اللفظية فى الشعر العربى ، ولكن المسألة ليست مجرد تعويض عن تلك الفنون التشكيلية وغيرها مما حرم منه العرب ، ولكن المشاهد أن تقدم الفنون فى أية ناحية يؤثر على شكل الشعر بصورة عامة . ومما لا شك فيه أن الفنون قد تقدمت تقدماً كبيراً فى القرن الثانى كما سبق أن ذكرنا فى الباب الأول .

وقد لاحظ الأقدمون ذلك التطور الشكلى الذى أحدثه الشعراء المحدثون فكانوا دائماً ينسبون إليهم التفوق فى (البديع) ؛ والبديع كلمة عامة تشمل فى الغالب نواحي الصنعة الشعرية اللفظية والمعنوية على السواء . والجاحظ حين يتحدث عن الشعراء المحدثين يتردد فى حديثه كثيراً لفظ البديع فهو يقول : (ومن الخطباء الشعراء كلثوم

(١) انظر : قصة الحضارة ٣ : ٢٢٦ .

(٢) المرشد إلى نهم أشعار العرب ٢ : ١٦٣ .

ابن عمرو العتابي . . . وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنعجو منصور الفري ومسلم بن الوليد وأشباههما ، وكان العتابي يحتذى حذو بشار في البديع ، ولم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة والعتابي^(١) .

ويرى شوقي ضيف أنه قد وجد مذهباً فنيان في القرن الثاني : مذهب التصنيع والمصنعين الذي يعتمد على الأناقة في التعبير الفني والزخرف ، ومذهب الصنعة والصانعين الذين كانوا يفهمون حرفتهم في الحدود التي رسمها زهير ، فهم يعنون بألفاظهم وأساليبهم وصورهم البيانية في الدائرة التي كان يتصورها زهير . وهم بذلك لا ينفصلون عن عمود الشعر العربي ومناهجه القديمة إلا من حيث صفاتهم العقلية الجديدة ، أو من حيث حريتهم وثورتهم الاجتماعية التي نجدها في مجون أبي نواس مثلاً^(٢) .

وهو يرى في الوقت نفسه أن كثرة الشعراء في القرن الثاني كانت من ذوق (الصانعين) وقلما وجدنا شاعراً من ذوق (المصنعين) إنما كانت توجد الميول والرغبات لإحداث هذا المذهب الجديد . وكانت تتخذ هذه الميول والرغبات طريقها في تلك المحسنات من الصور التي نجدها في شعر بشار وأبي نواس وغيرهما . ولكن ذلك كله إنما كان مقدمات لهذا المذهب (التصنيع) الذي يحدثه مسلم إحدائاً ، فهو الذي يقترح له اسم البديع ، وهو الذي يتخذه مذهباً ويعني بضرورة انتصنيع والزخرف من جناس وطباق واستعارة ومشاكلة ، وأوضح مثال لذلك قصيدته في يزيد بن مزيد . وينقل شوقي ضيف رواية لصاحب الأغاني يتحدث فيها مسلم مع أبي العتاهية عن طريقة كل منهما في الشعر ، فيستظهر منها أن مسلم بن الوليد كان يحس إحساساً دقيقاً بأنه يتناول حرفته بطريقة أخرى ليست هي طريقة (الصانعين) أمثال أبي العتاهية ، إنما هي طريقة (المصنعين) الذين يفهمون الشعر على أنه نحت وصقل ومحسنات بديعة وألوان أنيقة^(٣) .

وما يقوله شوقي ضيف يتعارض في بعض نواحيه مع قول الجاحظ الذي يرى

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٠ .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٧٤ .

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٨١ .

أن بشاراً هو رأس أصحاب البديع وأن العتابي والنمري ومسلم بن الوليد وأضرابهم إنما هم أتباعه وتلامذته . والجاحظ يشير أيضاً إلى أن العتابي وابن هرمة يعتبران من طبقة بشار في البديع .

فأى الرأيين على صواب إذن ؟ وهل نعتبر أن بشاراً وأبا نواس قد وضعوا في جماعة البديع أو (التصنيع) لمجرد اهتمامهما بفنون من الاستعارة والتشبيه كما يرى شوقي ضيف ؟ وأين يمكن وضع أبي العتاهية ؟ هل هو خارج عن جماعة البديع ؟ الحقيقة إن المصادر القديمة تكاد تجمع على أن بشاراً هو رأس جماعة البديع ، فصاحب « زهر الآداب » يؤيد كلام الجاحظ بقوله : (وكان بشار أرق المحدثين ديباجة كلام ، وسمى أبا المحدثين لأنه فتح لهم أكمام المعاني ونهج لهم سبيل البديع فاتبعوه^(١)) والأصفهاني يروي عن الأصمعي رأياً يؤيد هذا الاتجاه أيضاً ، وكان قد سئل عن بشار ومروان أيهما أشعر فقال : بشار . فسئل عن السبب في ذلك فقال : لأن مروان سلك طريقاً أكثر من يسلكه فلم يلحق به من تقدمه وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقاً لم يسلكه وأحسن فيه وتفرد به وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً ، ومروان لم يتجاوز مذاهب الأوائل^(٢) . هل أخطأ الأقدمون إذن في فهم الدور الذي لعبه بشار في فن الصنعة الشعرية أم أن شعر بشار لم يصل إلينا كله ففات بعض باحثينا تمثل هذه الناحية في شعره تمثلاً واضحاً ؟

الحقيقة إننا نجد في شعر بشار الذي بين أيدينا نزعة قوية واضحة نحو الصنعة الشعرية بنوعها اللفظي والمعنوي . وكلاهما ظاهر واضح في شعره حتى لمن نظر فيه لأول وهلة . فالصنعة اللفظية كثيراً ما ترد في ثنايا شعر بشار متضمنة لوناً من الجناس أو المطابقة في مثل قوله :

فَحُمَةُ فَعْمَةُ بَرُودُ الثَّنَايَا صَعْلَةُ الْجَبَدِ غَادَةُ غَيْدَاءُ^(٣)
أو قوله :

إِذَا تُسَامِحُ أَوْ تُجَامِحُ لَيْسَ ثَالِثَةُ لِعَادِ

(١) زهر الآداب ٢ : ١١٩ .

(٢) الأغاني ٣ : ١٤٧ .

(٣) ديران بشار ١ : ٧٦ .

وقوله :

يَا طَيْرُ إِنَّا فِي غَدِيرِ طَيْرٍ

وقوله :

إِذَا شِئْتُ رَاعَتْنِي مُقِيمًا وَظَاعِنًا مُصَارِعُ شُبَّانٍ لَدَى وَشِيبٍ

ولكن هذه الصنعة اللفظية إنما هي زركشة ثانوية الأهمية بالنسبة للصنعة المعنوية أو الصورة الشعرية عند بشار . فالواقع إن فن بشار الحقيقي الذي استحق من أجله أن يكون رأس المحدثين في البديع يكمن في صنعته الشعرية المعنوية أو في الصورة الشعرية التي عليها المعول الأول في ناحية الشكل في الشعر . والحقيقة أيضاً إن الصورة الشعرية عند بشار قد بلغت حداً كبيراً من الروعة لاحتوائها على تفاصيل دقيقة واستقصاء صاحبها لعناصر التجسيم والتصوير . وهو لا يترك الصورة دون أن يلح عليها بريشة فنان أصيل يضع كل لون في موضعه ولا ينسى أدق الأشياء وأهونها . ولعل بشاراً بهذا الاستقصاء في التصوير قد فتح المجال لابن الرومي الذي يعتبر شاعر العروبة الأول في ناحية التصوير الشعري .

ومن الأمثلة التي نقدمها لبشار تلك الصورة التي أوضح بها امتناع يعقوب ابن داود وزير المهدي عن منحه جائزته ، وهذه المادة في حد ذاتها تافهة من الناحية الموضوعية ، ولكن بشاراً خلع عليها حياة وحركة ومنحها قدراً من التجسيم بحيث يتخيل الإنسان الصورة بكل جزئياتها ويشعر بها شعوراً قوياً بعقله وتخيله على السواء ، قال :

يَعْقُوبُ قَدْ وَرَدَ الْعَفَاةَ عَشِيَّةً	مُتَعَرِّضِينَ لِسَيْبِكَ الْمُتَنَابِ
فَسَقَيْتَهُمْ وَحَسِبْتَنِي كَمَوْنَةً	نَبَتَتْ لِزَارِعِهَا بِغَيْرِ شَرَابِ
مَهْ لَا أَبَالِكَ إِنَّنِي رِيحَانَةٌ	فَاشْمُمْ بِأَنْفِكَ وَاسْقِهَا بِذَنَابِ
طَالَ الثَّوَاءُ عَلَى تَنْظُرٍ حَاجَةٍ	شَمَطْتُ لَدَيْكَ فَمُرْ لَهَا بِخَضَابِ

وهكذا استطاع بشار بمادة الشعر التافهة أن يخرج صورة فنية رائعة إذ صور نفسه — في رأى يعقوب — بكمونة والكمون نبت لا يستقي بل يوعد بالسقي — كما يقول

الطعالبي - فيقال له : غداً نسقيك وبعد غد يكفيك ، فهو ينمو على المواعيد الكاذبة ، ولهذا قيل في المثل مواعيد الكمون^(١) . وأوضح بشار وجه الشبه بقوله (نبتت لزارعها بغير شراب) وذكر وجه الشبه هنا تأكيد للمعنى وجلاء للصورة من هذه الناحية . ثم يصور بشار نفسه ليعقوب بأنه ريحانة ، والريحان يحتاج إلى السقي والعناية لكي ينمو ويفوح شذاه ، ويعن بشار في تجسيم هذا المعنى فيقول له (اشم بأنفك) ويقول له أيضاً (اسقها بذناب) ، كل ذلك ليقنع القارئ أو السامع بصدق تصويره وحقيقة خياله . ثم يخرج لنا بعد ذلك صورة ثالثة لهذا المعنى البسيط فيصور حاجته التي طال انتظار تحقيقها بامرأة شمطت وطعنت في السن ، ثم يزيد الصورة جلاء وتشخيصاً وسخرية في آن واحد حين يطلب من الرجل خضاباً حتى يخفى شيب تلك الحاجة العجوز .

وبشار في صورة أخرى يجسم الهم الذي يذود عن العين الرقاد ، ولا يكتفى بهذا التجسيم ولكنه ينسب النفور إلى النوم لا إلى نفسه فيخلع على الصورة جمالا بهذا التخييل الغريب ، يقول :

فَكَأَنَّ الهمَّ شَخْصٌ مَائِلٌ كُلَّمَا أَبْصَرَهُ النَّوْمُ نَفَرَ^(٢)

وهو يصف المجهول بصورة محسوسة معقولة في آن إذ يقول :

تَرْجُو غَدًا وَغَدٌ كَحَامِلَةٍ فِي الْحَيِّ لَا يَدْرُونَ مَا تَلِدُ^(٣)

وحين يصور بشار خفوق القلب والسهاد ينزع به منزلاً جديداً حتى إن الإنسان يكاد يلمس بيده هذه الأشياء غير المنظورة ، يقول :

جَفَتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيزِ حَتَّى كَأَنَّ جَفَوْنَهَا عَنْهَا قِصَارُ

كَأَنَّ فُؤَادَهُ كُرَّةٌ تَنْزَى حِذَارَ الْبَيْنِ لَوْ نَفَعَ الْحِذَارُ

وقد تنبه الأقدمون إلى الجانب الحديد في تصوير بشار في هذين البيتين فقالوا إن معنى الخفوق كثير جداً إلا أن بشاراً أغرب بذكر الكرة^(٤) .

(١) ديوان بشار ١ : ١٦٢ (هامش) .

(٢) المختار من شعر بشار : ١٩ .

(٣) المصدر نفسه : ٩٣ .

(٤) المصدر نفسه : ١١ .

وَيَصُورُ بَشَارَ تَجْمَدِ الدَّمْعِ فِي الْعَيْنِ تَصْوِيرًا بَلَغَ حَدًّا كَبِيرًا مِنَ الرُّوعَةِ لِدَقَّتِهِ
فِي اسْتِعَارَةِ مَعْنَى الْغَصَّةِ لِلْعَيْنِ إِذْ يَقُولُ :

أَقُولُ وَالْعَيْنُ بِهَا غُصَّةٌ مِنْ عِبْرَةٍ هَاجَتْ وَلَمْ تُسْكَبِ^(١)

وِظْلَامِ عَيْنِي بِشَارٍ وَعَدَمِ إِدْرَاكِهِ لِلْمَحْسُوسَاتِ كَانَ يَدْفَعُ بِهِ إِلَى الْإِلْحَاحِ عَلَى
الصُّورِ الْحَسِيَةِ الْإِلْحَاحَ يَكَادُ يَنْطَقُهَا وَيَجْعَلُ مِنْ خَيَالِهَا حَقِيقَةً يَلْمَسُهَا الْإِنْسَانُ بِيَدَيْهِ
وَيَرَاهَا بِنَظَرِيهِ ، فَهُوَ إِنْ كَانَ مَظْلَمَ الْعَيْنِينَ إِلَّا أَنَّهُ - كَمَا يَقُولُ - مَضَى الْقَلْبُ
كِنَايَةً عَنْ رَقَّةِ شَعُورِهِ وَحَسَاسِيَّتِهِ :

قَدْ أَذْعَرَ الْجِنَّ فِي مَسَارِحِهَا قَلْبِي مُضِيٌّ وَمِقُولِي ذَرْبُ^(٢)

وَيَصُورُ بَشَارَ تَشْوِقِهِ إِلَى مَحْبُوبَتِهِ فَيَجْعَلُ زَفْرَتَهُ الْحَارَةَ الْمُلْتَهَبَةَ قُوَّةَ دَافِعَةٍ تَجْعَلُهُ
يَنْطَلِقُ مَعَ الطَّيْرِ لِيَلَاقِيَ هَذِهِ الْحَبِيبَةَ :

أَكَادُ مِنْ زَفْرَةٍ تُبَاكِرُنِي أَطِيرُ فِي الطَّيْرِ حِينَ تَبْتَكَرُ^(٣)

وَفَنَ بَشَارَ فِي التَّصْوِيرِ الشَّعْرِيِّ يَتَجَلَّى حَقًّا فِي نَاحِيَةِ التَّشْخِصِ أَوْ الْإِلْبَاسِ الْمَعَانِي
صَوْرًا آدَمِيَّةً تَكَادُ تَنْطَقُ وَتَتَكَلَّمُ وَتَرْوِحُ وَتَجِيءُ ، فَزَاهٍ مِثْلًا يَجْعَلُ زَفْرَاتِ حَبَّةِ الْمُلْتَهَبِ
قُوَّةً حَتَّى إِنَّهَا (تَأْكُلُ) قَلْبَ الشَّجَاعِ :

عِنْدَهَا الصَّبْرُ عَنْ لِقَائِي وَعِنْدِي زَفْرَاتُ يَأْكُلْنَ قَلْبَ الْجَلِيدِ

وَنَرَاهُ يَصُورُ نَضْرَةَ وَجْهِ مَحْبُوبَتِهِ وَشَبَابَهُ وَفَتُونَهُ فَيَخْلَعُ عَلَى صُورَتِهِ حَيَاةً وَحَرَكَةً
فَيَقُولُ :

وَبِيضَاءِ يَضْحَكُ مَاءُ الشُّبَابِ فِي وَجْهِهَا لَكَ إِذْ تَبْتَهِمُ^(٤)

أَمَّا فِي تَصْوِيرِ الْأَحَادِيثِ فَيَبْلُغُ بَشَارَ مَرْتَبَةِ عَالِيَةٍ مِنَ الدَّقَّةِ وَالرُّوعَةِ لِأَنَّهُ يَبْتَكَرُ
عِلَاقَتَيْنِ جَدِيدَتَيْنِ بَيْنَ الْمَشْبِهِ وَالْمَشْبُوهِ بِهِ ، فَهُوَ يَقُولُ :

وَكَانَ رَجَعَ حَدِيثُهَا قِطْعُ الرِّبَاضِ كُسِينَ زَهْرًا

(١) ديوان بشار ١ : ١٤٦ .

(٢) ديوان بشار ١ : ٢٤١ .

(٣) المصدر نفسه ٣ : ٢٦٥ .

(٤) المختار من شعر بشار : ٧٧ .

وعبارة (كسين زهرا) زيادة في الصورة أتى بها الشاعر للتوضيح والتأكيد على ناحية مشابهة الحديث للزهر في بهجته وتنوعه وجمال ألوانه وإمتاعه للحس . وقد أكد هذه المعاني في صورة أخرى قال فيها :

وَحَدِيثٌ كَأَنَّهُ قِطْعُ الرَّوْضِ مَ فَفِيهِ الصَّفْرَاءُ وَالْحَمْرَاءُ^(١)
ويصف حديث المرأة الذي يخلبه ويفتنه بصورة ثالثة فيعبر عن لطفه ورقته وجمال تسلسله بنمنمة الثوب ودقة زخرفته فيقول :

ولها مِبْسَمٌ كَغُرِّ الْأَقَاحِي وَحَدِيثٌ كَالْوَشْيِ وَشَى الْبُرُودِ
وفي مقابل هذا التصوير الذي يتألق فيه بشار ليضاهي حديث المرأة الجميلة ، يصف كلماته القوية في المحافل بأنها في قوتها وتأثيرها كلهب السراج ، ولكنها تضيء للناس الطريق كما يضيء هذا اللمب :

يَخْرُجَنَّ مِنْ فِيهِ لِلنَّدَى كَمَا يَخْرُجُ ضَوْءُ السَّراجِ مِنْ لَهَبِهِ^(٢)
ومن صور بشار الرائعة حقاً تصويره لصديق السوء بأنه كالدمل ليس هذا فحسب بل جعل الدمل مليئاً بالقبح وصور توقعه لشره بتوقع مجيء الحمى التي ترهق الإنسان من أمره عسراً ، ثم صور بعد ذلك صبره عليه بصبر المرء على الدمل لا يستطيع أن يؤذيه لأنه موجود في جلده فأبداؤه إيذاء للنفس ، يقول :

وصاحبِ كَالْدَمَلِ الْمُمدِّ أَرْقُبُ مِنْهُ مِثْلَ يَوْمِ الْوَرْدِ
حَمَلْتُهُ فِي رُقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي صَبْرًا وَتَنْزِيهَاً لَمَّا يُودَى^(٣)

وقد جعل عبد القاهر الجرجاني قول بشار (حملته في رقعة من جلدي) من الاستعارة الخاصة – نسبة إلى الخاصة التي هي في مقابل العامة – النادرة ، وهي من الفن الأول من الإبداع الذي يرجع إلى حسن اختيار المعنى المستعار للمعنى المستعار له ، لا إلى إبداع في وجه الشبه^(٤) .

(١) المختار من شعر بشار : ٣٣

(٢) ديوان بشار ١ : ١٥٩ .

(٣) المصدر نفسه ٢ : ٢٢٤ .

(٤) دلائل الإعجاز : ١٧٦ .

أما علل البخل في حبس ماله فهي سخيصة مختلفة كتناثر العيون الزرقاء مع الوجه الأسود ، وأما الإنسان فهو كالشجرة تثمر حينما تورق ، يقول بشار :

وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلْلٌ زُرْقُ الْعُيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودٌ
أُورِقٌ بِخَيْرٍ تُرْجَى لِلنَّوَالِ فَمَا تُرْجَى الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ

ومن هذه الأمثلة القليلة التي قدمناها من شعر بشار اكتفاء بها عن سواها يتبين لنا صدق الأقدمين فيما قالوه عن بديع بشار ، وكيف أنه نهج السبيل لمن أتوا بعده . فهذه الصور كلها تتميز بالحدة والطرافة بحيث لا نجد ما يماثلها في شعر الأقدمين ، كما أنها تدل على قصد صاحبها للصنعة فيها وتعمد لها تعمد الفنان الأصل الذي يدرك أين موطن الجمال في الشعر . وقد تميز بشار في صناعته بهذه الناحية التجسيمية التي أشرنا إليها ، بالإضافة إلى استقصائه لعناصر الصورة واستيفائه لأصغر جزئياتها وأهمها لتتضح وتنجلي بجوانبها المختلفة . ويتميز بشار في صناعته أيضاً بحسه الدقيق في إدراك العلاقات بين الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة ، وإلحاحه على إظهارها تعويضاً فيما يبدو عن حرمانه من رؤيتها فأراد أن يبلغ بفنه الشعري ما لم يبلغه بناظره ، وليس معنى هذا أن كل صور بشار رائعة موقنة ، بل نجد له أحياناً صوراً سخيصة خانه فيها حس الفنان وإلهام الشاعر ، فهو مثلاً حين يريد أن ينتكر صورة يصف بها لوعة حبه يقول :

وَمَا كَلَّمْتَنِي دَارُهَا إِذْ سَأَلْتُهَا وَفِي كَيْدِي كَالنَّفْطِ. شَبَّتْ بِهِ النَّارُ^(١)

ولكنه لا يبلغ شيئاً مما يريد بل تنضح صورته برائحة النفط دون أن تشرق بلهب الحب .

ويلاحظ زكي المحاسني في إحدى صور بشار خيالاً فارسياً آرياً يستدل عليه بشيئين : فكرة التجرد الفلسفية الموجودة فيه وهي خروج الإنسان من ريجانه أو تفاحه ، والشئ الآخر منتزع من فكرة دينية مجوسية وهي فكرة التضمص ، يقول بشار :

با لبني كنتُ تُفاحاً بهِ فَلَجٌ أو كذتُ في قُصْبِ الرِّيحانِ رِيحانا
حتى إذا وجدتُ ريحي فأعجبها ونحن في خلوةٍ مثلتُ إنسانا^(١)

أما ابن هرمة وصنعتة الشعرية فنحن لا نستطيع أن نحكم عليها حكماً صحيحاً لأن شعره الذي وصلنا قليل بل أقل من القليل . غير أننا نلمح فيه هذا النزوع نحو الصنعة والتفنن فيها سواء أكانت لفظية أم معنوية . فصاحب الأغاني يروى لابن هرمة قصيدة يتضح فيها تعمد الصنعة اللفظية إذ جعل ألفاظها كلها على الحروف المهملة دون المعجمة وذلك نوع من البديع غاية في التكلف ، نراه فيما بعد عند الحريري في المقامة السمرقندية إذ أورد في سياقها خطبة من هذا النوع الذي سماه علماء البديع المتأخرون بالحذف ويعنون به قصد الأديب شاعراً كان أم ناثراً إلى حذف حرف من الحروف من كلامه أو نوع من الحروف بذاته .

ومما أورده صاحب الأغاني من أبيات هذه القصيدة التي تمثل لنا تعمد ابن هرمة لنوع عجيب من الصنعة اللفظية قوله :

أرسم سَوْدَةَ مَحَلُّ دَارِسُ الطَّلَلِ	مُعْطَلٌ رَدَدَ الْأَحْوالَ كَالْحُلَلِ
لما رأى أهلها سَدُّوا مَظَالِعَها	رَامَ الصُّدُودَ وَعَادَ الْوُدَّ كَالْمَهْلِ
وعاد ودُّكَ دَاءٌ لا دَوَاءَ لَهُ	ولو دَعَاكَ طُوالِ الدَّهْرِ لِلرَّحْلِ
ما وَصَلُ سَوْدَةَ إِلَّا وَصَلُ صَارِمَةٍ	أَحَلَّها الدَّهْرُ داراً مَأْكَلَ الوَعْلِ
صَدَّوا وَصْدَ وَسَاءَ الْمَرْءَ صَدُّهُمْ	وحام لِلْوَرْدِ رَدَّها حَوْمَةَ الْعَلَلِ ^(٢)

ومن الواضح أن ابن هرمة لم يكتف بهذا التكلف البديعي ولكنه استخدم ألواناً كثيرة من الصنعة اللفظية في القصيدة كالجناس والطباق كما هو ظاهر في الأبيات . وقد أصاب الحاجري الحقيقة حين تحدث عن ابن هرمة فقال إنه شاعر يقصد إلى الصناعة قصداً دون أن يلتزم فيها الحدود التقليدية التي كان الشعراء يقفون عندها ، ولعله من أجل هذا نشأت بعض الخصومات الأدبية بينه وبين طائفة

(١) انظر : شعر الحرب في أدب العرب : ١٢٨ .

(٢) الأغاني ٤ : ١٠٦ .

من النقاد الذين كانوا بطبيعتهم حريصين على تلك التقاليد الشعرية الماثورة كمصعب ابن عبد الله والمسور بن عبد الملك المخزومي، وفي هذا الأخير قال ابن هرمة أبياته التي من ضمنها هذا البيت الذي يعبر عن نزوعه إلى الصناعة^(١).

إني امرؤ لا أصوغ الحلى بعمله م كفاي لكن لساني صائغ الكلم

وفي غير مجال الصناعة اللفظية كان ابن هرمة ذا قدرة فائقة في التصوير وإدراك العلاقات بين الصور المتشابهة والمتجاورة فهو حينما يصف لمعان البرق في الليل البهيم يشبهه بأعناق نساء هنديات مشوبة بوضوح :

ألم تَأْرَقْ لِضَوْءِ الْبَرْقِ م في أَسْحَمَ لَمَّاحٍ
كَأَعْنَاقِ نِسَاءِ الْهِنْدِ م قد شِيبَتْ بِأَوْضَاحِ

وهو في هذين البيتين يشبه صورة بصورة في هذا النوع الذي يطلق عليه علماء البلاغة تشبيه التمثيل ، كما يعقد صلة بين المعقول والمحسوس وتلك قدرة فنية في التصوير وإن كانت الصورة عموماً قد جفاها الذوق الحضاري الرقيق وغلب عليها طابع البداوة . ولعل صورته الأخرى تقرب من تلك في ملايساتها - وإن كانت أكثر جمالا من الأولى - إذ يصور فيها تركه الكرماء وذهابه إلى اللؤماء بالطائر الذي يترك بيضه في العراء ويحضن بيض سواه ، يقول :

وإني وتركي ندى الأكرمين وقدجى بكفى زناداً شحاحا
كتاركة بيضها بالعراء ومليسة بيض أخرى جناحاً

ومن أئمة الصنعة الشعرية في القرن الثاني الذين ذكرهم الجاحظ كلثوم بن عمرو العتابي وهو عربي صليبة كما ذكرنا من قبل ، ولكنه مع ذلك من أئمة الصنعة الشعرية مما ينبغي أن تكون الصنعة أثراً من آثار الشعراء المولدين فحسب ، ولكنها كانت مذهباً عاماً في هذا القرن أدى إليه التطور الحضاري والعقلي ، كما أدى إليه أيضاً تطور مادة الشعر نفسه والتأثير القوي الذي كان للغناء في الناحية الشكلية عامة ، في لغة الشعر وفي وزنه ، وفي صنعته اللفظية والمعنوية على السواء .

(١) محاضرات طه الحاجري (مخطوط) .

وشعر العتاني لم يصلنا إلا أقله فالشأن فيه كما في ابن هرمة بحيث لا نستطيع أن نحكم حكماً صائباً على نوع صناعته ودرجتها من الناحية الفنية . ومع ذلك فإننا ندرك من شعره القليل الذي وصلنا امتلاءه بالصور الشعرية الدقيقة التي تعتمد على التشخيص — مثلما رأينا عند بشار — دون أن يشعر القارئ بتصنع الشاعر وتكلفه في رسم الصورة وفي تطابق جوانبها من الناحية الحسية أو العقلية . فهو حين يمدح جعفر بن يحيى البرمكي يقول له إنه كان مطروحاً في غمرات الموت قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت وسدت في وجهه مسالك النجاة بعد أن بذل كل حيلة بلا جدوى ، فجاء جعفر واستطاع أن يختلس في خفة حياته بعد أن كان الموت قد أطبق عليها يديه . يقول :

مازِلْتُ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ مُطَّرَحاً قَدْ ضَاقَ عَنِّي فَسِيحُ الْأَرْضِ مِنْ حَيْلِي
وَلَمْ تَزَلْ دَائِباً تَسْعَى بِلُطْفِكَ لِي حَتَّى اخْتَلَسْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيَّ أَجَلِي

والعتاني حين يريد الشكر على معروف يجسم هذا المعنى ويجعل من الشكر شخصاً يبين فيبلغ بالصورة ما يريد من قوة الاعتراف بالجميل ، يقول :

فَلَوْ كَانَ لِلشُّكْرِ شَخْصٌ يَبِينُ إِذَا مَا تَأَمَّلَهُ النَّاظِرُ
لَمَثَلَتْهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ لَتَعْلَمَ أَنَّي أَمْرٌ شَاكِرٌ

وهو يستخدم هذا التجسيم والتشخيص في طلب العفو فيجعل الندامة ترد الأمل والشكر يثنى العنان ، يقول :

رَدْتُ إِلَيْكَ نَدَامَتِي أَمَلِي وَزَنَى إِلَيْكَ عِنَانَهُ شُكْرِي
وهو ينطق القلب ويجعله (مشتركاً) أي أنه يتحدث إلى نفسه كالمهموم فيقول :

شَجَاكَ حَتَّى ضَمِيرُ الْقَلْبِ مُشْتَرِكٌ وَالْعَيْنُ إِنْسَانُهَا بِالْمَاءِ مَغْمُورٌ

ويشخص في صورة أخرى ما يناجي به ضميره من خفي الشوق فيجعل منها ما هو ظالع ومنها ما هو متحسر متضرع ، يقول :

رُسُلُ الضَّمِيرِ إِلَيْكَ تَتَرَى بِالشُّوقِ ظَالِمَةً وَحَسْرَى
مُتَرَجِّياتٍ مَا يَنْبِ نَ عَنِ الرَّجَا مِنْ بَعْدِ مَسْرَى

والصورة القديمة التي ردها الشعراء الغزلون وهي وجود طيف الحبيبة في كل مكان أخرج منها العتابي صورة جديدة مبتكرة حقاً حين قال :

فكَأَنَّهَا وَصَلَتْ بِمُقَلَّتِهِ تِمَثَالَهَا مِنْ حَيْثُ مَا ذَهَبَا

وفي إحدى القصائد التي يستعطف بها العتابي الرشيد يمزج في تصويره بين الصنعة المعنوية واللفظية مزج الفنان البصير بالألوان ومواطن الجمال ، فهو يقول فيها :

أَتَرَكُنِي جَذَبَ الْمَعِيشَةِ مُقْتَرَاً وَكَفَّاكَ مِنْ مَاءِ النَّدَى تَكْفِانَ
وَتَجْعَلُنِي سَهْمَ الْمَطَامِعِ بَعْدَمَا بَلَلْتَ يَمِينِي بِالنَّدَى وَلِسَانِي ؟

ويبدو أن الأقدمين قد لاحظوا — مثلما لاحظنا — أن تصوير العتابي يعتمد في الغالب على عنصر التشخيص مثلما كان يفعل بشار ، لهذا جعلوا العتابي تلميذاً له في الصنعة الشعرية .

ولم تكن هذه الطبقة وحدها التي تضم بشاراً وابن هرمة والعتابي هي التي اقتدرت على الصنعة الشعرية وبرزت فيها ، بل لم تكن هذه الصنعة مقصورة على طائفة معينة في القرن الثاني لا تتعداها . وكيف يمكن أن يحدث هذا والصنعة عنصر أساسي في الشعر وتطورها الجديد إنما كان خضوعاً لمؤثرات حضارية وعقلية مختلفة كما ذكرنا . وهذه المؤثرات عامة ليس من الطبيعي أن تقتصر على طائفة دون طائفة من الشعراء المجددين ، أما الشعراء التقليديون المحافظون فنحن لا نعينهم لأن لهم ظروفهم التي شرحنا أمرها من قبل والتي تجعلهم امتداداً لتيار القديم في مادة الشعر وصورته على السواء . ولكن حتى هؤلاء التقليديون لم يكونوا يعتصمون من تأثير الصنعة الشعرية الجديدة . فروان بن أبي حفصة قد حكى عن نفسه كما يذكر صاحب الأغاني عن حماد الأرقط قائلاً : (إني إذا أردت أن أقول القصيدة رفعتها في حول : أقولها في أربعة أشهر وأتخلها في أربعة أشهر ، وأعرضها في أربعة أشهر) . ومثل هذه التروية لا يمكن أن تكون إلا في سبيل الصنعة الشعرية .

أما مدى هذه الصنعة ودرجتها وهل كان مروان يضاهي بحولياته وبصناعته حوليات زهير والمحككين من الشعراء القدماء وصناعتهم ، فهذا ما لا يمكن الجزم به بصفة قاطعة لضياح أغلب شعر مروان ، ومع ذلك فلو نظرنا في القليل الذي بين أيدينا منه وجدنا فيه نزوعاً إلى الصنعة الجديدة التي لا تنفع بالصورة المفردة والتشبيه أو الاستعارة القريبين ، بل التي تعتمد على الصور المركبة والتوسع في توضيح الجزئيات ورسم الألوان والإدراك الواسع للعلاقة بين المشبه والمشبه به ، فهو يقول مصوراً المشيب بأنه ضيف نزل برأسه ولكنه لا يريد الرحيل ، ومصوراً زحف المشيب على سواد شعره بضوء الصبح حين يبدد الظلمة :

أَمْسَى الْمَشِيبُ مِنَ الشَّبَابِ بَدِيلاً ضَيْفًا أَقَامَ فَمَا يَرِيدُ رَحِيلاً
وَالشَّيْبُ إِذْ طَرَدَ السَّوَادَ بِيَاضُهُ كَالصُّبْحِ أَخَذَتْ لِلظَّلَامِ أَفْولاً^(١)
وهو حين يرى معن بن زائدة يجعل الشمس ومظاهر الطبيعة المختلفة تلبس الحداد حزناً عليه :

كَأَنَّ الشَّمْسَ يَوْمَ أُصِيبَ مَعْنٌ مِنَ الْإِظْلَامِ مُلَبَّسَةٌ حِلَالاً^(٢)
إلى غير ذلك من الصور المعنوية التي نجدها في القليل من شعره الذي وصل إلينا .

والحقيقة إن الباحث حين ينظر في شعر القرن الثاني نظرة شاملة يرى مصداق ما ذهبنا إليه من تطور الصنعة الشعرية بصفة عامة ونزوع الشعراء إليها نزوعاً ظاهراً يختلف قلة وكثرة وصنعة وتصنعاً ، كما يختلف أيضاً من ناحية ميله إلى الصناعة اللفظية أو المعنوية ، ومن ناحية قدرته على التحليق والارتفاع بالصورة أو الهبوط بها ، فأبو الشيص مثلاً نجد في شعره هذا الميل إلى الصنعة الشعرية سواء اللفظية منها أم المعنوية . فهو حين يصور فتوة الشباب بصورها بأفراس جامعة تأتي أن تستكين إذا شدها صاحبها بالعنان :

أَيَّامَ أَفْرَاسِ الشَّبَابِ جَوَامِحُ تَأْتِي أَعْنَتُهَا عَلَى الرُّوَاضِ^(٣)

(١) طبقات ابن المعتز : ٤٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٥٢ .

(٣) طبقات ابن المعتز : ٧٥ .

وهو يصور المشيب تصوير الغاضب الناقم عليه فيؤلف له من الخيال صورة مفزعة قبيحة بلغ بها غاية الجودة، وخاصة في تصوير ديب المشيب على السواد إذ جعله كالعقارب فاستطاع أن يصور حالته النفسية أيضاً، يقول :

خلع الصبا عن منكبيه مشيبٌ فطوى الذوائب رأسه المَخضوبُ
نَشَرَ البلى في عارضيه عقارباً بيضاً لهنَّ على القُرون دَبيبٌ^(١)
ويصور أبو الشيص أيام شبابه حين كان يحب ويصف حبه بشجرة مورقة خضراء الأغصان ظليلة ، فيقول :

فيا عيشنا والهوى مُورِقٌ له غُصْنٌ أخضرُ العود دان
ويصف سواد فوديه بغرابين جاء المشيب فأطارهما :
وراجعتُ لما أطارَ الشَّبابَ غُرابانِ عَنْ مَفْرِقِ طائرانِ
أما صناعة أبي الشيص اللفظية فتتضح إلى جانب صورهِ الشعرية في قصيدته التي يقول فيها :

أشاقَكَ واللَّيْلُ مُلْقَى الجِرَانِ غُرابٌ يَنُوحُ على غُصْنِ بَانِ
أَحْمَ الجَنَاحِ شَدِيدُ الصَّيَاحِ يُبَكِّي بعينينِ لا تَهْمَلانِ
وفي نَعَبَاتِ الغُرابِ اغْتِرابٌ وفي أَلْبَانِ بَيْنُ بَعِيدِ التَّدَانِ
لعمري لئن فزِعْتُ مُقْلَتَاكَ إلى دَمْعَةٍ قَطَرُهَا غَيْرُ وَا
فحَقُّ لعينيك ألا تَجِفُّ دموعُهُما وهما تَطْرِفَانِ
ومن كان في الحَيِّ بِالْأَمْسِ مِنْكَ قَرِيبَ المَكَانِ بَعِيدُ المَكَانِ^(٢)

ومن الصور الرائعة المبتكرة التي وجدناها لشعراء من القرن الثاني فيما عدا ما ذكرنا قول إبراهيم الموصلي وهو يصف بداية رحيل النجوم عن السماء وإثقال النعاس على عينيه :

(١) طبقات ابن المعتز : ٧٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٨ .

رَبِّمَا نَبَّهْنِي الْإِخْوَانُ وَاللَّيْلُ بِهِمْ
 حِينَ غَارَتْ وَتَدَلَّتْ فِي مَهَاوِيهَا النُّجُومُ
 وَنُعَاسُ اللَّيْلِ فِي عَيْنِي كَالثَّأْوَى الْمُقِيمِ^(١)

وعلى بن الجهم حين يصف نافورة يجعلها في صورة رائعة بحيث نحس بها إحساساً عميقاً ونكاد نراها أمام أبصارنا فهو يجعلها (فؤارة) ويجعل لها ثأراً في السماء ولهذا يرتفع ماؤها محاولاً الوصول إليها لإدراك ثأره ، ثم هي توصل الماء إلى السحاب تعويضاً لها عما أنزلته إلى الأرض :

وَفُؤَارَةٌ ثَأُّرُهَا فِي السَّمَاءِ فَلَيْسَتْ تَقْصُرُ عَنْ ثَأْرِهَا
 تَرُدُّ عَلَى الْمُزْنِ مَا أَنْزَلَتْ إِلَى الْأَرْضِ مِنْ صَوْبٍ مِدْرَارِهَا^(٢)

وسعيد بن وهب يصف الذين لا يتمتعون بما في الدنيا من جمال بأنهم ألقاظ جامدة بلا معان :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ فَنَحْنُ مِنْ نَظَارَةِ الدُّنْيَا
 نَرْمُقُهَا مِنْ كَثَبٍ حَسْرَةٍ كَأَنَّا لَقُظٌ بِلَا مَعْنَى^(٣)

وحين يرى ابن أبي عيينة عدواً له أسيراً مقيداً يجر رجله في الأصفاد يظهر شماته في صورة قوية إذ يجعل صليل القيود أنغاماً شجية تصل إلى أذنيه فيعبر بصورته عن نفسه كما رأينا عند أبي الشيص ، فتكتمل للصورة عناصر جمالها لأن هذا الأداء النفسي ضروري وجانب هام في التصوير لم يكن يحفل به الشعراء الأقدمون ، يقول ابن أبي عيينة :

يَتَغَنَّى الْقَيْدُ فِي رِجْلَيْهِ أَلْوَانُ الْغِنَاءِ^(٤)

(١) الأغاني ٥ : ١٥٣ .

(٢) الأغاني : ١٠ : ٢٣٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢٠ : ٧٠ .

(٤) الكامل للمبرد : ٢٤٣ .

وَيَصُورُ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ حُبَّهُ الَّذِي لَا أَمَلَ لَهُ فِيهِ فَيَجْعَلُهُ كَالذُّبَالَةِ الَّتِي
تُضَيُّ لِلنَّاسِ بَيْنَمَا هِيَ تَحْتَرِقُ :

صِرْتُ كَأَنِّي ذُبَالَةٌ نُصِبْتُ تُضَيُّ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ

ومن صور العباس الرائعة حقاً تصويره لبعده عن حبيبته بأن الليل قد سد
الطريق بينه وبينها ، وأن ظلامه راكد كالماء الآسن ، بينما كان النجم مرتعش
الضوء يخفق بلا نظام وكأنه أعمى يسير في الطريق على غير هدى دون أن يجد
من يأخذ بيده :

لَمَّا رَأَيْتَ اللَّيْلَ سَدَّ طَرِيقَهُ عَنِّي وَعَذَّبَنِي الظَّلَامُ الرَّاكِدُ
وَالنَّجْمُ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ أَعْمَى تَحِيرَ مَا لَدَيْهِ قَائِدُ
نَادَيْتُ مَنْ طَرَدَ الرُّقَادَ بِنَوْمِهِ عَمَّا أَلَاقَى وَهُوَ خِلْوٌ هَاجِدُ

وفي شعر أبي نواس نجد آثار الصنعة ظاهرة فيه ظهوراً بيناً ، وخاصة في
خسرياته التي يعتمد في وصفها على تشخيص الخمر وبعث الحياة فيها ومناجاتها
كما يجعلها عذراء ويزوجها للماء ويصور نفورها من هذا اللقاء، ويصور أحياناً أخرى
خطبته لها عند دهقانها وبذله مهراً غالباً في سبيل الحصول عليها إلى غير ذلك مما
صورناه في حديثنا عن الخمريات . وقد بلغ أبو نواس الغاية في تصوير قدم الخمر
تصويراً تظهر فيه آثار الثقافة الجديدة التي شاعت في عصره وآثار الحضارة التي
أفسحت جوانب خيالهم ، فهو يقول مثلاً :

عَمُرْتُ يُكَاتِمُكَ الزَّمَانُ حَدِيثَهَا حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّامَةَ بِاحَا
فَأَتَتْكَ فِي صُورٍ تَدْخُلُهَا الْبِلَى فَازَالَهِنَّ وَأَثْبَتَ الْأَشْبَاحَا

ومن صور أبي نواس المبتكرة حقاً وصفه للسرور الذي يعم مجلس الشراب بقوله :
فِي مَجْلِسٍ ضَحَكَ السُّرُورُ بِهِ عَنْ نَاجِذِيهِ وَحَلَّتِ الْخَمْرُ
فَكَأَنَّهُ جَسَمٌ مَعْنَى السُّرُورِ وَجَعَلَهُ إِنْسَانًا يَفْهَقُهُ حَتَّى يَظْهَرُ نَاجِذَاهُ خَلِيَا مِنْ
هُمُومِ الْحَيَاةِ طَلِيقًا إِلَّا مِنْ إِسَارِ الْخَمْرِ . ومن صورهِ الرائعة أيضاً وصفه لأحداث

الزمان بأنها كالرياح دائمة الهبوب ، ولكنك لا تعرف متى تشتد ومتى ترق هذه
الريح ولا من أين تهب :

إِنَّ الْحَوَادِثَ كَالرِّيَّاحِ عَلَيْكَ دَائِجَةٌ الْهُبُوبِ
وأبو نواس حين يصف وجه محبوبته جنان يخلع عليه من ذات نفسه صورة
باسمة فواحة بالشذى إذ يقول :

وَجْهَ جِنَانٍ سَرَاءِ بُسْتَانٍ مُجْتَمِعٌ فِيهِ كُلُّ رَيْحَانٍ
مَبْذُولَةٌ لِلْعَيْنِ زَهْرَتُهُ مَمْنُوعَةٌ مِنْ أَنْ يَلِيَ الْجَانِ

والحقيقة إن أكثر صور أبي نواس تعتمد - كصور بشار - على التجسيم
والتوضيح والاهتمام بأصغر الجزئيات والتوسع في إدراك العلاقة بين الأشياء ومحاولة
صنع الصورة بحالة النفس حتى تبدو كلوحة الفنان الحاذق كاملة الأصباغ
والألوان محكمة الخطوط والأضواء . فهو حين يصف اقتراب فتاة من سن الشباب
لا يكتفى بأن يجعل ماء الشباب (يغلى) في عروقها ، ولكنه يضيف إلى ذلك أنها
قد (أفعمت) في (تمام) الجسم والعصب على السواء :

حَتَّى إِذَا مَا غَلَى مَاءُ الشَّبَابِ بِهَا وَأُفْعِمَتْ فِي تَمَامِ الْجِسْمِ وَالْعَصَبِ
وهو يصف كثافة سواد الليل فلا يكتفى بجعله كالبحر - كما فعل امرؤ
القيس - ولكنه يجعل أمواجه تلتطم ويقول إنه (طام) أى أمواجه عالية ، وأن
الملاح يحار به لهوله :

فِي فَيْلَقٍ لَلْأَجَى كَالْيَمِّ مَلْتَطَمٍ طَامٍ يَحَارُّ بِهِ مِنْ هَوْلِهِ النَّوَى

وقد قدمنا لأبي نواس في حديثنا عن الهجاء صورة فنية دقيقة يصور فيها
بُخل المهجو بأنه يرفو الرغيف الذى يقطع منه لقمة صغيرة بحيث يعود إلى حاله
وكانه آت لتوه من التنور . ويبالغ في جزئيات الصورة فيقول إن المهجو صناع
الكف في رفوه للرغيف بحيث لا يترك أثراً يتم على ما أحدثه به من لصق وترقيع .

وكان أبو نواس يهتم بالصنعة اللفظية إلى جانب الصنعة المعنوية ، فكثيراً
ما كان يستخدم الجناس والطباق والمقابلة والكناية أيضاً . ومن إسرافه في الجناس
قوله :

عَبَّاسُ عَبَّاسُ إِذَا احْتَدَمَ الْوَغَى وَالْفَضْلُ فَضْلُ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ
وقوله أيضاً :

دَقَّتْ وَرَقَّتْ مَذْقَةٌ مِنْ مَائِهَا وَالْعَيْشُ بَيْنَ رَقِيقَتَيْنِ رَقِيقُ
وفي هذا البيت نوع من الصنعة أطلق عليه المتأخرون اسم التصدير أورد الأعجاز
على الصدور (١) .

وكانت أغلب كنايات أبي نواس مستقاة من لغة العامة ، وفي كتاب الكنايات
للجرجاني قدر كبير منها ، ومن ذلك قوله :

لَا أَرْكَبُ الْبَحْرَ وَلَكِنِّي أَطْلُبُ رِزْقَ اللَّهِ فِي السَّاحِلِ
وهي كناية عامية عن التفتيح (٢) .

ومما ذكره الجرجاني في كناياته أيضاً قوله :

وَرَبَّمَا صِرْتُ إِلَى خَلْوَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ الرَّاسِ وَالرَّاسِ
وهي من كنايات العامة أيضاً ومعناها القيادة (٣) .

ولعل مما يوضح ميل أبي نواس إلى الصنعة أيضاً تلك المقطوعة التي توصل بها إلى
جعفر بن الربيع فجعل قوافيها كلها كلمة (الفضل) مع فروق في المعاني بينها ،
فقال :

أَسْلَمْتَنِي يَا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي الْفَضْلِ فَمَنْ لِي إِذَا أَسْلَمْتَنِي يَا أَبَا الْفَضْلِ
وَأَيَّ فِتْنٍ فِي النَّاسِ أَرْجُو مَقَامَهُ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ وَأَنْتَ أَخُو الْفَضْلِ
فَقُلْ لِأَبِي الْعَبَّاسِ إِنْ كُنْتُ مُذْنِباً فَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ
وَلَا تَجْحَدُوا بِي وَدَّ عَشْرِينَ حُجَّةً وَلَا تُفْسِدُوا مَا كَانَ مِنْكُمْ مِنَ الْفَضْلِ (٤)

وأبو العتاهية على الرغم من ثرية لغته وسهولتها وعدم تأنقه فيها إلا أننا نجد في

(١) انظر : العملة ٢ : ٦ .

(٢) انظر : الكنايات : ٣٨ .

(٣) الكنايات : ٤٢ .

(٤) ديوان أبي نواس : ٩٠ .

شعره نزوعاً إلى الصنعة أيضاً بشقيها اللفظي والمعنوي . وهو مغرم باستخدام الجناس أكثر من غيره من فنون البديع ، كما يتضح في قوله :

وذوو المنابر والعساكر والدساكر والحضائر والمدائن والقري
وذوو المواكب والكتائب والتجائب والمراتب والمناصب في العلى
وقوله :

أراك وكلما أغلقت باباً من الدنيا فتحت عليك ناباً
وقوله :

إياك والظلم إنه ظلم إياك والظن إنه كذب
إلى غير ذلك مما نجده في شعره بكثرة .

أما الصورة الشعرية عند أبي العتاهية فتتسم بالبساطة والسهولة لتلائم لغة شعره ، ولكنها في الوقت ذاته على قدر كبير من الطرافة والابتكار والعمق أيضاً . إنها ليست صورة معقدة مركبة كما رأيناها عند بشار وأضرابه ولكنها صورة بسيطة واضحة ، ومع ذلك فهي غنية بعناصر التخيل التي تدع القارئ يعيش في جوها ويسبح بعقله في تصورها . ومن هذه الصور التي وجدناها لأبي العتاهية تصويره للأمور بأن لها ظهوراً كما لها بطون ، وأن للزمان تقلبات تعبت بها الأقدار كما تعبت الرياح بالغصون ، وأن عقول الناس تختلف بساطة وتعقيداً كاختلاف وجه الأرض فقيها سهل كما فيها جبال :

وللأمور ظهورٌ تبدو لنا وبُطونٌ
وللزمانِ تثنُّ كما تثنَّى الغُصُونُ
منَ العقولِ سُهلٌ معروفةٌ وحُزُونٌ^(١)

وهو في بيت آخر يشبه الحياة بسطح الأرض ، فالسعادة فيها كالأرض المنبسطة الرحبية السهلة ، والشقاء فيها كالجبال الجامدة القاسية :

ما يكونُ العيشُ حلواً كلهُ إنما العيشُ سهولٌ وحُزُونٌ^(٢)

(١) ديوان أبي العتاهية : ٢٥٧ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٦٨ .

وَيَصُورُ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ مِلْدَاتِ الْحَيَاةِ وَجَانِبَهَا الْبَاسِمَ بِالزَّهْرَةِ الْجَمِيلَةِ الْمُوْنَقَةِ الَّتِي يَقْبَلُ النَّاسُ عَلَى رُؤْيَيْهَا وَيَحَاوِلُونَ اقْتِطَافَهَا :

أَجْنُ بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا جُنُونًا وَأَقْطَعُ طَوْلَ عَمْرَى بِالتَّمَنَّى
وَكَمْ كَانَ الْجَاظُ يَعْجَبُ بِتَصْوِيرِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ لِنُصْرَةِ الشَّبَابِ وَزَهْوَتِهِ وَجَمَالِهِ
بِرَوَائِحِ الْجَنَّةِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ :

إِنَّ الشَّبَابَ حِجَّةُ التَّصَابِي رَوَائِحِ الْجَنَّةِ فِي الشَّبَابِ
وَلَعَلَّ جَمَالَ الصُّورَةِ قَدْ أَتَى مِنَ التَّشْبِيهِ بِرَوَائِحِ الْجَنَّةِ وَهِيَ غَامِضَةُ الْمَفْهُومِ فِي
أُذْهَانِنَا ، وَإِنْ كَانَتْ تَرْتَبِطُ بِمَعَانٍ خَيَالِيَّةٍ وَاسِعَةٍ .
وَيَبْدَعُ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فِي تَقْبِيحِهِ لِلخَطَايَا حِينَ يَقُولُ إِنَّ الْإِنْسَانَ الْخَاطِئُ حَسَنَ
الْحِظِّ لِأَنَّ الْخَطَايَا لَيْسَتْ لَهَا رَائِحَةٌ تَفُوحُ مِنْهَا وَإِلَّا لَدَلَّتْ عَلَى صَاحِبِهَا حِينَ تَزْكُمُ
الْأَنْوْفُ بِفَسَادِ رَائِحَتِهَا :

أَحْسَنَ اللَّهُ بِنَا أَنَّ الْخَطَايَا لَا تَفُوحُ^(١)

وَكثييراً ما كان يشبه أبو العتاهية المشيب بالناعي حتى يجعل الخاطئين من
خشية الموت يثوبون إلى طريق الرشاد ، يقول في هذا المعنى :

إِنَّمَا الشَّيْبُ لابن آدم نَاعٍ قَامَ فِي عَارِضِيهِ ثُمَّ نَعَاهُ
وَأَبُو الْعَتَاهِيَةِ حِينَ يَتَذَكَّرُ بِاسْتِخْدَامِ مِصْطَلَحَاتِ نَحْوِيَّةٍ — كَانَتْ قَدْ شَاعَتْ
فِي عَصْرِهِ — يَبْعُدُ عَنِ الصُّورَةِ الشَّعْرِيَّةِ الْفَنِیَّةِ إِلَى ضَرْبٍ مِنَ اللَّغْوِ كَمَا فِي قَوْلِهِ :

قَدْ كَانَ وَجْهِي لَدَيْكَ مَعْرِفَةً فَالْيَوْمَ أَضْحَى حَرْفًا مِنَ التَّنْكِيرَةِ^(٢)

وَيَطُولُ بِنَا الْقَوْلُ لَوْ أَنَّا فَتَشْنَا عَنْ جَمِيعِ الصُّورِ أَوْ عَنْ مَظَاهِرِ الصَّنْعَةِ
الشَّعْرِيَّةِ عِنْدَ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ وَغَيْرِهِ مِنْ شُعْرَاءِ الْقَرْنِ الثَّانِي ، وَلَكِنَّا اضْطَرَرْنَا إِلَى ارْتِيَادِ
أَشْعَارِهِمْ وَتَقْدِيمِ بَعْضِ الصُّورِ الدَّالَّةِ مِنْهَا لِإِثْبَاتِ أَنَّ مَبْدَأَ الصَّنْعَةِ الشَّعْرِيَّةِ كَانَ يَأْخُذُ
بِهِ شُعْرَاءُ هَذَا الْعَصْرِ عَامَةً — كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلِ — عَلَى خِلَافِ بَيْنِهِمْ فِي دَرَجَةِ هَذِهِ

(١) ديوان أبي العتاهية : ٦٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٣٤٩ .

الصنعة . ولم يكن مسلم بن الوليد وحده الذى لهج به بعض الأقدمين وجميع المحدثين هو الذى فتح الباب واسعاً لدخول الصنعة فى الشعر العربى ابتداء من القرن الثانى ، بل هو — كما جعله الجاحظ — تلميذ لبشار وابن هرمة وأضرابهما فى هذا الفن .

وقد ذهب عبد الله المجدوب إلى القول بأن صنعة بشار وأبى نواس وأمثالهما كانت بلا طريقة ، بل كانت نوعاً من الارتياح والكشف لا سلوكاً على منهج معبد ، وأن مسلم بن الوليد قد حاول أن يضع معالم هذا النهج المعبد باستعماله أطرافاً من الجناس والتكرار والتورية والطباق . ولكن مسلماً حتى فى هذا لم يتجاوز طريقة القدماء فى طلب التقسيم المرصع والمترادفات المتشابهة . ويرى الكاتب أن أبا تمام كان البداية المنظمة فى فن الصناعة والزخرفة^(١) .

ونحن ما زلنا عند رأينا الذى سبق أن أبديناه وهو أن شعراء القرن الثانى من المجددين بلا استثناء — وأحياناً من المحافظين أيضاً — كانوا يهتمون بالصنعة الشعرية اهتماماً بالغاً بتأثير تجديدهم فى مادة الشعر وبتأثير حياتهم المتحضرة المتأنقة ، وباتساع آفاق الثقافة والمعارف الإنسانية ، وبتأثير تقدم الفنون عامة فى عصرهم ومحاولتهم مجاراتها عن طريق العناية بالصنعة فى شعرهم سواء أكانت لفظية أم معنوية . ومسلم بن الوليد هو أحد شعراء هذا القرن ، لهذا كان من الطبيعى أن يهتم بهذه الناحية الشكلية فى شعره ، خاصة وقد أتى بعد الطبقة الأولى من أصحاب البيديع كبشار وابن هرمة ، فلا نستغرب إذن زيادة اهتمامه بالصنعة أكثر من اهتمام هذه الطبقة . ولعل السبب فى إبراز اهتمام مسلم بالصنعة الشعرية تكلفه فى ناحية الصناعة اللفظية تكلفاً ظاهراً يبرز للعيان لأول وهلة ، وكأنى به كان يعتمد فى كل قصيدة من قصائده إدخال هذه الناحية الصناعية التى تطورت فيما بعد على يد أبى تمام وأخذت تجور على مادة الشعر وصوره المعنوية الأصيلة حتى أسلمته للعصور المتأخرة جثة بلا روح وشكلاً بلا معنى .

ومن شعر مسلم الذى تظهر فيه صناعته بوضوح قوله :

سَدَّ الثُّغُورَ بَزِيدٌ بَعْدَ مَا انْفَرَجَتْ بِقَائِمِ السَّيْفِ لَا بِالْخَتْلِ وَالْحَيْلِ

(١) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب ٢ : ١٦٧ .

أَغْرُ أَبْيَضُ يُغْشَى الْبَيْضَ أَبْيَضُ لَا يَرْضَى لَمْلَاهُ يَوْمَ الرُّوعِ بِالْقَشَلِ
مُوفٍ عَلَى مُهَجٍ فِي يَوْمِ ذِي رَهَجٍ كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ^(١)

وواضح في هذه الأبيات مزج مسلم الصنعة اللفظية بالصنعة المعنوية أو الصورة الشعرية كما يتضح لنا أيضاً إفراطه في الصنعة اللفظية إلى حد تشويه جمال الصورة التي أراد بها إبراز المعنى . وهو يستخدم ضرباً كثيرة من البديع عرفها المتأخرون كالجناس والطباق والتقسيم المرصع وما إلى ذلك . ويخيل إلى أن مسلماً كان مضطراً إلى الاستزادة من هذه الصنعة اللفظية ليلبس نهجه القديم في الشعر لباساً يوائم عصره ويتساوى مع المجددين من معاصريه الذين خرجوا عن عمود الشعر التقليدي من أمثال أبي العتاهية وأبي نواس ، ولكنه لم يبلغ مبلغهم لا في أسلوبهم الشعري الذي تبسط حتى اقترب من الشعبية والنثرية ، ولا في صورهم التي ارتفعوا بها عن مجرد الزركشة اللفظية الفارغة . أما في مادة الشعر نفسها فقد اختار كل شاعر مجدد موضوعاً نبغ فيه كنبوغ بشار في التغزل وأبي نواس في الخمريات وأبي العتاهية في الزهد ، بينما نجد مسلماً مع شغله بالخمر والمرأة لا يلحق بغبار كل من أبي نواس في الخمريات وبشار في التغزل لأنه ظل سائراً على النهج التقليدي إلا من تعمل في الصنعة وتكلف لها ، كما في وصفه للخمر الذي أتى فيه بتشبيهات متراكمة ولكنه لم يحدث فيه أي تجديد حيث يقول :

كَأَنَّ حَبَابَ الْمَاءِ حِينَ يَشْجُهَا لَأَلِيَّ عِقْدٍ فِي دَمَالِجٍ أَوْ حِجْلٍ
كَأَنَّ فَنِيْقًا بَازِلًا شَكَّ نَحْرَهُ إِذَا مَا اسْتَدْرَّتْ كَالشُّعَاعِ عَلَى الْبَزْلِ
كَأَنَّ ظِبَاءَ عُكْفًا فِي رِيَاضِهَا أَبَارِيقُهَا أَوْجَسْنَ فَعَقَعَةَ النَّبْلِ^(٢)

وإلى هذا الحد نكون قد أوضحنا جوانب الصنعة في شعر القرن الثاني ، وقد بينا في حديثنا نوع التطور الذي حدث في هذه الناحية الشكلية الهامة ، وهو توسع شعراء هذا القرن في استخدام الصنعة اللفظية والمعنوية على السواء توسعاً لم يشهده الشعر العربي من قبل ، وأنهم قد خرجوا على تحديد الأقدمين لمعنى التشبيه ونطاقه ، فبعدوا به عن دلالاته الحقيقية وعلاقاته القريبة إلى دلالات وعلاقات أخرى فيها كثير

(١) ديوان مسلم بن الوليد : ٨ .

(٢) ديوان مسلم بن الوليد : ٣٩ .

من ضروب الخيال السامى والتوهم الدقيق الذى يرتبط بآثار حضارية فى العصر ذاته أو آثار نفسية عند الشعراء أنفسهم . لقد انطلق التشبيه عند شعراء القرن الثانى من قيوده التى كان يكبله بها عمود الشعر إلى آفاق رحبية ، حتى بلغوا به أرقى درجات التصوير الفنى من حيث الدلالة على الأشياء وتجسيمها وتوضيح جزئياتها ، ومن حيث وفرة الظلال التى تركها الصورة فى نفوس القراء والسامعين بحيث يهيمنون معها فى كل واد ويعيشون فى أجوائها ليستكشفوا ما فيها من جديد تثيره ألوانها وجزئياتها لكل متمعن فيها متأمل لها .

وبدراستنا لهذه الناحية من الصنعة الشعرية نكون قد استكملنا بحث عناصر الشكل جميعاً فى شعر القرن الثانى بعد أن انتهينا من دراسة الاتجاهات الموضوعية فيه . وهذه العناصر التى يعتمد عليها شكل الشعر قد تلبست بمادته لتخرج لنا صورة رائعة من الفن الشعرى تعتبر أزهى ما وصل إليه الشعر العربى فى جميع عصوره على الإطلاق ، لما فيها من تنوع وتجديد وشمول وعمق وجمال فى المادة والصورة على السواء ، ولدلالاتها القوية على ما تتمتع به الذهنية العربية من فورة النشاط وحيوية التجديد والإبداع المستمر الخلاق فى عالم الفنون والآداب .

خاتمة

لقد درسنا في هذا البحث اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني من نواحيها المختلفة بحثاً متكامل العناصر متوحد الأجزاء تناولنا في مقدمته أهمية موضوع البحث وكيف أن شعر القرن الثاني يعتبر العصر الذهبي بالنسبة للشعر العربي كله ومع ذلك لم يظفر الموضوع بدراسة علمية جادة تجلو لنا صورة هذا الشعر واتجاهاته بحيث يمكن للدارسين والباحثين الاطلاع عليها والاستفادة بها وتصحيح أخطاء تشيع في بعض البحوث عن هذه الفترة . وقد اضطررنا في المقدمة أن نستوفي الحديث عن مراجع البحث ومصادره ، وأن نتناول بالدراسة النقدية البحوث والكتب الحديثة التي مست الموضوع من قريب . كما بينا الرأي في فساد دراسة الأدب في إطار التاريخ السياسي ، ولهذا حددنا بحثنا بالقرن الثاني لأنه يمثل في رأينا تطوراً متكاملًا في تاريخ الشعر العربي .

وجعلنا البحث بعد ذلك في أبواب ثلاثة ينقسم كل منها إلى عدة فصول ، أما الباب الأول فقد جعلناه بمثابة تمهيد ضروري لدراسة اتجاهات الشعر الموضوعية والشكلية ، أو هو بمثابة نور كاشف يلقي على الفترة التي ندرسها فيظهر جوانبها المختلفة على حقيقتها ، وذلك حتى يمكننا إدراك المسارب الخفية التي حددت اتجاهات الشعر وأثرت فيه تأثيراً واضحاً . وقد تحدثنا في مقدمة هذا الباب عن تطور حياة الجماعة الإسلامية منذ ظهور الإسلام وبدء عصر الفتوحات ، ثم في خلال القرن الأول الذي اعتبرناه عصر حضارة واستعداد بالنسبة للتطورات الهامة التي حدثت في حياة المجتمع الإسلامي في القرن الثاني . أما الفصل الأول من هذا الباب فقد تحدثنا فيه عن التأثير السياسي وكيف أن الفارقة بين المسلمين بدأت بمقتل عثمان . واستعرضنا في هذا الفصل سياسة الأمويين في حكم الدولة وكيف أدت في النهاية إلى إغضاب العرب والموالي على السواء وتكتلهم في القضاء عليها ، وقد نجح العباسيون في ذلك بمؤازرة الأعاجم الذين أصبح لهم نفوذ قوي مما دعانا إلى القول بظهور حزب قوي يتكلم باسمهم .

وتحدثنا في الفصل الثاني من هذا الباب عن التأثير الاجتماعي فبدأنا دراستنا بملاحظة أثر هجرة العرب إلى مناطق جديدة في البلاد المفتوحة وحدثت حركة تعريب جنسي ، كما تحدثنا عن الطبقات المختلفة التي كان يتكون منها المجتمع الإسلامي وكيف أنها كانت متفاوتة تفاوتاً شديداً . واستعرضنا في هذا الفصل التطور الاجتماعي في القرن الثاني وكيف توحدت عناصر ومؤثرات مختلفة لإشاعة المحبون والتهتك والزندقة في المجتمع مما أحدث رد فعل قوى عند الطبقات المتدينة فنشأت بذلك حركة مضادة تدعو إلى الزهد والاعتصام بالدين .

ونخصصنا الفصل الثالث للحديث عن التأثير الثقافي متبعين أثر انتشار اللغة العربية في البلاد المفتوحة وصراعها مع اللغات المحلية في تلك البلاد مما أدى في النهاية إلى وجود أسلوب مولد له خصائص معينة . وتحدثنا عن تأثير الثقافات الأجنبية المختلفة من فارسية ويونانية وهندية ومسيحية وكيف أن الثقافة العربية قد هضمت كل ما وصلها من هذه الثقافات لتخرج ثقافة عالمية طبقت آفاق الأرض في عصرها . ولم نغفل في هذا الفصل الحديث عن نهضة الفنون ولا عن ثقافة الشعراء أنفسهم .

أما الفصل الرابع فقد تحدثنا فيه عن التأثير الاقتصادي منذ بدأت الحياة الاقتصادية للجماعة الإسلامية تتعقد عند بداية عصر الفتوحات حتى تطورت بانتقال طريق التجارة من الجزيرة العربية إلى الطريق الشرقي . وتحدثنا عن الأثر الاقتصادي لسياسة العطاء وسياسة الأمويين في الإثقال على الموالى وإرهاقهم بالضرائب ، ثم فصلنا القول في مصادر ثروة الدولة الإسلامية وأسباب ازدهار التجارة أيام العباسيين واهتمامهم بالصناعة وخاصة صناعة الورق . ولم نغفل الحديث عن سوء توزيع الثروة بين الطبقات الذي كشفته الفتنة بين الأمين والمأمون ، ولا عن تطور أسعار الحاجيات للملاحظة الرخاء أو الانهيار في الحياة الاقتصادية .

وقصرنا حديثنا في الباب الثاني من البحث على الاتجاهات الموضوعية في شعر القرن الثاني وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول ناقشنا في مقدمتها نظرية الشك في العصر العباسي واستظهرنا منها توثيق شعر القرن الثاني واطمئناننا إلى صحته ثم حددنا طريقة دراستنا للناحية الموضوعية في شعر هذا القرن وهي دراسة الاتجاهات

لأنها أسلم في نتائجها العلمية من دراسة البيئات أو افتراض وجود مدارس شعرية ،
وذكرنا أن الحياة الأدبية في القرن الثاني كانت مركزة في العراق موضحين أسباب
ذلك - وأن البيئات الأدبية الأخرى كانت ضعيفة غير أصيلة ومثلنا لذلك بيئة
مصر والأندلس .

أما الفصل الأول من هذا الباب فقد تحدثنا فيه عن الاتجاهات العامة التي
كانت تظلل شعر هذا القرن وكيف أن حركة التجديد في الشعر بدأت في أواخر
القرن الأول وناقشنا الدور الذي قامت به الكوفة في حركة التجديد ، وبيننا أن الوليد
ابن يزيد كان متأثراً بهذه الحركة التجديدية التي نشأت في الكوفة ، وتحدثنا بعد
ذلك عن المواضع التي خرج عليها شعراء القرن الثاني بالنسبة إلى عمود الشعر ونهج
القصيدة ، وقد بينا أن الثورة على الأطلال كانت أساساً في حركة التجديد وأنها لم
تكن ثورة فرد أو ثورة شعوبية ولكنها ثورة فنية عامة بين الشعراء . وأوضحنا وجود
تيار تقليدي محافظ في شعر هذا القرن كان العلماء والرواة يمدونه بأسباب الحياة ،
وأنهينا هذا الفصل باستعراض الاتجاهات العامة الجديدة التي ظلت شعر القرن
الثاني فحصرناها في : التعبير عن الذات ، الاتجاه الواقعي ، الاتجاه الشعبي ،
الاتجاه نحو التسلية والترفيه ، النزعة الإنسانية .

وخصصنا الفصل الثاني من هذا الباب للحديث عن الاتجاهات الموضوعية
الجديدة في شعر القرن الثاني وهي التي ظهرت فيه لأول مرة فتحدثنا عن المجون
والتأثيرات المختلفة فيه مثل التأثير الفارسي وتأثير غلاة الشيعة ، وأوضحنا ارتباط
نزعة المجون في الشعر بالزندقة والشعبية والحمريات والتغزل الحسي الفاحش وألوان
الشدوذ الجنسي . كما تحدثنا عن الزندقة - باعتبارها موضوعاً جديداً في شعر هذا
القرن - فحددنا معناها وتبعنا تطوره وأوضحنا علاقتها بالشعبية وغلاة الشيعة
واستخرجنا منها أربعة أنواع : زندقة سياسية ، واجتماعية ، ودينية ، وفكرية ،
ثم درسنا جميع الشعراء الذين اهتموا بالزندقة دراسة مستفيضة وافية وهم : الوليد
ابن يزيد ، أبو دلامة ، مطيع بن إلياس ، حماد عجرد ، والبة بن الحباب ،
يحيى بن زياد الحارثي ، أبان اللاحقي ، علي بن الحليل ، صالح بن عبد القدوس ،
أبو نواس ، بشار ، أبو العتاهية .

وكان من الطبيعي أن نتناول بعد ذلك نزعة مضادة للزندقة تعتبر هي الأخرى اتجاهاً جديداً في شعر القرن الثاني وهي نزعة الزهد، فتحدثنا عن أوليتها وتطورها وأسباب ظهورها في المجتمع الإسلامي وأثر القصاص فيها وبخاصة الحسن البصري ، ثم درسنا شعر رابعة العدوية التي تعتبر من أوائل الصوفية في القرن الثاني ، وشعر أبي العتاهية الذي يعتبر أبا الشعر الديني ، وشعر الزهاد الآخرين مثل محمد بن أبي العتاهية ومحمد بن كناسة ومحمود الوراق ومحمد بن يسير وسعيد بن وهب وآدم بن عبد العزيز والعتابي وعبد الله بن المبارك ، ويحيى بن المبارك اليزيدي وابن الحبازة وعمرو بن المغيرة ، وريحانة وحيونة وميمونة بل درسنا أيضاً ناحية الزهد في شعر أبي نواس وحللنا عناصره ورددناه إلى دوافعه المختلفة .

ودرسنا بعد ذلك من الاتجاهات الجديدة الموضوعية الشعر المذهبي والشعر التعليمي . فتحدثنا في الشعر المذهبي عن الفرق بينه وبين الشعر السياسي ، كما تحدثنا عن موضوعاته التي كان من أولها مشكلة الجبر والاختيار ثم تناولنا الشعر المذهبي لكل طائفة ومقدار تصويره الموضوعي لعناصر مذهبها وأسسها ، فدرسنا الشعر المذهبي للخوارج والمرجئة والمعتزلة والمتكلمين عموماً ، والشيعية من الغلاة وغيرهم ودرسنا اتجاهات أكثر شعرائهم مثل كثير والسيد الحميري والفرى والكميت وابن هرمة . أما في الشعر التعليمي فقد ناقشنا نشأته وهل كانت عربية خالصة أم نتيجة الاتصال الثقافي بالهنود أو اليونان ، ثم تحدثنا عن نتاج الشعراء في هذا الاتجاه إذ وجدنا لهم منظومات في الطب والفلك والنحو والتاريخ والفرائض والفقه والفلسفة الطبيعية والآداب والأمثال المختلفة ، بل لقد وجد شعر تعليمي في فنون الحب والتغزل إلى جانب الناحية التعليمية عند شعراء المذاهب المختلفة .

أما الفصل الثالث من هذا الباب فقد خصصناه للحديث عن الاتجاهات الموضوعية الجديدة أي التي كانت موجودة في الشعر العربي القديم ثم دخلتها تغيرات جديدة في القرن الثاني ، ومن هذه الموضوعات المديح والشعر السياسي . وقد تحدثنا فيه عن تطور عناصر المديح بتطور القيم والحياة الاجتماعية نفسها ، وتطور شكل قصيدة المديح أيضاً وظهور نزعة جديدة ترمى إلى البعد عن مدح الأفراد والتوجه إلى مدح الله . ودرسنا بعد ذلك الشعر الحزبي فتناولنا بالدراسة والتحليل الحزب

العباسي وشعرائه ، كروان بن أبي حفصة والتمري ، والحزب العلوي وشعرائه كالسيد الحميري ودعبل وأوضحنا أسباب ضعفه في هذه الفترة ، والحزب الأموي وشعرائه كأبي العباس الأعمى وعبدالله العبلي وأوضحنا انهياره لعدم وجود قاعدة دينية يستند إليها مثل بقية الأحزاب الأخرى . وتحدثنا أخيراً عن حزب الموالى أو الشعوبية فأوضحنا نشأته أيام الأمويين وكيف أن مطالبة الموالى بالمساواة تطورت إلى مطالبتهم بالحكم وعودة سيادتهم إليهم . وقد تحدثنا عن أثر حركة الشعوبية في الأدب العربي وفي الحديث والتاريخ عامة ، كما تحدثنا عن الشعراء الشعوبيين من أمثال إسماعيل بن يسار والحريمي وأبي نواس وبشار .

وكان الهجاء من الموضوعات المجددة التي تناولناها بالدراسة أيضاً فتحدثنا عن عناصره في الجاهلية وموقف الإسلام منه ثم تطوره إلى فن النقائض في القرن الأول واندثار هذا الفن في القرن الثاني وأسبابه . وتحدثنا عن التطور الجديد الذي طرأ على الهجاء في موضوعه وشكله على السواء من استقلاله بالقصيدة وصوغه في مقطوعات قصيرة في أسلوب شعبي وأوزان رشيقة ، إلى ظهور أنواع جديدة فيه مثل الهجاء الفاحش الذي كانت وراءه دوافع معينة . ومثل هجاء المدن والهجاء الذي يعتمد على التصوير الساخر (الكاريكاتيرى) .

ومن الموضوعات المجددة التي تناولناها بالدراسة أيضاً شعر الرثاء وشعر الحكمة . وقد تحدثنا في الرثاء عن دخول أفكار حضارية فيه وعن ظهور أنواع جديدة مثل الرثاء الساخر ، والرثاء الذي يقصد به غير الأشخاص كرثاء الشباب لمطيع بن إياس ورثاء قميص لابن أبي كريمة ورثاء كلب صيد لأبي نواس ، والرثاء الماجن الفاحش ، ورثاء المدن . وقد أوضحنا تأثير الزهد في الرثاء يجعله يميل ناحية الحكمة والموعظة الحسنة ، كما أوضحنا ميل الشعراء إلى الاستقصاء والوصف الشامل في قصائد الرثاء كما يتضح لنا في الوصف الدقيق لمقتل الأمين في إحدى القصائد التي رثى بها . أما شعر الحكمة فبعد أن كان بضعة أبيات منتثرة استقل بقصائد وشعراء وقفوا أنفسهم عليه . ولعل ذلك كان نتيجة ترجمة أمثال وآداب وحكم الأمم الأجنبية المختلفة . وقد أوضحنا الفرق بين شعر الحكمة وشعر الزهد ودرسنا بعض الشعراء الذين كادوا يقصرون أنفسهم على شعر الحكمة مثل أبي بكر العرزمي ، محمود الوراق ،

صالح بن عبد القدوس وغيرهم . وبينما أن شعر الحكمة بدأ يتجه إلى الناحية الفلسفية الخالصة في هذا القرن . وأشرنا في حديثنا إلى القيمة الفنية لشعر الحكمة من حيث هو شعر .

وكان الوصف بصفة عامة من الموضوعات المجددة التي درسناها في هذا الفصل وقد أشرنا فيه إلى وصف مظاهر الحضارة الجديدة كالقصور والحراقات والشطرنج وبيوت القيان والكتب وما إلى ذلك . كما أشرنا إلى موقف الشعراء من وصف الطبيعة وظهور ميلهم إلى المشاركة الوجدانية معها والوصف الشامل القائم على الاستقصاء ، واختيار الجوانب الرقيقة الباسمة في الطبيعة ، تلك الجوانب التي أهملها الشعراء الأقدمون . وقد ظهرت أنواع جديدة من الوصف في القرن الثاني منها الوصف الساخر ، والوصف الماجن .

ولما كان شعر الطرد والخمریات داخلاً في باب الوصف لهذا ربطنا الحديث بينهما وبين الوصف بصفة عامة فدرسنا في الطرد عناصر وصف صيد الوحوش والحيوان في الجاهلية وأوضحنا تأثير الحضارات الأجنبية المختلفة في هذه الهواية في القرن الثاني . وتحدثنا عن شعراء الطرديات الذين سبقوا أبو نواس وأهمهم الشمرdl ابن شريك وأبو نخيلة ، ثم درسنا طرديات أبي نواس وذكرنا أن باب الطرد في ديوانه يعد أول باب في الطرديات في الشعر العربي ، كما ذكرنا أسباب بقاء لغة شعر الطرد على ما هي عليه منذ العصر الجاهلي وإن كان أبو نواس قد جدد في موضوع هذا الفن بوصف الكلاب وأنواع الطير والحيوان التي استحدثتها الحضارة الجديدة .

أما في الخمریات فقد استعرضنا تطور هذا الفن وخصائصه منذ العصر الجاهلي ثم أوضحنا أسباب انتشار الخمر في المجتمع الإسلامي منذ القرن الأول على الرغم من تحريمها ، وبيننا أن الكوفة كانت مركز شعر الخمریات لأنها كانت واردة الخيرة ، وأن الوليد بن يزيد كان متأثراً ببيئة الكوفة متأثراً واضحاً . ودرسنا شعر أبي الهندي الذي يعد أول من وقف حياته وشعره على الخمر ، كما صورنا إقبال شعراء كثيرين في القرن الثاني على وصف الخمر في شعرهم أمثال حماد عجرد وعلي بن الخليل وإبراهيم الموصلي وأبي الشيص ، وأدرنا الحديث بعد ذلك على خمریات أبي نواس وما فيها من تجديد ، موضحين ظهور فن جديد في شعر الخمر يسمونه أدب

الديارات وهو الشعر الحمري الذي كان يتردد في جوانب الأديرة التي كانت منتشرة في أنحاء المملكة الإسلامية .

وآخر الموضوعات المحددة التي تناولناها هو شعر التغزل الذي تحدثنا فيه عن تطور هذا الفن في الحجاز في القرن الأول وأسبابه ، ثم أوضحنا أسباب التطور الجديد الذي بلغه هذا الفن في القرن الثاني ، واستخرجنا أربعة أنواع جديدة من شعر التغزل هي : التغزل المعنوي ، التغزل الحمسي الفاحش ، التغزل بالمذكر ، القصص الغزلي . وأوضحنا عناصر كل نوع وكيف أن بعض شعراء التغزل المعنوي وقفوا حياتهم على هذا الفن وعلى التغزل بمحبوبة واحدة مثل علي بن آدم والمؤمل بن جميل وعكاشة بن عبد الصمد وابن ربيعة المدني والعباس بن الأحنف . وقد درسنا أسباب ظهور التغزل بالمذكر ، وقضية وجود عشق إلهي في القرن الثاني كما عرفه الصوفية المتأخرون .

أما الباب الثالث من هذا البحث فقد خصصناه للحديث عن الاتجاهات الشكلية في شعر القرن الثاني ، وتناولنا في مقدمته أهمية ارتباط مادة الشعر وصورته لإبداع فن أصيل ولإحداث الجمال الفني . ثم قسمناه إلى فصلين : الأوزان ولغة الشعر ، الصنعة الشعرية . وقد تحدثنا في الفصل الأول عن وفرة أوزان الشعر العربي وتنوعها ، وكيف اقتضت عوامل التطور استخدام الأوزان القصيرة الرشيقة وتجزئة الأوزان الطويلة المعقدة ، بل البسيطة السهلة ، وإحياء أوزان لم ينظم فيها الجاهليون ، وتطورت هذه النزعة التجديدية إلى الخروج على الأوزان التقليدية كما يتضح لنا في شعر رزين بن زندورد . وتحلل الشعراء في الوقت نفسه من قيد القافية الواحدة فنظموا في المزدوج والمسمط والمخمسات والرباعيات وأخيراً نظموا في الشعر المرسل . وأوضحنا في هذا الفصل اهتمام شعراء القرن الثاني بإحداث تنوع موسيقي في داخل أبياتهم عن طريق وجود عبارات منسقة أوقواف داخلية .

وتحدثنا بعد ذلك عن تطور لغة الشعر في القرن الثاني فحللنا عناصر الأسلوب المولد الذي استخدمه أغلب شعراء هذا القرن والذي يختلف بعض الاختلاف مع الأسلوب العربي القديم في طرق التعبير وتركيب الجمل وفي المادة اللغوية نفسها .

وأوضحنا كيف أدى هذا الأسلوب المولد إلى نزوع الشعراء إلى الشعبية والنثرية في أسلوب شعرهم .

أما الفصل الثاني فقد تحدثنا فيه عن الصنعة الشعرية وأهميتها في إبراز معاني الشعر وتصويرها وكيف أن هذه الصنعة تعد مدار جمال الشعر وروعته . وقد ذكرنا أن الصنعة قديمة في الشعر العربي ولكنها تختلف فيما بين الجاهليين والمحدثين اختلافاً شريحنا أمره وقسمنا الصنعة إلى نوعين ، لفظية كالجناس والطباق وما إليهما ومعنوية وهي الصورة الشعرية ، ثم استعرضنا الشعراء الذين اشتهروا بالصنعة ودرسنا شعرهم دراسة تحليلية وهم : بشار ، العتاني ، ابن هرمة . وقد أوضحنا بعد ذلك أن الصنعة بنوعها عامة في شعر القرن الثاني وأن الشعراء كانوا يقصدون إليها قصداً على تفاوت بينهم في الكثرة والقلة والموهبة والتكلف ، وأكدنا هذه النظرية بملاحظة الصنعة في شعر أبي الشيص وإبراهيم الموصلي وسعيد بن وهب وعلى بن الجهم والعباس بن الأحنف وأبي نواس ، ومروان بن أبي حفصة وأبي العتاهية ومسلم بن الوليد . وقد انتهينا من دراستنا التحليلية لصنعة هؤلاء الشعراء إلى أن مسلم بن الوليد ليس أبرز شعراء القرن الثاني في الصنعة إلا من ناحية تكلفه في الصنعة اللفظية تعويضاً عن نهجه القديم في الشعر .

ومما لا شك فيه أن الجهد الذي بذل في إعداد هذه الدراسة يتناسب مع أهمية موضوعها وجدته فميدان الشعر في القرن الثاني ، كما يتضح لنا في هذا البحث ، واسع رحيب يتضمن اتجاهات متشابكة مترابطة أحياناً متضادة متنافرة أحياناً أخرى ، كما أنه متعدد الصلات والعلاقات بمعارف وفنون كثيرة من فلسفة وتصوف وفقه ومذاهب مختلفة وعلوم إنسانية متباينة له مع كل منها سبيل وصلة .

وأعتقد أن هذا البحث قد توصل إلى بعض النتائج الجديدة بالنسبة للحياة العربية عامة في القرن الثاني منها إثبات وجود حزب للموالى متكامل العناصر قائم على برنامج محدد وله زعماءه وقادته ، ومنها دراسة تطور فكرة الشعبية ، ومنها إثبات وجود تأثير قوى للثقافة الفارسية بعكس ما ذهب إليه الباحثون المحدثون . ومنها تلك المحاولة التحليلية لاستخراج عناصر اللغة المولدة ، ومنها دراسة تيارات المحبون والزندقة والزهد بصفة خاصة ودراسة الشعراء الزنادقة والشعراء الزهاد الذين كشفنا

النقاب عن بعضهم لأول مرة ، ومنها تلك الاتجاهات الجديدة التي ظهرت في فنون الشعر القديمة . وقد أثبت أغلبها في هذا البحث لأول مرة مثل البعد عن مدح الأفراد والاتجاه إلى مدح الله ، ومثل أنواع الرثاء الساخر والماجن والذي يبتعد عن الأشخاص . ومثل ظهور شعراء يقتصرون على شعر الحكمة وربط هذا الشعر بالثقافات الأجنبية ، ومثل ظهور شعراء يقتصرون على التغزل المعنوي وعلى محبوبة واحدة لهم خصائص معينة ، ومثل ظهور الوصف الساخر والماجن .

ومن هذه النواحي الجديدة في هذا البحث محاولة دراسة عناصر الشكل في شعر القرن الثاني وإثبات خروج الشعراء على الوزن والقافية وتجديدهم في الصنعة الشعرية وعدم اقتصرها على شاعر بعينه .

كل هذا وغيره يمكن أن يقال عن النواحي الجديدة التي تضمنتها هذه الدراسة التي أرجو أن تكون قد سدت فراغاً في تاريخ أدبنا العربي وجلت للدارسين صورة من أزهى صوره وأبهاها وأكثرها غنى بالأشكال والألوان . فإذا وجدوا فيها بعض الظلال أو القتام فهذا عجزى وتقصيرى وما أنسب الكمال لنفسى وحسبى أنى فكرت وجهدت وحاولت وأملت والله الموفق لسواء السبيل .

الفهـَارِسُ

فهرس المصادر

أولا : المصادر الأساسية :

- ١ - أخبار أبي نواس - لابن منظور المصرى
الجزء الأول مطبعة الاعتماد بالقاهرة ١٩٢٤ م
الجزء الثانى مطبعة المعارف ببغداد ١٩٥٢ م
- ٢ - أخبار أبي نواس - لأبى هفان بن عبد الله المهزى
مكتبة مصر ١٩٥٣ م
- ٣ - الأخبار الطوال - لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى
نشرة فلاديمير جرجاس - ليدن - ١٨٨٨ م
- ٤ - أخبار الظراف والمتماجنين - لابن الجوزى
نشرة مكتبة القدسى - دمشق - ١٣٤٧ هـ
- ٥ - اختيار المنظوم والمنثور (الجزء الثالث عشر) - لأبى الفضل أحمد بن أبى
طاهر طيفور
مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٥٨١) أدب
- ٦ - أدب الكتاب - لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى
نشر محمد بهجة الأثرى - المطبعة السلفية بمصر - ١٣٤١ هـ
- ٧ - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين - لفخر الدين الرازى
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٣٨ م
- ٨ - الأغانى - لأبى الفرج الأصفهانى
الأجزاء من ١ - ١٤ ط . دار الكتب
وما بعد ذلك ط . ساسى
- ٩ - - أمالى المرتضى - لأبى القاسم على بن الطاهر
مطبعة السعادة بمصر - ١٩٠٧ م

- ١٠ - الإمامة والسياسة - لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة
مطبعة الفتوح الأدبية - القاهرة - ١٣٣١ هـ
- ١١ - الأموال - لأبي عبيد القاسم بن سلام
نشر المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - ١٣٥٣ هـ
- ١٢ - الانتصار - لأبي الحسين عبد الرحيم الحياط .
نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩١٤ م
- ١٣ - أنساب الأشراف (١٢ جزءاً) - للبلاذري
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (١١٠٣) تاريخ
- ١٤ - الأوراق - لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي
قسم أخبار الشعراء مطبعة الصاوي ١٩٣٤ م
قسم أشعار أولاد الخلفاء مطبعة الصاوي ١٩٣٦ م
- ١٥ - البيان والتبيين - لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
مطبعة الفتوح الأدبية - القاهرة - ١٣٣٢ هـ
- ١٦ - تاريخ الأمم والملوك - لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
الطبعة الأولى - المطبعة الحسينية المصرية - ؟
- ١٧ - تاريخ بغداد (١٤ جزءاً) - للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب
البغدادى
مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٣١ م
- ١٨ - ثلاث رسائل - لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
نشر يوشع فنكل - المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٤٤ هـ
- ١٩ - حلبة الكميت - لشمس الدين محمد بن الحسن النواجي
مطبعة إدارة الوطن - القاهرة - ١٢٩٩ هـ
- ٢٠ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني
نشر مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٢ م

- ٢١ - الحيوان (٧ أجزاء) - لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٣٨ هـ
- ٢٢ - الخراج - لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم
ط . المطبعة السلفية ومكتبها - القاهرة - ١٣٥٢ هـ
- ٢٣ - الخراج - ليحيى بن آدم القرشي
ط . المطبعة السلفية ومكتبها - القاهرة - ١٣٤٧ هـ
- ٢٤ - الديارات - لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشي
مطبعة المعارف - بغداد - ١٩٥١ م
- ٢٥ - ديوان بشار بن برد - بتحقيق محمد الطاهر بن عاشور
صدر منه ثلاثة أجزاء عن لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة
الأول ١٩٥٠ م ، الثاني ١٩٥٤ م ، الثالث ١٩٥٧ م
- ٢٦ - ديوان أبي دلالة - ط . الجزائر - ١٩٢٢ م
- ٢٧ - ديوان أبي العتاهية - نشر لويس شيخو - المطبعة الكاثوليكية - بيروت -
١٩١٤ م
- ٢٨ - ديوان العباس بن الأحنف
مطبعة الجوائب بالقسطنطينية - ١٢٩٨ هـ
- ٢٩ - ديوان كثير عزة
نشر هنري بيرس - باريس - ١٩٢٨ م
- ٣٠ - ديوان مسلم بن الوليد - بتحقيق سامي الدهان
نشر دار المعارف بمصر - ١٩٥٨ م
- ٣١ - ديوان أبي نواس
الجزء الأول بتحقيق إيثالد فاچنر
ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٨ م
وبقية الشعر من الديوان ط . المطبعة الحميدية المصرية - ١٣٢٢ هـ

- ٣٢ - ديوان أبي نواس - رواية الصولي
مخطوط بدار الكتب المصرية - رقم (١٢٦٥) أدب
ورواية الأصفهاني - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٢٥) م أدب
- ٣٣ - ديوان الوليد بن يزيد - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق
المجلد الخامس عشر - الجزء الأول - دمشق - ١٩٣٧ م
- ٣٤ - رسائل البلغاء - اختيار وتصنيف محمد كرد علي
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٦ م
- ٣٥ - زهديات أبي نواس - بتحقيق علي أحمد الزبيدي
مطبعة كوستانتينوسماس - القاهرة - ١٩٥٩ م
- ٣٦ - زهر الآداب وثمر الألباب - لأبي إسحق الحصري القيرواني
نشر المكتبة التجارية - القاهرة - ١٩٢٩ م
- ٣٧ - الشعر والشعراء - لابن قتيبة
دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ١٣٦٤ هـ
- ٣٨ - شعراء عباسيون (مطيع بن إياس ، سلم الخاسر ، أبو الشمقمق) -
بتحقيق جوستاف فون جرونباوم
دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٥٩ م
- ٣٩ - صفة الصفوة - لابن الجوزي
الطبعة الأولى - حيدر آباد الدكن - ١٣٥٥ هـ
- ٤٠ - طبقات الشعراء - لابن المعتز
نشر دار المعارف بمصر - ١٩٥٦ م
- ٤١ - العقد الفريد - لابن عبد ربه
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٣ م
- ٤٢ - العمدة في صناعة الشعر ونقده - لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني
نشر مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٩٠٧ م

٤٣ - عيون الأخبار - لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
مطبعة دار الكتب المصرية - ١٩٢٥ م

٤٤ - الفخرى في الآداب السلطانية - لمحمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي

الطبعة الثانية - مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر - ١٩٣٨ م

٤٥ - الفرج والتهاني بأخبار الحسن بن هاني - (لم يعلم مؤلفه)
مصور بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم (٦٣٢) أدب

٤٦ - الفرق بين الفرق لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى
نشر السيد عزت العطار الحسيني - القاهرة - ١٩٤٨ م

٤٧ - الفهرست - لابن النديم

نشر فلوجل - ط . لينزج - ١٨٧٢ م

٤٨ - الكامل - لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد

نشر وليم رايت - ط . لينزج - ١٨٦٤ م

٤٩ - الكامل - لأبي الحسن بن الأثير الجزري
مطبعة بولاق ؟

٥٠ - كتاب بغداد - لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور

نشر عزت عطار الحسيني - القاهرة - ١٩٤٩ م

٥١ - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - لعبد الرحمن بن خلدون المغربي
ط . باريس

٥٢ - كتاب مثالب العرب - لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٩٦٠٢) أدب

٥٣ - كتاب الوزراء والكتاب - لأبي عبد الله محمد بن عبيدوس الجهمشباري

مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٣٨ م

٥٤ - الكنايات - لأبي العباس أحمد بن محمد الجرجاني

ط . مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٠٨ م

- ٥٥ - المؤلف والمختلف - للآمدى
مكتبة القدسى - القاهرة - ١٣٥٤ هـ
- ٥٦ - محاضرات الأدباء - لأبى القاسم حسين بن محمد (الراغب الأصفهاني)
المطبعة الشرقية - القاهرة - ١٣٢٦ هـ
- ٥٧ - المختار من شعر بشار - اختيار الخالدين
نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٣٤ م
- ٥٨ - مروج الذهب - لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى
مطبعة بولاق - القاهرة - ١٢٨٣ هـ
- ٥٩ - مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار - لابن فضل الله العمري
دار الكتب المصرية - ١٩٢٤ م
- ٦٠ - المعارف - لابن قتيبة الدينورى
المطبعة الإسلامية - القاهرة - ١٩٣٤ م
- ٦١ - معجم الأدباء - لياقوت الحموى
ط . فريد رفاعى - القاهرة
- ٦٢ - معجم الشعراء - للمرزبانى
مكتبة القدسى - القاهرة - ١٣٥٤ هـ
- ٦٣ - الملل والنحل - للشهرستانى
الطبعة الأوربية - ليزج - ١٩٢٣ م
- ٦٤ - الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء - لأبى عبد الله محمد بن عمران المرزبانى
المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٤٣ هـ
- ٦٥ - الموشى (أو الظرف والظرفاء)
لأبى الطيب محمد بن إسحق بن يحيى الوشاء
نشر مكتبة الحانجى - القاهرة - ١٩٥٣ م
- ٦٦ - النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس - لابن دحية الكلبي
نشرة عباس العزاوى - مطبعة المعارف - بغداد - ١٩٤٦ م

٦٧ - نكت الهميان في نكت العميان - لصالح الدين خليل بن أيبك الصفدى
المطبعة الجمالية بمصر ١٩١١ م

٦٨ - الورقة - لأبى عبد الله محمد بن داود بن الجراح
دار المعارف بمصر - ١٩٥٣ م

ثانياً : كتب أخرى :

٦٩ - أبو تمام الطائى حياته وحياة شعره - لنجيب محمد البهينى
مطبعة دار الكتب المصرية - ١٩٤٥ م

٧٠ - أبو العتاهية - محمد أحمد برائق
ط . مطبعة لجنة البيان العربى - القاهرة - ١٩٤٧ م

٧١ - أبو نواس - لعباس محمود العقاد
نشر مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٥٧ م

٧٢ - أبو نواس - لعبد الحلیم عباس
نشر دار المعارف بمصر (سلسلة اقرأ العدد ٢١)

٧٣ - الإحساس بالجمال - تأليف جورج سانتيانا وترجمة محمد مصطفى بدوى
نشر مكتبة الأنجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين - القاهرة -
١٩٦٠ م

٧٤ - الإدارة الإسلامية في عز العرب - محمد كرد على
مطبعة مصر - القاهرة - ١٩٣٤ م

٧٥ - أدب الخوارج في العصر الأموى - لسهير القلماوى
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٥ م

٧٦ - الأدب الصغير - لابن المقفع
نشر جمعية العروة الوثقى الخيرية - ١٩١١ م

٧٧ - أدباء العرب في الأعصر العباسية - لبطرس البستاني
نشر مكتبة الصادر - بيروت - ١٩٥١ م

٧٨ - أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة بين الأعشى والجاهليين - محمد
محمد حسين

نشر منشأة المعارف بالإسكندرية - ١٩٦٠ م

٧٩ - الأسس الفنية للنقد الأدبي - لعبد الحميد يونس

نشر دار المعرفة - القاهرة - ١٩٥٨ م

٨٠ - الإسلام - تأليف الفريد جيوم وترجمة محمد مصطفى هدارة - وشوقي السكرى

نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٨

٨١ - الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها - لكارل بروكلمان

ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي

دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٤٩ م

٨٢ - أمراء الشعر في العصر العباسي - لأنيس المقدسي

ط . المطبعة الأميركانية - بيروت - ١٩٣٦ م

٨٣ - أهل الذمة في الإسلام - تأليف أ . س . ترتون وترجمة حسن حبشي

نشر دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٤٩ م

٨٤ - البخلاء - لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

بتحقيق طه الحاجري

نشر دار المعارف بمصر - ١٩٥٨ م

٨٥ - بغداد في عهد الخلافة العباسية - تأليف جي لسترانج وترجمة بشير يوسف فرنسيس

المطبعة العربية - بغداد - ١٩٣٦ م

٨٦ - التاج في أخلاق الملوك - لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

بتحقيق أحمد زكي - ط . المطبعة الأميرية - القاهرة - ١٩١٤ م

٨٧ - تاريخ آداب العرب - لمصطفى صادق الرافعي

ط . مطبعة الأخبار بمصر - ١٩١١ م

٨٨ - تاريخ الآداب العربية - لكارلو نالينو

ط . ونشر دار المعارف بمصر - ١٩٥٤

- ٨٩ - تاريخ آداب اللغة العربية - لكارل بروكلمان وترجمة عبد الحلیم النجار
 طبع دار المعارف بمصر ، الجزء الأول ١٩٥٩ ، الثاني ١٩٦١ ، الثالث ١٩٦٢
- ٩٠ - تاريخ آداب اللغة العربية - لجورجى زيدان
 الطبعة الثالثة - مطبعة الهلال - القاهرة - ١٩٣٦ م
- ٩١ - تاريخ الإسلام - لحسن إبراهيم حسن
 نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٨ (الطبعة الرابعة)
- ٩٢ - تاريخ التمدن الإسلامى (أربعة أجزاء) - لجورجى زيدان
 ط . ونشر دار الهلال - القاهرة - ١٩٥٨ م
- ٩٣ - تاريخ الحضارة العربية الإسلامية - لعمر أبى النصر
 نشر المكتبة الهاشمية - بيروت - ١٩٤٨ م
- ٩٤ - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين - لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى
 ط . إدارة الطباعة المنيرية - القاهرة - ١٣٥١ هـ
- ٩٥ - تاريخ الدولة العربية - تأليف يوليوس فلهوزن وترجمة محمد عبد الهادى
 أبو ريده
 نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٨ م
- ٩٦ - تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء - لحمزة بن الحسن الأصفهاني
 مطبعة كاويانى - برلين - ١٣٤٠ هـ
- ٩٧ - تاريخ سورية (جزءان)
 تأليف فيليب حتى وترجمة كمال اليازجى
 نشر دار الثقافة - بيروت - ١٩٥٩ م
- ٩٨ - تاريخ الشعر السياسى - لأحمد الشايب
 نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٣ م
- ٩٩ - تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى - لنجيب محمد البهيبي
 مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة - ١٩٥٠ م
- ١٠٠ - تاريخ العرب (مطول) - لفيليب حتى وإدوار جرجى ، وجبرائيل جبور
 دار الكشاف - بيروت - ١٩٥٠ م

- ١٠١ - تاريخ العرب العام - تأليف ل. أ. سيديو وترجمة عادل زعير
دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٤٨ م
- ١٠٢ - تاريخ الفكر الأندلسي - تأليف بالنشيا وترجمة حسين مؤنس
نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٥ م
- ١٠٣ - تاريخ الولاة والقضاة في مصر - لمحمد بن يوسف بن يعقوب الكندي
مطبعة بريل - لندن - ١٩١٢ م
- ١٠٤ - تاريخ اليعقوبي - أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن دهب
نشر المكتبة المرتضوية في النجف - مطبعة العزى - النجف - ١٣٥٨ هـ
- ١٠٥ - التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية - لمجموعة مؤلفين وترجمة عبد الرحمن بدوي
الطبعة الثانية - نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٤٦ م
- ١٠٦ - التطور والتجديد في الشعر الأموي - لشوقي ضيف
ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٢ م
- ١٠٧ - تطور الحمريات في الشعر العربي - بلحميل سعيد
نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٤٥ م
- ١٠٨ - التمهيد في الرد على الملحدة - لأبي بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني
نشر دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٤٧ م
- ١٠٩ - التنبيه والإشراف - لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي
مطبعة بريل - لندن - ١٨٩٣ م
- ١١٠ - التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة - لصالح أحمد العلي
مطبعة المعارف - بغداد - ١٩٥٢ م
- ١١١ - حديث الأربعاء (الجزء الثاني) - لطف حسين
نشر دار المعارف بمصر - ١٩٥٨ م
- ١١٢ - حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدين العراق
إبان العصر العباسي الأول - لمحمد جابر عبد العال
مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - ١٩٥٤ م

- ١١٣ - حركة التأليف عند العرب
لأحمد الطرابلسي
مطبعة الجامعة السورية - دمشق - ١٩٥٥ م
- ١١٤ - حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول - لشكري فيصل
نشر مكتبة الخانجي بمصر والمنشي ببغداد - القاهرة - ١٩٥٢ م
- ١١٥ - حضارة الإسلام - تأليف جوستاف فون جرونباوم وترجمة عبد العزيز جاويد
نشر مكتبة مصر بالقاهرة - القاهرة - ١٩٥٦ م
- ١١٦ - حضارة الإسلام في دار السلام - لحميل نخلة المدور
المطبعة الأميرية - بولاق - ١٩٣٦ م
- ١١٧ - الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية - تأليف قون كريم
وترجمة مصطفى طه بدر
نشر دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٤٧ م
- ١١٨ - حياة الحيوان - لكمال الدين الدميري
ط . مطبعة أحمد الحلبي - القاهرة - ١٢٩٢ هـ
- ١١٩ - خاص الخاص - لأبي منصور عبد الملك محمد الثعالبي
ط . مطبعة السعادة بمصر - ١٨٠٩ م
- ١٢٠ - خطط الكوفة - تأليف لويس ماسينيون - وترجمة تقي بن محمد المصعبي
مطبعة العرفان - صيدا - ١٩٣٩ م
- ١٢١ - الخلافة - تأليف توماس آرنولد وترجمة جميل معلى
دار البقعة العربية - دمشق ١٩٤٦ م
- ١٢٢ - الحوارج والشيعة - تأليف يوليوس فلهوزن وترجمة عبد الرحمن بدوي
نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٨ م
- ١٢٣ - دراسات في الأدب الإسلامي - لمحمد خلف الله أحمد
لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٧ م

١٢٤ — دراسات في الأدب العربي — تأليف جوستاف ثرن جرونباوم وترجمة مجموعة
نشر دار مكتبة الحياة — بيروت — ١٩٥٩ م

١٢٥ — رسالة ابن غرسية — بتحقيق عبد السلام هارون
(نواذر المخطوطات — المجموعة الثالثة)

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة — ١٩٥٤ م

١٢٦ — الرشيد والبرامكة — لأنطون رباط اليسوعي

المطبعة الكاثوليكية — بيروت — ١٩٢٤ م

١٢٧ — روح الحضارة العربية — تأليف هانز هيرش شيدر وترجمة عبد الرحمن
بدوي

دار العلم للملايين — بيروت — ١٩٤٩ م

١٢٨ — سرقات أبي نواس — لمهلل بن يموت بن المزرع بتحقيق محمد مصطفى هدارة
نشر دار الفكر العربي — القاهرة — ١٩٥٧ م

١٢٩ — السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية — تأليف فان
قلوتن وترجمة حسن إبراهيم حسن ، ومحمد زكي إبراهيم

مطبعة السعادة — القاهرة — ١٩٣٤ م

١٣٠ — الشعر الأندلسي — تأليف إميليو غرسية غومس وترجمة حسين مؤنس
نشر مكتبة النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٥٢ م

١٣١ — شعراء النصرانية بعد الإسلام — لويس شيخو

مطبعة الآباء اليسوعيين — بيروت — ١٩٢٦ م

١٣٢ — شعر الحرب في أدب العرب — لزكي المحاسني

نشر دار الفكر العربي — القاهرة — ١٩٤٧ م

١٣٣ — شعر الطبيعة في الأدب العربي — لسيد نوفل .

مطبعة مصر — القاهرة — ١٩٤٥ م

١٣٤ — الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية (في المدينة) — لشوقي ضيف

نشر دار الفكر العربي — القاهرة — ١٩٤٩ م

- ١٣٥ - الشعر في بغداد - لأحمد عبد الستار الجوارى
نشر دار المكشوف - بيروت - ١٩٥٦ م
- ١٣٦ - شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية) - لعبد الرحمن بدوي
نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٤٨ م
- ١٣٧ - الصراع بين الموالى والعرب - لمحمد بديع شريف
نشر دار الكتاب العربي بمصر - ١٩٥٤ م
- ١٣٨ - الصوفية في الإسلام - تأليف رينولد نيكلسون وترجمة نور الدين شربية
نشر مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٩٥١ م
- ١٣٩ - ضحى الإسلام - لأحمد أمين
الجزء الأول ط . مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٥٢ .
الجزء الثاني ط . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ م
الجزء الثالث ط . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ م
- ١٤٠ - طبقات الصوفية - لأبي عبد الرحمن السلمي بتحقيق نور الدين شربية
ط . دار الكتاب العربي بمصر - ١٩٥٣ م
- ١٤١ - طبقات المجتمع الإسلامى - لمنير العجلانى
مطبعة الجامعة السورية - دمشق - ؟
- ١٤٢ - العرب والإمبراطورية العربية - لكارل بروكلمان
ترجمة نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكي
نشر دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٥٣ م
- ١٤٣ - العربية - تأليف يوهان فلك وترجمة عبد الحليم النجار .
مطبعة دار الكتاب العربي - القاهرة - ١٩٥١ م .
- ١٤٤ - العصر العباسى الأول - لعبد العزيز الدورى
نشر دار المعلمين العالية - بغداد - ١٩٤٥ م
- ١٤٥ - عصر المأمون - لأحمد فريد رفاعى
مطبعة دار الكتب المصرية - ١٩٢٧ م

١٤٦ - العقيدة والشريعة في الإسلام - تأليف إجناس جولدميسر وترجمة محمد يوسف موسى وآخرين

نشر دار الكاتب المصري - ١٩٤٦ م

١٤٧ - الفتنة الكبرى - لطف حسين

نشر دار المعارف بمصر - ١٩٥١ م

١٤٨ - فتوح البلدان لأحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذرى

نشر مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٦ م

١٤٩ - فجر الإسلام - لأحمد أمين

ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٥ م

١٥٠ - الفلسفة والمجتمع الإسلامى - لإبراهيم عبد الحجيد اللبان

نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٠ م

١٥١ - الفن ومذاهبه في الشعر العربى - لشوقي ضيف

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٣ م

١٥٢ - في الأدب العباسى - لعللى أحمد الزبيدى

نشر دار المعرفة - القاهرة - ١٩٥٩ م

١٥٣ - في التصوف الإسلامى وتاريخه - تأليف رينولد نيكلسون وترجمة أبو العلا عفيفى

نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٧ م

١٥٤ - فوات الوفيات - لابن شاكركاكتبي

١٥٥ - قصة الأدب الفارسى - لحامد عبد القادر

نشر مكتبة نهضة مصر بالقاهرة - القاهرة - ١٩٥١ م

١٥٦ - قصة الأدب في العالم - لأحمد أمين وزكى نجيب محمود

ط . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٤٣ م

١٥٧ - قصة الحضارة (٢١ جزءاً) - تأليف ول ديورانت وترجمة محمد بدران

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر : القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٦٠ م

١٥٨ - المجتمعات الإسلامية في القرن الأول - لشكرى فيصل

نشر مكتبة المثنى ببغداد والحنانجى بمصر - ١٩٥٢ م

- ١٥٩ - مذاهب التفسير الإسلامى - تأليف اجنتس جولد تسيهر وترجمة عبد الحلیم النجار
نشر مكتبة الخانجي بمصر - ١٩٥٥ م
- ١٦٠ - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها (جزءان) - لعبد الله الطيب المجذوب
نشر مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٥٥ م
- ١٦١ - مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب - تأليف أوليرى وترجمة تمام حسان
نشر مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٥٧ م
- ١٦٢ - مشكلة السرقات في النقد العربى - لمحمد مصطفى هدارة
نشر مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٥٨ م
- ١٦٣ - من تاريخ الإلحاد فى الإسلام - لعبد الرحمن بدوى
نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٤٥ م
- ١٦٤ - من حديث الشعر والنثر - لطفه حسين
نشر دار المعارف بمصر - ١٩٥٣
- ١٦٥ - الموالى فى العصر الأموى - لمحمد الطيب النجار
نشر مكتبة الخانجي بمصر - ١٩٤٩ م
- ١٦٦ - النظم الإسلامية - لحسن إبراهيم حسن ، على إبراهيم حسن
نشر مكتبة النهضة المصرية - ١٩٣٩ م
- ١٦٧ - نفسية أبى نواس - - لمحمد النويهي
نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٣ م
- ١٦٨ - نقد الشعر - لقدامة بن جعفر
نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة عام ١٩٤٨ م
- ١٦٩ - النقد المهجى عند العرب - لمحمد مندور
نشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٤٨ م
- ١٧٠ - الوافى بالوفيات - - لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى
نشرة ريتز - استنبول - - ١٩٣١ م
- ١٧١ - الوساطة بين المتنبي وخصومه - لعلى بن عبد العزيز الجرجاني
نشر دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٥١ م

- ٦١٨
- Browne, Edward G., — ١٧٢
 Litrerary History of Persia
 Cambridge University Press; 1951.
- Gibb H.A.R., — ١٧٣
 Arabic Literature, Introduction.
 London, 1926.
- Huart; Cl. — ١٧٤
 Histoire des Arabes.
 Librairie Paul Geuthner; Paris, 1912.
- Huart, Cl., — ١٧٥
 Literature Arabe
 Librairie Armand Colin, Paris, 1902.
- Le Strange, G., — ١٧٦
 Baghdad During the Abbasid Caliphate,
 Oxford University Press, London, 1924.
- Nabih Amin Faris, — ١٧٧
 The Arab Heritage,
 Princeton University Press, New Jersey 1946.
- Nicholson, R.A., — ١٧٨
 A Literary History of the Arabs
 The University Press, Cambridge, 1956.
- Palmer, — ١٧٩
 Haroun Al-Raschid
 London, 1881.

ثالثاً : دوريات وموسوعات ومعاجم :

- ١٨٠ — دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية
- ١٨١ — مجلة كلية الآداب والعلوم ببغداد — العدد الثاني — حزيران ١٩٥٧ .
- The Encyclopaedia of Islam, — ١٨٢
 new edition, Leiden 1954-1960.
- The Encyclopaedia of Religion and Ethics — ١٨٣
- ١٨٤ — المعاجم العربية المختلفة .
- ١٨٥ — مجلة المجتمع العلمي العربي بدمشق — ج ١ من المجلد ١٥ سنة ١٩٣٧ م

فهرس شعراء القرن الثاني

حاشية : لم أقصد في هذا الفهرس استقصاء جميع شعراء القرن الثاني ، أو المراجع التي ذكرتهم ولكنني جمعت من صادفته منهم في المراجع المختلفة في أثناء إعداد هذا البحث . وربما أكون قد استقصيت — دون أن أدري — جميع شعراء هذا القرن ، وربما يكون هناك أضعاف من جمعت أسماءهم لا نعلم من أمرهم شيئاً . وقد يكون من بين هؤلاء الشعراء من يعتبر من شعراء القرن الأول أو من شعراء القرن الثالث ، وطبيعة المصادر القديمة لم تترك لي في معظم الأحيان فرصة الترجيح إذ كنت أعتمد مراراً على خبر عارض لمعرفة ما إذا كان الشاعر من القرن الثاني أم لا . وفي مرات أخرى كنت لا أبجد مثل هذا الخبر العارض ، وقد يكون في بعض أسماء هؤلاء الشعراء الذين ذكرتهم تحريف ما ، مع ذلك فقد جهدت في تصحيح هذه الأسماء بمطابقة المصادر المختلفة . وعلى أية حال فهذا الفهرس يعتبر محاولة لجمع شتات شعرائنا في العصور المختلفة ، وقد يكون بداية لمعجم شامل دقيق يكون مرجعاً أميناً في هذا الميدان .

* * *

(الهمزة)^(١)

آدم بن عبد العزيز : الأغاني ١٤ : ٥٨ ، تاريخ بغداد : ٧ : ٢٥ ، الفهرست : ١٦٢
آمنة بنت الوليد بن أبي حفصة : الفهرست : ١٦١
أبان بن عبد الحميد اللاحقي : تاريخ الطبري ١٠ : ٥٣ ، الأوراق (أخبار الشعراء) : ١ وما بعدها ، تاريخ بغداد ٧ : ٤٤ ، الفهرست : ١٦٣ ، طبقات ابن المعتز : ٢٤١ ، الأغاني ٢٠ : ٧٣ وما بعدها ، عيون التواريخ حوادث سنة ٢٢١ هـ .

إبراهيم بن أدهم : حلية الأولياء ٧ : ٣٦٣ — ٣٧٣
إبراهيم بن حبيب الفزاري : الفهرست : ٣٨١

(١) لم يعتبر في هذا الترتيب (ابن) أو (أبو) .

إبراهيم السواق مولى آل المهلب : الكامل للمبرد : ٢٤٤
 إبراهيم بن سيابة : الأغاني ٨٨/١٢ : طبقات ابن المعتز : ٩٣ : الفهرست :
 ٢٣٢ ، نهاية الأرب ج ٤

إبراهيم بن عبد الله بن حسن : تاريخ الطبري ٦ : ١٩٧ ، الفهرست : ٢٣١
 إبراهيم بن المهاجر البجلي : مروج الذهب : ٥٨
 إبراهيم بن المهدي : الورقة : ١٥ ، الفهرست : ١٣٣
 إبراهيم الموصلي : تاريخ الطبري ١٠ : ٥٠ ، الأغاني ٧٩/١٥ : ٢ : ١٥٣ ،
 تاريخ بغداد ٦ : ١٧٥

إبراهيم النظام : تاريخ بغداد ٦ : ٩٧ ، طبقات ابن المعتز : ٢٧١ ، عيون
 التاريخ حوادث سنة ٢٣١ هـ ، الوافي بالوفيات
 إبراهيم بن هرمة : تاريخ الطبري ٩ : ٢٠٧ ، تاريخ بغداد ٦ : ١٢٧ ، الكامل
 للمبرد : ١٣٨ ، الشعر والشعراء : ٤٧٣ ، الفهرست : ١٥٩ ، الأغاني ٤ : ٣٧٢ .
 طبقات ابن المعتز : ٢٠ .

أحمد بن إسحق الحاركي : الورقة : ٥٨ ، الفهرست : ٢٣٣
 أحمد بن أبي أمية : الفهرست : ٢٣١
 أحمد بن الحجاج : طبقات ابن المعتز : ٣٠١
 أحمد بن جحدر الخراساني : الموشح : ٣٥٤
 أحمد بن روح بن أبي بحر : ديوان أبي نواس (ط . فاجتر) : ٤٤
 أحمد بن سيار البخرجاني : الفهرست : ٢٣٢
 أحمد بن أبي عثمان : الفهرست : ٢٣١
 أحمد بن أبي كريمة : تاريخ الطبري ١٠ : ٨٨ ، الحيوان ٢ : ٣٦٧ ، اختبار
 المنظوم والمنثور ١٣ : ورقة ٩٠ (مخطوط)
 أحمد بن المعذل : طبقات ابن المعتز : ٣٦٨
 إدريس بن سليمان بن أبي حفصة : الفهرست : ٢٢٧
 أبو الأسد الثعلبي : طبقات ابن المعتز : ٢٣٠
 إسحق بن إبراهيم الفزاري : الفهرست : ٢٣٣

إسحق بن خلف البهراني : الكامل للمبرد : ٢٣٥ ، طبقات ابن المعتز : ٢٩٢ ،
فوات الوفيات .

إسحق بن سماعة المطيعي : الأوراق (أخبار الشعراء) : ١٥

إسحق بن سويد العدوي : الفرق بين الفرق : ١٤٢

إسحق بن الفضل : الفهرست : ٢٣١

إسماعيل بن جندر الحريري : الفهرست : ٢٣٣

إسماعيل بن عمار : الأغاني ١١ : ٣٦٤

إسماعيل الفتاك : طبقات ابن المعتز : ٤٠٣

إسماعيل القراطيسي : الورقة : ١٠٠ ، الأغاني ٢٠ : ٨٨ ، الفهرست : ٢٣٣ ،

ديوان أبي نواس (ط . فاجتر) : ٥٩

إسماعيل بن يسار : معجم الشعراء : ٤١٣ ، الأغاني ٤ : ٤٠٨

أبو الأسود الحماني : الفخرى في الآداب السلطانية : ١٦٣

أبو الأسود الشيباني : الفهرست : ٢٣٢

أسود بن أبي كريمة : البيان والتبيين ١ : ٨٠

أشجع السلمي : الأوراق (أخبار الشعراء) : ١١٣ ، تاريخ بغداد ٧ : ٤٠ ،

طبقات ابن المعتز : ٢٥١ ، الأغاني ١٧ : ٣٠ ، الشعر والشعراء : ٥٦٢ ،

معاهد التنصيص ٢ : ١٣٣ ، عيون التواريخ حوادث سنة ٢٠٠ هـ

الأعور الكوفي : الفهرست : ٣٣٢

الأقشير الأسدي : الأغاني ١١ : ٢٥٣

أمية بن أبي أمية : الفهرست : ٢٣١

أيوب بن خولي (أبو ثعلبة) : تاريخ الطبري ٨ : ١٤٣

(الباء)

برقش التميمي : المؤلف والمختلف : ١٨٤

أبو البريد البكري : تاريخ الطبري ٨ : ١٨٩

بشار بن برد : تاريخ الطبري ٩ : ١٧٧ ، ١٠ : ٤ ، نكت الهميان : ١٢٧ ،

تاريخ بغداد ٧ : ١١٢ ، الكامل للمبرد : ٢٢٤ ، أمالي المرتضى ١ : ٩٦ ،
 الفهرست : ١٥٩ ، البيان والتبيين ١ : ٢٨ ، الأغاني ٣ : ١٣٥ ، طبقات
 ابن المعتز : ٢١ - ٣١ .

بشر بن الحارث : صفة الصفوة ٢ : ١٨٩

بشر بن المعتز : الحيوان ٤ : ٢٣٩ ، ٦ : ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٤٥٥ ، الفهرست : ١٦٢
 البطين البجلي : الورقة : ٩ ، كتاب بغداد : ٨٩ ، طبقات ابن المعتز : ٢٤٨ ،
 الفهرست : ٢٣١ ، معجم البلدان (دير مياس)

بكار بن رباح : تاريخ الطبري ١٠ : ١٢

أبو بكر بن إبراهيم : تاريخ الطبري ٩ : ٧٥

بكر بن خارجة : الأغاني ٢٠ : ٨٧

أبو بكر العرزي (محمد بن عبيد الله) : معجم الشعراء : ٤١٧

بكر الكناني : الشعر الأندلسي : ١٠

بكر بن النطاح : تاريخ بغداد : ٧ : ٩٠ ، ٩١ ، طبقات ابن المعتز : ٢١٧ -
 ٢٢٦ الفهرست : ٢٣٢ ، الأغاني ١٧ : ١٥٣ ، عيون التواريخ حوادث سنة
 ٢٠٠ هـ ، الوافي بالوفيات .

ابن البواب : الأغاني ٢٠ : ٤٢

بيان العنبري : تاريخ الطبري ٨ : ١٨٤

أبو البیداء الرياحي (أسعد بن عصمة) : الورقة : ٦٥ ، الفهرست : ٦٦

(التاء)

تمام بن علقمة : تاريخ الفكر الأندلسي : ٥٦

(التاء)

ثابت قطنة : تاريخ الطبري ٨ : ١٤٩ ، الأغاني ١٣ : ٥٠

أبو ثمامة الخطيب : تاريخ الطبري ١٠ : ٥٠

(الجيم)

جحشويه : كتاب بغداد : ١٦٦

ابن جذرة : تاريخ الطبري ٩ : ٦٥

الجرى : (أبو عمر صالح بن إسحق) الكامل لابن الأثير : ٦ : ١٠٠ الفهرست
لابن النديم : ٥٦ ، الجمهرة لابن دريد : ٢٠٣ ، ٣١٤ ، ٣١٨ .

الجعد بن درهم : تاريخ الطبري ٨ : ١٥٢

جعفر بن عفان الطائي : الأغاني ١٠ : ٩٥ ، الفهرست : ٢٣٤

الحماز (محمد بن عمرو) : ديوان أبي نواس (ط . فاجنر) : ٧٢ ، معجم

الشعراء (ط . الحلبي) : ٣٧٤ ، تاريخ بغداد ٣ : ١٢٥ ، عيون التواريخ

حوادث سنة ٢٥٠ هـ طبقات المعتر : ٣٧٣ .

جندب بن سودد (أبو الرميح) : الفهرست : ٢٣٣

أبو الجنوب بن مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة : الورقة ٤٤

جهم بن خلف المازني : الفهرست : ٧٠

(الحاء)

حاجب بن ذبيان : تاريخ الطبري ٨ : ١٥٧

حاجب القيل الشكري : تاريخ الطبري ٨ : ١٨٥

الحارث بن عبد الله بن الحشر الجعدي : تاريخ الطبري ٩ : ٣٨

حبيب بن الوليد : نفح الطيب ١ : ٥٧٤

ابن حبيبات الكوفي : الفخري في الآداب السلطانية : ١٥٣

الحجاج بن يوسف التيمي : تاريخ الطبري ١٠ : ٩٢

أبو الحجناء (نصيب الأصغر) الأغاني ٢٠ : ٢٥ ، طبقات ابن المعتز : ١٥٥ -

١٥٧ الفهرست : ٢٣١ ، عيون التواريخ حوادث سنة ١٦٢ هـ ، معجم الأدباء

الحرماني (أبو علي الحسن بن علي) : الفهرست : ٧٢

حسان بن جعدة الجعفي : تاريخ الطبري ٨ : ١٤٤ ، ٩ : ٢٢

حسانة التميمية : الشعر الأندلسي : ١٠

الحسن بن طلحة القرشي : الفهرست : ٢٣٣

الحسين الحياط : ديوان أبي نواس (ط . فاجنر) : ٥٩

الحسين بن الضحالك (الحلبي) : تاريخ الطبري ١٠ : ١٧٥ ، الأغاني ٧ : ١٤٦ ،

تاريخ بغداد ٨ : ٥٤ ، الفهرست : ١٦٣ ، مسالك الأبصار : ٢٧٨ ،

طبقات ابن المعتز : ٢٦٨ ، شذرات الذهب ٢ : ١٢٣ ، عيون التواريخ حوادث
سنة ٢٥٠ هـ

الحسين بن مطير : الأغاني ١٤ : ١١٠ ، الفهرست : ١٦٢ ، طبقات ابن
المعتز ١١٤ - ١١٩ ، عيون التواريخ حوادث سنة ١٧٠ هـ

الحسين بن الوراس (أبو نيقة) : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٢٨ .

حسين بن ولاة السدوسي : تاريخ الطبري ٩ : ٩٤

حفص بن أبي جمعة : تاريخ الطبري ٩ : ٣١٧

الحكم الحضري : الأغاني ٢ : ٢٩١

الحكم بن قنبر : الأغاني ١٣ : ٨ ، الفهرست : ٢٣١

حماد الراوية : طبقات ابن المعتز : ٦٩

حماد بن الزبرقان : طبقات ابن المعتز : ٦٩

حماد عجرد : تاريخ الطبري ٩ : ٣١٩ ، الحيوان ١ : ٢٤١ ، الأغاني ١٣ : ٢٨٨

أمالى المرتضى ١ : ٩٢ ، الوزراء والكتاب : ١٠٩ ، طبقات ابن المعتز :

٦٧ - ٦٩ : الشعر والشعراء : ٤٩٠ ، عيون التواريخ حوادث سنة ١٦٦ هـ

حمدان بن أبان اللاحقي : الأوراق (أخبار الشعراء) : ٥٧ ، ديوان أبي نواس
(ط . فاجنر) : ٤٧

حمدان بن زكريا الخزاز : ديوان أبي نواس (ط . فاجنر) : ٤٧

حمزة بن بيض : الأغاني ١٥ : ١٤ ، تاريخ الطبري ٩ : ٦ ، الكامل لابن
الأثير ٥ : ١١٣

أبو حنشل النخري : الفهرست : ٢٣١

أبو حية النخري (الهيثم بن الربيع) : الأغاني ١٥ : ٦١ ، طبقات ابن المعتز :

١٤٣ - ١٤٦ ، الفهرست : ٢٣١ الشعر والشعراء : ٤٨٦ ، عيون التواريخ

حوادث سنة ١٤٣ هـ

حيونة : حلية الأولياء ، صفة الصفوة

(الخاء)

الحاركي (عمرو الأعور) : الورقة : ٥٦ ، معجم الشعراء : ٢١٩ ، طبقات

ابن المعتز : ٣٠٦ الفهرست : ٢٣٣

خالد القناص : كتاب بغداد : ١٥٧ ، طبقات ابن المعتز : ٣٢٥ الحيوان
٥٢ : ٧

خالد بن المبارك (ابن عرس العبدي) : تاريخ الطبرى ٨ : ٢١٤
أبو خالد المهلبى (يزيد بن محمد) : طبقات ابن المعتز : ٣١٣ .
خالد النجار : تاريخ الطبرى ٩ : ٣٣٥ ، طبقات ابن المعتز : ٣٢٤
ابن الحبازة : تاريخ بغداد ٥ : ٤٢٥
ابن خذام الأسدى : المؤلف والمختلف : ١٠٩
الحرىمى (أبو يعقوب إسحق بن حسان) : تاريخ الطبرى ١٠ : ٦٠ ، ١٧٦ ،
الحيوان ٣ : ١١٣ ، ٧ : ١٥١ ، نكت الحميان : ٧١ ، تاريخ بغداد ٦ : ٣٢٦ ،
الورقة : ١٠٣ ، محاضرات الأدباء ٢ : ١٣١ ، الشعر والشعراء : ٧٢٩ ،
طبقات ابن المعتز : ٢٩٣ ، الفهرست : ٢٣٣
خزيمة بن الحسن : تاريخ الطبرى ١٠ : ٢١٣
أبو الخطاب البهلى (عمرو بن عامر) : طبقات ابن المعتز : ١٣٢ ، الفهرست :
٢٣٣ ، الورقة : ٦٠ ، العملة ١ : ١٢٧
أبو الخطاب زرزور : ديوان أبي نواس (ط . فاجنر) : ٤٤
خلف الأحمر : تاريخ الطبرى ٩ : ٣٢٦ ، طبقات ابن المعتز : ١٤٧ ، الفهرست
٢٢٧ ، الشعر والشعراء : ٤٩٦ ، عيون التواريخ حوادث سنة ١٨٨ هـ
خلف بن خليفة : تاريخ الطبرى ٨ : ٢٢٤ ، ٩ : ٢١ ، البيان والتبيين ١ : ٣٠
الخليل بن أحمد : طبقات ابن المعتز : ٩٦ - ٩٩ ، الفهرست : ٢٢٧
خليفة الأقطع : تاريخ الطبرى ٨ : ١٤٧
خنساء بجارية هشام المكفوف : طبقات ابن المعتز : ٤٢٥ .

(الذال)

الدارى الملقى : الفهرست : ٢٣١
داود الأسود : الفهرست : ٢٢٧
داود بن رزين : تاريخ الطبرى ١٠ : ٥٠ ، الفهرست : ٢٣٢ ، ديوان أبي نواس
(ط . فاجنر) : ٥٩

- داود بن سلم : الأغاني ٦ : ١٠
 ابن دراج الطفيلي : الأغاني ١٥ : ٣٥
 درست المعلم : طبقات ابن المعتز : ٣٣٤
 دعبل الخزاعي : تاريخ الطبري ١٠ : ٣٠١ ، تاريخ بغداد ٨ : ٣٨٢ ، الكامل
 للمبرد : ٢٢٩ ، الفهرست : ١٦١ ، طبقات ابن المعتز : ٢٦٤ الشعر والشعراء
 ٥٣٩ ، الأغاني ١٨ : ٢٩
 أبو دلالة (زند بن الجون) : تاريخ الطبري ٩ : ٢٨٤ ، ١٠ : ١٩ ، تاريخ
 بغداد ٨ : ٤٨٨ ، الشعر والشعراء : ٤٨٧ المؤلف والمختلف : ١٣١ ، الأغاني
 ١٠ : ٢٣٥ ، طبقات ابن المعتز ٥٤ : ٦٢ ، معاهد التنصيص ١ : ٢١٠
 أبو دلف العجلي (القاسم بن عيسى) : معجم الشعراء ط (الحلبي) : ٢١٦
 أبو دهمان الغلابي البصري : الورقة : ٦٣ ، الأغاني ١٩ : ١٥٩ ، الفهرست : ٢٣٣
 ابن الدؤري : طبقات ابن المعتز : ١٣٠ .

(الذال)

- الذلقاء : الفهرست : ٢٣١ ، ديوان أبي نواس (ط . فاجتر) : ٨٩

(الراء)

- ربيعة البصري : الفهرست : ٧٤
 ربيعة الرقي : طبقات ابن المعتز : ١٥٧ - ١٧٠ ، الأغاني ١٥ : ٣٧ ، نكت
 الهميان : ١٥١ ، العمدة ٢ : ١٤٠ عيون التاريخ حوادث سنة ٢٠٠ هـ ،
 معجم الأدباء
 الرزين بن سليمان : الفهرست : ١٦١
 رزين بن زندورد (العروضي) : تاريخ بغداد ٨ : ٤٣٦ ، الورقة : ٣٢ ، معجم
 الأدباء ١٥ : ٢٦٥
 رزين الكلبي : ديوان أبي نواس (ط . فاجتر) : ٥٩
 رسته بن أبي الأبيض : نكت الهميان : ١٥٢
 الرقاشي (الفضل بن عبد الصمد) : تاريخ الطبري ١٠ : ٨٧ ، فوات الوفيات ،
 الحيوان ٦ : ٤٧٢ ، معجم الشعراء (ط . الحلبي) : ١٨٠ الأغاني : ١٥ :
 ٣٤ ، تاريخ بغداد ١١ : ٣٤٥ ، طبقات ابن المعتز : ٢٢٦ ، الفهرست :

٢٣٢ ، عيون التواريخ حوادث سنة ٢٠٠ هـ

ابن رهيمة الملقب (محمد بن عبد الله) : معجم الشعراء : ٤١٧ ، الأغاني ٤ : ٤٠١ ،
ريحانة : صفة الصفوة ، حلية الأولياء .

(الزاي)

زرزر الرقاء (أبو الخطاب) : الورقة : ٣٧

أبو زرغبة : ديوان أبي نواس (ط . فاجنر) : ٦٨

أبو زرغبة الشامي : كتاب بغداد : ١٦١

زبور بن أبي حماد : ديوان أبي نواس (ط . فاجنر) : ٤٣

ابن أبي الزوائد : الأغاني ١٤ : ١٢١

زياد الأعجم (زياد بن جابر) : الأغاني ١٤ : ٩٨

أبو زياد الكلابي : الفهرست : ٦٧

زيد بن الجهم : الفهرست : ٢٢٧

(السين)

سابق البربري : طبقات ابن المعتز : ٣٦٨

ابن السجف المجاشعي : تاريخ الطبري ٨ : ٢١٢

أبو السدانة الفزاري : الفهرست : ٢٣١

سديف (إسماعيل بن ميمون) : تاريخ الطبري ٩ : ٣٠٧ ، الأغاني ١٤ : ١٥٦ ،

طبقات ابن المعتز : ٣٧ — ٤٢ ، عيون التواريخ حوادث سنة ١٤٦ هـ

السري بن عبد الرحمن : الفهرست : ٢٢٧

أبو السري معدان الأعمى الشميطي : الحيوان ٢ : ٢٦٨ ، ٧ : ١٢١

سعدون الحنون : صفة الصفوة ٢ : ٢٨٨ — ٢٩٠

سعيد بن عفير : الولاة والقضاة : ١٢٧

أبو سعيد الخزومي ، تاريخ الطبري ١٠ : ٢٩٨ ، طبقات ابن المعتز : ٢٩٥ ، معجم

الشعراء : ٩٨

سعيد بن وهب : تاريخ بغداد ٩ : ٧٣ ، طبقات ابن المعتز : ٢٥٧ — ٢٦١ ،

الأغاني : ٢٠ : ٦٩ ، الفهرست : ١٧٨ ، عيون التواريخ حوادث سنة ٢١٠ هـ

- سكن جارية محمود الوراق : طبقات ابن المعتز : ٤٢٢
- سلم الحاسر : تاريخ الطبرى ٩ : ٣١٨ ، تاريخ بغداد ٩ : ١٣٦ ، الفهرست : ١٦٢ ، عيون التواريخ حوادث سنة ١٨٠ ، طبقات ابن المعتز : ٩٩ - ١٠٦ الأغاني ٢٠ : ٧١ ، معجم الأدباء .
- سلمة بن عباد بن منصور : الفهرست : ٢٣١
- سلمة بن عياش : الأغاني ٢٠ : ٨٤
- سلمة بن مهزم بن خالد بن مهزم : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٢٧٨
- سليمان الأعمى (أو سليمان بن الوليد) : الحيوان ٤ : ١٩٥ ، البيان والتبيين ١ : ١٨ ، الفهرست : ٢٣١
- سليمان بن أبي سهل بن نبيخت : ديوان أبي نواس (ط . فاجتر) : ٤٨
- سليمان بن قتة : تاريخ الطبرى ٨ : ٢٤٨
- سليمان بن المهاجر البجلي : تاريخ الطبرى ٩ : ١٤١ ، الفهرست : ١٦٢
- سليمان بن يسار : معجم الشعراء : ٤١٣
- أبو السمط بن مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة : الورقة : ٤٤
- سهل بن غالب الحروحي : الفهرست : ٢٣٢
- سوار بن الأشعر : تاريخ الطبرى ٨ : ٢٥٩
- السيد الحميرى : تاريخ الطبرى ٨ : ٢٧٨ ، الأغاني ٧ : ٢٢٩ ، البيان والتبيين ١ : ٣٠ ، طبقات ابن المعتز : ٣٢ - ٣٦ ، عيون التواريخ حوادث سنة ١٧٣ هـ
- سيف بن إبراهيم : تاريخ الطبرى ١٠ : ٨٨

(الشين)

- ابن شادة (المعروف بالخنث) : طبقات ابن المعتز : ٣٣١
- أبو شبل العقيلي : الفهرست : ٦٨
- أبو الشبل الكوفي : طبقات ابن المعتز : ٣٨٠
- شبل بن عزة (عرعة؟) : تاريخ الطبرى ٩ : ٧٤ ، الفهرست : ٦٨
- أبو شراعة : الأغاني ٢٠ : ٣٥ ، طبقات ابن المعتز : ٣٧٥
- شراعة بن الزندبود : الفهرست : ٢٢٧ ، الأغاني ٣ : ٢٧٦
- الشرعبي الطائي : تاريخ الطبرى ٨ : ٢١٤

شمر بن عبد الله : تاريخ الطبرى ٨ : ١٤٣

الشمر دل اليربوعى : الأغاني ١٣ : ٢٦١

أبو الشمقمق (مروان بن محمد) : الحيوان ٥ : ٢٦٤ عيون التواريخ حوادث

سنة ١٨٢ هـ ، تاريخ بغداد ١٣ : ١٤٦ ، طبقات ابن المعتز : ١٢٦ - ١٣٠

الفهرست : ٢٣٢ ، ديوان بى نواس (ط . فاجنر) : ٥٧

شهاب الحياط : الفهرست : ٢٣٢

ابن شهاب الزهرى الفقيه (محمد بن مسلم) : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٣٤٥

أبو الشيص (محمد بن عبد الله بن رزين الخزاعى) : تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢٣ ، الأغاني

١٥ : ١٠٤ ، الشعر والشعراء : ٨٢٣ طبقات ابن المعتز : ٧٢ - ٨٧ ،

نكت الهميان : ٢٥٧ ، تاريخ بغداد ٥ : ٤٠١ ، معاهد التنصيص ٢ : ١٤٢

(الصاد)

صالح بن الأبار (أبو نميلة) : تاريخ الطبرى ٨ : ٢٦٩

صالح بن جناح : الفهرست : ٢٢٧

صالح بن عبد القدوس : نكت الهميان : ١٧١ ، تاريخ بغداد ٩ : ٣٠٣ ،

الكامل للمبرد : ٢٢٧ ، عيون التواريخ حوادث سنة ١٦٠ أمالى المرتضى ١ :

١٠٠ ، محاضرات الأدباء ٢ : ١٨٥ ، معجم الأدباء ١٤ : ٧ ، الفهرست ،

٢٣١ ، فوات الوفيات ، حياة الحيوان ١ : ٢٤

صالح بن أبى النجم : الفهرست : ٢٣٢

ابن أبى صبح (عبد الله بن عمرو) : الفهرست : ٧٣

الصحارى بن شبيب : تاريخ الطبرى ٨ : ٢٤٦

أبو صعصعة الضرير الكوفى : الفهرست : ٢٣٤

صفوان الأنصارى : البيان والتبيين ١ : ١٦

الصمرى : الورقة : ٥٢ ، الفهرست : ٢٣٣

(الضاد)

الضحاك بن قيس : تاريخ الطبرى ٨ : ٢٤٤

الضحاك بن معن السلمى : تاريخ الطبرى ١٠ : ٤٥

أبو الضلع السندى : الورقة : ٩٠ ، الفهرست ٢٣٣

(الطاء)

- ابن أبي طالب المكفوف : تاريخ الطبرى ١٠ : ١٩٠
 طريح بن إسماعيل الثقفى ، تاريخ الطبرى ١٠ : ١٩ ، الأغاني ٤ : ٣٠٩
 ابن طيسلة : تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٦

(العين)

- أبو عاصم الأسلمى : الفهرست : ٢٣١
 عاصم بن زيد بن حنظلة : تاريخ الفكر الأندلسى : ٣
 عاصم بن عمر اللخمي المدينى : معجم الشعراء ط . الحلبي : ١١٩
 عاصم بن محمد المدينى : معجم الشعراء ط . الحلبي : ١١٨ .
 عاصم بن الوليد بن يحيى بن أبي حفصة : معجم الشعراء ط . الحلبي : ١١٩
 ابن أبي عاصية السلمى : الفهرست : ٢٣١
 عامر بن عبد الرحمن (أبو الهول) : تاريخ بغداد ١١ : ٢٣٧
 ابن عائشة القرشى (عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد) : تاريخ بغداد ١٠ : ٢٥٩
 عبادة بن عمر الراتجى : معجم الشعراء : ١٦٩ .
 عباد بن الحارث : تاريخ الطبرى ٩ : ٧٥
 عباد بن الممزق : الفهرست : ٢٣٣
 أبو عباد النخبرى (مروان بن بشر) : معجم الشعراء : ٣٩٧
 العباس بن الأحنف : تاريخ الطبرى ١٠ : ٩٧ ، ٣٠٠ ، تاريخ بغداد ١١ : ١٢٧
 الكامل للمبرد : ٥١٨ ، الفهرست : ١٦٣ ، الأغاني ٨ : ٣٥٢ ، طبقات
 ابن المعتز : ٢٥٤ ؛ الشعر والشعراء : ٥٢٥ ، معاهد التنصيص ١ : ٢٠ ،
 شذرات الذهب ١ : ٢٣٤ ، معجم الأدباء
 أبو العباس الأعمى (السائب بن فروخ) : الأغاني ١٥ : ٥٧
 العباس بن أبي الشعلى : الفهرست : ٢٣٢ .
 عباس بن ناصح : نفح الطيب ٢ : ١٥٦
 عبد الجبار بن سعيد المساحقى : الفهرست : ٢٣٣
 عبد الخالق بن عبد الواحد بن النعمان بن بشير : الورقة : ٨٤ ، الفهرست : ٢٣٣
 أبو عبد الرحمن العطوى (محمد بن عبد الرحمن) : تاريخ الطبرى ١٠ : ٨٨ ،

الأغاني ٢٠ : ٥٨ ، طبقات ابن المعتز : ٣٩٥ ، معجم الشعراء ط .
الجلي : ٣٧٧

عبد الرحمن بن معاوية : الحلة السبراء : ٣٤

عبد الرحمن بن أبي الهذاهد : تاريخ الطبري ١٠ : ٢١١ ، ديوان أبي نواس
(ط . فاجنر) : ٤٤

عبد الصمد بن عبد الأعلى : تاريخ الطبري ٨ : ٢٨٨

عبد الصمد بن المعذل : الأغاني ١٣ : ٢٢٦ ، الكامل للمبرد : ٢٢٤ ، طبقات
ابن المعتز : ٣٦٨ .

عبد الغفار بن عمر الأنصاري : الفهرست : ٢٣١

عبد القدوس بن عبد الواحد بن النعمان بن بشير : الفهرست : ٢٣٣

عبد الله بن أبي أمية ، طبقات ابن المعتز : ٣٢٢ ، الفهرست : ٢٣١ ، الورقة : ٥٠

عبد الله بن أيوب التيمي : تاريخ بغداد ٩ : ٤١١ ، الفهرست : ١٦٣

عبد الله بن الحر : الفهرست : ٢٣١

عبد الله بن السمط : الفهرست : ١٦١

عبد الله بن أبي الشيص : طبقات ابن المعتز : ٣٦٥ ، الفهرست : ٢٢٧

عبد الله بن طاهر : ديوان أبي نواس (ط . فاجنر) : ٧٤

عبد الله بن عمر العبلي : تاريخ الطبري ٩ : ٦٠ ، الأغاني ١١ : ٢٩٣

عبد الله بن المبارك : الورقة : ١٤ الفهرست : ٢٣٠ حلية الأولياء : ٨ : ٢٧٩

عبد الله بن محمد الأمين : الأغاني ١٠ : ١٩٩

عبد الله بن محمد بن أبي عيينة : الكامل للمبرد : ٢٢٧ ، عيون الأخبار : ٢١٧ ،

٢٢٢ ، الفهرست : ٢٣٣ طبقات ابن المعتز : ٢٨٨

عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير : تاريخ الطبري ٩ : ٢٣٠ ،

الأغاني ، ٢٠ : ١٨٠ ، الفهرست : ٢٣٠

عبد الله بن المقفع : أمالي المرتضى ١ : ٩٤ ، الفهرست : ١٧٢

عبد الله بن موسى الهادي : الأغاني ١٠ : ١٩٥

عبد الملك بن الشمر : تاريخ الفكر الأندلسي : ٥٢

عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي : طبقات ابن المعتز : ٢٧٦ ، شرح المصنوع

٣٧ ، شرح شواهد المغني : ١٨٠ ، شرح الحماسة ١ : ٥٦ ، ٢ : ١٧٧

عبيد الله بن قريمان : تاريخ الفكر الأندلسي : ٥١٢
 أبو عبيد الله الأشعري (معاوية بن عبيد الله بن يسار) : معجم الشعراء ط .
 الحلبي : ٣١٥

عتاب بن عبد الله بن عتبة بن سعد بن العاص : معجم الشعراء ط . الحلبي : ١٠٨
 العتاهية بن أبي العتاهية : طبقات ابن المعتز : ٣٦٤

أبو العتاهية (إسماعيل بن القاسم) : تاريخ الطبري ١٠ : ١١ ، طبقات ابن
 المعتز : ٢٢٨ - ٢٣٤ ، تاريخ بغداد ٦ : ٢٥٠ ، الكامل للمبرد : ٢٢٩ ،
 الفهرست : ١٦٠ ، الشعر والشعراء : ٧٦٥ ، الأغاني ٤ : ١ ، عيون التاريخ
 حوادث سنة ٢١١ هـ ، معاهد التنصيص ١ : ٢٣٧ ، شذرات الذهب ٢ : ٢٥

عثمان بن سالم : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٩٢
 عثمان بن صدقة بن وثاب : تاريخ الطبري ٨ : ٢٨١ ، معجم الشعراء : ٢٥٦

عثمان بن عفارة بن خريم : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٩٢
 أبو العجل : طبقات ابن المعتز : ٣٤٠

ابن عرس العبدي : انظر : خالد بن المعارك

عرفجة الدارمي : تاريخ الطبري ٨ : ٢٠٣

عصم بن وهب (أبو شبل) : معجم الشعراء : ٢٧٥

عصمة بن عبد الله الأسدي : معجم الشعراء : ٢٧٤

أبو عطاء السندي (أفلح مرزوق) مولى عنبر بن سماك : تاريخ الطبري : ٩ : ٣٨ ،
 الشعر والشعراء : ٧٤٦ ، الأغاني ١٦ : ٨١ ، معجم الشعراء ط . الحلبي :

عطية بن الأسود الكلبي : معجم الشعراء : ١٥٨ .

عكاشة بن عبد الصمد العمي : الفهرست : ١٦٢ ، الأغاني ٤ : ٢٨٥

العلاء بن الحداد الأعمى : تاريخ الطبري ١٠ : ٢٣

العلاء بن عاصم الغساني : الفهرست : ٢٣٤

ابن العلاف النهرواني : طبقات ابن المعتز : ٣٥٩

علياء بن منظور اللبني : تاريخ الطبري ٨ : ٢٨٦

هلي بن أدبم الكوفي البزاز : الأغاني ١٤ : ٤٩ ، معجم الشعراء : ٢٨٣

على بن أبي أمية : الأغاني ٢٠ : ٦٣ ، الفهرست : ٢٣١ -
 على بن جبلة (المعكوك) : تاريخ بغداد ١١ : ٣٥٩ ، طبقات ابن المعتز : ١٧١ -
 ١٨٥ ، الفهرست : ٢٣٣ ، الشعر والشعراء ٥٥٠ ، الأغاني ١٨ :
 نكت الهميان : ٢٠٩ : عيون التواريخ حوادث سنة ٢١٣ هـ
 على بن ثابت : الأغاني ٤ : ٤٣

على بن حمزة الكسائي : معجم الشعراء ط . الحلبي : ١٣٧
 على بن الخليل : تاريخ الطبري : ٩ : ٣٢٨ ، أمالي المرتضى ١ : ١٠١ ، -
 الفهرست : ١١٢ ، معجم الشعراء : ٢٨٣ ، الأغاني ١٣ : ١٣

على بن رؤيم الكوفي : الفهرست : ٣٢١
 على بن رزين الخزازي : الفهرست : ١٦١ ، معجم الشعراء ط . الحلبي : ١٣٦
 على بن عاصم العنبري : طبقات ابن المعتز : ٣٥٤ ، معجم الشعراء ط . الحلبي : ١٣٩
 على بن عبيدة الرياحي : تاريخ الطبري ١٠ : ٢٩٩

على بن عبيد الله بن محمد بن عمر بن أبي طالب : معجم الشعراء ط . الحلبي : ١٣٧
 على بن أبي كثير : معجم الشعراء : ٢٨٢

على بن المبارك الأحمر : معجم الشعراء : ١٣٨
 عليّة بنت المهدي : الأوراق (أشعار أولاد الخلفاء) : ٦١ ، الفهرست : ١٦٤
 الأغاني ١٠ : ١٦٣

عمار ذو كنان : الأغاني ٧ : ٥٧ ، ٢٠ : ١٧٤
 عمارة بن عقيل : تاريخ بغداد ١ : ٦٨ ، كتاب بغداد : ١٥٧ ، الأغاني
 ٢٠ : ١٨٣ طبقات ابن المعتز : ٣١٦ ، معجم الشعراء
 عمارة بن فراس الحنفي : معجم الشعراء ط الحلبي : ٧٨ .

العماني (محمد بن ذؤيب) : تاريخ بغداد ٥ : ٢٧٠ ، البيان والتبيين : ١ : ٧٩
 الشعر والشعراء : ٤٧٥ الأغاني ١٧ : ٧٨ ، طبقات ابن المعتز : ١٠٩ -
 ١١٤ ، الفهرست : ٢٣١

عمر بن بزيع : تاريخ الطبري ١٠ : ٢٤
 عمر بن سلمة (ابن أبي السعلاء) : طبقات ابن المعتز : ١٥٠ - ١٥٣ ،
 الأغاني ١٢ : ١٧٣

- عمر بن المبارك : الفهرست : ٢٣١
- عمران بن هلباء الكلبي : تاريخ الطبري : ٩ : ٥
- عمرو بن جزي السكري : الفهرست : ٢٣٣
- عمرو بن حسان بن هاني : معجم الشعراء : ٢٣٢
- عمرو بن الحسن الإباضي : معجم الشعراء : ٢٢٩
- عمرو بن حويّ السكسكي : معجم الشعراء : ٢١٨
- عمرو بن رثاب الأسدي الجندي : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٥٣
- عمرو بن عبد الملك (أبو النصير) : الأغاني ١١ : ٢٨٥
- عمرو بن عبد الملك العتري الوراق : تاريخ الطبري ١٠ : ١٧٤ ، الفهرست :
- ١٦٣ ، مسالك الأبصار : ٣٠٩ ، معجم الشعراء : ٢١٨ ، الديارات : ١١٠
- عمرو المخلخل (مولى ثقيف) : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٣٠
- عمرو بن المغيرة الصيرفي (بهلول المجنون) : صفة الصفوة ٢ : ٢٩٠ ، فوات الوفيات ١ : ١٠٥
- عمرو بن واقد : معجم الشعراء : ٢١٧
- عنان جارية الناطق : الفهرست : ١٦٤ ، الورقة : ٣٩ ، طبقات ابن المعتز : ٤٢١
- عوف بن محلم الخزاعي : طبقات ابن المعتز : ١٨٦ - ١٩٣ ، الفهرست :
- ٢٣٣ ، معاهد التنصيص ١ : ١٢٧ شذرات الذهب ٢ : ٣٢ ، تاريخ
- بغداد ٩ : ٤٨٦ ، معجم البلدان (الرى وميان) ، عيون التواريخ حوادث
- سنة ٢٢٠ ، معجم الأدباء ، الوافي بالوفيات ، فوات الوفيات
- عياش بن حنيفة الخثعمي : معجم الشعراء : ٢٧٩
- عيسى بن زينب : طبقات ابن المعتز : ٢٢٦ معجم الشعراء : ٩٩
- عيسى بن شافع : الولاة والقضاء : ٩٥
- عيسى بن عصمة (أبو الجويرية) : تاريخ الطبري ٨ : ٢١٩
- أبو عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب :
- معجم الشعراء ط . الحلبي : ٩٦
- أبو عينة بن محمد المهدي : الأغاني : ١٨ : ٨ ، طبقات ابن المعتز : ٢٨٨ ، الشعر
- والشعراء : ٥٥٥ ، معجم الشعراء

(الغين)

- غالب بن الحارث العكلي : الموشح : ٣٥٤
 غالب بن عثمان الهمداني : تاريخ الطبرى ٩ : ١٩٧ ، الفهرست : ٢٣٢
 أبو الغدافر : تاريخ الطبرى ١٠ : ٧١ ، الورقة : ٣
 أبو الغراف السلمى (عمرو بن مرثد) : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٣٠
 غريب بن عبد الله : تاريخ الفكر الأندلسي : ٤
 الغمر بن أبي الغمر (الخليل الشامي) : المؤلف والمختلف : ١١٤
 أبو الغول (علياء بن جوشن) : طبقات ابن المعتز : ١٤٩ ، الشعر والشعراء :
 ٢٥٦ ، المؤلف والمختلف : ١١٧
 غيلان بن حريث : تاريخ الطبرى ٩ : ٦٥

(الفاء)

- فتوح بن محمود بن مروان : الفهرست : ١٦١
 أبو فرعون الساسي : الورقة : ٥٣ ، طبقات ابن المعتز : ٣٧٦ ، الفهرست : ٢٣٣
 فروخ الطلحي المدني (فرخ الزنا ، يعقوب بن إسماعيل) : معجم الشعراء ط .
 الحلبي : ٤٩٥ ، طبقات ابن المعتز .
 فضل البخارية : الأغاني ٢٠ : ١١٥
 الفضل بن الربيع الحاجب : معجم الشعراء ط . الحلبي : ١٨٢
 الفضل بن العباس الخزاعي : الورقة : ٣٦ ، الفهرست : ٢٣٣ ، معجم الشعراء
 ط . الحلبي : ١٨١
 الفضيل بن عياض : صفة الصفوة ٢ : ١٣٥ ، حلية الأولياء ٨ : ٨٤ .
 الفيض بن أبي صالح (شيرويه) : معجم الشعراء : ١٩٤

(القاف)

- أبو قابوس الحيري العبادي (عمرو بن سليمان) . شعراء النصرانية بعد الإسلام :
 ٢٤١ ، معجم الشعراء : ٢١٩ ، الفهرست : ٢٣٢ ، ديوان أبي نواس (ط .
 فاجزر) : ٥٤
 القاسم بن عبد السلام بن عبد الله بن المجبر بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب :
 معجم الشعراء ط . الحلبي : ٢١٥

القاسم بن عيسى (أبو دلف العجلي) : الكامل للمبرد : ٧٠٢ ، معجم الشعراء : ٢١٦
 قتيبة الحماني : معجم الشعراء (الحلبي) : ٢١٢ .
 القحيف العقيلي : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٢١١
 القصافي (عمرو بن نصر) : الورقة : ٧ ، معجم الشعراء : ٢٢٠ ، طبقات
 ابن المعتز : ٣٠٥ ، الفهرست : ٢٣٢
 القطامي بن الحصين : تاريخ الطبري ٨ : ١٤٨
 (الكاف)

كثير عزة : الأغاني ٩ : ٤
 كلثوم بن عمرو العتابي : تاريخ بغداد ١١ : ٤٨٨ ، كتاب بغداد : ٨٧ ،
 طبقات ابن المعتز : ٢٦١ ، الفهرست : ١٧٥ ، الشعر والشعراء : ٥٤٩ ،
 الأغاني ١٢ : ٢ ، معجم الشعراء : ٣٥١ ، عيون التواريخ حوادث سنة ٥٢٢٠
 الكميت بن زيد الأسدي : تاريخ الطبري ٨ : ٢٢٢ ، الأغاني ١٥ : ١٠٨ ،
 المؤلف والمختلف : ١٧٠

(اللام)

لاحق جد أبان بن عبد الحميد : الفهرست : ٢٣٢ ، معجم الشعراء ط . الحلبي :
 ٤٧٧

لقيط بن بكير المحاربي : تاريخ الطبري : ١٠ : ١٩
 (الميم)

مالك بن أحمد بن سوار الطائي : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٢٦٧

مجااعة بن الأزهر : تاريخ الطبري ٦ : ٢٩٦

محارب بن دثار الذهلي : الأغاني ٧ : ٢٤٨

محبية البرمكية : الفهرست : ٢٣١ ، ديوان أبي نواس (ط . فاجر) : ٨٨

أبو محجن مولى خالد القسري : تاريخ الطبري ٩ : ٢٢

محرر بن جعفر : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٤٥٥ .

المحسن بن أرطاة الأعرجي : الفهرست : ٢٣١

محمد بن إبراهيم الفزاري : الفهرست : ٢٣٣

محمد بن أحمد بن رشيد (مولى المهدي) : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٣٩٢

- محمد بن إدريس : الفهرست : ١٦١
- محمد بن الأشعث : الأغاني ١٣ : ١٢٢
- محمد بن أبي أمية : تاريخ بغداد ٢ : ٨٥ ، الفهرست : ٢٣١
- محمد بن أمية بن أبي أمية : تاريخ بغداد ٢ : ٨٦ ، الورقة : ٤٧ ، الأغاني ١٢ : ١٤٥
- محمد بن حازم الباهلي : طبقات ابن المعتز : ٣٠٨ ، الفهرست : ٢٣٣ ، الأغاني ١٢ : ١٥٨ ، الورقة : ١٠٩ معجم الشعراء : ٤٢٩ ، تاريخ بغداد ٢ : ٢٩٥
- محمد بن أبي حمزة العقيلي : الفهرست : ٢٣٤
- محمد بن ذروة الأصفهاني : ديوان أبي نواس (ط . فاجنر) : ٧٢
- محمد بن رباح : ديوان أبي نواس (ط . فاجنر) : ٤١
- محمد بن صالح العلوي : الأغاني ١٥ : ٨٥
- محمد بن صباح (أبو مسلم الخلق البصري) معجم الشعراء ط الحلبي : ٣٦٠
- محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب : معجم الشعراء الحلبي : ٣٥٢
- محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٣٤٨
- محمد بن عبد الملك الفقعسي الأسدي : الورقة : ١٢ ، الفهرست : ٧٣
- محمد بن عبيد بن عوف الأزدي : معجم الشعراء : ٤١٧
- محمد بن أبي العتاهية : تاريخ بغداد ٢ : ٣٤ ، الفهرست : ٢٢٧ ، معجم الشعراء ط . الحلبي : ٣٧٧
- محمد بن علي الضبي : الفهرست : ٣٣٤
- محمد بن أبي عينة : الفهرست : ١٦٢
- محمد بن الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٣٥٢
- محمد بن كناسة : الأغاني ١٣ : ٣٣٧ ، الورقة : ٨١ ، الفهرست : ١٠٥
- محمد بن مروان بن أبي الجنوب : الفهرست : ١٦٠
- محمد بن مناذر : الأغاني ١٧ : ٩ ، طبقات ابن المعتز : ١١٩ - ١٢٦ ، الفهرست ٢٣٢ ، الشعر والشعراء : ٥٥٣ عيون التواريخ حوادث سنة ٢٠١ هـ
- محمد بن وهيب : الأغاني : ١٧ : ١٤٩ ، طبقات ابن المعتز : ٣١٠ ، معجم الشعراء ، خاص الخاص : ٤٩٤ معاهد التنصيص ١ : ٧٦

- محمد بن يزيد بن مسلمة الحصني : الفهرست : ٢٣٤
- محمد بن يسار : معجم الشعراء : ٤١٣
- محمد بن يسير : الحيوان ١ : ٩٤ ، الأغاني ١٤ : ١٧ ، طبقات ابن المعتز : ٢٨٠ ، الفهرست : ٢٣٣ ، الشعر والشعراء : ٥٦٠ ، الورقة : ١١٢ ، معجم الشعراء
- محمود بن الحسن بن الوراق : تاريخ بغداد ١٢ : ٨٧ ، زهر الآداب ١ : ١٣٨ ، الكامل للمبرد : ٢٢٥ ، الموشى ١٣٧ ، طبقات ابن المعتز : ٣٦٧ ، المخيم الراسبي : الورقة : ٩٢ ، الفهرست : ٢٣٣
- مدرك بن واصل بن حنظلة : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٢٣٣
- المرار بن سعيد الفقعسي : الأغاني ١٠ : ٣١٨
- مروان بن أبي حفصة : تاريخ الطبري ٩ : ٣٤٧ ، تاريخ بغداد ١٣ : ١٤٢ ، الفهرست : ١٦٠ ، الأغاني ١٠ : ٧١ ، طبقات ابن المعتز : ٤٣ - ٥٤ ، الشعر والشعراء : ٤٨١ ، عيون التواريخ حوادث سنة ١٨٢ هـ
- مروان بن سعيد بن عباد ، معجم الشعراء ط . الحلبي : ٣٢٠
- مروان بن سليمان بن يحيى : الفهرست : ١٦٠ ، معجم الشعراء : ٣١٧
- مروان بن صرد : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٣٢١
- مساور الوراق : أمالي المرتضى ١ : ٩٣ ، الفهرست : ٢٣٠
- أبو المسبح الملقب : الفهرست : ٢٣٢
- المستهل بن الكميت : الورقة : ٧٧ ، الفهرست : ٢٣٣ ، معجم الشعراء : ٤٥٣
- مسرور الخولاني : الولاة والقضاة : ٩١
- مسلم بن الوليد : تاريخ بغداد ١٣ : ٩٦ ، الفهرست : ١٦٠ ، طبقات ابن المعتز ٢٣٥-٢٤٠ : الشعر والشعراء : ٥٢٨ ، معاهد التنصيص ٢ : ١٠ ، عيون النواير حوادث سنة ٢٠٠ هـ
- مسور بن عبد الملك اليربوعي : معجم الشعراء ط . الحلبي ٤٥٥ .
- مُصَرِّف بن الحارث : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٣٠٧
- مصعب بن عبد الله بن مصعب : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٣٢٧ .
- مشرّف المصري : معجم الشعراء : ٤٨١
- مطرف الهجيمي (أبو الأنواح) : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٣٠٥

مطيع بن إياس : الأغاني ١٣ : ٢٧٤ ، تاريخ بغداد ١٣ : ٢٢٥ ، أمالي المرتضى
١ : ٩٨ ، معجم الشعراء ط . الحلبي ٤٥٤ ، الفهرست : ١٦٢ ، طبقات
ابن المعتز : ٩٤ - ٩٦ ، عيون التواريخ حوادث سنة ١٦٩ هـ ، نهاية
الأرب - ٤

معاذ بن مسلم الهراء الكوفي : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٢١٢ .
أبو المعاني المزني (يعقوب بن إسماعيل بن رافع) : الفهرست : ٢٣١ ، معجم
الشعراء ط . الحلبي : ٤٩٦

أبو المعالي الكلابي : تاريخ الطبری ١٠ : ٩٩
المعذل بن غيلان : الأغاني ٢٠ : ٧٤ ، الأوراق (أخبار الشعراء) : ٧ ، معجم
الشعراء ط . الحلبي : ٣٠٤

معروف الكرخي : صفة الصفوة ٢ : ١٨١ .
معقل بن طوق : الفهرست : ٢٣٣
المعلی الطائي : طبقات ابن المعتز : ٣٣٣ .
معن بن زائدة : الفهرست : ٢٣١
أبو المضرحي : الفهرست : ٢٣٢

المفضل المازني : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٢٩٧
المفضل بن خالد السلمي : معجم الشعراء : ط . الحلبي : ٢٩٧
مقدس بن صبيح : تاريخ الطبری : ١٠ : ٢١٣
المقنع الكندي : الحيوان ١ : ٦٥
مكين العذري : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٤٥٦
أبو ملك الأعرج : الفهرست : ٢٣٠

المنذر الرقاشي : تاريخ الطبری ٩ : ٦٩
المنذر بن عبد الله بن المنذر بن المغيرة : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٢٧١
المنذر بن مصعب بن شداد الذهلي الرقاشي : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٢٧٠
منصور بن باذان الأصفهاني : طبقات ابن المعتز : ٣٤٤ ، ديوان أبي نواس
(ط . فاجر) ٧٢

منصور النمرى : تاريخ الطبرى ١٠ : ٥٣ ، الأغاني ١٣ : ١٤٠ ، تاريخ بغداد

١٣ : ٦٦ ، أمالى المرتضى ٤ : ١٨٧ ، الشعر والشعراء : ٨٣٥ ، طبقات

• ابن المعتز : ٢٤٢ - ٢٤٨ . عيون التواريخ حوادث سنة ٢٢٠ هـ

منقذ بن عبد الرحمن الهلالى : تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٦ ، معجم الشعراء : ٤٠٤ ،
الفهرست : ٢٣٠

منقذ بن عبد الله القرىعى : ٣٢٩

موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب : الفهرست : ٢٣١ ،

معجم الشعراء ط . الحلبي : ٢٨٨

موسى بن داود بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب : معجم الشعراء : ٢٨٧

ابن المولى (محمد بن عبد الله بن مسلم) : الأغاني ٣ : ٢٨٦ ، معجم الشعراء ط .

الحلبي : ٣٤٢

المؤمل بن أميل المحاربى : تاريخ الطبرى : ٩ : ٣٠١ ، تاريخ بغداد ١٣ : ١١٧ ،

معجم الشعراء : ٣٨٤ ، الأغاني ١٩ : ١٤٧

المؤمل بن جميل بن يحيى بن أبى حفصة ، تاريخ بغداد : ١٣ : ١٨٠

المؤمل بن طالوت المعروف بالزارى : معجم الشعراء : ٢٩٩

ابن ميادة (الرماح بن أبرد) : الأغاني ٢ : ٢٦١ ، المؤلف والمختلف : ١٢٤ ،

طبقات ابن المعتز : ١٠٦ ، الشعر والشعراء : ٤٨٤ ، عيون التواريخ حوادث

سنة ١٣٩ هـ .

ميمون الحصرى : الفهرست : ٢٣٣

ميمونة : صفة الصفوة ، حلية الأولياء .

(النون)

نابغة بنى شيبان : الأغاني ٧ : ١٠٦

ناهض بن ثومة : الأغاني ١٣ : ١٧٥

أبو نجدة النخبرى : الفهرست : ٢٣١

أبو نخيلة : تاريخ الطبرى ٩ : ٢٧٣ ، طبقات ابن المعتز : ٦٣ : الشعر والشعراء : ٣٨١

الأغاني ١٨ : ١٣٩ ، المؤلف والمختلف : ١٩٣

أبو نزار الضرير : تاريخ الطبرى ١٠ : ٣٠٠ ، كتاب بغداد : ١٥٨

نصر بن سعيد الأنصاري : تاريخ الطبري ٩ : ٢٢

نصر بن سيار : تاريخ الطبري ٨ : ١٨٣

نصيب مولى المهدي (أو نصيب الأصغر) : انظر : أبو الحجناء

نهار بن توسعة : تاريخ الطبري ٨ : ٢١١

أبو نواس (الحسن بن هاني) : تاريخ الطبري ١٠ : ٩٦ ، تاريخ بغداد ٧ :

٤٣٦ ، الفهرست : ١٦٠ ، الشعر والشعراء : ٧٧٣ ، طبقات ابن المعتز :

١٩٣ - ٢١٧

ابن نوفل : تاريخ الطبري ٨ : ٢٤١

(الهاء)

الهادي أبو محمد (موسى) بن محمد المهدي : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٢٨٩

هارون بن حماد الواسطي : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٤٦١

هارون الرشيد (الخليفة) معجم الشعراء ط . الحلبي : ٤٦٢

هارون بن سعد العجلي : الفرق بين الفرق : ١٥٣ ، معجم الشعراء ط . الحلبي :

٤٦١ ، عيون الأخبار ٢ : ١٤٥

أبو هاشم المطلبي : الفهرست : ٢٣١

ابن هرمة : انظر : إبراهيم بن هرمة

أبو هشام الباهلي البصري (عمرو بن عبد الرحمن بن الحلق) : الأغاني ١٣ : ٩٨ ،

معجم الشعراء : ٢١٦

أبو هلال الأحمد : طبقات ابن المعتز : ٣٢٩

هلال بن الأسعر : الأغاني ٣ : ٥٢

الهنازي : تاريخ الطبري ١٠ : ٢٩

أبو الهندي الأسدي (عبد الله أو عبد المؤمن أو غالب (بن ربيع) : تاريخ

الطبري ٨ : ٢٤٠ ، طبقات ابن المعتز : ١٣٦ - ١٤٢ ، الأغاني ٢٠ : ١٧٧

وما بعدها ، الشعر والشعراء ٤٢٩ ، عيون التواريخ حوادث سنة ١٣٠ هـ ،

أنساب الأشراف ١١ : ٩١٣ ، مسالك الأبصار ١ : ٣٨٩

أبو الهول الحميري : الفخرى في الآداب السلطانية : ١٧٧ ، الفهرست : ١٦٣ ،

تاريخ بغداد ١٢ : ٢٧٣ طبقات ابن المعتز : ١٥٣

أبو الهيثام (عامر بن عمارة بن خريم المري) : الورقة : ٢٣ ، الفهرست : ٢٣٣

(الواو)

- والبة بن الحباب : تاريخ الطبرى ١٠ : ١٨ ، تاريخ بغداد ١٣ : ٥١٨ ، طبقات
 * ابن المعتز : ٨٧ ، الأغاني ١٦ : ١٤٨
 ورد بن حكيم : الفهرست : ٦٨
 وضاح اليمن : الأغاني ٦ : ٢١٤
 ابن أبي الوليد الزنديق : الفهرست : ١٦٢
 الوليد بن يزيد : تاريخ الطبرى ٨ : ٢٩٠ ، الأغاني ٧ : ١٢ ، الفخرى فى
 الآداب السلطانية ، ١١٤ ، أمالى المرتضى : ١ : ٨٩ ، تاريخ الخلفاء :
 ١٦٦ ، أنساب الأشراف : ٨ : ٣٠٩ (مخطوط) .

(الياء)

- ابن يامين المصرى : الفهرست : ٢٣١
 يحيى بن بلال العبدى : معجم الشعراء : ٤٩٩ ، الفهرست : ٢٣١
 يحيى بن أبى حفصة : الفهرست : ١٦٠
 يحيى بن الحكم الغزالى : نفح الطيب ١ : ٤٤٥
 يحيى بن خالد بن برمك : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٤٨٨
 يحيى بن الزبير بن عمرو بن الزبير بن العوام : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٤٨٩
 يحيى بن زياد الحارثى : تاريخ بغداد ١٤ : ١٠٦ ، الفهرست : ١٦٢ ، ديوان
 أبى نواس (ط . فاجنر) : ٦٩
 يحيى بن زياد بن أبى خرابة البرجمى : تاريخ الطبرى ٩ : ٢٦٧ ، معجم الشعراء
 ط . الحلبي : ٤٨٦ (وفيه خطأ) جرادة)
 يحيى بن زياد بن عبيد الله : معجم الشعراء : ٤٩٧
 يحيى بن سعيد الأنبارى : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٤٩٠
 يحيى بن أبى طالب : الأغاني ٢٠ : ١٤٩
 يحيى بن المبارك (أبو محمد اليزيدى) : الورقة : ٢٧ ، معجم الشعراء ط . الحلبي
 ٤٨٧ ، طبقات ابن المعتز : ٢٧٢
 يحيى بن محمد بن مروان بن عبد الله بن أبى سليط ، معجم الشعراء ط . الحلبي :
 ٤٨٩

يحيى بن مروان بن سليمان بن أبي حفصة (أبو الحنوب) : معجم الشعراء ط .
الجلي : ٤٩٠

يحيى بن نعيم الثقفي : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٤٩٠

يحيى بن نوفل : البيان والتبيين ١ : ٣٠ .

يزيد بن ضبة : الأغاني ٧ : ٩٥

اليسع بن أيوب مولى حكيم بن حزام : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٢٠٦

يعقوب بن إسحق المخزومي : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٤٩٧

يعقوب بن داود : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٤٩٥

يعقوب بن الربيع الحاجب : الفهرست : ٢٣٢ معجم الشعراء ط . الحلبي : ٤٩٧

يعقوب بن أبي عاصية السلمي : معجم الشعراء ط . الحلبي : ٤٩٥

أبو الينبغى (العباس بن طرخان) : طبقات ابن المعتز : ١٣٠ ، الفهرست :

٢٣٤ ، عيون التواريخ ، حوادث سنة ٢٣٥ هـ

يوسف بن الحجاج الثقفي : الأغاني ٢٠ : ٩٤ (ولعله هو نفسه يوسف بن الصيقل)

يوسف بن الصيقل الواسطي : تاريخ الطبري ١٠ : ٤٤ ، الفهرست : ٢٣٢ ،

معجم الشعراء ط . الحلبي : ٥٠٣

فهرس الأعلام

الهمزة

- آدم بن عبد العزيز : ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٦٠ ، ٢٧٨ ، ٣٠٠ ، ٥٩٥ .
 أبان بن عياش : ٥١١ .
 أبان اللاحق : ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٩١ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٥٠ - ٢٥٢ ، ٢٧٢ ، ٣٦٠ - ٣٦٢ ، ٣٨٤ ، ٤٠٠ ، ٤١٦ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦ ، ٥٤٣ ، ٥٩٤ .
 إبراهيم بن آدم : ٧٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٣ .
 إبراهيم التيمي : ٢٨٧ .
 إبراهيم بن حبيب القزاري : ٣٥٨ .
 إبراهيم السواق : ٥٠٤ .
 إبراهيم بن سيابة : ٢٧٩ .
 إبراهيم بن عبد الله بن الحسن : ٢٧٦ ، ٣٩٠ ، ٤٣٨ .
 إبراهيم بن القاسم : ٢٢٣ .
 إبراهيم اللبان : ٢٣١ .
 إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن العباس (إبراهيم الإمام) : ٤٠ ، ٤١ ، ٣٧٨ .
 إبراهيم بن المهاجر البجلي : ٣٨٤ .
 إبراهيم بن المهدي : ٤٢٧ .
 إبراهيم الموصلي : ٨١ ، ٤٤٠ ، ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٥٥٥ ، ٥٨٢ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ .
 إبراهيم النخعي : ٢٨٧ .
 إبراهيم النظام : ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٤٢٦ .
 إبراهيم بن هشام بن إسماعيل : ٣٩٦ .
 أبي بن خلف : ٢٢٧ .

- ابن الأثير (أبو الحسن علي بن عبد الكريم الشيباني) : ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٣٦٠ .
 أحمد بن إبراهيم الكاتب : ٢٤٤ .
 أحمد أمين : ١٣ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٩٨ ، ١٣٩ ، ١٦٤ ، ٢٢٣ ، ٢٦٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٥٥ ، ٣٩٦ ، ٤٠٢ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٤٥ .
 أحمد بن بشير : ٢٣٣ ، ٤١٥ .
 أحمد بن جعفر الخراساني : ١٧١ .
 أحمد بن حرب : ٢٦٣ .
 أحمد بن روح : ٢١١ .
 أحمد الشايب : ١٤ ، ٣٨٩ .
 أحمد بن أبي طاهر : ١٢٨ ، ١٣١ ، ٣٦٣ .
 أحمد عبد الستار الجوارى : ١٥ ، ١٤١ ، ١٦٤ ، ١٧٣ ، ٣٧٧ ، ٥٢٣ .
 الأحوص (عبد الله بن محمد الأنصاري) : ٥١١ .
 الأخطل (غياث بن غوث) : ١٤٣ ، ٤١٩ ، ٤٨٠ ، ٤٩٤ .
 الأخفش (أبو الحسن سعيد بن مسعدة) : ٢٣٤ .
 أدي شير : ٢٢٣ .
 ابن أذين الحمار : ٤٩٩ .
 أردشير بن بابك : ٨٩ .
 أرسطو : ٩٥ ، ٣٦٩ .
 ابن أوطاة : ٤٧٧ .
 الأساورة : ٣٢ .
 استرابون : ٤٧٨ .
 إسحق بن خلف البهراني : ٢٧٩ ، ٣٥٩ .
 إسحق بن حنين : ٣٥٩ .
 إسحق بن سماعة المطيعي : ٤٢٨ .
 إسحق بن سويد العلوي : ٣٤٧ .

أندريه جيد : ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ .
 أنطون رباط اليسوعي : ٢٣٤ .
 أذو شروان : ٨٩ .
 أفيس المقدسي : ١٦٤ ، ١٦٨ ، ٢٦٩ ،
 ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ .
 أوجست مولر : ١١٢ .
 أوس بن حجر : ٤١٨ .
 أوغسطس : ٥١٨ .
 أويس بن عامر القرني : ٧٤ .

الباء

الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب) :
 ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
 بالمر : ٤٩ .
 بالثيا : ١٣٨ .
 البترية : ٢٣٩ .
 البحتري (أبو عبادة الوليد بن بيد الطائي) :
 ١٢٧ .
 البرامكة : ٤٦ ، ٨٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
 ٣١١ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٤١٣ ،
 ٤٣٩ .
 براون : ٢٢٢ .
 بركليسي : ٥١٨ .
 بروكلين : ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ١٩ ،
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ،
 ٢٣٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩٥ ، ٥٤١ ،
 ٥٦٨ .
 البريغية : ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
 بشار بن برد : ٩ ، ١٥ ، ٩٨ ، ١٠٤ ،
 ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،
 ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،
 ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٨ ،
 ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ،
 ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٦ ،
 ٢١٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

إسحق الموصلي : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ،
 ١٦١ ، ٤٤٠ ، ٤٩٩ .
 إسماعيل بن جعفر : ٤٣٣ .
 إسماعيل القراطيسي : ٢١١ .
 سماعيل بن نبيخت : ٤٣٥ .
 إسماعيل بن يمار : ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،
 ٤٦٥ ، ٥٩٦ .
 أسود بن أبي كريمة : ٧٩ .
 الأسود بن يزيد النخعي : ٧٥ .
 أشجع السلمي : ١٥٢ ، ١٥٤ .
 أشرس بن عبد الله : ٨٠ .
 ابن الأشعث : ٣٥ ، ٣٧ ، ١١١ .
 الأصمعي (عبد الملك بن قريب) : ٨٣ ،
 ٨٦ ، ١٢٥ ، ١٣٩ ، ١٦٤ ، ١٨٩ ،
 ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٣٤ ، ٢٧٤ ،
 ٣٦٠ ، ٤٠٦ ، ٥٢٨ ، ٥٧١ .
 ابن الأعرابي (أبو عبد الله محمد بن زياد) :
 ١٢٥ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ٥٦٢ .
 الأعشى (ميمون بن قيس) : ٣٢١ ، ٤٢١ ،
 ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٨٠ ، ٤٨٥ ، ٤٩٦ .
 أعشى همدان (عبد الرحمن بن عبد الله بن
 الحارث) : ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ .
 الأقرع بن حابس : ٢٢٧ .
 الأقيشر : ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٤٨١ ، ٤٩٩ .
 الفرد جيوم : ٥٤٥ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٢٨٥ .
 الإمامية : ٢٣٧ .
 امرؤ القيس : ٥١٣ ، ٥٤٣ ، ٥٦٧ ،
 ٥٨٥ .
 أمية بن أبي الصلت : ٤٤٧ .
 الأمين (الخليفة) : ٩ ، ٤٦ ، ٦٧ ، ٧١ ،
 ٧٢ ، ٧٤ ، ١٠٣ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٨٣ ، ٢٥٧ ،
 ٢٧٥ ، ٣٦٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ،
 ٤٢٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٥٥ ،
 ٤٥٨ ، ٤٧٠ ، ٤٨٠ ، ٥٢٠ ،
 ٥٩٣ ، ٥٩٦ .

بوذا (أو البوذية) : ٢٨٤ ، ٢٦٩ ، ٢٨٤ ،
 ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٣٧ .
 بول كراوس : ٤١٤ .
 بياتريس : ٢٩٤ .
 أبو البيداء الرياحي : ١٧٢ .
 البيروني : ١٠١ ، ٢٥٥ ، ٣٥٥ ، ٥٢٠ .
 بيفان : ٢٢٢ .

الثاء

أبو تمام : ١٢٥ ، ١٢٧ ، ٥٨٩ .
 تمام بن عامر بن علقمة : ٣٦٧ .
 تيودور أبو قرة : ٩٧ .

الثاء

ثابت : ٣٥ ، ٣٦ .
 ثابت البناني : ٢٨٧ .
 ثابت قطنة : ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٤٣٠ ، ٥٢٩ .
 ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى) : ٢٣٤ .
 أبو ثعلبة : ٤٣٧ .

الجيم

الجاحظ (عمرو بن بحر) : ٦٣ ، ٨٠ ،
 ٨٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
 ١٣٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ،
 ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ،
 ٣٠٩ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ،
 ٣٤٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٤٦٢ ،
 ٤٧١ ، ٤٧٩ ، ٥٣٣ ، ٥٤٣ ،
 ٥٥١ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ،
 ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٨ ، ٥٨٨ ،
 ٥٨٩ .

٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٣٠١ ،
 ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ،
 ٣٤٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٤٠٩ -
 ٤١٤ ، ٤٢١ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،
 ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ ،
 ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥ ،
 ٥٠٥ - ٥٠٦ ، ٥١٤ - ٥١٦ ،
 ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ،
 ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦ ،
 ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ،
 ٥٦١ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ،
 ٥٧٢ - ٥٧٦ ، ٥٨٠ ، ٥٨٩ ،
 ٥٩٠ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٩ .

بشر بن الحارث الحافي : ٧٦ ، ٢٨٧ ،
 ٢٨٩ ، ٣٠٥ .

بشر المريسي : ٢٧٠ .

بشر بن المعتز : ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ،
 ٣٣٣ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٥٢ ،
 ٥٤٣ .

بطرس البستاني : ١٢ .

البطين البجلي : ١٧٠ ، ٥٦٤ .

بكر بن خازجة : ٤٨١ ، ٥٢٢ .

أبو بكر الصديق : ٢٧١ ، ٣٤٤ ،
 ٣٤٥ ، ٣٥٠ ، ٣٧٧ ، ٣٨٨ ،
 ٣٨٩ .

أبو بكر العرزي : ٤٤٨ ، ٥٩٦ .

بكر الكناني : ١٣٧ ، ١٣٨ .

البلاذري (أحمد بن يحيى) : ١٤٧ ، ٢٤٢ ،
 بلاشير : ١٧ ، ٥١١ .

بنان (أو بيان بن سحمان) : ١٤٦ ،
 ٢٣٨ ، ٥٢٠٦ .

البنانية (أو البيانية) : ٩٦ ، ١٠١ ،
 ١٤٦ ، ٢٠٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

البهافريدي : ٢٢٥ .

بهرام بن مردانشا : ٩٢ .

بهلول المجنون : (انظر عمرو بن المغيرة الصيرفي)

- جميل بن معمر : ٥١١ .
 الجناحية : ١٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٣٧ .
 جنان الجارية : ٦٣ .
 أبو جندل : ٤٧٦ .
 الجهشياري (أبو عبد الله محمد بن عبدوس) :
 ١١٠ .
 جهم بن خلف المازني : ١٧٢ .
 جهم بن صفوان (أو الجهمية) : ٣٢٧ ،
 ٣٣٣ .
 جهور بن مرار : ٤٤ .
 جورجى زيدان : ١٢ ، ١٣ ، ١٩ ،
 ٣٣ ، ٥٤٥ ، ١١١ ، ١٧٣ ،
 ٢٣١ .
 ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد)
 ٧٦ ، ٢٨٦ ، ٣٠٥ ، ٣١٢ ، ٣١٣ .
 جولد زهير : ٣٨ ، ٤٨ ، ٢٦٩ ، ٢٨٤ ،
 ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٦ ،
 ٣٥٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤١٥ ،
 ٤٧٥ .
 جوهر جارية ابن عون : ٢١٨ .
 جويلى : ٢٣٣ .
 جويو : ٥٣٦ .

الحاء

- أبو حاتم السجستاني : ٤٩١ .
 حاجب القيل اليشكري : ٤٣٠ .
 الحارث بن أسد المخاسبي : ٢٨٧ ، ٣٠١ ،
 ٥١٢ .
 الحارث بن سريج : ٣٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ .
 الحارث بن عبد الله الجعدي : ١٨٣ .
 الحارث بن وعل : ٤٢١ .
 حامد عبد القادر : ٢٢٢ .
 الحجاج بن يوسف الثقفي : ٢٤ ، ٢٧ ،
 ٣٥ ، ٣٧ ، ١١١ ، ١١٢ ، ٣٩٧ .
 الحجاج بن يوسف النخعي : ٥٢٩ .

- جارسيا جوميز : ١٣٨ ، ١٦٤ ، ١٨١ ،
 ٣٦٧ .
 الجارودية : ٢٣٩ .
 جامى : ٧٦ .
 جب : ١٢ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٨٦ ، ٥٥٣ .
 جبلة بن الأيهم : ٤٧٧ .
 ابن الجراح (أبو عبد الله محمد بن داود) :
 ١٢٨ .
 الجراح بن عبد الله الحكيم : ٣٩ .
 الجرجاني (أبو العباس أحمد بن محمد) :
 ٥٨٦ .
 الجرمي (أبو عمر صالح بن إسحاق) : ٣٦٠ .
 جرير بن عطية الخطمي : ٨٠ ، ٨٤ ،
 ١٣٧ ، ١٤٣ ، ٣٧٠ ، ٤١٨ ،
 ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٦٩ .
 الجعد بن درهم : ٢٢٣ .
 جعفر بن حامد : ٥٢٤ .
 جعفر بن الربيع : ٥٨٦ .
 جعفر بن سليمان : ١٣٩ ، ٢٣٩ .
 جعفر الصادق : ٢٣٨ ، ٢٥٥ ، ٣٤١ ،
 ٣٤٧ ، ٤٧٧ ، ٥١١ .
 جعفر بن عفان الطائي : ٣٨٦ .
 جعفر بن محمد الأنماطي : ٦٧ .
 جعفر بن محمد بن حمدان : ١٣٠ .
 أبو جعفر المنصور : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ،
 ٤٨ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٠٢ ،
 ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ،
 ١١٩ ، ٢٠٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ،
 ٢٤٤ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٢ ،
 ٣٩٣ ، ٤٨٠ .
 جعفر بن يحيى البرمكي : ٢٣٤ ، ٥٤٨ ،
 ٥٧٩ .
 جمونة بن الصمة الكلابي : ١٣٧ .
 جميل سعيد : ١٤ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ،
 ٤٨٠ ، ٤٩٢ .
 جميل المدوري : ١١٧ .

الحريية : ٢٢٨ ، ٢٢٧ .
 أبو حرة : ٢٤ .
 حريث بن قطبة : ٣٥ .
 الحريوى (القاسم بن محمد) : ٥٧٧ .
 حسان بن ثابت : ٣٦٩ ، ٤٧٥ .
 حسان بن جعدة : ٤٣٨ .
 حسن إبراهيم حسن : ١٣ ، ٢٢٤ .
 الحسن بن إبراهيم بن عبد الله : ٤١٢ .
 أبو الحسن الأخفش : ٥٣٥ .
 الحسن البصرى : ٢٩ ، ٧٥ ، ٢٨٦ ،
 ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
 ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٥٩٥ .
 أبو الحسن الزياتى : ١٣٠ .
 الحسن بن زيد : ٣٥٢ .
 الحسن بن سهل : ٥٤٢ .
 الحسن بن على بن أبي طالب : ٤٧ ، ٣٦٥ .
 حسنة جارية المهدي : ٢١١ .
 الحسين بن جميل : ١٣٧ .
 الحسين الحياط : ٢١١ .
 الحسين بن الضحاك (الخليع) : ١٤٠ ،
 ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٤٥٨ .
 ٤٨٥ ، ٤٩١ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ .
 ٤٩٩ ، ٥٠٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ .
 ٥٢٢ ، ٥٢٧ .
 الحسين بن عبد الله بن عبيد الله : ٢٣٢ .
 الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على :
 ٣٩٠ .
 الحسين بن على بن أبي طالب : ٣٠ ، ٣٣ ،
 ٤٧ ، ٢٠٤ ، ٣٣٩ ، ٣٦٥ .
 الحسين بن مطير : ١٧١ .
 الحسين النجار : ٣٣٤ .
 الحصرى القيروانى (أبو إسحق إبراهيم بن على) :
 ١٠٤ ، ٤٤٩ .
 الخطيئة (جرول بن أوس) : ٤١٩ ، ٥٥٤ .
 حفص الأموي : ٤٣٩ .

الحاء

الحاركي (أحمد بن إسحق) : ٢١٨ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٠ ، ٢٧٩ ، ٤٦٦ ، ٥١٣ ، ٥٢٢ .
 خالد الدريوش : ٧٣ ، ٢٩٠ .

الذال

- دار مشتير : ٢٢٣ .
 داريوس : ٤٩ .
 دانقي : ٢٩٤ .
 ابن داود الجراح : ٣١١ .
 داود بن رزين الواسطي : ٢١٣ ، ٢١٢ .
 داود بن زيد : ١٦٦ .
 ابن داود بن علي : ٢٢٢ .
 داود بن يزيد : ٢٧٧ .
 ابن الداية : ٢٦١ .
 ابن دحية الكلبي : ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ .
 دخثكا : ٢٠٤ .
 أبو دعامة العبي : ١٣٠ .
 دعل الخزاعي : ١٣٠ ، ١٩٩ ، ٢١١ ، ٣٤٥ - ٣٤٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤٢٧ ، ٥٩٦ .
 دقار المغنية : ٢١٤ .
 أبو دلامة (زبد بن الجون) : ٦٦ ، ١٩٦ ، ٢٠٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٣٧٩ ، ٥٥٥ ، ٥٩٤ .
 أبو دلف القاسم بن عيسى : ٤٦٧ .
 الدميري (كمال الدين محمد بن موسى) : ٥٤٤ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ .
 دوزي : ٢٦ .
 دي جوية : ٣٥٠ .
 الديصانية : ٩٤ ، ٩٦ ، ٢٢٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٣٣٧ .
 ديلك الجن الحمصي : ٢٧٩ .

الذال

- ابن أبي ذئب : ٣٨٠ .
 ذات الحال : ٦٣ .
 أبو ذر الغفاري : ٧٤ .
 ذو الرمة (غيلان بن عقبة) : ٨٣ ، ٨٤ .
 ذو النون المصري : ٥١١ .

- خالد بن عبد الله القسري : ٢٣٦ ، ٣٢٥ ، ٤٣٠ ، ٤٣٠ .
 خالد القناص : ٤٥٦ ، ٤٥٧ .
 خالد بن هشام المخزومي : ٦٠ .
 ابن الحجاز : ٣١٢ ، ٥٩٥ .
 خداجش : ٢٦ ، ٣٤ .
 خدش : ٢٣٦ .
 ابن خدام الأسدي : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٢٩ .
 الحرمدينية : ٢٢٥ .
 الحريمي (إسحق بن حسان) : ١٧٥ ، ٢٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٥٣٩ ، ٥٩٦ .
 الحرمية : ٢٣٦ .
 خزيمة بن حسان : ٤٤٣ .
 أبو الخطاب الأسدي : ٢٠٦ .
 أبو الخطاب البهلي : ١٧٢ .
 أبو الخطاب النخاس : ٦٣ .
 الخطابية : ١٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٣٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٨٩ ، ٣٤٧ - ٣٤٨ .
 أبو الخطار : ١٣٧ .
 الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي) : ٧٠ ، ٧١ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٨ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٦٢ ، ٥٠٨ ، ٤١٥ .
 ابن خلدون : ٢٣ ، ٥٧ ، ١١٨ .
 خلف الأحمر (أبو محرز خلف بن حيان) : ٥٥٢ ، ٤٠٠ .
 الخليل بن أحمد : ٥٣٥ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٩ .
 خليل مردم : ٢٤٣ .
 الخوارج : ٩٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ - ٣٢٦ .
 الخياط المعتز : ٢٢٣ ، ٢٣٨ .

الراء

- رقوبة بن العجاج : ٤٧٠ ، ٣٥٦ .
 رابعة العدوية : ٢٨٧ ، ٢٩٠ - ٢٩٢ ،
 ٢٩٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،
 ٥١١ ، ٥٩٥ .
 ربيعة (أو ربيعة الشامية) : ٢٨٧ .
 الراغب الأصفهاني (أبو القاسم حسين بن محمد) :
 ٢١٤ ، ٢٢١ ، ٢٦١ ، ٣٩٦ ،
 ٤٧٩ .
 ابن رامين : ٦٣ .
 الراوندية : ١٠١ ، ٢٣٥ .
 الربيع بن خثيم الكوفي : ٢٨٤ .
 ربيعة الرقي : ٥٠٤ ، ٥٢٦ ، ٥٥٥ .
 رزين بن زنادورد المروزي : ٤٣٦ ، ٥٤١ ،
 ٥٤٢ ، ٥٤٩ ، ٥٩٨ .
 رزين الكاتب : ٢١١ .
 رسة بن أبي الأبيض : ١٤٠ .
 رشر : ٢٩٢ .
 ابن رشيقي القيرواني : ٨١ ، ١٥٨ ، ١٦١ ،
 ٢٠٣ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،
 ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٣٧ ، ٤٥٣ ،
 ٤٥٤ ، ٥٠٠ ، ٥٤٣ ، ٥٤٨ .
 ابن ربيعة المدني : ٥٠٩ ، ٥٩٨ .
 الروافض : ٩٩ .
 روح بن حاتم : ٢١٥ .
 ابن الرومي : ٥٧٢ .
 رياح بن عمرو القيسي : ٧٦ ، ٢٨٦ .
 الرياشي (أبو الفضل العباس بن القرج) :
 ٣٥٤ .
 ريحانة : ٢٨٧ ، ٣١٣ ، ٣١ : ٥٩٥ .

الزاي

- زبلة : ٢٨٧ .
 الزيرقان بن بدر : ٤١٩ .
 زرادشت أو الزرادشتية : ٤٥ ، ٩٧ ،

- ١٤٦ ، ٢٠١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٥ ،
 ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ،
 ٣٣٧ ، ٣٤٨ ، ٣٩٩ .
 زرارة بن عدس النخعي : ٢٢٧ .
 زرزر الرفاء : ٢١٨ .
 الزروانية : ٢٢٥ .
 زكي مبارك : ٥١٠ .
 زكي المحاسني : ١٤ ، ٥٧٦ .
 ابن أبي زمزمة : ١٣٦ .
 زنبور : ٢١١ .
 زهير بن أبي سلمى : ٣٧٤ ، ٤٤٧ ،
 ٥٥٤ ، ٥٧٠ .
 ابن أبي الزوائد : ٤٣٠ ، ٤٣١ .
 زياد بن أبيه : ٢٧ ، ٣٧ ، ٤٩ .
 زياد الأعجم : ٨٣ ، ١٤٨ ، ١٨١ ،
 ٤١٦ .
 أبو زياد الكلبي : ١٧٢ .
 أبو زيد الأنصاري : ٨٦ ، ١٦٤ .
 زيد بن علي بن الحسن : ٤٧ ، ٣٤٦ ،
 ٤٢٥ .
 الزيدية : ١٤٤ ، ٢٣٧ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٨ ، ٣٤٩ - ٣٥٢ .
 زيشب بنت جحش : ٢٥٤ .

السن

- سانتيانا : ٥٣٤ .
 السبئية : ٩٩ ، ٣٤٦ - ٣٤٧ ، ٣٤٩ .
 سديف بن ميمون : ٣٩٠ .
 السري بن عبد الرحمن : ٤٧٧ .
 ابن سريج : ٥٨ ، ٨٩ .
 ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع) : ٣٨ ،
 ٤٧٦ .
 سعد بن هاشم بن سعيد : ١٢٧ .

السيد الحميري (إسماعيل بن محمد بن يزيد) :

١٣٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٣٢٢ ،

٣٢٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٢ - ٣٢٩ ،

٣٤٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٨ ،

٣٨٧ - ٣٨٩ ، ٤٧٧ ، ٥٥٣ ،

٥٥٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ .

سيد نوفل : ١٤ ، ٤٦١ .

سيديو : ١١٦ .

السيانية : ٢٢٥ .

السيوطي (جلال الدين محمد الرحمن) :

٢١٠ ، ٢٤١ ، ٥٤١ .

الشين

الشابشي : ٦٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ .

شارل بلا : ٤٠٥ .

أبو الشبل البرجمي : ٤٩٨ .

أبو شبل عاصم بن وهب : ٥٢٨ .

أبو شبل العقيلي : ١٧٢ .

أبو الشبل الكوفي : ٣٠٧ .

شبل بن عرعة الضبي : ١٧٢ .

شراعة بن الزندبوز : ١٤٧ .

أبو شراعة : ٨٠ ، ١٧١ .

ابن شرف القيرواني : ٥٦١ ، ٥٦٢ .

شريك : ٤٤ ، ٣٩٩ .

شريك القاضي : ٤٧٦ .

شقيق البلخي : ٢٨٧ ، ٢٩٣ ، ٣٠١ .

شكري فيصل : ٢٥ ، ٢٨ ، ١٧٢ .

شكبير : ٥١٨ .

أبو الشمقمق (مروان بن محمد) : ١٦ ،

١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٠ ، ٢١١ ،

٤٢٢ ، ٤٣٢ ، ٥٥٥ .

الشميطية (أو أحمد بن شميطة) : ٣٤٩ .

الشهرستاني : ٢٣٥ ، ٢٢٨ ، ٣٢١ ،

٣٢٩ .

شوق ضيف : ١٤ ، ٢٠ ، ٨٤ ، ١١٣ ،

سعد بن أبي وقاص : ٧٤ .

سعدون المجنون : ٣١٣ .

سعيد بن البختكان : ٤٠٠ ، ٤١٥ .

أبو سعيد الخنري : ٣٨١ .

سعيد بن زيد : ٧٤ .

أبو سعيد السكري (الحسن بن الحسين) :

١٢٨ ، ١٣٦ .

سعيد بن عفير : ١٣٧ .

سعيد بن وهب : ٢١٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ،

٥٢٢ ، ٥٨٣ ، ٥٩٥ ، ٥٩٩ .

سفيان الثوري : ٧٦ ، ٢٨٧ ، ٣٨٠ .

ابن السكيت : ١٢٨ ، ١٣١ .

ابن سلام الجعفي : ٩٠ ، ١٢٣ ، ١٢٧ .

سلامة الزرقاء : ٦٣ .

سلم بن عمرو الخاسر : ١٦ ، ١٤٠ ،

١٥٣ ، ٢٧٦ ، ٣٧٣ ، ٥٤١ .

سلم بن قتيبة : ١٦٦ ، ٥٥٢ .

سلمة بن عياش : ٣١٢ .

سلموفة : ٢٨٧ .

سليمان بن الوليد (الأعمى) : ٢٧٨ ، ٤٥٢ .

أبو سليمان الداراني : ٢٨٧ ، ٢٨٩ .

سليمان بن داود الهاشمي : ١٦٥ .

سليمان بن سهل بن نبيخت : ٢١٢ .

سليمان بن عبد الملك بن مروان : ٣٧ ، ٥٨ ، ٤٧٩ .

سليمان بن المنصور : ٤٢٨ .

سليمان بن هشام بن عبد الملك : ٦٠ .

السليمانية : ٢٣٩ .

ابن السهاك : ٢٨٧ .

السمنية : ١٠١ ، ٢٧٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦ .

سباز : ٤٤ .

سند بن علي : ١٢٦ .

سهل بن سلامة الأنصاري : ٧٣ ، ٢٩١ .

سهل بن هارون : ٣٦٣ ، ٤٠٠ ، ٤١٥ .

سهر القلماري : ٣٢٥ ، ٣٥٠ .

سيبويه : ٨٦ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٥٥٦ .

ابن سيحان : ٤٧٩ .

الطام

- طارق بن زياد : ٣٦٧ .
 طاهر بن الحسين : ٤٦ .
 الطبري (محمد بن جرير) : ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٠ ، ١١٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٤ ، ٣٢٩ ، ٣٩٨ ، ٤٠٢ ، ٤٢٥ ، ٤٣٠ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ ، ٥٣٩ .
 طرخون : ٣٦ .
 الطرماح بن حكيم : ٢٨٣ ، ٤٤٧ .
 طريح بن إسماعيل الثقفي : ٩٠ ، ١٧٠ .
 ابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا) : ٢٤١ .

طلحة بن عبيد الله : ٧٤ .

- طه حسين : ١٦ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٨٧ ، ١٠٨ ، ١٢٣ ، ١٤٥ ، ١٦٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٧ ، ٤١٧ .
 طيفور (أحمد بن أبي طاهر) : ٤٦ ، ٦٧ ، ٩٣ ، ٣٠٢ ، ٥٦٤ .
 طيفور بن منصور الحميري : ٥٤١ .

العين

- (السيدة) عائشة : ١٠٨ ، ٢٣٩ ، ٣٤٠ ، ٤٧٦ .
 العاص بن وائل : ٢٢٧ .
 عامر بن الطخيل : ٤١٨ .
 عامر بن قيس : ٧٤ .
 عبادة الجارية : ٦٣ .
 ابن عباس : ٢٢٧ .
 العباس بن الأحنف : ١٢٦ ، ١٨٢ ، ٢٢٠ ، ٣٣٥ ، ٥٠٩ - ٥١١ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٨٤ .

- ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٤١٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٣٧ ، ٥٥١ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ .
 أبو الشيص (محمد بن عبد الله الخزاعي) : ١٦٨ ، ١٧٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٥٥ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ .
 شيدر : ٢٢٣ .
 شيطان الطاق (محمد بن علي بن النعمان) : ٣٤١ .
 الشيعة : ٩٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ - ٣٥٢ .

الصاد

- صالح (صاحب المصلي) : ٦٧ .
 صالح بن بشير المري : ٧٥ ، ٢٨٧ .
 صالح بن عبد القدوس : ١٧٦ ، ١٧٩ ، ٢٥٢ - ٢٥٤ ، ٢٧٣ ، ٣٢٣ ، ٣٣٤ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣ ، ٤٦١ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧ .
 ابن أبي صبح : ١٧٢ .
 الصحاري بن شيب : ٣٢٥ .
 صديق : ٢٢٣ .
 صفوان الأنصاري : ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣٣٢ ، ٣٣٠ ، ٣٧٤ .
 الصميل بن حاتم : ١٣٧ .
 الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى) : ٨٦ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٣٦٢ .

الضاد

- الضحاك بن قيس الشيباني : ٣٢٥ .

عبد الله بن جعفر : ١٠٩ .
 عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي
 طالب : ٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٨٩ .
 عبد الله بن الزبير : ٢٣ ، ٨٩ .
 عبد الله بن سبأ (أو السبتية) : ٣٤٦ - ٣٤٧
 عبد الله بن طاهر : ١٣٠ ، ٥٦٤ .
 عبد الله الطيب المخبذوب : ٣٠١ ، ٥٣٨ ،
 ٥٤٣ ، ٥٦٩ ، ٥٨٩ .
 عبد الله بن العباس : ٢٠٤ ، ٣٧٨ .
 عبد الله بن علي : ٤٤ .
 عبد الله بن عمر بن حرب الكنتلي : ٢٣٨ .
 عبد الله بن عمر العبلي : ٣٩٣ - ٣٩٥ ،
 ٤٣٩ ، ٥٩٦ .
 عبد الله بن المبارك : ٣١٠ - ٣١١ ، ٥٩٥ .
 عبد الله بن مسعود : ٧٤ .
 عبد الله بن مصعب : ٤٣٨ .
 عبد الله بن معاوية : ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
 ٢٣٢ ، ٢٧٦ .
 عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي : ١٧٠ .
 عبد الملك بن مروان : ٣٧ ، ٤٩ ، ٥٧ ،
 ١٠٩ ، ٣٩٢ ، ٤١١ ، ٤٧٩ .
 عبد الواحد بن زيد : ٧٥ ، ٢٨٧ ، ٥١١ ،
 ٥١٢ .
 أبو العبر الهاشمي : ١٩٥ ، ٥٢٢ .
 أبو عبيد القاسم بن سلام : ١٠٨ ،
 عبيد الله بن زياد : ٣٠ ، ٣١ ، ٦٧ ، ٧٩ .
 عبيد الله بن قريمان : ١٣٨ .
 عبيد الله بن قيس الزيات : ٣٩٣ .
 أبو عبيدة معمر بن المثنى : ٨٦ ، ١٣٠ ،
 ١٦٤ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤١٦ .
 العتابي (كلثوم بن عمرو) : ٩٣ ، ١٣١ ،
 ١٤٠ ، ١٦٩ ، ٣١٠ ، ٣٢٩ ، ٣٦٣ ،
 ٤٦٠ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٨ -
 ٥٨٠ ، ٥٩٥ ، ٥٩٩ .
 أبو العتاهية (إسماعيل بن القاسم) : ٩ ،
 ١٥ ، ١٦ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢٤ ،

٥٩٨ ، ٥٩٩ .
 أبو العباس الأعمى : ٣٩٢ ، ٤٣٩ ، ٥٩٦ .
 أبو العباس السفاح (عبد الله بن محمد) :
 ٤٠ ، ٤٤ ، ٢٣٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٧ ،
 ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ .
 العباس بن عبد المطلب : ٤٠ ، ٣٧٧ ، ٣٨٩ .
 عباس محمود العقاد : ١٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،
 ٢٦٠ ، ٧٠ ، ٥١٩ .
 عباس بن فاصح : ١٣٨ .
 عبد الحميد الكاتب : ٤٢ .
 عبد الحميد يونس : ١٩٢ ، ١٩٣ .
 عبد الخالق بن عبد الواحد بن بشير : ٣٧٥ .
 ابن عبد ربه : ٣٩٦ ، ٤٠١ .
 عبد الرحمن بدوي : ٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢٣١ ،
 ٢٩١ ، ٥١٢ .
 عبد الرحمن بن الحكم : ٣٦٧ .
 أبو عبد الرحمن العتيبي : ٤٣٣ .
 عبد الرحمن الداخل : ١٣٧ ، ١٣٨ ،
 ١٨١ ، ٤٦٣ .
 عبد الرحمن بن عبده : ١٣٠ .
 أبو عبد الرحمن العطوي : ٣٣٤ .
 عبد الصمد بن عبد الأعلى : ٢٤١ .
 عبد الصمد بن الفضل : ٤١٦ .
 عبد الصمد بن المعتزل : ١٩٤ ، ٤٤١ ، ٥٢٥ .
 عبد العزيز الدوري : ١٣ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
 ٤١ ، ٦٨ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٢٣٦ .
 عبد العزيز بن سليمان الراصي : ٢٨٧ .
 عبد العزيز بن مروان : ١٣٦ .
 عبد القاهر البغدادي : ٢٣٢ ، ٢٧٢ ،
 ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٦ ،
 ٣٤٦ ، ٣٤٨ .
 عبد القاهر الجرجاني : ٥٣٣ .
 عبد الكريم بن إبراهيم : ٨١ .
 عبد الكريم بن أبي العوجاء : ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،
 ٢٧٣ .
 عبد الله بن أبي أمية : ١٥٣ .

أبو العلاء المصري : ٢٢٩ ، ٢٤٢ ، ٥٤٠ .
 علان بن الحسن الشعوبي : ٤٠٠ ، ٤١٥ .
 علقمة الأسود : ٢٨٧ .
 علقمة بن عتبة : ٤٧٥ .
 علي بن آدم : ٥٠٧ ، ٥٩٨ .
 علي بن ثابت : ٢٧٩ ، ٤٤٦ .
 علي بن جبلة (المكوك) : ٣٧٣ .
 علي بن الجهم : ٦٣ ، ٣٤٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٥٨٣ ، ٥٩٩ .
 أبو علي الحرمازي : ١٧٢ .
 علي بن الخليل الكوفي : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٧٢ ، ٤٠٨ ، ٤٨٦ ، ٤٨٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧ .
 علي بن داود : ٣٦٢ ، ٣٦٣ .
 علي الزبيدي : ١٧ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ٣١٦ ، ٣١٥ .
 علي بن أبي طالب : ٢٧ ، ٣٣ ، ٤٧ ، ٧٤ ، ١٠٨ ، ٢٣٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٣٢٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ .
 علي بن عبد العزيز الجرجاني : ٥٦٦ ، ٥٦٧ .
 علي بن عبد الله بن العباس : ٤٠ ، ٣٧٨ .
 علي بن عيسى : ٧٢ .
 علي بن الفرج : ٤٥٧ .
 علي بن الفضل : ٦٢٧ .
 علي بن كثير : ٢١٩ .
 علي بن محمد بن جعفر : ٤٣٣ .
 علي بن المحسن : ٤٥٧ .
 علي بن محمد السمساطي : ١٣١ .
 علي بن موسى الرضا : ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٣٨٩ .
 العلياية : ٩٦ .
 علية بنت المهدي : ٧١ .
 ابن عماد الثقفي : ١٢٨ ، ١٣٠ .

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٦٢ - ٢٧١ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ - ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٢٤ ، ٣٤٨ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٨٦ ، ٤٠٢ ، ٤٤٦ ، ٤٥٢ ، ٥٢٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٦٠ - ٥٦٤ ، ٥٧٠ ، ٥٨٦ - ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٩ .
 عتبة : ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ .
 العتيبي : انظر (أبو عبد الرحمن العتيبي) .
 عثمان بن عفان : ٢٦ ، ٢٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٨٩ ، ١٠٨ ، ٢٠٤ ، ٢٦٤ ، ٢٧١ ، ٢٨٤ ، ٣٢٤ ، ٣٤٤ ، ٣٧٧ ، ٤٧٨ ، ٥٩٢ .
 عثمان بن مظعون : ٧٤ .
 عثمان بن خبيك : ٢٣٥ .
 العجاج بن عبد الله بن ربيعة : ٣٥٦ .
 عدى بن الرقاع : ٤٧٣ .
 عدى بن زيد العبادي : ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٤٧٥ .
 ابن عرادة : ٢٨ ، ٤٢٣ .
 العرجي : ٥١١ .
 عريب (جارية المأمون) : ٥٢٤ .
 عريب البخارية : ٦٣ .
 عطاء السلمي : ٢٨٧ .
 أبو عطاء السدي : ٤٤ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٤٨ ، ٣٩١ ، ٤١٦ .
 عقبة بن الأشعث : ٤٥٨ ، ٤٨٨ .
 عكاشة بن عبد الصمد : ٥٠٨ ، ٥٩٨ .
 أبو عكرمة السراج : ٣٩ .
 عقبة بن أبي معيط : ٢٢٧ .

ابن عمار : ١٣١ .
 عمار ذو كنان : ٥٩ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
 ٢٠٨ ، ٢١٥ ، ٤٨١ ، ٥٩٧ .
 عمار بن ياسر : ٧٤ .
 عمار بن يزيد : ٢٣٦ .
 عمارة بنت عبد الوهاب الثقفي : ٤٢٢ .
 عمارة بن عقيل : ١٧١ ، ٣٧٥ .
 العماني (محمد بن ذؤيب) : ٨٠ ، ١٧٩ .
 عمر بن الخطاب : ٢٦ ، ٣٢ ، ٥٢ ،
 ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٤ ، ٨٦ ،
 ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،
 ١١٤ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٦٥ ،
 ٣٧٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤١٩ ،
 ٤٧٦ .
 عمر بن أبي ربيعة : ١٤٤ ، ٥٠١ ، ٥٠٦ ،
 ٥١٣ ، ٥١٤ .
 عمر بن عبد العزيز : ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٨ ،
 ٨٥ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ٣٣٨ ،
 ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٤٧٦ ، ٤٧٩ .
 عمر الكلواذي : ١٠ .
 عمران بن حطان : ٣٢٢ ، ٣٢٣ .
 عمران بن هلباء : ٤٢٠ .
 عمران بن حسان بن هاني : ٢١٩ .
 عمرو بن الحسن الإباضي : ٣٢٦ .
 عمرو بن عبد الملك مولى بني فجع : ٢١٧ .
 عمرو بن عبيد : ٢٧٣ ، ٣٣٤ .
 أبو عمرو بن العلاء : ٣٥٧ ، ٤١٨ ،
 ٤٢٩ ، ٥٥٢ .
 عمرو بن كلثوم : ٩٣ ، ٤٧٤ .
 عمرو بن المغيرة الصيرفي : ٣١٢ ، ٥٩٥ .
 عمرو بن عبد الملك الوراق : ١٨٤ ، ١٨ ،
 ١٨٧ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٤٩٨ .
 أبو عمير النخاس : ٦٣ .
 هنان جارية الناطقي : ٦٣ ، ٢١٢ ، ٢١٧ .
 حنبرة العبسي : ١٣٣ .
 عوف بن محم الخزامي : ١٩٨ ، ١٩٩ .

العين

عون العبادي : ٦٧ .
 ابن عون نافع بن عون : ٢١٨ .
 عيسى بن شافع : ١٣٦ .
 ابن أبي عيينة : ١٩٨ ، ٢١١ ، ٤٣٣ ،
 ٤٥٤ ، ٥٨٣ .
 غالب بن الحارث المكللي : ١٧١ .
 غريب بن عبد الله : ١٣٨ .
 ابن غرمية : ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤١٧ .
 الغزالي : ٢٢٤ .
 ابن الغسيل : ٢٩ .
 الغمر بن أبي الغمر (الخليلع الشامي) : ٢١٩ .
 الغمر بن يزيد : ٤٠٥ .

الفاء

ابن الفارض : ٥١٣ .
 فاطمة (بنت الرسول) : ٣٥٠ ، ٣٥١ ،
 ٣٧٨ ، ٣٨٩ .
 فان شن : ١٠٣ .
 فان فلوثن : ٣٢٨ ، ٣٩٩ .
 الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد) : ٨٦ ،
 ١٦٤ .
 أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين القرشي)
 ٥٨ ، ٦٠ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٣٣ ،
 ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
 ١٧٢ ، ١٧٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
 ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،
 ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ،
 ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ .

القاف

- أبو قابوس النصراني : ٦٧ ، ٢١١ ، ٢١٢ .
 ابن قتيبة الدينوري : ١٠٤ ، ١٢٧ ، ١٥٨ ،
 ١٥٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٤ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥ ، ٢٤٣ ،
 ٤١٦ ، ٥٤٠ ، ٥٦٢ .
 قتيبة بن مسلم : ٣٧ .
 قدامة بن جعفر : ١٧١ ، ٣٦٩ ، ٥٣٣ ،
 ٥٥٣ .
 القدرية : ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ .
 القفطى : ٨٨ ، ٩٦ .
 قورش : ٤٧٨ .

الكاف

- كارل بيكر : ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٧٥ .
 كامل الهناتى : ١٣٧ .
 الكاملية : ٢٣٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٤٨ .
 كثير عزة : ٣٣٧ - ٣٣٩ ، ٣٤٢ ،
 ٣٥١ ، ٣٧٠ ، ٥٩٥ .
 كثير النوى الأبتى (أو الزيدية البقرية) :
 ٢٦٤ ، ٣٤٨ .
 الكربية (أو أبو كرب الضريز) : ٣٤٩ .
 الكسانى (على بن حمزة) : ٨٦ ، ١٦٤ ،
 ٣٥٩ .
 الكفية : ٤٢ .
 ابن الكلبي (هشام بن محمد بن السائب) :
 ٢٢٧ ، ٤١٤ .
 الكيت بن زيد الأسدى : ١٤٤ ، ٣٤٩ -
 ٣٥٢ ، ٣٧٨ ، ٣٨٦ ، ٤٢٣ ، ٥٩٥ .
 الكندى (محمد بن يوسف بن يعقوب) :
 ١٣٦ ، ١٣٧ .
 كيسان أبو عمرة : ٣٣ .
 الكيسانية : ٢٣٧ .
 الكيومرثية : ٢٢٥ .

- ٢٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٦ ،
 ٣٧٤ ، ٣٨٢ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ،
 ٤٧٧ ، ٤٨٣ ، ٤٩١ ، ٥٠٦ ،
 ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٢٢ ، ٥٥٢ ،
 ٥٥٥ ، ٥٧١ .
 الفرزدق (هشام بن غالب) : ٨٣ ، ١٣٧ ،
 ١٤٣ ، ٢٨٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ،
 ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٦٩ .
 أبو فرعون الساسى : ١٧٨ ، ١٩٠ .
 فرنسيسكو جبريل : ٢٣٤ .
 فريد : ٢٣٥ .
 الفضل بن الربيع : ١٦٧ .
 الفضل بن سهل : ٤٠٠ .
 الفضل بن عبد الصمد الرقاشى : ١٤٠ ،
 ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ،
 ٣٥٤ ، ٤٣٩ ، ٤٠٠ .
 الفضل بن عيسى : ٤١٦ .
 ابن فضل الله العمري : ٤٩٩ .
 الفضل بن يحيى : ٤٦ ، ١٥٢ .
 الفضيل بن عياض : ٧٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ،
 ٣٠٥ .
 ابن الفقيه الهمداني : ١٣٠ .
 فلهوزن : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
 ١١٢ ، ٢٠٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ،
 ٣٤٧ ، ٣٩٧ .
 فوارز : ٢٢٢ .
 فون جرونباوم : ٩ ، ١٦ ، ١٠٢ ، ٢٨٥ ،
 ٢٨٨ ، ٣٢٢ ، ٤٦٣ .
 فون كريمير : ١٣ ، ٣٧ ، ٥٥٦ ، ٩٧ ،
 ٩٨ ، ١١٢ ، ٢٠٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ،
 ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨٥ ،
 ٣٢٧ ، ٣٣٤ .
 فيدا : ٢٢٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦ ،
 ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٥ .
 فيليب حتى : ١٣ ، ١٩ ، ١٦٣ .

محمد بن إبراهيم الفزاري : ٣٥٨ ، ٥٤٤ .
 محمد أحمد براق : ١٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٣٠١ .
 محمد بن الأشعث المكي : ٣١١ .
 محمد بن أمية : ١٥٢ ، ٥١٣ .
 محمد بديع شريف : ٢٣٣ ، ٢٥١ ،
 ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ٢٧٥ ،
 ٤٠٠ ، ٤١٦ ، ٥١٩ .
 محمد بن بشير الخارجي : ٣٩٦ .
 محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني : ٩٢ .
 محمد جابر عبد العال : ١٣ ، ١٤٦ ، ٥١٤ ،
 ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٣٧ ، ٢٥٥ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ٢٨٩ ،
 ٣٠١ ، ٣٤٨ ، ٤٢٨ ، ٥١٤ .
 محمد بن الجهم البرمكي : ٩٢ .
 محمد بن الحنفية : ٤٠ ، ٩٤ ، ٣٣٧ ،
 ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،
 ٣٤٣ ، ٣٥١ ، ٣٧٨ ، ٣٨٧ .
 محمد بن خالد : ٤٢٢ .
 محمد بن خالد البرمكي : ٢٣٤ .
 محمد خلف الله أحمد : ١٦ ، ٢٧٠ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٦٥ .
 محمد بن خنيس : ٣٩ .
 محمد بن داود الجراح : ١٣٠ .
 محمد بن رياح : ٢١١ .
 محمد بن سليمان المعافري : ٤٠٢ .
 محمد بن سليمان الهاشمي : ١١٧ .
 محمد بن سيرين : ٢٨٧ .
 محمد بن الضو : ٧١ .
 محمد بن طاهر بن الحسين : ٩٣ .
 محمد الطاهر بن عاشور : ٢٢٩ ، ٢٧٣ ،
 ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٤٢١ .
 محمد طه الحاجري : ١٦ ، ٥٣ ، ٦٨ ،
 ١٣٥ ، ١٩٠ ، ٣٠٩ ، ٥٧٧ .
 محمد الطيب النجار : ٣٩٩ .
 أبو محمد عبد الله بن الحسن : ٤٠٣ .

اللام

لبيد بن ربيعة : ٣٢١ ، ٣٢٢ .
 لويس الثالث عشر : ٥١٨ .
 ليونة : ١٠٣ .

الميم

المؤمل بن جميل : ٥٠٨ ، ٥٩٨ .
 المأمون : ٩ ، ٤ ، ٤٨ ، ٦٧ ، ٧٢ ،
 ٧٤ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٨٣ ، ٢٥٧ ،
 ٢٧٥ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، ٣٤٥ ،
 ٣٦٠ ، ٤٠٢ ، ٤٣٧ ، ٤٤٤ ،
 ٤٥٨ ، ٥٢٤ ، ٥٤٤ ، ٥٩٣ .
 المازني (أبو عثمان بكر بن محمد) : ٢٧٣ .
 ماسنيون : ٨١ ، ١٠٣ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
 ٥١١ .
 مالك بن دينار : ٥١١ .
 ماني (أو المانوية) : ٩٤ ، ٩٦ ، ١٤٦ ،
 ٢٠٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
 ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ،
 ٢٧٨ ، ٣٣٧ ، ٣٤٨ ، ٤١٦ ،
 ٥١٩ ، ٥٢٠ .
 ماه أفريدون : ٣٢ ، ٣٣ ، ٥١٩ .
 المبرد (محمد بن يزيد) : ٩٠ ، ١٢٨ ،
 ١٣٠ ، ١٥٦ ، ١٨٢ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٢ ، ٢٧٢ ، ٣٠٧ ، ٣٥٢ ،
 ٣٧٤ .
 المتنبّي (أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي) :
 ٤٥١ .
 المجنون (قيس بن الملوح) : ١٣٣ .
 محارب بن دثار الذهلي : ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
 أبو محجن الثقفى : ٤٧٥ .

محمد بن عبد الله بن الحسن (محمد النفس الزكية) : ٣٤٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ .
 محمد بن عبد الله بن عمر البازيار : ٤٦٧ .
 محمد بن عبد الملك الفقعسي : ١٧٢ .
 محمد بن أبي العتاهية : ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٥٩٥ .
 محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : ٣٩ ، ٤١ .
 محمد بن عمرو الجاز : ٢١١ ، ٢١٨ ، ٢٥٧ .
 محمد كرد علي : ٤٩ هـ .
 محمد بن أبي كريمة : ٤٤٢ ، ٤٦٣ ، ٥٩٦ ، ٤٦٤ .
 محمد بن كناسة : ٣٠٦ ، ٥٩٥ .
 محمد بن الليث بن الخطيب : ٤١٥ .
 محمد بن محمد حسين : ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٩٤ .
 محمد مندور : ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ .
 محمد النويهي : ١٦ ، ١٣٥ ، ٢٢٠ ، ٢٥٨ ، ٤٩٢ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ .
 محمد بن واسع : ٢٨٧ .
 محمد بن وهيب : ١٩٨ .
 محمد بن يحيى آل المنجم : ١٣١ .
 محمد بن يسير : ١٩٩ ، ٣٠٨ - ٣٠٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٥٥٦ ، ٥٩٥ .
 الحمدي : ٢٣٩ .
 الحمرة : ٢٣٦ .
 محمود بن الحسن الوراق : ١٠٤ ، ١٢٨ ، ٢٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٤٤٩ .
 ٥٩٧ ، ٥٩٥ .
 حجة : ٢٨٧ .
 المختار بن أبي عبيد الثقفي : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤١٣ .
 المرتضى (أبو القاسم علي بن طاهر) : ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٤ .
 المرجة : ٩٧ ، ٩٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ -
 ٣٢٩ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٧٧ .
 المرزباني (محمد بن عمران) : ١٢٨ ، ١٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٢٧٩ ، ٣٢٦ ، ٣٥٨ ، ٣٧٤ ، ٤١٤ ، ٤٤٨ .
 المرزوقي : ١٦٠ .
 المرقونية : ٩٤ ، ٩٦ ، ٢٢٤ ، ٢٥٣ ، ٣٣٧ .
 مروان بن أبي حفصة : ١٣١ ، ١٦٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩١ ، ٥٠٨ ، ٥٧١ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٩ .
 مروان بن الحكم : ٤٧٩ .
 مروان بن محمد (الجلعي) : ٤٢ ، ٦٠ ، ٣٢٦ ، ٣٩٢ ، ٤٧٩ .
 أبو مريم (من بني سعد تميم) : ٢٧ .
 ابن أبي مريم المدني : ٧١ .
 المزدكية (أو مزدك) : ٩٤ ، ١٤٦ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٤ ، ٢٥٣ ، ٢٧٣ ، ٣٣٧ ، ٤١٦ .
 مساور الوراق : ٢٤٨ .
 المستعين بالله (ال خليفة) : ٥٤٤ .
 ابن مسجع : ٨٩ .
 المسخية : ٢٢٥ .
 مسرور الخولاني : ١٣٦ .
 مسروق بن عبد الرحمن : ٧٥ .
 ابن مسعود : ٤٧٦ .
 مسعود بن عمرو : ٣٢ .
 مسعود بن همام : ٢٥٤ .
 المسعودي (علي بن الحسين) : ٥٦ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٤٦٢ .
 أبو مسلم الخراساني : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ .

محمد بن عبد الله بن الحسن (محمد النفس الزكية) : ٣٤٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ .
 محمد بن عبد الله بن عمر البازيار : ٤٦٧ .
 محمد بن عبد الملك الفقعسي : ١٧٢ .
 محمد بن أبي العتاهية : ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٥٩٥ .
 محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : ٣٩ ، ٤١ .
 محمد بن عمرو الجاز : ٢١١ ، ٢١٨ ، ٢٥٧ .
 محمد كرد علي : ٤٩ هـ .
 محمد بن أبي كريمة : ٤٤٢ ، ٤٦٣ ، ٥٩٦ ، ٤٦٤ .
 محمد بن كناسة : ٣٠٦ ، ٥٩٥ .
 محمد بن الليث بن الخطيب : ٤١٥ .
 محمد بن محمد حسين : ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٩٤ .
 محمد مندور : ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ .
 محمد النويهي : ١٦ ، ١٣٥ ، ٢٢٠ ، ٢٥٨ ، ٤٩٢ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ .
 محمد بن واسع : ٢٨٧ .
 محمد بن وهيب : ١٩٨ .
 محمد بن يحيى آل المنجم : ١٣١ .
 محمد بن يسير : ١٩٩ ، ٣٠٨ - ٣٠٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٥٥٦ ، ٥٩٥ .
 الحمدي : ٢٣٩ .
 الحمرة : ٢٣٦ .
 محمود بن الحسن الوراق : ١٠٤ ، ١٢٨ ، ٢٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٤٤٩ .
 ٥٩٧ ، ٥٩٥ .
 حجة : ٢٨٧ .
 المختار بن أبي عبيد الثقفي : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤١٣ .
 المرتضى (أبو القاسم علي بن طاهر) : ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٤ .

٤٨٥ ، ٤٦٩ .
المعتزلة : ٩٨ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،
٢٧٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ،
٣٢٦ ، ٣٢٩ - ٣٣٤ .
معدان الشميطي : ٣٤٩ .
المعذل بن غيلان : ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٤٣٦ .
معروف الكرخي : ٧٦ ، ٢٨٩ ، ٥١٢ .
معتمد بن يزيد العجلي : ٢٨٤ .
المصرية : ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٣٤٨ .
معن بن زائدة : ٥٨١ .
المغيرة بن سعيد العجلي : ٣٤٩ .
المغيرية : ٢٣٧ ، ٣٤٩ .
المفضل النخاس : ٦٣ ، ٤٥٦ .
المفضل بن المهلب : ٣٥ .
مقاتل بن شيبان : ٤٣٧ .
ابن المقفع (أبو عمرو عبد الله روزبة) :
٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ،
٤٤٧ ، ٤٥٣ .
المقنع : ٢٣٥ .
المقنع الكندي : ٤٦١ .
مقيم الجارية : ٦٣ .
مليد بن حرمة : ٤٤ .
ابن منذر : ١٤٠ .
منصور الأصفهاني : ٤٣٤ .
أبو منصور العجلي : ١٤٦ ، ٢٠٦ هـ ،
٢٣٩ ، ٣٤٩ .
منصور بن عمار : ٢٦٢ ، ٢٦٣ .
منصور النمري : ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٥٣ ،
١٦٩ ، ٣١٠ ، ٣٤٢ - ٣٤٤ ،
٣٥٠ ، ٣٧٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ،
٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ .
المنصورية : ١٤٦ ، ٢٠٦ ، ٢٣٧ ،
٢٤٩ ، ٢٠٩ .
ابن منظور : ٢٢١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ،
٣٣٦ ، ٤٠٦ .

٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،
٢٤٤ ، ٣٧٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،
٤٠٢ .
مسلم بن سعدان : ٣٠٢ .
مسلم بن الوليد : ٨٤ ، ١٣١ ، ١٦٣ ،
٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٧٨ ، ٣٧٢ ،
٤٥٨ ، ٤٨٩ ، ٥١٤ ، ٥٦٢ ،
٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ،
٥٩٩ .
المسلمية : ٢٣٦ .
المسور بن عبد الملك المخزومي : ٥٧٨ .
مصطفى صادق الرافعي : ١٨ ، ١٣٨ ،
٢٠٦ هـ ، ٥٦٧ .
مصعب بن الزبير : ٣٤ .
مصعب بن عبد الله : ٥٧٨ .
مضر القاري : ٥١١ .
مضغة : ٢٨٧ .
المطوعة : ٧٣ .
مطيع بن إياس : ١٦ ، ١٤٧ ، ١٥١ ،
١٨٠ ، ٢٠١ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ،
٢٢١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٣٤٨ ،
٤٤١ ، ٤٠٣ ، ٤٩٨ ، ٥٠٣ ،
٥١٩ ، ٥٣٧ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦ .
المطيعي (المغني) : ١٤٧ .
المعافي الجريري : ٢١٠ ، ٢٤١ .
معاوية بن أبي سفيان : ٢٤ ، ٢٨ ، ٤٧ ،
٤٩ ، ٥٦ ، ١١٠ ، ٢٠٤ ، ٤٧٩ .
معاوية بن صرد : ١٣٧ .
معيد (المغني) : ٥٩ .
ابن المعتز (أبو العباس عبد الله) : ١٢٨ ،
١٣٠ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
١٧٩ ، ١٩٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٩ ،
٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،
٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٧٤ ، ٣٠٥ ،
٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣٣٤ ، ٣٤٤ ،
٣٥٢ ، ٣٦٤ ، ٤٤٤ ، ٤٤٩ .

أبو منعم : ١٣٠ .

منقذ بن عبد الرحمن بن زياد الهلالي : ٢١٩ ،
٢٧٩ .

المهدي (الخليفة) : ٤٩ ، ٧٠ ، ٩٠ ،

١٣٧ ، ١٥٣ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٨٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ،

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٥٢ ،

٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٧٤ ،

٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٧٣ ،

٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ،

٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ،

٤٤٦ ، ٤٧٦ ، ٥٠٨ ، ٥١٤ ،

٥٧٢ ، ٥١٥ .

مهلهل بن يموت : ١٣٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٤٧٢ .

موسى بن عامر : ٣٤ .

موسى بن محمد الأمين : ٤٢٤ .

موسى بن مصعب : ١٣٧ .

ابن المولى (محمد بن عبد الله بن مسلم) : ٣٨٠ ،
٥٠١ .

ابن ميادة (الرماح بن أبرد) : ١٩٧ ،
١٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤٢١ .

ميسرة : ٣٩ .

ميمونة : ٢٨٧ ، ٣١٥ ، ٥٩٥ .

النون

النابغة الذبياني : ١٧١ ، ٤١٨ ، ٥٦٧ .

نافع بن عون : ٤٢٧ .

ناهض بن ثوبة : ١٧٠ .

نجيب الهبيتي : ١٢ ، ٨٨ ، ١٤١ ،
١٤٥ ، ١٥١ ، ١٦٩ ، ١٩٢ .

أبو نخيلة : ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٥٩٧ .

ابن النديم (محمد بن إسحق) : ٩١ ، ١٣١ ،

١٧٢ ، ٢٠٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ،

٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥٠ ،

٢٦٨ .

٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٦ ، ٣٦٢ ،

٤١٥ ، ٤٤٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٧ ،

٥٤٣ .

نصر بن سيار : ٤١ ، ١١٣ ، ٣٢٩ .

نصيب مولى بنى مروان : ١٨٠ .

نصيب مولى المهدي : ١٨٠ ، ٣٨١ .

النضر بن الحارث : ٢٢٧ .

أبو نعيم (أحمد بن عبد الله الأصفهاني) :
٧٤ ، ٧٦ ، ٢٨٦ .

نقفور (ملك الروم) : ٥٢٩ .

نكلسون : ١٢ ، ٤٩ ، ٧٥ ، ١٥١ ،

١٧٣ ، ٢٦٩ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ،

٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٥٦٨ .

نلينو : ١٢ ، ١٨ ، ٩٨ ، ١٦٩ ،

٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٤٣٩ ،

٤٦٨ ، ٤٨٠ .

أبو نواس (الحسن بن هاني) : ٩ ، ١٥ ،

١٦ ، ٧١ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٩٩ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٧ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ،

١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٤٧ ،

١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ ،

١٦٣ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٦ ،

٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،

٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ،

٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ،

٢٦٢ ، ٣٠١ ، ٣١٥ ، ٣١٩ -

٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٥ ، ٣٣٦ ،

٣٤٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٤٠٥ -

٤٠٨ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ،

٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ،

٤٥١ ، ٤٥٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٩ -

٤٧٣ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥ ، ٤٨٩ ،

٤٩١ - ٤٩٩ ، ٥١٤ ، ٥١٧ -

٤٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٣٥٢ - ٣٥٣ ،

٤٧٧ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٧٠ ،

٥٧١ ، ٥٧٧ - ٥٧٨ ، ٥٨٩ ،

٥٩٥ ، ٥٩٩ .

الهرمزان : ٨٧ ، ١٠٧ .

هزيود : ٣٥٥ .

هشام بن عبد الملك بن مروان : ٥٨٠ ، ٥٧ ،

٩٢ ، ٣١٠ ، ٤٠٤ ، ٤١١ ، ٤٧٩ .

هشام بن قاسم الأصفهاني : ٩٢ .

هشام بن محمد بن السائب الكلبي : ١٣٠

هشيمة الحمار : ٤٤٠ .

أبو هفان بن عبد الله المهزي : ١٢٧ ، ١٣١ ،

٢٦١ ، ٤٨٥ .

هلال التميمي : ٢٢٧ .

أبو الهندي (عبد الله بن ربيع) : ٤٨١ ،

٤٨٢ - ٤٨٥ ، ٤٩٩ ، ٥٩٧ .

هوار : ١٢ ، ٤٢ ، ٩٠ ، ٢٩٢ ، ٥٦٨ .

هوتسما : ٣٦٢ .

هوميروس : ٨٨ ، ٩٦ .

الهيثم بن علي : ٤١٥ ، ٤٢٩ .

الهيثم بن معاوية : ٢٣٥ .

هيرودوت : ٢٢٠ .

الواو

الوائقي بالله (الخليفة) : ١٣ .

واصل بن عطاء : ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،

٣٣٠ ، ٣٣٤ .

والبة بن الحباب : ٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٤٦ ،

٢٤٩ ، ٢٦١ ، ٢٧٢ ، ٥٩٤ .

ورد بن حكيم : ١٧٢ .

ابن الوشاء : ١٣١ .

ابن وكيع : ١٦١ .

وكيع بن الجراح : ٤٧٦ .

ول ديورانت : ٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٥٦٨ .

الوليد بن عبد الملك بن مروان : ٥٧ ، ٥٨ ، ٤٧٩ .

٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٢٩ ،

٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ،

٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ،

٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ،

٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ،

٥٨٤ - ٥٨٦ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ،

٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ،

٥٩٩ .

ابن زوفل : ٤٣٠ .

النويري : ٢٢١ .

نيبرج : ٢٣٥ .

الهاء

الهادي (الخليفة) : ٧٠ ، ٩٠ ، ٢٢٣ ،

٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٣٧٣ ، ٣٨٧ .

هارون الرشيد (الخليفة) : ٤٥ ، ٦٧ ،

٧٠ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ١١٦ ،

١١٩ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،

١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٨٠ ،

١٩١ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢٣٥ ،

٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٦٥ ، ٣١١ ،

٣١٢ ، ٣٤٣ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ،

٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ،

٤١٣ ، ٤٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٩ ،

٥٨٠ .

هارون بن سعيد العجلي : ٣٤٧ .

هارون بن علي : ١٣٠ .

أبو هاشم الكوفي : ٧٦ .

أبو هاشم بن محمد الحنفية : ٤٠ .

هانز شيدر : ٩٥ .

هبة الله بن إبراهيم المهدي : ٧١ .

هدبة اليشكري : ٤٣٧ .

أبو الهذيل العلاف : ٢٥٣ .

هرم بن حيان : ٢٨٧ .

ابن هرم (أبو إسحق إبراهيم بن علي القرشي) :

الوليد بن عقبة : ٢٠٤ ، ٤٧٨ .

الوليد بن مغيرة : ٢٢٧ .

الوليد بن يزيد : ٣٥ ، ٣٨ ، ٥٨ ، ٥٩ ،

٦٠ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٩٠ ، ١٣٥ ،

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٩٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ،

٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٨ ، ٣٥٧ ، ٤٢٠ ،

٤٢٣ ، ٤٦٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ،

٤٨١ - ٤٨٢ ، ٤٩٩ ، ٥٣٧ ،

٥٣٨ ، ٥٤٧ ، ٥٥٦ ، ٥٩٤ ،

٥٩٧ .

وهيب بن الورد : ٧٦ ، ٢٨٧ .

ويسترب : ٢٦٦ ، ٢٩٧ .

الياء

ياقوت الحموي : ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٥٤ ،

٣٥٨ .

يحيى بن آدم القرشي : ٤١٦ .

يحيى بن الجون العبدى : ١٢٧ .

يحيى بن الحسن بن معاذ : ٩٣ .

يحيى بن الحكم الغزالي : ٣٦٧ .

يحيى بن خالد البرمكي : ٩٧ ، ١٠٣ ،

٢٩٦ ، ٤٠٠ ، ٤١٣ .

يحيى بن زياد الحارثي : ٢١١ ، ٢١٨ ،

٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٦١ ، ٥٩٤ .

يحيى بن زيد بن علي : ٣٥ ، ٣٨ .

يحيى بن عبد الله بن الحسن : ٣٩٠ .

يحيى بن علي آل المنجم : ١٣٠ .

يحيى بن الفضل : ١٣١ .

يحيى بن المبارك اليزيدي : ٣١١ - ٣١٢ ،

٥٩٥ .

يحيى بن معاذ الرازي : ٢٨٧ ، ٢٨٩ .

يزدجرد : ٩٣ .

أبو يزيد بن الربيع بن خيثم : ٧٥ .

يزيد الرقاشي : ٥١١ .

يزيد بن سياه الأسواري : ٣٣ .

يزيد بن ضبة : ١٧١ .

يزيد بن عمر بن هبيرة : ٤١ .

يزيد بن مزيد الشيباني : ٤٦ ، ٥٧٠ .

يزيد بن معاوية : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ،

٥٦ ، ٥٧ ، ٢٠٤ ، ٢٢٣ ، ٤٦٨ ،

٤٧٩ .

يزيد بن مفرغ : ٧٩ .

يزيد بن المهلب : ٣٥ .

يزيد بن الوليد : ٣١ ، ٤٧٩ .

يعقوب بن داود : ٢٧٨ ، ٥٧٢ .

يعقوب السروجي : ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

يعقوب بن الفضل : ٢٣٢ .

أبو الينبختي (العباس بن طرخان) : ٨٠ .

يوحنا الدمشقي : ٩٧ ، ٩٨ .

أبو يوسف «القاضي» (يعقوب بن إبراهيم) :

١١٠ ، ٣١٠ .

يوسف البرم : ٤٤ ، ٣٩٩ .

يوسف بن الحجاج الثقفي : ٥٢٢ .

يوسف بن الداية : ١٣١ .

يوسف الصيقل : ٩٠ .

يوسف بن عمر : ٣٥ .

يوايوس فلهوزن : ١٣ ، ٢٧ .

يونس بن حبيب : ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

يونس بن هارون : ٢٧٢ ، ٤١٥ .

يوهان فك : ٥٤ ، ٥٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ،

١٣٩ ، ١٩١ ، ٤١٦ ، ٥٤٣ ،

٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٨ ، ٥٥٣ ،

٥٦٥ .

فهرس الشعر

الألف المقصورة					
الهدى	ابن الغسيل	٢٩	الخضراء	بشار	٥٥٧
الموق	صالح بن عبد القدوس	١٨٠	غيداء	بشار	٥٧١
والموق	أبو العتاهية	٢٩٤	والخمر	بشار	٥٧٥
والشكوى	أبو العتاهية	٢٩٩	الفناء	ابن أبي عيينة	٥٨٣
والقري	أبو العتاهية	٥٨٧، ٥٤٧، ٢٩٩	الباء		
أنى	بشار	٤٣٢	العربا	أبو حرة	٢٤
سوا	بشار	٥٤٦	عزب	نصر بن سيار	٤١
الأحيا	أبو العتاهية	٥٥٧	الكذب	نصر بن سيار	٤١
وحسرى	العتابي	٥٨٠	جائبا	إبراهيم بن أدهم	٧٥
الدنيا	سعيد بن وهب	٥٨٣	تغيب	معروف الكرخي	٧٦
الهمزة			ذهبوا	بشار	١٦٥
وعثنائى	أبو نواس	١٥٥	شف	بشار	١٦٦
إزرأ	أبو نواس	٣٢٨، ٢٦٠	تنوب	صالح بن عبد القدوس	١٧٦
وراءها	أبو العتاهية	٢٩٨	حجابي	أبو الشمقمق	١٧٧
دهياء	أبو العتاهية	٢٩٩	غريب	نصيب مولى المهدي	١٨٠
بلاء	أبو العتاهية	٥٦٣، ٢٩٩	ذنب	بشار	١٨٩
شاعوا	أبو العتاهية	٣٢٤، ٣٠١	عذابا	الوليد بن يزيد	١٩٠
سواء	كثير عزة	٣٣٨	القلب	أبو نواس	١٩٠
القضاء	السيد الحميري	٣٤٠	الجنابة	أبو نواس	٤٣٤، ١٩١
والعناء	السيد الحميري	٣٤١	تغابيه	بشار	٢٠١
أهواؤها	عبد الله المبل	٣٩٣	الأدب	بشار	٢٠١
ماء	ابن أبي عيينة	٤٣٣	يغيب	الحريري	٢٠٢
بالخاء	رزين العروضي	٤٣٦	تجب	يزيد بن معاوية	٢٠٤
أجزائها	أبو نواس	٤٩٤	يركب	أبو نواس	٢١٢
الماء	أبو نواس	٤٩٤	وتركبا	مسلم بن الوليد	٢١٢
الرائى	أبو نواس	٥١٧	ترقيا	بشار	٢١٦
وزناء	أبو نواس	٥٢٠	قلبا	حماد عجرد	٢١٨
حوراء	أبو نواس	٥٢٠	تعبا	السيد الحميري	٣٤٢، ٢٣٨
يشاء	بشار	٥٥٦	الحساب	شاعر	٣٤٦، ٢٣٩
الزرا	بشار	٥٥٦	الحساب	الوليد بن يزيد	٢٤١
			الطرب	المعتدل بن غيلان	٢٥٠

٤٥٢	أبو نواس	التعب	٣٢٤، ٢٧٤	بشار	المهذب
٤٥٥	أبو نواس	المحراب	٢٧٧	بشار	سبا
٤٥٧	بشار	مستصعب	٣٠٠، ٢٩٨	أبو العتاهية	والقبابا
٤٥٨	أبو الشيص	مفترب	٣٠٠	أبو العتاهية	ينقلب
٤٦٠	محمد بن يسير	أرب	٣٠٧	محمود الوراق	التعب
٤٧٢	أبو نواس	جلابيه	٣١٠	سيد ن وهب	القلب
٤٧٣	الشمردل	به	٣٣٩	السيد الحميري	تنوب
٤٧٣	الشمردل	ثيابه	٣٤٠	السيد الحميري	الطلب
٤٨٢	الوليد بن يزيد	العنب	٣٤٧	إسحق العدوي	باب
٤٨٤	أبو الهندي	العنب	٣٥١	الكيت	وتعرب
٤٩٢	أبو نواس	واللهبا	٣٦٣	حمدان اللاحق	الكتب
٤٩٦	أبو نواس	قلوب	٣٦٥	السيد الحميري	والحباب
٥٠٥	بشار	وجيب	٣٧٨	الكيت	وأندب
٥٠٥	بشار	ربا	٣٨٠	بشار	حسب
٥٠٦	بشار	القلب	٣٨٤	أبان اللاحق	والعرب
٥٠٧	علي بن آدم	لي	٣٨٥	إبراهيم الجلي	العجب
٥٠٩	أبن رهيمة	ولي	٣٨٧	الكيت	وأقرب
٥١٠	العباس بن الأحنف	الحب	٣٩٢	ابن قيس الرقيات	غضبوا
٥١٦	بشار	كالمصابه	٤٠٢	أبو العتاهية	الرطب
٥١٦	بشار	وحاجي	٤٠٤	إسماعيل بن يحار	النصاب
٥١٦	بشار	مجنوب	٤٠٦	أبو نواس	للنصب
٥٢١	أبو نواس	عائيه	٤٠٧	أبو نواس	الخطوب
٥٢٤	أبو موسى	عجيبا	٤٠٩	بشار	نبي
٥٢٦	العباس بن الأحنف	الترب	٤٠٩	بشار	العرب
٥٢٨	أبو العتاهية	التصابي	٤١٣	بشار	معصبا
٥٢٩	بشار	ذنب	٤١٨	النايفة الذبياني	الشباب
٥٣٨	حماد عجرد	قلبيها	٤٢١	الأعشى	يذهب
٥٣٨	الوليد بن يزيد	عذابا	٤٢٥	شاعر	اللب
٥٤٠	أبو نواس	الطرب	٤٢٩	أبو نواس	العرب
٥٤٠	أبو العتاهية	عوتب	٤٣٧	أيوب بن خول	وقرائه
٥٥٧	بشار	للغاب	٤٤١	مطيع بن إلياس	طريق
٥٥٨	أبو نواس	الخطوب	٤٤٢	أبو نواس	العقاب
٥٥٨	بشار	ذنب	٤٤٨	أبو بكر العرزي	مضاربه
٥٥٩	أبو نواس	الطلب	٤٥٠	بشار	نصبه
٥٥٩	أبو نواس	القلب	٤٥١	بشار	وقلوب
٥٦٤	أبو العتاهية	وهب			

٢٧٩	الثاء	لبى	الخاركي	٥٧	بشار	وشيب
				٥٧٢	بشار	المتاب
				٥٧٤	بشار	تسكب
				٥٧٤	بشار	ذرب
	الجيم			٥٧٥	بشار	لهبه
١٧٠، ٩٠	طريح الشقى	والولج		٥٨٠	العتابى	ذهبا
١٥٢	أبان اللاحق	ينمرج		٥٨٢	أبو الشيص	المخضوب
١٧١	الحسين بن مطير	ملاجيج		٥٨٥	أبو فواس	الهبوب
١٧٨	أبو الشمقمق	أمواج		٥٨٥	أبو فواس	والعصب
١٨٧	عمرو الوراق	يهجه		٥٨٧	أبو العتاهية	ذابا
٢١٦	بشار	اللهج		٥٨٧	أبو العتاهية	كذب
٢٧٧	بشار	يتوهج		٥٨٨	أبو العتاهية	الشباب
٢٧٧	بشار	مدمج			الثاء	
٣٦٦	أبو العتاهية	راجى		٧٩	يزيد بن مفرغ	است
٤٩٣	أبو فواس	علاج		٧٩	أسود بن أبي كريمة	سبت
٥٥٩	بشار	تختلج		٥٥٨، ١٨٨	بشار	فنجيت
	الحاء			١٩٩	دعبل الخزاعي	بهر
				٢١٠	الوليد بن يزيد	لذاتي
١٧٠	ناهض بن ثومة	النضاح		٢١٣	أبو فواس	بفتاة
١٩٤	أبو فواس	الشحاح		٣٠٣، ٢٩٤	أبو العتاهية	بزهادق
١٩٨	عوف بن محم	فقر يح		٢٩٩	أبو العتاهية	الهموات
٢٠٩	الوليد بن يزيد	الصلاح		٣٠٥	محمد بن أبي العتاهية	قوت
٢١٦	أبو فواس	للصلاح		٣٨٩، ٣٤٥	دعبل الخزاعي	العرصات
٢١٧	بشار	جمعا		٣٤٥	دعبل الخزاعي	بدات
٣٠٥	محمد بن أبي العتاهية	ويوح		٣٦٠	أبان اللاحق	الرواق
٣١٣	سعدون المجنون	قراحا		٣٩٠	دعبل الخزاعي	صلوات
٣١٤	ريحانة	مطروح		٤٦٤	أبو فواس	الياسقات
٣١٦	أبو فواس	المازح		٤٦٩	أبو نخيلة	السراة
٣١٨	أبو فواس	بنازح		٥٠٨	المؤمل بن جميل	مباقى
٤٤٦	أبو العتاهية	المسوح		٥٢٥	عبد الصمد بن المعتدل	تركت
٤٨٥	أبو الهنلى	راح		٥٢٩	بشار	وحياى
٥٥٧	بشار	بالمساح		٥٣٩	أبو العتاهية	والملاات
٥٥٩	بشار	تفرج		٥٤٥	بشار	الزيت
٥٥٩	بشار	وملح		٥٥٧	بشار	جيت
٥٧٨	ابن هرمة	لماح		٥٨٥	أبو فواس	التوقى

٤١٤	بشار	البادي	٥٧٨	ابن هرة	شاحا
٤٢٨	بشار	عجرد	٥٨٤	أبو نواس	ياحا
٤٣٠	أبو نواس	ودا	٥٨٨	أبو العتاهية	تفوح
٤٣٣	حماد عجرد	القرن			
٤٣٣	العتي	بالزاهد		الذال	
٤٤٠	جارية زلز	معمود			
٤٤٣	خزيمة بن الحسن	عدد	٨٠	العماني	بالسر
٤٥١	بشار	بعيد	١٦٦	بشار	بعدي
٤٥٦	خالد القناص	ودود	١٧٦	الخرمى	والجهد
٤٥٧	علي بن المحسن	مفرد	١٨٥	عمرو الوراق	الأبد
٤٦٠	العتابي	ومشهدا	١٨٥	عمرو الوراق	تود
٤٧٢	أبو نواس	المهدي	١٨٨	بشار	مورود
٥٠٤	مطبع بن لياس	جديد	٢٤٢	الوليد بن يزيد	عند
٥١٤	أبو نواس	البارد	٢٤٣	أبو دلامة	بمحمود
٥٢٢	أبو نواس	صدود	٢٤٥	مطبع بن لياس	حماد
٥٢٧	الحسين بن الضحاك	الكمد	٢٤٩	حماد عجرد	موحد
٥٢٧	أبو نواس	شديد	٢٦٥	أبو العتاهية	الجاحد
٥٣٨	الوليد بن يزيد	والجهد	٢٦٧	أبو العتاهية	قصد
٥٤٠	أبو العتاهية	صفادي	٢٧١	صفوان الأنصاري	برد
٥٤٨	علي بن الجهم	وإرعاد	٢٧٤، ٢٧٢	صفوان الأنصاري	حقد
٥٥٥	أبو دلامة	عبيد	٢٨٣	الطراح	عده
٥٥٨	أبو نواس	بليد	٢٩٣	أبو العتاهية	المجد
٥٦٣	أبو العتاهية	بيدي	٣٠٣	شاعر	يزهد
٥٦٤	أبو نواس	تنفذ	٣١٤	حيوة	سیدی
٥٧١	بشار	لعاد	٣١٥	حيوة	أريد
٥٧٣	بشار	تلد	٣١٧	أبو نواس	فاقتصد
٥٧٤	بشار	الجليد	٣٧٥، ٣٢٣	السيد الحميري	العباد
٥٧٥	بشار	البرود	٣٢٧	ثابت قطنة	أحدا
٥٧٥	بشار	الورد	٣٢٨	ثابت قطنة	الصمدا
٥٧٦	بشار	سود	٣٣٣	صفوان الأنصاري	والزند
٥٨٤	العباس بن الأحنف	الراكد	٣٣٥	أبو نواس	تنفذ
			٣٥٨	الوليد بن يزيد	الحمد
			٣٧٩	أبو دلامة	الكرد
			٤١١، ٣٨١	بشار	الهادي
			٣٨١	بشار	وسودها
			٣٩٦	محمد بن بشير	بعيد
	الذال				
٢٠٨، ١٤٦، ٥٩	عمار ذوكناز	مجنذا			
٣١٢	عمرو الصيرفي	ماذا			

٢٨١	عدي بن يزيد	الموقور	٤١٤	بشار	تنبؤ
٣٠٥	الفضيل بن عياض	انتظار	٤٣١	ابن أبي الزوائد	الحياذا
٣٠٨	محمد بن يسير	تغيير			
٣١٢	يحيى اليزيدي	أشهر		الراء	
٣١٤	ريحانة	دار			
٣١٨	أبو نواس	الصير	٣٩١٤٤٤	أبو العطاء السندي	النار
٣١٨	أبو نواس	الحذر	٥٩	شاعر	بتباشير
٣١٨	أبو نواس	يصغر	٨٢	شاعر	الذكر
٣٢١	شاعر	عمرو	١٠٤	أبو نواس	النار
٣٢٣	صالح بن عبد القدوس	ومجبور	١٢٧	سعيد بن عفير	الأمير
٣٢٦	عمرو الإياضي	السمير	١٤٧	أبو نواس	صبري
٣٣٠	صفوان الأنصاري	البرابر	١٥٧	أبو نواس	الحمرا
٣٣١	بشر بن المعتمر	القطر	١٦٧	أبو نواس	صمر
٣٣٣	بشر بن المعتمر	فرارا	١٧٧	أبو الشمقمق	والقحارة
٣٣٥	العباس بن الأخنف	بمنتصر	١٧٨	أبو فرعون الساسي	القدر
٣٤١	السيد الحميري	وينفر	١٧٩	العماني	حمار
٣٤٧	هارون العجلي	منكرا	١٨١	زياد الأعجم	تطاري
٣٥٠	الكيت	عرا	١٨٦	عمرو الوراق	وغضاره
٣٥٦	رؤبة	والتعبير	٤٢٧٤١٨٩	حماد عجرد	المؤاجره
٣٦١	بشر بن المعتمر	والضير	٤٢٢٠١٩١	أبان اللاحق	الحارة
٣٦١	الحكم البهراني	مفر	١٩٧	بو دلالة	والقصر
٣٧٠	جرير	الذكر	٢٤٣٤٢٠٩	أبو دلالة	أمرى
٣٧٣	علي بن جبلة	ومختصره	٢١٣	عمرو الوراق	عصر
٣٧٣	سلم الخاسر	المرز	٢١٧	أبو نواس	ستر
٣٧٤	أبو نواس	قفره	٢٤٢	الوليد بن يزيد	يازار
٣٨٠	أبو دلالة	ودماره	٢٤٢	الوليد بن يزيد	الزمار
٣٨٣	منتصور النمري	الأمور	٣٤٨٤٢٤٦	مطيع بن إياس	دهر
٣٩١	أبو عطاء السندي	الأشرار	٢٥٧	أبو نواس	فاري
٣٩٥	العبل	الصواري	٢٥٩	أبو نواس	جبر
٤٠٥	إسماعيل بن يسار	الأساور	٢٥٩	أبو نواس	أمرى
٤٠٥	الحريمي	الخبر	٣٢٨٤٢٦٠	أبو نواس	مقصرا
٥١٨٤٤٠٧	أبو نواس	والمطرا	٢٦٣	أبو العتاهية	الأمير
٤١٠	بشار	طخار	٢٦٨	أبو العتاهية	وأكبر
٤١٣	بشار	خسار	٢٧٢	بشار	النار
٤٢٤	شاعر	المشير	٣٣٢٠٢٧٧	بشار	القفجار
			٢٧٩	ديك الجن	وغصير

٥٧٩	العتابي	شكري	٤٢٦	أبو نواس	وكفرا
٥٧٩	العتابي	مغمور	٤٢٧	بشار	الخارج
٥٨٣	علي بن الجهم	ثارها	٤٢٩	بشار	قوارير
٥٨٤	أبو نواس	الخمير	٤٣٠	ابن فوغل	أمير
٥٨٨	أبو العتاهية	النكر	٤٣٢	أبو نواس	مهذار
	الزاي		٤٣٣	ابن أبي عيينة	نور
			٤٣٥	حماد عجرد	أثر
١٧٨	أبو الشمقمق	الخبز	٤٤٥	الخرمى	دائرها
٢٦٥	أبو العتاهية	وأجوز	٤٥٥	علي بن الجهم	بأسرارها
	السين		٤٥٨	مسلم بن الوليد	أمري
			٤٥٩	الخرمى	زاهرها
٣٧٩٠٦٦	أبو دلامة	القلانس	٤٦٦	الخاركي	الأنوار
٦٧	أبو قابوس	الكنائس	٤٧٣	أبو نواس	بناره
١٠٥	أبو نواس	المجوسى	٤٧٤	الأعشى	قوارها
١١٧	أبو نواس	القراطيس	٤٧٩	يزيد بن معاوية	عمرى
١٥٦	أبو نواس	حيس	٤٨٤	أبو الهندي	وعبيرها
١٦٨	أبو الشيص	دروس	٤٨٥	أبو الهندي	معصرة
٢٠٩	الأقشير	خمس	٤٩٢	أبو نواس	الدهر
٢١٢	أبو قابوس	وطاس	٤٩٤	أبو نواس	المدار
٢١٣	أبو نواس	نواس	٤٩٥	أبو نواس	بالوقار
٢١٤	والبة بن الحباب	إيليس	٤٩٩	الوليد بن يزيد	بالتمرة
٢٤٨	حماد عجرد	خمس	٥١٥	بشار	والنظر
٢٥٢	علي بن الخليل	الخمير	٥١٦	بشار	قبرى
٢٦٣	أبو العتاهية	قها	٥٢٨	العباس بن الأحنف	أبشر
٣٣٢	سليمان بن الوليد	مغروس	٥٣٩	بشار	انتشر
٣٦٢	أبان اللاحق	بالأخص	٥٤١	سلم الخاسر	بكر
٣٧٢	مسلم بن الوليد	وكس	٥٤٤	أبو نواس	العاطر
٣٨٠	أبو دلامة	القرطاس	٥٤٥	أبو العتاهية	والنهار
٣٨٧	السيد الحميرى	الدارسا	٥٤٧	الوليد بن يزيد	السورة
٣٩٢	أبو العباس الأعمى	أنسى	٥٥٢	بشار	التبكير
٣٩٤	العبي	الأنفس	٥٦٤	أبو نواس	الضماير
٤٢٥	شاعر	بالنفوس	٥٧٣	بشار	قفر
٤٤٩	صالح بن عبد القدوس	غرسه	٥٧٣	بشار	قصار
٤٥٢	سليمان بن الوليد	مقتبسه	٥٧٤	بشار	تبتكر
٤٨٨	أبو الشيص	شموس	٥٧٤	بشار	زهرا
٥٢٨	العباس بن الأحنف	الناس	٥٧٦	بشار	الذار

٣٥٣	محمد بن يسير	والبدع
٣٥٩	إسحق بن حنين	ويافع
٣٥٩	الكسائي	ينتفع
٣٨٥	منصور الثوري	ينتفع
٤٣١	حماد عجرد	تتبع
٤٥٢	أبو العتاهية	طبع
٤٨٣	أبو الهندي	المراضع
٥٢٣	الحسين بن الضحاك	مددعا
٥٢٦	شاعر	جزع
٥٦٢	أبو العتاهية	الساعة
٥٨٦	أبو نواس	ربيع
	الغين	
٣٦٦	أبو العتاهية	البلاغ
	الفاء	
١٣٧	سعيد بن عفير	لمتوف
٤٣٥ ، ١٩٣	أبو نواس	يرفا
٢٥٨	أبو نواس	صاف
٢٦١	شاعر	بالظرف
٢٦١	شاعر	ظريف
٢٩٥	أبو العتاهية	لتصاريفها
٣٣٥	إبراهيم النظم	الوصف
٣٤٦	أعشى همدان	عارف
٣٤٩	أعشى همدان	للخسف
٤٣٤	منصور الأصفهاني	سقف
٤٦٢	محمد بن يسير	تصرف
٤٩٤	أبو نواس	النصف
٥٤٠	أبو العتاهية	صرفها
	القاف	
٨٠	جرير	الروثق
١٦٧	أبو نواس	بدهوق
١٦٨	أبو نواس	مخنوق
١٨٤	عمرو الوراق	شفيق
٢٠٨	الأقيشر	فسوق
٢٢١	أبو العتاهية	السحق
٢٣٢	بشار	موقا

٥٥٧	أبو نواس	باسك
٥٨٦	أبو نواس	والراس
	الشرين	
٨٠	أبو الينبغى	نيمرش
٩٠	أبو شراة	خن
١٩٦	أبو دلالة	حرش
٤٦٥	إسماعيل بن يسار	كندش
	الصاد	
١٨٧	عمرو الوراق	القميمص
٢١٨	الحاركي	حرصا
٣٠٦	محمد بن كناسة	بصيص
	الضاد	
٢٩٩	أبو العتاهية	الرضا
٣٧٥	عمارة بن عقيل	الأرض
٥٨١	أبو الشيص	الرواض
	الطاء	
٢١٥	عنان	اللواط
٢٢٠	والبة بن الحباب	معاطي
٤٠٥	جحفلة	البيط
٤٢٧	دعبل	تسخطوا
٥٦٠	بشار	بالشاطي
	العين	
٩٠	شاعر	شرعا
٩٠	يوسف الصيقل	تمنا
١٥١	مطيع بن إياس	سلما
١٧٠	عبد الملك الحارثي	هلواع
١٩٦	أبو دلالة	الجزع
٢٣٤	ابن المقفع	وقع
٣٠٧	محمود الوراق	بديع
٢٣٦	أبو نواس	اجتمعا
٣٣٩	كثير عزة	تابعا
٣٨٣ ، ٣٤٣	منصور الثوري	دفعوا

١٧٩	أبو فرعون الساسي	أخوال	٢٤٨	مساور الوراق	زفديق
١٨٠	نصيب مولى المهدي	معقل	٢٥١	أبو نواس	زفديق
١٨١	عبد الرحمن بن معاوية	الأصل	٢٨١	عدي بن زيد	الخلق
١٨٣	الحارث الجعدي	أوائلها	٣٠٦	بشر بن الحارث	والخلق
١٨٤	عمرو الوراق	وقال	٣١٧	أبو نواس	رقيق
١٩٥	الأصمعي	التمل	٣٣٩	السيد الحميري	ترزق
١٩٧	ابن ميادة	أهل	٣٥٦	رؤبة	المحترق
٢٠١	مطيع بن إياس	نعله	٣٧٤	أبو نواس	تخلق
٢٤٦	مطيع بن إياس	نعله	٣٨٠	ابن المولى	يتزرق
٤٢٧، ٢٤٧	بشار	جليل	٤٢٤	حمزة بن بيض	عميقا
٢٥٣	صالح بن عبد القدوس	خبل	٤٥٠	صالح بن عبد القدوس	تمزق
٢٦٠	آدم بن عبد العزيز	السلبيل	٤٥١	أبو نواس	الأحق
٢٦٣	أبو العتاهية	جبالك	٥٥٩، ٤٥١	أبو نواس	السوق
٢٧٣	بشار	رجلا	٤٥٧	علي بن الفرج	وروفق
٢٧٨	آدم بن عبد العزيز	الطويل	٤٧١	أبو نواس	العروق
٢٨٠	عدي بن زيد	زوال	٥١٠	العباس بن الأخنف	فاحترقا
٢٩٢	أبو العتاهية	المال	٥١٠	العباس بن الأخنف	عشقوا
٣٧٥، ٣٠٣	أبو العتاهية	ظل	٥٨٤	العباس بن الأخنف	تحترق
٣٠٧	محمود الوراق	تنزلا	٥٨٦	أبو نواس	رقيق
٣١٤	ريحانة	غليل		الكاف	
٣٢١	الأعشى	الرجلا	٢١٧	أبو النضير	وأهواك
٣٢١	ليبد	أضل	٢٣٤	الأصمعي	برماك
٣٢٥	الصحاري بن شبيب	أنالا	٥١٢، ٢٩١	رابعة العدوية	لذاكا
٣٣٤	العطوي	وعمل	٣١٣	سعدون المجنون	جنبيكا
٣٤٢	السيد الحميري	مستول	٤٢٦	شاعر	ساكا
٣٤٤	منصور النمرى	بالباطل	٤٢٦	شاعر	أفاكا
٣٤٤	منصور النمرى	حافل	٤٥٥	ابن أبي عبيدة	ضنك
٣٤٤	منصور النمرى	القتل		اللام	
٣٤٦	شاعر	مرسل	٩١	شاعر	وأجال
٣٤٦	شاعر	بالغربة	١٠٤	أبو نواس	فاعتدلا
٣٤٩	معدان الشميطي	قتال	١٥٠	أبو نواس	طلل
٣٥٠	الكيت	لخزبل	١٥٢	محمد بن أمية	الطلول
٣٥٤	شاعر	الرسل	٢٧٥، ١٥٣	بشار	طويل
٣٦٥	أبو العتاهية	الجليل	١٥٣	عبد الله بن أبي أمية	محيل
٣٦٦	أبو العتاهية	فعله	٣٣٦، ١٦١	أبو نواس	حلا
٣٧٣	أبو العتاهية	أذيالها	٥٥٥، ١٧٧	أبو الشمقمق	ثعاله

١٨٤	عمر و الوراق	أقاما	٣٨١	نصيب مول المهدى	ومفصل
٤٤١٠١٩٤	عبد الصمد بن المعتدل	منسجمة	٣٨١	مروان بن أبي حفصة	هلاها
١٩٩	محمد بن يسير	الظلم	٣٨٥	مروان بن أبي حفصة	بأذله
٢٠٠	أبو العتاهية	بالحلم	٣٨٦	أبو العتاهية	أعمالها
٢٠٠	محمود الوراق	علمي	٤١٨	أوس بن حجر	ضلالها
٢١٢	سليمان بن سهل	الكرم	٤٢٠	الوليد بن يزيد	فزالا
٢١٦	أبو نواس	بالمدام	٤٢٠	عمران بن هلباء	الوصالا
٢٥٢	علي بن الخليل	الذمام	٤٢٣	الكيت	المتزمل
٢٥٧	أبو نواس	بسلام	٤٣٠	ساجب الفيل	مشغول
٢٥٩	أبو نواس	لالتشام	٤٤٩	محمود الوراق	منزلا
٣١٩٠٢٦٢	أبو نواس	أعظم	٤٥٦	علي بن الجهم	المفضل
٣٠٦	محمود الوراق	لحاما	٤٦٥	بشار	أولا
٣١٩	أبو نواس	أعظم	٤٨٦	علي بن الخليل	الطويل
٣٧٠٠٣٣٨	كثير عزة	محرم	٥٠١	ابن المولى	تبذل
٣٣٨	كثير عزة	وإمام	٥١٠	العباس بن الأحنف	مثلي
٣٤٠	علي بن الجهم	إمام	٥١٣	محمد بن أمية	الشغل
٣٥٢	الكيت	بضرام	٥٤١	أبو العتاهية	ومالي
٣٥٢	ابن هرمة	فاطمة	٥٤٣	أمرؤ القيس	الحالي
٣٥٣	ابن هرمة	الكرام	٥٤٤	أبو نواس	الويل
٣٥٨	محمد الفزاري	الأعظم	٥٦٠	أبو نواس	القرى
٣٧٢	منصور النمرى	بالسلام	٥٧٧	ابن هرمة	كالخلل
٣٧٢	عبد الخالق بن بشير	والأحكام	٥٧٩	العتابي	حيلي
٣٨٢	مروان بن أبي حفصة	الأرحام	٥٨١	مروان بن أبي حفصة	رحيلا
٣٨٦	مروان بن أبي حفصة	الأعمام	٥٨١	مروان بن أبي حفصة	حللا
٣٨٦	جعفر الطائي	الأعمام	٥٨٦	أبو نواس	الساحل
٣٨٧	السيد الحميري	هاشم	٥٨٩	مسلم بن الوليد	والحيل
٣٨٨	السيد الحميري	درهما	٥٩٠	مسلم بن الوليد	حجل
٣٩١	أبو العطاء السندي	بدرهم			
٣٩٣	أبو العباس الأعمى	أيتام			
٤٠٤	إسماعيل بن يسار	بمهدوم			
٤٠٥	ابن ميادة	الأعاجم	٤٢٣٠٢٩	ابن عرادة	مقيم
٤٠٩	بشار	العلم	٩١	شاعر	نتكلم
٢٩٤	أبو العتاهية	وما	١١٦	سرور الخولاني	الأشيم
٤٣٨	حسان بن جعدة	وبسطاما	١٥٢	أشجع السلي	المدام
٤٣٨	عبد الله بن مصعب	منكما	١٥٣	سلم الخاسر	للمام
٤٥٨	الحسين بن الضحاك	أمم	١٦٨	أبو نواس	تضام

٢٧٠	أبو العتاهية	منى	٤٦١	المقنع الكندي	علامه
٢٧٢	بشار	تصبحينا	٤٧٥	أبو محجن الثقفى	عالم
٢٩٨	أبو العتاهية	مغن	٤٨٦	حماد عجرد	كروم
٥٨٧، ٢٩٩	أبو العتاهية	وحزون	٥٨٣، ٤٨٧	إبراهيم الموصلى	بهم
٣٠٢	أبو العتاهية	حسنة	٥٠٤	ربيعه الرقى	كلاما
٣٠٩	محمد بن يسير	وهنا	٥٢١	أبو نواس	التمام
٣١١	عبد الله بن المبارك	بالدون	٥٢٦	ربيعه الرقى	تلم
٣١١	عبد الله بن المبارك	إدماها	٥٢٧	العباس بن الأحنف	الجسم
٣١١	عبد الله بن المبارك	حيته	٥٤٦	حماد الراوية	المقام
٣١٤	ريحانة	خمران	٥٦٣، ٥٥٠	أبو العتاهية	كما
٣١٥	ميمونة	الناظرون	٥٧٤	بشار	تبتسم
٣٢٩	فصر بن سيار	يدومونا	٥٧٨	ابن هرمة	الكلم
٣٣١	بشر بن المعتمر	السنن		النون	
٣٤٤	السيد الحميرى	تزعمان	٨١	إبراهيم الموصلى	بالشين
٣٤٥	السيد الحميرى	أجمعينا	٨٢	أبو العطاء السندى	لسانى
٣٥٢	ابن هرمة	سكران	١٥٥	أبو نواس	ومعان
٣٥٩	إسحق بن خلف	يلحن	١٥٦	أبو نواس	تهنئنا
٣٦٠	الأصمعى	جدون	١٧٠	فاهض بن ثومة	الحدثان
٣٦٢	أبان اللاحق	دمنه	١٨٦	عمرو الوراق	الجليلين
٣٦٥	السيد الحميرى	يلعبان	١٨٩	حماد عجرد	تعليمنا
٣٧٤	أبو نواس	خفقان	١٩٤	بشار	الأصفهان
٤٠٨	على بن الحليل	تهجين	١٩٥	أبو العبر الهاشمى	العبرنه
٤٢٢	أبو الشمقمق	تيته	١٩٨	ابن أبى عبيدة	ثمن
٤٢٨	إسحق المظيمى	وخصيانا	١٩٩	عوف بن محلم	ترجمان
٤٣٥	بشار	الميزان	٥٥٦، ٢١٠	الوليد بن يزيد	برنه
٤٤٠	شاعر	والقيان	٢١١	زنبور	دكانها
٤٤٠	إسحق الموصلى	الفتيان	٢١٤	شاعر	تعشقينا
٤٤٢	محمد بن أبى كريمة	والأذن	٢١٩	الرقاشى	إخوانه
٤٤٤	عبد الملك الوراق	العين	٢٤٥	مطيع بن إياس	الأزمان
٤٦٢	شاعر	بين	٢٤٥	مطيع بن إياس	الدفان
٤٦٤	ابن أبى كريمة	القطن	٢٤٧	بشار	شريكين
٤٧٤	عمرو بن كلثوم	مهينا	٢٥٠	أبو نواس	أبان
٤٨٢	أبو الهندى	زيان	٢٥٨	أبو نواس	حبسونى
٤٨٣	أبو الهندى	يموتونا	٢٦٨	أبو العتاهية	المكنون
٤٨٧	أبو الشيص	حان	٢٦٨	أبو العتاهية	ضدان
٤٩٧	الحسين بن القصحاك	مديانا	٢٦٩	أبو العتاهية	بالطين

٣١٢	عمرو الصيرفي	عيناه	٤٩٨	عمرو الوراق	حناء
٣١٣	عمرو الصيرفي	بيديه	٤٩٨	أبو نواس	بساتينه
٣١٣	ريحانة	دنياه	٥٢٣، ٥٠٣	الحسين بن الضحاك	بالأمان
٣١٧	أبو نواس	بالدواهي	٥٠٨	عكاشة بن عبد الصمد	دعاني
٣١٧	أبو نواس	الله	٥١٣	الخاركي	وغني
٣١٩	أبو نواس	الإله	٥٢٦	أبو نواس	ريحان
٤٩٥	أبو نواس	بمقلتيه	٥٢٧	الحسين بن الضحاك	فتن
٥٢١	أبو نواس	فداه	٥٢٧	الحسين بن الضحاك	حزني
٥٢٦	شاعر	تفديه	٥٣٧	مطيع بن إياس	فتان
٥٥٧	أبو نواس	فصحاء	٥٤٢	رزين المروزي	الأقربون
٥٥٨، ١٩١	أبو نواس	مسحناها	٥٤٦	أبو الشيص	تهملان
٥٨٨	أبو العتاهية	نعا	٥٤٦	أبو نواس	عدن
الباء			٥٤٧	خالد القناص	سحان
٢٤٢	الوليد بن يزيد	تلاقيا	٥٥٥	إبراهيم الموصلي	يلسني
٣٠٤	أبو العتاهية	زاوية	٥٦٤	البطين البجلي	الحسين
٣٠٤	أبو العتاهية	متواليه	٥٧٧	بشار	ريحانا
٣٣٩	السيد الحميري	الزكية	٥٨٠	العتابي	تكفان
٣٤٢	محارب بن دثار	عليا	٥٨٢	أبو الشيص	دان
٣٤٢	أبو الأسود	والوصيا	٥٨٢	أبو الشيص	طائران
٣٤٣	منصور القرقي	جشيا	٥٨٧	أبو العتاهية	و بطون
٣٩٠	مديف	دويا	الهاء		
٣٩٤	العبلي	دويا	٣٠٨	محمد بن يسير	مشواه
٤٤٦	أبو العتاهية	لديا	٣٢٤	صالح بن عبد القدوس	معانها

فهرس الموضوعات

تمهيد :

أهمية موضوع البحث وصلتي به ، الدراسات الحديثة المتصلة

به ، سبب تحديده بالقرن الثاني ٩ - ٢

الباب الأول : المؤثرات

مقدمة : تطور شكل الجماعة الإسلامية خلال القرن الأول ٢٣ - ٢٥

الفصل الأول : التأثير السياسي : ٢٦ - ٥١

مقتل عثمان وأثره . سياسة الأمويين في الحكم ، أثر مقتل الحسين - موقف الأمويين من الموالي ، ثورة المختار وأثرها ، صلة الموالي بالشيعة والمرجئة ، الخلاف بين العراق والشام ، ظهور الدعوة العباسية وأسباب نجاحها ، سياسة العباسيين تجاه الموالي ، نشأة حزب للدوالي ، الصراع بين العرب والأعاجم . سياسة العباسيين تجاه الأحزاب الأخرى ، التأثير الأجنبي في نظام الحكم العباسي ، السياسة واتجاهات الشعر .

الفصل الثاني : التأثير الاجتماعي : ٥٢ - ٧٧

القرن الأول مسرح التفاعل الاجتماعي ، هجرة القبائل العربية وأثرها ، طبقات المجتمع الإسلامي والتفاوت الشديد بينها ، حركة التعريب الجنسي ، عوامل التقريب بين العناصر المختلفة ، تأثير الحضارة العربية بالحضارتين البيزنطية والفارسية ، مظاهر الحضارة المادية . اللهو في المجتمع الإسلامي ، الوليد بن يزيد ، صورة لمجون الخلفاء ، أثر الموالي والرقائق في المجتمع ، أنواع الملابس في القرن الثاني ، الأعياد ، حركة البناء والعمران وألوان الترف ، أثر بغداد في الحياة الاجتماعية ،

تطور حياة الخلفاء الاجتماعية ، فقدان التوازن الاجتماعي أيام
الأمين ، ظهور تيار مضاد للهو والمجون ، حركة المطوعة ، حركة الزهد .

الفصل الثالث : التأثير الثقافي ٧٨ - ١٠٦

سبب انتشار اللغة العربية في الأقطار المفتوحة ، الصراع بينها
وبين اللغات المحلية ، الأثر الفارسي في اللغة العربية ، ظهور
لغة عربية مولدة ، ارتباط اللغة المولدة بالعناصر الشعبية ،
أسباب قوة تيار اللغة الفصحى ، الموالى والثقافة العربية ،
الأثر الفارسي في الثقافة العربية عموماً ، الأثر اليوناني فيها ، الأثر
الديني المسيحي الهندي ، العرب والفنون ، ثقافة شعراء القرن الثاني .

الفصل الرابع : التأثير الاقتصادي : ١٠٧ - ١٢٠

أثر الحياة الاقتصادية في الأدب ، سذاجة الحياة الاقتصادية
عند المسلمين الأولين ، بدء تعقدها بسبب الفتوحات ،
فرض العطاء وأثره ، سياسة الأمويين الاقتصادية وأثرها ،
الضرائب الجديدة التي فرضوها ، أساس تحصيل الجزية في
الإسلام ، سياسة عمر بن عبد العزيز المالية وأثرها ، ازدهار
التجارة أيام العباسيين وأسبابه ، مظاهر الحياة الاقتصادية
في بغداد والبصرة والكوفة ، الرقابة على أسعار الضروريات
أيام المنصور ، الضرائب أيام العباسيين ، التقدم الصناعي ،
أسعار الضروريات وأهم السلع منذ أيام المنصور حتى
الرشيد ، انهيار الحياة الاقتصادية وأسبابه .

الباب الثاني : الاتجاهات الموضوعية :

مقدمة : ١٢٣ - ١٤٢

العبث والانتحال في شعر القرن الثاني ، طريقة دراسة شعر
هذا القرن : البيئات ، المدارس ، الاتجاهات ، ضعف
الحياة الأدبية في مصر والأندلس ، تركيز الحياة الأدبية في
العراق وأسبابه .

الفصل الأول : الاتجاهات العامة : ١٤٣ - ٢٠٢

التجديد في شعر القرن الأول ، أثر الوليد بن يزيد في حركة
التجديد في القرن الثاني ، بيئة الكوفة وأثرها في التجديد ،
الشعراء المولدون وأثرهم ، أسباب اختفاء القصائد المطولة ،
التجديد يتناول الشكل والمحتوى ، مظاهر التجديد ، الثورة
على الأطلال عامة وليست عند أبي واس وحده ، الصراع
بين القدماء والمحدثين ، الخروج على نهج القصيدة القديمة .
الخروج على عمود الشعر ، مناقشة الكتاب الذين ينكرون
التجديد في القرن الثاني ، تيار الشعر القديم ، تصنع المحدثين ،
الشعراء التقليديون ، اتجاه الشعر إلى التعبير عن الذات :
وصف مأساة العمى ، وصف مأساة الفقر ، مناجاة مظاهر
الطبيعة ، الاتجاه الواقعي : تصوير أحداث العصر وخاصة
في أثناء الفتنة بين الأميين والمؤمنين ، الاتجاه الشعبي
الاتجاه إلى التسلية والترفيه ، الاتجاه الإنساني : الإحساس
بالوطن ، الشعور بالأبوة والبنوة ، معاني التسامح والحلم ،
شعر الصداقة والصديق .

الفصل الثاني : الاتجاهات الجديدة : ٢٠٣ - ٣٦٧

المجون : معناه ، نشأته ، الشعراء الماجنون ، ابن خدام ٢٠٣ - ٢٢١
الأسدي ، التأثير الفارسي في المجون ، تأثير غلاة الشيعة ،
نزعة التنوير ، الصلة بين الزندقة والمجون - الكوفة مركز
المجون ، المجاهرة أول مظاهر المجون ، مجن أبي دلالة .
مجون الوليد بن يزيد ، عصبة المجان ، شيوع المجون ،
المجون والشعوبية ، الشعراء المجان من غير المشهورين ،
الشدوذ الجنسي والمجون .

الزندقة : الأصل اللغوي للكلمة ، آراء القدماء والمحدثين ٢٢٢ - ٢٨٠

الزندقة تشمل فرق الثنوية ، الفرق بين المجوسية والزندقة ، تطور
مفهوم الزندقة ، مبدأ ظهورها ، الزندقة والمجون ،

الشكوك في الدين مرحلة ضرورية ، أثر الشعوبية في الزندقة ،
 زندقة ابن المقفع والبرامكة ، ظهور الفرق الخارجة عن
 الإسلام ، خراسان مهد الزندقة ، الزندقة وحركات الغلاة
 من الشيعة ، أنواع الزندقة : دينية ، سياسية ، فكرية ،
 اجتماعية ، الشعراء الزنادقة وتحليل شعرهم : الوليد بن
 يزيد ، أبو دلامة ، مطيع بن إلياس ، حماد عجرد ،
 والبة الحباب ، يحيى بن زياد الحارثي ، أبان اللاحقي ،
 علي بن الحليل ، صالح بن عبد القدوس ، أبو نواس ،
 أبو العتاهية ، بشار ، سليمان بن الوليد ، آدم بن
 عبد العزيز ، شعراء آخرون .

الزهد : هل وجد الزهد في الشعر الجاهلي ؟ ، عدى بن زيد ٢٨٠ - ٣١٩

وشعر الزهد ، الزهد في القرن الأول وأسباب نشأته ،
 الطرماح وشعره الزهدي ، نشأة الزهد في القرن الثاني
 وخصائصه . العناصر الأجنبية في الزهد ، الزهاد الأولون ،
 الزهد والتصوف ، اللوافع على الزهد ، رابعة العدوية ،
 شعر أبي العتاهية في الزهد ، تحليل ودراسة التأثير
 الأجنبي في زهد أبي العتاهية ، فلسفة أبي العتاهية في
 زهده ، مدار شعر أبي العتاهية ، الجانب التعليمي فيه ،
 زهد أبي العتاهية والإسلام ، حقيقة زهد أبي العتاهية ،
 بقية شعراء الزهد في القرن الثاني : محمد بن أبي العتاهية ،
 الفضيل بن عياض ، بشر بن الحارث ، محمد بن كناسة ،
 محمود الوراق ، محمد بن يسير ، سعيد بن وهب ،
 العتابي ، عبد الله بن المبارك ، يحيى بن المبارك اليزيدي ،
 ابن الحبازة ، سلمة بن عياض ، بهلول المجنون ، ربحانة ،
 حوتة ، ميمونة ، زهد أبي نواس وطبيعته وعناصره .

الشعر المذهبي : معناه ، الفرق بينه وبين الشعر السياسي ، ٣٢٠ - ٣٥٤ مفهومه ، هل عرف الجاهليون الشعر المذهبي ؟ ، أثر المتكلمين في نشأة الشعر المذهبي ، طبيعة شعراء المذاهب ، مشكلة الجبر والاختيار في الشعر ، مذهب الخوارج في الشعر ، مذهب المرجئة وأثره ، ثابت قطنة وشعراء المرجئة ، مذهب المعتزلة في الشعر ، بشر بن المعتز ، صفوان الأنصاري ، تأثير المعتزلة في الأدب ، تأثير المتكلمين عموماً ، العطوى ، النظام ، مذهب الشيعة في الشعر ، فرقها والاختلاف بينها ، كثير ، السيد الحميري ، الكيسانية ، ابن دثار والهمري ، من شعراء الشيعة ، دعلج من الروافض ، فرق الغلاة وشعراؤها الكميت ومذهبه ، ابن هرمة وتشيعة ، النظرة السنية إلى الشعر المذهبي .

الشعر التعليمي : نشأته وسببها ، هل وجد بتأثير أجنبي ؟ ، ٣٥٤ - ٣٦٧ هل نشأ نشأة عربية خالصة ، متون رؤبة اللغوية والناحية التعليمية فيها ، مزدوجة الوليد بن يزيد ، النظم في الفلك ، الطب ، النحو ، التاريخ ، الفرائض ، الفلسفة ، الحيوان ، ، أبان اللاحق الشاعر التعليمي ، حمدان ابن أبان وتعليم الحب ، الشعر التعليمي المذهبي وشاعره السيد الحميري ، الشعر التعليمي الزهدي وشاعره أبو العتاهية ، القيمة الفنية للشعر التعليمي .

الفصل الثالث : الاتجاهات الجديدة : . . . ٣٦٨ - ٥٣٠

المدح والشعر السياسي : تطور المدح منذ العصر الجاهلي ، ٣٦٩ - ٤١٧ الفضائل المعنوية والحسية ، تطور شكل قصيدة المديح ، الغلو في المدح ، التوجه إلى مدح الله ، الصراع السياسي وأثره ، الدعوة العباسية في الشعر ، تحول شعر المديح

إلى شعر سياسي ، الحزب العباسي ، أسس دعوته ، شعراؤه ،
الحزب العلوي : أسباب ضعفه ، أسس دعوته ،
شعراؤه ، الحزب الأموي : هوان أمره وأسباب ذلك ،
شعراؤه ، حزب الموالي أو الشعوية : نشأته ، تطور
دعوته منذ العصر الأموي ، براجه ، الشعوية في الأندلس ،
الشعراء الشعوبيون : إسماعيل بن يسار ، الحريمي ،
أبو نواس ، بشار ، تأثير الشعوية في العلوم العربية
والشعر والقرآن والحديث ، صلة الشعوية بالمجون والزندقة .

الهجاء : تطوره منذ العصر الجاهلي ، الهجاء القبلي والسياسي ، ٤١٨ — ٤٣٦
اختفاء فن النقائض ، التجديد في شكل قصيدة الهجاء
وموضوعها ، الهجاء المذهبي والسياسي ، المعاني الجديدة
في الهجاء ، هجاء المدن ، الهجاء الكاريكاتيري .

الرثاء : الرثاء المذهبي والسياسي ، أثر الحضارة في الرثاء ، ٤٣٧ — ٤٤٦
الرثاء الساخر ، تنوع موضوعات الرثاء ، الرثاء الماخن ،
رثاء المدن ، الصلة بين الرثاء والحكمة .

الحكمة : الحكمة في الجاهلية ، اتساع آفاق الفكر في القرن ٤٤٧ — ٣٥٤
الثاني ، الفرق بين شعر الحكمة وشعر الزهد ، التخصيص
في شعر الحكمة ، أبو بكر العرزمي ، محمود الوراق ،
صالح بن عبد القدوس ، الحكمة في شعر أبي نواس
وبشار وأبي العتاهية ، تحول الحكمة إلى شعر فلسفي .

الوصف : تطور الوصف وأسبابه ، وصف مظاهر الحضارة ٤٥٤ — ٤٦٦
الجديدة ، القصور ، الجسور ، الحدائق ، بيوت
القيان ، الشطرنج ، النافورة ، السفن ، الحراقات ،
الكتب إلخ ، تطور وصف الطبيعة في القرن الثاني ،
الوصف الشامل ، الوصف الساخر ، الوصف الماخن .

الطرد : تطوره منذ الجاهلية ، التأثير الأجنبي في هواية ٤٦٧ — ٤٧٣

الطرد ووسائله ، شعراء الطرد : الشمر دل بن شريك ،
أبو نخيلة ، أبو نواس ، موضوع طرديات أبي نواس .

الخمريات : تطورها منذ الجاهلية ، موقف الإسلام من الخمر ٤٧٣ - ٤٩٩
وشعرها ، إباحة المجتمع في القرن الثاني ، الكوفة وأثرها ، خمريات
الوليد بن يزيد ، خمريات أبي الهندي ، إقبال الشعراء
على الخمريات ، حماد عجرد ، علي بن الخليل ،
إبراهيم الموصلي ، أبو الشيص ، شاعر الخمريات الأول هو
أبو نواس ، دراسة الخمريات ، القصص الخمرى ،
أدب الديارات .

التغزل : تطوره منذ الجاهلية ، الإمام سبب تطور فن التغزل ، ٥٠٠ - ٥٣٠
فن التغزل في القرن الثاني ، التغزل المعنوى ، التغزل الحسى
العابث أو الفاحش ، التغزل بالمذكر ، أصله ونشأته ومسبباته ،
شعرواه : أبو نواس ، يوسف بن الحجاج ، الخليل ،
الحاركي ، القصص الغزلى ، هل يوجد في القرن الثاني عشق إلهي ؟

الباب الثالث : الاتجاهات الشكلية :

مقدمة : أهمية الشكل في الشعر ، ارتباط الشكل بالمضمون ٥٣٣ - ٥٣٤

الفصل الأول : الأوزان ولغة الشعر : . . . ٥٣٥ - ٥٦٥

بحور الشعر القديمة وتنوعها الموسيقى ، أثر الغناء في أوزان
الشعر في القرن الثاني ، التجديد في الأوزان والخروج عليها
أحياناً ، تطور نظام القوافي ، الازدواج والتسميط والتخميس
والموشحات ، الموسيقى الداخلية ، الخروج على القافية الواحدة ،
تطور لغة الشعر في القرن الثاني في مادة اللغة وفي تركيب
الحمل وطرائق التعبير ، شعبية أسلوب بعض شعراء القرن
الثاني ، تحليل بعض الأشعار المكتوبة باللغة المولدة ،
أبو العتاهية وأسلوبه الشعبي .

الفصل الثاني : الصنعة الشعرية : ٥٦٦ - ٥٩١

نظرة القدماء إلى الصنعة ومفهومها عندهم ، الصنعة نوعان :
لفظية ومعنوية ، سبب تطور الصنعة في القرن الثاني ،
الصنعة عند بشار ، عند ابن هرمة ، عند العتابي ، الصنعة
نزعة عامة عند الشعراء في القرن الثاني ، الصنعة عند أبي
الشيخ ، إبراهيم الموصلي ، علي بن الجهم ، سعيد بن وهب ،
ابن أبي عيينة ، العباس بن الأحنف ، أبي نواس ،
أبي العتاهية ، مسلم بن الوليد ، تكلف مسلم بداية عصر
التصنيع في الشعر العربي .

خاتمة : تلخيص البحث وتسجيل أهم نتائجه ٥٩٢ - ٦٠٠

الفهارس ٦٠٣ - ٦٨١

فهرس المصادر ٦٠٣ - ٦١٨

فهرس بأسماء شعراء القرن الثاني ٦١٩ - ٦٤٣

فهرس الأعلام ٦٤٤ - ٦٦٢

فهرس الشعر ٦٦٣ - ٦٧٣

فهرس الموضوعات ٦٧٤ - ٦٨١

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف
سنة ١٩٦٣

اتجاهات الشعر العربي

في القرن الثاني الهجري

دراسة تحليلية وافية للشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، تناول المجتمع العربي من نواحيه الثقافية والسياسية والاقتصادية ، كما تعرض لعناصر التجديد في شعر هذا العصر وموضوعاته الجديدة ، في مجالات المحجون والزندقة والزهد ، وفي الناحية المذهبية والتعليمية .

ويبرز الكتاب أيضاً الاتجاهات العامة الجديدة للشعر العربي في ذلك القرن .

مكتبة الدراسات الأدبية

● صدر منها :

- | | |
|------------------------------------|---|
| ١٧ - النابغة الذبياني | ١ - مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية |
| ١٨ - ابن دقيق العيد | ٢ - شعراء الرابطة القلمية |
| ١٩ - الفن ومذاهبه في النثر العربي | ٣ - شوقي شاعر العصر الحديث |
| ٢٠ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي | ٤ - الأدب العربي المعاصر في مصر |
| ٢١ - الأمير شكيب أرسلان | ٥ - فارس بنى عبس |
| ٢٢ - في الأدب الأندلسي | ٦ - ألف ليلة وليلة |
| ٢٣ - شعر الحرب في أدب العرب | ٧ - خليل مطران شاعر الأقطار العربية |
| ٢٤ - الغفران | ٨ - الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي |
| ٢٥ - التفسير البياني للقرآن الكريم | ٩ - منهج الزمخشري في تفسير القرآن |
| ٢٦ - في النقد الأدبي | ١٠ - التطور والتجديد في الشعر الأموي |
| ٢٧ - النيل في الأدب المصري | ١١ - دراسات في الشعر العربي المعاصر |
| ٢٨ - الجاحظ | ١٢ - شوقي وشعره الإسلامي |
| ٢٩ - اتجاهات الشعر العربي | ١٣ - حافظ إبراهيم شاعر النيل |
| ٣٠ - الخطابة في عصرها الذهبي | ١٤ - أدب المهجر |
| ٣١ - ابن نباتة المصري | ١٥ - الأدب العربي المعاصر في سورية |
| ٣٢ - تطور الرواية العربية الحديثة | ١٦ - الأدب اليوناني القديم |

